تأليف

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

« ت ٧١٠ هـ »

حققه وخرج أحاديثه

يوسف علي بديوي

راجعه وقدم له

محيي الدين ديب مستو

الجزء الثاني

دار الكلم الطيب

بيروت

تفسیر النسفی
(مدارک التنزیل وحقائق التاویل)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ

١ ـ ﴿الٓر﴾ ونحوه ممال: حمزة، وعليّ، وأبو عمرو. وهو تعديد للحروف على طريق التحدّي ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى ما تضمّنته السورة من الآيات. و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ السورة ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو: المحكم عن الكذب، والاقتراف.

٢ ـ والهمزة في: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار التعجّب، والتعجيب منه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسم كان، و﴿عجباً﴾ خبره. واللام في ﴿للناس﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿عجباً﴾ فلمّا تقدّم صار حالاً ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ بأن أنذر. أو: هي مفسّرة، إذ الإيحاء فيه معنى القول ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ﴾ بأنّ لهم. ومعنى اللام في ﴿للناس﴾ أنّهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجّبون منه. والذي تعجّبوا منه أن يُوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم ـ فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ـ وأن يذكر لهم البعث، وينذر بالنيران، ويبشر بالجنان! وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلاّ بشراً مثلهم. وإرسال اليتيم أو الفقير ليس

قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بعجب أيضاً؛ لأنّ الله تعالى إنّما يختار للنبوّة من جمع أسبابها. والغنى والتقدّم في الدنيا ليس من أسبابها، والبعث للجزاء على الخير والشرّ هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنّما العجب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: سابقة، وفضلاً، ومنزلة رفيعة. ولمّا كان السعي والسبق بالقدم سمّيت المسعاة الجميلة، والسابقة: قدماً، كما سمّيت النعمة: يداً، لأنها تُعطى باليد، وباعاً؛ لأنّ صاحبها يبوع بها. فقيل: لفلان قدم في الخير. وإضافتها إلى ﴿صدق﴾ دلالة على زيادة فضل، وأنّه من السوابق العظيمة، أو مقام صدق، أو سبق السعادة ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ الكتاب ﴿لَسِحْرٌ﴾ مدنيّ، وبصريّ، وشاميّ. ومن قرأ ﴿لساحر﴾ فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ، وهو دليل عجزهم، واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً.

٣ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: استولى. فقد يقدّس الديّان عن المكان، والمعبود عن الحدود ﴿يُدَبِّرُ﴾ يقضي، ويقدّر على مقتضى الحكمة ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمر الخلق كلّه، وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش. ولمّا ذكر ما يدلّ على عظمته، وملكه من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة، وأنّه لايخرج أمر من الأمور عن قضائه، وتقديره. وكذلك قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ دليل على عزّته وكبريائه ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ العظيم الموصوف بما وصف به ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وهو الذي يستحقّ العبادة ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحّدوه، ولاتشركوا به بعض خلقه من إنسان، أو ملك، فضلاً عن جماد لا يضر، ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتدبّرون، فتستدلّون بوجود المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

٤ ـ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ حال، أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه، فاستعدّوا للقائه. والمرجع: الرجوع، أو مكان الرجوع ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد؛ لقوله: ﴿إليه مرجعكم﴾ ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكّد؛ لقوله: ﴿وعد الله﴾. ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ استئناف، معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلّفين على أعمالهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل. وهو متعلّق بيجزي، أي: ليجزيهم بقسطه، ويوفّيهم أجورهم. أو: بقسطهم، أي: بما أقسطوا، وعدلوا، ولم يظلموا حين آمنوا، إذ الشرك ظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، ولوجهٍ كلاميّ.

٥ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ الياء فيه منقلبة عن واو ضواء لكسرة ما قبلها. وقلبها قنبل همزة؛ لأنها للحركة أجمل ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياء أقوى من النور؛ فلذا جعله للشمس ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ وقدّر القمر، أي: وقدّر مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾. أو: ﴿وقدّره﴾ ذا ﴿منازل﴾، كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ أي: ﴿عدد السنين﴾ والشهور، فاكتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور ﴿وَالْحِسَابَ﴾ وحساب الآجال والمواقيت المقدّرة بالسنين والشهور ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو الحكمة البالغة، ولم يخلقه عبثاً ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ مكّي، وبصريّ، وحفص. وبالنون غيرهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فينتفعون بالتأمّل فيها.

٦ ـ ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في مجيء كلّ واحد منها خلف الآخر، أو:

وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

في اختلاف لونيهما ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الخلائق ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ خصّهم بالذكر؛ لأنّهم يحذرون الآخرة، فيدعوهم الحذر إلى النظر.

٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقّعونه أصلاً، ولا يخطرونه ببالهم؛ لغفلتهم عن التفطّن للحقائق. أو: لا يؤمّلون حسن لقائنا كما يؤمّله السعداء، أو: لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها، فبنوا شديداً، وأمّلوا بعيداً ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها. لا وقف عليه؛ لأنّ خبر إنّ:

٨ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فـ﴿أولئك﴾: مبتدأ و﴿مأواهم﴾: مبتدأ ثان، و﴿النار﴾: خبره، والجملة: خبر ﴿أولئك﴾ والباء في: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يتعلق بمحذوف دلّ عليه الكلام، وهو: جوزوا.

٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ يسدّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد، المؤدي إلى الثواب؛ ولذا جعل ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بياناً له وتفسيراً، إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها. أو: يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنّة. ومنه الحديث: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حَسَنة، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنّة. والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيّئة، فيقول له: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار»[1]. وهذا دليلٌ على أنّ الإيمان المجرد منج حيث قال: بإيمانهم، ولم يضمّ إليه العمل الصالح ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلّق بتجري، أو: حال من ﴿الأنهار﴾.

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١/٨٨).

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا

---

١٠ ـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: دعاؤهم؛ لأنّ ﴿اللّهم﴾ نداء لله. ومعناه: ﴿اللهم﴾ إنّا نسبّحك، أي: يدعون الله بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، تلذّذاً بذكره لا عبادة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام، أو: هي تحيّة الملائكة إيّاهم، وأضيف المصدر إلى المفعول أو: تحيّة الله لهم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين ﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة، وأصله: أنّه ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾. والضمير للشأن. قيل: أوّل كلامهم التسبيح، وآخره التحميد. فيبتدئون بتعظيم الله، وتنزيهه، ويختمون بالشكر، والثناء عليه، ويتكلّمون بينهما بما أرادوا.

١١ ـ ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أصله: ولو يعجّل الله للناس الشّر تعجيله لهم الخير، فوضع ﴿استعجالهم بالخير﴾ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم. والمراد: أهل مكّة، وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]. أي: ولو عجلنا لهم الشّر الذي دعوا به كما نعجّل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأميتوا، وأهلكوا. ﴿لَقَضى إليهم أجلَهم﴾: شاميّ، على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجل ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ شركهم، وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتردّدون. ووجه اتّصاله بما قبله: أنّ قوله: ﴿ولو يعجّل الله﴾ متضمّن معنىٰ نفي التعجيل، كأنّه قيل: ولا نعجّل لهم الشرّ، ولا نقضي إليهم أجلهم، فنذرهم في طغيانهم، أي: فنمهلهم، ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجّة عليهم.

١٢ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أصابه. والمراد: به الكافر ﴿ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ أي: دعا الله لإزالته ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع الحال، بدليل عطف الحالين، أي: ﴿أَوْ قَاعِدًا

أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿أَوْ قَآئِمًا﴾. عليه، أي: دعانا مضطجعاً. وفائدة ذكر هذه الأحوال أنّ معناه: أنّ المضرور لا يزال داعياً، لا يفتر عن الدعاء حتّى يزول عنه الضرّ، فهو يدعونا في حالاته كلها، سواء كان مضطجعاً عاجزاً عن النهوض، أو قاعداً لا يقدر على القيام، أو قائماً لا يطيق المشي ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ أزلنا ما به. ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضرّ، ونسي حال الجهد. أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرّع، لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به. والأصل: (كأنّه لم يدعنا) فخفّف، وحذف ضمير الشأن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ للمجاوزين الحدّ في الكفر. زيّن الشيطان بوسوسته ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الذكر، واتّباع الكفر.

١٣ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا. وهو ظرف لـ ﴿أهلكنا﴾ والواو في: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ للحال، أي: ظلموا بالتكذيب، وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ إن بقوا ولم يهلكوا؛ لأنّ الله علم منهم أنّهم يصرّون على كفرهم. وهو عطف على ﴿ظلموا﴾. أو: اعتراض. واللام لتأكيد النفي، يعني: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل، وعلم الله: أنّه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء، يعني: الإهلاك ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. وهو وعيدٌ لأهل مكّة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ.

١٤ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد ﷺ، أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لننظر أتعملون خيراً أو شرّاً، فنعاملكم على حسب عملكم. ﴿وكيف﴾ في محلّ النصب بتعملون لا بننظر؛ لأنّ معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله. والمعنى: أنتم بمنظر منّا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ

بماضيكم، أم الاغترار بما فيكم؟ قال ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[(١)].

١٥ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ حال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لمّا غاظهم ما في القرآن من ذمّ عبادة الأوثان، والوعيد لأهل الطغيان: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه ما يغيظنا من ذلك، نتبّعك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة، وذمّ عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنّه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضعَ مكان آية عذاب آية رحمة، وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما يحلّ لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا أتبع إلا وحي الله من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تبديل؛ لأنّ الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدّله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بالتبديل من عند نفسي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة. وأمّا الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان، وقد ظهر لهم العجز عنه. إلا أنّهم كانوا لا يعترفون بالعجز، ويقولون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] ولا يحتمل أن يريدوا بقوله: ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾ من جهة الوحي؛ لقوله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾. وغرضهم في هذا الاقتراح الكيد. أمّا اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنّه من عندك، وأنّك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر. وأمّا اقتراح التبديل فلاختبار الحال، وأنّه وجد منه تبديل، فإمّا أن يهلكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، فيجعلوا التبديل حجّة عليه، وتصحيحاً لافترائه على الله.

١٦ ـ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أنّ تلاوته ليست إلا بمشيئة

(١) رواه أحمد (٣ / ١٩) ومسلم (٢٧٤٢) والترمذي (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٠).

وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾

الله، وإظهاره أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أميّ لم يتعلّم، ولم يشاهد العلماء، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً، يغلب كلّ كلام فصيح، ويعلو على كلّ منثور ومنظوم، مشحوناً بعلوم الأصول، والفروع، والإخبار عن الغيوب؛ التي لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ من قبل نزول القرآن، أي: فقد أقمت بينكم أربعين سنة، ولم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه، ولا قدرت عليه، ولا كنت موصوفاً بعلم وبيان، فتتّهموني باختراعه ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فتعلموا: أنه ليس إلا من عند الله لا من مثلي. وهذا جواب عمّا دسّوه تحت قولهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: ١٥] من إضافة الافتراء إليه.

١٧ ـ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتمل أن يريدَ افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك، وذو ولد، وأن يكون تفادياً ممّا أضافوه إليه من الافتراء ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالقرآن. فيه بيان أنّ الكاذب على الله والمكذّب بآياته في الكفر سواء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ إن تركوا عبادتها ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ إن عبدوها. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدنيا ومعيشتها؛ لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] أو: يوم القيامة إن يكن بعث ونشور ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله. وإذا لم يكن معلوماً له، وهو العالم بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً. وقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تأكيد لنفيه؛ لأنّ مالم يوجد فيهما فهو معدوم ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ نزّه ذاته عن أن يكون له

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ

شريك، وبالتاء حمزة وعليّ، و﴿ما﴾ موصولة، أو مصدريّة، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

١٩ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حنفاء متّفقين على ملّة واحدة، من غير أن يختلفوا بينهم. وذلك في عهد آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن قتل قابيل هابيل. أو: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديّاراً ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ فصاروا مللاً ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيما اختلفوا فيه، ولميّز المحقّ من المبطل. وسبق كلمته لحكمة، وهي: أنّ هذه الدار دار تكليف، وتلك الدار دار ثواب وعقاب.

٢٠ ـ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: آية من الآيات التي اقترحوها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب، فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

٢١ ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ أهل مكّة ﴿رَحْمَةً﴾ خصباً، وسعة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ يعني: القحط، والجوع ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: مكروا بآياتنا بدفعها، وإنكارها. رُوي أنّه تعالى سلّط القحط سبع سنين على أهل مكّة حتّى كادوا يهلكون، ثمّ رحمهم بالحيا[1]، فلمّا رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله، ويعادون رسول الله ﷺ، ويكيدونه. فـ﴿إذا﴾ الأولى للشرط، والثانية جوابها، وهي للمفاجأة. وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] أي: وإن تصبهم سيئة قنطوا، وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا.

(١) «الحيا»: المطر.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾

والمكر: إخفاء الكيد، وطيّه، من: الجارية المكورة المطويّة الخلق. ومعنى ﴿مسّتهم﴾ خالطتهم حتّى أحسّوا بسوء أثرها فيهم. وإنما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ولم يصفهم بسرعة المكر؛ لأنّ كلمة المفاجأة دلّت على ذلك، كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضرّاء فاجؤوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مسّ الضرّاء ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعني: الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إعلام بأنّ ما تظنّونه خافياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم. وبالياء: سهل.

٢٢ - ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالأرجل، والدوابّ، والفلك الجارية في البحار، أو يخلق فيكم السير. (يَنشُرُكم): شاميّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: السفن ﴿بِهِم﴾ بمن فيها. رجوع من الخطاب إلى الغيبة، للمبالغة ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ ليّنة الهبوب، لا عاصفة، ولا ضعيفة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بتلك الريح لِلينها، واستقامتها ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي: الفلك، أو الريح الطّيبة، أي: تلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ ذات عصف، أي: شديدة الهبوب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ هو ما علا على الماء ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من البحر، أو: من جميع أمكنة الموج ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أهلكوا. جعل إحاطة العدوّ مثلاً في الإهلاك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ معه غيره. يقولون: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال، أو: من هذه الريح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمتك، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك. ولم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتّى بما في حيّزها. كأنه قيل: يسيّركم حتّى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج والظنّ بالهلاك، والدعاء بالإنجاء. وجواب إذا ﴿جاءتها﴾ و﴿دعوا﴾ بدل من

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ﴾

﴿ظنوا﴾ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنّهم للهلاك، فهو ملتبس به.

٢٣ ـ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يفسدون فيها ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ باطلاً، أي: مبطلين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: ظلمكم يرجع إليكم، كقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: حفص. أي: يتمتعون ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. و﴿على أنفسكم﴾ خبر لـ﴿بغيكم﴾. غيره بالرفع على أنّه خبر ﴿بغيكم﴾ و﴿على أنفسكم﴾ صلته، كقوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [القصص: ٧٦]. ومعناه: إنّما بغيكم على أمثالكم. أو: هو خبر، و﴿متاع﴾ خبر بعد خبر. أو ﴿متاع﴾ خبر مبتدأ مضمر، أي: هو ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. وفي الحديث: «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي، واليمين الفاجرة»[1]. وروي: «ثنتان يعجلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين»[2]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو بغى جبلٌ على جبل لدكّ الباغي. وعن محمد بن كعب: ثلاث من كُنّ فيه كُنَّ عليه: البغي، والنكث، والمكر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣] [﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]][3] ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فنخبركم به، ونجازيكم عليه.

٢٤ ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: الحبوب، والثمار، والبقول ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ يعني: الحشيش ﴿حَتَّىٰٓ﴾

---

(١) قال الحافظ: أخرجه إسحاق في مسنده. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٣٩).

(٢) قال الحافظ: أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٤٠).

(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ زينتها بالنبات، واختلاف ألوانه ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ تزينت به، وهو أصله، وأدغمت التاء في الزاي. وهو كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كلّ لون، فاكتستها، وتزينّت بغيرها من ألوان الزين ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ أهل الأرض ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ متمكّنون من منفعتها، محصّلون لثمرتها، رافعون لغلّتها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ عذابنا، وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم، واستيقانهم أنّه قد سلم ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ فجعلنا زرعها ﴿حَصِيدٗا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه، واستئصاله ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾ كأن لم يغن[1] زرعها، أي: لم يلبث. حَذْف المضاف في هذه المواضع لابدّ منه ليستقيم المعنى ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ هو مثل في الوقت القريب، كأنّه قيل: كأن لم تغن آنفاً ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فينتفعون بضرب الأمثال. وهذا من التشبيه المركّب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضّيها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً بعدما التفّ، وتكاثف، وزيّن الأرض بخضرته، ورفيفه[2]. وحكمة التشبيه: التنبيه على أنّ الحياة صفوها شبيبتها، وكدرها: شيبتها، كما أنّ صفو الماء في أعلى الإناء. قال:

ألم تر أنّ العمر كأس سلافة ... فــأوّلــه صفــو وآخــره كَــدْر

وحقيقته: تزيين جثّة الطين بمصالح الدنيا والدين، كاختلاط النبات على اختلاف التلوين. فالطينة الطّيبة تنبت بساتين الأنس، ورياحين الروح، وزهرة الزهد، وكروم الكرم، وحبوب الحب، وحدائق الحقيقة، وشقائق الطريقة.

---

(١) «غني بالمكان»: أقام، وعاش.
(٢) «رفيفه»: أي: تلألؤه. وشجر رفيف: إذا تندّت أوراقه.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾

والخبيثة تخرج خلاف الخلف، وثمام[1] الإثم، وشوك الشرك، وشيح[2] الشح، وحطب العطب، ولعاع[3] اللعب. ثم يدعوه معاده، كما يحين للحرث حصاده، فتزايله الحياة مغترّاً، كما يهيج النبات مصفرّاً، فتغيب جثّته في الرمس، كأن لم تغن بالأمس، إلى أن يعود ربيعُ البعث، وموعد العرض والبحث. وكذلك مال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره، ولا بدّ من ترك ما زاد، كما لا بدّ من أخذ الزاد. وآخذ المال لا يصفو من زلّة، كما أنّ خائض الماء لا ينجو من بلّة، وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه. فما دون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء، والنصاب كنهر حائل بين المجتاز، والجواز إلى المفاز، لا يمكن إلا بقنطرة، وهي الزكاة، وعمارتها بذل الصلات، فمتى اختلّت القنطرة، غرّقته أمواج القناطير المقنطرة. وعن هذا قال ﷺ: «الزكاة قنطرة الإسلام»[4]، وكذا المال يساعد الأوغاد، دون الأمجاد. كما أنّ الماء يجتمع في الوهاد، دون النجاد، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكدّ البخيل، كما أنّ الماء لا يجتمع إلا بسدّ المسيل، ثمّ يفنى ويتلف، ولا يبقى كالماء في الكفّ.

٢٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي الجنّة، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها. أو: السلام: السلامة؛ لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشو السلام بينهم، وتسليم الملائكة عليهم: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ ويوفّق من يشاء ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ إلى الإسلام، أو طريق السنّة. فالدعوة عامّة على لسان رسول الله بالدلالة، والهداية، خاصّة من لطف المرسل بالتوفيق، والعناية. والمعنى: يدعو العباد كلّهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديّون.

---

(١) «ثمام»: هو عشب ضعيف، له خوص أو شبيه بالخوص.

(٢) «شيح»: نبات عشبي ترعاه الماشية.

(٣) «لُعاع»: الهِندبا.

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط. (مجمع الزوائد ٣ / ٦٢).

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ﴾

٢٦ ـ ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ آمنوا بالله، ورسله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى، وهي: الجنّة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ رؤية الربّ عزّ وجلّ. كذا عن أبي بكر، وحذيفة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنهم ـ. وفي بعض التفاسير: أجمع المفسّرون على أنّ الزيادة: النظر إلى الله تعالى. وعن صهيب: أنّ النبي ﷺ قال: «إذ دخل أهلُ الجنةِ الجنَّةَ يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب، فينظرون إلى الله تعالى، فما أُعطُوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربّهم»[1]. ثمّ تلا: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. والعجب من صاحب الكشّاف أنّه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة، وقال: إنه حديث مدفوع[2]، مع أنّه مرفوع. قد أورده صاحب «المصابيح» في الصحاح. وقيل: الزيادة: : المحبّة في قلوب العباد. وقيل: الزيادة: مغفرة من الله ورضوان. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثر هوان. والمعنى: ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢٧ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ عطف على ﴿للذين أحسنوا﴾ أي: وللذين كسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ فنون الشرك. ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ الباء زائدة، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أو التقدير: جزاء سيئة مقدّر بمثلها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ذلّ، وهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يعصمهم أحدٌ من سخطه، وعقابه ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: جُعِل عليها غطاء من سواد الليل، أي: هم سود الوجوه. وقطعاً: جمع قطعة، وهو

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٣٣٣) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٢) وابن ماجه (١٨٧).
(٢) في الكشاف (٢ / ٣٤٢): مرقوع. وكذا في حاشية الأصل. أي: مفترى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾

مفعول ثان لأغشيت. ﴿قِطْعاً﴾: مكيّ، وعليّ، من قوله: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ٨١] وعلى هذه القراءة: مظلماً صفة لقطع. وعلى الأول حال من ﴿الليل﴾. والعامل فيه ﴿أغشيت﴾ لأن ﴿من الليل﴾ صفة لـ﴿قطعاً﴾، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة. أو: معنى الفعل في ﴿من الليل﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي: الكفار وغيرهم. ﴿جَمِيعٗا﴾ حال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾ أي: الزموا مكانكم، لا تبرحوا حتّى تنظروا ما يفعل بكم ﴿أَنتُمۡ﴾ أكد به الضمير في ﴿مكانكم﴾ لسدّه مسدّ قوله: الزموا ﴿وَشُرَكَآؤُكُمۡ﴾ عطف عليه ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ ففرّقنا ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ وقطّعنا أقرانهم، والوصل التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ مَن عبدوه مِن دون الله من أولي العقل، أو: الأصنام ينطقها الله عز وجل ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ إنّما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتّخذوا لله أنداداً، فأطعتموهم، وهو قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١].

٢٩ ـ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: كفى الله ﴿شهيداً﴾، وهو تمييز ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ «إنْ» مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينها وبين النافية.

٣٠ ـ ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان، أو: في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ تختبر، وتذوق ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾ من العمل، فتعرف كيف هو: أقبيح أم حسن؟ أنافع أم ضار؟ أمقبول أم مردود؟ وقال الزجاج: تعلم كلّ نفس ما قدمت. ﴿تتلو﴾: حمزة، وعليّ، أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنّة أو النار، أو: تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شرّ. كذا عن الأخفش ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ ربّهم الصادق

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

في ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولّون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو: الذي يتولىّ حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدّعون أنهم شركاء لله، أو: بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب، وشفاعة الآلهة.

٣١ ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سوّيا عليه من الفطرة العجيبة؟ أو من يحميها من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء؟ ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: الحيوان، والفرخ، والزرع، والمؤمن، والعالم، من النطفة، والبيضة، والحبّ، والكافر، والجاهل، وعكسها ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كلّه جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فسيجيبونك عند سؤالك: أنّ القادر على هذه هو: ﴿الله﴾ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشرك في العبودية، إذ اعترفتم بالربوبيّة.

٣٢ ـ ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من هذه قدرته هو ﴿الله﴾ ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيّته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقّق النظر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي: لا واسطة بين الحقّ والضلال، فمن تخطّى الحقّ وقع في الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن الحقّ إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك.

٣٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الحقّ ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ﴿كلماتُ﴾: شاميّ ومدنيّ، أي: كما حقّ وثبت: أنّ الحقّ بعده الضلال، أو: كما حقّ: أنّهم مصروفون عن الحق، فكذلك ﴿حقّت كلمة ربّك﴾. ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمرّدوا في كفرهم، وخرجوا إلى الحدّ الأقصى فيه. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أي: حقّ عليهم انتفاء الإيمان، أو: حقّ عليهم كلمة الله: أنّ إيمانهم غير

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ

كائن، أو: أراد بالكلمة العدَة بالعذاب، و﴿أنهم لايؤمنون﴾ تعليل، أي: لأنّهم لا يؤمنون.

٣٤ ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إنّما ذكر ﴿ثمّ يعيده﴾ وهم غير مقرّين بالإعادة؛ لأنّه لظهور برهانها جعل أمراً مسلماً. على أنّ فيهم من يقرّ بالإعادة. أو: يحتمل إعادة غير البشر كإعادة الليل والنهار، وإعادة الإنزال والنبات ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمر نبيّه بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني: أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحقّ، فكلّم عنهم ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن قصد السبيل؟

٣٥ ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يرشد إليه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يقال: هداه للحقّ وإلى الحقّ، فجمع بين اللغتين. ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى. كما يقال: «شرى» بمعنى «اشترى»، ومنه قراءة حمزة، وعليٍّ: ﴿أمن لايهدي﴾ بمعنى: يهتدي. ﴿لا يَهَدّي﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال: مكّيّ، وشاميّ، وورش. وبإشمام الهاء فتحة: أبو عمرو. وبكسر الهاء وفتح الياء: عاصم غير يحيىٰ. والأصل ﴿يهتدي﴾ وهي قراءة عبد الله، فأدغمت التاء في الدال، وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت لالتقاء الساكنين. وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال: يحيى، لإتباع ما بعدها. وبسكون الهاء وتشديد الدال: مدنيّ، غير ورش. والمعنى: أنّ الله وحده هو الذي يهدي للحقّ بما ركب في المكلّفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلّة التي نصبها لهم، وبما وفّقهم، وألهمهم ووقفهم على الشرائع بإرسال الرسل، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد يهدي إلى الحقّ مثل هداية الله؟ ثمّ قال: أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ بالاتّباع، أم لا يهدي أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهتدي غيره إلا أن يهديه الله؟ وقيل: معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدي إلا

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٣٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٣٨﴾

أن ينقل. أو: لا يهتدي، ولا يصحّ منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً ناطقاً فيهديه ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل، حيث تزعمون أنّهم أنداد الله.

٣٦ ـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في قولهم للأصنام: إنها آلهة، وإنها شفعاء عند الله. والمراد بالأكثر: الجميع ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ بغير دليل. وهو اقتداؤهم بأسلافهم ظناً منهم أنّهم مصيبون ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو العلم ﴿شَيْئًا﴾ في موضع المصدر، اي: إغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتّباع الظنّ، وترك الحقّ.

٣٧ ـ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: افتراء من دون الله. والمعنى: وما صحّ، وما استقام أن يكون مثله في علوّ أمره، وإعجازه مفترى ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو ما تقدّمه من الكتب المنزلة ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتبيين ما كتب، وما فرض من الأحكام والشرائع، من قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ داخل في حيز الاستدراك، كأنّه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب، كائناً من ربّ العالمين. ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقاً من رب العالمين، وتفصيلاً منه، لا ريب في ذلك. فيكون ﴿من ربّ العالمين﴾ متعلّقاً بتصديق، وتفصيل. ويكون ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شكّ فيه كريم.

٣٨ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل: أيقولون اختلقه؟ ﴿قُلْ﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: شبيهة به في البلاغة، وحسن النظم، فأنتم مثلي في العربيّة ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ﴿وادعوا﴾ من دون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنّه افتراه.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى﴾

٣٩ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه، ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبّروه، ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عمّا يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم. ومعنى التوقّع في ﴿ولمّا يأتهم تأويله﴾ أنهم كذّبوا به على البديهة قبل التدبّر، ومعرفة التأويل، تقليداً للآباء، وكذّبوه بعد التدبّر تمرّداً وعناداً، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به. وجاء بكلمة التوقّع ليؤذن: أنّهم علموا بعدُ علوَّ شأنه وإعجازَه، لمّا كرّر عليهم التحدّي، وجرّبوا قواهم في المعارضة، وعرفوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التكذيب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم الماضية كذّبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم، وقبل تدبّرها عناداً، وتقليداً للآباء. ويجوز أن يكون معنى ﴿ولمّا يأتهم تأويله﴾ ولم يأتهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته حتّى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعني: أنّه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه، وبلوغه حدّ الإعجاز، وقبل أن يجرّبوا إخباره بالمغيّبات، وصدقه وكذبه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤٠ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بالنبيّ، أو: بالقرآن، أي: يصدّق به في نفسه، ويعلم أنّه حقّ، ولكن يعاند بالتكذيب ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ لا يصدّق به، ويشكّ فيه. أو: يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيصرّ. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين، أو: المصرّين.

٤١ ـ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن تمّوا على تكذيبك، ويئست من إجابتهم ﴿فَقُل لِّى

عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ

﴿عَمَلِي﴾ جزاء عملي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ جزاء أعمالكم ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فكلّ مؤاخذ بعمله.

٤٢ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، وعلّمت الشرائع، ولكنهم لا يعون، ولا يقبلون، فهم كالصمّ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أتطمع أنّك تقدر على إسماع الصمّ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؟ لأنَّ الأصمَّ العاقل ربمّا تفرّس، واستدلَّ إذا وقع في صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع، فقد تمّ الأمر.

٤٣ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس ينظرون إليك، ويعاينون أدلّة الصدق، وأعلام النبوة، ولكنهم لا يصدّقون ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أتحسب أنّك تقدر على هداية العمي، ولو انضمّ إلى فقد البصر فقد البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس، وأمّا العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعني: أنّهم في اليأس من أن يقبلوا، ويصدّقوا؛ كالصمّ والعمي؛ الذين لا عقول لهم، ولا بصائر.

٤٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿ولكنِ الناسُ﴾: حمزة، وعليّ، أي: لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال، ولكنّهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال، حيث عبدوا جماداً، وهم أحياء.

٤٥ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وبالياء: حفص[1] ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

(١) في الأصل: «نحشرهم» وهي قراءة ابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي جعفر، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٣/٧٧).

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

استقصروا مدة لبثهم في الدنيا، أو: في قبورهم لهول ما يرون. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنّهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور، ثمّ ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم. ﴿كأن لم يلبثوا﴾: حال من ﴿هم﴾ أي: ﴿نحشرهم﴾ مشبّهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة. و﴿كأن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: كأنّهم. و﴿يتعارفون بينهم﴾: حال بعد حال، أو مستأنف على تقديرهم: ﴿يتعارفون بينهم﴾: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول، أي: ﴿يتعارفون بينهم﴾ قائلين ذلك، أو: هي شهادة من الله على خسرانهم. والمعنى: أنهم وَضعُوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ للتجارة عارفين بها. وهواستئناف فيه معنى التعجّب، كأنه قيل: ما أخسرهم!

٤٦ ـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب ﴿نتوفينّك﴾. وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف، أي: ﴿وإما نرينّك بعض الذي نعدهم﴾ في الدنيا فذاك ﴿أو نتوفينّك﴾ قبل أن نريكه، فنحن نريكه في الاخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكرت الشهادة، والمراد مقتضاها، وهو العقاب، كأنه قيل: ثمّ الله معاقب على ما يفعلون. وقيل: ﴿ثمّ﴾ هنا بمعنى الواو.

٤٧ ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ يبعث إليهم لينبّههم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات، فكذّبوه، ولم يتّبعوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين النبيّ ومكذبيه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأنْجِيَ الرسول وعذِّبَ المكذبون. أو: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم يوم القيامة ﴿رسول﴾ تنسب إليه، وتدعى به ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضي بينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يعذب أحد بغير ذنبه.

٤٨ ـ ولمّا قال: ﴿وإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم﴾ أي: من العذاب،

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ

استعجلوا لما وعدوا من العذاب، فنزل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ العذاب نازل. وهو خطاب منهم للنبيّ والمؤمنين.

٤٩ ـ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ من مرض، أو فقر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من صحّة، أو غنى ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لكل أمّةٍ وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح، فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدّمون ساعة، ولا يتأخرون، فلا تستعجلوا.

٥٠ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلونه ﴿بَيَٰتًا﴾ نصب على الظرف، أي: وقت بيات، وهو الليل، وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مشتغلون بطلب المعاش، والكسب ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: من العذاب. والمعنى: أنّ العذاب كلّه مكروه، موجب للنفور، فأي شيء تستعجلون منه، وليس شيء منه يوجب الاستعجال؟ والاستفهام في ﴿ماذا﴾ يتعلق بأرأيتم؛ لأن المعنى: أخبروني ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾؟ وجواب الشرط محذوف، وهو: تندموا على الاستعجال، أو: تعرفوا الخطأ فيه. ولم يقل: ماذا يستعجلون منه؛ لأنه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال، وهو الإجرام. أو: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ جواب الشرط، نحو: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثمّ تتعلق الجملة بأرأيتم. أو:

٥١ ـ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ جواب الشرط. و﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ اعتراض. والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. ودخول حرف الاستفهام على ﴿ثمّ﴾ كدخوله على

ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ

الواو والفاء في ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٧] ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨] ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب ﴿آلآن﴾ آمنتم به ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: بالعذاب تكذيباً واستهزاء. ﴿آلان﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام، وإلقاء حركتها على اللام: نافع.

٥٢ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطف على قيل المضمر قبل ﴿آلآن﴾ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك، والتكذيب.

٥٣ ـ ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك فيقولون: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار، والاستهزاء. والضمير للعذاب الموعود ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾ نعم والله ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إنّ العذاب كائن لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب، وهو لاحق بكم لا محالة.

٥٤ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ كفرت، وأشركت. وهو صفة لنفس، أي: ولو أنّ لكلّ نفس ظالمة ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما في الدنيا اليوم من خزائنها، وأموالها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها. يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضاً بمعنى: فداه ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وأظهروها. من قولهم: أسرّ الشيء: إذا أظهره. أو: أخفوها عجزاً عن النطق لشدّة الأمر. فأسرّ من الأضداد ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بين الظالمين والمظلومين. دلّ على ذلك ذكر الظلم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٥٥ ـ ثمّ أتبع ذلك الإعلام بأنّ له الملك كلّه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكيف يقبل الفداء، وأنّه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب أو

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾

العقاب فهو حقّ لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥٦ ـ ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى حسابه وجزائه المرجع، فيخاف، ويرجى.

٥٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة، وتنبيه على التوحيد. والموعظة: التي تدعو إلى كلّ مرغوب، وتزجر عن كلّ مرهوب، فما في القرآن من الأوامر والنواهي داعٍ إلى كلّ مرغوب، وزاجر عن كلّ مرهوب، إذ الأمر يقتضي حسن المأمور به، فيكون مرغوباً، وهو يقتضي النهي عن ضدّه، وهو قبيح، وعلى هذا في النهي ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: صدوركم من العقائد الفاسدة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن آمن به منكم.

٥٨ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أصل الكلام: ﴿بفضل الله وبرحمته﴾ فليفرحوا بذلك ﴿فليفرحوا﴾. والتكرير للتأكيد، والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنّه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصّوهما بالفرح، أو: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا، فبذلك فليفرحوا، وهما كتاب الله والإسلام. في الحديث: «من هداه الله للإسلام، وعلّمه القرآن، ثمّ شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه»[(١)] وقرأ الآية ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وبالتاء: شاميّ ﴿فلتفرحوا﴾ يعقوب.

٥٩ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ منصوب

---

(١) رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه. (الدر المنثور ٤ / ٣٦٨).

فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ

بأنزل، أو بـ﴿أرأيتم﴾، أي: أخبرونيه ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ فبعّضتموه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام، كقوله: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]. نعم الأرزاق تخرج من الأرض. ولكن لمّا نيطت أسبابها بالسماء ـ نحو المطر الذي به تنبت الأرض النبات، والشمس التي بها النضج، وينع الثمار ـ أضيف إنزالها إلى السماء ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ متعلّق بأرأيتم. و﴿قل﴾ تكرير للتوكيد. والمعنى: أخبروني ﴿آلله أذن لكم﴾ في التحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه. أو: الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريراً للافتراء. والآية زاجرة عن التجوّز فيما يسأل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وألا يقول أحد في شيء: جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، وإلا فهو مفترٍ على الديّان.

٦٠ ـ ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ينسبون ذلك إليه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ منصوب بالظنّ، وهو ظنّ واقع فيه، أي: أي شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم؟ وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة. وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالوحي، وتعليم الحلال والحرام ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، ولا يتّبعون ما هدوا إليه.

٦١ ـ ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ ﴿ما﴾ نافية. والخطاب للنبيّ ﷺ. والشأن: الأمر ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ من التنزيل، كأنّه قيل ﴿وَمَا تَتْلُوا۟﴾ من التنزيل ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ لأنّ كلّ جزء منه قرآن. والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو: من الله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعاً ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أيّ عمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون. من: أفاض في الأمر: إذا

وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

اندفع فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ وما يبعد، وما يغيب. وبكسر الزاي: عليّ؛ حيث كان ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزن نملة صغيرة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ رفعهما حمزة على الابتداء. والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. يعني: اللوح المحفوظ. ونصبهما غيره على نفي الجنس. وقدّمت الأرض على السماء هنا، وفي سبأ قدّمت السموات، لأنّ العطف بالواو. وحكمه حكم التثنية.

٦٢ ـ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ هم الذين يتولّونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة. أو: هم الذين تولّى الله هداهم بالبرهان، الذي آتاهم، فتولّوا القيام بحقّه والرحمة لخلقه. أو: هم المتحابّون في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. أو: هم المؤمنون المتّقون؛ بدليل الآية الثانية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف الناس ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن الناس.

٦٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منصوب بإضمار، أعني: أو لأنّه صفة لأولياء. أو مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ﴿الذين آمنوا﴾ ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، والمعاصي.

٦٤ ـ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما بشر الله به المؤمنين المتّقين في غير موضع من كتابه. وعن النبيّ ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوّة وبقيت المبشّرات»[٢]. و«الرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة»[٣]. وهذا لأنّ مدّة الوحي ثلاث وعشرون سنة. وكان في ستّة أشهر منها يؤمر في النوم بالإنذار. وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً. أو: هي محبّة

(١) رواه الترمذي (٢٢٧٥) وابن ماجه (٣٨٩٨).
(٢) رواه أحمد (٦ / ٣٨١) وابن ماجه (٣٨٩٦).
(٣) رواه أحمد (٤ / ١٢و١٣) والترمذي (٢٢٧٨).

وَفِي ٱلْآخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

الناس له، والذكر الحسن. أو: لهم البشرى عند النزع بأن يرى مكانه في الجنّة ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ هي الجنّة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله، ولا إخلاف لمواعيده ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشّرين في الدارين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وكلتا الجملتين اعتراض. ولا يجب أن يقعَ بعد الاعتراض كلام، تقول: فلان ينطق بالحقّ، والحقّ أبلج. وتسكت.

٦٥ ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تكذيبهم، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك، وإبطال أمرك ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: مالي لا أحزن؟ فقيل: إنّ العزة ﴿لِلَّهِ﴾. إن الغلبة والقهر في ملَكَة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منهما، لا هم، ولا غيرهم، فهو يغلبهم، وينصرك عليهم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] أو: به يتعزّز كلّ عزيز فهو يعزّك ودينك وأهلك. والوقف لازم على ﴿قولهم﴾، لئلا يصير ﴿إنّ العزة﴾ مقول الكفّار ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يدبّرون، ويعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

٦٦ ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء، وهم: الملائكة والثقلان. وخصّهم ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له، وفي مملكته، ولا يصح أحد منهم للربوبيّة، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحقّ ألا يكون له نداً وشريكاً ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ ﴿ما﴾ نافية، أي: وما يتّبعون حقيقة الشركاء، وإن كانوا يسمّونها شركاء، لأنّ شركة الله في الربوبيّة محال ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا ظنّهم أنهم شركاء الله ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يحزِرون، ويقدّرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً. أو: استفهامية، أي: وأيّ شيء يتّبعون؟ و﴿شركاء﴾ على هذا نصب بيدعون، وعلى الأوّل بيتّبع. وكان حقّه: وما يتّبع الذين يدعون من دون الله

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

شركاء شركاء، فاقتصر على أحدهما للدلالة. والمحذوف مفعول ﴿يدعون﴾. أو: موصولة معطوفة على ﴿من﴾ كأنه قيل: ولله مايتّبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم. ثمّ نبّه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله:

٦٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب التردّد في النهار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ مضيئاً لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم، ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾ سماع مذكّر معتبر.

٦٨ ـ ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ ٱلۡغَنِىُّ﴾ علّة لنفي الولد، لأنّه إنما يطلب الولد ضعيف ليتقوّى به، أو فقير ليستعين به، أو ذليل ليتشرّف به. والكلّ أمارة الحاجة. فمن كان غنياً غير محتاج كان الولد عنه منفيّاً، ولأنّ الولد بعض الوالد فيستدعي أن يكون مركّباً، وكلّ مركّب ممكن، وكلّ ممكن يحتاج إلى الغير، فكان حادثاً، فاستحال القديم أن يكون له ولد ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ملكاً. ولا تجتمع البنوّة معه ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول. والباء حقّها أن تتعلق بقوله: ﴿إن عندكم﴾ على أن يجعل القول مكاناً لسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان. ولمّا نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٦٩ ـ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنّة.

مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

٧٠ ـ ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، حيث يقيمون به رئاستهم في الكفر، ومناصبة النبيّ ﷺ بالتظاهر به ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ المخلّد ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ بكفرهم.

٧١ ـ ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ واقرأ عليهم. ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه. والوقف عليه لازم، إذا لو وصل لصار ﴿إذ﴾ ظرفاً لقوله ﴿واتل﴾. بل التقدير: واذكر ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ عظم وثقل، كقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿مَّقَامِي﴾ مكاني. يعني: نفسه، كقوله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] أي: خاف ربّه. أو: قيامي ومكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاماً. أو: مقامي ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنّهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم، ليكون مكانهم بيّناً، وكلامهم مسموعاً ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: فوّضت أمري إليه ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ من أجمع الأمر: إذا نواه، وعزم عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ الواو بمعنى مع، أي: فأجمعوا أمركم مع شركائكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي: غماً عليكم وهمّاً. والغمّ والغمّة كالكرب والكربة. أو: ملتبساً في خفية. والغمّة: السترة، من غمّه: إذا ستره. ومنه الحديث: «لا غمة في فرائض الله»[1] أي: لا تستر، ولكن يجاهر بها. والمعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدّوا إليّ ما هو حقّ عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه، أو: اصنعوا ما أمكنكم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني.

(١) قال ابن حجر: هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٦٠).

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

---

٧٢ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري، ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فأوجب التولّي. أو: ﴿فما سألتكم من أجر﴾ ففاتني ذلك بتولّيكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة، أي: ما نصحتكم إلا لله، لا لغرض من أغراض الدنيا. وفيه دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن، والعلم الدينيّ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المستسلمين لأوامره ونواهيه. ﴿إن أجْرِيَ﴾ بالفتح: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص.

٧٣ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فداموا على تكذيبه. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ هو تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسلية له.

٧٤ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح ـ عليه السلام ـ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: هوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعيباً ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فأصرّوا على الكفر بعد المجيء ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ من قبل مجيئهم، يريد: أنّهم كانوا قبل بعثة الرسول أهل جاهلية مكذّبين بالحقّ. فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ مثل ذلك الطبع نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاورين الحدّ في التكذيب.

٧٥ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبولها. وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربّهم بعد تبيّنها، ويتعظّموا عن قبولها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كفّاراً

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

ذوي آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها، واجترؤوا على ردّها.

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ فلمّا عرفوا أنّه هو الحقّ، وأنّه من عند الله ﴿قَالُوٓاْ﴾ لحبّهم الشهوات: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهم يعلمون أنّ الحقّ أبعد شيء من السحر.

٧٧ ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ هو إنكار، ومقولهم محذوف، أي: هذا سحر. ثمّ استأنف إنكاراً آخر، فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ خبر ومبتدأ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي: لا يظفر.

٧٨ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام، أو عبادة فرعون ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: الملك، لأن الملوك موصوفون بالكبرياء، والعظمة، والعلوّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدّقين فيما جئتما به. ﴿ويكونَ﴾: حماد، ويحيى.

٧٩ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾﴿سحّار﴾: حمزة، وعليّ.

٨٠ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

٨١ ـ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ﴿ما﴾ موصولة واقعة مبتدأ. و﴿جِئْتُم بِهِ﴾ صلتها. و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمّاه فرعون وقومه سحراً من آيات الله. ﴿آلسحر﴾ بعد وقف: أبو عمرو، على الاستفهام. فعلى هذه القراءة ﴿ما﴾ استفهامية، أي: أيّ شيء جئتم به؟ أهو السحر؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ يظهر بطلانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبته، بل يدمّره.

وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

---

٨٢ ـ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره، وقضاياه. أو: يظهر الإسلام بعداته بالنصرة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

٨٣ ـ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في أوّل أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنّه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه. وذلك أنّه دعا الآباء، فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف. أو الضمير في ﴿قومه﴾ لفرعون. والذريّة: مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته. والضمير في: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يرجع إلى فرعون بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة، ومضر. أو: لأنّه ذو أصحاب يأتمرون له. أو: إلى الذريّة، أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشراف بني إسرائيل، لأنّهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. دليله قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يريد أن يعذّبهم فرعون ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لغالب فيها، قاهر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتوّ بادعائه الربوبيّة.

٨٤ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ صدّقتم به، وبآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ شرط في التوكل الإسلام، وهو: أن يسلموا نفوسهم لله أي: يجعلوها له سالمة خالصة، لا حظّ للشيطان فيها، لأنّ التوكلّ لا يكون مع التخليط.

٨٥ ـ ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إنّما قالوا ذلك، لأنّ القوم كانوا مخلصين. لا جرم أن الله قَبِلَ توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجّاهم، وأهلك مَن كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه. فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربّه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موضع فتنة

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ

لهم، أي: عذاب يعذّبوننا، أو يفتنوننا عن ديننا، أي: يضلّوننا. والفاتن: المضلّ عن الحق.

٨٦ ـ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: من تعبيدهم وتسخيرهم.

٨٧ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تبوّأ المكان: اتخذه مباءة، كقوله: توطّنه: إذا اتخذه وطناً. والمعنى: اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته مباءة لقومكما، ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة، والصلاة فيه ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مساجد متوجّهة نحو القبلة، وهي الكعبة. وكان موسى ومن معه يصلّون إلى الكعبة، وكانوا في أوّل الأمر مأمورين بأن يصلّوا في بيوتهم في خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم، فيؤذوهم، ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المسلمون على ذلك في أوّل الإسلام بمكّة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في بيوتكم حتّى تأمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ياموسى. ثنّى الخطاب أوّلاً، [ثمّ جمع، ثم وحّد آخراً][1] لأنّ اختيار مواضع العبادة مما يفوّض إلى الأنبياء، ثمّ جمع، لأنّ اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور، وخصّ موسى ـ عليه السلام ـ بالبشارة تعظيماً لها، وللمبشّر بها.

٨٨ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ هو: ما يتزيّن به من لباس، أو حليّ، أو فرش، أو أثاث أو غير ذلك ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي: نقداً، ونعماً، وضيعة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ لِيَضلّوا أي: الناس عن طاعتك. كوفيّ. ولا وقف على الدنيا، لأن قوله ﴿ليضلّوا﴾ متعلّق بآتيت. و﴿ربّنا﴾ تكرار الأوّل للإلحاح في التضرّع. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: إذا علم منهم أنّهم يضلّون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلّوا عن سبيله.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا﴾

وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فتكون الآية حجة على المعتزلة ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أهلكها، وأذهب آثارها، لأنّهم يستعينون بنعمتك على معصيتك. والطمس: المحو، والهلاك. قيل: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيئاتها منقوشة، وقيل: وسائر أموالهم كذلك ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اطبع على قلوبهم، واجعلها قاسية ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب الدعاء الذي هو ﴿اشدد﴾ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ إلى أن يروا العذاب الأليم. وكان كذلك، فإنّهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وكان ذلك إيمان يأس فلم يقبل. وإنّما دعا عليهم بهذا لما أيس من إيمانهم، وعلم بالوحي أنهم لا يؤمنون، فأمّا قبل أن يعلم بأنّهم لا يؤمنون، فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء، لأنّه أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإيمان. وهو يدلّ على أنّ الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفراً.

٨٩ ـ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قيل: كان موسى ـ عليه السلام ـ يدعو وهارون يؤمّن. فثبت أنّ التأمين دعاء، فكان إخفاؤه أولى. والمعنى: أنّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة، والتبليغ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتّبعانّ طريق الجهلة، الذين لا يعلمون صدق الإجابة، وحكمة الإمهال. فقد كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة. ﴿ولا تتّبعَانِ﴾. بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية، شاميّ. وخطّأه بعضهم، لأنّ النون الخفيفة واجبة السكون. وقيل: هو إخبار عمّا يكونان عليه، وليس بنهي. أو: حال، وتقديره: فاستقيما غير متّبعين.

٩٠ ـ ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو دليلٌ لنا على خلق الأفعال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فلحقهم. يقال: تبعته حتّى أتبعته ﴿بَغْيًا﴾ تطاولاً

وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً

﴿وَعَدْوًا﴾ ظلماً. وانتصبا على الحال، أو: على المفعول له ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ لا وقف عليه، لأنّ ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ جواب ﴿إذا﴾ ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾: حمزة، وعليّ، على الاستئناف بدل من ﴿آمنت﴾. وبالفتح غيرهما على حذف الباء، التي هي صلة الإيمان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنّ الإيمان والإسلام واحد، حيث قال ﴿آمنت﴾ ثمّ قال: ﴿وأنا من المسلمين﴾. كرّر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات، حرصاً على القبول، ثمّ لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وكانت المرّة الواحدة تكفي في حالة الاختيار.

٩١ ـ ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك؟ قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق. والعامل فيه: أتؤمن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الضالين المضلّين عن الإيمان. روي: أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبدٍ لرجل نشأ في ماله ونعمته، فكفر نعمته، وجحد حقّه، وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر. فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل ـ عليه السلام ـ خطّه، فعرفه.

٩٢ ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نلقيك بنجوة من الأرض. فرماه الماء إلى الساحل كأنّه ثور ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنّما أنت بدن. أو ﴿ببدنك﴾ كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء، ولم يتغير. أو: عرياناً لست إلا بدناً من غير لباس. أو: بدرعك، وكانت له درع من ذهب يُعْرَف بها. وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ (بأبدانك) وهو مثل قولهم: هو بأجرامه، أي: ببدنك كلّه وافياً بأجزائه. أو: بدروعك، لأنّه ظاهر بينها ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة. وهم بنو إسرائيل. وكان في أنفسهم: أنّ

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

فرعون أعظم شأناً من أن يغرق. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه، فألقاه الله على الساحل حتّى عاينوه. وقيل: ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديّته، وأنّ ما كان يدعيه من الربوبيّة محال، وأنّه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره إلى ماترون لعصيانه ربّه، فما الظنّ بغيره؟! ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

٩٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ منزلاً صالحاً مرضيّاً، وهو مصر والشام ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ في دينهم ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي التوراة. وهم اختلفوا في تأويلها، كما اختلفت أمّة محمد ﷺ في تأويل الآيات من القرآن. أو: المراد: العلم بمحمّد. واختلاف بني إسرائيل ـ وهم أهل الكتاب ـ: اختلافهم في صفته أنه هو، أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم: أنه هو ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ يميز المحقّ من المبطل، ويجزي كلاً جزاءه.

٩٤ ـ ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ لمّا قدّم ذكر بني إسرائيل، وهم قرّاء الكتاب، ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم، لأنّ أمر رسول الله ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أراد أن يؤكّد علمهم بصحّة القرآن، وبصحّة نبوّته ﷺ، ويبالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شكّ فرضاً وتقديراً ـ وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع إلى حلّها بالرجوع إلى قوانين الدين، وأدلّته، أو بمباحثة العلماء ـ فسل علماء أهل الكتاب، فإنّهم من الإحاطة بصحّة ما أنزل إليك، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلاً عن غيرك. فالمراد وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحّة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ، لا وصف رسول الله ﷺ بالشّك فيه. ثم قال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات الواضحة، والبراهين اللائحة:

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

أنّ ما أتاك هو الحقّ، الذي لا مجال فيه للشّك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين. ولا وقف عليه للعطف.

٩٥ ـ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي: فاثبت، ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك، والتكذيب بآيات الله، أو: هو على طريقة التهييج والإلهاب، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧]، ولزيادة التثبيت والعصمة. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله: «لا أشكّ، ولا أسأل، بل أشهد أنّه الحقّ»[1] أو: خوطب رسول الله ﷺ، والمراد أمّته، أي: وإن كنتم في شكّ مما أنزلنا إليكم، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] أو: الخطاب لكلّ سامع يجوز عليه الشكّ، كقول العرب: إذا عزّ أخوك فهن. أو: ﴿إن﴾ للنفي، أي: فما كنت في شكّ فاسأل. أي: لا نأمرك بالسؤال، لأنك شاكّ، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمعاينة إحياء الموتى. فإن قلت: إنّما يجيء «إن» للنفي إذا كان بعده إلا، كقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]. قلت: ذاك غير لازم، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١] فـ«إن» للنفي، وليس بعده إلا.

٩٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به الملائكة أنّهم يموتون كفّاراً. أو: قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨]. ولا وقف على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّ: تتعلّق بما قبلها.

٩٧ ـ ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم. أو: عند القيامة ولا يقبل منهم.

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١/ ١٦٨).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾

٩٨ ـ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهلّا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان قبل المعاينة، ولم تؤخّر كما أخّر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأن تقبّل الله إيمانها منها بوقوعه في وقت الاختيار ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن قوم يونس. أو: متّصل، والجملة في معنى النفي، كأنّه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة ﴿إلاّ قوم يونس﴾. وانتصابه على أصل الاستثناء ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي: أن يونس ـ عليه السلام ـ بعث إلى نينوى من أرض الموصل، فكذّبوه، فذهب عنهم مغاضباً. فلمّا فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح كلّهم، وعجّوا[1] أربعين ليلة، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابّهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان والدوابّ وأولادها، فحنّ بعضهم إلى بعض، وأظهروا الإيمان والتوبة، فرحمهم، وكشف عنهم. وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وبلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم، حتّى إنّ الرجل كان يقلع الحجر، وقد وضع عليه أساس بنيانه، فيردّه. وقيل: خرجوا لمّا نزل بهم العذاب إلى شيخ من بقية علمائهم، فقال لهم: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ، لا إله إلا أنت. فقالوا، فكشف الله عنهم. وعن الفضيل ـ قدس الله روحه ـ قالوا: اللّهم إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت، وأنت أعظم منها وأجلّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

٩٩ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة، والشمول ﴿جَمِيعًا﴾ حال. مجتمعين على الإيمان، مطبقين عليه، لا يختلفون فيه. أخبر عن كمال قدرته، ونفوذ مشيئته: أنّه لو شاء لآمن من في الأرض

(١) «عجّوا»: رفعوا أصواتهم.

أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا

كلّهم، ولكنّه شاء أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر ممن علم أنّه يختار الكفر ولا يؤمن به. وقول المعتزلة: المراد بالمشيئة مشيئة القسر والإلجاء ـ أي: لو خلق فيهم الإيمان جبراً لآمنوا. لكن قد شاء أن يؤمنوا اختياراً فلم يؤمنوا، دليله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ـ أي: ليس إليك مشيئة الإكراه والجبر في الإيمان، إنما ذلك إليّ ـ فاسد، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله ما يحصل بقدرته، ولا يتحقّق ذلك بدون الاختيار. وتأويله عندنا: أنّ لله تعالى لطفاً، لو أعطاهم لآمنوا كلّهم عن اختيار، ولكن علم منهم أنّهم لا يؤمنون، فلم يعطهم ذلك، وهو التوفيق. والاستفهام في ﴿أفأنت﴾ بمعنى النفي، أي: لا تملك أنت يامحمد أن تكرههم على الإيمان، لأنّه يكون بالتصديق والإقرار، ولا يمكن الإكراه على التصديق.

١٠٠ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته، أو: بقضائه، أو: بتوفيقه وتسهيله، أو: بعلمه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذاب، أو: السخط، أو: الشيطان، أي: ويسلّط الشيطان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم. ﴿وَنَجعَلُ﴾: حماد، ويحيى.

١٠١ ـ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ نظر استدلال، واعتبار ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار، وخروج الزروع والثمار ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ﴾ «ما» النافية. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ والرسل المنذرون، أو: الإنذارات ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يتوقّع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون.

١٠٢ ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: وقائع الله فيهم، كما يقال: أيّام العرب لوقائعها ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

١٠٣ ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوف على كلام محذوف، يدلّ عليه ﴿إلا مثل

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ

أيّام الذين خلوا من قبلهم﴾ كأنّه قيل: نهلك الأمم ﴿ثمّ ننجي رسلنا﴾ على حكاية الأحوال الماضية ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ومن آمن معهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء ﴿ننجّي المؤمنين﴾ منكم، ونهلك المشركين. و﴿حقاً علينا﴾ اعتراض، أي: حقّ ذلك علينا حقاً. ﴿نُنْجي﴾ بالتخفيف: عليّ، وحفص.

١٠٤ ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ياأهل مكة. ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ وصحته، وسداده، فهذا ديني فاستمعوا وصفه. ثمّ وصف دينه فقال: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الأصنام ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يميتكم. وصفه بالتوفي ليريهم: أنّه الحقيق بأن يخاف، ويتّقىٰ، ويعبد دون ما لا يقدر على شيء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بأن أكون. يعني: أنّ الله أمرني بذلك بما ركب فيّ من العقل، وبما أوحى إليّ في كتابه.

١٠٥ ـ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: ﴿و﴾ أوحى إليّ ﴿أن أقم﴾ ليشاكل قوله: ﴿أمرت﴾، أي: استقم مقبلاً بوجهك على ما أمرك الله، أو: استقم إليه، ولا تلتفت يميناً، ولا شمالاً ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين، أو: الوجه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

١٠٦ ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن خذلته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك، فكنى عنه بالفعل إيجازاً ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ «إذاً» جزاء للشرط، وجواب لسؤال مقدّر، كأنّ سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان. وجعل من الظالمين، لأنّه لا ظلم أعظم من الشرك.

١٠٧ ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾ يصبك ﴿بِضُرٍّ﴾ مرض ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ لذلك الضرّ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلاّ الله ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ عافية ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فلا

يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

رادّ لمراده ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه، والاعتماد إلا عليه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المكفر بالبلاء ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المعافي بالعطاء.

أتبع النهي عن عبادة الأوثان، ووصفها بأنّها لا تنفع ولا تضرّ: أن الله هو الضّار النافع، الذي إن أصابك بضرّ لم يقدر على كشفه إلا هو وحده، دون كلّ أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به؟! وكذا إن أرادك بخير لم يردّ أحد ما يريده بك من الفضل والإحسان، فكيف بالأوثان؟ وهو الحقيق إذاً بأن توجّه إليه العبادة دونها. وهو أبلغ من قوله ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]. وإنّما ذكر المسّ في أحدهما، والإرادة في الآخر، كأنّه أراد أن يذكر الأمرين: الإرادة والإصابة في كلّ واحد من الضرّ والخير، وأنّه لا رادّ لما يريد منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ، وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر، ليدلّ بما ذكر على ما ترك. على أنّه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله: ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾.

١٠٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهل مكّة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن، أو الرسول ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اختار الهدى، واتّبع الحقّ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فما نفع باختياره إلا نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه. ودلّ اللام وعلى على معنى النفع والضرّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إليّ أمركم، وإنّما أنا بشير ونذير.

١٠٩ ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ لك بالنصرة عليهم، والغلبة ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنّه المطّلع على السرائر، فلا يحتاج إلى بيّنة، وشهود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ

---

١ ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا ﴿كتاب﴾. فهو خبر مبتدأ محذوف ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ صفة له، أي: نظمت نظماً رصيناً محكماً، لا يقع فيه نقص ولا خلل، كالبناء المحكم ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد: من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص. أو: جعلت فصولاً سورة سورة، وآية وآية. أو: فرّقت في التنزيل، ولم تنزل جملة. أو: فصّل فيها ما يحتاج إليه العباد، أي: بيّن ولخص. وليس معنى ﴿ثمّ﴾ التراخي في الوقت، ولكن في الحال ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لكتاب، أو: خبر بعد خبر، أو: صلة لأحكمت وفصّلت، أي: من عنده أحكامها، وتفصيلها.

٢ ـ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفعول له، أي: لئلا تعبدوا. أو: (أن) مفسّرة، لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول. كأنّه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو: أمركم ألا تعبدوا إلا الله ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي: من الله.

٣ ـ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي: أمركم بالتوحيد، والاستغفار ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: استغفروه من الشرك، ثمّ ارجعوا إليه بالطاعة ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضيّة من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى أن يتوفّاكم ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ ويعط في الآخرة كلّ من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله، لا يبخس منه شيئاً ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾

تتولّوا ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة.

٤ ـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ رجوعكم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على إعادتكم.

٥ ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يزورّون عن الحقّ، وينحرفون عنه، لأنّ من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازورّ عنه، وانحرف ثنى عنه صدره، وطوى عنه كشحه[1] ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ ليطلبوا الخفاء من الله، فلا يطّلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ يتغطّون بها، أي: يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله، كقول نوح ـ عليه السلام ـ ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: ٧] ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أي: لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصّلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطّلع على ثنيهم صدورهم، واستغشائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافع عنده. قيل: نزلت في المنافقين ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فيها.

٦ ـ ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ تفضّلاً، لا وجوباً ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ مكانه من الأرض، ومسكنه ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ حيث كان مودعاً قبل الاستقرار من صلب، أو رحم، أو بيضة ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ كلّ واحد من الدواب، ورزقها؛ ومستقرّها؛ مستودعها؛ في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب فيه مبيّن.

٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ من الأحد

---

(١) «طوى عنه كشحه»: أعرض عنه.

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

إلى الجمعة، تعليماً للتأني ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: فوقه. يعني: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض إلا الماء. وفيه دليلٌ على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض. قيل: بدأه بخلق ياقوتة خضراء، فنظر إليها بالهيبة، فصارت ماء، ثمّ خلق ريحاً، فأقرّ الماء على متنه، ثمّ وضع عرشه على الماء. وفي وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: خلق السموات والأرض وما بينهما للممتحن فيهما، ولم يخلق هذه الأشياء لأنفسها ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أكثر شكراً. وعنه ﷺ: «أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله. فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه»[1]. ولمّا أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ﴿ليبلوكم﴾ أي: ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره. (سَاحِرٌ): حمزة، وعليّ، يريدون الرسول. والساحر: كاذب مبطل.

٨ ـ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب الآخرة، أو: عذاب يوم بدر ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ معلومة، أو قلائل. والمعنى: إلى حين معلوم ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ما يمنعه من النزول، استعجالاً له على وجه التكذيب، والاستهزاء ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ﴾ العذاب ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ و﴿يوم﴾ منصوب بمصروفاً، أي: ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاط بهم. ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ العذاب الذي

(١) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل» والحارث في مسنده. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٨٠).

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ

كانوا به يستعجلون. وإنّما وضع ﴿يستهزئون﴾ موضع يستعجلون؛ لأنّ استعجالهم كان على وجه الاستهزاء.

٩ ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هو للجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة من صحّة، وأمن، وجدة. واللام في ﴿لئن﴾ لتوطئة القسم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ ثمّ سلبناه تلك للنعمة. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ شديد اليأس من أن يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر، ولا تسليم لقضائه ﴿كَفُورٌ﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلّب في نعمة الله، نسّاء له.

١٠ ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ وسّعنا عليه النعمة بعد الفقر الذي ناله ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ أشر، بطر ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

١١ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ في المحنة، والبلاء ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وشكروا في النعمة، والرخاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: الجنّة.

١٢ ـ كانوا يقترحون عليه آيات تعنّتاً لا استرشاداً، لأنّهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة ممّا جاء به كافية في رشادهم. ومن اقتراحاتهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ وكانوا لا يَعْتَدُّون بالقرآن، ويتهاونون به، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم مالا يقبلونه، ويضحكون منه، فهيّجه لأداء الرسالة، وطرح المبالاة بردّهم، واستهزائهم، واقتراحهم بقولهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لعلّك تترك أن تلقيه إليهم، وتبلّغه إيّاهم مخافة ردّهم له، وتهاونهم به ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ بأن تتلوه عليهم. ولم يقل: ضيّق، ليدلّ على أنّه ضيق عارض غير ثابت، لأنّه ﷺ كان أفسح

أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ

الناس صدراً، ولأنّه أشكل بتارك ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ مخافة ﴿أن يقولوا﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ هلاّ أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه، والملائكة لنصدّقه، ولِمَ أنزل عليه ما لا نريده، ولا نقترحه؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك، وتبلّغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك أن ردّوا، أو تهاونوا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل. فتوكل عليه، وكلْ أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح، وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم، ولا مبال بسفههم، واستهزائهم.

١٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ «أم» منقطعة. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الضمير لما يُوحى إليك ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ﴾ تحدّاهم أوّلاً بعشر سور، ثمّ بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخطّ لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب. فإذا تبيّن له العجز عن ذلك قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ في الحسن والجزالة. ومعنى ﴿مثله﴾: أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كلّ واحدة منها له ﴿مُفْتَرَيَٰتٖ﴾ صفة لعشر سور. لمّا قالوا: افتريت القرآن، واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله أرخى معهم العنان، وقال: هبوا أنّي اختلقته من عند نفسي، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّه مفترى.

١٤ ـ ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه. ﴿و﴾ اعلموا عند ذلك ﴿أن لا إله إلا الله﴾ وحده، وأنّ توحيده واجب، والإشراك به ظلم عظيم. وإنما جمع الخطاب بعد إفراده، وهو قوله لكم: ﴿فاعلموا﴾ بعد قوله: ﴿قل﴾ لأنّ الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ، أو: لأنّ

فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ

رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يحدّثونهم. أو: لأنّ الخطاب للمشركين، والضمير في ﴿لم يستجيبوا﴾ لمن استطعتم، أي: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على المعارضة، لعلمهم بالعجز عنه ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذنه، أو: بأمره ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ متّبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة؟ ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً على أنّه منزل من عند الله، وعلى التوحيد. ومعنى: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ مخلصون؟.

١٥ ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ نوصّل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصّحة، والرزق. وهم الكفّار، أو: المنافقون.

١٦ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو: صنيعهم، أي: لم يكن لهم ثواب، لأنهم لم يريدوا به الآخرة، وإنّما أرادوا به الدنيا، وقد وفّى إليهم ما أرادوا ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنّه لم يعمل لغرض صحيح. والعمل الباطل لا ثواب له.

١٧ ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بيّنة من ربه. أي: لا يعقبونهم في المنزلة، ولا يقاربونهم، يعني: أنّ بين الفريقين تبايناً بيّناً. وأراد بهم مَن آمن مِن اليهود كعبد الله بن سلام، وغيره. ﴿كان على بينة من ربه﴾ أي: على برهان من الله، وبيان أنّ دين الإسلام حقّ، وهو دليل العقل ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شَاهِدٌ﴾ يشهد بصحّته، وهو القرآن ﴿مِّنْهُ﴾ من الله، أو من القرآن، فقد ذكره آنفاً ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ومن قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل

إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ

القرآن ﴿كتاب موسى﴾ عليه السلام ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتمّاً به في الدين، قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم. وهما حالان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: مَن كان على بيّنة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهل مكّة، ومَن ضامّهم من المتحزّبين على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ مصيره، ومورده ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو: من الموعد ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يُحبسون في الموقف، وتُعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيّين بأنهم الكذّابون على الله؛ بأنّه اتخذ ولداً وشريكاً ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكاذبين على ربّهم. و﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد، كأصحاب وصاحب، أو: شهيد، كشريف وأشراف.

١٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو: يبغون أهلها أن يعوجّوا بالارتداد ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ «هم» الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به.

٢٠ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ﴾ أي: ما كانوا ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من يتولاهم فينصرهم منه، ويمنعهم من عقابه. ولكنّه أراد إنظارهم، وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم. وهو من كلام الأشهاد ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لأنّهم

مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

أضلّوا الناس عن دين الله. ﴿يُضعَّفُ﴾: مكّيّ، وشاميّ ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أي: استماع الحقّ ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ الحقّ.

٢١ ـ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وبطل عنهم، وضاع ما اشتروه، وهو: ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة، وشفاعتها.

٢٢ ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ بالصدّ، والصّدود. وفي ﴿لا جرم﴾ أقوال: أحدها: أنّ ﴿لا﴾ ردّ لكلام سابق، أي: ليس الأمر كما زعموا. ومعنى: ﴿جرم﴾ كسب، وفاعله مضمر، و﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ في محل النصب. والتقدير: كسب قولهم خسرانهم في الآخرة. وثانيها: أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمتان ركبتا، فصار معناهما: حقّاً. وأنّ: في موضع رفع بأنّه فاعل لحقّ، أي: حقّ خسرانهم. وثالثها: أنّ معناه: لا محالة.

٢٣ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ واطمأنّوا إليه، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع. من «الخبت»، وهي: الأرض المطمئنّة ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢٤ ـ ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني: الفريقين ﴿مَثَلًا﴾ تشبيهاً. وهو نصب على التمييز ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتنتفعون بضرب المثل.

٢٥ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿أنّي﴾: أي: بأنّي. والمعنى: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إنّي لكم نذير مبين﴾

أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

بالكسر، فلمّا اتّصل به الجارّ فتح كما فتح في كأنّ. والمعنى على الكسر، وبكسر الألف: شاميّ، ونافع، وعاصم، وحمزة علي: إرادة القول.

٢٦ ـ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفسّرة متعلّقة بأرسلنا، أو بنذير ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي، لوقوع الألم فيه.

٢٧ ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يريد الأشراف؛ لأنهم يملؤون القلوب هيبة، والمجالس أبّهـة، أو: لأنّهم مُلِئوا بالأحلام، والآراء الصائبة ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أرادوا: أنّـه كان ينبغي أن يكون مَلِكاً، أو مَلَكاً ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أخسّاؤنا. جمع: الأرذل ﴿بَادِيَ﴾ وبالهمزة: أبو عمرو ﴿ٱلرَّأْيِ﴾ وبغير همز: أبو عمرو. أي: اتّبعوك ظاهر الرأي. أو: أوّل الرأي. مِن بدا يبدو: إذا ظهر، أو: بـدأ يبدأ: إذا فعل الشيء أوّلاً. وانتصابه على الظرف. أصله: وقت حدوث ظاهر رأيهم، أو: أوّل رأيهم. فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامـه. أرادوا: أنّ اتّبـاعهم لك شيء عنّ لهم بديهة من غير رويّة ونظر، ولو تفكّروا ما اتّبعوك، وإنّما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيويّة، لأنّهم كانوا جهّالاً، ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كمـا ترى أكثر المتشبّهين بالإسـلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم. ولقد زلّ عنهم: أنّ التقدّم في الدنيا لا يقرّب أحداً من الله، وأنتم يبعده، ولا يرفعه بل يضعه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ في مال، ورأي. عنوا: نوحاً، وأتباعه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: نوحاً في الدعوة، ومتبعيه في الإجابة والتصديق، يعني: تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيباً للرئاسة.

قَالَ يَـٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

---

٢٨ ـ ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ برهان ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ يعني: النبوّة ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾[1] أي: أخفيت: حمزة، وعليّ، وحفص، أي: أخفيت. أي: فعميت عليكم البيّنة فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد. وحقيقته: أنّ الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأنّ الأعمى لا يهتدي، ولا يهدي غيره ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أي: الرحمة ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تريدونها. والواو دخلت هنا تتمّة للميم. وعن أبي عمرو: إسكان الميم. ووجهه: أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنّها الراوي سكوناً. وهو لحن، لأنّ الحركة الإعرابيّة لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر.

٢٩ ـ ﴿وَيَـٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على تبليغ الرسالة، لأنّه مدلول قوله: ﴿إنّي لكم نذير﴾ ﴿مَالًا﴾ أجراً يثقل عليكم إن أدّيتم، أو: عليّ إن أبيتم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فيشكونني إليه إن طردتهم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ تتسافهون على المؤمنين، وتدعونهم: أراذل، أو: تجهلون لقاء ربكم، أو: أنهم خير منكم.

٣٠ ـ ﴿وَيَـٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ مَن يمنعني مِن انتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿فَعَمِيَتۡ﴾ خفيت، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٣/ ١٠٧).

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ

٣١ ـ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فأدّعي فضلاً عليكم بالغنى حتّى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتّى أطّلع على ما في نفوس أتباعي، وضمائر قلوبهم. وهو معطوف على ﴿عندي خزائن الله﴾ أي: ﴿لا﴾ أقول: ﴿عندي خزائن الله﴾ ولا أقول: أنا ﴿أعلم الغيب﴾ ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتّى تقولوا لي: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، مساعدة لكم، ونزولاً على هواكم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من صدق الاعتقاد. وإنّما عليّ قبول ظاهر إقرارهم، إذ لا أطلع على خفيّ أسرارهم ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء: افتعال من زرى عليه: إذا عابه. وأصله تزتري فأبدلت التاء دالاً.

٣٢ ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك.

٣٣ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ، وإنّما هو إلى من كفرتم به ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لم تقدروا على الهرب منه.

٣٤ ـ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ هو إعلام موضع الغي ليتّقى، والرشد ليقتفى ﴿ولكنّيَ﴾ ﴿إنّيَ﴾ ﴿نصحيَ﴾: مدنيّ، وأبو عمرو ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: يضلّكم. وهذا شرط دخل على شرط، فيكون الثاني مقدّماً في الحكم لما عرف، تقديره: إن كان يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

إن أردت أن أنصح لكم، وهو دليل بيِّن لنا في إرادة المعاصي ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فيتصرّف فيكم على قضيّة إرادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

٣٥ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل: أ ﴿يقولون افتراه﴾ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: إن صحّ أنّي افتريته فعليّ عقوبة إجرامي، أي: افترائي. يقال: أجرم الرجل: إذا أذنب، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ﴾ أي: ولم يثبت ذلك، وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجه لإعراضكم، ومعاداتكم.

٣٦ ـ ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ إقناط من إيمانهم، وأنّه غير متوقّع. وفيه دليلٌ على أنّ للإيمان حكم التجدُّد، كأنّه قال: إنّ الذي آمن يؤمن في حادث الوقت، وعلى ذلك تخرج الزيادة التي ذكرت في الإيمان بالقرآن ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين. والابتآس: افتعال من البؤس، وهو الحزن، والفقر. والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك، وإيذائك، فقد حان وقت الانتقام من أعدائك.

٣٧ ـ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هو في موضع الحال، أي: اصنعها محفوظاً. وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأنّ الله معه أعيناً تكلؤه من أن يزيغ في صنعته عن الصواب ﴿وَوَحْيِنَا﴾ فإنّا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ[1] الطير ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولا تدعني في شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، وقد قضي به، وجفّ القلم فلا سبيل إلى كفّه.

(١) «جؤجؤ»: صَدْر.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾

٣٨ ـ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ من عمله السفينة. وكان يعملها في بريّة في أبعد موضع من الماء، فكانوا يتضاحكون منه، ويقولون له: يا نوح! صرتَ نجّاراً بعد ما كنت نبياً ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ عند رؤية الهلاك ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منّا عند رؤية الفلك.

رُوي: أنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين، وكان طولها ثلاثمئة ذراع، أو: ألفاً ومئتي ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً أو ستمئة ذراع، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً. وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط: الدوابّ، والأنعام، وركب نوح ومَن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم ـ عليه السلام ـ وجعله حاجزاً بين الرجال والنساء.

٣٩ ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ في محل نصب بـ«تعلمون»، أي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الذي ﴿يَأْتِيهِ﴾ ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويعني به: إيّاهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا، وهو الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة.

٤٠ ـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام، أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء. وهي غاية لقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾ أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد. وما بينهما من الكلام حال من ﴿يصنع﴾، أي: يصنعها، ﴿و﴾ الحال أنّه ﴿كلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾. وجواب ﴿كلما﴾: ﴿سخروا﴾. و﴿قال﴾ استئناف على تقدير سؤال سائل. أو: ﴿قال﴾ جواب ﴿سخروا﴾ بدل من ﴿مرّ﴾ أو صفة لـ﴿ملأ﴾ ﴿إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ هو كناية عن اشتداد الأمر، وصعوبته. وقيل معناه: جاش الماء من تنّور الخبز. وكان من حجر لحواء، فصار إلى نوح ـ عليه السلام ـ. وقيل:

قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ

التنور: وجه الأرض ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ تفسيره في سورة المؤمنين ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ عطف على اثنين وكذا ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله ﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أنّه من أهل النار. وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنّه يختار الكفر بتقديره، وإرادته. جلّ خالق العباد، عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ﷺ: «كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم»[(١)]. وقيل: كانوا عشرة: خمسة رجال، وخمس نسوة. وقيل: كانوا اثنين[(٢)] وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، فالجميع: ثمانية وسبعون، نصفهم رجال، ونصفهم نساء.

٤١ ـ ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ ﴿بسم الله﴾ متّصل بـ﴿اركبوا﴾، حالاً من الواو، أي: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ مسمّين الله، أو: قائلين: بسم الله وقت إجرائها، ووقت إرسائها، إمّا لأن المجرى والمرسى للوقت، وإمّا لأنّهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم: خفوق النجم. ويجوز أن يكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ جملة برأسها غير متعلّقة بما قبلها، وهي مبتدأ وخبر، يعني: أنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ أمرهم بالركوب، ثمّ أخبرهم: أنّ مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أي: باسم الله إجراؤها وإرساؤها. وكان إذا أراد أن تجري قال: باسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: باسم الله، فرست. ﴿مجريها﴾ بفتح الميم وكسر الراء، من جرى

(١) قال ابن حجر: لم أره مرفوعاً، وذكره الطبري بإسنادٍ عن قتادة. (حاشية الكشاف ٢ / ٣٩٤).

(٢) ليست في الأصل، وإثباتها ضروري.

إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ

إمّا مصدر، أو وقت: حمزة، وعليّ، وحفص[1]. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لمن آمن منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث خلّصهم.

٤٢ ـ ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متّصل بمحذوف دلّ عليه ﴿اركبوا فيها باسم الله﴾ كأنّه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله ﴿وهي تجرى بهم﴾ أي: السفينة تجري وهم فيها. ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ يريد: موج الطوفان. وهو جمع موجة، كتمر وتمرة. وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله. شبّه كلّ موجة منه بالجبل في تراكمها، وارتفاعها. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان، وقيل: يام. والجمهور على أنّه ابنه الصلبيّ. وقيل: كان ابن امرأته. ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن أبيه وعن السفينة. مفعل، من عزله عنه: إذا نحّاه، وأبعده. أو: في معزل عن دين أبيه. ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ بفتح الياء: عاصم، اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك: يا بنيّاً. غيره بكسر الياء، اقتصاراً عليه من ياء الإضافة. ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، أي: أسلم، واركب. ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٤٣ ـ ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ ألجأ. ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يمنعني من الغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ إلا الراحم، وهو الله تعالى. أو: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ من الطوفان ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ الله. أي: ﴿إلا﴾ مكان ﴿من رحم﴾ الله من المؤمنين. وذلك أنّه لمّا جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم مُعْتَصَم قطّ من جبل ونحوه سوى مُعْتَصَم واحد، وهو مكان من رحمهم الله ونجّاهم، يعني: السفينة. أو: هو استثناء منقطع، كأنّه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم، كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧] ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين ابنه والجبل، أو: بين نوح وابنه

(١) في المطبوع: وبضم الميم وكسر الراء: أبو عمرو. والباقون بضم الميم، وفتح الراء.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ فصار، أو: فكان في علم الله.

٤٤ ـ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ انْشِفي وتشرَّبي. والبلع: النّشْف ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أمسكي ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص، من: غاضه إذا نقصه، وهو لازم ومتعد ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ واستقرّت السفينة بعد أن طافت الأرض كلّها ستّة أشهر ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ هو جبل بالموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: سحقاً لقوم نوح الذين غرقوا. يقال: بعد بعداً وبَعَداً: إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت. ولذلك خصّ بدعاء السّوء.

والنظر في هذه الآية من أربع جهات، علم البيان: وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتّصل بها. فنقول: إنّ الله تعالى لمّا أراد أن يبيّن معنى: أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتدّ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض، وأن نقضي أمر نوح، وهو إنجاز ما كنّا وعدناه من إغراق قومه فقُضي، وأن نسوّي السفينة على الجودي فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى؛ بني الكلام على تشبيه[1] المراد بالمأمور الذي لا يتأتّى منه ـ لكمال هيبته ـ العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكوّن المقصود تصويراً لاقتداره العظيم، وأنّ السموات والأرض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة لإرادته فيها تغييراً وتبديلاً، كأنّها عقلاء مميّزون، قد عرفوه حقّ معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه، وتحتّم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده. ثمّ بَنَى على تشبيه هذا نظم الكلام، فقال عز وجلّ: ﴿وقيل﴾ على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد، وهو: ﴿يا أرض﴾ ﴿ويا سماء﴾، ثم قال مخاطباً لهما ﴿يا أرض﴾ و﴿يا سماء﴾ على سبيل

(١) من المطبوع.

. . . .

الاستعارة للشبه المذكور، ثمّ استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقرّ خفيّ، ثمّ استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوّي الأرض بالماء في الإنبات كتقوّي الآكل بالطعام. ثمّ قال: ﴿ماءك﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض، كاتّصال الملك بالمالك. ثمّ اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم التأنّي. ثمّ قال: ﴿وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً﴾ ولم يُصرِّح بمن أغاض الماء، ولا بمن قضى الأمر، وسوّى السفينة، وقال: بعداً، كما لم يصرِّح بقائل: ﴿يا أرض﴾ ﴿ويا سماء﴾. سلوكاً في كلّ واحد من ذلك لسبيل الكناية، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكوّن قاهر، وأنّ فاعلها واحد لا يشارك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: ﴿يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوّي غيره. ثمّ ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم إظهاراً لمكان السخط، وأنّ ذلك العذاب الشديد ما كان إلا لظلمهم.

ومن جهة علم المعاني، وهو: النظر في فائدة كلّ كلمة فيها وجهة كلّ تقديم وتأخير فيما بين جملها؛ وذلك أنّه اختير ﴿يا﴾ دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها على بعد المنادَى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، والملكوت، وإبداء العزّة والجبروت، وهو تبعيدُ المنادَى المؤذن بالتهاون به. ولم يقل: يا أرضي لزيادة التهاون، إذ الإضافة تستدعي القرب. ولم يقل يا أيتها الأرض للاختصار. واختير لفظ الأرض والسماء لكونهما أخفّ وأدور، واختير ﴿ابلعي﴾ على ابتلعي لكونه أخصر، وللتجانس بينه وبين ﴿أقلعي﴾. وقيل: ﴿أقلعي﴾ ولم يقل عن المطر، وكذا لم يقل: ﴿يا أرض ابلعي ماءك﴾ فبلعت ﴿ويا سماء اقلعي﴾ فأقلعت اختصاراً، واختير ﴿غيض﴾ على غيّض، وقيل: ﴿الماء﴾ دون أن يقول: ماء الطوفان، و﴿الأمر﴾ ولم يقل أمر نوح وقومه، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك. ولم يقل: وسوّيت على الجودي، أي: أقرّت على نحو ﴿قيل﴾ و﴿غيض﴾ اعتباراً لبناء الفعل للفاعل

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ

مع السفينة في قوله: ﴿وهي تجري بهم﴾ إرادة للمطابقة. ثم قيل: ﴿بعداً للقوم﴾ ولم يقل ليبعد القوم طلباً للتأكيد مع الاختصار. هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم، وأمّا من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنّه قدّم النداء على الأمر، فقيل: ﴿يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي﴾ ولم يقل: ابلعي يا أرض، وأقلعي يا سماء، جرياً على مقتضى الكلام فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنَادَى قصداً بذلك لمعنى الترشيح، ثمّ قدّم أمر الأرض على أمر السماء، وابتدأ به لابتداء الطوفان منها، ثمّ أتبع ﴿وغيض الماء﴾ لاتّصاله بقصّة الماء، وأخذه بحجزتها، ثمّ ذكر ما هو المقصود من القصة، وهو قوله: ﴿وقضي الأمر﴾ أي: أنجز الموعد من إهلاك الكفرة، وإنجاء نوح ومَن معه في الفلك. وعلى هذا فاعتبر.

ومن جهة الفصاحة المعنويّة، وهي: كما ترى نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخّصة مبيّنة، لا تعقيد يُعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشيّك الطريق إلى المرتاد.

ومن جهة الفصاحة اللفظية، فألفاظها على ما ترى عربيّة، مستعملة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سَلِسَة على الأسَلات، كلّ منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة.

ومن ثمّ أطبق المعاندون على أنّ طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية. ولله درّ شأن التنزيل، لا يتأمّل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا نظنن الآية مقصورة على المذكور، فلعلّ المتروك أكثر من المسطور.

٤٥ ـ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ نداؤه ربّه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾ مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنّه كان ابنه مطن صلبه، أو كان ربيباً له، فهو بعض أهله. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإنّ كلّ وعد تعده فهو الحقّ الثابت؛ الذي لا شكّ في إنجازه، والوفاء به. وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ

ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن

﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أعلم الحكّام، وأعدلهم، إذ لا فَضْل لحاكم على غيره إلا بالعلم، والعدل. ورب غريق في الجهل والجور من متقلّدي الحكومة في زمانك قد لقب: أقضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين، فاعتبر، واستعبر.

٤٦ ـ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم علّل لانتفاء كونه من أهله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبك في دينك ـ وإن كان حبشيّاً وكنت قرشيّاً ـ لصيقك. ومَن لم يكن على دينك، وإن كان أمسّ أقاربك رحماً؛ فهو أبعد بعيد منك. وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمّه، كقولها[١]:

... ... فـإنّمـا هـي إقبـالٌ وإدبـارُ[٢]

أو: التقدير: إنه ذو عمل. وفيه إشعارٌ بأنّه إنّما أنجى مَن أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنّهم أهله. وهذا لمّا انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّته. ﴿عَمِلَ غيرَ صالح﴾: عليّ، قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: كان عند نوح ـ عليه السلام ـ أنّ ابنه كان على دينه لأنّه كان ينافق. وإلا لا يحتمل أن يقول: ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] فكان يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتّى أطلعه الله عليه. وقوله: ﴿ليس من أهلك﴾ أي: من الذين وعدت النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السرّ والظاهر ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ اجتزاءً بالكسرة عن الياء: كوفيّ ﴿تسألني﴾: بصريّ، ﴿تسألنّيَ﴾: مدنيّ ﴿تَسْأَلَنِّ﴾: شاميّ. فحذف الياء، واجتزأ بالكسرة. والنون نون التأكيد ﴿تسألنَّ﴾: مكيّ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بجواز مسألته ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن

---

(١) هي الخنساء.

(٢) عجز بيت وصدره: لاتسأم الدهر منه كلما ذكرت.

تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

﴿تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ هو كما نهى رسولنا بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

٤٧ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحّته، تأدّباً بأدبك، واتّعاظاً بموعظتك ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ما فرط منّي ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

٤٨ ـ ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا﴾ بتحيّة منّا، أو: بسلامة من الغرق ﴿وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ﴾ هي: الخيرات النامية، وهي في حقّه: بكثرة ذرّيّته، وأتباعه، فقد جعل أكثر الأنبياء من ذرّيته، وأئمّة الدين في القرون الباقية من نسله ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من للبيان. فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنّهم كانوا جماعات. أو: قيل لهم: أمم؛ لأنّ الأمم تتشعّب منهم، أو: لابتداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر. وهو الوجه ﴿وَأُمَمٌ﴾ رفع بالابتداء ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بالسعة في الرزق، والخفض في العيش. صفة. والخبر محذوف، تقديره: وممن معك ﴿أمم سنمتّعهم﴾. وإنّما حذف لأنّ ﴿ممن معك﴾ يدلُّ عليه ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. والمعنى: أنّ السلام منّا، والبركات عليك، وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك. وممن معك أمم ممتّعون بالدنيا، منقلبون إلى النار. [كان نوح ـ عليه السلام ـ أبا الأنبياء][1] والخلق بعد الطوفان منه، وممن كان معه في السفينة. وعن محمد بن كعب: دخل في ذلك السلام كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وفيما بعده من المتاع والعذاب كلّ كافر.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ

٤٩ ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصّة نوح ـ عليه السلام ـ. ومحلّها الرفع على الابتداء. والجمل بعدها وهي: ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، أخبار. أي: تلك القصّة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوقت، أو: من قبل إيحائي إليك، وإخبارك بها ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح، وتوقّعْ في العاقبة لك، ولمن كذّبك نحو ما كان لنوح ولقومه ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الفوز، والنصر، والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

٥٠ ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ واحداً منهم. وانتصابه للعطف على ﴿أرسلنا نوحاً﴾، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم﴾ ﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحّدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع: نافع. صفة على محلّ الجارّ والمجرور. وبالجرّ: علي. على اللفظ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء.

٥١ ـ ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة، ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهّم شيء منها لم تنجع، ولم تنفع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك.

٥٢ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ آمنوا به ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: المطر. ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ حال، أي: كثرة الدرور ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ إنّما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر، وزيادة

وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ

القوّة؛ لأنّهم كانوا أصحاب زروع وبساتين، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلّين بما أوتوا من شدّة البطش، والقوّة. وقيل: أراد القوّة في المال، أو: على النكاح. وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وعقَمت أرحام نسائهم، فوعدهم هود ـ عليه السلام ـ المطر، والأولاد، على الإيمان، والاستغفار. وعن الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ أنّه وفد على معاوية، فلمّا خرج قال له بعض حجَّابه: إنيّ رجل ذو مال، ولا يولد لي، علّمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً. فقال الحسن: عليك بالاستغفار. فكان يكثر الاستغفار، حتّى ربّما استغفر في يوم واحد سبعمئة مرّة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية: فقال: هلاّ سألته ممّ قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل، فقال: ألم تسمع قول هود: ﴿ويزيدكم قوّة إلى قوّتكم﴾ وقول نوح: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢]؟ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ﴾ ولا تعرضوا عنّي، وعمّا أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على إجرامكم، وآثامكم.

٥٣ ـ ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٧] مع فوت آياته الحصر ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ هو حال من الضمير في: ﴿تاركي آلهتنا﴾ كأنّه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدّقوا مثلك فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة.

٥٤ ـ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ «إنْ» حرف نفي، فنفى جميع القول إلا قولاً واحداً، وهو قولهم: ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ بجنون وخبل. وتقديره: ما نقول قولاً إلا هذه المقالة، أي: قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٥٥ ـ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من إشراككم آلهة من دونه. والمعنى: إني أشهد الله ﴿أنيّ بريء ممّا تشركون﴾. واشهدوا أنتم أيضاً أنيّ بريء من ذلك. وجيء به

فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: اشهد على أنيّ لا أحبّك، تهكّماً به، واستهانة بحاله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم، وآلهتكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلون. فإنيّ لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرّتكم وإن تعاونتم عليّ. وكيف تضرّني آلهتكم، وما هي إلا جماد لا يضرّ ولا ينفع؟! وكيف تنتقم منّي إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها، بأن تخبُلني، وتذهب بعقلي؟!

٥٦ ـ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: مالكها. ولمّا ذكر توكله على الله، وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكّل عليه من اشتمال ربوبيّته عليه وعليهم، ومن كون كلّ دابّة في قبضته، وملكته، وتحت قهره وسلطانه. والأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إنّ ربّي على الحقّ لا يعدل عنه. أو: ﴿إنّ ربي﴾ يدلّ ﴿على صراط مستقيم﴾.

٥٧ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ هو في موضع: فقد ثبتت الحجة عليكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أي: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم، وأموالكم. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولّيكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من ضرر قطّ؛ إذ لا يجوز عليه المضارّ، وإنّما تضرّون أنفسكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب عليه، مهيمن. فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم. أو: من كان رقيباً على الأشياء كلّها حافظاً لها، وكانت الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضارّ، لم يضرّ مثله مثلُكم.

٥٨ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: بفضل منّا لا بعلمهم، أو: بالإيمان أنعمنا عليهم. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وتكرار ﴿نجّينا﴾ للتأكيد. أو: الثانية: من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾

٥٩ ـ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنّه قال: سيحوا في الأرض، فانظروا إليها، واعتبروا. ثمّ استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنّهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يريد رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل؛ لأنّهم الذين يجبرون الناس على الأمور، ويعاندون ربّهم. ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم.

٦ ـ ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لمّا كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ﴾ تكرار ﴿ألا﴾ مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم. والدعاء بِبُعْداً بعد هلاكهم ـ وهو دعاء بالهلاك ـ للدلالة على أنّهم كانوا مستأهلين له ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد. وفيه فائدة لأنّ عاداً عادان: الأولى: القديمة؛ التي هي قوم هود، والقصّة فيهم، والأخرى: إرم.

٦١ ـ ﴿ ۞ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ لم ينشئكم منها إلاّ هو. وإنشاؤهم منها: خلق آدم من التراب، ثمّ خلقهم من آدم ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وجعلكم عمّارها، وأراد منكم عمارتها. أو: استعمركم، من العمر، أي: أطال أعماركم فيها. وكانت أعمارهم من ثلاثمئة إلى ألف. وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم، فسأل نبيّ من أنبياء زمانهم ربّه عن سبب تعميرهم، فأوحى الله إليه: أنّهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ فاسألوه مغفرته بالإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ داني الرحمة ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن دعاه.

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ

٦٢ ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ للسيادة، والمشاورة في الأمور. أو: كنا نرجو أن تدخل في ديننا، وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، مِن: أرابه: إذا أوقعه في الريبة. وهي: قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة.

٦٣ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوّة. أتى بحرف الشكّ مع أنّه على يقين أنّه على بينة؛ لأنّ خطابه للجاحدين، فكأنّه قال: قدِّروا أنّي على بيّنة من ربّي، وأنّني نبيّ على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم، وعصيت ربّي في أوامره ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته، ومنعكم عن عبادة الأوثان ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بقولكم: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ بنسبتكم إيّاي إلى الخسار، أو: بنسبتي إياكم إلى الخسران.

٦٤ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصب على الحال، قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. و﴿لَكُمْ﴾ متعلّق بـ﴿آية﴾ حالاً منها متقدّمة؛ لو تأخّرت لكانت صفة لها، فلمّا تقدّمت انتصبت على الحال ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم رزقها، مع أنّ لكم نفعها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عقر، أو نحر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل.

٦٥ ـ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يوم الأربعاء. ﴿فَقَالَ﴾ صالح ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ استمتعوا بالعيش ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ في بلدكم. وتسمى البلاد: الديار؛ لأنّه يدار فيها، أي: يتصرّف. أو: في دار الدنيا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثمّ تهلكون. فهلكوا يوم السبت

ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير مكذوب فيه. فاتّسع في الظرف بحذف الحرف، وإجرائه مجرى المفعول به. أو: وعد غير كذب، على أنّ المكذوب مصدر كالمعقول.

٦٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب، أو: عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: هذا يدلّ على أنّ من نجّي إنّما نجّي برحمة الله تعالى لا بعمله، كما قال ﷺ: «لا يدخل أحد الجنّة إلا برحمة الله»[١] ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإضافة الخزي إلى اليوم، وانجرار اليوم بالإضافة. وبفتحها: مدنيّ، وعليّ، لأنّه مضاف إلى إذ، وهو مبني. وظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة، والأفعال الماضية بنيت، واكتسبت البناء من المضاف إليه، كقوله[٢]:

على حين عاتبتُ المشيبَ عل الصبا[٣] . . . .

والواو للعطف، وتقديره: ﴿و﴾ نجّيناه ﴿من خزي يومئذ﴾ أي: من ذلّه وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي مَن كان هلاكه بغضب الله، وانتقامه. وجاز أن يريد بـ﴿يومئذٍ﴾ يوم القيامة، كما فسّر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه.

٦٧ ـ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ منازلهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين.

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٧) بلفظ: «لا يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنةَ، ولا يجيرُه من النار، ولا أنا، إلا برحمةٍ من الله».

(٢) هو النابغة الذبياني.

(٣) هذا صدر بيت، وعجزه: فقلت ألما أصح والشيب وازع.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

---

٦٨ ـ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ لم يقيموا فيها ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ ﴿ثمود﴾: حمزة وحفص ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ﴿لثمودٍ﴾: عليّ. فالصرف للذهاب إلى الحيّ، أو: الأب الأكبر. ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

٦٩ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، أو: جبريل مع أحد عشر ملكاً ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالولد، أو: بهلاك قوم لوط. والأوّل أظهر ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ سلّمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أمركم ﴿سلام﴾. (سِلْمٌ): حمزة، وعليّ، بمعنى السلام ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾ فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه. أو: فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة. وكان مال إبراهيم: البقر ﴿حَنِيذٍ﴾ مشويّ بالحجارة المحماة.

٧٠ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ نكر، وأنكر بمعنى. وكانت عادتهم أنّه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلا خافوه. والظاهر: أنه أحسّ بأنّهم ملائكة. ونكرهم لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو: لتعذيب قومه. دليله قوله: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمر منهم خوفاً ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب. وإنّما يُقال هذا لمن عرفهم، ولم يعرف فيم أرسلوا. وإنّما قالوا: ﴿لا تخف﴾ لأنهم رأوا أثر الخوف، والتغير في وجهه.

٧١ ـ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع تحاورهم، أو: على رؤوسهم تخدمهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو: بهلاك أهل الخبائث، أو: من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب، أو: فحاضت ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ وخصّت بالبشارة؛ لأنّ النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال، ولأنّه لم يكن لها ولد، وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ ومن بعده ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب: شاميّ، وحمزة، وحفص بفعل مضمر دل عليه: ﴿فبشّرناها بإسحاق﴾

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

أي: فبشرناها بإسحاق، ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحاق. وبالرفع غيرهم على الابتداء، والظرف قبله: خبر، كما تقول: في الدار زيد.

٧٢ ـ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ الألف مبدلة من ياء الإضافة. وقرأ الحسن: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء على الأصل ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ ابن مئة وعشرين سنة ﴿هذا﴾ مبتدأ، و﴿بعلي﴾ خبره، و﴿شيخاً﴾ حال. والعامل: معنى الإشارة التي دلّت عليه ذا، أو: معنى التنبيه الذي دلّ عليه ﴿هذا﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أن يولد من هرمين، وهو استبعادٌ من حيث العادة.

٧٣ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قدرته وحكمته. وإنما أنكرت الملائكة تعجّبها؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقّر، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوّة، وأن تسبّح الله، وتمجّده مكان التعجّب. وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾. أرادوا: أن هذه وأمثالها ممّا يكرمكم به ربّ العزّة، ويخصّكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجيب. وهو كلام مستأنف علّل به إنكار التعجّب، كأنّه قيل: إيّاكِ والتعجّب، فإن أمثالَ هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم. وقيل: الرحمة: النبوّة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنّ الأنبياء منهم، وكلّهم من ولد إبراهيم. و﴿أهل البيت﴾ نصب على النداء، أو: على الاختصاص ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ محمود بتعجيل النعم ﴿مَّجِيدٌ﴾ ظاهر الكرم بتأجيل النقم.

٧٤ ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ الفزع ـ وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه ـ ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: لمّا اطمأنّ قلبه

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

بعد الخوف، وملىء سروراً بسبب البشرى فزع للمجادلة. وجواب لمّامحذوف، تقديره: أقبل يجادلنا. أو: ﴿يجادلنا﴾ جواب لمّا. وإنّما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إيّاهم: أنّهم قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون! قالوا لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتّى بلغ العشرة. قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم، أتهلكونها؟ قالوا: لا . فعند ذلك ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

٧٥ ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على كلِّ مَن أساء إليه، أو: كثير الاحتمال ممن آذاه، صفوح عمن عصاه ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوّه من خوف الله ﴿مُّنِيبٌ﴾ تائب راجع إلى الله. وهذه الصفات دالّة على رقّة القلب، والرأفة والرحمة، فبيّن: أنّ ذلك ممّا حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلّهم يحدثون التوبة، كما حمله على الاستغفار لأبيه. فقالت الملائكة:

٧٦ ـ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال، وإن كانت الرحمة ديدنك[1] ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قضاؤه، وحكمه ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لا يردّ بجدال وغير ذلك ﴿عَذَابٌ﴾ مرتفع باسم الفاعل، وهو ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ تقديره: وإنهم يأتيهم.

٧٧ ـ ثمّ خرجوا من عند إبراهيم متوجّهين نحو قوم لوط، وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ لمّا أتوه، ورأى هيئاتهم وجمالهم ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أحزن؛ لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم، ومدافعتهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ تمييز، أي: وضاق بمكانهم صدره ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد.

---

(١) «الديدن»: العادة والدأب.

وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

رُوي: أنّ الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتّى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلمّا مشى منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنّها لشرّ قرية في الأرض عملاً ـ قال ذلك أربع مرّات ـ فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته، فأخبرت بهم قومها.

٧٨ ـ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون، كأنّما يُدفعون دفعاً ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش، حتّى مرنوا عليها، وقلّ عندهم استقباحها، فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين، لا يكفّهم حياء ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فتزوجوهنّ. أراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم. وكان تزويج المسلمات من الكفّار جائزاً في ذلك الوقت، كما جاز في الابتداء في هذه الأمّة، فقد زوّج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص، وهما كافران. وقيل: كان لهم سيّدان مطاعان، فأراد لوط أن يزوّجهما ابنتيه ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أحلّ. ﴿هؤلاء﴾ مبتدأ، ﴿وبناتي﴾ عطف بيان، و﴿هنّ﴾ فصل، و﴿أطهر﴾ خبر المبتدأ. أو: ﴿بناتي﴾ خبر، و﴿هنّ أطهر﴾ مبتدأ وخبر ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بإيثارهنّ عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تهينوني، لا تفضحوني، من الخزي. أو: ولا تخجلوني، من الخزاية، وهي الحياء. وبالياء: أبو عمرو في الوصل ﴿فِى ضَيْفِىٓ﴾ في حقّ ضيوفي. فإنّه إذا خزي ضيف الرجل، أو: جاره، فقد خزي الرجل، وذلك من عراقة الكرم، وأصالة المروءة ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحقّ، وفعل الجميل، والكفّ عن السوء.

٧٩ ـ ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ حاجة، لأنّ نكاح الإناث أمرٌ خارج عن مذهبنا، فمذهبنا: إتيان الذكران ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ عنوا: إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ

٨٠ ـ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لفعلت بكم، ولصنعت. والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو: أويت إلى قويّ أستند إليه، وأتمنّع به، فيحميني منكم. فشبّه القويّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته، ومنعته.

٨١ ـ رُوي: أنّه أغلق بابه حين جاؤوا، وجعل يرادّهم كما حكى الله عنه، ويجادلهم، فتسوّروا الجدار. فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ إنّ ركنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتح الباب، ودعنا وإيّاهم. ففتح الباب، فدخلوا، فاستأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربّه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، فأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاء! إن في بيت لوط قوماً سحرة ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ جملة موضّحة للتي قبلها؛ لأنّهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه، ولم يقدروا على ضرره ﴿فَأَسْرِ﴾[1] بالوصل: حجازيّ، من: سرى ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ طائفة منه، أو: نصفه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ بقلبه إلى ما خلّف، أو: لا ينظر إلى ما وراءه، أو: لا يتخلّف منكم أحد ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ مستثنى من ﴿فأسر بأهلك﴾. وبالرفع: مكيّ، وأبو عمرو على البدل من أحد. وفي إخراجها مع أهله روايتان: رُوي: أنّه أخرجها معهم، وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هي. فلمّا سمعت هدّة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه! فأدركها حجر، فقتلها. ورُوي: أنّه أمر بأن يخلّفها مع قومها، فإنّ هواها إليهم، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الراويتين ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: إنّ الأمر. ورُوي: أنّه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فقال:

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿فاسْرِ﴾ وهي قراءة الوصل.

أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟

٨٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ جعل جبريل ـ عليه السلام ـ جناحه في أسفلها، أي: أسفل قراها، ثمّ رفعها إلى السماء حتّى سمع أهلُ السماء نباحَ الكلاب، وصياح الديكة، ثمّ قلبها عليهم، وأُتبعوا الحجارة من فوقهم. وذلك قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾. هي كلمة معرّبة من «سنك كل» بدليل قوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] ﴿مَّنضُودٍ﴾ نعت لسجّيل، أي: متتابع، أو: مجموع معدّ للعذاب.

٨٣ ـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ نعت لحجارة، أي: معلّمة للعذاب. قيل: مكتوب على كلّ واحد اسم من يُرمى به ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه، أو: في حكمه ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ بشيء بعيد. وفيه وعيدٌ لأهل مكّة، فإنّ جبريل ـ عليه السلام ـ قال لرسول الله ﷺ: يعني: ظالمي أمتك. ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط من ساعة إلى ساعة. أو: الضمير للقرى، أي: هي قريبة من ظالمي مكّة، يمرّون بها في مسايرهم.

٨٤ ـ ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ اسم مدينتهم، أو اسم جدّهم مدين بن إبراهيم. أي: وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدين، أو: إلى بني مدين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ﴾ أي المكيل بالمكيال ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والموزون بالميزان ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف. أو: أراكم بنعمة من الله حقّها أن تقابل بغير ما تفعلون ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ مهلك. من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] وأصله: من إحاطة العدوّ. والمراد: عذاب الاستئصال في الدنيا، أو: عذاب الآخرة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾

٨٥ ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أتمّوها ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل. نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال، والميزان، ثمّ ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه. وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ البخس: النقص. كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ العثي والعيث: أشدّ الفساد، نحو: السرقة، والغارة، وقطع السبيل. ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثياً منهم في الأرض.

٨٦ ـ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عمّا هو حرام عليكم ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا. نعم بقيّة الله خير للكفرة أيضاً، لأنّهم يسلمون معها من تبعة البخس، والتطفيف، إلا أنّ فائدتها تظهر مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، ولا تظهر مع عدمه؛ لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك تعظيم للإيمان، وتنبيه على جلال شأنه. أو: المراد: إن كنتم مصدّقين لي فيما أقول لكم، وأنصح به إيّاكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ لنعمه عليكم. فاحفظوها بترك البخس.

٨٧ ـ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ وبالتوحيد كوفيّ، غير أبي بكر ﴿تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ كان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلوات، وكان قومه يقولون له: ما تستفيد بهذا؟ فكان يقول: إنها تأمر بالمحاسن، وتنهى عن القبائح. فقالوا على وجه الاستهزاء: ﴿أصلواتك تأمرك﴾ أن تأمرنا بترك عبادة ﴿مَا﴾ كان ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن﴾ نترك التبسّط ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ من إيفاء ونقص؟ وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازاً، كما سمّاها الله تعالى ناهية مجازاً ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي: السّفيه الضالّ. وهذه

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾

تسمية على القلب استهزاء. أو: إنّك حليم رشيد عندنا، ولست تفعل بنا ما يقتضيه حالك.

٨٨ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ﴾ من لدنه ﴿رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ يعني النبوة، والرسالة. أو: مالاً حلالاً من غير بخس، وتطفيف. وجواب ﴿أرأيتم﴾ محذوف، أي: أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربّي، وكنت نبياً على الحقيقة، أيصحّ لي ألا آمركم بترك عبادة الأوثان، والكفّ عن المعاصي، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده، وأنت مولٍّ عنه. وخالفني عنه إذا ولّى عنه، وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه، فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنّه قد ذهب إليه وارداً، وأنا ذاهبٌ عنه صادراً، ومنه قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها، لأستبدّ بها دونكم ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي، ونصيحتي، وأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ ظرف، أي: مدّة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكّناً منه لا آلو فيه جهداً ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما كوني موفقاً لإصابة الحقّ فيما آتي وأذر إلا بمعونته، وتأييده ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في السرّاء، والضرّاء.

٨٩ ـ «جرم» مثل «كسب» في تعدّيه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين، ومنه قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ أي: لا يكسبنّكم خلافي إصابة العذاب ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾ وهو الغرق، والريح، والرجفة ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ في الزمان، فهم أقرب الهالكين منكم، أو: في المكان، فمنازلهم قريبة منكم، أو: فيما يستحق به الهلاك، وهو: الكفر، والمساوىء. وسُوّي: في قريب، وبعيد، وقليل، وكثير بين المذكّر

وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ

والمؤنث، لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل، والنهيق، ونحوهما.

٩٠ ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين ﴿وَدُودٌ﴾ يحب أهلَ الوفاء من الصالحين.

٩١ ـ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: لا نفهم صحّة ما تقول، وإلا فكيف لا يفهم كلامه، وهو خطيب الأنبياء؟! ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوّة لك، ولا عزّ فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منّا إن أردنا بك مكروهاً ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، وهو شرّ قتلة. وكان رهطه من أهل ملّتهم، فلذلك أظهروا الميل لهم، والإكرام لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا تعز علينا، ولا تكرم حتّى نكرمك من القتل، ونرفعك عن الرجم. وإنّما يعزّ علينا رهطك، لأنّهم من أهل ديننا. وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ بل رهطك هم الأعزّة علينا، ولذلك:

٩٢ ـ ﴿قَالَ﴾ في جوابهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾. ولو قيل: وما عززت علينا؛ لم يصح هذا الجواب. وإنما قال: ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾. والكلام واقع فيه وفي رهطه، وأنّهم الأعزّة عليهم دونه، لأنّ تهاونهم به ـ وهو نبيّ الله ـ تهاون بالله. وحين عزّ عليهم رهطه دونه كان رهطه أعزّ عليهم من الله. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؟ ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ونسيتموه، وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر، لا يعبأ به. والظهريّ منسوب إلى الظهر. والكسر من تغييرات النسب، كقولهم في النسبة إلى الأمس: أمسيّ ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها.

٩٣ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هي بمعنى المكان. يقال: مكان

إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ

ومكانة، ومقام ومقامة. أو: مصدر من: مكُن، فهو مكين إذا تمكّن من الشيء، يعني: اعملوا قارّين على جهتكم؛ التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو: اعملوا متمكّنين من عداوتي، مطيقين لها ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة، والتأييد، ويمكنني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ «مَنْ» استفهامية معلّقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل: سوف ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أيّنا يأتيه عذاب ﴿يُخْزِيهِ﴾ أي: يفضحه، وأيّنا هو كاذب. أو: موصولة قد عمل فيها، كأنّه قيل: سوف تعلمون الشقيّ الذي يأتيه عذاب يخزيه، والذي هو كاذب في زعمكم ودعواكم. وإدخال الفاء في ﴿سوف﴾ وصل ظاهر بحرف وضع للوصل. ونزعها وصل تقديريّ بالاستئناف، الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنّهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون. والإتيان بالوجهين للتفنّن في البلاغة. وأبلغهما الاستئناف ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وانتظروا العاقبة، وما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر. والرقيب بمعنى الراقب، من: رقبه، كالضريب بمعنى الضارب. أو: بمعنى المراقب، كالعشير [بمعنى المعاشر][1]. أو: بمعنى المرتقب، كالرفيع بمعنى المرتفع.

٩٤ ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبريل فهلكوا. وإنّما ذكر في آخر قصّة عاد ومدين ﴿ولمّا جاء﴾ وفي آخر قصة ثمود ولوط ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ [هود: ٦٦] لأنّهما وقعا بعد ذكر الموعد، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب، كقولك: وعدته، فلما جاء الميعاد كان كيت و كيت. وأمّا الأخريان فقد وقعتا مبتدأتين، فكان

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ

حقّهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما، كما تعطف قصّة على قصّة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم[1]، يعني: أنّ جبريل صاح بهم صيحة، فزهق روح كلّ واحد منهم بحيث هو بغتة.

٩٥ ـ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء، متصرّفين، متردّدين ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ البعد بمعنى البَعَد، وهو: الهلاك، كالرُّشد بمعنى الرَشَد. أَلا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾. وقرىء ﴿كما بعُدت﴾. والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنّهم فرّقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيّروا البناء، كما فرّقوا بين زماني الخير والشرّ، فقالوا: وعد وأوعد.

٩٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ المراد به: العصا، لأنّها أبهرها.

٩٧ ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ أي: الملأ ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وهو تجهيل لمتّبعيه حيث تابعوه على أمره، وهو ضلال مبين. وذلك أنّه ادّعى الألوهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالظلم والشر، الذي لا يأتي إلا من شيطان. ومثله بمعزل عن الألوهية. وفيه: أنّهم عاينوا الآيات والسلطان المبين، وعلموا: أنّ مع موسى الرشد و الحقّ، ثمّ عدلوا عن اتّباعه إلى اتّباع مَن ليس في أمره رشد قط. أو المراد: وما أمره بصالح، حميد العاقبة، ويكون قوله:

٩٨ ـ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يتقدمهم وهم على عقبه، تفسيراً له، وإيضاحاً. أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته؟ والرشد يُستعمل في كلّ ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغيّ في كلّ ما يذمّ. ويقال: قدَمه بمعنى: تقدّمه ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أدخلهم. وجيء بلفظ الماضي، لأنّ الماضي يدلّ على أمر موجود، مقطوع به، فكأنّه قيل: يقدمهم، فيوردهم النار لا محالة، يعني: كما

---

(١) أي: لا يبرح.

وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدّمهم إلى النار، وهم يتبعونه ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ﴾ المورد، و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ الذي وردوه. شبّه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء، وشبّه أتباعه بالواردة. ثمّ قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ الذي يردونه: النار، لأن الورد إنّما يراد لتسكين العطش، والنار ضدّه.

٩٩ ـ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ﴾ أي: الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ رفدهم، أي: بئس العون المعان، أو: بئس العطاء المُعْطَى.

١٠٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ خبر ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿مِنْهَا﴾ من القرى ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: بعضها باق، وبعضها عافي الأثر، كالزرع القائم على ساقه، والذي حصد. والجملة مستأنفة لامحلّ لها من الإعراب.

١٠١ ـ ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بإهلاكنا إيّاهم ﴿وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ فما قدرت أن تردّ عنهم بأس الله ﴿ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ يعبدون. وهي حكاية حال ماضية ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذابه. و﴿لمّا﴾ منصوب بـ﴿ما أغنت﴾ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ تخسير. يقال: تبّ؛ إذا خسر، وتبّبه غيره: إذا أوقعه في الخسران. يعني: وما أفادتهم عبادة غير الله شيئاً، بل أهلكتهم.

١٠٢ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ محل الكاف: الرفع، ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلها ﴿وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ حال من ﴿القرى﴾ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ مؤلم، شديد، صعب على المأخوذ. وهذا تحذير لكلّ قرية ظالمة من كفّار مكّة وغيرها. فعلى كلّ ظالم أن يبادر التوبة، ولايغترّ بالإمهال.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾

١٠٣ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما قصّ الله من قصص الأمم الهالكة ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: اعتقد صحته، ووجوده ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ هو مرفوع بمجموع، كما يَرفع فعله إذا قلت: يُجمع له الناس. وإنّما آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم. وإنّه أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس. وإنهم لاينفكّون منه. يجمعون للحساب، والثواب، والعقاب ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: مشهود فيه، فاتّسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، أي: يشهد فيه الخلائق الموقف، لايغيب عنه أحد.

١٠٤ ـ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: اليوم المذكور. الأجل يطلق على مدّة التأجيل كلّها، وعلى منتهاها، والعدّ إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، إلا لانتهاء مدّة معدودةٍ بحذف المضاف، أو: ما نؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدّة التي ضربناها لبقاء الدنيا.

١٠٥ ـ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ وبالياء: مكّي. وافقه أبو عمرو، ونافع، وعليّ في الوصل. وإثبات الياء هو الأصل، إذ لا علّة توجب حذفها. وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل. ونظيره: ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤]. وفاعل ﴿يأت﴾ ضمير يرجع إلى قوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] لا اليوم المضاف إلى ﴿يأت﴾. و﴿يوم﴾ منصوب باذكر، أو: بقوله ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أي: لاتتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا يشفع أحدٌ أحداً إلا بإذن الله ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف، لدلالة ﴿لاتكلمّ نفس﴾ عليه. وقد مرّ ذكر الناس في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] ﴿شَقِيٌّ﴾ معذّب ﴿وَسَعِيدٌ﴾ أي: ومنهم ﴿سعيد﴾ أي: منعّم.

١٠٦ ـ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ هو أوّل نهيق الحمار ﴿وَشَهِيقٌ﴾ هو آخره. أو: هما إخراج النفس، وردّه. والجملة في موضع

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ

الحال، والعامل فيها الاستقرار الذي في النار.

١٠٧ ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدّرة ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ في موضع النصب، أي: مدّة دوام السموات والأرض. والمراد سموات الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أنّ لها سموات وأرضاً قوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وقيل: ما دامت فوق وتحت، ولأنّه لابدّ لأهل الآخرة ممّا يقلّهم ويظلّهم إمّا سماء أو عرش. وكلّ ما أظلّك فهو سماء. أو: هو عبارة عن التأبيد، ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو استثناء من الخلود في عذاب النار، وذلك لأنّ أهل النار لايخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار. أو: ﴿ما شاء﴾ بمعنى من شاء، وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنّة، فيقال لهم: الجهنّميون، وهم المستثنون من أهل الجنّة أيضاً لمفارقتهم إيّاها بكونهم في النار أيّاماً، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد، ولا سعدوا سعادة من لا تمسّه النار. وهو مرويّ عن ابن عباس، والضّحّاك، وقتادة ـ رضي الله عنهم ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بالشقي، والسعيد.

١٠٨ ـ ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ «سُعِدوا» حمزة، وعليّ، وحفص. سَعِد: لازم. وسَعَده يسعَده: متعدّ ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو استثناء من الخلود في نعيم الجنّة. وذلك أنّ لهم سوى الجنّة ما هو أكبر منها، وهو رؤية الله تعالى، ورضوانه. أو: معناه: إلا من شاء أن يعذّبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنّة. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنّه قال: «الاستثناء في الآيتين لأهل الجنّة»[1]. ومعناه: ما ذكرنا: أنه لايكون

(١) رواه ابن مردويه عن جابر بنحوه. (الدر المنثور ٤/ ٤٧٦).

عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ

للمسلم العاصي؛ الذي دخل النار خلود في النار حيث يخرج منها، ولايكون له أيضاً خلود في الجنّة، لأنّه لم يدخل الجنّة ابتداء. والمعتزلة لمّا لم يروا خروج العصاة من النار ردّوا الأحاديث المرويّة في هذا الباب، وكفى به إثماً مبيناً ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع، ولكنّه ممتد إلى ما غير نهاية، كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]. وهو نصب على المصدر، أي: أعطوا ﴿عطاء﴾. قيل: كفرت الجهميّة بأربع آيات ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

١٠٩ ـ لمّا قصّ الله قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه، وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ـ أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص، في سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم قبلهم ـ تسلية لرسول الله ﷺ، وعدة بالانتقام منهم، ووعيداً لهم. ثمّ قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد: أنّ حالهم في الشرك مثل حال آبائهم، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزل بهم مثله. وهو استئناف، معناه: تعليل النهي عن المرية. و﴿ما﴾ في ﴿مما﴾ و﴿كما﴾ مصدريّة، أو: موصولة، أي: من عبادتهم وكعبادتهم، أو: مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظّهم من العذاب، كما وفّينا آباءهم أنصباءهم ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال من ﴿نصيبهم﴾ أي: كاملاً.

١١٠ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ آمن به قوم، وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن. وهو تسليةٌ لرسول الله ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أنّه لايعاجلهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين قوم موسى، أو: قومك بالعذاب المستأصل ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو: من العذاب

مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

﴿مُرِيبٍ﴾ من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة، على الإسناد المجازي.

١١١ ـ ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإنّ كلهم، أي: وإنّ جميع المختلفين فيه ﴿وإنّ﴾ مشدّدة ﴿لَّمَّا﴾[1] مخفّف: بصريّ، وعليّ. ﴿ما﴾ مزيدة، جيء بها ليفصل بها بين لام إنّ ولام ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾. وهو جوابُ قسم محذوف. واللام في ﴿لما﴾ موطّئة للقسم. والمعنى: وإنّ جميعهم والله ﴿ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي: جزاء أعمالهم من إيمانٍ، وجحودٍ، وحسنٍ، وقبيح. بعكس الأولى: أبو بكر. مخفّفتان: مكّي، ونافع، على إعمال المخفّفة عمل الثقيلة، اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل، ولأن «إنّ» تشبه الفعل. والفعل يعمل قبل الحذف وبعده، نحو: لم يكن، ولم يك، فكذا المشبّه به. مشدّدتان غيرهم. وهو مشكل. وأحسن ما قيل فيه: أنّه من لممت الشيء: جمعته لمّاً، ثمّ وقف فصار: لمّا، ثم أجري الوصل مجرى الوقف. وجاز أن يكون مثل الدعوى، والثروى، وما فيه ألف التأنيث من المصادر. وقرأ الزهري: (وإنّ كلاًّ لمّاً) بالتنوين كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩] وهو يؤيد ما ذكرنا. والمعنى: وإنّ كلاًّ ملمومين، أي: مجموعين، كأنّه قيل: وإنّ كلّاً جميعاً، كقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]. وقال صاحب «الإيجاز»: ﴿لما﴾ فيه معنى الظرف، وقد دخل في الكلام اختصار، كأنّه قيل: ﴿وإنّ كلاًّ لمّا﴾ بعثوا ﴿ليوفينّهم ربّك أعمالهم﴾. وقال الكسائيّ: ليس لي بتشديد «لما» عِلْمٌ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١١٢ ـ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها، غير عادلٍ عنها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ معطوف على المستتر في (استقم). وجاز للفاصل، يعني: فاستقم أنت، وليستقم من تاب عن الكفر، ورجع إلى الله مخلصاً ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو

---

(١) المثبت في الأصل المخطوط (لَمَا) مخففاً.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾

مجازيكم فاتّقوه. قيل: نزلت على رسول الله ﷺ اية كانت أشقّ عليه من هذه الآية. ولهذا قال: «شيبتني هود»[١].

١١٣ ـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولاتميلوا. قال الشيخ[٢] ـ رحمه الله ـ: هذا خطابٌ لأتباع الكفرة، أي: لاتركنوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم، وفيما يدعونكم إليه ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ وقيل: الركون إليهم: الرضا بكفرهم. وقال قتادة: ولاتلحقوا بالمشركين. وعن الموفّق: أنّه صلّى خلف الإمام، فلمّا قرأ هذه الآية غشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى مَن ظلم، فكيف بالظالم؟!. وعن الحسن: جعل الله الدِّين بين لاءين : ﴿ولا تطغوا﴾ ﴿ولا تركنوا﴾. وقال سفيان: في جهنم وادٍ لايسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وقال رسول الله ﷺ: « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه»[٣]. ولقد سُئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برّيّة، هل يُسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت! فقال: دعه يموت! ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ حال من قوله: ﴿فتمسّكم النار﴾ أي: فتمسّكم النار، وأنتم على هذه الحالة. ومعناه: ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ يقدرون على منعكم من عذابه، ولايقدر على منعكم منه غيره ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ثمّ لاينصركم هو، لأنّه حكم بتعذيبكم. ومعنى ﴿ثمّ﴾ الاستبعاد، أي: النصرة من الله مستبعدة.

١١٤ ـ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غدوة وعشيّة، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وساعات من الليل. جمع زلفة، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار. مِن: أزلفه، إذا قرّبه. وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشيّة: الظهر والعصر، لأن مابعد الزوال عشيّ. وصلاة الزلف: المغرب، والعشاء. وانتصاب ﴿طرفي

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧).
(٢) أي: المصنف رحمه الله تعالى.
(٣) رواه البيهقي في الشعب (٩٤٣٢).

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٥ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾

النهار﴾ على الظرف، لأنهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار، وأوّله، وآخره. تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إنّ الصلوات الخمس يذهبن الذنوب. وفي الحديث: «إنّ الصلوات الخمس تكفّر ما بينها من الذنوب»(١). أو: الطاعات. قال عليه الصلاة والسلام: «أتبع السيّئة الحسنة تمحها»(٢). أو: سبحان الله، والحمدلله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ﴿فاستقم﴾ فما بعده، أو: القرآن ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين. نزلت في عمرو بن غزية الأنصاريّ بائع التمر، قال لامرأة: في البيت تمر أجود، فدخلت فقبّلها، فندم، فجاءه حاكياً باكياً، فنزلت. فقال عليه الصلاة والسلام: «هل شهدت معنا العصر؟» قال: نعم. قال: «هي كفّارة لك». فقيل: أله خاصّة؟ قال: «بل للناس عامّة»(٣).

١١٥ ـ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على امتثال ما أمرت به، والانتهاء عمّا نهيت عنه، فلا يتمّ شيء منه إلا به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جاء بما هو مشتمل على جميع الأوامر والنواهي من قوله: ﴿فاستقم﴾ إلى قوله: ﴿واصبر﴾ وغير ذلك من الحسنات.

١١٦ ـ ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فهلّا كان. هو موضوع للتخصيص، ومخصوص بالفعل ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ أولو فضل، وخير. وسمّى الفضل والجودة ﴿بقيّة﴾ لأن الرجل يستبقي ممّا يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. ويقال: فلان من بقيّة القوم، أي: من خيارهم. ومنه قولهم: في

(١) رواه محمد بن نصر كما في كنز العمال (١٨٩٥٧) بلفظ: «إن الصلوات الخمس يذهبن بالذنوب». ورواه الحاكم (١/١١٩) بلفظ: «الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

(٢) رواه أحمد (٥/١٥٣) والترمذي (١٩٨٧).

(٣) رواه الترمذي (٣١١٣).

يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عجّب محمداً ﷺ وأمّته أن لم يكن في الأمم التي ذكر الله إهلاكهم في هذه السورة جماعة من أولي العقل، والدين، ينهون غيرهم عن الكفر، والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي. و﴿من﴾ في ﴿ممن أنجينا﴾ للبيان لا للتبعيض؛ لأن النجاة للناهين وحدهم؛ بدليل قوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: ١٦٥] ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: التاركون للنهي عن المنكر، وهو عطف على مضمر، أي: ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ نهوا عن الفساد ﴿واتّبع الذين ظلموا﴾ شهواتهم، فهو عطف على نهوا ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اتّبعوا ما عرفوا فيه التنعّم والترفّه من: حبّ الرئاسة، والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونبذوه وراء ظهورهم ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ اعتراض، وحكم عليهم بأنّهم قوم مجرمون.

١١٧ ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ اللام لتأكيد النفي ﴿بِظُلْمٍ﴾ حال من الفاعل، أي: لا يصحّ أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قوم ﴿مُصْلِحُونَ﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم. وقيل: الظلم: الشرك، أي: لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها، وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم، لا يضمّون إلى شركهم فساداً آخر.

١١٨ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: متّفقين على الإيمان والطاعات عن اختيار، ولكن لم يشأ ذلك. وقالت المعتزلة: هي مشيئة قسر، وذلك رافع للابتلاء، فلا يجوز ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الكفر والإيمان، أي: ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لمّا علم منهم اختيار ذلك.

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

---

١١٩ ـ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً عصمهم الله عن الاختلاف، فاتّفقوا على دين الحق، غير مختلفين فيه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: ولما هم عليه من الاختلاف. فعندنا خلقهم للذي علم أنّهم سيصيرون إليه من اختلاف، أو اتّفاق، ولم يخلقهم لغير الذي علم أنّهم سيصيرون إليه. كذا في «شرح التأويلات» ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

١٢٠ ـ ﴿وَكُلًّا﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه، كأنّه قيل: وكلّ نبأ. وهو منصوب بقوله: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لكلّ. وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل من ﴿كُلًّا﴾ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو: في هذه الأنباء المقتصّة ما هو حقّ ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه؛ لأنّ تكاثر الأدلّة أثبت للقلب.

١٢١ ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكّة، وغيرهم ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم، وجهتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على مكانتنا.

١٢٢ ـ ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتصّ الله تعالى من النقم النازلة بأشباهكم.

١٢٣ ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية ممّا يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[١] فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿يَرْجِع﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، ويعقوب. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٤٠).

فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وأمرك، فينتقم لك منهم. ﴿يُرجع﴾: نافع، وحفص ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنّه كافيك وكافلك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(١)] وبالتاء: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. أي: أنت وهم على تغليب المخاطب. قيل: خاتمة التوراة هذه الآية. وفي الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله تعالى»[(٢)].

* * *

(١) في الأصل المخطوط ﴿يعملون﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، وأبي عمرو، والحسن، وعيسى بن عمر. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٤٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٢٧٠) والديلمي في الفردوس (٥٨٦٨) بلفظ: «من أحب أن يعزه الله فليتوكل على الله» وقال الذهبي: في إسناده: هشام بن زياد: متروك، ومحمد بن معاوية: كذبه الدارقطني، فبطل الحديث.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ

١ ـ ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ «تلك» إشارة إلى آيات هذه السورة. و﴿الكتاب المبين﴾ السورة. أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب، أو: التي تبين لمن تدبّرها أنّها من عند الله لا من عند البشر، أو: الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو: قد أُبينَ فيها ما سألت عنه اليهود من قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ فقد رُوي: أنّ علماء اليهود قالوا للمشركين: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ

٢ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ في حال كونه ﴿قرآناً عربياً﴾ وسمّى بعض القرآن قرآناً؛ لأنّه اسم جنس يقعُ على كلّه وبعضه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

٣ ـ ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ نُبيّن لك أحسن البيان. والقاصّ: الذي يأتي بالقصّة على حقيقتها، عن الزجّاج. وقيل: القصص يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص. تقول: قصّ الحديث يقصّه قصصاً. ويكون فَعْلاً بمعنى

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾

مفعول كالنفض، والحسب[1]. فعلى الأول معناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة. على أن يكون ﴿أحسن﴾ منصوباً نصبَ المصدر لإضافته إليه. والمقصوص محذوف؛ لأنّ ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ مغن عنه. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنّه اقتصّ على أبدع طريقة، وأعجب أسلوب، فإنّك لا ترى اقتصاصه في كتب الأوّلين مقارباً لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص المقصوص، فمعناه: نحن نقصّ عليك أحسن ما يقصّ من الأحاديث. وإنّما كان أحسن لما يتضمّن من العبر، والحكم، والعجائب التي ليست في غيره. والظاهر أنّه أحسن ما يقتصّ في بابه، كما يقال: فلان أعلم الناس، أي: في فنّه. واشتقاق القصص من: قصّ أثره: إذا تبعه؛ لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ما أوحينا﴾ ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عنه. ﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة. واللام فارقة بينها وبين النافية. يعني: وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به.

٤ ـ ﴿إِذۡ قَالَ﴾ بدل اشتمال من ﴿أحسن القصص﴾ لأنّ الوقتَ مشتملٌ على القصص. أو: التقدير: اذكر ﴿إذ قال﴾ ﴿يُوسُفُ﴾ اسم عبرانيّ لا عربي، إذ لو كان عربياً لانصرف؛ لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ (أبتَ) شاميّ. وهي تاء تأنيث عوّضت عن ياء الإضافة لتناسبهما؛ لأنّ كلّ واحدة منهما زائدة في آخر الاسم، ولهذا قلبت هاء في الوقف. وجاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكّر، كما في: رجل ربعة. وكسرت التاء لتدلّ على الياء المحذوفة. ومن فتح التاء فقد حذف الألف من: يا أبتا، واستبقى الفتحة قبلها، كما فعل من حذف الياء في: يا غلامَ ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ من الرؤيا، لا من الرؤية ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ أسماؤها ببيانَ النبيّ ﷺ: «جريان، والذيال، والطارق، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ،

(١) أي: نَفْضاً، بمعنى منفوض. وحَسْباً، بمعنى محسوب.

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ

ووثّاب، وذو الكتفين»[1] ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هما أبواه، أو: أبوه وخالته. والكواكب: إخوته. قيل: الواو بمعنى: مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. وأجريت مجرى العقلاء في ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ لأنّه وصفها بما هو المختصّ بالعقلاء، وهو: السجود. وكرّرت الرؤيا؛ لأنّ الأولى تتعلّق بالذات، والثانية بالحال. أو: الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له، كأنّ أباه قال له: كيف رأيتها؟ فقال: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ أي: متواضعين، وهو حال. وكان ابن ثنتي عشرة سنة يومئذ. وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة، أو: ثمانون.

٥ـ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ بالفتح حيث كان: حفص ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ هي بمعنى الرؤية، إلا أنّها مختصّة بما كان منها في المنام دون اليقظة. وفرّق بينهما بحرفي التأنيث، كما في القربة والقربى ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ﴾ جواب النهي، أي: إن قصصتها عليهم كادوك. عرف يعقوب ـ عليه السلام ـ أنّ الله يصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه حسد الإخوة. وإنّما لم يقل فيكيدوك كما قال ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥] لأنّه ضمّن معنى فعل يتعدّى باللام، ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمّن، فيكون آكد، وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك. ألاَ ترى إلى تأكيده بالمصدر، وهو ﴿كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فيحملهم على الحسد، والكيد.

٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الاجتباء الذي دلّت عليه رؤياك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك. والاجتباء: الاصطفاء. افتعال، من جبيت الشيء: إذا حصّلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض: جمعته ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ، غير داخل في

(١) رواه سعيد بن منصور، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي معاً في دلائل النبوة. انظر: الدر المنثور (٢ / ٤٩٨).

مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا

حكم التشبيه. كأنّه قيل: وهو يعلمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا. وتأويلها: عبارتها، وتفسيرها. وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا. أو: تأويل أحاديث الأنبياء، وكتب الله. وهو اسم جمع للحديث، وليس بجمع أحدوثة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، أي: جعلهم أنبياء في الدنيا، وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنّة. وآل يعقوب: أهله، وهم نسله وغيرهم. وأصل آل: أهل، بدليل تصغيره على: أهيل، إلاّ أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبيّ، وآل الملك. ولا يقال آل الحجّام، ولكن أهله. وإنّما علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبيّاً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب؛ فلذا قال: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أراد الجدّ، وأبا الجدّ ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يحقّ له الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

٧ ـ ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قصّتهم، وحديثهم ﴿ءَايَٰتٌ﴾ علامات، ودلالات على قدرة الله، وحكمته في كلّ شيء. ﴿آيةٌ﴾: مكّيّ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لمن سأل عن قصّتهم، وعرفها، أو: آيات على نبوّة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم من غير سماع من أحد، ولا قراءة كتاب. وأسماؤهم: يهوذا، وروبين، وشمعون، ولاوي، وزبولون، ويشجر، وأمّهم: ليا بنت ليان، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر، من سُرِّيّتين: زلفة، وبلهة. فلمّا توفّيت ليا تزوّج أختها راحيل، فولدت له بنيامين، ويوسف.

٨ ـ ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ اللام: لام الابتداء. وفيها تأكيد، وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا: أنّ زيادة محبّته لهما أمر ثابت، لا شبهة فيه. وإنّما قالوا: ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم إخوته أيضاً؛ لأنّ أمّهما كانت واحدة. وإنّما قيل: ﴿أَحَبُّ﴾ في الاثنين؛ لأن «أفعل مِن» لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه،

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

ولا بين المذكّر والمؤنّث، ولابدّ من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف ساغ الأمران. والواو في: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ للحال. أي: أنّه يفضّلهما في المحبّة علينا، وهما صغيران، لا كفاية فيهما، ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته، فنحن أحقّ بزيادة المحبّة منهما لفضلنا بالكثرة، والمنفعة عليهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ غلط في تدبير أمر الدنيا. ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا. والعصبة: العشرة فصاعداً.

٩ ـ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ من جملة ما حكي بعد قوله: ﴿إذ قالوا﴾ كأنّهم أطبقوا على ذلك، إلا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾. وقيل: الآمر بالقتل شمعون، والباقون كانوا راضين، فجعلوا آمرين ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة، مجهولة، بعيدة عن العمران. وهو معنى تنكيرها وإخلائها عن الوصف. ولهذا الإبهام نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة، لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد: سلامة محبّته لهم ممن يشاركهم فيها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. وجاز أن يُرادَ بالوجه الذات، كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ مجزوم عطفاً على ﴿يخل لكم﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد يوسف، أي: من بعد كفايته بالقتل، أو التغريب، أو: من بعد قتله، أو طرحه. فيرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا، أو اطرحوا ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو: يصلح حالكم عند أبيكم.

١٠ ـ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإنّ القتل عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قعر البئر، وما غاب منه عن عين الناظر. (غيابات) وكذا ما بعده: مدنيّ ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ به شيئاً.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾

١١ ـ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي: لم تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير، ونشفق عليه؟ وأرادوا بذلك ـ لمّا عزموا على كيد يوسف ـ استنزاله عن رأيه، وعادته في حفظه منهم. وفيه دليلٌ على أنّه أحسّ منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه.

١٢ ـ ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ﴾[1] نتّسع في أكل الفواكه وغيرها. والرَّتْعَة: السعة ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾ نتفرّج بما يباح كالصيد، والرمي، والركض. بالياء فيهما: مدنيّ، وكوفيّ. وبالنون فيهما: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. وبكسر العين: حجازيّ، من: ارتعى، يرتعي. افتعال من الرعي ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

١٣ ـ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يحزنني ذهابكم به. واللام لام الابتداء ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾ اعتذر إليهم بأنّ ذهابهم به ممّا يحزنه؛ لأنّه كان لايصبر عنه ساعة، وأنّه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم، ولعبهم.

١٤ ـ ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ اللام موطّئة للقسم. والقسم محذوف، تقديره: والله ﴿لئن أكله الذئب﴾. والواو في: ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ ـ أي: فرقة مجتمعة، مقتدرة على الدفع ـ للحال ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جواب للقسم، مجزىء عن جزاء الشرط، أي: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذاً، وخسرناها. وأجابوا عن عذره الثاني دون الأول؛ لأنّ ذلك كان يغيظهم.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿نَرْتَع﴾ وكذا ﴿نَلْعَبْ﴾. وهما قراءة: أبي عمرو، وابن كثير، وابن عامر، واليزيدي. معجم القراءات القرآنية (٣/ ١٥٣).

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝١٦﴾

١٥ ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: عزموا على إلقائه في البئر. وهي بئر عل ثلاثة فراسخ[١] من منزل يعقوب ـ عليه السلام ـ. وجواب ﴿لمّا﴾ محذوف، تقديره: فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد رُوي: أنهم لمّا برزوا به إلى البرّيّة أظهروا له العداوة، وضربوه، وكادوا يقتلونه. فمنعهم يهوذا. فلمّا أرادوا إلقاءه في الجبّ تعلّق بثيابهم، فنزعوها من يده، فتعلّق بحائط البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه ليلطّخوه بالدم، فيحتالوا به على أبيهم، ودلّوه في البئر، وكان فيها ماء، فسقط فيه. ثمّ أوى إلى صخرة، فقام عليها، وهو يبكي، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. ويُروى: أنّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين أُلقي في النار جرّد عنه ثيابه، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ بقميص من حرير الجنّة، فألبسه إيّاه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمةٍ علّقها في عنق يوسف فأخرجه جبريل، وألبسه إيّاه[٢] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قيل: أُوحي إليه في الصغر، كما أوحى إلى يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وقيل: كان إذ ذاك مدركاً ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لتحدّثنّ إخوتك بما فعلوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّك يوسف لعلوّ شأنك، وكبرياء سلطانك. وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ دعا بالصواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ، فقال: إنّه ليخبرني هذا الجام أنّه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وأنّكم ألقيتموه في غيابة الجبّ، وقلتم لأبيه: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس. أو: يتعلّق ﴿وهم لا يشعرون﴾ بأوحينا، أي: آنسناه بالوحي، وأزلنا عن قلبه الوحشة ﴿وهم لا يشعرون﴾ ذلك.

١٦ ـ ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ للاستتار، والتجسّر على الاعتذار ﴿يَبْكُونَ﴾

---

(١) الفرسخ = ١٧٢٨ م.

(٢) هذه الرواية من الإسرائيليات، والله أعلم بصحة إسنادها، والأولى التنبيه عليها في كتب التفسير وغيرها.

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ

حال. عن الأعمش: لا تصدّق باكية بعد إخوة يوسف.

١٧ ـ فلما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بنيّ، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما لكم، وأين يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: نتسابق في العدو، أو: في الرمي. والافتعال والتفاعل يشتركان، كالارتماء، والترامي، وغير ذلك ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ بمصدّق لنا ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ ولو كنّا عندك من أهل الصدق والثقة؛ لشدّة محبّتك ليوسف، فكيف وأنت سيِّء الظنّ بنا، غير واثق بقولنا؟!

١٨ ـ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ ذي كذب. أو: وصف بالمصدر مبالغة، كانّه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذّاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته. رُوي: أنّهم ذبحوا سخلة، ولطخوا القميص بدمها، وزلّ عنهم أن يُمزِّقوه. ورُوي: أنّ يعقوب ـ عليه السلام ـ لمّا سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ وأخذه، وألقاه على وجهه، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص. وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا. أكل ابني، ولم يُمزِّق عليه قميصه!! وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قدّ من دبره. ومحلّ ﴿على قميصه﴾ النصب على الظرف، كأنّه قيل: وجاؤوا فوق قميصه بدم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ زيّنت، أو: سهّلت. ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ عظيماً ارتكبتموه ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ خبر أو مبتدأ؛ لكونه موصوفاً، أي: فأمري صبر جميل، أو: فصبر جميل أمثل. وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ أي: أستعينه ﴿على﴾ احتمال ﴿ما تصفون﴾ من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

١٩ ـ ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، وذلك بعد ثلاثة

فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ

أيّام من إلقاء يوسف في الجبّ، فأخطؤوا الطريق، فنزلوا قريباً منه، وكان الجبّ في قفرة بعيدة من العمران، وكان ماؤه ملحاً، فعذب حين أُلقي فيه يوسف ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم، اسمه: مالك بن ذعر الخزاعيّ ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أرسل الدلو ليملأها، فتشبّث يوسف بالدلو فنزعه ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ﴾ كوفيّ: نادى البشرى، كأنّه يقول تعالى: فهذا أوانك. غيرهم (بشراي) على إضافتها لنفسه، أو: هو اسم غلامه، فناداه مضافاً إلى نفسه ﴿هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ قيل: ذهب به، فلمّا دنا من أصحابه صاح بذلك يبشّرهم به ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ الضمير للوارد وأصحابه. أخفوه من الرفقة. أو: لإخوة يوسف، فإنّهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أَبِق فاشتروه منّا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ﴿بِضَـٰعَةً﴾ حال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة، أي: قطع ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

٢٠ ـ ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه. ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو: زَيْف. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من «ثمن» ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة تعدّ عدّاً، ولا توزن؛ لأنّهم كانوا يعدّون ما دون الأربعين، ويزنون الأربعين وما فوقها، وكانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ممن يرغب عما في يده، فيبيعه بالثمن الطفيف. أو: معنى ﴿وشروه﴾ واشتروه، يعني: الرفقة من إخوته ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي: غير راغبين؛ لأنّهم اعتقدوا أنّه آبق. ويُروى: أنّ إخوته اتّبعوهم، وقالوا: استوثقوا منه، لا يأبق. و﴿فيه﴾ ليس من صلة ﴿الزاهدين﴾ أي: غير راغبين؛ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول. وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا ﴿فيه﴾.

٢١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ هو قطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر. والملك يومئذ الريان بن الوليد، وقد آمن بيوسف ومات في

لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ

حياته. واشتراه العزيز بزنته وَرِقاً، وحريراً، ومسكاً. وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مئة وعشرين سنة ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل، أو زليخا، واللام متعلقة بـ﴿قال﴾، لا بـ﴿اشتراه﴾ ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً، أي: حسناً مرضيّاً، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وعن الضحاك: بطيب معاشه، ولين رياشه، ووطيء فراشه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ لعلّه إذا تدرّب، وراض الأمور، وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو: نتبناه، ونقيمه مقام الولد. وكان قطفير عقيماً، وقد تفرّس فيه الرشد، فقال ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من إنجائه، وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب، تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: كما أنجيناه، وعطّفنا عليه العزيز، كذلك مكنّا له ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، وجعلناه ملكاً يتصرّف فيها بأمره ونهيه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يمنع عما شاء. أو: على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد إخوته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٢٢ ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى استعداد قوّته. وهو ثمان عشرة سنة، أو: إحدى وعشرون ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حكمة، وهو: العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه. أو: حكماً بين الناس، وفقهاً ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنّه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان أمره.

٢٣ ـ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: طلبت يوسف أن يواقعها. والمراودة: مفاعلة، من: راد يرود: إذا جاء وذهب. كأنّ المعنى: خادعته عن

وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ

نفسه، أي: فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه، ويأخذه منه. وهي عبارة عن التمحّل لمواقعته إيّاها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ اسم لـ: تعال، وأقبل. وهو مبني على الفتح. (هَيْتُ): مكّيّ ، بناه على الضمّ. (هِيْتَ): مدنيّ، وشاميّ. واللام للبيان. كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلمّ لك ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ الشأن، والحديث ﴿رَبِّىٓ﴾: سيّدي، ومالكي ـ يريد: قطفير ـ ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ حين قال لك: ﴿أكرمي مثواه﴾ فما جزاؤه أن أخونه في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الخائنون، أو: الزناة. أو: أراد بقوله: ﴿إنّه ربّي﴾ الله تعالى؛ لأنّه مسبّب الأسباب.

٢٤ ـ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ همّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همّ الطباع مع الامتناع، قاله الحسن. وقال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: ﴿وهمّ بها﴾ همّ خطرة، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب، ولا مؤاخذة عليه. ولو كان همّه كهمّها لما مدحه الله تعالى بأنّه من عباده المخلَصين. وقيل: ﴿وهم بها﴾ وشارف أن يهمّ بها. يقال: همّ بالأمر: إذا قصده، وعزم عليه. وجواب ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ محذوف، أي: لكان ما كان. وقيل: ﴿وهمّ بها﴾ جوابه. ولا يصح؛ لأنّ جواب لولا لا يتقدّم عليها؛ لأنّه في حكم الشرط، وله صدر الكلام. والبرهان: الحجة. ويجوز أن يكون ﴿وهمّ بها﴾ داخلاً في حكم القسم في قوله: ﴿ولقد همّت به﴾ ويجوز أن يكون خارجاً. ومن حق القارىء إذا قدر خروجه من حكم القسم، وجعله كلاماً برأسه، أن يقف على ﴿به﴾ ويبتدىء بقوله ﴿وهمّ بها﴾. وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمّين. وفسّر همّ يوسف بأنّه حلّ تكّة سراويله، وقعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها[1]. وفسّر

---

(١) هذا الكلام غير صحيح؛ لأنه يتعارض مع عصمة الأنبياء، والأسلمُ تفسير ﴿وهمّ بها﴾ بخطرات حديث النفس، والميل إلى المخالطة بحكم الطبيعة البشرية، ولا مؤاخذة على ذلك شرعاً، وقد عصمه الله من الفعل. أو أنَّ رؤيته برهان ربِّه منعته من الهم أصلاً. =

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾

البرهان بأنّه سمع صوتاً: إيّاك وإيّاها ـ مرّتين ـ فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه، حتّى مثل له يعقوب عاضّاً على أنملته، وهو باطل. ويدل على بطلانه وقوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولو كان ذلك منه أيضاً لما برّأ نفسه من ذلك. وقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾، ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه وقوله: ﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب﴾ ولو كان كذلك لخانه بالغيب. وقوله: ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ ﴿الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين﴾. ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره، كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود ـ عليهم السلام ـ وقد سمّاه الله مخلصاً، فعلم بالقطع: أنّه ثبت في ذلك المقام، وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم، ناظراً في دلائل التحريم، حتّى استحقّ من الله الثناء. ومحل الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب، أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه، أو: رفع، أي: الأمر مثل ذلك ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ الزنى ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللام حيث كان: مدنيّ، وكوفيّ، أي: الذين أخلصهم الله لطاعته. وبكسرها: غيرهم، أي: أخلصوا دينهم لله. ومعنى ﴿من عبادنا﴾ بعض عبادنا، أي: هو مخلص من جملة المخلصين.

٢٥ ـ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ وتسابقا إلى الباب، هي للطلب، وهو للهرب. على حذف الجارّ، وإيصال الفعل، كقوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أو: على تضمين ﴿استبقا﴾ معنى: ابتدرا. ففرَّ منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. ووحّد الباب وإن كان جمعه في قوله: ﴿وغلّقت الأبواب﴾ لأنّه أراد الباب البرّانيّ، الذي هو المخرج من الدار. ولمّا هرب يوسف جعل فَرَاش القُفْل[1] يتناثر، ويسقط حتّى خرج

= وحبذا لو اقتصر النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ على ما ذكره أولاً. وانظر تفسيره للآية رقم (٣٢).

(١) «فَراش القُفْل»: مَنَاشِبه، واحدتها فَراشة. قال ابنُ دريد: لا أحسبها عربية. وكلّ =

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من خلفه فانقدّ، أي: انشقّ حين هرب منها إلى الباب، وتبعته تمنعه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ وصادفا بعلها قطفير مقبلاً يريد أن يدخل، فلمّا رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، ولتخويف يوسف طمعاً في أن يواطئها خيفة منها، ومن مكرها، حيث ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ما﴾ نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن، أو: ﴿عذاب أليم﴾ وهو الضرب بالسياط. ولم تصرّح بذكر يوسف، وأنّه أراد بها سوءاً، لأنّها قصدت العموم، أي: كلّ من أراد بأهلك سوءاً، فحقّه أن يسجن، أو يعذّب؛ لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف.

٢٦ ـ ولمّا عرضته للسجن والعذاب، ووجب عليه الدفع عن نفسه ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾. ولولا ذلك لكتم عليها، ولم يفضحها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ هو ابن عمّ لها. وإنّما ألقى الله الشهادة على لسان مَن هو مِن أهلها لتكون أوجب للحجّة عليها، وأوثق لبراءة يوسف. وقيل: كان ابن خال لها، وكان صبيّاً في المهد. وسمّى قوله شهادة؛ لأنّه أدّى مؤدّى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف، وبطل قولها: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٢٧ ـ ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ والتقدير: ﴿وشهد شاهد﴾ فقال: ﴿إن كان قميصه﴾. وانّما دلّ قدّ قميصه من قُبل على أنها صادقة؛ لأنّه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فيشقّه، ولأنّه يقبل عليها وهي تدفعه عن نفسها، فيتخرّق قميصه من قبل. وأمّا تنكير ﴿قبل﴾ و﴿دبر﴾ فمعناه من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها دبر. وإنّما جمع

= حديدة رقيقة: فَراشة. وفَراشة القُفْل: ما يَنْشَبُ فيه، أي: يعلق.

فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ

بين إن التي للاستقبال وبين كان؛ لأنّ المعنى: إن يعلم أنّه كان قميصه قدّ.

٢٨ ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ قطفير ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ وعلم براءة يوسف، وصدقه، وكذبها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن قولك ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾، أو: إن هذا الأمر ـ وهو الاحتيال لنيل الرجال ـ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ الخطاب لها، ولأمّتها ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لأنهنّ ألطف كيداً، وأعظم حيلة، وبذلك يغلبن الرجال. والقصريّات منهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق. وعن بعض العلماء: إني أخاف من النساء أكثر ممّا أخاف من الشيطان؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال لهنّ: ﴿إن كيدكنّ عظيم﴾.

٢٩ ـ ﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء؛ لأنّه منادى قريب، مُفاطَن للحديث. وفيه تقريب له، وتلطيف لمحلّه ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر، واكتمه، ولا تتحدّث به. ثمّ قال لراعيل: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من جملة القوم المتعمّدين للذنب. يقال: خطىء؛ إذا أذنب متعمداً. وإنّما قال بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث. وكان العزيز رجلاً حليماً، قليل الغيرة، حيث اقتصر على هذا القول.

٣٠ ـ ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ جماعة من النساء. وكنّ خمساً: امرأة الساقي، وامرأة الخبّاز، وامرأة صاحب الدوابّ، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب. والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثها غير حقيقي؛ ولذا لم يقل: قالت. وفيه لغتان: كسر النون، وضمّها ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ يُرِدْن قطفير. والعزيز: الملك، بلسان العرب ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ غلامها، يقال: فتاي، وفتاتي، أي: غلامي، وجاريتي. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لتنال شهوتها منه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تمييز، أي: قد شغفها حبّه، يعني: خرق حبّه شغاف قلبها حتّى وصل إلى الفؤاد. والشغاف: حجاب القلب، أو: جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب

إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في خطأ وبُعْد عن طريق الصواب.

٣١ ـ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل. ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنّ، وقولهنّ ﴿امرأة العزيز﴾ عشقت عبدها الكنعانيّ، ومقتها. وسمّي الاغتياب مكراً لأنّه في خفية وحال غيبة، كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها، فأفشينه عليها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعتهنّ. قيل: دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ وهيّأت. افتعلت، من: العَتاد ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ ما يتّكئن عليه من نمارق. قصدت بتلك الهيئة ـ وهي قعودهنّ متّكئات، والسكاكين في أيديهنّ ـ أن يدهشن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنّ، فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها؛ لأن المتّكىء إذا بهت لشيء وقعت يده على يده ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان إلا بالسكاكين، كفعل الأعاجم ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بكسر التاء: بصريّ، وعاصم، وحمزة. وبضمّها غيرهم ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أعظمنه، وهبن ذلك الحسن الرائق، والجمال الفائق. وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء. وكان إذا سار في أزقّة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران. وكان يشبه آدم يوم خلقه ربّه. وقيل: ورث الجمال من جدّته سارّة. وقيل: «أكبرن» بمعنى حضن. والهاء للسكت، إذ لا يقال: النساء قد حضنه؛ لأنه لا يتعدّى إلى مفعول، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت. وحقيقته: دخلت في الكبر؛ لأنّها بالحيض تخرج من حدّ الصغر. وكأنّ أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خَـفِ الله واسْتُـرْ ذا الجمـالِ بِبُـرْقُـعٍ فإنْ لُحْتَ حَاضَتْ في الخُدُورِ العَوَاتِقُ[1]

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وجرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها. أي: أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن، فدهشن لمّا رأينه، فخدشن أيديهنّ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ حاشا: كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء. تقول: أساء القوم حاشا زيد، وهي حرف من حروف الجرّ،

(١) «لحت»: من: لاح يلوح، أي: ظهر. «العواتق»: خيار النساء.

مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ

فوضعت موضع التنزيه والبراءة. فمعنى ﴿حاشا الله﴾ براءة الله، وتنزيه الله. وقراءة أبي عمرو ﴿حاشا لله﴾ نحو قولك: سقيا لك، كأنّه قال: براءة، ثم قال: لله؛ لبيان من يبرأ، وينزّه. وغيره: ﴿حاش لله﴾ بحذف الألف الأخيرة. والمعنى: تنزيه الله من صفات العجز، والتعجّبُ من قدرته على خَلْق جميل مثله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ نَفَيْنَ عنه البشرية لغرابة جماله، وأثبتن له الملكيّة، وبتتن بها الحكم لما ركز في الطباع: أن لا أحسنَ من الملك، كما ركز فيها: أن لا أقبحَ من الشيطان.

٣٢ ـ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول: هو ذلك العبد الكنعانيّ الذي صوّرتنّ في أنفسكنّ، ثمّ لمتنّني فيه. تعني: إنّكنّ لم تصوّرنه حقّ صورته، وإلا لعذرتنّني في الافتتان به ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ الاستعصام: بناء مبالغة، يدلّ على الامتناع البليغ، والتحفّظ الشديد، كأنّه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها. وهذا بيان جليّ على أنّ يوسف ـ عليه السلام ـ بريء ممّا فسّر به أولئك الفريق الهمّ والبرهان. ثمّ قلن له: أطع مولاتك. فقالت راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ـ الضمير راجع إلى ﴿ما﴾ وهي موصولة. والمعنى: ﴿ما آمر﴾ به، فحذف الجار، كما في قوله: أمرتك الخير. أو: ﴿ما﴾ مصدريّة. والضمير يرجع إلى يوسف، أي: ولئن لم يفعل أمري إيّاه، أي: موجب أمري، ومقتضاه ـ ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ ليحبسنّ ﴿وَلَيَكُونًا﴾ الألف بدل من نون التأكيد الخفيفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ مع السُرّاق، والسفّاك، والأبّاق، كما سرق قلبي، وأبق منّي، وسفك دمي بالفراق. فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك، كما منعني هنا كلّ ذلك. ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميراً، حصل في الحصير على الحصير حسيراً.

٣٣ ـ فلمّا سمع يوسف تهديدها ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾. أسند الدعوة إليهنّ؛ لأنهنّ قلن له: ما عليك لو أجبت مولاتك. أو: افتتنت

وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ

كلّ واحدة به، فدعته إلى نفسها سرّاً. فالتجأ إلى ربّه ﴿قال رب السجن أحبّ إليّ﴾ من ركوب المعصية ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ فَزَعٌ منه إلى الله في طلب العصمة ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أمل إليهن. والصبوة: الميل إلى الهوى. ومنه: الصَّبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها، ورَوحها ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ مَن لا جدوى لعلمه، فهو ومَن لم يعلم سواء. أو: من السفهاء.

٣٤ ـ فلمّا كان في قوله: ﴿وإلا تصرف عنّي كيدهنّ﴾ معنى طلب الصرف، والدعاء، قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: أجاب الله دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحاله وحالهنّ.

٣٥ ـ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ فاعله مضمر لدلالة ما يفسّره عليه، وهو: ﴿ليسجننّه﴾. والمعنى: بدا لهم بَداء، أي: ظهر لهم رأي. والضمير في ﴿لهم﴾ للعزيز، وأهله ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وهي الشواهد على براءته كقدّ القميص، وقطع الأيدي، وشهادة الصبيّ، وغير ذلك ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ لإبداء عذر الحال، وإرخاء الستر على القيل والقال. وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وكان مطواعاً لها وجُمَيْلاً ذلولاً، زمامه في يدها. وقد طمعت أن يذلّله السجن، ويسخّره لها. أو: خافت عليه العيون، وظنّت فيه الظنون، فألجأها الخجل من الناس، والوجل من اليأس، إلى أن رضيت بالحجاب، مكان خوف الذهاب، لتشتفي بخبره، إذا مُنِعت من نظره ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ إلى زمان. كأنّها اقترحت أن يسجن زماناً حتّى تبصر ما يكون منه.

٣٦ ـ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾ عبدان للملك: خبّازه وشرابيّه، بتهمة السمّ. فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف، لأنّ «مع» يدلّ على معنى الصحبة، تقول: خرجت مع الأمير، تريد: مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ أي: شرابيّه ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: في المنام،

﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

وهي حكاية حال ماضية ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ أي: عنباً، تسمية للعنب بما يؤول إليه. أو: الخمر بلغة عُمَانَ اسم للعنب ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ أي: خبّازه ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ بتأويل ما رأيناه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أو: من المحسنين إلى أهل السجن. فإنّك تداوي المريض، وتعزّي الحزين، وتوسع على الفقير، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا. وقيل: إنّهما تحالما له ليمتحناه، فقال الشرابيّ: إنّي رأيت كأنّي في بستان، فإذا بأصل حَبَلَة[1] عليه ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها، وعصرتها في كأس الملك، وسقيته. وقال الخبّاز: إنّي رأيت كأنّ فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، فإذا سباع الطير تنهش منها.

٣٧ ـ ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: ببيان ماهيّته وكيفيّته؛ لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا﴾ ولمّا استعبراه، ووصفاه بالإحسان افترس ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته: كيت وكيت، فيكون كذلك. وجعل ذلك تخلّصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزيّنه لهما، ويقبّح إليهما الشرك. وفيه: أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضه أن يقتبس منه ـ لم يكن من باب التزكية ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ إشارة لهما إلى التأويل، أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيّبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ أوحى به إليّ، ولم أقله عن تكهّن وتنجّم ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ يجوز أن يكون

---

(١) «الحَبَلَة»: الكَرْم، وهو شجر متسلق يحمل ثمار العنب.

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم

كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علّمني ذلك، وأوحى به إليّ؛ لأنّي رفضتُ ملّة أولئك، وهم أهل مصر، ومَن كان الفتيان على دينهم.

٣٨ ـ ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ وهي الملّة الحنيفيّة. وتكرير هم للتوكيد[1]. وذكر الآباء ليريهما أنّه من بيت النبوّة؛ أن عرّفهما أنه نبيّ يُوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب، ليقوّي رغبتهما في اتّباع قوله. والمراد به: ترك الابتداء لا أنّه كان فيه ثمّ تركه[2] ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما صحّ لنا معشر الأنبياء ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أيّ شيء كان صنماً، أو: غيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ فضل الله، فيشركون به، ولا يتنبهون.

٣٩ ـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ يا ساكني السجن، كقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٨١] و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [البقرة: ٨٢] ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ يريد التفرّق في العدد والتكاثر، أي: أأن تكون أرباب شتّى يستعبدكما هذا، ويستعبدكما هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما ربّ واحد قهّار، لا يُغالَبُ، ولا يُشارَكُ في الربوبيّة؟ وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده، ولعبادة الأصنام.

٤٠ ـ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ خطاب لهما، ولمن كان على دينهما من أهل مصر ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: سمّيتم ما لا يستحق الألوهيّة: آلهة، ثمّ طفقتم تعبدونها، فكأنّكم لا تعبدون إلا أسماء لا مسمّيات لها. ومعنى: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ سمّيتم بها، يقال: سمّيته زيداً،

---

(١) «هم» مكررة في الآية (٣٧).
(٢) هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ...﴾ الآية (٣٧).

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾

وسمّيته بزيد ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ بتسميتها ﴿مِن سُلْطَـٰنٍ﴾ حجّة ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في أمر العبادة والدين ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾. ثمّ بيّن ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلّت عليه البراهين ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يدلّ على أنّ العقوبة تلزم العبد وإن جهل إذا أمكن له العلم بطريقه.

٤١ ـ ثمّ عبّر الرؤيا فقال: ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يريد الشرابي ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ سيّده ﴿خَمْرًا﴾ أي: يعود إلى عمله ﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ﴾ أي: الخبّاز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ رُوي أنه قال للأوّل: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك، وحسن حالك عنده. وأما القضبان الثلاثة فإنّها ثلاثة أيّام تمضي في السجن، ثمّ تخرج، وتعود إلى ما كنت عليه. وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيّام، ثمّ تخرج فتقتل. ولمّا سمع الخبّاز صلبه قال: ما رأيت شيئاً. فقال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: قطع وتمّ ما تستفتيان فيه من أمركما وشأنكما، أي: ما يجرّ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما، ونجاة الآخر.

٤٢ ـ ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظانّ هو يوسف ـ عليه السلام ـ إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظانّ هو الشرابيّ، أو: يكون الظنّ بمعنى اليقين ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ صفني عند الملك بصفتي، وقصّ عليه قصّتي لعلّه يرحمني، ويخلّصني من هذه الورطة ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ فأنسى الشرابيّ ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: أن يذكره لربّه، أو: عند ربّه. أو: فأنسى يوسفَ ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره. وفي الحديث: «رحم الله

فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

أخي يوسف لو لم يقل: ﴿اذكرني عند ربك﴾ لما لبث في السجن سبعاً»[١] ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي: سبعاً عند الجمهور. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

٤٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ لمّا دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريّان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت، وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتّى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها. وقيل: كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا، ثمّ كان سبب نجاته أيضاً الرؤيا. ﴿سمان﴾ جمع سمين وسمينة. والعجاف: المهازيل. والعَجَف: الهزال الذي ليس بعده سمانة. والسبب في وقوع ﴿عجاف﴾ جمعاً لعجفاء ـ وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال ـ: حمله على نقيضه وهو سمان. ومن دأبهم حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض. وفي الآية دلالةٌ على أنّ السّنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر؛ لأنّ الكلام مبنيّ على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنابل الخضر؛ فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع، ويكون قوله: ﴿وأخر يابسات﴾ بمعنى: وسبعاً أخر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ كأنّه أراد: الأعيان من العلماء، والحكماء ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اللام في ﴿للرؤيا﴾ للبيان، كقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾. أو: لأنّ المفعول به إذا تقدّم على الفعل لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخّر عنه، فعضد بها. تقول: عبرت الرؤيا، وللرؤيا عبرت. أو: يكون للرؤيا: خبر كان، كقولك: كان فلان لهذا الأمر: إذا كان مستقلاً به، متمكّناً منه، و﴿تعبرون﴾ خبر آخر،

---

(١) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. (الدر المنثور ٤/ ٥٤١).

قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ

أو: حال. وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها، وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتّى تبلغ آخر عرضه، وهو عَبره. ونحوه: أوّلت الرؤيا؛ إذا ذكرت مآلها، وهو مرجعها. وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الأثبات، ورأيتهم ينكرون عبّرت بالتشديد، والتعبير والمعبَّر.

٤٤ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: هي ﴿أضغاث أحلام﴾ أي: تخاليطها، وأباطيلُها، وما يكون منها من حديث نفس، أو: وسوسة شيطان. وأصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات، وحزم من أنواع الحشيش. الواحد: ضغث، فاستعيرت لذلك. والإضافة بمعنى «مِنْ» أي: أضغاث من أحلام. وإنما جمع؛ وهو حُلْم واحد تزايداً في وصف الحلم بالبطلان. وجاز أن يكون قد قصّ عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أرادوا بالأحلام: المنامات الباطلة، فقالوا: ليس لها عندنا تأويل، إنّما التأويل للمنامات الصحيحة. أو: اعترفوا بقصور علمهم، وأنّهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين.

٤٥ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ من القتل ﴿مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال هو الفصيح. وأصله: اذتكر، فأبدلت الذال دالاً، والتاء دالاً، وأدغمت الأولى في الثانية لتقارب الحرفين. وعن الحسن: (واذّكر). ووجهه: أنّه قلب التاء ذالاً، وأدغم، أي: تذكّر يوسفَ، وما شاهد منه ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد مدّة طويلة. وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه، وأعضل على الملك تأويلها، تذكّر الناجي يوسف وتأويله رؤياه، ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أنا أخبركم به عمّن عنده علمه ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ وبالياء: يعقوب، أي: فابعثوني إليه لأسأله، فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال:

٤٦ ـ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أيها البليغ في الصدق، وإنّما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله، وتعرّف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل

أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ إلى الملك، وأتباعه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك، ويخلّصوك من محنتك.

٤٧ ـ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ هو خبر في معنى الأمر، كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ[1] وَتُجَاهِدُونَ﴾ [الصف: ١١]. دليلهُ قوله: ﴿فذروه في سنبله﴾. وإنّما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به، فيجعل كأنّه موجود، فهو يخبر عنه ﴿دَأْبًا﴾[2] بسكون الهمز. وحفص يحرّكه بالفتح. وهما مصدرا دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أي: دائبين ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ كيلا يأكله السوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

٤٨ ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هو من إسناد المجاز، جعل أكل أهلهنّ مسنداً إليهنّ ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: في السنين المخصبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون، وتخبئون.

٤٩ ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ أي: من بعد أربع عشرة سنة عام ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الغوث، أي: يجاب مستغيثهم. أو: من الغيث، أي: يمطرون. يقال: غيثت البلاد: إذا مطرت ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ العنب، والزيتون، والسمسم، فيتّخذون الأشربة، والأدهان ﴿تعصرون﴾: حمزة وعلي. فتأول البقرات السمان

---

(١) في الأصل المخطوط: واليوم الآخر بدل: «ورسوله» وهو خطأ.

(٢) في الأصل المخطوط ﴿دأباً﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ١٧٤).

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ

والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثمّ بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركاً، كثير الخير، غزير النعم، وذلك من جهة الوحي.

٥٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي: حال ﴿النسوة﴾ ﴿ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنّما تثبّت يوسف، وتأنّى في إجابة الملك، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عمّا قذف به وسُجِن فيه؛ لئلا يتسلّق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلّماً إلى حطّ منزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خلّد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم، وجرم كبير. وفيه دليلٌ على أنّ الاجتهادَ في نفي التهم واجب وجوب اتّقاء الوقوف في مواقفها. وقال عليه الصلاة والسلام: «لقد عجبتُ من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتّى أشترط أن يخرجوني. ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسول فقال: ﴿ارجع إلى ربّك﴾ ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الإجابة، وبادرت الباب، ولما ابتغيت العذر. إن كان لحليماً ذا أناة»[١]. ومن كرمه، وحسن أدبه، أنّه لم يذكر سيّدته مع ما صنعتْ به، وتسبّبت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطّعات أيديهنّ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إنّ كيدهنّ عظيم، لا يعلمه إلا الله، وهو مجازيهنّ عليه.

٥١ ـ فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة المقطّعات أيديهنّ، ودعا امرأة العزيز، ثمّ ﴿قَالَ﴾ لهنّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؟ ما شأنكنّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هل وجدتنّ منه ميلاً إليكنّ؟ ﴿قُلْنَ

(١) انظره في الدر المنثور (٤/٥٤٨).

حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تعجّباً من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر، واستقرّ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾. ولا مزيد على شهادتين له بالبراءة، والنزاهة، واعترافهنّ على أنفسهن بأنّه لم يتعلّق بشيء مما قذف به.

٥٢ - ثمّ رجع الرسول إلى يوسف، وأخبره بكلام النسوة، وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها، فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: امتناعي من الخروج والتثبّت لظهور البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب في حرمته. ﴿بالغيب﴾ حال من الفاعل، أو: المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه، أو: وهو غائب عنّي. أو: ﴿ليعلم﴾ الملك أنّي لم أخن العزيز. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وليعلم أن الله ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ لا يسدّده. وكأنّه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها.

٥٣ - ثمّ أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكّياً، وليبيّن أنّ ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته، فقال: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلّيّة، ولا أزكّيها في عموم الأفعال. أو: في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهمّ الذي هو الخطرة البشريّة، لا عن طريق القصد، والعزم. ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أراد الجنس، أي: أنّ هذا الجنس يأمر بالسوء، ويحمل عليه لما فيه من الشهوات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ إلا البعض الذي رحمه ربّي بالعصمة. ويجوز أن يكون ﴿ما رحم﴾ في معنى الزمان، أي: إلا وقت رحمة ربّي، يعني: أنّها أمّارة بالسوء في كلّ وقت إلا وقت العصمة. أو: هو استثناء منقطع، أي: ولكن رحمة ربّي هي التي تصرف الإساءة. وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، أي: ﴿ذلك﴾ الذي قلت ﴿ليعلم﴾ يوسف ﴿أنّي لم أخنه﴾ ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصدق فيما سئلت عنه ﴿وما أبرّىء

إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

نفسي﴾ مع ذلك من الخيانة، فإنّي قد خنته حين قرفته[1]، وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن﴾ وأودعته السجن ـ تريد الاعتذار مما كان منها ـ إنّ كلّ نفس ﴿لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربّي﴾ إلا نفساً رحمها الله بالعصمة، كنفس يوسف ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، استغفرت ربها، واسترحمته مما ارتكبت. وإنّما جعل من كلام يوسف، ولا دليل عليه ظاهر؛ لأن المعنى يقود إليه. وقيل: هذا من تقديم القرآن وتأخيره، أي: قوله ﴿ذلك ليعلم﴾ متّصل بقوله: ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ﴾.

٥٤ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كلّ شيء. رُوي: أنّ الرسول جاءه ومعه سبعون حاجباً، وسبعون مركباً، وبعث إليه لباس الملوك، فقال: أجب الملك، فخرج من السجن. ودعا لأهله: اللهم عطّف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعمّ عليهم الأخبار، فهم أعلمُ الناس بالأخبار في الواقعات. وكتب على باب السجن: هذه منازل البلواء، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. ثمّ اغتسل، وتنظّف من درن السجن، ولبس ثياباً جدداً، فلمّا دخل على الملك قال: اللهم إنّي أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّه. ثمّ سلّم عليه، ودعا له بالعبرانيّة، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. وكان الملك يتكلّم بسبعين[2] لساناً، فكلّمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجّب منه، وقال: أيّها الصدّيق! إنّي أحبّ أن أسمع رؤياي منك. قال: رأيت بقرات، فوصف لونهنّ، وأحوالهنّ، ومكان خروجهنّ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك، وقال له: من حقّك أن تجمع الطعام

---

(١) «قرفته»: اتهمته.

(٢) لا وجه لهذه المبالغة ولا فائدة منها.

قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

في الأهراء[١]، فيأتيك الخلق من النواحي، ويمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلك. قال الملك: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه؟

٥٥ ـ ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ ولّني على خزائن أرضك، يعني: مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، ﴿عَلِيمٌ﴾ عالم بوجوه التصرّف. وصف نفسه بالأمانة والكفاية، وهما طلبة الملوك ممن يولّونه. وإنّما قال ذلك ليتوصّل إلى إمضاء أحكام الله، وإقامة الحقّ، وبسط العدل، والتمكّن ممّا لأجله بعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أنّ أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

فطلبه ابتغاء وجه الله لا لحبّ الملك والدنيا. وفي الحديث: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنّه أخّر ذلك سنة»[٢]. قالوا: وفيه دليلٌ على أنّه يجوز أن يتولّى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولّون القضاء من جهة الظلمة. وإذا علم النبيّ، أو العالم أنّه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله، ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر، أو الفاسق، فله أن يستظهر به. وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه في كلّ ما رأى، وكان في حكم التابع له.

٥٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر. وكانت أربعين فرسخاً في أربعين. والتمكين: الإقدار، وإعطاء المُكْنَة ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: كلّ مكان أراد أن يتّخذه منزلاً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها، ودخولها تحت سلطانه. ﴿نشاء﴾: مكيّ ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا من الملك، والغِنىٰ، وغيرهما من النعم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا.

---

(١) «الأهراء»: مواضع يشتدّ فيها البرد.

(٢) قال الحافظ: رواه الثعلبي بإسناد ساقط. (حاشية الكشاف ٢/ ٤٨٢).

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

٥٧ ـ ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد يوسف وغيره من المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، والفواحش. قال سفيان بن عيينة: المؤمن يُثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجّل له الخير في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق. وتلا الآية. رُوي: أنّ الملك توّج يوسف، وختمه بخاتمه، وردّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكلّلاً بالدرّ والياقوت، فقال: أمّا السرير فأشدّ به ملكك، وأمّا الخاتم فأدبّر به أمرك، وأمّا التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوّض الملك إليه أمره، وعزل قطفير، ثمّ مات بعد، فزوّجه الملك امرأته، فلمّا دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين أفراثيم، وميشا[1]. وأقام العدل بمصر وأحبّته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الأولى، حتّى لم يبق معهم شيء منها، ثمّ بالحليّ والجواهر في الثانية، ثمّ بالدوابّ في الثالثة، ثمّ بالعبيد والإماء في الرابعة، ثمّ بالدور والعقار في الخامسة، ثمّ بأولادهم في السادسة، ثمّ برقابهم في السابعة حتّى استرقّهم جميعاً، ثمّ أعتق أهل مصر عن آخرهم، وردّ عليهم أملاكهم. وكان لا يبيع لأحدٍ من الممتارين أكثر من حمل بعير.

٥٨ ـ وأصاب أرض كنعان نحو ما أصاب مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا. وذلك قوله: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ بلا تعريف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لتبدّل الزيّ، ولأنه كان من وراء الحجاب، ولطول المدّة، وهو أربعون سنة.

٥٩ ـ ورُوي أنّه لمّا رآهم وكلّموه بالعبرانيّة، قال لهم: أخبروني مَن أنتم؟ وما شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام، رعاة، أصابنا الجهد، فجئنا

---

(١) هذه الحكاية الإسرائيلية أشبه بحكايات العجائز، وخيالات القصّاصين.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا

نمتار. فقال: لعلّكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي! فقالوا: معاذ الله! نحن بنو نبيّ حزين لفقد ابن، كان أحبّنا إليه، وقد أمسك أخاً له من أمّه يستأنس به. فقال: ائتوني به إن صدقتم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ﴾ أعطى كلّ واحد منهم حمل بعير. وقرىء بكسر الجيم شاذّاً ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أتمّه ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ كان قد أحسن إنزالهم، وضيافتهم. رغّبهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

٦٠ ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ فلا أبيعكم طعاماً ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: فإن لم تأتوني به تحرموا، ولا تقرّبوا، فهو داخل في حكم الجزاء مجزوم معطوف على محلّ قوله: ﴿فلا كيل لكم﴾. أو: هو بمعنى النهي.

٦١ ـ ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنخادعه عنه، ونحتال حتّى ننزعه من يده ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا محالة، لا نفرّط فيه، ولا نتوانى. قال: فدعوا بعضكم رهناً. فتركوا عنده شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف.

٦٢ ـ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ ﴿لفتيته﴾ غيرهم. وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ. وفعلة للقلّة، وفعلان للكثرة، أي: لغلمانه الكيالين ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم، وكانت نعالاً، أو: أدماً، أو: ورقاً، وهو أليق بالدّسّ في الرحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يعرفون حقّ ردّها، وحقّ التكرّم بإعطاء البدلين ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفرّغوا ظروفهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلّ معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، أو: ربّما لا يجدون بضاعة بها يرجعون، أو: ما فيهم من الديانة يعيدهم لردّ الأمانة، أو: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً.

٦٣ ـ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ بالطعام، وأخبروه بما فعل ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا

ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ

﴿ٱلۡكَيۡلُ﴾ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنّهم إذا أنذروا بمنع الكيل، فقد منع الكيل ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ نرفع المانع من الكيل و﴿نكتل﴾ من الطعام ما نحتاج إليه. ﴿يكتلْ﴾[1]: حمزة، وعليّ، أي: يكتل أخونا، فينضمّ اكتياله إلى اكتيالنا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ عن أن يناله مكروه.

٦٤ ـ ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ يعني: أنكم قلتم في يوسف: ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون﴾ كما تقولونه في أخيه، ثمّ خنتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك؟ ثمّ قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ كوفيّ ـغير أبي بكرـ فتوكلّ على الله فيه، ودفعه إليهم. وهو حال، أو تمييز. ومن قرأ ﴿حفظاً﴾ فهو تمييز لا غير ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتين. قال كعب لمّا قال: ﴿فالله خير حافظاً﴾ قال الله تعالى: وعزّتي وجلالي! لأردّنّ عليك كليهما.

٦٥ ـ ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾ «ما» للنفي. أي: ﴿ما نبغي﴾ في القول، ولا نتجاوز الحقّ. أو: ﴿ما نبغي شيئاً﴾ وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو: ما نريد منك بضاعة أخرى. أو: للاستفهام، أي: أيّ شيء نطلب وراء هذا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ جملة مستأنفة موضّحة لقوله: ﴿مانبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها، أي: أنّ بضاعتنا ﴿ردّت إلينا﴾ فنستظهر بها ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ في رجوعنا إلى الملك، أي: نجلب لهم ميرة. وهي: طعام يحمل من غير بلدك ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ في ذهابنا ومجيئنا، فما يصيبه شيء مما تخافه ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ نزداد وسق

(١) في الأصل المخطوط: (لِيَكْتَلْ).

ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ

بعير باستصحاب أخينا ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل عليه متيسّر، لا يتعاظمه.

٦٦ ـ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ وبالياء: مكيّ ﴿مَوْثِقًا﴾ عهداً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾. والمعنى: حتّى تعطوني ما أتوثّق به من عند الله، أي: أراد أن يحلفوا له بالله. وإنّما جعل الحلف بالله موثقاً منه؛ لأنّ الحلف به ممّا يؤكّد به العهود، وقد أذن الله في ذلك، فهو إذن منه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ جواب اليمين، لأنّ المعنى، حتّى تحلفوا: ﴿لتأتنّني به﴾ ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا، فلم تطيقوا الإتيان به، فهو مفعول له، والكلام المثبت ـ وهو قوله: ﴿لتأتنني به﴾ ـ في تأويل النفي، أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، يعني: لا تمتنعوا منه لعلّة من العلل إلا لعلّة واحدة، وهي: ﴿أن يحاط بكم﴾، فهو استثناء من أعمّ العامّ في المفعول له. والاستثناء من أعمّ العامّ لا يكون إلا في النفي، فلا بدّ من تأويله بالنفي ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ قيل: حلفوا بالله ربّ محمد ﷺ ﴿قَالَ﴾ بعضهم يسكت عليه؛ لأن المعنى ﴿قال﴾ يعقوب: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق، وإعطائه ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطّلع. غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول، وذا لا يجوز، فالأولى أن يفرّق بينهما بالصوت، فيقصد بقوّة النغمة اسم الله.

٦٧ ـ ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ الجمهور على أنّه خاف عليهم العين لجمالهم، وجلالة أمرهم، ولم يأمرهم بالتفرّق في الكرة الأولى، لأنّهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى، فالعين حقّ عندنا. ووجوده بأن يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه، وخللاً. وكان النبيُّ ﷺ يُعوِّذ الحسنَ والحسين ـ رضي الله عنهما ـ فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التّامة من كلّ هامّة، ومن كلّ عين لامّة»(١). وأنكر الجُبَّائي(٢) العين، وهو

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣٦) والبخاري (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) والترمذي (٢٠٦٠).
(٢) هو محمد أبو علي بن عبد الوهاب بن سلام الجُبَّائي المعتزلي، توفي سنة (٣٠٣هـ).

وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ

مردودٌ بما ذكرنا. وقيل: إنّه أحبّ ألا يفطن بهم أعداؤهم فلا يحتالون لإهلاكهم ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: إن كان الله أراد بكم سوءاً لم ينفعكم، ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرّق، وهو مصيبكم لا محالة ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ التوكّل: تفويض الأمر إلى الله تعالى، والاعتماد عليه.

٦٨ ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي: متفرّقين ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم﴾ دخولهم من أبواب متفرقة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: شيئاً قطّ، حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرّقهم من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إِلَّا حَاجَةٗ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن حاجة ﴿فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي شفقته عليهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ﴾ يعني قوله: ﴿وما أغني عنكم﴾ وعلمه بأنّ القدر لا يغني عنه الحذر ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ لتعليمنا إيّاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك.

٦٩ ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ ضمّ إليه بنيامين. ورُوي: أنّهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم. فأنزلهم، وأكرمهم، ثمّ أضافهم، وأجلس كلّ اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه. فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً! فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكله. وقال له: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: ومن يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكىٰ يوسف، وعانقه. ثمّ ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾

فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾

يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى؛ فإنّ الله قد أحسن إلينا، وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك. ورُوي: أنّه قال له: فأنا لا أفارقك، قال: لقد علمت اغتمام والدي بي، فإن حبستك ازداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يُحْمَد، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدسّ صاعي في رحلك، ثمّ أنادي عليك بأنّك سرقته ليتهيّأ لي ردّك بعد تسريحك معهم، فقال: افعل.

٧٠ ـ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ هيّأ أسبابهم، وأوفى الكيل لهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية: هي مشربة يُسْقَى بها، وهي: الصواع. قيل: كان يُسْقَى بها الملك، ثمّ جُعِلت صاعاً يُكال به لعزّة الطعام. وكان يشبه الطاس من فضّة، أو ذهب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثمّ نادى مناد. آذنه: أي أعلمه، وأذّن: أكثر الإعلام، ومنه: المؤذّن لكثرة ذلك منه. رُوي: أنّهم ارتحلوا، وأمهلهم يوسف ـ عليه السلام ـ حتّى انطلقوا، ثمّ أمر بهم، فأدركوا، وحبسوا، ثمّ قيل لهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ هي الإبل التي عليها الأحمال، لأنّها تعير، أي: تذهب وتجيء. والمراد: أصحاب العير ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ كناية عن سرقتهم إيّاه من أبيه.

٧١ ـ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾

٧٢ـ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ هو الصاع ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يقوله المؤذّن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل أؤدّيه إلى من جاء به. وأراد: وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصّله.

٧٣ ـ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجّب ممّا أضيف إليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم، وأمانتهم، حيث دخلوا، وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعاً، أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنّهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وَمَا

قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ وما كنّا نُوصف قطّ بالسرقة.

٧٤ ـ ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الضمير للصواع، أي: فما جزاء سرقته؟ ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في جحودكم، وادّعائكم البراءة منه.

٧٥ ـ ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله. وكان حُكْم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة، فلذلك استفتوا في جزائه. وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير. أو: ﴿جزاؤه﴾: مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي: خبره ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: السرّاق، بالاسترقاق.

٧٦ ـ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة، حتّى بلغ وعاءه، فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً! فقالوا: والله لا نتركه حتّى تنظر في رحله، فإنّه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: الصواع ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ذكّر ضمير الصواع مرّات، ثمّ أنّثه؛ لأنّ التأنيث يرجع إلى السقاية، أو: لأن الصواع يذكّر ويؤنّث. الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلّ النصب، أي: مثل ذلك الكيد العظيم ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني: علّمناه إياه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ تفسير للكيد، وبيان له؛ لأنّ الحكم في دين الملك ـ أي: في سيرته ـ للسارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يستعبد ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله، وإرادته فيه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ بالتنوين: كوفيّ، ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: في العلم، كما رفعنا درجة يوسف فيه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوقه أرفع درجة منه في علمه. أو: فوق العلماء كلّهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وجلّ.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾

٧٧ ـ ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ أرادوا يوسف. قيل: دخل كنيسةً فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب، كانوا يعبدونه، فدفنه. وقيل: كان في المنزل دجاجة فأعطاها السائل. وقيل: كانت منطقة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ يتوارثها أكابر ولده، فورثها إسحاق، ثمّ وقعت إلى ابنته، وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف، وهي عمّته بعد وفاة أمّه، وكانت لا تصبر عنه. فلمّا شبَّ أراد يعقوب أن ينزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه، وقالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا مَن أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنّه لي سَلَم، أفعل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتّى ماتت.

ورُوي: أنّهم لمّا استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه، وقالوا له: فضحتنا، وسوّدت وجوهنا. يا بني راحيل! ما يزال لنا منكم بلاء. متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لايزال منكم عليهم بلاء؟! ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواعَ في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أي: مقالتهم إنّه سرق، كأنّه لم يسمعها ﴿يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ تمييز، أي: أنتم شرّ منزلة في السّرق، لأنّكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تقولون، أو تكذبون.

٧٨ ـ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ في السنّ، وفي القدر ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أبدله على وجه الاسترهان، أو: الاستعباد، فإنّ أباه يتسلى به عن أخيه المفقود ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلينا، فأتمم إحسانك. أو: من عادتك الإحسان، فاجرِ على عادتك، ولاتغيّرها.

٧٩ ـ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: نعوذ بالله معاذاً

إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا

من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به، وحذف «من» ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ «إذاً» جواب لهم وجزاء، لأنّ المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا. وهذا لأنّه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله، واستعباده. فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنّه ظلم؟

٨٠ ـ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ يئسوا. وزيادة السين والتاء للمبالغة، كما مرّ في: ﴿استعصم﴾ ﴿مِنْهُ﴾ من يوسف، وإجابته إياهم ﴿خَلَصُوا۟﴾ انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نَجِيًّا﴾ ذوي نجوى، أو: فوجاً ﴿نجياً﴾ أي: مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً، أو: تمحّضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام، كأنّهم في أنفسهم صورة عن التناجي، وحقيقته. فالنجيّ يكون بمعنى المناجي، كالسمير بمعنى المسامر، وبمعنى المصدر الذي هو التناجي. وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أيّ صفة يذهبون، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنّ، وهو: روبيل، أو: في العقل والرأي، وهو: يهوذا. أو: رئيسهم، وهو: شمعون ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ «ما» صلة، أي: ومن قبل هذا قصّرتم في شأن يوسف، ولم تحفظوا عهد أبيكم. أو: مصدريّة. ومحلّ المصدر الرفع على الابتداء. وخبره: الظرف، وهو ﴿من قبل﴾. ومعناه: وقع ﴿من قبلُ﴾ تفريطكم ﴿في يوسف﴾ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج منها، أو بالموت، أو بقتالهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنّه لايحكم إلا بالعدل.

٨١ ـ ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرىء ﴿سُرِّق﴾، أي: نُسِب إلى السرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته،

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ

وتيقّنا إذ الصواع استخرج من وعائه ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وما علمنا أنّه سيسرق حين أعطيناك الموثق.

٨٢ ـ ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعني: مصر، أي: أرسل إلى أهلها، فاسألهم عن كنه القصّة ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير. وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا.

٨٣ ـ فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أردتموه. وإلا فمن أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يسترقّ لولا فتواكم، وتعليمكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف، وأخيه، وكبيرهم ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن، والأسف ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة.

٨٤ ـ ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به. ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أضاف الأسف ـ وهو أشدّ الحزن، والحسرة ـ إلى نفسه. والألف بدل من ياء الإضافة. والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلّف. ونحوه: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم ﴾ [التوبة: ٣٨] ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦] ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ [النمل: ٢٢]. وإنّما تأسف على يوسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليلٌ على أنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ إذ أكثر الاستعبار، ومحقت العبرة سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر. قيل: قد عمي بصره. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ لأنَّ الحزنَ سببُ البكاء الذي حدث منه البياض، فكأنّه حدث من الحزن. قيل: ما جفّت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. ويجوز للنبيّ ﷺ

فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ، لأنّ الإنسانَ مجبولٌ على ألا يملك نفسه عند الحزن، فلذلك حمد صبره. ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[1]. وإنما المذمومُ: الصّياح، والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يظهر ما يسوؤهم. فعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] من: كظم السقاء: إذا شدّه على ملئه.

٨٥ ـ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا﴾ أي: لا تفتأ، فحذف حرف النفي؛ لأنّه لا يلتبس، إذ لو كان إثباتاً لم يكن بدّ من اللام والنون. ومعنى: لا تفتأ: لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مشفياً على الهلاك مرضاً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

٨٦ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ البثّ: أصعب الهمّ؛ الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيبثّه إلى الناس، أي: ينشره، أي: لا أشكو إلى أحدٍ منكم ومن غيركم، إنّما أشكو إلى ربّي، داعياً له، وملتجئاً إليه، فخلّوني وشكايتي. ورُوي أنّه أوحي إلى يعقوب إنما وجدت عليكم؛ لأنّكم ذبحتم شاة، فوقف ببابكم مسكين، فلم تطعموه، وإنّ أحبّ خَلْقي إليّ الأنبياء، ثمّ المساكين، فاصنع طعاماً، وادعُ عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها، فباع ولدها، فبكت حتّى عميت ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأعلم من رحمته أنّه يأتيني الفرج من حيث لا أحتسب. ورُوي: أنّه رأى مَلَك الموت في منامه، فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، والله، هو حيّ فاطلبه. وعلّمه هذا الدعاء: ياذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصيه غيرك، فرّج عني.

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى

٨٧ ـ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرّفوا منهما، وتطلّبوا خبرهما. وهو تفعّل من الإحساس، وهو: المعرفة ﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله، وفَرَجه. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الأمر، والشأن ﴿لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأنّ من آمن يعلم أنّه متقلّب في رحمة الله ونعمته. وأمّا الكافر فلا يعرف رحمة الله، ولا تقلّبه في نعمته فييأس من رحمته.

٨٨ ـ فخرجوا من عند أبيهم راجعين إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهزال من الشدّة، والجوع. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ مدفوعة، يدفعها كلّ تاجر رغبة عنها، واحتقاراً لها. من: أزجيته: إذا دفعته، وطردته. قيل: كانت دراهم زيوفاً، لا تُؤخذ إلا بوضيعة، وقيل: كانت صوفاً وسمناً. ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ الذي هو حقّنا. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ وتفضّل علينا بالمسامحة، والإغماض عن رداءة البضاعة، أو: زدنا على حقّنا، أو: هَبْ لنا أخانا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٨٩ ـ لّما قالوا: ﴿مسّنا وأهلنا الضرّ﴾ وتضرعوا إليه، وطلبوا منه أن يتصدّق عليهم، ارفضّت عيناه، ولم يتمالك أن عرّفهم نفسه، حيث ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾؟ أي: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴿وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ لا تعلمون قبحه، أو: إذ أنتم في حدّ السّفه، والطيش؟ وفعلهم بأخيه: تعريضهم إيّاه للغمّ بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

٩٠ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ ﴿لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ اللام لام الابتداء، و﴿أنت﴾ مبتدأ، و﴿يوسف﴾ خبره، والجملة: خبر إنّ ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ وإنّما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه، لأنّه كان في ذكر

قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ

أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالألفة بعد الفرقة. وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة، ولم يبدأ بالملامة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الفحشاء ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أجرهم. فوضع المحسنين موضع الضمير؛ لاشتماله على المتّقين والصابرين. وقيل: مَن يتّق مولاه، ويصبر على بلواه، لا يضيّع أجره في دنياه، وعقباه.

٩١ ـ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضّلك علينا بالعلم، والحلم، والتقوى، والصبر الحسن ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وإنّ شأننا وحالنا أنّا كنّا خاطئين متعمّدين للإثم لم نتق، ولم نصبر. لا جرم أنّ الله أعزّك بالملك، وأذلّنا بالتمسكن بين يديك.

٩٢ ـ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تعيير عليكم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ متعلّق بالتثريب، أو: بيغفر. والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنّة التثريب، فما ظنّكم بغيره من الأيّام؟ ثمّ ابتدأ فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم. يقال: غفر الله لك، ويغفر لك، على لفظ الماضي والمضارع. أو: ﴿اليوم يغفر الله لكم﴾ بشارة بعاجل غفران الله. ورُوي: أنّ رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش: «ما ترونني فاعلاً بكم؟» قالوا: نظنّ خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت. فقال: «أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾»[1]. ورُوي: أنّ أبا سفيان لمّا جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيتَ رسول الله فاتلُ عليه: ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ ففعل. فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك ولمن علّمك»[2]. ويُروى:

---

(١) قال الحافظ: أخرجه النسائي والبيهقي بمعناه وأتم منه، وأخرجه الثعلبي بهذا اللفظ وأتم منه. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٠٣).

(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٠٣).

وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

أنّ إخوته لمّا عرفوه أرسلوا إليه: أنّك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيّاً، ونحن نستحيي منك لما فرط منّا فيك. فقال يوسف: إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنّهم ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلّغ عبداً بِيْع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أنّي من حفدة إبراهيم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور، فما ظنّكم بالغنيّ الغفور؟

٩٣ ـ ثم سألهم عن حال أبيه، فقالوا: إنّه عمي من كثرة البكاء، قال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾. قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف، وكان من الجنّة، أمره جبريل أن يرسله إليه، فإنّ فيه ريح الجنّة، لا يقع على مبتلى، ولا سقيم إلا عُوفي ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يصر بصيراً. تقول: جاء البناء محكماً، أي: صار. أو: ﴿يأت﴾ إليّ وهو بصير. قال يهوذا: أنا أحمل قميص الشفاء، كما ذهبت بقميص الجفاء. وقيل: حمله وهو حافٍ، حاسر من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً. ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لينعموا بآثار ملكي، كما اغتمّوا بأخبار هلكي.

٩٤ ـ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مصر. يقال: فصل من البلد فصولاً: إذا انفصل منه، وجاوز حيطانه ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لولد ولده، ومن حوله من قومه ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح القميص من حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ التفنيد: النسبة إلى الفند، وهو الخرف، وإنكار العقل، من هرم، يقال: شيخ مفنّد. والمعنى: لولا تفنيدكم إيّاي لصدّقتموني.

٩٥ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: أسباطه ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾

عن الصواب قديماً في إفراط محبّتك ليوسف، أو: في خطئك القديم من حبّ يوسف، وكان عندهم أنّه قد مات.

٩٦ ـ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ أي: يهوذا ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب، أو: ألقاه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ فرجع ﴿بَصِيرًا﴾ يقال: ردّه فارتدّ. وارتدّه: إذا ارتجعه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يعني: قوله ﴿إنّي لأجد ريح يوسف﴾ أو: قوله ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾. وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كلام مبتدأ، لم يقع عليه القول. أو: وقع عليه، والمراد قوله: ﴿إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾. ورُوي: أنّه سأل البشير: كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك؟! على أيّ دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمّت النعمة.

٩٧ ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: سل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقّك، وحقّ ابنك، إنّا تبنا، واعترفنا بخطايانا.

٩٨ ـ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أخّر الاستغفار إلى وقت السحر، أو: إلى ليلة الجمعة، أو: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة، أو: إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم.

٩٩ ـ ثمّ إنّ يوسف وجّه إلى أبيه جهازاً ومئتي راحلة ليتجهّز إليه بمن معه، فلمّا بلغ قريباً من مصر خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقّوا يعقوب وهو يمشي يتوكّأ على يهوذا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ ضمّ إليه ﴿أَبَوَيْهِ﴾ واعتنقهما. قيل: كانت أمّه باقية، وقيل: ماتت، وتزوج أبوه خالته. والخالة أمّ، كما أن العمّ أب. ومنه قوله: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر: أنه حين استقبلهم أنزلهم في مضرب خيمة،

وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ

أو قصر كان له ثمّة، فدخلوا عليه، وضمّ إليه أبويه ﴿وَقَالَ﴾ لهم بعد ذلك: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من ملوكها. وكانوا لا يدخلونها إلا بجوار، أو: من القحط. وروي: أنّه لمّا لقيه قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: السلام عليك يا مذهب الأحزان. وقال له يوسف: يا أبتِ بكيت عليّ حتّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خشيتُ أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك. وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر، وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمئة ألف وخمسمئة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذريّة والهرمى. وكانت الذريّة ألف ألف ومئتي ألف.

١٠٠ ـ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ قيل: لمّا دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره، واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخرّوا له﴾ يعني الأخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجّداً﴾ وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحيّة والتكرمة، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد. وقال الزجّاج: سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظّم. وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه، وخرورهم سجّداً يأباه. وقيل: ﴿وخرّوا﴾ لأجل يوسف ﴿سجّداً﴾ لله شكراً. وفيه نبوّة أيضاً. واختلف في استنبائهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا﴾ أي: الرؤيا ﴿رَبِّي حَقّٗا﴾ أي: صادقة. وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنة، أو ثمانون، أو ستّ وثلاثون، أو اثنتان وعشرون ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ يقال: أحسن إليه، وبه، وكذلك: أساء إليه، وبه ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ ولم يذكر الجبّ، لقوله: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ من البادية، لأنّهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه، والمناجع[1] ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ أي: أفسد بيننا،

(١) «المناجع»: جمع المنجع، وهو الموضع الذي يُقصد لما فيه من كلأ وماء.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝١٠٠ ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝١٠١﴾

وأغرى ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف التدبير ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ بتأخير الآمال إلى الآجال. أو: حكم بالائتلاف بعد الاختلاف.

١٠١ ـ ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تفسير كتب الله، أو: تعبير الرؤيا. و﴿من﴾ فيهما للتبعيض إذ لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا، وبعض التأويل. ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ انتصابه على النداء ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ طلب الوفاة على حال الإسلام، كقول يعقوب لولده: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وعن الضحّاك: مخلصاً. وعن التستري: ﴿مسلماً﴾ إليك أمري. وفي «عصمة الأنبياء»: إنّما دعا به يوسف ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة؛ لأنّ ظواهر الأنبياء لنظر الأمم إليهم ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائي، أو: على العموم.

ورُوي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب، فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الذهب والفضّة، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، حتّى أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بنيّ ما أعقك! عندك هذه القراطيس، وما كتبت إليّ على ثماني مراحل. فقال: أمرني جبريل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه منّي، فاسأله. فقال جبريل: الله أمرني بذلك؛ لقولك: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ قال: فهلاّ خفتني! ورُوي: أنّ يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة، ثمّ مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق. فمضى بنفسه، ودفنه ثمّة، ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة. فلمّا تمّ أمره طلبت نفسه الملك الدائم، فتمنّى الموت. وقيل: ما تمناه نبيّ قبله ولا بعده، فتوفّاه الله طيّباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر، وتشاحنوا في دفنه، كلّ يحبّ أن يُدفن في محلّتهم، حتّى همّوا بالقتال، فرأوا أن يعملوا له صندوقاً من مرمر

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء، ثمّ يصل إلى مصر ليكونوا كلّهم فيه شَرْعاً، حتّى نقل موسى ـ عليه السلام ـ بعد أربعمئة سنة تابوته إلى بيت المقدس. وولد له أفرائيم، وميشا، وولد لإفرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى. ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، فلم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه.

١٠٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف. والخطاب لرسول الله ﷺ. وهو مبتدأ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى بني يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ عزموا على ما همّوا به من إلقاء يوسف في البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف، ويبغون له الغوائل. والمعنى: أنّ هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنّك لم تحضر بني يعقوب حين اتّفقوا على إلقاء أخيهم في البئر.

١٠٣ ـ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أراد العموم، أو: أهل مكّة، أي: وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كلّ الاجتهاد على إيمانهم.

١٠٤ ـ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، أو: على الرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْل ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ماالقرآن إلا عظة من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وحثّ على طلب النجاة على لسان رسولٍ من رسله.

١٠٥ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من علامة، ودلالة على الخالق، وعلى صفاته، وتوحيده ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات، أو: على الأرض، ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ عن الآيات ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يعتبرون بها. والمراد: ما يرون من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من العبر.

١٠٦ ـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي: وما يؤمن أكثرهم في

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

إقراره بالله، وبأنّه خلقه، وخلق السموات والأرض إلا وهومشرك بعبادة الوثن. الجمهور على أنها نزلت في المشركين؛ لأنهم مقرّون بالله خالقهم، ورازقهم. وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله، ومع ذلك يشركون به غيره. ومن جملة الشرك: ما يقوله القدريّة من إثبات قدرة التخليق للعبد. والتوحيد المحض: ما يقوله أهل السنّة، وهو: أنّه لا خالق إلا الله.

١٠٧ ـ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ عقوبة تغشاهم، وتشملهم ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ حال، أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

١٠٨ ـ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ﴿سَبِيلِىٓ﴾. والسبيل والطريق يذكّران ويؤنثان. ثمّ فسّر سبيله بقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعوا إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء ﴿أَنَا۠﴾ تأكيد للمستتر في ﴿أدعو﴾ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف عليه، أي: أدعو إلى سبيل الله أنا، ويدعو إليه من اتّبعني، أو: ﴿أنا﴾ مبتدأ، و﴿على بصيرة﴾ خبر مقدّم ﴿ومن اتّبعني﴾ عطف على ﴿أنا﴾. يخبر ابتداء بأنّه ومن اتّبعه على حجة وبرهان، لا على هوى ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وأنزّهه عن الشركاء ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مع الله غيره.

١٠٩ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لاملائكة، لأنّهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة﴾ أو: ليست فيهم امرأة ﴿نُّوحِىٓ﴾ بالنون: حفص ﴿إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنهم أعلم، وأحلم. وأهل البوادي فيهم الجهل، والجفاء ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ﴿ولدار﴾ الساعة ﴿الآخرة﴾ ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشرك، وآمنوا به ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وبالياء: مكّيّ، وأبو عمرو، وحمزة، وعلي.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

١١٠ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ يئسوا من إيمان القوم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾[1] وأيقن الرسل أنّ قومهم كذّبوهم. وبالتخفيف: كوفيّ، أي: وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذّبوا، أي: أخلفوا. أو: وظنّ المرسل إليهم أنّهم كذبوا من جهة الرسل، أي: كذبتهم الرسل في أنّهم ينصرون عليهم، ولم يصدُقوهم فيه ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب ﴿فَنُجِّىَ﴾ بنون واحدة، وتشديد الجيم، وفتح الياء: شاميّ، وعاصم، على لفظ الماضي المبنيّ للمفعول. والقائم مقام الفاعل ﴿من﴾. الباقون: ﴿فَنُنْجِيْ﴾ [بنونين، ثانيتهما ساكنة مخفاة للجيم بعدها، وإسكان الياء][2] ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ أي: النبيّ، ومَن آمن به ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

١١١ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصص الأنبياء وأممهم. أو: في قصّة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حيث نقل من غاية الحبّ إلى غيابة الجبّ، ومن الحصير إلى السرير. فصارت عاقبة الصبر: سلامة وكرامة، ونهاية المكر: وخامة وندامة ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً مفترى كما زعم الكفّار ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن تصديق الكتب التي تقدّمته، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين، لأنه القانون الذي تستند إليه السنّة، والإجماع، والقياس ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، وأنبيائه وما نصب بعد ﴿لكن﴾ معطوف على خبر ﴿كان﴾.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿كذّبوا﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبي عمرو وآخرين.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

. . . .

عن رسول الله ﷺ: «علّموا أرقّاءكم سورة يوسف، فأيما عبد تلاها، وعلّمها أهله، وما ملكت يمينه؛ هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة ألا يحسد مسلماً»[1]. قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: في ذكر قصّة يوسف ـ عليه السلام ـ وإخوته تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش، كأنّه يقول: إنّ إخوة يوسف مع موافقتهم إيّاه في الدين، ومع الأخوّة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد، والمكر، وصبر على ذلك، فأنت مع مخالفتهم إيّاك في الدين أحرى أن تصبر على أذاهم. وقال وهب: إنّ الله تعالى لم ينزل كتاباً إلا وفيه سورة يوسف ـ عليه السلام ـ تامّة، كما هي في القرآن العظيم. والله أعلم.

* * *

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٥١١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

---

١ ـ ﴿الٓمٓر﴾ أنا الله أعلم وأرى. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أريد بالكتاب: السورة، أي ﴿تلك﴾ الآيات ﴿آيات﴾ السورة الكاملة العجيبة في بابها ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن كلّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر ﴿والذي﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيقولون: تقوّله محمد. ثمّ ذكر ما يوجب الإيمان فقال:

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: خلقها مرفوعة، لا أن تكون موضوعة فرفعها. و﴿الله﴾ مبتدأ، والخبر ﴿الذي رفع السموات﴾ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ حال. وهو جمع: عماد، أو: عمود ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير يعود إلى السموات، أي: ترونها كذلك، فلا حاجة إلى البيان. أو: إلى عمد، فيكون في موضع جرّ على أنه صفة لعمد، أي: بغير عمد مرئية ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى بالاقتدار، ونفوذ السلطان ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمنافع عباده، ومصالح بلاده ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء الدنيا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته، وربوبيّته ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يبيّن آياته في كتبه المنزلة ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلّكم توقنون بأنّ هذا المدبّر والمفصّل لا بدّ لكم من الرجوع إليه.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ

٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾ جارية ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: الأسود، والأبيض، والحلو، والحامض، والصغير، والكبير، وما أشبه ذلك ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً. (يُغشّي): حمزة، وعليّ، وأبو بكر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أنّ لها صانعاً، عليماً، حكيماً، قادراً.

٤ ـ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيّبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة. وذلك دليلٌ على قادر مدبّر مريد، موقع لأفعاله على وجهٍ دون وجه ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ معطوفة على ﴿قطع﴾ ﴿مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع: مكّيّ، وبصريّ، وحفص عطف على ﴿قطع﴾. غيرهم بالجرّ بالعطف على ﴿أعناب﴾. والصنوان جمع: صنو. وهي النخلة لها رأسان، وأصلها واحد. وعن حفص: بضمّ الصاد. وهما لغتان ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾[1] وبالياء: عاصم، وشاميّ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وبالياء: حمزة، وعليّ ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر. وبسكون الكاف: نافع، ومكّي ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الحسن: مثّل اختلاف القلوب في آثارها، وأنوارها، وأسرارها باختلاف القطع في أنهارها، وأزهارها، وثمارها.

٥ ـ ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من قولهم في إنكار البعث ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾

(١) في الأصل المخطوط ﴿تُسْقىٰ﴾ وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٠٥).

أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ

خبر ومبتدأ، أي: فقولهم حقيق بأن يتعجّب منه؛ لأنّ من قدر على إنشاء ما عدّد عليك كانت الإعادة أهون شيء عليه، وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿قولهم﴾. قرأ عاصم، وحمزة كلّ واحد بهمزتين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك الكافرون، المتمادون في كفرهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وصف لهم بالإصرار، أو: من جملة الوعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دلّ تكرار ﴿أولئك﴾ على تعظيم الأمر.

٦ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالنقمة قبل العافية. وذلك أنّهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب، استهزاء منهم بإنذاره ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذّبين، فما لهم لم يعتبروا بها، فلا يستهزئوا؟ والمثلة: العقوبة، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحلّه الحال، أي: ظالمين لأنفسهم. قال السدي: يعني: المؤمنين. وهي أرجى آية في كتاب الله، حيث ذكر المغفرة مع الظلم، وهو بدون التوبة، فإنّ التوبة تزيلها وترفعها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على الكافرين. أو: هما جميعاً في المؤمنين، لكنّه معلّق بالمشيئة فيهما. أي: ﴿يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء﴾.

٧ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ لم يعتدّوا بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى؛ من انقلاب العصا حيّة، وإحياء الموتى، فقيل لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ إنّما أنت رجل أُرْسِلت منذراً، مخوّفاً لهم من سوء العاقبة، وناصحاً كغيرك من الرسل،

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

وما عليك إلا الإتيان بما يصحّ به أنك رسول منذر، وصحّة ذلك حاصلة بأيّ آية كانت. والآيات كلّها سواء في حصول صحّة الدعوى بها ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بآية خصّ بها، لا بما يريدون، ويتحكّمون.

٨ ـ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ «ما» في هذه المواضع الثلاثة موصولة، أي: يعلم ما تحمله من الولد، على أيّ حال هو من ذكورة، وأنوثة، وتمام، وخداج، وحسن، وقبح، وطول، وقصر، وغير ذلك، وما تغيضه الأرحام، أي: ويعلم ما تنقصه ـ يقال: غاض الماء وغضته أنا ـ وما تزداده. والمراد: عدد الولد، فإنّها تشتمل على واحد، واثنين، وثلاثة، وأربعة. أو: جسد الولد، فإنّه يكون تامّاً ومخدجاً. أو: مدّة الولادة؛ فإنّها تكون أقلّ من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عندنا، وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك. أو: مصدرية، أي: يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام، وازديادها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر وحدّ لا يجاوزه، ولا ينقص عنه؛ كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

٩ ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما شاهدوه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن؛ الذي كلّ شيء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كلّ شيء بقدرته، أو: الذي كبر عن صفات المخلوقين، وتعالى عنها. وبالياء في الحالين[1]: مكّي.

١٠ ـ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: في علمه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ متوار ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ ذاهب في سربه، أي: في طريقه

---

(١) أي: وصلاً ووقفاً.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

ووجهه. يقال: سرب في الأرض سروباً. و﴿سارب﴾ عطف على ﴿من هو مستخف﴾ لا على ﴿مستخف﴾. أو: على ﴿مستخف﴾ غير أنّ ﴿من﴾ في معنى الاثنين.

١١ ـ والضمير في: ﴿لَهُۥ﴾ مردود على ﴿من﴾. كأنّه قيل: لمن أسّر، ومن جهر، ومن استخفى، ومن سرب ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه. والأصل: معتقبات، فأدغمت التاء في القاف. أو: هو مفعّلات، من: عقّبه؛ إذا جاء على عقبه؛ لأنّ بعضهم يعقب بعضاً، أو: لأنّهم يعقبون ما يتكلّم به، فيكتبونه ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: قدّامه ووراءه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ هما صفتان جميعاً. وليس ﴿من أمر الله﴾ بصلة للحفظ، كأنّه قيل: له معقّبات من أمر الله. أو: ﴿يحفظونه من﴾ أجل ﴿أمر الله﴾، أي: من أجل أنّ الله تعالى أمرهم بحفظه. أو: ﴿يحفظونه﴾ من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية، والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ عذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا يدفعه شيء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ من دون الله ممن يلي أمرهم، ويدفع عنهم.

١٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ انتصبا على الحال من البرق، كأنّه في نفسه خوف وطمع. أو: على ذا خوف، وذا طمع. أو: من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين. والمعنى: يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق، ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فتىً كالسَّحابِ الجُونِ يُخشَى ويُرتَجى ... يرجّى الحيـا منـه وتُخشَى الصَّواعِقُ[1]

(١) «الجون»: الأسود، ويُطلق على الأبيض. «الحيا»: المطر.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾

أو: يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر، ومَن له بيت يكف[1]، ومن البلاد: ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر؛ ويطمع فيه من له نفع فيه ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ هو اسم جنس، والواحدة: سحابة ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء. وهو جمع ثقيلة. تقول: سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال.

١٣ ـ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قيل: يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر، أي: يصيحون بسبحان الله، والحمد لله. وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: «الرعدُ مَلَكٌ موكّل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب»[2]. والصوت الذي يسمع: زجره السحاب حتّى ينتهي إلى حيث أمر ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ ويسبّح ﴿الملائكة﴾ من هيبته، وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الصاعقة: نار تسقط من السماء. لمّا ذكر علمه النافذ في كلّ شيء واستواء الظاهر والخفيّ عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووحدانيّته قال: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني: الذين كذبّوا رسول الله ﷺ ﴿يجادلون في الله﴾ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث، وإعادة الخلائق بقولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ويردّون الوحدانيّة باتخاذ الشركاء، ويجعلونه بعض الأجسام بقولهم: الملائكة بنات الله. أو: الواو للحال، أي: ﴿فيصيب بها من يشاء﴾ في حال جدالهم. وذلك: أن أربد [أخا لبيد بن ربيعة العامري][3] قال لرسول الله ﷺ ـ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامراً بغدّة كغدّة البعير، وموت في بيت سلوليّة، وأرسل على أربد صاعقة فقتله: ـ: أخبرني عن ربّنا أمن نحاس هو،

---

(١) «يكف»: يقطر.

(٢) رواه الترمذي (٣١١٧) والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢). «مخاريق»: جمع مخراق، وهو منديل يلفّ ليضرب به.

(٣) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾

أم من حديد؟[1] ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: المماحلة، وهي: شدّة المماكرة والمكايدة. ومنه تمحّل لكذا: إذا تكلّف لاستعمال الحيلة، واجتهد فيه. ومحل بفلان: إذا كاده، وسعى به إلى السلطان. والمعنى: أنّه شديد المكر والكيد لأعدائه بالهلكة من حيث لا يحتسبون.

١٤ ـ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أضيفت إلى الحقّ الذي هو ضدّ الباطل؛ للدلالة على أنّ الدعوة ملابسة للحقّ، وأنّها بمعزل من الباطل. والمعنى: أنّ الله سبحانه يُدعى، فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤله، فكانت دعوة ملابسة للحقّ لكونه حقيقاً بأنّه يوجّه إليه الدعاء، لما في دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع، ولا يجدي دعاؤه. واتّصال ﴿شديد المحال﴾ و﴿له دعوة الحقّ﴾ بما قبله على قصّة أربد، ظاهر؛ لأنّ إصابته بالصاعقة محال من الله، ومكر به من حيث لم يشعر. وقد دعا رسول الله ﷺ عليه وعلى صاحبه بقوله: «اللهم اخسفهما بما شئت»[2] فأجيب فيهما، فكانت الدعوة دعوة حقّ. وعلى الأوّل وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ فيهم إن دعا عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ الاستثناء من المصدر، أي: من الاستجابة التي دلّ عليها ﴿لا يستجيبون﴾ لأنّ الفعل بحروفه يدلّ على المصدر، وبصيغته على الزمان، وبالضرورة على المكان والحال، فجاز استثناء كلّ منها من الفعل، فصار التقدير: لا يستجيبون استجابة إلا استجابة كاستجابة باسط كفّيه إلى الماء، أي: كاستجابة الماء لمن بسط كفّيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه. والماء جماد لا يشعر ببسط كفّيه، ولا بعطشه، وحاجته إليه، ولا يقدر أن

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٣٣٤١ و ٣٣٤٢) والطبري في تفسيره (١٣ / ١٢٥) والواحدي في أسباب النزول (ص١٨٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٤٢).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٨٤).

وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ

يجيب دعاءه، ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحسّ بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم. واللام في ﴿ليبلغ﴾ متعلّق بباسط كفّيه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وما الماء ببالغ فاه ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ في ضياع لا منفعة فيه، لأنّهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم.

١٥ ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ سجود تعبّد، وانقياد ﴿طَوۡعٗا﴾ حال، يعني: الملائكة، والمؤمنين ﴿وَكَرۡهٗا﴾ يعني: المنافقين، والكافرين في حال الشدّة، والضيق ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ معطوف على ﴿من﴾، جمع: ظلّ ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ جمع غداة، كقُنِيّ وقناة ﴿وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ جمع أُصُل. جميع: أصيل. قيل: ظلّ كلّ شيء يسجد لله بالغدوّ والآصال، وظلُّ الكافر يسجد كرهاً وهو كاره، وظلّ المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع.

١٦ ـ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم، لأنه إذا قال لهم: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لم يكن لهم بدٌّ من أن يقولوا: ﴿الله﴾. دليلُه قراءة ابن مسعود وأُبيّ: (قالوا الله). أو: هو تلقين، أي: فإن لم يجيبوا فلقّنهم، فإنّه لا جواب إلا هذا ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أبعد أن علمتموه ربّ السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة؟ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها، أو: يدفعوا ضرراً عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق، المثيب، المعاقب؟ فما أبين ضلالتكم! ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن، أو: من لا يبصر شيئاً، ومن لا يخفى عليه شيء ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ ملل الكفر والإيمان. ﴿يستوي﴾ كوفيّ ـ غير حفص ـ ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل أجعلوا. ومعنى الهمزة: الإنكار ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ خلقوا مثل خلقه. وهو صفة لشركاء، أي: أنّهم لم يتّخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا، مثل خلق الله ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فاشتبه

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٦ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾

عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتّى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقّوا العبادة، فنتّخذهم له شركاء، ونعبدهم كما يعبد. ولكنّهم اتخذوا له شركاء عاجزين، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: خالق الأجسام والأعراض. لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة. ومن قال: إنّ الله لم يخلق أفعال الخلق، وهم خلقوها، فتشابه الخلق على قولهم ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحّد بالربوبيّة ﴿الْقَهَّارُ﴾ لا يغالب، وما عداه مربوب، ومقهور.

١٧ ـ ﴿أَنزَلَ﴾ أي: الواحد القهار، وهو: الله سبحانه ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب ﴿مَاءً﴾ مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ جمع واد، وهو: الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، وإنّما نكّر لأنّ المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله أنّه نافع للممطور عليهم، غير ضارّ ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ أي: رفع ﴿زَبَدًا﴾ هو ما على وجه الماء من الرغوة، والمعنى: علاه زبد ﴿رَّابِيًا﴾ منتفخاً، مرتفعاً على وجه السيل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾[1] وبالياء: كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ و﴿من﴾ لابتداء الغاية، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو: للتبعيض، أي: وبعضه زبد ﴿فِي النَّارِ﴾ حال من الضمير في ﴿عليه﴾ أي: ﴿ومما توقدون عليه﴾ ثابتاً ﴿في النار﴾ ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ مبتغين حلية، فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في ﴿توقدون﴾. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ من الحديد، والنحاس، والرصاص يتّخذ منها الأواني، وما يتمتّع به في الحضر، والسفر. وهو معطوف على ﴿حلية﴾ أي: زينة من الذهب، والفضة ﴿زَبَدٌ﴾ خبث. وهو مبتدأ ﴿مِّثْلُهُ﴾ نعت له. و﴿مما توقدون﴾

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿توقدون﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، ونافع، وعاصم، والحسن، ويعقوب، وأبي جعفر، والأعرج، والمطوعي، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢١٤).

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾

خبر له، أي: لهذه الفلزّات إذا أغليت زبد مثل زبد الماء ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: مثل الحقّ والباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ حال، أي: متلاشياً، وهو: ما تقذفه القدر عند الغليان، والبحر عند الطغيان. والجفء: الرمي. وجفأت الرجل: صرعته ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء، والحليّ، والأواني ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيثبت الماء في العيون، والآبار، والحبوب، والثمار. وكذلك الجواهر تبقى في الأرض مدّة طويلة ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ليظهر الحقّ من الباطل.

وقيل: هذا مثل ضربه الله للحقّ وأهله والباطل وحزبه، فمثل الحقّ وأهله بالماء الذي ينزل من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به، وينفعهم بأنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحليّ منه، واتخاذ الأواني، والآلات المختلفات. وذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً: يثبت الماء في منافعه، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله، ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. قال الجمهور: وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب، والحقّ والباطل. فالماء: القرآن نزل لحياة الجنان، كالماء للأبدان، والأودية للقلوب. ومعنى ﴿بقدرها﴾ بقدر سعة القلب وضيقه. والزبد: هواجس النفس، ووساوس الشيطان. والماء الصافي المنتفع به مثل الحقّ، فكما يذهب الزبد باطلاً، ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان، ويبقى الحقّ كما هو. وأما حلية الذهب والفضّة فمثل للأحوال السنيّة، والأخلاق الزكيّة. وأمّا متاع الحديد، والنحاس، والرصاص فمثل للأعمال الممدّة بالإخلاص المعدّة للخلاص، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب، كما أنّ تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب، وبعضها آلة الدفع في الحرب. وأما الزبد: فالرياء، والخلل، والملل، والكسل.

١٨ ـ واللام في: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ أي: أجابوا. متعلّقة بيضرب، أي:

لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ

﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي صفة لمصدر ﴿استجابوا﴾، أي: استجابوا الاستجابة الحسنى ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي: ﴿و﴾ للكافرين ﴿الذين لم يستجيبوا﴾ أي: هما مثلا الفريقين. وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين، أي: لو ملكوا أموال الدنيا، وملكوا معها مثلها، لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله. والوجه: أنّ الكلام قد تمّ على الأمثال، وما بعده كلام مستأنف. و﴿الحسنى﴾ مبتدأ، خبره ﴿للذين استجابوا﴾. والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنّة. ﴿والذين لم يستجيبوا﴾ مبتدأ، خبره ﴿لو﴾ مع ما في حيّزه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ المناقشة فيه. في الحديث: «من نُوقش الحسابَ عُذِّب»[1] ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومرجعهم بعد المحاسبة النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المكان الممهّد. والمذموم محذوف، أي: جهنم.

١٩ ـ دخلت همزة الإنكار على الفاء في ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ لإنكار أن تقع شبهةٌ مابعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، وهو المراد بقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث والإبريز ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الذين عملوا على قضايا عقولهم، فنظروا، واستبصروا.

٢٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ . . . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] وقيل: هو صفة ﴿لأولي الألباب﴾. والأول أوجه. وعهد الله: ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٦) والترمذي (٣٣٣٧).

وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما أوثقوه على أنفسهم، وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد. تعميم بعد تخصيص.

٢١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات. ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذبّ عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السّلام عليهم، وعيادة مرضاهم. ومنه: مراعاة حقّ الأصحاب، والخدم، والجيران، والرفقاء في السّفر ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيده كلّه ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصاً، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

٢٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس، والأموال، ومشاقّ التكاليف ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا ليقال: ما أصبره، وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل! ولا لئلا يعاب في الجزع ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوموا على إقامتها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: من الحلال وإن كان الحرام رزقاً عندنا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يتناول النوافل؛ لأنّها في السرّ أفضل، والفرائض؛ لأنّ المجاهرة بها أفضل، نفياً للتهمة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيّىء غيرهم. أو: إذا حُرموا أعطوا، وإذا ظُلموا عفوا، وإذا قُطعوا وصلوا، وإذا أذنبوا تابوا، وإذا هربوا أنابوا، وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره. فهذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا، وهي: الجنّة، لأنّها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا، ومرجع أهلها.

٢٣ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ﴾ أي: آمن ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وقرىء ﴿صلُح﴾. والفتح أفصح. و﴿من﴾ في محلّ

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾

الرفع بالعطف على الضمير في ﴿يدخلونها﴾. وساغ ذلك وإن لم يؤكد؛ لأنّ ضمير المفعول صار فاصلاً. وأجاز الزجاج أن يكون مفعولاً معه. ووصفهم بالصلاح ليعلم: أنّ الأنساب لا تنفع بنفسها، والمراد: أبوا كلّ واحد منهم، فكأنّه قيل: من آبائهم وأمهاتهم. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ في قدر كلّ يوم وليلة ثلاث مرات، بالهدايا، وبشارة الرضا.

٢٤ ـ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ في موضع الحال، إذ المعنى: قائلين: ﴿سلام عليكم﴾ أو: مسلّمين ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلّق بمحذوف تقديره: هذا ﴿بما صبرتم﴾، أي: هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات، أو على أمر الله، أو: بسلام، أي: نسلّم عليكم، ونكرمكم بصبركم. والأوّل أوجه ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ الجنّات.

٢٥ ـ ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف، والقبول ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر، والظلم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الإبعاد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يحتمل أن يُراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنّه في مقابلة عقبى الدار، وأن يُراد بالدار: جهنم، وبسوئها: عذابها.

٢٦ ـ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق لمن يشاء. والمعنى: ﴿الله﴾ وحده هو ﴿يبسط الرزق ....﴾ ويقدر﴾ دون غيره ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر، لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتّى يؤجروا بنعيم الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ وخفي عليهم أنّ نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزراً، يتمتّع به كعُجْلة الراكب، وهو ما يتعجّله من تميرات، أو شربة سَوِيق[1].

---

(١) «السَّويق»: طعام يُتّخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

٢٧ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: الآية المقترحة ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراح آيات بعد ظهور المعجزات ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ويرشد إلى دينه مَن رجع إليه بقلبه.

٢٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم الذين. أو: محله النصب بدل من ﴿مَنْ﴾ ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ تسكن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على الدوام. أو: بالقرآن، أو: بوعده ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين.

٢٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره. وهو مصدر من: طاب، كبشرى. ومعنى طوبى لك: أصبت خيراً وطيباً. ومحلّها النصب، أو الرفع، كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك. واللام في ﴿لهم﴾ للبيان مثلها في: سقياً لك. والواو في ﴿طوبى﴾ منقلبة عن ياء لضمّة ما قبلها، كموقن. والقراءة في ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ مرجع: بالرفع والنصب تدلّ على محلّيها.

٣٠ ـ ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ مثل ذلك الإرسال ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات. ثمّ فسّر كيف أرسله، فقال: ﴿فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك في أمّة قد تقدّمتها أمم كثيرة، فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وحال هؤلاء: أنهم يكفرون ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالبليغ الرحمة؛ الذي وسعت رحمته كلّ شيء ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ وربّ كلّ شيء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو ربّي الواحد، المتعالي عن الشركاء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ﴾

عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي فيثيبني على مصابرتكم. «متابي، وعقابي، ومآبي» في الحالين[1]: يعقوب.

٣١ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن مقارّها، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ حتّى تتصدّع، وتتزايل قطعاً، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع وتجيب؛ لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار، والتخويف. فجواب ﴿لو﴾ محذوف. أو معناه: ﴿ولو أنّ قرآناً﴾ وقع به تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبيئهم، لما آمنوا به، ولما تنبّهوا عليه، كقوله: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ..﴾ [الأنعام: ١١١] الآية ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كلّ شيء، وهو قادرٌ على الآيات التي اقترحوها ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أفلم يعلم. وهي لغة قوم من النخع. وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم، لتضمّنه معناه، لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنّه لا يكون، كما استعمل النسيان في معنى الترك، لتضمّن ذلك. دليلهُ قراءة عليّ ـ رضي الله عنه ـ (أفلم يتبيّن). وقيل: إنمّا كتبه الكاتب وهو ناعس، مستوي السنّات. وهذه والله فرية ما فيها مرية ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من كفرهم، وسوء أعمالهم ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم بما يحلّ الله بهم في كلّ وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم، وأولادهم، وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو تحلُّ القارعة قريباً منهم، فيفزعون، ويتطاير عليهم شررها، ويتعدّى إليهم شرورها ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتهم، أو القيامة. أو: ﴿ولا يزال﴾ كفّار مكّة ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ برسول الله من العداوة، والتكذيب ﴿قارعة﴾ لأنّ جيش رسول الله يغير حول مكّة، ويختطف منهم ﴿أو

---

(١) أي: في حالتي الوقف والوصل.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ

تحلّ﴾ أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك يوم الحديبية ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ أي: فتح مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي: لا خلف في موعده.

٣٢ ـ ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الإملاء: الإمهال، وأن يترك مُلاوةً[1] من الزمان في خفض، وأمن ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وهذا وعيدٌ لهم، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به، وتسلية له.

٣٣ ـ ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ احتجاج عليهم في إشراكهم بالله، يعني: أفالله الذي هو رقيب ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ﴾ صالحة، أو طالحة ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ يعلم خيره وشرّه، ويعدّ لكلّ جزاءه، كمن ليس كذلك. ثم استأنف، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: الأصنام. ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ أي: سمّوهم له مَنْ هم، ونبّئوه بأسمائهم. ثمّ قال: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على أم المنقطعة، بل أتنبؤنه بشركاء لا يعلمهم في الأرض، وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنّهم ليسوا بشيء، والمراد: نفي أن يكون له شركاء ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ بل أتسمّونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠] ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ عن سبيل الله. بضم الصاد: كوفيّ. وبفتحها: غيرهم. ومعناه: وصدّوا المسلمين عن سبيل الله ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ من أحد يقدرُ على هدايته.

٣٤ ـ ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بالقتل، والأسر، وأنواع المحن ﴿وَلَعَذَابُ

(١) أي: مُدّة.

ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا

﴿ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشدّ لدوامه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ من حافظ من عذابه.

٣٥ ـ ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ صفتها التي هي في غرابة المثل. وارتفاعه بالابتداء، والخبر محذوف، أي: فيما يتلى عليكم ﴿مثل الجنة﴾. أو: الخبر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما تقول: صفة زيد أسمر ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ ثمرها دائم الوجود، لا ينقطع ﴿وَظِلُّهَا﴾ دائم، لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي: الجنّة الموصوفة عقبى تقواهم، يعني: منتهى أمرهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

٣٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه، ومن النصارى بأرض الحبشة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: ومن أحزابهم. وهم كفرتهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، ككعب بن الأشرف، وأصحابه، والسيّد، والعاقب، وأشياعهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص، وبعض الأحكام والمعاني، مما هو ثابت في كتبهم. وكانوا ينكرون نبوّة محمد ﷺ، وغير ذلك مما حرّفوه، وبدلّوه من الشرائع ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ هو جواب للمنكرين، أي: ﴿قل إنما أمرت﴾ فيما أنزل إليّ بـ ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾. فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادّعائكم وجوب عبادة الله، وألا يشرك به؟!. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ خصوصاً، لا أدعو إلى غيره ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَـَٔابِ﴾ مرجعي. وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

٣٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله، وتوحيده، والدعوة إليه، وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حكمة

وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا

عربيّة مترجمة بلسان العرب. وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يشاركهم فيها. فقيل: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ أي: لا ينصرك ناصر، ولا يقيك منه واق. وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين، وألا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدّة الثبات بمكان.

٣٨ ـ وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد، ويقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ، فنزل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ نساء، وأولاداً ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس في وسعه[1] إتيان الآيات على ما يقترحه قومه، وإنّما ذلك إلى الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ لكلّ وقت حكم يكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته.

٣٩ ـ ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يشاء نسخه ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ بدله ما يشاء، أو: يتركه غير منسوخ، أو: يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء، ويثبت غيره، أو: يمحو كفر التائبين، ويثبت إيمانهم، أو: يميت من حان أجله، وعكسه. ﴿ويثبت﴾: مدنيّ، وشاميّ، وحمزة، وعليّ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: أصل كلّ كتاب، وهو اللوح المحفوظ، لأنّ كلّ كائن مكتوب فيه.

٤٠ ـ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحال ـ أريناك مصارعهم، وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو: توفيناك قبل ذلك ـ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، ﴿وَعَلَيۡنَا

(١) من هنا وحتى الآية (٣٥) من سورة الحجر ساقط من المخطوط، واستدرك من المطبوع.

ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ

﴿ٱلْحِسَابُ﴾ وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك، فلا يهمّنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.

٤١ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب، ونزيد في دار الإسلام. وذلك من آيات النصرة والغلبة. والمعنى: عليك البلاغ الذي حمّلته، ولا تهتمّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكه، ونتمّ ما وعدناك من النصرة، والظفر ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا رادّ لحكمه. والمعقّب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله. وحقيقته: الذي يعقّبه، أي: يقفّيه بالردّ، والإبطال. ومنه قيل لصاحب الحق: معقّب، لأنّه يقفّي غريمه بالاقتضاء والطلب. والمعنى: أنّه حكم للإسلام بالغلبة، والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار، والانتكاس. ومحلّ: ﴿لا معقّب لحكمه﴾ النصب على الحال، كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه، كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه، ولا قلنسوة له. تريد: حاسراً ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فعمّا قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

٤٢ ـ ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كفّار الأمم الخالية بأنبيائهم. والمكر: إرادة المكروه في خفية، ثمّ جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره، فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾. ثمّ فسّر ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ يعني: العاقبة المحمودة، لأنّ من علم ما تكسب كلّ نفس، وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كلّه، لأنّه يأتيهم من حيث لا يعلمون، وهم في غفلة عما يُراد بهم. (الكافر) على إرادة الجنس: حجازيّ، وأبو عمرو.

٤٣ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ المراد بهم: كعب بن الأشرف، ورؤساء اليهود. قالوا: ﴿لست مرسلاً﴾ ولهذا قال عطاء: هي مكّيّة، إلا هذه الآية ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الأدلّة على رسالتي،

وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

والباء دخلت على الفاعل، و﴿شهيداً﴾ تمييز ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قيل: هو الله عزّ وجل. والكتاب: اللوح المحفوظ. دليله قراءة من قرأ: ﴿وَمِنْ عِنْدِه علمُ الكتاب﴾ أي: ومن لدنه علم الكتاب، لأنّ علمَ مَنْ عَلِمَهُ مِنْ فضله، ولطفه. وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب، الذين أسلموا، لأنّهم يشهدون بنعته في كتبهم. وقال ابن سَلام: فيّ نزلت هذه الآية. وقيل: هو جبريل ـ عليه السلام ـ و﴿مَن﴾ في موضع الجرّ بالعطف على لفظ الله. أو: في موضع الرفع بالعطف على محلّ الجارّ والمجرور، إذ التقدير: كفى الله. و(علم الكتاب﴾ يرتفع بالمقدّر في الظرف، فيكون فاعلاً، لأنّ الظرف صلة لمن. و﴿من﴾ ـ هنا ـ بمعنى الذي، والتقدير: من ثبت عنده علم الكتاب، وهذا لأنّ الظرف إذا وقع صلة يعمل عمل الفعل، نحو: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول بالذي استقر في الدار أخوه. في القراءة بكسر ميم ﴿من﴾ يرتفع العلم بالابتداء.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

---

١ ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا ﴿كتاب﴾ يعني: السورة. والجملة التي هي: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ في موضع الرفع صفة للنكرة ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إيّاهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتسهيله. مستعار من الإذن، الذي هو تسهيل الحجاب. وذلك ما يمنحهم من التوفيق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من النور بتكرير العامل ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بالانتقام ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود على الإنعام.

٢ ـ ﴿ٱللَّهِ﴾ بالرفع: مدنيّ، وشاميّ، على: هو ﴿الله﴾. بالجرّ غيرهما، على أنه عطف بيان للعزيز الحميد ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً. ولمّا ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، توعّد الكافرين بالويل، وهو نقيضُ الوأل، وهو: النجاة. وهو اسم معنى كالهلاك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو مبتدأ وخبر وصفة.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون، و يؤثرون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً. والأصل: ويبغون لها، فحذف الجارّ، وأوصل الفعل ﴿الذين﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق. ووصف الضلال بالبعد من

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

الإسناد المجازيّ. والبعد في الحقيقة للضالّ، لأنّه هو الذي يتباعد عن طريق الحقّ، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه. أو: مجرور صفة للكافرين. أو: منصوب على الذمّ، أو: مرفوع على أعني ﴿الذين﴾ أو: هم ﴿الذين﴾.

٤ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ إلا متكلماً بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما هو مبعوث به وله، فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولون له: لم نفهم ما خوطبنا به. فإن قلت: إنّ رسولنا ﷺ بُعِث إلى الناس جميعاً بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة. قلت: لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة، أو: بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأنّ الترجمة تنوب عن ذلك، وتكفي التطويل. فتعيّن أن ينزل بلسان واحد. وكان لسان قومه أولى بالتعيين، لأنّهم أقرب إليه، ولأنّه أبعد من التحريف، والتبديل ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ من آثر سبب الضلالة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من آثر سبب الاهتداء ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان.

٥ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بأن أخرج، أو: أي: أخرج، لأنّ الإرسال فيه معنى القول، كأنّه قيل: أرسلناه، وقلنا له: ﴿أخرج قومك﴾ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم، قوم نوح، وعاد، وثمود، ومنه: أيّام العرب لحروبها، وملاحمها. أو: بأيّام الإنعام، حيث ظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وفلق لهم البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلايا ﴿شَكُورٍ﴾ على العطايا، كأنّه قال: لكلّ مؤمن، إذ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ «إذا» ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت، أو: بدل اشتمال من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ذكر في البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [الآية: ٤٩] وفي الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الآية: ١٤١] بلا واو، وهنا مع الواو. والحاصل: أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب، وبياناً له، وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث إنّه زاد على جنس العذاب، كأنّه جنس آخر ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة إلى العذاب، والبلاء: المحنة، أو: إلى الإنجاء. والبلاء: النعمة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٧ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذن. ونظير: تأذّن وآذن: توعّد وأوعد. ولا بد في تفعّل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنّه قيل: وإذ آذن ربّكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك والشبه، وهو من جملة ما قال موسى لقومه. وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم، كأنّه قيل: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ واذكروا حين ﴿تأذّن ربّكم﴾ والمعنى: ﴿وإذ تأذن ربّكم﴾ فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يابني إسرائيل ما خوّلتكم من نعمة الإنجاء وغيرها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة. فالشكر: قيد الموجود، وصيد المفقود. وقيل: إذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهبت للمزيد. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لئن شكرتم﴾ بالجدّ في الطاعة ﴿لأزيدنّكم﴾ بالجدّ في المثوبة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر نعمتي. أمّا في الدنيا فسلب النعم، وأمّا في العقبى فتوالي النقم.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

٨ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ﴾ يابني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والناس كلّهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ وإن لم يحمده الحامدون. وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير، الذي لابدّ لكم منه.

٩ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى لقومه، أو: ابتداء خطاب لأهل عصر محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً، أو: عطف ﴿الذين من بعدهم﴾ على ﴿قوم نوح﴾ و﴿لا يعلمهم إلا الله﴾ اعتراض. والمعنى أنّهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون. ورُوي: أنّه عليه الصلاة والسلام قال عند نزول هذه الآية: «كذب النسّابون»[1] ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الضميران يعودان إلى الكفرة، أي: أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجّباً، أو: عضّوا عليها تغيّظاً، أو: الثاني يعود إلى الأنبياء، أي: ردّ القوم أيديهم في أفواه الرسل كيلا يتكلّموا بما أرسلوا به ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله، والتوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة.

١٠ ـ ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأنّ الكلام ليس في الشّك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنّه لا يحتمل الشكّ لظهور الأدلّة. وهو جواب قولهم: ﴿وإنّا لفي شكّ﴾ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٥٦) عن ابن عباس مرفوعاً وإسناده ضعيف جداً، ورواه ابن جرير في تفسيره (١٣/١٨٧) موقوفاً على ابن مسعود.

يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إذا آمنتم. ولم تجيء مع ﴿من﴾ إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣ ـ ٤] ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى أن قال ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء. وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوّي بين الفريقين في الميعاد ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت قد سمّاه، وبيّن مقداره ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: القوم. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصّون بالنبوّة دوننا؟ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: الأصنام ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة بيّنة. وقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات، وإنّما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنّتاً، ولجاجاً.

١١ ـ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تسليم لقولهم إنهم بشر مثلهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالإيمان والنبوّة كما منّ علينا ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جواب لقولهم ﴿فأتوا بسلطان مبين﴾. والمعنى: أنّ الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا، ولا في استطاعتنا، وإنّما هو أمر يتعلّق بمشيئة الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافّة بالتوكّل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّليّاً، كأنّهم قالوا: ومن حقّنا أن نتوكّل على الله في الصبر على معاندتكم، ومعاداتكم، وإيذائكم. ألا ترى إلى قوله:

١٢ ـ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ معناه: وأيّ عذر لنا في ألاّ نتوكّل عليه،

وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

وقد فعل بنا ما يوجب توكّلنا عليه، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ وهو التوفيق لهداية كلّ منّا سبيله، الذي يجب عليه سلوكه في الدين؟! قال أبو تراب: التوكّل: طرح البدن في العبوديّة، وتعلّق القلب بالربوبيّة، والشكر عند العطاء، والصبر عند البلاء ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ جواب قسم مضمر، أي: حلفوا على الصبر على أذاهم، وألا يمسكوا عن دعائهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فليثبت المتوكّلون على توكّلهم، حتّى لا يكون تكراراً.

١٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾ ﴿سبْلنا﴾[1] ﴿لرسْلهم﴾ أبو عمرو ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ من ديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكوننّ أحد الأمرين: إخراجكم، أو: عودكم، وحلفوا على ذلك. والعود بمعنى الصيرورة، وهو كثيرٌ في كلام العرب. أو: خاطبوا به كلّ رسول، ومن آمن معه، فغلّبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ القول مضمر، أو: أجري الإيحاء مجرى القول، لأنّه ضرب منه.

١٤ ـ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أرض الظالمين وديارهم. في الحديث: «من آذى جاره ورّثه الله داره»[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والإسكان، أي: ذلك الأمر حقّ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ موقفي، وهو موقف الحساب، أو: المقام مقحم. أو: خاف قيامي عليه بالعلم، كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. والمعنى: أنّ ذلك حقّ للمتّقين ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ عذابي. وبالياء: يعقوب.

---

(١) أي: قوله تعالى في الآية (١٢): ﴿وقد هدانا سُبُلَنا﴾

(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٥٤٥). وقال العجلوني: كذا رأيته في كلام بعض من جَمَع في الحديث ممّن لا يُعْرَف، ثم رأيت النجم قال: أورده في الكشاف، ولعله مَثَل سائر، وليس بحديث. (كشف الخفاء ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ

---

١٥ ـ ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ واستنصروا الله على أعدائهم. وهو معطوف على ﴿أوحى إليهم﴾ ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ وخسر كلّ متكبّر بطر ﴿عَنِيدٍ﴾ مجانب للحقّ. معناه: فنصروا، وظفروا، وأفلحوا ﴿وخاب كلّ جبّار عنيد﴾ وهم قومهم. وقيل: الضمير للكفّار. ومعناه: واستفتح الكفار على الرسل ظنّاً منهم بأنّهم على الحقّ، والرسل على الباطل ﴿وخاب كلّ جبّار عنيد﴾ منهم، ولم يفلح باستفتاحه.

١٦ ـ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ من بين يديه ﴿جَهَنَّمُ﴾. وهذا وصف حاله، وهو في الدنيا، لأنّه مرصد لجهنّم، فكأنّها بين يديه، وهو على شفيرها، أو: وصف حاله في الآخرة، حيث يبعث، ويوقف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: ﴿من ورائه جهنّم﴾ يلقى فيها مايلقى ﴿ويسقى﴾ ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ مايسيل من جلود أهل النّار. و﴿صديد﴾ عطف بيان لماء، لأنّه مبهم، فبيّن بقوله: ﴿صديد﴾.

١٧ ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يشربه جُرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساغة؟! كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يقرب من رؤيتها، فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: أسباب الموت من كلّ جهة، أو: من كلّ مكان من جسده. وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام، أي: لو كان ثمّة موت لكان كلّ واحد منها مهلكاً ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لأنّه لو مات لاستراح ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشدّ مما قبله، وأغلظ. وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس، وحبسها في الأجساد.

١٨ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، أي: فيما يتلى عليكم ﴿كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة. وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة

ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ

مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: ﴿أعمالهم كرماد﴾ ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ (الرياح): مدنيّ ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جعل العصف لليوم وهو لما فيه، وهو الريح، كقولك: يوم ماطر. وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسرى، وعقر الإبل للأضياف، وغير ذلك. شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس ـ وهو الإيمان بالله تعالى ـ برماد طيّرته الريح العاصف ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يُقدَر من الرماد المطيّر في الريح على شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحقّ، أو: عن الثواب.

١٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم. الخطاب لكلّ أحد. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ «خالق» مضافاً: حمزة، وعليّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة، والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس، ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم، أو: على خلاف شكلهم إعلاماً بأنّه قادر على إعدام الموجود، وإيجاد المعدوم.

٢٠ ـ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر.

٢١ ـ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ويبرزون يوم القيامة. وإنّما جيء به بلفظ الماضي، لأنّ ماأخبر به عزّ وجلّ لصدقه كأنّه قد كان ووجد. ونحوه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وغير ذلك. ومعنى بروزهم لله ـ والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتّى يبرز له ـ أنّهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنّون: أنّ ذلك خافٍ على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أنّ الله لا تخفى عليه خافية، أو: خرجوا من قبورهم، فبرزوا لحساب الله، وحكمه ﴿فَقَالَ

ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ

﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ في الرأي، وهم: السّفْلة، والأتباع. وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخّم الألف قبل الهمزة، فيميلها إلى الواو ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم، وصدّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء، واتّباعهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ تابعين. جُمِعَ تابع على تبع، كخادم وخدم، وغائب وغيب. أو: ذوي تبع. والتبع: الاتّباع، يقال: تبعه تبعاً ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ فهل تقدرون على دفع شيء ممّا نحن فيه. و﴿من﴾ الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: ﴿فهل أنتم مغنون عنّا﴾ بعض الشيء الذي هو عذاب الله. أو: هما للتبعيض، أي: فهل أنتم مغنون عنّا بعض شيء هو بعض عذاب الله. ولمّا كان قول الضعفاء توبيخاً لهم، وعتاباً على استغوائهم، لأنّهم علموا أنّهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ﴿قَالُواْ﴾ لهم مجيبين متعذرين: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه، أو: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنينا عنكم، وسلكنا بكم طريق النجاة، كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. رُوي: أنّهم يقولون في النار: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمئة عام، فلا ينفعهم الجزع، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمئة عام، فلا ينفعهم الصبر. ثمّ يقولون: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾. واتّصاله بما قبله من حيث إنّ عتابهم لهم كان جزعاً ممّا هم فيه، فقالوا لهم: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ يريدون أنفسهم وإيّاهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع، كما لا فائدة في الصبر ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا. ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً.

٢٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ لمّا حكم بالجنّة والنار لأهليهما، وفرغ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾

من الحساب، ودخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار. ورُوي: أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً على منبر من نار، فيقول لأهل النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كذبتكم ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسلّط، واقتدار. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ لكنّي دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي، وتزييني. والاستثناء منقطع، لأنّ الدعاء ليس من جنس السلطان ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ فأسرعتم إجابتي ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ لأنّ من تجرّد للعداوة لا يلام إذا دعا إلى أمر قبيح، مع أنّ الرحمن قد قال لكم: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث اتّبعتموني بلا حجّة، ولا برهان. وقول المعتزلة: هذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة، أو السعادة، ويحصّلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين؛ باطل لقوله: ﴿لو هدانا الله﴾ أي: إلى الإيمان ﴿لهديناكم﴾ كما مرّ ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله، ولا يغيثه. والإصراخ: الإغاثة. ﴿بمصرخيِّ﴾: حمزة، إتباعاً للخاء. غيره: بفتح الياء، لئلا تجتمع الكسرة والياءان بعد كسرتين. وهو جمع مصرخ. فالياء الأولى ياء الجمع، والثانية ضمير المتكلم ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ وبالياء: بصريّ. وما: مصدريّة ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بأشركتموني، أي: كفرت اليوم بإشراككم إيّاي مع الله من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا، كقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]. ومعنى كفره بإشراكهم إيّاه: تبرّؤه منه واستنكاره له؛ كقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]. أو: ﴿من قبل﴾. متعلّق بكفرت و﴿ما﴾ موصولة، أي: كفرت ﴿من قبل﴾ حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه، وهو الله عزّ وجلّ. تقول: أشركني فلان، أي: جعلني له شريكاً. ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزيّنه لهم من عبادة الأوثان، وهذا

إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

آخر قول الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قول الله عزّ وجلّ. وقيل: هو من تمام كلام إبليس. وإنّما حكى الله عزّ وجلّ ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين.

٢٣ ـ ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ عطف على ﴿برزوا﴾ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنّة بإذن الله، وأمْره ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ هو تسليم بعضهم على بعض في الجنّة، أو: تسليم الملائكة عليهم.

٢٤ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ أي: وصفه، وبيّنه ﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ نصب بمضمر. أي: جعل كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾. وهو تفسير لقوله: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ نحو: شرّف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس. أو: انتصب ﴿مثلاً﴾ و﴿كلمة﴾ بضرب، أي: ضرب كلمة طيّبة مثلاً، يعني: جعلها مثلاً. ثمّ قال: ﴿كشجرة طيّبة﴾ على أنّها خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة طيّبة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ أي: في الأرض، ضارب بعروقه فيها ﴿وَفَرۡعُهَا﴾ أعلاها ورأسها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. والكلمة الطيّبة: كلمة التوحيد، أصلها: تصديق بالجنان، وفرعها: إقرار باللسان، وأكلها: عمل الأركان. وكما أنّ الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملاً، فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملاً. ولكنّ الأشجار لا تُراد إلا للثمار، فما أقوات النار إلا من الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الإثمار. والشجرة: كلّ شجرة مثمرة طيّبة: الثمار، كالنخلة، وشجرة التين، ونحو ذلك. والجمهور على أنها النخلة. فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ماهي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبياً، فوقع في قلبي: أنّها النخلة، فهبت

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ

رسول الله ﷺ أن أقولها، وأنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنها النخلة» فقال عمر: يابنيّ لو كنت قلتها لكانت أحب إليّ من حُمْر النّعم[1].

٢٥ ـ ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ تعطي ثمرها كلّ وقت وقّته الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتيسير خالقها، وتكوينه ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنّ في ضرب الأمثال زيادة إفهام، وتذكير، وتصوير للمعاني.

٢٦ ـ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلّ شجرة لا يطيب ثمرها. وفي الحديث: «إنها شجرة الحنظل»[2] ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ استؤصلت جثتها. وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثّة كلّها، وهو في مقابلة: ﴿أصلها ثابت﴾ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: استقرار. يقال: قرّ الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثبوتاً. شبّه بها القول الذي لا يعضد بحجّة، فهو داحض غير ثابت.

٢٧ ـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يديمهم عليه ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هو قول لا إله إلا الله، محمّد رسول الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حتّى إذا فتنوا في دينهم لم يزلّوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، وغير ذلك ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجمهور على أنّ المراد به في القبر بتلقين الجواب، وتمكين الصواب. فعن البراء: أنّ رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسان في قبره، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: ربيّ الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمّد ﷺ. فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي. فذلك قوله ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾. ثمّ يقول

(١) رواه البخاري (٦١) ومسلم (٢٨١١).
(٢) رواه الترمذي (٣١١٩).

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾

الملكان: عشتَ سعيداً، ومتّ حميداً، نَمْ نومة العروس»[1] ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن، وتزلّ أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضلّ، وأزلّ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين، وإضلال الظالمين.

٢٨ ـ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمة الله ﴿كُفْرًا﴾، لأنّ شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيّروا الشكر إلى الكفر، وبدّلوه تبديلاً، وهم أهل مكّة. أكرمهم بمحمّد عليه الصلاة والسلام، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك.

٢٩ ـ ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ وبئس المقرّ جهنم.

٣٠ ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً في العبادة، أو: في التسمية ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وبفتح الياء: مكي، وأبو عمرو ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ في الدنيا. والمراد به: الخذلان، والتخلية. وقال ذو النون: التمتع: أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مرجعكم إليها.

٣١ ـ ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خصّهم بالإضافة إليه تشريفاً. وبسكون الياء: شاميّ، وحمزة، وعليّ، والأعشى ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ المقول محذوف؛ لأنّ ﴿قل﴾ تقتضي مقولاً، وهو: أقيموا. وتقديره: قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيموا الصلاة، وينفقوا. وقيل: إنّه أمر، وهو المقول،

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٨٧) وأبو داود (٣٢١٢). وانظر: شرح الصدور للسيوطي (ص ٩١ ـ ٩٣). تحقيق: يوسف بديوي، طبع دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت.

سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ

والتقدير: ليقيموا، ولينفقوا، فحذف اللام لدلالة ﴿قل﴾ عليه. ولو قيل: ﴿يقيموا الصلاة وينفقوا﴾ ابتداء بحذف اللام لم يجز ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ انتصبا على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، يعني: مسرّين ومعلنين، أو: على الظرف، أي: وقتي سرّ وعلانية، أو: على المصدر، أي: إنفاق سرّ وإنفاق علانية. والمعنى: إخفاء التطوّع وإعلان الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: لا انتفاع فيه بمبايعة، ولا مخالّة. والخلال: المخالّة. وإنّما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. بفتحهما: مكي، وبصريّ. والباقون: بالرفع والتنوين.

٣٢ ـ ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خبره ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ بيان للرزق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات. أو: ﴿من الثمرات﴾ مفعول ﴿أخرج﴾ و ﴿رزقاً﴾ حال من المفعول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾

٣٣ ـ ﴿وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ دائمين. وهو حال من الشمس والقمر، أي: يدأبان في سيرهما، وإنارتهما، ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض، والأبدان، والنبات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خِلْفة لمعاشكم، وسباتكم.

٣٤ ـ ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ﴿من﴾ للتبعيض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه، أو: ﴿وآتاكم من كلّ﴾ شيء سألتموه، وما لم تسألوه. فـ﴿ما﴾ موصوفة والجملة صفة لها، وحذفت الجملة الثانية؛ لأن الباقي يدلّ على المحذوف كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ﴿من كلٍّ﴾ عن أبي عمرو. و﴿ما سألتموه﴾ نفي، ومحلّه النصب على الحال، أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه. أو: ﴿ما﴾ موصولة، أي: وآتاكم من كل ذلك

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّىۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ

ما احتجتم إليه، فكأنّكم سألتموه، أو: طلبتموه بلسان الحال ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تطيقوا عدّها، وبلوغ آخرها. هذا إذا أرادوا أن يعدّوها على الإجمال، وأما التفصيل فلا يعلمه إلاّ الله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران لها. أو: ﴿ظلوم﴾ في الشدّة يشكو ويجزع ﴿كفّار﴾ في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

٣٥ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر ﴿إذ قال إبراهيم﴾ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي: البلد الحرام ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن. والفرق بين هذه وبين ما في البقرة: أنّهُ قد سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة الخوف إلى الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ وبعّدني، أي: ثبّتني، وأدمني على اجتناب عبادتها، كما قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، أي: ثبّتنا على الإسلام ﴿وَبَنِىَّ﴾ أراد بنيه من صلبه ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ من ﴿أن نعبد الأصنام﴾.

٣٦ ـ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جعلن مضلاّت على طريق التسبيب؛ لأنّ الناس ضلّوا بسببهن، فكأنّهن أضللنهم ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على ملّتي، وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ فيما دون الشرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أو: ﴿ومن عصاني﴾ عصيان شرك ﴿فإنّك غفور رحيم﴾ إن تاب، وآمن.

٣٧ ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ بعض أولادي، وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مكّة ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ هو بيت الله، سُمّي به لأنّ الله تعالى حرّم التعرّض له، والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو: لأنّه لم يزل ممّنعاً، يهابه كلّ

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ

جبّار، أو: لأنّه محترم عظيم الحرمة، لا يحلّ انتهاكها، أو: لأنه حرّم على الطوفان، أي: منع منه، كما سُمِّي عتيقاً؛ لأنه أُعتق منه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿أسكنت﴾ أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلاّ ﴿ليقيموا الصلاة﴾ عند بيتك المحرّم، ويعمروه بذكرك وعبادتك ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿أفئدة من﴾ أفئدة ﴿ٱلنَّاسِ﴾. و﴿من﴾ للتبعيض. لما رُوي عن مجاهد: لو قال: أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس، والروم، والترك، والهند. أو: للابتداء، كقولك: القلب منّي سقيم، تريد: قلبي، فكأنّه قيل: أفئدة ناس. ونكّرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة ـ لأنها في الآية نكرة ـ ليتناول بعض الأفئدة ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم من البلاد الشاسعة، وتطير نحوهم شوقاً ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد الشاسعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات في وادٍ ليس فيه شجر، ولا ماء.

٣٨ ـ ﴿رَبَّنَآ﴾ النداء المكرّر دليل التضرّع، واللَّجأُ إلى الله ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلم السرّ، كما تعلم العلن ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من كلام الله عزّ وجلّ تصديقاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أو من كلام إبراهيم. و﴿من﴾ للاستغراق، كأنّه قيل: وما يخفى على الله شيء ما.

٣٩ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ ﴿على﴾ بمعنى مع. وهو في موضع الحال، أي: وهب لي وأنا كبير ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ رُوي: أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مئة واثنتي عشرة سنة. ورُوي: أنّه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين. وإنّما ذكر حال الكبر؛ لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم؛ لأنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم،

إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيب الدعاء، من قولك: سمع الملك كلام فلان: إذا تلقّاه بالإجابة والقبول. ومنه: سمع الله لمن حمده. وكان قد دعا ربّه وسأله الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فشكر لله ما أكرمه به من إجابته. وإضافة السمع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميعُ الدعاء. وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا رحيم أباه.

٤٠ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وبعض ذرّيتي، عطفاً على المنصوب في ﴿اجعلني﴾. وإنّما بعض؛ لأنّه علم بإعلام الله أنّه يكون في ذريّته كفّار. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ بالياء: في الوصل والوقف: مكّيّ. وافقه أبو عمرو، وحمزة في الوصل. الباقون بلا ياء. أي: استجب دعائي، أو: عبادتي ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ﴾ [مريم: ٤٨].

٤١ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ أي: آدم وحواء، أو قاله قبل النهي واليأس عن إيمان أبويه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبت. أو: أسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

٤٢ ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. والخطاب لغير الرسول عليه الصلاة والسلام. وإن كان للرسول فالمراد تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وكما جاء في الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وقيل: المراد به الإيذان بأنّه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنّه معاقبهم على قليله وكثيره، على سبيل الوعيد والتهديد،

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: أبصارهم لا تقرّ في أماكنها مِن هول ما ترى.

٤٣ ـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم نظرهم، فينظروا إلى أنفسهم ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ صفر من الخير، لا تعي شيئاً، من الخوف. والهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام. فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء: إذا كان جباناً، لا قوّة في قلبه ولا جراءة. وقيل: جُوف لا عقول لهم.

٤٤ ـ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: يوم القيامة. و﴿يوم﴾ مفعول ثان لأنذر، لا ظرف، إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: الكفّار ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ردّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب نتدارك ما فرّطنا فيه من إجابة دعوتك، واتّباع رسلك. فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: حلفتم في الدنيا أنكم إذا متم لا تزالون عن تلك الحالة، ولا تنتقلون إلى دار أخرى، يعني: كفرتم بالبعث، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] و﴿ما لكم﴾ جواب القسم. وإنّما جاء بلفظ الخطاب لقوله ﴿أقسمتم﴾. ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: ما لنا من زوال. أو: أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو: يوم موتهم معذّبين بشدّة السكرات، ولقاء الملائكة بلا بشرى، فإنّهم يسألون يومئذ أن يؤخّرهم ربهُّم إلى أجل قريب.

٤٥ ـ يقال: سكن الدار، وسكن فيها، ومنه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر؛ لأنّ السكنى من السكون، وهو اللبث. والأصل تعديته بفي، نحو: قرّ في الدار، وأقام فيها، ولكنّه لمّا نقل إلى سكون خاصّ

وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ

تصرّف فيه، فقيل: سكن الدار، كما قيل: تبوّأها. ويجوز أن يكون سكنوا من السكون، أي: قرّوا فيها، واطمأنّوا طيّبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأوّلون من أيّام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا، ويرتدعوا ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالأخبار، أو: المشاهدة، وفاعل ﴿تبيّن﴾ مضمر دلّ عليه الكلام، أي: تبيّن لكم حالهم. و﴿كَيْفَ﴾ ليس بفاعل؛ لأنّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وإنّما نصب ﴿كيف﴾ بقوله: ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: أهلكناهم، وانتقمنا منهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكلّ ظالم.

٤٦ ـ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم، وهو: ما فعلوه من تأييد الكفر، وبطلان الإسلام ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ هو مضاف إلى الفاعل كالأوّل. والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكرٍ هو أعظم منه، أو: إلى المفعول، أي: عند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأولى، ونصب الثانية. والتقدير: وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبيّ ﷺ، فعبّر عن النبي عليه الصلاة والسلام بالجبال لعظم شأنه. و ﴿كان﴾ تامّة، و﴿إن﴾ نافية: واللام مؤكّدة لها، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم. على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه؛ لأنّها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكّناً. دليلهُ قراءة ابن مسعود: ﴿وما كان مكرهم﴾ وبفتح اللام الأولى ورفع الثانية: عليّ، أي: ﴿وإن كان مكرهم﴾ من الشدّة بحيث تزول منه الجبال، وتنقطع عن أماكنها، فإن مخفّفة من إنّ واللام مؤكّدة.

٤٧ ـ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿مخلف﴾: مفعول

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ

ثان لتحسبنّ، وأضاف ﴿مخلف﴾ إلى ﴿وعده﴾ وهو المفعول الثاني له. والأوّل ﴿رسله﴾. والتقدير: مخلف رسله وعده. وإنّما قدّم المفعول الثاني على الأوّل ليعلم أنّه لا يخلف الوعد أصلاً. كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. ثم قال: ﴿رسله﴾ ليؤذن أنّه إذا لم يخلف وعده أحداً، فكيف يخلفه رسله؛ الذين هم خيرته، وصفوته؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

٤٨ ـ وانتصاب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على الظرف للانتقام، أو: على إضمار اذكر. والمعنى ﴿يوم تبدّل﴾ هذه ﴿الأرض﴾ التي تعرفونها أرضاً أخرى ﴿غير﴾ هذه المعروفة ﴿و﴾ تبدّل ﴿السموات﴾ غير السموات. وإنّما حذف لدلالة ما قبله عليه، والتبديل: التغيير. وقد يكون في الذوات، كقولك: بدّلت الدراهم دنانير، وفي الأوصاف، كقولك: بدّلت الحلقة خاتماً؛ إذا أذبتها، وسوّيتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل. واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تُبدّل أوصافها، وتسير عن الأرض جبالها، وتفجّر بحارها، وتسوّىٰ، فلا ترى فيها عوجاً، ولا أمتاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي تلك الأرض، وإنما تغيّر. وتبدّل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً. وقيل: تخلق بدلها أرض وسموات أخر. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحدٌ خطيئة. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: تبدّل أرضاً من فضّة، وسموات من ذهب ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ هو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لأنّ الملك إذا كان لواحد غلّاب لا يغالب، فلا مستغاث لأحدٍ إلى غيره، كان الأمر في غاية الشدّة.

٤٩ ـ ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض، أو: مع الشياطين، أو: قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغلّلين

فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلّق بـ ﴿مقرّنين﴾، أي: يقرّنون في الأصفاد. أو: غير متعلّق به. والمعنى: مقرّنين مصفّدين. والأصفاد: القيود، أو: الأغلال.

٥٠ ـ ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو ما يتحلّب من شجر يسمّى الأبهل، فيطبخ، فيهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدّته، وحرّه. ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار. وهو أسود اللون، منتن الريح، فيطلى به جلود أهل النار، حتّى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل؛ ليجتمع عليهم لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أنّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. وكلّ ما وعده الله، أو: أوعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنّه ما عندنا منه إلّا الأسامي والمسمّيات ثمة. نعوذ بالله من سخطه وعذابه (من قطرٍ آنٍ) زيد، عن يعقوب: نحاس مذاب بلغ حرّه إناه ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تعلوها باشتعالها. وخصّ الوجه لأنّه أعزّ موضع في ظاهر البدن، كالقلب في باطنه؛ ولذا قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

٥١ ـ ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كلّ نفس مجرمة ما كسبت، أو: كلّ نفس من مجرمة ومطيعة، لأنّه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم، علم أنّه يثيب المؤمنين بطاعتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر.

٥٢ ـ ﴿هَٰذَا﴾ أي: ما وصفه في قوله: ﴿ولا تحسبنّ﴾ إلى قوله: ﴿سريع الحساب﴾ ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفاية في التذكير، والموعظة ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ بهذا البلاغ. وهو معطوف على محذوف، أي: لينصحوا ﴿ولينذروا﴾ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لأنّهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصّلوا إلى التوحيد؛ لأنّ الخشية أمّ الخير كلّه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

١ ـ ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ «تلك» إشارة إلى ما تضمّنته السورة من الآيات. و﴿الكتاب﴾ والقرآن المبين: السورة. وتنكير القرآن للتفخيم. والمعنى: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ الكامل في كونه كتاباً ﴿و﴾ آي ﴿قرآن مبين﴾. كأنّه قيل: الكتاب الجامع للكمال وللغرابة في البيان.

٢ ـ ﴿رُّبَمَا﴾ بالتخفيف: مدنيّ، وعاصم. وبالتشديد: غيرهما. و﴿ما﴾ هي الكافّة؛ لأنّها حرف يجرّ ما بعده، ويختصّ بالاسم النكرة. فإذا كفّت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم. وإنّما جاز ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لأنّ المترقّب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقّقه، فكأنّه قيل: ربّما ودّ. وودادتهم تكون عند النزع، أو: يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، أو: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، فيتمنّى الكافر لو كان مسلماً. كذا رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حكاية ودادتهم. وإنّما جيء بها على لفظ الغيبة لأنّهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلنّ. ولو قيل: حلف بالله لأفعلن، ولو كنّا مسلمين؛ لكان حسناً. وإنما قلّل بِرُبَّ؛ لأنّ أهوال القيامة؛ تشغلهم عن التمنّي، فإذا أفاقوا من سكرات العذاب ودّوا لو

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

كانوا مسلمين. وقول من قال: إنّ (ربّ) يعني: بها الكثرة سهو؛ لأنه ضدّ ما يعرفه أهل اللغة؛ لأنها وضعت للتقليل.

٣ ـ ﴿ذَرْهُمْ﴾ أمر إهانة، أي: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عمّا هم عليه، والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلّهم ﴿يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم. وفيه تنبيهٌ على أنّ إيثار التلذّذ والتنعّم، وما يؤدّي إليه طول الأمل، ليس من أخلاق المؤمنين.

٤ ـ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية. والقياس: ألاّ يتوسّط الواو بينهما كما في ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ إذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو، فجيء بالواو تأكيداً لذلك. والوجه: أن تكون هذه الجملة حالاً لقرية؛ لكونها في حكم الموصوفة، كأنّه قيل: وما أهلكنا قرية من القرى، لا وصفاً. وقوله: ﴿كتاب معلوم﴾ أي: مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ، وبيّن. ألاَ ترى إلى قوله:

٥ ـ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ في موضع كتابها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: عنه. وحذف لأنّه معلوم، وأنث الأمة أوّلاً، ثمّ ذكّرها آخراً، حملاً على اللفظ والمعنى.

٦ ـ ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الكفّار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. يعنون محمّداً ﷺ. وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه، وينسبونه إلى الجنون. والتعكيس في كلامهم للاستهزاء. والتهكّم سائغ، ومنه ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. والمعنى: إنّك لتقول قول المجانين؛ حيث تدعي: أنّ الله نزّل عليك الذكر.

٧ ـ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ركبت مع «لا» و«ما» لامتناع الشيء لوجود غيره، أو: التحضيض. و«هل» ركّبت مع لا للتحضيض فحسب. والمعنى: هلاّ تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك، أو: هلاّ تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً.

٨ ـ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ ﴿تُنَزَّل الملائكة﴾: أبو بكر، و﴿تَنَزّل الملائكةُ﴾ أي: تتنزل غيرهم ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلاّ تنزيلاً ملتبساً بالحكمة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ﴿إذاً﴾ جواب لهم. وجزاء الشرط مقدّر. تقديره: ﴿و﴾ لو نزّلنا الملائكة ﴿ما كانوا﴾ منظرين إذاً، وما أخّر عذابهم.

٩ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ وهو ردّ لإنكارهم، واستهزائهم في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]. ولذلك قال: ﴿إنّا نحن﴾ فأكّد عليهم أنّه هو المنزل على القطع، وأنّه هو الذي نزّله محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كلّ وقت من الزيادة، والنقصان، والتحريف، والتبديل، بخلاف الكتب المتقدّمة، فإنّه لم يتولّ حفظها، وإنّما استحفظها الربّانيين والأحبار، فاختلفوا فيما بينهم بغياً، فوقع التحريف، ولم يكل القرآن إلى غيره حفظه. وقد جعل قوله: ﴿وإنّا له لحافظون﴾ دليلاً على أنّه منزّل من عنده آية، إذ لو كان من قول البشر، أو غير آية لتطرّق عليه الزيادة والنقصان، كما يتطرّق على كلّ كلام سواه. أو: الضمير في ﴿له﴾ لرسول الله ﷺ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

١٠ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ رسلاً ﴿في﴾ الفرق ﴿الأوّلين﴾. والشيعة: الفرقة إذا اتّفقوا على مذهب، وطريقة.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

١١ ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ حكاية حال ماضية؛ لأنّ «ما» لا تدخل على مضارع إلاّ وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلاّ وهو قريب من الحال ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعزّي نبيّه عليه الصلاة والسلام.

١٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما سلكنا الكفر، أو: الاستهزاء في شيع الأوّلين ﴿نسلكه﴾ أي: الكفر، أو الاستهزاء، ﴿في قلوب المجرمين﴾ من أمّتك من اختار ذلك. يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكته: إذا أدخلته فيها. وهو حجة على المعتزلة في الأصلح، وخلق الأفعال.

١٣ ـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالله، أو: بالذكر. وهو حال ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مضت طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذّبوا رسله. وهو وعيدٌ لأهل مكّة على تكذيبهم.

١٤ ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولو أظهرنا لهم أوضح آية، وهو: فتحُ بابٍ من السماء ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون.

١٥ ـ ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ حيرت، أو: حبست، من الإبصار، من السَّكْر، أو: من السَّكَر. ﴿سُكِرَتْ﴾: مكّيّ، أي: حبست كما يحبس النهر من الجري. والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوّهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسّر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان مارأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك. أو: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار؛ ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: ﴿إنّما﴾ ليدلّ على أنّهم يبتّون القول بأنّ ذلك ليس إلاّ تسكيراً للأبصار.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

١٦ ـ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ خلقنا فيها ﴿بُرُوجًا﴾ نجوماً، أو: قصوراً فيها الحرس، أو: منازل للنجوم ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: السماء ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾

١٧ ـ ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ أي: السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ملعون، أو: مرميّ بالنجوم.

١٨ ـ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: المسموع، و﴿من﴾ في محل النصب على الاستثناء ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ نجم ينقضّ فيعود ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين. قيل: كانوا لا يحجبون عن السموات كلّها. فلمّا ولد عيسى ـ عليه السلام ـ منعوا من ثلاث سموات، فلمّا ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلّها.

١٩ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها من تحت الكعبة. والجمهور على أنّه تعالى مدّها على وجه الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ في الأرض: جبالاً ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان. أو: له وزن، وقدر في أبواب المنفعة والنعمة. أو: ما يوزن كالزعفران، والذهب، والفضّة، والنحاس، والحديد، وغيرها. وخصّ ما يوزن لانتهاء الكيل إلى الوزن.

٢٠ ـ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾ ما يعاش به من المطاعم، جمع: معيشة. وهي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها، فإنّ تصريحَ الياء فيها خطأ ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ ﴿مَن﴾ في محل النصب بالعطف على معايش، أو: على محلّ لكم. كأنّه قيل: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش و﴾ جعلنا لكم ﴿من لستم له برازقين﴾. أو: جعلنا لكم فيها معايش، ولمن لستم له برازقين. وأراد بهم: العيال، والمماليك، والخدم؛ الذين يظنّون أنهم يرزقونهم، ويخطئون، فإنّ الله هو الرازق، يرزقهم وإيّاهم. ويدخل فيه الأنعام، والدوابّ، ونحو ذلك.

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

ولا يجوز أن يكون محلّ ﴿من﴾ جرّاً بالعطف على الضمير المجرور في ﴿لكم﴾ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور إلاّ بإعادة الجارّ.

٢١ ـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلاّ ونحن قادرون على إيجاده، وتكوينه، والإنعام به. وما نعطيه إلاّ بمقدار معلوم، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كلّ مقدور.

٢٢ ـ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ جمع لاقحة، أي: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ حوامل بالسحاب؛ لأنّها تحمل السحاب في جوفها كأنّها لاقحة بها. من: لقحت الناقة: حملت. وضدّها: العقيم. ﴿الريح﴾: حمزة ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سقياً ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه﴾ كأنّه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى: نحن القادرون على خلقه في السماء، وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين، دلالةً على عظيم قدرته، وعجزهم.

٢٣ ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي بالإيجاد، ونميت بالإفناء. أو: نميت عند انقضاء الآجال، ونحيي لجزاء الأعمال. على التقديم والتأخير. إذ الواو للجمع المطلق ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلّهم. وقيل للباقي: وارث استعارة من وارث الميّت، لأنّه يبقى بعد فنائه.

٢٤ ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من تقدّم ولادة وموتاً ومن تأخّر، أو: من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو: من تقدّم في الإسلام، أو: في الطاعة، أو: في صف الجماعة، أو: صفّ الحرب ومن تأخّر.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

٢٥ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هو وحده يقدر على حشرهم، ويحيط بحصرهم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ باهر الحكمة، واسع العلم.

٢٦ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: آدم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفة لصلصال، أي: خلقه ﴿من صلصال﴾ كائن ﴿من حمأ﴾ أي: طين أسود متغيّر ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مصوّر. وفي الأوّل كان تراباً فعجن بالماء، فصار طيناً، فمكث فصار حمأ، فخلص فصار سلالة، فصوّر ويبس، فصار صلصالاً، فلا تناقض.

٢٧ ـ ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجنّ كآدم للناس. أو: هو إبليس. وهو منصوب بفعل مضمر يفسّره: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ من نار الحرّ الشديد النافذ في المسامّ. قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار؛ التي خَلَق الله منها الجانّ.

٢٨ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

٢٩ ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممت خلقته، وهيّأتها لنفخ الروح فيها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وجعلت فيه الروح، وأحييته. وليس ثمّة نفخ، وإنّما هو تمثيل. والإضافة للتخصيص ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ هو أمر من: وقع، يقع، أي: اسقطوا على الأرض، يعني: اسجدوا له. ودخل الفاء لأنّه جواب ﴿إذا﴾. وهو دليلٌ على أنّه يجوز تقدّم الأمر عن وقت الفعل.

٣٠ ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فالملائكة جمع عامّ، محتمل للتخصيص، فقطع باب التخصيص بقوله: ﴿كلّهم﴾. وذكر الكلّ احتمل تأويل التفرّق، فقطعه بقوله: ﴿أجمعون﴾.

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾

٣١ ـ ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ ظاهر الاستثناء يدلّ على أنّه كان من الملائكة، لأنّ المستثنى يكون من جنس المستثنى منه. وعن الحسن: أنّ الاستثناء منقطع، ولم يكن هو من الملائكة. قلنا: غير المأمور لا يصير بالترك ملعوناً. وقال في الكشاف: كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثمّ استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتهم إلاّ هنداً ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ امتنع أن يكون معهم. و﴿أبى﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلاّ سجد. فقيل: ﴿أبى﴾ ذلك، واستكبر عنه. وقيل: معناه: ولكن إبليس أبى.

٣٢ ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حرف الجرّ مع أن محذوف تقديره: ﴿مالك﴾ في ﴿ألاّ تكون مع الساجدين﴾ أيّ: أي غرض لك في إبائك السجود؟!

٣٣ ـ ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: لا يصح منّي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ﴾

٣٤ ـ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ من السماء، أو: من الجنّة، أو: من جملة الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من رحمة الله. ومعناه: ملعون لأنّ اللعنة هو الطرد من الرحمة، والإبعاد منها.

٣٥ ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ضرب يوم الدين حدّاً لِلَّعْنَة؛ لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم. والمراد به: أنّك مذموم، مدعوّ عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذّب، فإذا جاء ذلك اليوم عذّبت بما ينسى اللعن معه.

٣٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ فأخرني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

٣٧ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾.

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾

٣٨ ـ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ يوم الدّين. و﴿يوم يبعثون﴾ و﴿يوم الوقت المعلوم﴾ في معنى واحد. ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنّما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت؛ لأنّه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك، وأنظر إلى آخر أيّام التكليف.

٣٩ ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الباء للقسم. و﴿ما﴾ مصدريّة. وجواب القسم: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾. والمعنى: أقسم بإغوائك إيّاي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعاصي. ونحوه قوله: ﴿بما أغويتني لأزيّننّ لهم﴾ ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: ٨٢] في أنّه إقسام. إلاّ أنّ أحدهما: إقسام بصفة الذات، والثاني: بصفة الفعل. وقد فرّق الفقهاء بينهما. فقال العراقيون: الحلف بصفة الذات ـ كالقدرة، والعظمة، والعزّة ـ يمين، والحلف بصفة الفعل ـ كالرحمة، والسخط ـ ليس بيمين. والأصحّ: أنّ الأيمان مبنية على العرف، فما تعارف الناس الحلف به يكون يميناً ومالا فلا. والآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال، وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور. أو: أراد: إنّي أقدر على الاحتيال لآدم، والتزيين له الأكل من الشجرة، وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

٤٠ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وبكسر اللام: بصريّ، ومكّيّ، وشاميّ. استثنى المخلصين، لأنّه علم أنّ كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلونه منه.

٤١، ٤٢ ـ ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: هذا طريق حقّ عليّ أن أراعيه، وهو: ألاّ يكون لك سلطان على عبادي إلاّ من اختار اتّباعك منهم لغوايته. وقيل معنى: ﴿عليّ﴾ إليّ. ﴿عليٌّ﴾: يعقوب، من علوّ الشرف، والفضل.

٤٣ ـ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الضمير للغاوين.

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾

٤٤ ـ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب معلوم مفرز. قيل: أبواب النار: أطباقها، وأدراكها. فأعلاها للموحّدين يعذّبون بقدر ذنوبهم ثمّ يخرجون، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين.

٤٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[1] وبضم العين: مدنيّ، وبصريّ، وحفص. المتّقي على الإطلاق: من يتّقي ما يجب اتّقاؤه مما نُهي عنه. وقال في «الشرح» إن دخل أهل الكبائر في قوله: ﴿لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم﴾ فالمراد بالمتّقين: الذين اتّقوا الكبائر، وإلاّ فالمراد به: الذين اتّقوا الشرك.

٤٦ ـ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم ادخلوها. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ حال، أي: سالمين، أو مسلّماً عليكم، تسلّم عليكم الملائكة. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الخروج منهما، والآفات فيها. وهو حال أخرى.

٤٧ ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وهو: الحقد الكامن في القلب، أي: إن كان لأحدهم غلّ في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنّة من قلوبهم، وطيّب نفوسهم. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أرجو أن أكون أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير منهم. وقيل: معناه: طهّر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنّة، ونزع منها كلّ غلّ، وألقى فيها التوادد، والتحابّ ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كذلك. قيل: تدور بهم الأسرّة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين، يرى بعضُهم بعضاً.

(١) في الأصل المخطوط ﴿وعِيون﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ٢٢٥).

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

٤٨ ـ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ في الجنة، تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فتمام النعمة بالخلود.

٤٩، ٥٠ ـ ولمّا أتمّ ذكر الوعد والوعيد أتبعه: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ تقريراً لما ذكر، وتمكيناً له في النفوس.

قال ﷺ: «لو يعلم العبدُ قدر عفو الله لما تورّع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه في العبادة، ولما أقدم على ذنب»[(١)].

٥١ ـ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ وأخبر أمّتك. عطفه على: ﴿نبيء عبادي﴾ ليتّخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله، وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنّ عذابه: ﴿هو العذاب الأليم﴾ ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أضيافه. وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكاً. والضيف يجيء واحداً وجمعاً، لأنّه مصدر ضافه.

٥٢ ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نسلّم عليك سلاماً، أو: سلّمنا سلاماً ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون، لا متناعهم من الأكل، أو: لدخولهم بغير إذن، وبغير وقت.

٥٣ ـ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، أي: إنّك مبشّر آمن فلا توجل. وبالتخفيف وفتح النون: حمزة ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ هو إسحاق، لقوله في سورة هود [الآية: ٧١] ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾.

٥٤ ـ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: أبشّرتموني مع مسّ الكبر بأن يولد لي؟ أي: أنّ الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ هي «ما»

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٤/٣٩).

قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾

الاستفهامية دخلها معنى التعجّب، كأنّه قيل: فبأيّ أعجوبة ﴿تبشّرون﴾. وبكسر النون والتشديد: مكّيّ. والأصل: تبشرونني، فأدغم نون الجمع في نون العماد، ثمّ حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلاً عليها ﴿تبشرون﴾ بالتخفيف: نافع، والأصل: تبشرونني، فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة، وحذف نون الجمع لاجتماع النونين. والباقون بفتح النون، وحذف المفعول. والنون نون الجمع.

٥٥ ـ ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا لبس فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك.

٥٦ ـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم. ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ وبكسر النون: بصريّ، وعليّ ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ إلاّ المخطئون طريق الصواب، أو: إلاّ الكافرون، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها.

٥٧ ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ فما شأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

٥٨ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: قوم لوط.

٥٩ ـ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يريد: أهله المؤمنين. والاستثناء منقطع؛ لأنّ القوم موصوفون بالإجرام، والمستثنى ليس كذلك. أو: متّصل، فيكون استثناء من الضمير في «مجرمين». كأنّه قيل: ﴿إلى قوم﴾ قد أجرموا كلّهم ﴿إلاّ آل لوط﴾ وحدهم. والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين؛ لأنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، يعني: أنّهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصّة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً. ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين: كإرسال السهم إلى المرمى، في أنّه في معنى التعذيب، والإهلاك. كأنه قيل: إنّا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكنّ آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، يعني: أنّ الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء، وينجوا هؤلاء. وإذا انقطع الاستثناء جرى ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مجرى خبر لكنّ في

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾

الاتّصال بآل لوط؛ لأنّ المعنى: لكنّ آل لوط منجون. وإذا اتّصل كان كلاماً مستأنفاً، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: ﴿إنّا لمنجّوهم﴾.

٦٠ ـ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ مستثنى من الضمير المجرور في ﴿لمنجّوهم﴾ وليس باستثناء من الاستثناء؛ لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنّما يكون فيما اتّحد الحكم فيه، بأن يقول: أهلكناهم إلاّ آل لوط ﴿إلاّ امرأته﴾. وهنا قد اختلف الحكمان؛ لأنّ ﴿إلاّ آل لوط﴾ متعلّق بأرسلنا، أو: بمجرمين، و﴿إلاّ امرأته﴾ متعلّق بمنجوهم، فكيف يكون استثناء من استثناء؟! ﴿لَمُنْجُوهُم﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ ﴿قَدَّرْنَآ﴾ وبالتخفيف؛ أبو بكر ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. قيل: لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح إنّ، لأنّه مع اسمه وخبره مفعول ﴿قدّرنا﴾. ولكنّه كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]. وإنّما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدّر الله لقربهم، كما يقول خاصّة الملك: أمرنا بكذا، والآمر هو الملك.

٦١، ٦٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ☆ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا أعرفكم، أي: ليس عليكم زيّ السفر، ولا أنتم من أهل الحضر، فأخاف أن تطرقوني بشرّ.

٦٣ ـ ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه سرورك، وتشفّيك من أعدائك، وهو: العذاب الذي كنت تتوعّدهم بنزوله، فيمترون فيه، أي: يشكّون، ويكذّبونك.

٦٤ ـ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار بنزوله بهم.

٦٥ ـ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في آخر الليل، أو: بعد ما يمضي شيء

وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

صالح من الليل ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ وسر خلفهم، لتكون مطلعاً عليهم، وعلى أحوالهم ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب، فيرقّوا لهم. أو: جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير، وترك التواني، والتوقّف؛ لأنّ من يلتفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ حيث أمركم الله بالمضيّ إليه، وهو الشام، أو: مصر.

٦٦ ـ ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ عدّى ﴿قضينا﴾ بإلى، لأنّه ضمّن معنى: أوحينا، كأنّه قيل: وأوحينا إليه مقضيّاً مبتوتاً. وفسّر ذلك الأمر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾. وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر. ودابرهم: آخرهم، أي: يستأصلون عن آخرهم حتّى لا يبقى منهم أحد ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ وقت دخولهم في الصبح. وهو حال من هؤلاء.

٦٧ ـ ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بالملائكة طمعاً منهم في ركوب الفاحشة.

٦٨ ـ ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفي؛ لأنّ من أساء إلى ضيفي فقد أساء إليّ.

٦٩ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ أي: ولا تذلّوني بإذلال ضيفي. من: الخزي، وهو: الهوان. وبالياء فيهما[1]: يعقوب.

٧٠ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عن أن تجير منهم أحداً، أو: تدفع عنهم، فإنّهم كانوا يتعرّضون لكلّ أحد، وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر، والحجز بينهم وبين المتعرّض له، فأوعدوه، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. أو: عن ضيافة الغرباء.

---

(١) أي في قوله في الآية السابقة: ﴿تفضحون﴾ وقوله في هذه الآية: ﴿تخزنون﴾.

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾

٧١ ـ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ فانكحوهنّ، وكان نكاح المؤمنات من الكفّار جائزاً. ولا تتعرّضوا لهم ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحلّ الله دون ما حرّم. فقالت الملائكة للوط عليه السلام:

٧٢ ـ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيّرون فكيف يقبلون قولك، ويصغون إلى نصيحتك؟ أو: الخطاب لرسول ﷺ. وهو قسمٌ بحياته ـ وما أقسم بحياة أحد قط ـ تعظيماً له. والعَمر والعُمر واحد، وهو البقاء، إلا أنّهم خصّوا القسم بالمفتوح إيثاراً للأخفّ؛ لكثرة دور الحلف على ألسنتهم، ولذا حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك قسمي.

٧٣ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في الشروق، وهو: بزوغ الشمس.

٧٤ ـ ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ رفعها جبريل ـ عليه السلام ـ إلى السماء ثمّ قلبها. والضمير لقرى قوم لوط ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

٧٥ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفرّسين المتأمّلين، كأنّهم يعرفون باطن الشيء بسمةٍ ظاهرة.

٧٦ ـ ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإنّ هذه القرى، يعني: آثارها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت، يسلكه الناس، لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ★ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

٧٧ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنّهم المنتفعون بذلك.

٧٨ ـ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وإنّ الأمر والشأن ﴿كان أصحاب الأيكة﴾ أي: الغيضة ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ لكافرين. وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ.

فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

٧٩ ـ ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأهلكناهم لمّا كذّبوا شعيباً ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: قرى قوم لوط، والأيكة. ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لبطريق واضح. والإمام: اسم ما يؤتمّ به، فسمّي به الطريق، ومِطْمَر البنّاء؛ لأنهما مما يؤتّم به.

٨٠ ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ هم ثمود. والحجر: واديهم. وهو بين المدينة والشام ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: بتكذيبهم صالحاً؛ لأنّ كلّ رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً، فمن كذّب واحداً منهم، فكأنّما كذّبهم جميعاً، أو: أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين، كما قيل: «الخبيبون» في ابن الزبير وأصحابه.

٨١ ـ ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها.

٨٢ ـ ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي: ينقُبون في ﴿الجبال بيوتاً﴾ أو: يبنون من الحجارة ﴿آمِنِينَ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم، ومن نقب اللصوص والأعداء. أو: ﴿آمنين﴾ من عذاب الله، يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه.

٨٣ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ في اليوم الرابع وقت الصبح.

٨٤ ـ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واقتناء الأموال النفيسة.

٨٥ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلاّ خلقنا ملتبساً بالحقّ، لا باطلاً وعبثاً. أو: بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة لتوقّعها كلّ ساعة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ وإنّ الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإيّاهم على حسناتك وسيّئاتهم، فإنّه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلاّ لذلك ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم إعراضاً

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾

جميلاً بحلم وإغضاء. قيل: هو منسوخ بآية السيف. وإن أريد به المخالفة فلا يكون منسوخاً.

٨٦ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك، وخلقهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم، وهو يحكم بينكم.

٨٧ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ أي: سبع آيات، وهي الفاتحة. أو: سبع سور، وهي الطوال. واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة؛ لأنّهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما. وقيل: سورة يونس. أو: أسباع القرآن ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ هي من التثنية، وهي التكرير؛ لأنَّ الفاتحة مما يتكرّر في الصلاة. أو: من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله. والواحد: مثناة، أو: مثنية صفة للآية. وأمّا السور، أو الأسباع؛ فلما وقع فيها من تكرير القصص، والمواعظ، والوعد، والوعيد، ولما فيها من الثناء، كأنّها تثني على الله. وإذا جعلتَ السبع مثاني فـ﴿مِن﴾ للتبيين، وإذا جعلتَ القرآن مثاني فـ﴿مِن﴾ للتبعيض ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ هذا ليس بعطف الشيء على نفسه؛ لأنه إذا أريد بالسبع الفاتحة، أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنّه اسم يقع على البعض، كما يقع على الكلّ. دليلهُ قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] يعني: سورة يوسف. وإذا أريد به الأسباع فالمعنى: ﴿ولقد آتيناك﴾ ما يقال له السبع المثاني ﴿والقرآن العظيم﴾ أي: الجامع لهذين النعتين، وهو التثنية، أو: الثناء، والعظم ثم قال لرسوله:

٨٨ ـ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه، متمنّ له ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفّار كاليهود، والنصارى، والمجوس، يعني: قد أوتيت النعمة العظمى التي كلّ نعمة ـ وإن عظمت ـ فهي إليها حقيرة، وهي: القرآن العظيم. فعليك أن تستغني به، ولا تمدّنّ عينيك إلى متاع الدنيا. وفي الحديث: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن»[1]. وحديث أبي بكر:

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيماً، وعظّم صغيراً[1] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتمنّ أموالهم ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أنّهم لم يؤمنوا، فيتقوّى بمكانهم الإسلام، والمسلمون ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين، وطبْ نفساً عن إيمان الأغنياء.

٨٩ ـ ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنذركم ببيان وبرهان: أنّ عذابَ الله نازلٌ بكم.

٩٠ ـ ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ متعلّق بقوله ﴿ولقد آتيناك﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾. وهم أهل الكتاب.

٩١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أجزاء ـ جمع: عضة، وأصلها: عضوة، فعلة، من عضّى الشاة: إذا جعلها أعضاء ـ حيث قالوا بعنادهم: بعضه حقّ موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما. فاقتسموه إلى حقّ وباطل، وعَضَوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي. أو: أريد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم، وقد اقتسموه: فاليهود أقرّت ببعض التوراة، وكذّبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل، وكذّبت ببعض. ويجوز أن يكون: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ منصوباً بالنذير، أي: أَنذر المعضّين؛ الذين يُجزّئون القرآن إلى سحر، وشعر، وأساطير، مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين ـ وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكّة أيّام الموسم، فقعدوا في كلّ مدخل متفرّقين لينفّروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، يقول بعضهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنّه ساحر، ويقول الآخر: كذّاب، والآخر: شاعر. فأهلكهم الله ـ. و﴿لا تمدّنّ عينيك﴾ على الوجه الأوّل اعتراض بينهما؛ لأنّه لمّا كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات

---

(١) قال الحافظ: لم أجده عن أبي بكر. (حاشية الكشاف ٢/٥٨٨).

فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

إلى دنياهم، والتأسّف على كفرهم، ومن الأمر بأن يُقْبل بكلّيته على المؤمنين.

٩٢، ٩٣ ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ☆ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أقسم بذاته وربوبيته ليسألنّ يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عمّا قالوه في رسول الله ﷺ، أو: في القرآن، أو: في كتب الله.

٩٤ ـ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، وأظهره. يقال: صدع بالحجة: إذا تكلّم بها جهاراً، من: الصديع، وهو الفجر. أو: ﴿فاصدع﴾ فافرق بين الحقّ والباطل، من: الصدع في الزجاجة، وهو: الإبانة ﴿بما تؤمر﴾. والمعنى: ﴿بما تؤمر﴾ به من الشرائع، فحذف الجارّ. كقوله[1]:

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أمرت به[2] ... ...

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو أمر استهانة بهم.

٩٥ ـ ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الجمهور على أنّها نزلت في خمسة نفر، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ، والاستهزاء به، فأهلكهم الله. وهم: الوليد بن المغيرة مرّ بنبّال، فتعلّق بثوبه سهم، فأصاب عِرْقاً في عقبه، فقطعه فمات، والعاص بن وائل: دخل في أَخْمَصِه شوكة، فانتفخت رجله، فمات، والأسود بن عبد المطلب: عمي، والأسود بن عبد يغوث: جعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتّى مات، والحارث بن قيس امتخط قيحاً، ومات.

٩٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم يوم القيامة.

---

(١) هو خفاف بن ندبة، وقيل: غيره.

(٢) صدر بيت، وعجزه: فقد تركتك ذا مالٍ وذا نشب.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

٩٧ ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك، أو: في القرآن، أو: في الله.

٩٨ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فافزع فيما نابك إلى الله ـ والفزع إلى الله: هو الذكر الدائم، وكثرة السجود ـ يكفك، ويكشف عنك الغمّ.

٩٩ ـ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ ودُمْ على عبادة ربّك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت، يعني: ما دمت حياً فاشتغل بالعبادة. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1].

* * *

(١) رواه أحمد (١ / ٢٠٦ و ٢٦٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

١ ـ كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، ونزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء، وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. أي: هو بمنزلة الآتي الواقع ـ وإن كان منتظراً ـ لقرب وقوعه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرّأ جلّ وعزّ عن أن يكون له شريك، وعن إشراكهم. فـ«ما» موصولة، أو: مصدريّة. واتّصال هذا باستعجالهم من حيث إنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب، وذلك من الشرك.

٢ ـ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وأبو عمرو ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي، أو: بالقرآن؛ لأنّ كلّاً منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، أو: يحيي القلوب الميّتة بالجهل ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ «أن» مفسّرة، لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول. ومعنى «أنذروا» ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾: أعلموا بأنّ الأمر ذلك، من: نذرت بكذا؛ إذا علمته. والمعنى: أعلموا الناس قولي: ﴿لا إله إلاّ أنا﴾ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فخافون. وبالياء: يعقوب.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦

٣ـ ثمَّ دلّ على وحدانيته، وأنّه لا إله إلاّ هو بما ذكر ممّا لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض، وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وبالتاء في الموضعين:[1] حمزة، وعليّ. وخلْق الإنسان وما يكون منه، وهو قوله:

٤ ـ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أي: فإذا هو منطيق، مجادل عن نفسه، مكافح لخصومه، مبين لحجته بعد ما كان نطفة لا حسّ به، ولا حركة. أو: فإذا هو خصيم لرّبه، منكر على خالقه، قائل: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]؟ وهو وصف للإنسان بالوقاحة، والتمادي في كفران النعمة. وخلْق ما لا بدّ له منه من البهائم لأكله، وركوبه، وحمل أثقاله، وسائر حاجاته، وهو قوله:

٥ ـ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ﴾ هي الأزواج الثمانية، وأكثر ما يقع على الإبل. وانتصابها بمضمر يفسرّه الظاهر، كقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. أو: بالعطف على الإنسان، أي: خلق الإنسان، والأنعام. ثمّ قال: ﴿خلقها لكم﴾ أي: ما خلقها إلاّ لكم يا جنس الإنسان ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف، أو وبر، أو شعر ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ وهي نسلها، ودرّها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ قدّم الظرف، وهو يؤذن بالاختصاص ـ وقد يؤكل من غيرها ـ لأنّ الأكل منها هو الأصلُ الذي يعتمده الناسُ في معايشهم. وأمّا الأكل من غيرها كالدجاج، والبط، وصيد البرّ والبحر، فكغير المعتدّ به، وكالجاري مجرى التفكّه.

٦ ـ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشيّ ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ ترسلونها بالغداة إلى مسارحها. منّ الله تعالى بالتجمّل بها، كما

---

(١) أي في الآيتين (١ و ٣).

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾

منّ بالانتفاع بها، لأنّه من أغراض أصحاب المواشي؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشيّ، وسرّحوها بالغداة تزيّنت بإراحتها وتسريحها الأفنية. وفرّحت أربابها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. وإنّما قدمت الإراحة على التسريح، لأنّ الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون، حافلة الضروع.

٧ ـ ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ وبفتح الشين: أبو جعفر. وهما لغتان في معنى المشقّة. وقيل: المفتوح مصدر شقّ الأمر عليه شقّاً. وحقيقته راجعة إلى الشقّ؛ الذي هو الصدع. وأما الشّق فالنصف؛ كأنّه يذهب نصف قوّته لما ينال من الجهد. والمعنى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه﴾ لو لم تخلق الإبل إلاّ بجهد ومشقّة، فضلاً أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم. أو: معناه: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ بها ﴿إلاّ بشق الأنفس﴾. وقيل: أثقالكم: أبدانكم. ومنه: الثقلان للجنّ والإنس. ومنه: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]. أي: بني آدم ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل، وتيسير هذه المصالح.

٨ ـ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ عطف على ﴿الأنعام﴾. أي: وخلق هذه للركوب والزينة. وقد احتجّ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على حرمة أكل لحم الخيل بأنّه علّل خلقها للركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام، ومنفعة الأكل أقوى. والآية سيقت لبيان النعمة، ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنّة أدنى النعمتين، ويترك أعلاهما. وانتصاب ﴿زينة﴾ على المفعول له، عطفاً على محلّ ﴿لتركبوها﴾. وخلق ما لا تعلمون من أصناف خلائقه وهو قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ومِنْ هذا وَصْفه يتعالى عن أن يشرك به غيره:

٩ ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ المراد به: الجنس. ولذا قال: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾. والقصد: مصدر بمعنى الفاعل. وهو القاصد. يقال: سبيل قصد وقاصد،

وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ

أي: مستقيم، كأنّه يقصد الوجه الذي يؤمّه السالك، لا يعدل عنه. ومعناه: أنّ هداية الطريق الموصّل إلى الحقّ عليه. كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]. وليس ذلك للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء، ولكن يفعل ذلك تفضلاً. وقيل: معناه: وإلى الله. وقال الزّجاج: معناه: ﴿وعلى الله﴾ تبين الطريق الواضح المستقيم، والدعاء إليه بالحجج ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: من السبيل مائل عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أراد: هداية اللطف بالتوفيق والإنعام بعد الهدى العامّ.

١٠ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ «لكم» متعلّق بأنزل. أو: خبر لشراب، وهو: ما يشرب ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ من: سامت الماشية؛ إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من: السُّومة، وهي: العلامة؛ لأنها تؤثّر بالرعي علامات في الأرض.

١١ ـ ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ولم يقل: كلّ الثمرات؛ لأن كلّها لا تكون إلاّ في الجنّة، وإنّما أُنبت في الأرض بعض من كلّها للتذكرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلّون بها عليه، وعلى قدرته، وحكمته. والآية: الدلالة الواضحة.

١٢ ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[1] بنصب الكلّ على: ﴿و﴾ جَعَلَ ﴿النجومَ مسخراتٍ﴾. ﴿والنجومُ مسخراتٌ﴾

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿... والنجوم مسخرات﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٧٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾

فقط: حفص. ﴿والشمسُ والنجومُ مسخراتٌ﴾: شاميّ، على الابتداء والخبر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية، وذكر العقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء، والعظمة.

١٣ ـ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿الليل والنهار﴾ أي: ما خلق فيها من حيوان، وشجر، وثمر، وغير ذلك ﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال ﴿أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

١٤ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك. ووصفه بالطراوة؛ لأن الفساد يسرع إليه، فيؤكل سريعاً طرياً خيفة الفساد. وإنّما لا يحنث بأكله إذا حلف لا يأكل لحماً؛ لأنّ مَبْنى الإيمان على العرف. ومن قال لغلامه: اشترِ بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ هي اللؤلؤ، والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ المراد بلبسهم: لبس نسائهم، ولكنّهنّ إنما يتزينّ بها من أجلهم، فكأنّها زينتهم، ولباسهم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ﴾ جواري تجري جرياً، وتشقّ الماء شقّاً. والمخر: شقّ الماء بحيزومها[1] ﴿فِيهِ﴾ في البحر ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ هو عطف على محذوف، أي: لتعتبروا ﴿ولتبتغوا﴾. وابتغاء الفضل: التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أنعم عليكم به.

١٥ ـ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهية أن تميل بكم، وتضطرب، أو: لئلا تميد بكم. لكنّ حذف المضاف أكثر. قيل: خلق الله الأرض فجعلت تميد، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها،

---

(١) رواه أحمد (١ / ٢٠٦ و ٢٦٨).

وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدرِ الملائكة ممّ خلقت ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعل فيها ﴿أنهاراً﴾ لأنّ ﴿ألقى﴾ فيه معنى: جعل ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم، أو: إلى توحيد ربّكم.

١٦ ـ ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ هي معالم الطرق، وكلّ ما يستدلّ به السابلة من جبل، وغير ذلك ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ المراد بالنجم: الجنس؛ أو: هو الثريّا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي. فإن قلت: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدّم فيه النجم، مقحم فيه ﴿هُمْ﴾، كأنّه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمن المراد بهم؟ قلت: كأنّه أراد قريشاً، فلهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، ولهم بذلك علم، لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصّصوا.

١٧ ـ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ أي: الله تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أي: الأصنام. وجيء بـ«مَنْ» الذي هو لأولي العلم، لزعمهم حيث سمّوها آلهة، وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم، أو: لأنّ المعنى: أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده؟ وإنّما لم يقل: أفمن لا يخلق كمن لا يخلق ـ مع اقتضاء المقام بظاهره إيّاه؛ لكونه إلزاماً للذين عبدوا الأوثان، وسمّوها آلهة تشبيهاً بالله ـ لأنّهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾. وهو حجّة على المعتزلة في خلق الأفعال ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون فساد ما أنتم عليه.

١٨ ـ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوا عددها، ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقّها من أداء الشكر. وإنّما أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أنّ ما وراءها لا ينحصر، ولا يعدّ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

---

١٩ ـ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ من أقوالكم، وأفعالكم. وهو وعيد.

٢٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ والآلهة الذين يدعونهم الكفّار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وبالتاء: غير عاصم ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

٢١ ـ ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ أي: هم ﴿أموات﴾ ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين؛ وأحياء لا يموتون؛ وعالمين بوقت البعث. وأثبت لهم صفات الخلق بأنّهم مخلوقون أموات، جاهلون بالبعث. ومعنى: ﴿أموات غير أحياء﴾: أنّهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي: غير جائز عليها الموت، وأمرهم بالعكس من ذلك. والضمير في ﴿يبعثون﴾ للداعين، أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم. وفيه تهكّم بالمشركين، وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالةٌ على أنّه لا بدّ من البعث.

٢٢ ـ ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ أي: ثبت بما مرّ أنّ الإلهيّة لا تكون لغير الله، وأنّ معبودكم واحد ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ للوحدانيّة ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عنها، وعن الإقرار بها.

٢٣ ـ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقّاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ أي: سرهم وعلانيتهم، فيجازيهم. وهو وعيد ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ عن التوحيد، يعني: المشركين.

٢٤ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ لهؤلاء الكفار ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ «ماذا» منصوب بـ «أنزل»، أي: أيَّ شيء ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾. أو: مرفوع على

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾

الابتداء، أيْ: أيُّ شيء أنزله ربكم. و﴿أساطير﴾ خبر مبتدأ محذوف. قيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكّة، ينفّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاجّ عمّا أنزل على رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديث الأوّلين، وأباطيلهم. واحدتها: أسطورة. وإذا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ يخبرونهم بصدقه، وأنّه نبيّ، فهم الذين قالوا خيراً.

٢٥ ـ ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس، فحملوا أوزار ضلالهم كاملة، وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم، وهو وزر الإضلال؛ لأنّ المضلّ والضالّ شريكان. واللام للتعليل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول، أي: يضلّون من لا يعلم أنّهم ضلّال ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ محلّ ﴿ما﴾ رفع.

٢٦ ـ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: من جهة القواعد، وهي: الأساطين. وهذا تمثيل، يعني: أنّهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً، وعمدوه بالأساطين، فأُتي البنيان من الأساطين بأن ضعضعت، فسقط عليهم السقف، وماتوا، وهلكوا. والجمهور على أنّ المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل، طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فأهبّ الله الريح فخرّ عليه، وعلى قومه، فهلكوا. ﴿فأتى الله﴾ أي: أمره بالاستئصال ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا يحتسبون، ولا يتوقّعون.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلّهم بعذاب الخزي، سوى ما عذّبوا به في الدنيا ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾

ليوبّخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تعادون، وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ﴿تشاقون﴾: نافع، أي: تشاقّونني فيهم؛ لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقّة الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: الأنبياء والعلماء من أممهم؛ الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان، ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم، ويشاقّونهم. يقولون ذلك شماتة بهم. أو: هم الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ﴾ الفضيحة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وبالياء: حمزة، وكذا ما بعده[1] ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر بالله ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الصلح، والاستسلام، أي: أخبتوا، وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفران، والعداوة. فردّ عليهم أولو العلم، وقالوا: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. وهذا أيضاً من الشماتة. وكذلك:

٢٩ ـ ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنّم.

٣٠ ـ ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشرك ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾ وإنّما نصب هذا، ورفع أساطير؛ لأنّ التقدير هنا أنزل ﴿خيراً﴾ فأطبقوا الجواب على السؤال. وثمّة التقدير: هو ﴿أساطير الأوّلين﴾ فعدلوا بالجواب عن السؤال ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: آمنوا، وعملوا الصالحات، أو: قالوا: ﴿لا إله إلاّ الله﴾ ﴿حَسَنَةٌ﴾ بالرفع، أي: ثواب، وأمن، وغنيمة. وهو بدل من ﴿خيراً﴾ حكاية لقول الذين اتّقوا، أي: قالوا هذا القول، فقدم عليه تسميته خيراً، ثمّ حكاه. أو: هو كلام مستأنف عدة للقائلين، وجعل قولهم

---

(١) أي: قوله تعالى: ﴿تتوفاهم﴾ في الآية (٣٢).

وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

من جملة إحسانهم ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: لهم في الآخرة ما هو خير منها، كقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح؛ لتقدّم ذكره.

٣١ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أو: هو المخصوص بالمدح ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حال. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر؛ لأنه في مقابلة: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله! الله يقرأ عليك السلام. ويبشّره بالجنّة. ويقال لهم في الآخرة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بعملكم.

٣٣ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر هؤلاء الكفّار ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وبالياء: عليّ، وحمزة. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: العذاب المستأصل، أو: القيامة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك، والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير.

٣٤ ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاء استهزائهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا

---

٣٥ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ هذا كلام صدر منهم استهزاء، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ يعني: البحيرة، والسائبة، ونحوهما ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: كذّبوا الرسل، وحرّموا الحلال، وقالوا مثل قولهم استهزاء ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إلاّ أن يبلغوا الحق، ويطّلعوا على بطلان الشرك، وقبحه.

٣٦ ـ ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن وحّدوه ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الشيطان، يعني: طاعته ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لاختيارهم الهدى ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: لزمته لاختياره إيّاها ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ حيث أهلكهم الله، وأخلى ديارهم عنهم. ثمَّ ذكر عناد قريش، وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وأعلمه أنهم من قسم من حقّت عليه الضلالة، فقال:

٣٧ ـ ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ بفتح الياء وكسر الدال: كوفيّ. الباقون: بضم الياء وفتح الدال. والوجه فيه: أن ﴿من يضلّ﴾ مبتدأ، و﴿لا يُهدَى﴾ خبره ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم، ويدفعون عنهم عذابه الذي أعدّ لهم.

٣٨ ـ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ معطوف على ﴿وقال الذين أشركوا﴾ ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ هو مصدر مؤكّد لما دلّ عليه ﴿بلى﴾ لأنّ يبعث موعد من الله، وبيّن أنّ

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

الوفاء بهذا الوعد حقّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ وعده حقّ، أو: أنّهم يبعثون.

٣٩ ـ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلّق بما دلّ عليه ﴿بلى﴾ أي: يبعثهم ﴿ليبيّن لهم﴾، والضمير لـ﴿من يموت﴾ وهو يشمل المؤمنين والكافرين ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هو الحقّ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾.

٤٠ ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فهو يكون. وبالنصب: شاميّ، وعليّ، على جواب كن. ﴿قولنا﴾ مبتدأ، و﴿أن نقول﴾ خبره، و﴿كن فيكون﴾ من كان التامّة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث بلا توقّف. وهذه عبارةٌ عن سرعة الإيجاد، تبيّن أنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته غير متوقّف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، الممتثل، ولا قول ثَمّ. والمعنى: أنّ إيجاد كلّ مقدور على الله بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات؟

٤١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ في حقّه، ولوجهه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هم رسول الله وأصحابه، ظلمهم أهلُ مكّة، ففرّوا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثمّ إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر، أي: تبوئة ﴿حسنة﴾. أو: ﴿لنبوئنهم﴾ مباءة حسنة، وهي المدينة حيث آواهم أهلها، ونصروهم ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الوقف لازم عليه لأنّ جواب ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ محذوف. والضمير للكفّار، أي: لو علموا ذلك لرغبوا في الدين. أو: للمهاجرين، أي: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لزادوا في اجتهادهم، وصبرهم.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

٤٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: هم ﴿الذين صبروا﴾ أو: أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا على مفارقة الوطن ـ الذي هو حرم الله المحبوب في كلّ قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم؟ ـ وعلى المجاهدة، وبذل الأرواح في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضون الأمر إلى ربّهم، ويرضون بما أصابهم في دين الله.

٤٣ ـ ولما قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً نزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[1] على ألسنة الملائكة. ﴿نوحي﴾: حفص ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب ليعلموكم: أنّ الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلاّ بشراً. وقيل للكتاب: الذكر؛ لأنه موعظة، وتنبيه للغافلين ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٤٤ ـ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: بالمعجزات والكتب. والباء يتعلّق بـ«رجالاً» صفة له، أي: رجالاً ملتبسين بالبيّنات. أو: بـ«أرسلنا» مضمراً، كأنّه قيل: بم أرسل الرسل؟ فقيل: بالبيّنات. أو: بـ«نوحي»، أي: نوحي إليهم بالبيّنات، أو: بـ: «لا تعلمون»، وقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدمة. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذكر مما أمروا به، ونهوا عنه، ووعدوا به، وأوعدوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تنبيهاته فينتبهوا.

٤٥ ـ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المكرات السيّئات، وهم: أهل مكّة وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فعل بمن تقدمهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بغتة.

---

(١) في الأصل المخطوط: يُوحىٰ. وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وخلف، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٢٨١).

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ

٤٦ ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ متقلّبين في مسايرهم، ومتاجرهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٤٧ ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ متخوّفين، وهو: أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوّفون، متوقّعون. وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم. والمعنى: أنّه إذا لم يأخذكم مع ما فيكم فإنّما رأفته تقيكم، ورحمته تحميكم.

٤٨ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: حمزة، وعليّ، وأبو بكر ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ «ما» موصولة بـ﴿خلق الله﴾، وهو مبهم، بيانه: ﴿مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ أي: ترجع عن موضع إلى موضع. وبالتاء: بصريّ ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي: الأيمان ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ جمع: شمال ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حال من الظلال. عن مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون. وهو حال من الضمير في ﴿ظلاله﴾ لأنه في معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظلّ. وجمع بالواو والنون؛ لأن الدخور من أوصاف العقلاء أو: لأنّ في جملة ذلك من يعقل فغلّب. والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيّئة عن أيمانها وشمائلها، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله تعالى، غير ممتنعة عليه فيما سخّرها له من التفيؤ. والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها، غير ممتنعة.

٤٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ بيان لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أنّ في السموات خلقاً يدبّون فيها، كما تدبّ الأناسيّ في الأرض. أو: بيان لما في الأرض وحده. والمراد بما في السموات: ملائكتهنّ، وبقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة من الحفظة وغيرهم. قيل: المراد

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾

بسجود المكلّفين: طاعتهم، وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقيادهم لإرادة الله. ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا؛ فلذا جاز أن يعبّر عنهما بلفظ واحد. وجيء بـ«ما» إذ هو صالح للعقلاء وغيرهم. ولو جيء بـ«مَنْ» لتناول العقلاء خاصّة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٥٠ ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ هو حال من الضمير في: ﴿لا يستكبرون﴾ أي: لا يستكبرون خائفين ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إن علّقته بيخافون، فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم. وإن علّقته بربّهم حالاً منه، فمعناه: ﴿يخافون ربهم﴾ غالباً لهم قاهراً، كقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ وفيه دليلٌ على أنّ الملائكة مكلّفون، مدارون على الأمر والنهي، وأنّهم بين الخوف والرجاء.

٥١ ـ ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فإن قلت: إنّما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا: عندي رجال ثلاثة؛ لأن المعدودَ عارٍ عن الدلالة على العدد الخاصّ. فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد، ورجلان اثنان. قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دالّ على شيئين: على الجنسية، والعدد المخصوص؛ فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنيّ به منهما هو العدد شفع بما يؤكّده، فدلّ به على القصد إليه، والعناية به؛ ألَا ترى أنّك لو قلت: إنّما هو إله، ولم تؤكّده بواحد، لم يحسن، وخيّل أنّك تثبت الإلهية لا الوحدانية؟! ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلّم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترغيب من قوله: فإيّاه فارهبوا. (فارهبوني): يعقوب.

٥٢ ـ ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي: الطاعة ﴿وَاصِبًا﴾ واجباً ثابتاً؛ لأنّ كلّ نعمة منه. فالطاعة واجبة له على كلّ منعم عليه، وهو حال عمل فيه

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

الظرف. أو: ﴿وله﴾ الجزاء دائماً، يعني: الثواب، والعقاب ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

٥٣ ـ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ وأيّ شيء اتّصل بكم من نعمة عافية، وغِنى، وخصب ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿فـ﴾ـهو ﴿من الله﴾. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ المرض، والفقر، والجدب ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ فما تتضرّعون إلاّ إليه. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء، والاستغاثة.

٥٤ ـ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخطاب في ﴿وما بكم من نعمة﴾ إن كان عامّاً، فالمراد بالفريق الكفرة. وإن كان الخطاب للمشركين فقوله: ﴿منكم﴾ للبيان لا للتبعيض. كأنّه قال: فإذا ﴿فريق﴾ كافر وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢].

٥٥ ـ ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنّهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة. ثمّ أوعدهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هو عدول إلى الخطاب، على التهديد.

٥٦ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: لآلهتهم. ومعنى: ﴿لا يعلمون﴾ أنّهم يسمّونها آلهة، ويعتقدون فيها أنّها تضرّ، وتنفع، وتشفع عند الله، وليس كذلك؛ لأنّها جماد لا تضرّ، ولا تنفع. أو: الضمير في ﴿لا يعلمون﴾ للآلهة، أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم، أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرّباً إليهم ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وعيد ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنّها آلهة، وأنّها أهل للتقرّب إليها.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ

٥٧ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه، أو: تعجّبٌ من قولهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين. ويجوز في ﴿ما﴾ الرفع على الابتداء، و﴿لهم﴾ الخبر. والنصب على العطف على البنات، و﴿سبحانه﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.

٥٨ ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار. فظل، وأمسى، وأصبح، وبات، تستعمل بمعنى الصيرورة؛ لأنّ أكثر الوضع يتّفق بالليل، فيظلّ نهاره مغتمّاً، مسودّ الوجه من الكآبة، والحياء من الناس ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء حنقاً على المرأة.

٥٩ ـ ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ يستخفي منهم من أجل سوء المبشّر به، ومن أجل تعييرهم، ويحدّث نفسه، وينظر ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أيمسك ما بشّر به على هون وذلّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أم يئده؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون الولد؛ الذي هذا محلّه عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

٦٠ ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ صفة السوء، وهي: الحاجة إلى الأولاد الذكور، وكراهة الإناث، ووأدهنّ خشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الغنى عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في تنفيذ ما أراد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في إمهال العباد.

٦١ ـ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم، ومعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قط، ولأهلكها كلّها بشؤم ظلم الظالمين. عن أبي هريرة

وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الحُبَارَى[1] لتموت في وكرها بظلم الظالم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كاد الجُعَلُ[2] يهللك في جحره بذنب ابن آدم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿من دابّة﴾: من مشرك يدبّ ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أجل كلّ أحد. أو: وقت تقتضيه الحكمة. أو: القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

٦٢ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رئاستهم، ومن الاستخفاف برسلهم. ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك، أي: ويقولون الكذب: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، وهي الجنّة إن كان البعث حقاً، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] و﴿أن لهم الحسنى﴾: بدلٌ من ﴿الكذب﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ ﴿مُفْرِطون﴾: نافع. ﴿مُفَرِّطون﴾: أبو جعفر، فالمفتوح بمعنى مقدّمون إلى النار، معجّلون إليها، من: أفرطت فلاناً، وفرطته في طلب الماء: إذا قدّمته، أو: منسيّون متروكون، من: أفرطت فلاناً خلفي: إذا خلّفته ونسيته. والمكسور المخفّف، من: الإفراط في المعاصي، والمشدّد من التفريط في الطاعات، أي: التقصير فيها.

٦٣ ـ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أرسلنا رسلاً إلى من تقدمك من الأمم ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر، والتكذيب بالرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قرينهم في الدنيا تولّى إضلالهم بالغرور. أو: الضمير لمشركي قريش. أي: زيّن للكفّار قبلهم أعمالهم فهو وليّ هؤلاء لأنّهم منهم.

(١) «الحُبارى»: طائر أكبر من الدجاج الأهلي وأطول عنقاً، رمادي اللون، على شكل الإوزة.

(٢) «الجُعَلُ»: جنس خنافس من مغمدات الأجنحة.

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا

أو: هو على حذف المضاف، أي: فهو ولي أمثالهم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

٦٤ ـ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن. ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ هو البعث؛ لأنّه كان فيهم من يؤمن به ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محلّ ﴿لتبيّن﴾ إلاّ أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما؛ لأنّهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخلت اللام على ﴿لتبين﴾ لأنّه فعل المخاطب، لا فعل المنزل ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٦٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع إنصاف وتدبّر؛ لأنّ من لم يسمع بقلبه، فكأنّه لا يسمع.

٦٦ ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ وبفتح النون: نافع، وشاميّ، وأبو بكر. قال الزجاج: سقيته وأسقيته بمعنى واحد. ذكر سيبويه الأنعام في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، ولذا رجع الضمير إليه مفرداً. وأما ﴿فِى بُطُونِهَا﴾ في سورة المؤمنين [الآية: ٢١]، فلأنّ معناه الجمع. وهو استئناف، كأنّه قيل: كيف العبرة؟ فقال: ﴿نسقيكم مّما في بطونه﴾ ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ لا يبغي أحدهما عليه بلون، ولا طعم، ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله. قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته[1]، فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً. والكبد مسلّطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث في

(١) إن كلام الإمام النسفي ـ رحمه الله ـ يتفق مع مفهوم عصره عن الطعام وتحولاته في جسم الإنسان، وقد بيّن العلمُ الحديث عملية الهضم والامتصاص في الأمعاء. وقد تجلّت المعجزة الربانية ـ إخراج اللبن المتميز بلونه وطعمه وتعقيمه وسَوْغ شربه من بين فرث ودم ـ بشكل أوضح؛ مما يؤكّد توافق العلم مع الإيمان.

سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

الكرش، ثمّ ينحدر، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، وسُئِل شقيق[1] عن الإخلاص، فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهل المرور في الحلق. ويقال: لم يغصّ أحد باللبن قطّ. و﴿من﴾ الأولى للتبعيض؛ لأنّ اللبن بعض ما في بطونها، والثانية لابتداء الغاية.

٦٧ ـ ويتعلّق ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ بمحذوف تقديره: ﴿و﴾ نسقيكم ﴿من ثمرات النخيل والأعناب﴾ أي: من عصيرها. وحذف لدلالة ﴿نسقيكم﴾ قبله عليه. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء. أو: تتخذون. و﴿منه﴾ من تكرير الظرف للتوكيد. والضمير في ﴿منه﴾ يرجع إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير. والسكر: الخمر. سُمِّيت بالمصدر، من سكر سُكْراً وسَكَراً، نحو: رُشْداً ورَشَداً. ثمّ فيه وجهان: أحدهما: أنّ الآية سابقة على تحريم الخمر، فتكون منسوخة. وثانيهما: أن يجمع بين العتاب والمنّة. وقيل: السكر: النبيذ، وهو: عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتّى يذهب ثلثاه، ثمّ يترك حتّى يشتدّ. وهو حلال عند أبي حنيفة وأبي يوسف ـ رحمها الله ـ إلى حدّ السكر. ويحتجان بهذه الآية ، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «الخمر حرام لعينها، والسكر من كلّ شراب»[2] وبأخبار جمّة ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ هو الخلّ، والرُبّ، والتمر، والزبيب، وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٦٨ ـ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وألهم. ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ هي أن المفسّرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. قال الزجاج: واحد النحل نحلة، كنخل ونخلة. والتأنيث باعتبار هذا. و﴿من﴾ في ﴿من الجبال﴾ و﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

(١) هو شقيق بن إبراهيم البلخي، المتوفى سنة ١٩٤ هـ.
(٢) «الحيزوم»: الصدر أو وَسَطه.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾

يرفعون من سقوف البيت، أو: ما يبنون للنحل في الجبال، والشجر، والبيوت من الأماكن التي تعسّل فيها، للتبعيض؛ لأنّها لا تبني بيوتها في كلّ جبل، وكلّ شجر، وكلّ ما يعرش. والضمير في ﴿يعرشون﴾ للناس. وبضم الراء: شاميّ، وأبو بكر.

٦٩ ـ ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ابني البيوت، ثمّ كلي كلّ ثمرة تشتهينها. فإذا أكلتها ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ فادخلي الطرق التي ألهمك، وأفهمك في عمل العسل. أو: إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ﴿فاسلكي﴾ إلى بيوتك راجعة ﴿سبل ربّك﴾ لا تضلين فيها ﴿ذُلُلٗاۚ﴾ جمع: ذلول. وهي حال من السبل؛ لأنّ الله تعالى ذلّلها، وسهّلها، أو: من الضمير في ﴿فاسلكي﴾ أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب، تلقيه من فيها، ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ منه أبيض، وأصفر، وأحمر من الشباب، والكهول، والشيب أو: على ألوان أغذيتها ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ لأنّه من جملة الأدوية النافعة. وقلّ معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل. وليس الغرض أنّه شفاء لكلّ مريض، كما أنّ كلّ دواء كذلك. وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو: لأنّ فيه بعض الشفاء؛ لأنّ النكرة في الإثبات تخصّ. وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال ﷺ: «اسقه عسلاً»، فجاءه وقال: زاده شراً. فقال ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك. اسقه عسلاً» فسقاه فصحّ[١]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: العسل شفاء من كلّ داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل. ومن بدع الروافض: أن المراد بالنحل عليّ وقومه. وعن بعضهم: أنّ رجلاً قال عند المهديّ: إنّما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك ممّا يخرج من بطونهم. فضحك المهديّ. وحدّث به المنصور، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) في الطب ومسلم (٢٢١٧) في السلام.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً

عجيب أمرها، فيعلمون أنّ الله أودعها علماً بذلك، وفطّنها، كما أعطى أولي العقول عقولهم.

٧٠ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بقبض أرواحكم من أبدانكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ إلى أخسّه، وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة، أو: ثمانون أو تسعون ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ لينسى ما يعلم، أو: لئلا يعلم زيادة علم على علمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل، أو: إلى الإفناء من الإحياء، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء.

٧١ ـ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل ممّا رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ في الرزق، يعني: الملاك ﴿بِرَآدِّى﴾ بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾. فكان ينبغي أن تردّوا فضل ما رزقتموه عليهم حتّى تتساووا في الملبس والمطعم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ جملة اسميّة وقعت في موضع جملة فعليّة في موضع النصب؛ لأنه جواب النفي بالفاء، وتقديره: ﴿فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم﴾ فيستووا مع عبيدهم في الرزق. وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء. فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم. فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟! ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وبالتاء: أبو بكر. فجعل ذلك من جملة جحود النعمة.

٧٢ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: من جنسكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع: حافد. وهو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة، والخدمة. ومنه قول القانت: وإليك نسعى ونحفد. واختلف فيه فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد. والمعنى ﴿و﴾ جعل لكم ﴿حفدة﴾

وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ

أي: خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: بعضها؛ لأنّ كلّ الطيبات في الجنّة، وطيّبات الدنيا أنموذج منها ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ هو ما يعتقدونه من منفعة الأصنام، وشفاعتها ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أو: الباطل: الشيطان، والنعمة: محمد ﷺ. أو: الباطل: ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحلّ لهم.

٧٣ ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: الصنم، وهو جماد لا يملك أن يرزق شيئاً. فالرزق يكون بمعنى المصدر، وبمعنى ما يرزق. فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شيئاً﴾ أي: لا يملك أن يرزق شيئاً. وإن أردت المرزوق كان ﴿شيئاً﴾ بدلاً منه، أي: قليلاً. و﴿من السموات والأرض﴾ صلة للرزق إن كان مصدراً، أي: لا يرزق من السموات مطراً، ولا من الأرض نباتاً، وصفة إن كان اسماً لما يرزق. والضمير في: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لما؛ لأنه في معنى الآلهة بعد ما قال ﴿لا يملك﴾ على اللفظ. والمعنى: لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتّى ذلك منهم.

٧٤ ـ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا لله مثلاً، فإنّه لا مثل له، أي: فلا تجعلوا له شركاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنّه لا مثل له من الخلق ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، أو: ﴿إنّ الله يعلم﴾ كيف يضرب الأمثال ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك. والوجه: الأول. ثمّ ضرب المثل فقال:

٧٥ ـ ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا﴾ هو بدل من ﴿مثلاً﴾ ﴿مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ مصدران في موضع الحال، أي: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوّى بين عبدٍ مملوك، عاجز عن التصرف، وبين حر مالك، قد رزقه الله مالاً، فهو يتصرّف فيه، وينفق منه

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

ما شاء. وقيّد بالمملوك ليميزه من الحرّ؛ لأنّ اسم العبد يقع عليهما جميعاً، إذ هما من عباد الله. وبـ: ﴿لا يقدر على شيء﴾ ليمتاز من المكاتب والمأذون، فهما يقدران على التصرّف. و﴿من﴾ موصوفة، أي: وحرّاً رزقناه ليطابق عبداً، أو: موصولة ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ جمع الضمير لإرادة الجمع، أي: لا يستوي القبيلان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن الحمد والعبادة لله. ثم زاد في البيان فقال:

٧٦ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الأبكم: الذي ولد أخرس فلا يَفْهم، ولا يُفْهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: ثِقْل وعيال على مَن يلي أمره، ويعوله ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يرسله، ويصرفه في مطلب حاجة، أو كفاية مهم، لم ينفع، ولم يأتِ بنجح ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: ومَن هو سليم الحواس، نفّاع، ذو كفايات، مع رشد وديانة، فهو يأمر الناس بالعدل، والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على سيرةٍ صالحة، ودين قويم. وهذا مثل ثانٍ، ضربه لنفسه، ولما يفيض على عباده من آثار رحمته، ونعمته، وللأصنام التي هي أموات لا تضرّ، ولا تنفع.

٧٧ ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه. أو: أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة، على أنّ علمه غائب عن أهل السموات والأرض، لم يطّلع عليه أحدٌ منهم ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قرب كونها، وسرعة قيامها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ كرجع طرف ـ وإنّما ضرب به المثل لأنّه لا يعرف زمان أقلّ منه ـ ﴿أَوْ هُوَ﴾ أي: الأمر ﴿أَقْرَبُ﴾. وليس هذا لشكّ المخاطب، ولكن المعنى: كونوا في كونها على هذا الاعتبار. وقيل: بل ﴿هو أقرب﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر

وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ

على أن يقيم الساعة، ويبعث الخلق؛ لأنّه بعض المقدورات. ثمّ دلّ على قدرته بما بعده فقال:

٧٨ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ وبكسر الألف وفتح الميم: عليّ، إتباعاً لكسرة النون. وبكسرهما: حمزة. والهاء مزيدة في أمّهات للتوكيد، كما زيدت في أراق، فقيل: أهراق. وشذّت زيادتها في الواحدة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ حال، أي: غير عالمين شيئاً من حقّ المنعم؛ الذي خلقكم في البطون ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلاّ آلات لإزالة الجهل؛ الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه. والأفئدة في فؤاد، كالأغربة في غراب، وهو من جموع القلّة؛ التي جرت مجرى جموع الكثرة، لعدم السماع في غيرها.

٧٩ ـ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ وبالتاء: شاميّ، وحمزة ﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذلّلات للطيران بما خلق لها من الأجنحة، والأسباب المواتية لذلك ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في قبضهنّ، وبسطهنّ، ووقوفهنّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بقدرته. وفيه نفي لما يصوّره الوهم من خاصيّة القوى الطبيعية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ بأنّ الخلق لا غِنى به عن الخالق.

٨٠ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ هو فَعَلَ بمعنى مفعول، أي: ما يسكن إليه، وينقطع إليه من بيت، أو: إلف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ هي: قباب الأدم ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب، والنقض، والنقل ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ بسكون العين: كوفيّ، وشاميّ. وبفتح العين: غيرهم.

وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

والظعن بفتح العين وسكونها: الارتحال ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قراركم في منازلكم. والمعنى: أنّها خفيفة عليكم في أوقات السفر، والحضر، على أنّ اليوم بمعنى الوقت ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: أصواف الضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وأوبار الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ وأشعار المعز ﴿أَثَاثًا﴾ متاع البيت ﴿وَمَتَاعًا﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿إِلَى حِينٍ﴾ مدّة من الزمان.

٨١ ـ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ كالأشجار، والسقوف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ جمع كنّ، وهو: ما سترك من كهف، أو غار ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ هي: القمصان، والثياب من الصوف، والكتّان، والقطن ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي: تقي البرد أيضاً، إلاّ أنه اكتفى بأحد الضدّين، ولأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم؛ لكون البرد يسيراً محتملاً ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ودروعاً من الحديد تردّ عنكم سلاح عدوّكم في قتالكم. والبأس: شدّة الحرب. والسربال عام يقع على ما كان من حديد، أو: غيره ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به، وتنقادون له.

٨٢ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فلا تبعة عليك في ذلك؛ لأنّ الذي عليك هو التبليغ الظاهر، وقد فعلت.

٨٣ ـ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عددناها بأقوالهم، فإنّهم يقولون: إنّها من الله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم. أو: في الشدّة، ثمّ في الرخاء ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين. أو: ﴿نعمة الله﴾: نبوّة محمد ﷺ، كانوا يعرفونها، ثمّ ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم، و«ثم» يدل على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

المعرفة؛ لأنّ حقّ من عرف النعمة أن يعترف، لا أن ينكر.

٨٤ ـ ﴿وَيَوْمَ﴾ انتصابه باذكر ﴿نَبْعَثُ﴾ نحشر ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نبيّاً يشهد لهم وعليهم بالتصديق، والتكذيب، والإيمان، والكفر ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار. والمعنى: لا حجّة لهم، فدلّ بترك الإذن على أن لا حجّة لهم، ولا عذر ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم: أرضوا ربّكم؛ لأنّ الآخرة ليست بدار عمل. ومعنى: ﴿ثمّ﴾ أنهم يُمْنون، أي: يُبتلون بعد شهادة الأنبياء عليهم السلام بما هو أطمّ وأغلب منها، وهو أنّهم يمنعون الكلام، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجّة.

٨٥ ـ ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: العذاب بعد الدخول ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون قبله.

٨٦ ـ ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم التي عبدوها ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ أي: آلهتنا التي جعلناها شركاء ﴿الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي: نعبد ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: أجابوهم بالتكذيب؛ لأنها كانت جماداً لا تعرف من عبدها، ويحتمل: أنّهم كذّبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة، تنزيهاً لله عن الشرك.

٨٧ ـ ﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعني: الذين ظلموا ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ إلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء، والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وبطل عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أنّ لله شركاء، وأنّهم ينصرونهم، ويشفعون لهم، حين كذّبوهم، وتبرّؤوا منهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

٨٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وحملوا غيرهم على الكفر ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذاباً بكفرهم، وعذاباً بصدّهم عن سبيل الله ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين الناس بالصدّ.

٨٩ ـ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيّهم؛ لأنّه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أمّتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين. أمّا في الأحكام المنصوصة فظاهر، وكذا فيما ثبت بالسنة، أو: بالإجماع، أو: بقول الصحابة، أو: بالقياس؛ لأنّ مرجع الكلّ إلى الكتاب، حيث أمرنا فيه باتّباع رسوله ﷺ وطاعته بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢] وحثّنا على الإجماع فيه بقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وقد رضي رسول الله ﷺ لأمّته اتّباع أصحابه بقوله: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[1]. وقد اجتهدوا، وقاسوا، ووطّؤوا طرق الاجتهاد والقياس، مع أنّه أمرنا به بقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. فكانت السُّنة، والإجماع، وقول الصحابيّ، والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب، فتبيّن أنّه كان تبياناً لكلّ شيء ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ودلالة إلى الحقّ، ورحمة لهم، وبشارة لهم بالجنّة.

٩٠ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتسوية في الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم، وإيصال كلّ ذي حقّ إلى حقّه ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى من أساء إليكم. أو: هما الفرض، والندب؛ لأن الفرض لابدّ من أن يقع فيه تفريط، فيجبره الندب ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء ذي القرابة، وهو: صلة الرحم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) ومسلم (٢٢١٧).

ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا

﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الذنوب المفرطة في القبح ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره العقول ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ طلب التطاول بالظلم، والكبر ﴿يَعِظُكُمْ﴾ حال، أو: مستأنف ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون بمواعظ الله. وهذه الآية سببُ إسلام عثمان بن مظعون، فإنّه قال: ما كنتُ أسلمتُ إلاّ حياء منه عليه الصلاة والسلام لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام، ولم يستقرّ الإيمان في قلبي، حتّى نزلت هذه الآية، وأنا عنده، فاستقرّ الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة، فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسلفه لمغدق، وما هو بقول البشر. وقال أبو جهل: إنّ إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق. وهي أجمعُ آية في القرآن للخير والشرّ، ولهذا يقرؤها كلّ خطيب على المنبر في آخر كلّ خطبة لتكون عظة جامعة لكلّ مأمور، ومنهي.

٩١ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أيمان البيعة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله. وأكّد ووكّد لغتان فصيحتان. والأصل: الواو، والهمزة بدل منها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً ورقيباً؛ لأنّ الكفيل مراع لحال المكفول به، مهيمن عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من البرّ والحنث، فيجازيكم به.

٩٢ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقض الأيمان ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته، فجعلته ﴿أَنكَـٰثًا﴾. جمع نكث، وهو: ما ينكث فتله. قيل: هي ريطة، وكانت حمقاء، تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثمّ تأمرهنّ فينقضن ما غزلن. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ حال، كأنكاثاً ﴿دَخَلًۢا﴾. أحد مفعولي: تتّخذ، أي: ولا تنقضوا

بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا

أيمانكم متّخذيها دخلاً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: مفسدة وخيانة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسبب أن تكون أمة؛ يعني: جماعة قريش ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي أزيد عدداً، وأوفر مالاً من جماعة المؤمنين. ﴿هي أربى﴾ مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لأمّة. و﴿أمّة﴾ فاعل ﴿تكون﴾. وهي: تامة. و﴿هي﴾ ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير للمصدر، أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسّكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكّدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترّون بكثرة قريش وثروتهم، وقلّة المؤمنين وفقرهم ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. وفيه تحذيرٌ عن مخالفة ملّة الإسلام.

٩٣ ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حنيفة مسلمة ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يوم القيامة، فتجزون به.

٩٤ ـ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كرّر النهي عن اتّخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعظمه ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزلّ أقدامكم عن محجّة الإسلام بعد ثبوتها عليها. وإنّما وحّدت القدم، ونكّرت؛ لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحقّ بعد أن تثبت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ بصدودكم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وخروجكم عن الدين. أو: بصدّكم غيركم؛ لأنّهم لو نقضوا أيمان البيعة، وارتدّوا لاتّخذوا نقضها سنّة لغيرهم يستنّون بها ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

٩٥ ـ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾. وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثَمَنًا

قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

﴿قَلِيلًا﴾. عرضاً من الدنيا يسيراً، كأنّ قوماً ممن أسلم بمكّة زيّن لهم الشيطان ـ لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش، واستضعافهم المسلمين، ولما كانوا يَعدونهم إن رجعوا من المواعيد ـ أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبّتهم الله ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٩٦ ـ ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾[1] وبالنون: مكيّ، وعاصم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على أذى المشركين، ومشاقّ الإسلام ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

٩٧ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ «مَنْ» مبهم يتناول النوعين إلاّ أنّ ظاهره للذكور، فبيّن بقوله: ﴿من ذكر أو أنثى﴾ ليعمّ الموعد النوعين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط الإيمان؛ لأنّ أعمال الكفار غير معتد بها. وهو يدلّ على أنّ العمل ليس من الإيمان ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي: في الدنيا؛ لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. وعده الله ثواب الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح، موسراً كان أو معسراً، يعيش عيشاً طيّباً؛ إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً فمعه ما يطيّب عيشه، وهو: القناعة، والرضا بقسمة الله تعالى. وأمّا الفاجر فأمره بالعكس: إن كان معسراً فظاهر، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنّأ بعيشه. وقيل: الحياة الطيّبة: القناعة، أو: حلاوة الطاعة، أو: المعرفة بالله، وصدق المقام مع الله، وصدق الوقوف على أمر الله، والإعراض عمّا سوى الله.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وليجزين﴾ وهي قراءة: قنبل، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن ذكوان، وهشام. (معجم القراءات القرآنية ٣/ ٢٩٥).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾

٩٨ ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فإذا أردت قراءة القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فعبّر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؛ لأنها سببٌ له. والفاء للتعقيب، إذ القراءة المصدّرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: إبليس ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، أو: الملعون. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. فقال لي: «قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام»[1].

٩٩ ـ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ﴾ لإبليس ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ تسلّط، وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالمؤمن المتوكّل، لا يقبل منه وساوسه.

١٠٠ ـ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يتّخذونه وليّاً، ويتّبعون وساوسه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير يعود إلى ربهم، أو: إلى الشيطان، أي: بسببه.

١٠١ ـ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ تبديل الآية مكان الآية هو: النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمةٍ رآها، وهو معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وأبو عمرو ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ هو جواب: ﴿إذا﴾. وقوله: ﴿والله أعلم بما ينزّل﴾ اعتراض. كانوا يقولون: إنّ محمّداً يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشقّ بالأهون، والأهون بالأشقّ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة في ذلك.

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٨٣٧) وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٣٩/١): موضوع، آفته: جعفر بن عبد الواحد.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

١٠٢ ـ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل ـ عليه السلام ـ أضيف إلى القدس، وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود، والمراد: الروح المقدّس، وحاتم الجواد. والمقدّس: المطهّر من المآثم ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من عنده، وأمره ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، أي: نزّله ملتبساً بالحكمة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليبلوهم بالنسخ، حتّى إذا قالوا فيه: هو الحقُّ من ربنا والحكمة؛ لأنّه حكيم لا يفعل إلاّ ما هو حكمة وصواب، حكم لهم بثبات القدم، وصحة اليقين، وطمأنينة القلوب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ مفعول لهما، معطوفان على محلّ ﴿ليثبّت﴾ والتقدير: تثبيتاً لهم، وإرشاداً وبشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم.

١٠٣ ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أرادوا به غلاماً كان لحويطب قد أسلم، وحَسُن إسلامه، اسمه: عائش، أو يعيش، وكان صاحب كتب. أو: هو جبر؛ غلام روميّ لعامر بن الحضرميّ. أو: عبدان: جبر، ويسار. كانا يقرأان التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ يسمع ما يقرأان. أو: سلمان الفارسي ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ وبفتح الياء والحاء: حمزة، وعليّ ﴿إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، لسان أعجمي، غير بيّن. ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربيّ مبين﴾ ذو بيان وفصاحة. ردّاً لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وهذه الجملة، أعني: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ لامحل لها؛ لأنها مستأنفة، جواب لقولهم. واللسان: اللغة. ويقال: ألحد القبر، ولحده، وهو ملحد، وملحود: إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شقّ منه. ثمّ استعير لكلّ إمالة عن الاستقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه. ومنه الملحد؛ لأنّه أمال مذهبه عن الأديان كلّها.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

١٠٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ ما داموا مختارين الكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة على كفرهم.

١٠٥ ـ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ على الله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنّما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنّه لا يترقّب عقاباً عليه. وهو ردّ لقولهم: ﴿إنّما أنت مفتر﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿الذين لا يؤمنون﴾، أي: وأولئك ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب. أو: ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ في قولهم: ﴿إنّما أنت مفتر﴾.

١٠٦ ـ جوّزوا أن يكون ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ شرطاً مبتدأ، وحذف جوابه؛ لأنّ جواب ﴿من شرح﴾ دالّ عليه، كأنّه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ساكن به ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً، واعتقده ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وأن يكون بدلاً من ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ على أن يجعل ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ اعتراضاً بين البدل والمبدل منه. والمعنى: إنّما يفتري الكذب ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾. واستثنى منهم المكره، فلم يدخل تحت حكم الافتراء. ثمّ قال: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله﴾. وأن يكون بدلاً من المبتدأ؛ الذي هو ﴿أولئك﴾، أي: ومن كفر بالله من بعد إيمانه ﴿هم الكاذبون﴾. أو: من الخبر الذي هو الكاذبون، أي: وأولئك هم ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾. وأن ينتصب على الذم.

رُوي أنّ ناساً من أهل مكّة فتنوا فارتدّوا، وكان فيهم من أكره، فأجرى كلمة الكفر على لسانه، وهو معتقدٌ للإيمان. منهم عمّار ـ وأما أبواه: ياسر

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾

وسميّة فقد قُتِلا، وهما أوّل قتيلين في الإسلام ـ فقيل لرسول الله ﷺ: إن عمّاراً كفر. فقال: «كلاّ، إنّ عمّاراً مُلِىء إيماناً من قرنه إلى قدمه»[١] و«اختلط الإيمانُ بلحمه ودمه»[٢]. فأتى عمّار رسول الله ﷺ وهو يبكي. فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه. وقال: «مالك؟! إن عادوا لك فَعُدْ لهم بما قلت»[٣]. وما فعل أبو عمار أفضل؛ لأنّ في الصبر على القتل إعزازاً للإسلام.

١٠٧ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الوعيد، وهو: لحوق الغضب، والعذاب العظيم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ آثروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما داموا مختارين للكفر.

١٠٨ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فلا يتدبّرون، ولا يصغون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريقَ الرشاد ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: الكاملون في الغفلة؛ لأنّ الغفلة عن تدبّر العواقب هي غاية الغفلة، ومنتهاها.

١٠٩، ١١٠ ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ «ثم» يدلّ على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ من مكّة، أي: أنّه لهم لا عليهم، يعني: أنّه وليّهم وناصرهم، لا عدوّهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محميّاً منفوعاً، غير مضرور

---

(١) قال الحافظ: رواه الثعلبي، والواحدي في «الوسيط» عن الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢/ ٦٣٤).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٩).

(٣) رواه ابن عساكر. (كنز العمال ٣٣٥٢٠).

مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر. ﴿فَتَنوا﴾: شاميّ، أي: بعد ما عذّبوا المؤمنين، ثمّ أسلموا ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ المشركين بعد الهجرة ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد هذه الأفعال، وهي: الهجرة، والجهاد، والصبر ﴿لَغَفُورٞ﴾ لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقيّة. ﴿رَّحِيمٞ﴾ لا يعذّبهم على ما قالوا في حالة الإكراه.

١١١ ـ ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي﴾ منصوب برحيم، أو: باذكر ﴿كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ وإنما أضيفت النفس إلى النفس؛ لأنّه يقال لعين الشيء، وذاته: نفسه، وفي نقيضه: غيره. والنفس: الجملة كما هي. فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها وذاتها، فكأنّه قيل: يوم يأتي كلّ إنسان يجادل عن ذاته، لا يهمّه شأن غيره، كلّ يقول: نفسي، نفسي. ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها، كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ تُعطى جزاء عملها وافياً ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ في ذلك.

١١٢ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكلّ قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة فكفروا، وتولّوا، فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن يراد قرية مقدّرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلا لمكّة إنذاراً من مثل عاقبتها ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ من القتل والسبي ﴿مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ لا يزعجها خوف؛ لأنّ الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج، والقلق مع الخوف ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من كلّ بلد ﴿فَكَفَرَتۡ﴾ أهلها ﴿بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ جمع: نعمة، على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع، وأدرع. أو: جمع: نعم، كبؤس وأبؤس ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ الإذاقة واللباس: استعارتان. والإذاقة المستعارة موقّعة على اللباس المستعار، ووجه صحّة ذلك: أنّ الإذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة، لشيوعها في البلايا والشدائد، وما يمسّ الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرّ، وأذاقه العذاب. شبّه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ، والبشع. وأما اللباس فقد شبّه به ـ لا شتماله على اللابس ـ ما غشي الإنسان، والتبس به من بعض الحوادث. وأمّا إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف؛ فلأنّه لمّا وقع عبارة عمّا يغشى منهما، ويلابس؛ فكأنّه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع، والخوف.

١١٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي: في حال التباسهم بالظلم. قالوا: إنّه القتل بالسيف يوم بدر.

١١٤ ـ رُوي: أنّ رسول الله ﷺ وجّه إلى أهل مكّة في سني القحط بطعام، ففرّق فيهم، فقال الله لهم بعد أن أذاقهم الجوع: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ على يدي محمد ﷺ ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ بدلاً عمّا كنتم تأكلونه حراماً خبيثاً من الأموال المأخوذة بالغارات، والغصوب، وخبائث الكسوب ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تطيعون. أو: إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة؛ لأنّها شفعاؤكم عنده.

١١٥ ـ ثمّ عدّد عليهم محرّمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إنّما للحصر. أي: المحرّم هذا دون البحيرة وأخواتها. وباقي الآية قد مرّ تفسيره.

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ

---

١١٦ ـ ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ هو منصوب بلا تقولوا، أي: ﴿ولا تقولوا﴾ الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحلّ والحرمة في قولكم: ﴿ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٩] من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحي، أو: إلى القياس المستنبط منه. واللام مثلها في قولك: لا تقولوا لما أحلّ الله هو حرام. وقوله: ﴿ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ بدل من الكذب. ولك أن تنصب ﴿الكذب﴾ بـ«تصف» وتجعل ﴿ما﴾ مصدريّة، وتعلّق ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بـ﴿لا تقولوا﴾، أي: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام، وهذا لوصف ألسنتكم الكذب، أي: ولا تحرّموا، ولا تحلّلوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم، ويجول في أفواهكم لا لأجل حجّة وبيّنة، ولكن قول ساذج، ودعوى بلا برهان. وقوله: ﴿تصف ألسنتكم الكذب﴾ من فصيح الكلام، جعل قولهم كأنّه عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلّت الكذب بحليته، وصوّرته بصورته، كقولك: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر. واللام في: ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ من التعليل الذي لا يتضمّن معنى الغرض ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

١١٧ ـ ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهليّة منفعة قليلة، وعذابها عظيم.

١١٨ ـ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ في سورة الأنعام، يعني: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ... ﴾ الآية [١٤٦]. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بالتحريم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فحرّمنا عليهم عقوبة على معاصيهم.

١١٩ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ في موضع الحال، أي:

﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾

عملوا السوء جاهلين، غير متدبرين للعاقبة؛ لغلبة الشهوة عليهم، ومرادهم لذّة الهوى، لا عصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ بتكفير ما كثّروا قَبْلُ من الجرائم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بتوثيق ما وثّقوا بعد العزائم.

١٢٠ ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنّه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير، كقوله[1]:

ليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أن يَجْمَعَ العالَمَ في واحدِ

وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده، والناس كلّهم كفّار. أو: كان أمّة بمعنى مأموم، يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ هو القائم بما أمره الله. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إنّ معاذاً كان أمّة، قانتاً لله. فقيل له: إنّما هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: الأمّة الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله. وكان معاذ كذلك. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو كان معاذ حيّاً لاستخلفته، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة. ومعاذ أمّة لله، قانت لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون»[2] ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان إلى ملّة الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفى عنه الشرك تكذيباً لكفّار قريش، لزعمهم أنّهم على ملّة أبيهم إبراهيم. وحذف النون للتشبيه بحروف اللين.

١٢١ ـ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ رُوي: أنّه كان لا يتغذّى إلاّ مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخّر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فخيّلوا له أن بهم جذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٠).
(٢) الشاعر هو: أبو نواس.

ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ اختصّه، واصطفاه للنبوّة ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى ملّة الإسلام.

١٢٢ ـ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ نبوّة، وأموالاً، وأولاداً. أو: تنويه الله بذكره، فكلّ أهل دين يتولّونه، أو: قول المصلّي منّا: كما صليت على إبراهيم ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لمن أهل الجنّة.

١٢٣ ـ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ في ﴿ثمّ﴾ تعظيم منزلة نبيّنا ﷺ، وإجلال محلّه، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتّباع رسولنا ملّته.

١٢٤ ـ ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ أي: فرض عليهم تعظيمه، وترك الاصطياد فيه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ رُوي: أنّ موسى ـ عليه السلام ـ أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة، وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض، وهو السبت، إلاّ شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة. فهذا اختلافهم في السبت؛ لأنّ بعضهم اختاروه، وبعضهم اختاروا عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد، فأطاع أمرَ الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد، فمسخهم الله دون أولئك. وهو يحكم بينهم يوم القيامة، فيجازي كلّ واحد من الفريقين بما هو أهله.

١٢٥ ـ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ بالمقالة الصحيحة المحكمة، وهو: الدليل الموضح للحقّ، المزيل للشبهة ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنّك تناصحهم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها، أو:

وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ

بالقرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة، وموعظة حسنة. أو: الحكمة: المعرفة بمراتب الأفعال، والموعظة الحسنة: أن يخلط الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق، واللين، من غير فظاظة. أو: بما يوقظ القلوب، ويعظ النفوس، ويجلو العقول. وهو ردّ على مَن يأبى المناظرة في الدين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بهم، فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل، ومَن لا خير فيه عجزت عنه الحيل.

١٢٦ ـ ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ سمّي الفعل الأوّل عقوبة، والعقوبة هي الثانية؛ لازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالثانية ليست بسيّئة. والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل، أو: نحوه، فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه. رُوي: أنّ المشركين مثّلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، فرأى النبيّ عليه الصلاة والسلام حمزة مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لأمثّلنّ بسبعين مكانك» فنزلت. فكفّر عن يمينه وكفّ عمّا أراده[1]. ولا خلاف في تحريم المثلة؛ لورود الأخبار بالنهي عنها حتّى بالكلب العقور ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ الضمير في ﴿لهو﴾ يرجع إلى مصدر ﴿صبرتم﴾. والمراد بالصابرين: المخاطبون، أي: ولئن صبرتم لَصبركم خير لكم، فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم؛ لأنّهم صابرون على الشدائد. ثمّ قال لرسول الله ﷺ:

١٢٧ ـ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ أنت، فعزم عليه بالصبر ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه، وتثبيته. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ على الكفّار أن لم يؤمنوا، وعلى المؤمنين،

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٤٢).

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾

وما فعل بهم الكفّار، فإنّهم وصلوا إلى مطلوبهم ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: ﴿ضِيْق﴾ مكّي. والضيق تخفيف الضيّق، أي: في أمر ضيّق. ويجوز أن يكونا مصدرين، كالقيل والقول، والمعنى: ولا يضيقنّ صدرك من مكرهم، فإنّه لا ينفذ عليك.

١٢٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: هو وليّ الذين اجتنبوا السيّئات، ووليّ العاملين بالطاعات. قيل: من اتّقى في أفعاله، وأحسن في أعماله، كان الله معه في أحواله. ومعيّته: نصرته في المأمور، وعصمته في المحظور.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

١ ـ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تنزيه الله عن السوء، وهو علم للتسبيح، كعثمان للرجل. وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله ﴿سبحان﴾. ثمّ نزّل سبحان منزلة الفعل فسدّ مسدّه، ودلّ على التنزيه البليغ ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ. وسرى وأسرى لغتان ﴿لَيْلًا﴾ نصب على الظرف. وقيّده بالليل. والإسراء لا يكون إلاّ بالليل للتأكيد، أو: ليدلّ بلفظ التنكير على تقليل مدّة الإسراء، وأنّه أسري به في بعض الليل من مكّة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: أسري به من دار أمّ هانىء بنت أبي طالب. والمراد بالمسجد الحرام: الحرم؛ لإحاطته بالمسجد، والتباسه به. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الحرم كلّه مسجد. وقيل: هو المسجد الحرام بعينه. وهو الظاهر. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق، وقد عرج بي إلى السماء في تلك الليلة»[1]. وكان العروج به من بيت المقدس. وقد أخبر قريشاً عن عيرهم، وعدد جمالها، وأحوالها، وأخبرهم أيضاً بما رأى في السماء من

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) والبخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

العجائب، وأنّه لقي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى. وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكان في اليقظة. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: والله ما فُقد جسدُ رسول الله ﷺ، ولكن عُرِج بروحه[1]. وعن معاوية مثله. وعلى الأوّل الجمهور، إذ لا فضيلةَ للحالم، ولا مزيّة للنائم ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ هو بيت المقدس، لأنّه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبّد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومهبط الوحي. وهو محفوف بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ الدالّة على وحدانيّة الله، وصدق نبوّته برؤيته السموات وما فيها من الآيات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأقوال ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بالأفعال. ولقد تصرّف الكلام على لفظ الغائب والمتكلّم، فقيل: ﴿أسرى﴾ ثمّ ﴿باركنا﴾ ثمّ ﴿إنّه هو﴾ وهي طريقة الالتفات، التي هي من طرق البلاغة.

٢ ـ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب، وهو: التوراة ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي: لا تتّخذوا. وبالياء: أبو عمرو. أي: لئلا يتّخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربّاً تكلون إليه أموركم.

٣ ـ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص، أو: على النداء فيمن قرأ ﴿لا تتّخذوا﴾ بالتاء على النهي. أي: قلنا لهم: ﴿لا تتّخذوا من دوني وكيلاً﴾ يا ذرّيّة من حملنا مع نوح ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ في السرّاء والضرّاء ـ والشكر: مقابلة النعمة بالثناء على المنعم. رُوي: أنّه كان لا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس إلاّ قال: الحمد لله ـ وأنتم ذرّيّة من آمن به، وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم، كما جعله آباؤكم أسوتهم. وآية

---

(١) قال الحافظ: قال ابن إسحاق في «المغازي»: حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة بهذا. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٤٧).

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

رشد الأبناء: صحّة الاقتداء بسنّة الآباء. وقد عرفتم حال الآباء هنالك، فكونوا أيّها الأبناء كذلك.

٤ ـ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضيّاً، أي: مقطوعاً مبتوتاً بأنّهم يفسدون في الأرض لا محالة. والكتاب: التوراة. و﴿لتفسدنّ﴾ جواب قسم محذوف. أو: جرى القضاء المبتوت مجرى القسم، فيكون ﴿لتفسدنّ﴾ جواباً له، كأنّه قال: وأقسمنا ﴿لتفسدنّ في الأرض﴾ ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: قتل زكريّا ـ عليه السلام ـ وحبس أرمياء ـ عليه السلام ـ حين أنذرهم سخط الله، والأخرى: قتل يحيى بن زكرياء ـ عليهما السلام ـ وقصد قتل عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولتستكبرنّ عن طاعة الله، من قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. والمراد به: البغي، والظلم، وغلبة المفسدين على المصلحين.

٥ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: وعد الله عقاب أولاهما ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ سلّطنا عليكم ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أشدّاء في القتال، يعني: سنحاريب وجنوده، أو: بختنصر، أو: جالوت. قتلوا علماءهم، وأحرقوا التوراة، وخرّبوا المسجد، وسبوا منهم سبعين ألفاً ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ تردّدوا للغارة فيها. قال الزجاج: الجوس: طلب الشيء بالاستقصاء ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وكان وعد العقاب وعداً لابدّ أن يفعل.

٦ ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي: الدولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بعثوا عليكم حين تبتم، ورجعتم عن الفساد، والعلوّ. قيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم، وأموالهم، ورجوع الملك إليهم. وقيل: أعدنا لكم الدولة بملك طالوت، وقتل داود جالوت ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مما كنتم. وهو تمييز، جمع نفر، وهو: من ينفر مع الرجل من قومه.

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

---

٧ ـ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ قيل: اللام بمعنى على، كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والصحيح: أنها على بابها، لأنّ اللام للاختصاص والعامل مختصّ بجزاء عمله حسنة كانت أو سيّئة. يعني: أنّ الإحسان والإساءة كلاهما مختصّ بأنفسكم، لا يتعدّى النفع والضرر إلى غيركم. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ما أحسنت إلى أحد، ولا أسأت إليه، وتلاها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وعد المرّة الآخرة بعثناهم ﴿لِيَسُوءُوا﴾ أي: هؤلاء ﴿وُجُوهَكُمْ﴾. وحذف لدلالة ذكره أوّلاً عليه، أي: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها، كقوله: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧] ﴿ليسوء﴾: شاميّ، وحمزة، وأبو بكر. والضمير لله عزّ وجلّ، أو: للوعد، أو: للبعث. ﴿لنسوء﴾: عليّ ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ «ما علوا» مفعول «ليتبّروا» أي: ليهلكوا كلّ شيء غلبوه، واستولوا عليه. أو: بمعنى مدّة علوّهم.

٨ ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرّة الثانية إن تبتم توبة أخرى، وانزجرتم عن المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ مرّة ثالثة ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم. وقد عادوا، فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة، وضرب الإتاوة عليهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سُلّط عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبساً. يقال للسجن: محصر، وحصير.

٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات، وأسدّها، وهي: توحيد الله، والإيمان برسله، والعمل بطاعته، أو: للملة، أو: للطريقة ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿ويبشر﴾: حمزة، وعلي ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأنّ لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: الجنّة.

وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ

١٠ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ وبأن الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا ـ قلبت تاء ـ ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني: النار. والآية تردّ القول بالمنزلة بين المنزلتين، حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم، ولم يذكر الفسقة.

١١ ـ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: ويدعو الله عند غضبه بالشرِّ على نفسه، وأهله، وماله، وولده، كما يدعو لهم بالخير. أو: يطلب النفع العاجل ـ وإن قلّ ـ بالضرر الآجل ـ وإن جلّ ـ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ يتسرَّع إلى طلب كلّ ما يقع في قلبه، ويخطر بباله، لا يتأنّى فيه تأنّي المتبصّر. أو: أريد بالإنسان: الكافر، وأنّه يدعوه بالعذاب استهزاء، ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسّته الشدّة ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ يعني: أنّ العذاب آتيه لا محالة، فما هذا الاستعجال؟. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو النضر بن الحارث قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، فأجيب، فضربت عنقه صبراً. وسقوط الواو من ﴿يدع﴾ في الخطّ على موافقة اللفظ.

١٢ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود، أي: ﴿فمحونا﴾ الآية التي هي الليل ﴿وجعلنا﴾ الآية التي هي النهار ﴿مبصرة﴾. أو: وجعلنا نيّري الليل والنهار آيتين، يريد: الشمس والقمر ﴿فمحونا آية الليل﴾، التي هي القمر، حيث لم يخلق له شعاعاً كشعاع الشمس، فترى الأشياء به رؤية بيّنة ﴿وجعلنا﴾ الشمس ذات شعاع، يبصر في ضوئها كلّ شيء؛ ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتتوصّلوا ببياض النهار إلى التصرف في معايشكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ باختلاف الجديدين ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ يعني: حساب الآجال، ومواسم الأعمال. ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار، ولا استراح حرّاص المكتسبين والتجّار ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ ممّا تفتقرون إليه في

فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا

دينكم ودنياكم ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ بيّناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجّة علينا.

١٣ ـ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عمله ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ يعني: أنّ عمله لازم له لزوم القلادة، أو: الغلّ للعنق لا يفكّ عنه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ﴾ هو صفة لـ «كتاباً» ﴿يُلَقَّاه﴾: شاميّ ﴿مَنشُورًا﴾ حال من ﴿يلقاه﴾ يعني: غير مطويّ ليمكنه قراءته. أو: هما صفتان للكتاب. ونقول له:

١٤ ـ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي: كتاب أعمالك. وكلّ يُبعَث قارئاً ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ﴾ الباء زائدة، أي: كفى نفسك ﴿حَسِيبًا﴾ تمييز. وهو بمعنى حاسب. و«على» متعلّق به، من قولك: حسب عليه كذا، أو: بمعنى الكافي. وضع موضع الشهيد، فعدّي بعلى؛ لأنّ الشاهد يكفي المدّعي ما أهمّه. وإنّما ذكر ﴿حسيباً﴾ لأنّه بمنزلة الشهيد، والقاضي، والأمير، إذ الغالب أن يتولّى هذه الأمور الرجال، فكأنّه قيل: ﴿كفى﴾ نفسك رجلاً ﴿حسيباً﴾. أو: تؤوّل النفس بالشخص.

١٥ ـ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فلها ثواب الاهتداء، وعليها وبال الضلال ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: كلّ نفس حاملة وزراً فإنّما تحمل وزرها، لا وزر نفس أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وما صحّ منا أن نعذّب قوماً عذاب استئصال في الدنيا، إلاّ بعد أن نرسل إليهم رسولاً يلزمهم الحجّة.

١٦ ـ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبابرتها بالطاعة، عن أبي عمرو، والزجّاج ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الأمر، كقولك: أمرته فعصى. أو: ﴿أمرنا﴾ كثّرنا، دليلهُ قراءة يعقوب

فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

﴿آمرنا﴾ ومنه الحديث: «خيرُ المال سكّة مأبورة أو مهرة مأمورة»[1] أي: كثيرة النسل ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ فأهلكناها إهلاكاً.

١٧ ـ ﴿وَكَمْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان لـ«كَمْ» ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يعني: عاداً، وثمود، وغيرهما ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿بَصِيرًا﴾ وإن أرخوا عليها الستور.

١٨ ـ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يشاء ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من ﴿له﴾ بإعادة الجارّ. وهو بدل البعض من الكلّ؛ إذ الضمير يرجع إلى ﴿مَن﴾، أي: مَن كانت العاجلة همّه، ولم يرد غيرها، كالكفرة، تفضّلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد. فقيّد المعجّل بمشيئته، والمعجّل له بإرادته. وهكذا الحال؛ ترى كثيراً من هؤلاء يتمنّون ما يتمنّون، ولا يعطون إلاّ بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنّون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة. وأما المؤمن التقيّ فقد اختار غنى الآخرة، فإن أوتي حظّاً من الدنيا فبها، وإلاّ فربّما كان الفقر خيراً له ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها ﴿مَذْمُومًا﴾ ممقوتاً ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله.

١٩ ـ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ ـ هو مفعول به ـ أي: حقّها من السعي، وكفاءها من الأعمال الصالحة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدّق لله في وعده ووعيده ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً عند الله، مُثاباً عليه. عن بعض السلف: مَن لم يكن معه ثلاثٌ لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونيّة صادقة،

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٦٨) والطبراني (٦٤٧٠ و ٦٤٧١) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/٢/ ١٤٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٧٧٨).

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾

وعمل مُصيب. وتلا الآية. فإنّه شرط فيها ثلاث شرائط: في كون السعي مشكوراً إرادة الآخرة، والسعي فيما كلّف، والإيمان الثابت.

٢٠ ـ ﴿كُلًّا﴾ كلّ واحد من الفريقين، والتنوين عوض عن المضاف إليه، وهو منصوب بقوله: ﴿نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من ﴿كلًّا﴾، أي: نمدّ هؤلاء ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: مَن أراد العاجلة، ومَن أراد الآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ رزقه. و﴿من﴾ تتعلّق بنمدّ. والعطاء: اسم للمعطَى، أي: نزيدهم من عطائنا، ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضّل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً عن عباده وإن عصوا.

٢١ ـ ﴿ٱنظُرْ﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المال، والجاه، والسعة، والكمال ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ رُوي: أنّ قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر ـ رضي الله عنه ـ فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشقّ على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنّما أُتينا من قِبَلنا، إنهم دُعوا ودُعينا ـ يعني: إلى الإسلام ـ فأسرعوا، وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة؟! ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر.

٢٢ ـ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به: أمّته ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فتصير جامعاً على نفسك الذمّ، والخذلان. وقيل: مشتوماً بالإهانة، محروماً عن الإعانة؛ إذ الخذلان ضدّ النصر والعون. دليلهُ: قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر.

٢٣ ـ ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿أن﴾ مفسّرة و﴿لا تعبدوا﴾ نهي، أو: بألاّ تعبدوا ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وأحسنوا

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ

بالوالدين إحساناً، أو: بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ «إمّا» هي: إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها؛ ولذا أدخلت النون المؤكّدة في الفعل. ولو أفردت «إن» لم يصحّ دخولها. لا تقول: إن تكرمنّ زيداً يكرمك، ولكن: إمّا تكرمنّه ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ فاعل ﴿يبلغنّ﴾. وهو في قراءة حمزة وعليّ: (يبلغانّ)، بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف على ﴿أحدهما﴾ فاعلاً، وبدلاً ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ مدنيّ، وحفص. ﴿أفَّ﴾: مكيّ، وشاميّ ﴿أفُّ﴾: غيرهم. وهو صوتٌ يدل على تضجّر. فالكسر على أصل التقاء الساكنين، والفتح للتخفيف، والتنوين لإرادة التنكير، أي: أتضجّر تضجّراً. وتركه لقصد التعريف، أي: أتضجّر التضجّر المعلوم ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما عمّا يتعاطيانه مما لا يعجبك. والنهي والنهر أخوان ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف، والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً ليّناً كما يقتضيه حسن الأدب، أو: هو أن يقول يا أبتاه! يا أمّاه! ولا يدعوهما بأسمائهما فإنّه من الجفاء. ولا بأس به في غير وجهه، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نحلني أبو بكر كذا. وفائدة: ﴿عندك﴾ أنّهما إذا صارا كلّاً على ولدهما، ولا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشقّ عليه، فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتّى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما: أفّ، فضلاً عمّا يزيد عليه. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما؛ حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ثمّ ضيق الأمر في مراعاتهما حتّى لم يرخِّص في أدنى كلمةٍ تنفلت من المتضجّر مع موجبات الضجر، ومع أحوالٍ لا يكاد يصبرُ الإنسانُ معها.

٢٤ ـ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: اخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] فأضافه إلى الذلّ، كما أضيف حاتم إلى الجود. والمعنى: واخفض لهما جناحك الذليل ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، وافتقارهما اليوم إلى مَن كان أفقر خَلْق الله

وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ

إليهما بالأمس. وقال الزجاج: وألِنْ جانبك متذلّلاً لهما من مبالغتك في الرحمة لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادْعُ الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعلَ ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك، وتربيتهما لك. والمراد بالخطاب غيره عليه الصلاة والسلام. والدعاء مختصّ بالأبوين المسلمين. وقيل: إذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية. وعن النبيّ ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»[(١)]. ورُوي: «يفعل البّار ما شاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاقّ ما شاء أن يفعل فلن يدخل الجنّة»[(٢)]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إيّاكم وعقوق الوالدين فإنّ الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاقّ، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارّ إزاره خيلاء. إنّ الكبرياء لله ربّ العالمين»[(٣)].

٢٥ ـ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ بما في ضمائركم من قصد البرّ إلى الوالدين، ومن النشاط والكرامة في خدمتهما ﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبرّ، ثمّ فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر هنة تؤدّي إلى أذاهما، ثمّ أُبْتُم إلى الله، واستغفرتم منها ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ الأوّاب: الذي إذا أذنب بادر إلى التوبة. فجاز أن يكون هذا عاماً لكلّ من فرطت منه جناية، ثمّ تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه، التائب من جنايته لوروده على أثره.

٢٦ ـ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ منك ﴿حَقَّهُۥ﴾، أي: النفقة إذا كانوا محارم فقراء ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ﴿وآت﴾ هؤلاء حقّهم من الزكاة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ

(١) رواه الترمذي (١٨٩٩).
(٢) قال الحافظ: رواه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٥٩).
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٢٥).

تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾

﴿تَبۡذِيرًا﴾ ولا تسرف إسرافاً. قيل: التبذير: تفريق المال في غير الحلّ والمحلّ. فعن مجاهد: لو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً. وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف، فقال: لا سرفَ في الخير.

٢٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أمثالهم في الشرارة، وهي: غاية المذمّة؛ لأنّه لا شرّ من الشيطان، أو: هم إخوانهم، وأصدقاؤهم؛ لأنّهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ فما ينبغي أن يُطاع، فإنّه لا يدعو إلاّ إلى مثل فعله.

٢٨ ـ ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياءً من الردّ ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربّك ترجو أن يفتح لك ـ فسمّى الرزق: رحمة ـ فردّهم ردّاً جميلاً. فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء، والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبّب موضع السبب. يقال: يُسر الأمر وعُسر، مثل: سُعِد الرجل ونُحِس، فهو مفعول. وقيل معناه: ﴿فقل لهم﴾ رزقنا الله وإياكم من فضله، على أنّه دعاء لهم ييسّر عليهم فقرهم، كأنّ معناه: قولاً ذا ميسور، وهو: اليسر، أي: دعاء فيه يسر. و﴿ابتغاء﴾ مفعول له، أو: مصدر في موضع الحال. و﴿ترجوها﴾ حال.

٢٩ ـ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ نصب على المصدر لإضافته إليه. وهذا تمثيلٌ لمنع الشحيح، وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا﴾ فتصير ﴿ملوماً﴾ عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضيّ عنده وعند الناس ـ يقول الفقير: أعطى فلاناً وحرمني، ويقول الغنيّ: ما يحسن تدبير أمر المعيشة ـ وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿مَّحۡسُورًا﴾ منقطعاً بك، لا شيء عندك، من: حسره السفر: إذا أثّر فيه أثراً بليغاً، أو: عارياً، من: حسر رأسه. وقد خاطرت مسلمة ضرّتها

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ

اليهوديّة في أنّه ـ يعني: محمداً ﷺ ـ أجود من موسى عليه السلام، فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذي عليه فدفعه وقعد عرياناً، فأقيمت الصلاة، فلم يخرج للصلاة. فنزلت[1].

٣٠ ـ ثمّ سلّى رسول الله ﷺ عمّا كان يرهقه من الإضاقة، بأنّ ذلك ليس لهوانٍ منك عليه، ولا لبخل به عليك، ولكن لأنّ بسطَ الأرزاق وقدرها مفوّض إلى الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فليس البسط إليك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو يضيّق، فلا لوم عليك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ بمصالحهم، فيمضيها ﴿بَصِيرًا﴾ بحوائجهم، فيقضيها.

٣١ ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ قتلهم أولادهم: وأدهم بناتهم ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ نهاهم عن ذلك، وضمن أرزاقهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ إثماً عظيماً. يقال: خطىء خطأً، كأثم إثماً. ﴿خَطَأً﴾: شاميّ. وهو ضدّ الصواب، اسم من أخطأ. وقيل: هو والخطء، كالحذر والحذر. (خِطَاء) بالمدّ والكسر: مكّيّ.

٣٢ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ القصر فيه أكثر. والمدّ لغة. وقد قُرِىء به. وهو نَهْي عن دواعي الزنى؛ كالمسّ، والقبلة، ونحوهما. ولو أُريد النهي عن نفس الزنى لقال: ولاتزنوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ معصية مجاوزة حدّ الشرع والعقل ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقه.

٣٣ ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بارتكاب ما يبيح الدم ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير مرتكب ما يبيحُ الدم ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تسلُّطاً على القاتل في الاقتصاص منه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ الضمير للوليّ، أي: فلا

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص١٩٤).

إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ

يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة أهل الجاهلية. أو: الإسراف: المثلة. أو: الضمير للقاتل الأوّل. ﴿فلا تسرف﴾: حمزة، وعليّ، على خطاب الوليّ، أو: قاتل المظلوم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الضمير للوليّ، أي: حسبه أنّ الله قد نصره، بأن أوجب له القصاص، فلا يستزد على ذلك، أو: للمظلوم، أي: الله ناصره، حيث أوجب القصاص بقتله، وبنصره في الآخرة بالثواب، أو: للذي يقتله الوليّ بغير حق، ويسرف في قتله، فإنه كان منصوراً بإيجاب القصاص على المسرف. وظاهر الآية يدلّ على أنّ القصاصَ يجري بين الحرّ والعبد، وبين المسلم والذميّ؛ لأنّ أنفس أهل الذمّة والعبيد داخلة في الآية؛ لكونها محرّمة.

٣٤ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة والطريقة التي هي أحسن، وهي: حفظه، وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: ثماني عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ بأوامر الله تعالى، ونواهيه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ مطلوباً، يطلب من المعاهد ألاّ يضيعه، ويفي به. أو: إنّ صاحب العهد كان مسؤولاً.

٣٥ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾[1] وبكسر القاف: حمزة، وعليّ، وحفص. وهو كلُّ ميزان صغير، أو كبير من موازين الدراهم وغيرها، وقيل: هو القرسطون، أي: القبان ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المعتدل ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة. وهو تفعيل، من: آل؛ إذا رجع، وهو: ما يؤول إليه.

٣٦ ـ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا تتبع ما لم تعلم، أي: لا تقل: رأيتُ، وما رأيتَ، وسمعتُ، وما سمعتَ. وعن ابن الحنفيّة: لا تشهد بالزور. وعن ابن عباس: لا ترمِ أحداً بما لا تعلم. ولا يصحّ التثبّت به لمبطل

---

(١) في الأصل المخطوط: (بالقُسْطَاس) بضم القاف، وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وأبي عمرو، وعاصم، وحمزة، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٠).

إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

الاجتهاد؛ لأنّ ذلك نوع من العلم ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] وأقام الشارع غالب الظنّ مقام العلم، وأمر بالعمل به كما في الشهادات. ولنا في العمل بخبر الواحد لما ذكرنا ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ «أولئك» إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد؛ لأنّ «أولئك» كما يكون إشارة إلى العقلاء، يكون إشارة إلى غيرهم، كقول جرير:

ذمّ المنازلَ بعد منزلةِ اللّوى والعيشَ بعد أولئكَ الأيّام

و﴿عنه﴾ في موضع الرفع بالفاعلية، أي: كلّ واحد منها كان مسؤولاً عنه. فمسؤول مسند إلى الجارّ والمجرور، كالمغضوب في: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] يقال للإنسان: لِمَ سمعتَ ما لم يحلّ لك سماعه؟ ولِمَ نظرتَ إلى ما لم يحلّ لك النظر إليه؟ ولِمَ عزمتَ على ما لم يحلّ لك العزم عليه؟ كذا في «الكشاف». وفيه نظرٌ لبعضهم، لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفاعل إذا تأخرا عن الفعل، فأمّا إذا تقدّما فلا.

٣٧ ـ ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو حال، أي: ذا مرح ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها، وشدّة وطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهوتهكّم بالمختال. أو: لن تحاذيها قوّة. وهو حال من الفاعل، أو: المفعول.

٣٨ ـ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ كوفيّ، وشاميّ على إضافة سيّىء إلى ضمير ﴿كلّ﴾. ﴿سيّئة﴾: غيرهم ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ذكّر ﴿مكروهاً﴾ لأنّ السيّئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبارَ بتأنيثه. ألا تراك تقول: الزنى سيّئة، كما تقول: السرقة سيّئة. فإن قلت: الخصال المذكورة بعضها سيّء، وبعضها حسن. ولذلك قرأ من قرأ ﴿سيّئه﴾ بالإضافة ـ أي: ما كان من المذكور سيّئاً كان عند الله مكروهاً ـ فما وجه قراءة من قرأ

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

﴿سيئة﴾؟ قلت: ﴿كلّ ذلك﴾ إحاطة بما نهى عنه خاصّة، لا بجميع الخصال المعدودة.

٣٩ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ إلى هذه الغاية ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ مما يحكم العقل بصحّته، وتصلح النفس بأسوته ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾ مطروداً من الرحمة.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى ـ عليه السلام ـ أوّلها: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ وآخرها: ﴿مدحوراً﴾. ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأنّ التوحيد رأس كلّ حكمة وملاكها، ومَن عَدِمه لم تنفعه حكمة، وإن بذّ فيها الحكماء، وحكّ بيافوخه السماء. وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضلّ من النَّعَم.

٤٠ ـ ثم خاطب الذين قالوا: الملائكة بنات الله بقوله: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ الهمزة للإنكار. يعني: أفخصّكم ربّكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم البنون ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ واتخذ أدونهم، وهي البنات؟ وهذا خلافُ الحكمة، وما عليه معقولكم. فالعبيدُ لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها، ويكون أردؤها وأدونها للسادات! ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾ حيث أضفتم إليه الأولاد، وهي: من خواصّ الأجسام، ثم فضّلتم عليه أنفسكم، حيث يجعلون له ما تكرهون.

٤١ ـ ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي: التنزيل. والمراد: ولقد صرّفناه، أي: هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير؛ لأنه معلوم ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ وبالتخفيف: حمزة، وعليّ، أي: كرّرناه ليتّعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقّ.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾

وكان الثوريّ إذا قرأها يقول: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

٤٢ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ مع الله. ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾[1] وبالياء: مكّي، وحفص ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يعني: لطلبوا إلى من له الملك والربوبيّة ﴿سبيلاً﴾ بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، أو: لتقرّبوا إليه، كقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. و﴿إذاً﴾ دالّة على أنّ ما بعدها وهو ﴿لابتغوا﴾ جواب عن مقالة المشركين، وجزاء لـ«لو».

٤٣ ـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وبالتاء: حمزة، وعليّ ﴿عُلُوًّا﴾ أي: تعالياً. والمراد: البراءة من ذلك، والنزاهة ﴿كَبِيرًا﴾ وصف العلوّ بالكبر مبالغة في معنى البراءة، والبعد ممّا وصفوه به.

٤٤ ـ ﴿تُسَبِّحُ﴾[2] وبالتاء: عراقيّ غير أبي بكر ﴿لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يقول: سبحان الله وبحمده. عن السديّ. قال ﷺ: «ما اصطيد حوت في البحر، ولا طائر يطير إلا بما يضيّع من تسبيح الله تعالى»[3] ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لاختلاف اللغات، أو: لتعسّر الإدراك. أو: سبب لتسبيح الناظر إليه، والدالّ على الخير كفاعله. والوجه الأوّل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن جهل العباد ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب المؤمنين.

(١) في الأصل المخطوط: ﴿تقولون﴾. وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف، ورويس، والأعمش. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٤).

(٢) في الأصل المخطوط: ﴿يُسَبِّح﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبي جعفر، ورويس، وابن محيصن. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٥).

(٣) رواه أبو نعيم كما في كنز العمال (١٩١٩)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٢٩١).

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

---

٤٥ ـ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ذا ستر، أو: حجاباً لا يرى، فهو مستور.

٤٦ ـ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، وهو: الذي يستر الشيء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلاً يمنع عن الاستماع ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ يقال: وحد يحد وحداً وحدة، نحو: وعد يعد وعداً وعدة. فهومصدر سدّ مسدّ الحال. أصله: يحد وحده بمعنى واحداً ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ﴾ رجعوا على أعقابهم ﴿نُفُورًا﴾ مصدر بمعنى التولية، أو: جمع نافر، كقاعد وقعود. أي: يحبّون أن تذكر معه آلهتهم؛ لأنّهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا.

٤٧ ـ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: نحن أعلم بالحال، أو الطريقة التي يستمعون القرآن بها. فالقرآن هو المُسْتَمَع، وهو محذوف. ﴿وبه﴾ حال، وبيان لـ«ما»، أي: يستمعون القرآن هازئين لا جادين، والواجب عليهم أن يستمعوه جادّين ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ نصب بأعلم، أي: ﴿أعلم﴾ وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ وبما يتناجون به ﴿إذ هم﴾ ذوو ﴿نجوى﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بدل من ﴿إذ هم﴾ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سُحِر فجُنّ.

٤٨ ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مثّلوك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ﴿فضلّوا﴾ في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه، فلا يقدر عليه، فهو متحيّر في أمره، لا يدري ما يصنع.

٤٩ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي: منكرو البعث ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: مجدّداً. ﴿وخلقاً﴾ حال، أي: مخلوقين.

۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ

٥٠، ٥١ ـ ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي: السموات والأرض، فإنّها تكبر عندكم عن قبول الحياة ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ﴾ يعيدكم ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدّد الله خلقكم، ويردّه إلى حال الحياة بعد ما كنتم عظاماً يابسة، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحيّ، بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائره، فليس ببدع أن يردّها الله بقدرته إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارة، أو حديداً، لكان قادراً على أن يردّكم إلى حال الحياة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ فسيحركونها نحوك تعجّباً، واستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: البعث، استبعاداً له، ونفياً ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب. وعسى للوجوب.

٥٢ ـ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى المحاسبة، وهو يوم القيامة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تجيبون حامدين. والباء للحال. عن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لبثاً قليلاً أو: زماناً قليلاً في الدنيا، أو: في القبر.

٥٣ ـ ﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾ وقل للمؤمنين ﴿يَقُولُوا﴾ للمشركين الكلمة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وألين، ولا يخاشنوهم، وهي أن يقولوا: يهديكم الله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يُلقي بينهم الفساد، ويغري بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقّة. والنزغ: إيقاع الشّر، وإفساد ذات البين. وقرأ طلحة: ﴿ينزِغ﴾ بالكسر. وهما لغتان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العداوة.

٥٤ ـ أو فسر ﴿التي هي أحسن﴾ بقوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾

أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ

بالهداية والتوفيق ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالخذلان، أي: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنّكم من أهل النار، وإنّكم معذبون، وما أشبه ذلك ممّا يغيظهم، ويهيجهم على الشّر. وقوله: ﴿إنّ الشيطان ينزغ بينهم﴾ اعتراض ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظاً لأعمالهم، وموكولاً إليك أمرهم. وإنّما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارهم، ومُرْ أصحابك بالمداراة.

٥٥ ـ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم، وبكلّ ما يستأهل كلّ واحد منهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ دلالة على وجه تفضيله، وأنّه خاتم الأنبياء، وأنّ أمّته خير الأمم. لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمّته. ولم يعرّف الزبور هنا، وعرّفه في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ لأنّه كالعباس وعباس، والفضل وفضل.

٥٦ ـ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهتكم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله. وهم الملائكة، أو: عيسى، وعزير، أو نفر من الجنّ عبدهم ناس من العرب، ثمّ أسلم الجنّ، ولم يشعروا ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ادعوهم، فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضرّ من مرض، أو فقر، أو عذاب، ولا أن يحوّلوه من واحد إلى آخر.

٥٧ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة، أي: يدعونهم آلهة، أو: يعبدونهم. والخبر ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: أنّ آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة، وهي القربة إلى الله عزّ وجلّ ﴿أَيُّهُمْ﴾ بدل من واو ﴿يبتغون﴾ و﴿أيّ﴾ موصولة، أي: يبتغي مَن هو ﴿أَقْرَبُ﴾ منهم الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب؟ أو: ضمّن يبتغون ﴿الوسيلة﴾ معنى يحرصون، فكأنّه قيل:

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

يحرصون ﴿أيّهم﴾ يكون ﴿أقرب﴾ إلى الله، وذلك بالطاعة، وازدياد الخير ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنّهم الهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأن يحذره كلّ أحد من ملك مقرّب، ونبيّ مرسل، فضلاً عن غيرهم.

٥٨ ـ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً. وعن مقاتل: وجدتُ في كتب الضحاك في تفسيرها: أما مكّة فيخرّبها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف. وأما خراسان فعذابها ضروب، وأما بلخ فتصيبهم هدّة فيهلك أهلها، وأما بدخشان فيخربها أقوام، وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون، وأما صغانيان إلى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع، وأما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء، فيقتلون أهلها قتلاً ذريعاً، وكذا فرغانة، والشاش، وأسبيجاب، وخوارزم. وأما بخارى فهي أرض الجبابرة، فيموتون قحطاً وجوعاً، وأما مرو فيغلب عليها الرمل، ويهلك بها العلماء والعباد، وأما هراة فيمطرون بالحيّات فتأكلهم أكلاً، وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد، وبرق، وظلمة، فيهلك أكثرهم. وأما الريّ فيغلب عليها الطبرية، والديلم، فيقتلونهم. وأما أرمينية وأذربيجان فيهلكها سنابك الخيول، والجيوش، والصواعق، والرواجف. وأما همذان فالديلم يدخلها، ويخربها. وأما حلوان فتمر بها ريح ساكنة، وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير، ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر، فويل لأهلها ولأهل دمشق، وويل لأهل إفريقية، وويل لأهل الرملة، ولا يدخل بيت المقدس. وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أيّاماً، ثمّ هدّة تأتيهم، ويموت فيها العلماء. وأمّا كرمان وأصبهان وفارس

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾

فيأتيهم عدوّ، وصاحوا[١] صيحة تنخلع [لها] القلوب، وتموت الأبدان[٢].

٥٩ ـ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ استعير المنع لترك إرسال الآيات، و﴿أن﴾ الأولى مع صلتها في موضع النصب؛ لأنّها مفعول ثان لـ«منعنا». و﴿أن﴾ الثانية مع صلتها في موضع الرفع؛ لأنّها فاعل ﴿منعنا﴾. والتقدير: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين. والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً، ومن إحياء الموتى، وغير ذلك. وسنّة الله في الأمم أنّ من اقترح منهم آية، فأجيب إليها، ثمّ لم يؤمن، أن يعاجل بعذاب الاستئصال. والمعنى: وما منعنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلاّ أن كذّب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم، كعاد، وثمود، وأنّها لو أرسلت لكذّبوا بها تكذيب أولئك، وعذّبوا العذاب المستأصل. وقد حكمنا أن نؤخّر أمر من بُعثتَ إليهم إلى يوم القيامة. ثمّ ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأوّلون، ثمّ كذبوا بها لمّا أرسلت فأهلكوا، واحدة. وهي ناقة صالح ـ عليه السلام ـ لأنّ آثار هلاكهم قريبة من حدودهم، يبصرها صادرهم وواردهم. فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ باقتراحهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بيّنة ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فكفروا بها ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة، فالمعنى: لا نرسلها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة، والمقدّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: ﴿وما نرسل﴾ ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها ﴿إلاّ تخويفاً﴾ وإنذاراً بعذاب الآخرة. وهو مفعول له.

٦٠ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾

---

(١) كذا في الأصل، وما بين قوسين سقط منه.

(٢) هذا الخبر رواه مقاتل بن سليمان المُفَسِّر، ووهو متهم بالكذب، وينقل عن أهل الكتاب، وقيل: إنه لم يلق الضحّاك. ميزان الاعتدال (٤/ ١٧٣).

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

واذكر إذ أوحينا إليك أنّ ربّك أحاط بقريش علماً وقدرة، فكلّهم في قبضته، فلا تبال بهم، وامض لأمرك، وبلّغ ما أرسلت به. أو: بشّرناك بوقعة بدر، وبالنصرة عليهم، وذلك قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] فجعله كأن قد كان، ووجد، فقال: ﴿أحاط بالناس﴾ على سنته في أخباره. ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: «والله لكأني أنظرُ إلى مصارع القوم»[1] وهو يُومِىء إلى الأرض، ويقول: «هذا مصرع فلان». فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر بدر، وما أُرِي في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون، ويسخرون، ويستعجلون به استهزاء ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: ﴿و﴾ ما جعلنا ﴿الشجرة الملعونة في القرآن﴾ إلاّ فتنة للناس؛ فإنّهم حين سمعوا بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٤] جعلوها سخرية، وقال: إنّ محمداً يزعم أنّ الجحيم تحرق الحجارة، ثمّ يقول: تنبت فيها الشجرة. ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ إذ قالوا ذلك فإنّه لا يمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار، فوبر السمندل ـ وهو دويبة ببلاد الترك ـ يتّخذ منه مناديل إذا اتّسخت طرحت في النار، فذهب الوسخ، وبقي المنديل سالماً، لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها. وخلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها، فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. والمعنى: أنّ الآيات إنّما تُرسل تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خوّفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر، وخوّفوا بعذاب الآخرة، وبشجرة الزقوم، فما أثّر فيهم. ثمّ قال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات؟

وقيل: الرؤيا هي الإسراء، والفتنة: ارتداد من استعظم ذلك. وبه تعلّق من يقول: كان الإسراء في المنام. ومن قال: كان في اليقظة، فسّر الرؤيا

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٩).

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

بالرؤية. وإنما سمّاها رؤيا على قول المكذّبين حيث قالوا له: لعلّها رؤيا رأيتها، استبعاداً منهم، كما سمّى أشياء بأساميها عند الكفرة، كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل: ٢٧]. أو هي رؤيا أنّه سيدخل مكّة. والفتنة: الصدّ بالحديبية. فإن قلت: ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم؟ قلت: معناه: والشجرة الملعون آكلها، وهم الكفرة، لأنّه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٣]. فوصفت بلعن أهلها على المجاز. ولأنّ العرب تقول لكلّ طعام مكروه ضارّ: ملعون، ولأنّ اللعن هو: الإبعاد من الرحمة. وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة.

٦١ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ هو تمييز، أو حال من الموصول. والعامل فيه: ﴿أأسجد﴾ على ﴿أأسجد﴾ له وهو طين، أي: أصله طين.

٦٢ ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ الكاف لا موضع لها، لأنّها ذكرت للخطاب تأكيداً. ﴿هذا﴾ مفعول به. والمعنى أخبرني عن هذا الذي ﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: فضّلته لم كرّمته عليّ، و﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]؟ فحذف ذلك اختصاراً لدلالة ما تقدّم عليه، ثمّ ابتدأ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾[1] وبلا ياء: كوفيّ، وشاميّ. واللام موطّئة للقسم المحذوف ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستأصلنّهم بإغوائهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم: المخلصون. قيل: من كلّ ألف واحد. وإنّما علم الملعون ذلك بالإعلام، أو: لأنّه رأى أنه خلق شهوانيّ.

---

(١) في الأصل المخطوط (أخرتني). وهي قراءة: ابن كثير، ويعقوب، وابن محيصن، في حالتي الوصل والوقف. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٢٩).

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ

٦٣ ـ ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ ليس من الذهاب الذي هو ضدّ المجيء، وإنّما معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية، ثم عقبه بذكر ما جرّه سوء اختياره، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ والتقدير: فإنّ جهنّم جزاؤهم وجزاؤك. ثمّ غلّب المخاطب على الغائب فقيل: ﴿جزاؤكم﴾ وانتصب ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: موفّراً بإضمار تجازون.

٦٤ ـ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ استزلّ، أو: استخفّ. استفزّه، أي: استخفّه. والفزّ: الخفيف ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ بالوسوسة، أو: بالغناء، أو: بالمزمار ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أجمعْ، وصح بهم. من الجلبة، وهو: الصياح ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[1] بكلّ راكبٍ وماشٍ من أهل العيث. فالخيل: الخيّالة، والرجل: اسم جمع للراجل، ونظيره: الركب، والصحب. ﴿ورجلك﴾: حفص، على أن فعلاً بمعنى فاعل، كتعب وتاعب. ومعناه: وجمعك الرجل. وهذا لأنّ أقصى ما يُستطاع في طلب الأمور: الخيل، والرجل. وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل، ورجال ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ قال الزّجاج: كلّ معصية في مال وولد، فإبليس شريكهم فيها، كالربا، والمكاسب المحرّمة، والبحيرة، والسائبة، والإنفاق في الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصّل إلى الأولاد بالسبب الحرام، والتسمية بعبد العزّى، وعبد شمس ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وإيثار العاجل على الآجل، ونحو ذلك ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هو تزيين الخطأ بما يوهم أنّه صواب.

٦٥ ـ ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الصالحين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ يد بتبديل الإيمان،

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿رَجْلِكَ﴾. وهذه قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٣٠).

وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

ولكن بتسويل العصيان ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لهم يتوكّلون به في الاستعاذة منك، أو: حافظاً لهم عنك. والكلّ أمر تهديد فيعاقب به. أو: إهانة، أي: لا يخلّ ذلك بملكي.

٦٦ ـ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ يجري، ويُسيِّر ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يعني: الربح في التجارة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

٦٧ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: خوف الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ذهب عن أوهامكم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلا إيّاه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه. أو: ﴿ضلّ من تدعون﴾ من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده الذي ترجونه، على الاستثناء المنقطع ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص بعد الخلاص ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكاف. ﴿كَفُورًا﴾ للنعم.

٦٨ ـ ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: ﴿أ﴾ نجوتم ﴿فأمنتم﴾ فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ انتصب ﴿جانب﴾ بيخسف مفعولاً به، كالأرض في قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] و﴿بكم﴾ حال. والمعنى: أن يخسف جانبَ البرّ، أي: يقلبه وأنتم عليه. والحاصل: أنّ الجوانب كلّها في قدرته سواء، وله في كلّ جانب، برّاً كان، أو بحراً، سبب من أسباب الهلاك، ليس جانب البحر وحده مختصّاً به، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرّ الخسف، وهو تغييب تحت التراب. والغرق: تغييب تحت الماء. فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب، وحيث كان ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ هي: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يصرف ذلك عنكم.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

٦٩ ـ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ﴿أم أمنتم﴾ أن يقوّي دواعيكم، ويوفّر حوائجكم إلى أن ترجعوا، فتركبوا البحر الذي نجّاكم منه، فأعرضتم، فينتقم منكم بأن يرسل عليكم ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي: الريح التي لها قصيف، وهو: الصوت الشديد، أو: هو الكاسر للفلك ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بكفرانكم النعمة، وهو: إعراضكم حين نجّاكم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ مطالباً، من قوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: مطالبة. والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم، ثمّ لا تجدوا أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً، ودركاً للثأر من جهتنا. [وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]][1] ﴿أن نخسف﴾، ﴿أو نرسل﴾، ﴿أن نعيدكم﴾، ﴿فنرسل﴾، ﴿فنغرقكم﴾ بالنون: مكيّ، وأبو عمرو.

٧٠ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بالعقل، والنطق، والخطّ، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش، والمعاد، والاستيلاء، وتسخير الأشياء، وتناول الطعام بالأيدي. وعن الرشيد: أنّه أحضر طعاماً، فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف ـ رحمه الله تعالى ـ فقال له: جاء في تفسير جدّك ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق، فردّها، وأكل بأصابعه ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ باللذيذات، أو: بما كسبت أيديهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: على الكلّ، كقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. قال الحسن: أي: كلّهم. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦] ذكر في «الكشّاف» أنّ المراد بالأكثر: الجميع. وعنه ﷺ: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة»[2]. وهذا لأنّهم مجبولون

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٤٧).

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾

على الطاعة، ففيهم عقل بلا شهوة، وفي البهائم شهوة بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما. فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم، ولأنه خلق الكلّ لهم، وخلقهم لنفسه.

٧١ ـ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ منصوب باذكر ﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الباء للحال. والتقدير: مختلطين بإمامهم، أي: بمن ائتموا به من نبيّ، أو: مقدّم في الدين، أو: كتاب، أو: دين. فيقال: يا أتباع فلان! يا أهل دين كذا! أو: كتاب كذا. وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير! ويا أصحاب كتاب الشرّ! ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ من هؤلاء المدعوين ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ وإنّما قيل: ﴿أولئك﴾ لأنّ ﴿من﴾ في معنى الجمع ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء. ولم يذكر الكفّار، وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاءً بقوله:

٧٢ ـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ كذلك ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأعمى، أي: أضلّ طريقاً. والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات؛ لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة. أمّا في الدنيا فلفقد النظر، وأمّا في الآخرة فلأنّه لا ينفعه الاهتداء إليه. وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل بدليل عطف «وأضل» ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول ممالاً، والثاني مفخماً؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلمة، فلا يقبل الإمالة. وأمّا الأوّل فلم يتعلّق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف، فقبلت الإمالة. وأمالهما حمزة، وعليّ، وفخمهما: الباقون.

٧٣ ـ ولمّا قالت قريش: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتّى نؤمن بك نزل: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة. واللام فارقة بينها وبين النافية. والمعنى: إنّ الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا، ونواهينا، ووعدنا، ووعيدنا

لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتقول علينا ما لم نقل، يعني: ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيداً، والوعيد وعداً ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: ولو اتّبعت مرادهم ﴿لاتّخذوك خليلاً﴾ ولكنت لهم وليّاً، وخرجت من ولايتي.

٧٤ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لقاربت أن تميل إلى مكرهم ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ركوناً قليلاً. وهذا تهييج من الله له، وفضل تثبيت.

٧٥ـ ﴿إِذًا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ ﴿لأذقناك﴾ عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوّتك، كما قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٠]. وأصل الكلام: لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأنّ العذاب عذابان: عذاب في الممات، وهو عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة، وهو عذاب النار. والعذاب يوصف بالضعف كقوله: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: مضاعفاً، فكأنّ أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات. ثمّ حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو الضعف، ثمّ أضيفت الصفة إضافة الموصوف، فقيل: ﴿ضعف الحياة وضعف الممات﴾. ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر، وعذاب النار. وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين، دليل على أنّ القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله. ولمّا نزلت كان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[1] ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ معيناً لك يمنع عذابنا عنك.

---

(١) قال ابن حجر: لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلاً. (حاشية الكشاف ٢/ ٦٨٥). =

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾

---

٧٦ ـ ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ أي: أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونك بعدوانهم، ومكرهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾[1] بعدك، أي: بعد إخراجك ـ ﴿خلافك﴾: كوفيّ غير أبي بكر، وشاميّ بمعناه ـ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً فإنّ الله مهلكهم. وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل. أو: معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربّه. وقيل: من أرض العرب، أو: من أرض المدينة.

٧٧ ـ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ يعني: أن كلّ قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم. ونصبت نصب المصدر المؤكّد، أي: سنّ الله ذلك سنّة ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تبديلاً.

٧٨ ـ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها. وعلى هذا: الآية جامعة للصلوات الخمس، أو: لغروبها. وعلى هذا يخرج الظهر، والعصر ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ هو الظلمة، وهو: وقت صلاة العشاء ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ صلاة الفجر. سُمِّيت قرآناً ـ وهو القراءة ـ لكونها ركناً، كما سمّيت ركوعاً، وسجوداً. وهو حجّة على الأصمّ؛ حيث زعم: أنّ القراءة ليست بركن، أو: سُمِّيت قرآناً لطول قراءتها. وهو عطف على الصلاة ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء، فهو في آخر ديوان الليل، وأوّل ديوان النهار. أو: يشهده الكثير من المصلّين في العادة.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿خَلْفَكَ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وأبي جعفر، وابن محيصن، واليزيدي، ورويس، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٣٠).

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ

٧٩ ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ وعليك بعض الليل ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ التهجّد: ترك الهجود للصلاة. ويقال في النوم أيضاً: تهجّد ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس. وضع ﴿نافلة﴾ موضع تهجّداً؛ لأنّ التهجّد عبادة زائدة. فكان التهجّد والنافلة يجمعهما معنى واحد. والمعنى: أن التهجّد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك، أو: فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوّع لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ نصب على الظرف، أي: ﴿عسى أن يبعثك﴾ يوم القيامة، فيقيمك ﴿مقاماً محموداً﴾. أو: ضمّن «يبعثك» معنى: يقيمك. وهو مقامّ الشفاعة عند الجمهور. ويدلّ عليه الأخبار، أو: هو مقام يُعطَى فيه لواء الحمد.

٨٠ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ هو مصدر. أي: ﴿أدخلني﴾ القبر إدخالاً مرضياً على طهارة من الزلاّت ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: ﴿أخرجني﴾ منه عند البعث إخراجاً مرضيّاً، ملقّى بالكرامة، آمناً من الملامة. دليله: ذكره على أثر ذكر البعث. وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد: إدخال المدينة والإخراج من مكّة. أو: هو عامّ في كلّ ما يدخل فيه، ويلابسه من أمر ومكان ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حجّة تنصرني على مَن خالفني، أو: ملكاً وعزاً قوياً، ناصراً للإسلام على الكفر، مُظْهِراً له عليه.

٨١ ـ ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ﴾ وذهب، وهلك ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ الشرك. أو: جاء القرآن، وهلك الشيطان ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ كان مضمحلاً في كل أوان.

٨٢ ـ ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ «مِنْ» للتبيين ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ من أمراض القلوب ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وتفريج للكروب، وتطهير للعيوب، وتكفير للذنوب ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي الحديث: «من لم يستشفِ بالقرآن فلا شفاه

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾

الله»[١] ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ ضلالاً لتكذيبهم به، وكفرهم.

٨٣ ـ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة، والسعة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله، أو: ﴿أنعمنا﴾ بالقرآن أعرض ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيد للإعراض؛ لأنّ الإعراض عن الشيء أن يولّيه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه، ويولّيه ظهره. أو: أراد الاستكبار؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين. ﴿نأى﴾ بالإمالة: حمزة، وبكسرها: عليّ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر، والمرض، أو: نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله.

٨٤ ـ ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كلّ أحد ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على مذهبه، وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى، والضلال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أسدّ مذهباً، وطريقة.

٨٥ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من أمر يعلمه ربّي. الجمهور: على أنّه الروح الذي في الحيوان. سألوه عن حقيقته، فأخبر أنّه من أمر الله، أي: ممّا استأثر بعلمه. وعن أبي هريرة: لقد مضى النّبي ﷺ وما يعلم الروح[٢]. وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته، بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه. والحكمة في ذلك: تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له؛ ليدل على أنّه عن إدراك خالقه أعجز. ولذا ردّ ما قيل في حدّه: إنّه جسم دقيق هوائيّ في كلّ جزء من الحيوان. وقيل: هو خلق عظيم روحانيّ أعظم من الملك. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو جبريل عليه السلام ﴿نَزَلَ بِهِ

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢/٦٨٩). ورواه الدارقطني في الأفراد، كما في كنز العمال (٢٨١٠٦).

(٢) قال الحافظ: ذكره الواحدي في «الوسيط». (حاشية الكشاف ٢ / ٦٩٠).

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وعن الحسن: القرآن. دليله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ولأنّ به حياة القلوب و﴿من أمر ربيّ﴾ أي: من وحيه، وكلامه ليس من كلام البشر. ورُوي: أنّ اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عن الكلّ، أو سكت عن الكلّ، فليس بنبيّ، وإن أجاب عن بعض، وسكت عن بعض فهو نبيّ. فبيّن لهم القصّتين، وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة، فندموا على سؤالهم. وقيل: كان السؤال عن خلق الروح، يعني: أهو مخلوق أم لا؟ وقوله: ﴿من أمر ربيّ﴾ دليل خلق الروح، فكان هذا جواباً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الخطاب عامّ. فقد رُوِي: أنّ رسول الله ﷺ لمّا قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصّون بهذا الخطاب، أم أنت معنا فيه؟ فقال: «بل نحن وأنتم، لم نؤت من العلم إلاّ قليلاً[1]» وقيل: هو خطاب لليهود خاصّة؛ لأنهم قالوا للنبيّ ﷺ: قد أوتينا التوراة، وفيها الحكمة، وقد تلوت: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فقيل لهم: إنّ علم التوراة قليل في جنب علم الله. فالقلّة والكثرة من الأمور الإضافيّة. فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها، إلاّ أنّها إذا أضيفت إلى علم الله تعالى فهي قليلة.

٨٦ ـ ثم نبّه على نعمة الوحي، وعزّاه بالصبر على أذى الجدال في السؤال بقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿لنذهبنّ﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على «إن» توطئة للقسم. والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، فلم نترك له أثراً ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: ﴿ثمّ لا تجد لك﴾ بعد الذهاب به من يتوكّل علينا باسترداده، وإعادته محفوظاً مسطوراً.

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي. (حاشية الكشاف ٢ / ٦٩٠).

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾

٨٧ ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي: إلا أن يرحمك ربّك، فيردّه عليك، كأن رحمته تتوكل عليه بالردّ. أو: يكون على الاستثناء المنقطع، أي: ولكن رحمة من ربّك تركته غير مذهوب به. وهذا امتنانٌ من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنّة العظيمة في تنزيله، وتحفيظه.

٨٨ ـ ونزل جواباً لقول نضر: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ معيناً. و﴿لا يأتون﴾ جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطّئة لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله[1]:

... ... يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[2]

لأنّ الشرط وقع ماضياً، أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته، وحسن نظمه، وتأليفه؛ لعجزوا عن الإتيان بمثله.

٨٩ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ ردّدنا، وكرّرنا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كلّ معنى هو كالمثل في غرابته، وحسنه ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً.

وإنّما جاز ﴿فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً﴾ ولم يجز ضربت إلاّ زيداً؛ لأنّ ﴿أبى﴾ متأوّل بالنفي، كأنّه قيل: فلم يرضوا ﴿إلاّ كفوراً﴾.

٩٠ ـ ولمّا تبين إعجاز القرآن، وانضمّت إليه المعجزات الأخر، ولزمتهم الحجة، وغُلبوا اقترحوا الآيات، فِعْل المبهوت، المحجوج، المتحيّر ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾ وبالتخفيف: كوفيّ ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مكّة ﴿يَنۢبُوعًا﴾ عيناً غزيرة، من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع. يفعول، من: نبع الماء.

---

(١) الشاعر: زهير بن أبي سُلمى.

(٢) عجز بيت وصدره: وإن أتاه خليل يوم مسغبة.

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

٩١ ـ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ﴾ والتشديد هنا مجمع عليه ﴿ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾.

٩٢ ـ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ بفتح السين: مدني، وعاصم، أي: قطعاً. يقال: أعطني كسفة من هذا الثوب. وبسكون السين غيرهما، جمع كسفة، كسدرة وسدر. يعنون قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩] ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ كفيلاً بما تقول شاهداً بصحّته. والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً، وبالملائكة قُبُلاً، كقوله[1]:

... ... كنت منه ووالدي بَـريّـاً... ... ...[2]

أو: مقابلاً كالعشير، بمعنى المعاشر، ونحوه: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أو: جماعة، حالاً من الملائكة.

٩٣ ـ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ تصعد إليها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لأجل رقيك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ وبالتخفيف: أبو عمرو. ﴿كِتَـٰبًا﴾ من السماء فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ صفة كتاب ﴿قُلْ﴾ (قال): مكّيّ، وشاميّ، أي: قال الرسول ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾ تعجّب من اقتراحاتهم عليه ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: أنا رسول كسائر الرسل، بشر مثلهم. وكان الرسل لا يأتون قومهم إلاّ بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ إنّما هو إلى الله، فما بالكم تتخيّرونها عليّ؟

---

(١) الشاعر: الفرزدق.

(٢) البيت بتمامه:

رمـاني بـأمـر كنـت منـه ووالـدي بريّاً ومن جول الطوى رماني

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾

٩٤ ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أهل مكّة ومحل ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ نصب بأنه مفعول ثان لمنع ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ النبيّ، والقرآن ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ فاعل منع. والتقدير: وما منعهم الإيمان بالقرآن، وبنبوّة محمد ﷺ إلا قولهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: إلاّ شبهة تمكّنت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر. والهمزة في ﴿أبعث الله﴾ للإنكار. وما أنكروه ففي قضية حكمته منكر[١]. ثم رد الله عليهم بقوله:

٩٥ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم كما يمشي الإنس ـ ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها، ويعلموا ما يجب علمه ـ ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ حال، أي: ساكنين في الأرض قارّين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ يعلمهم الخير، ويهديهم المراشد. فأمّا الإنس فإنّما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوّة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم، وإرشادهم. و﴿بشراً﴾ و﴿ملكاً﴾ حالان من ﴿رسولاً﴾.

٩٦ ـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أنّي بلّغت ما أرسلت به إليكم، وأنّكم كذبتم وعاندتم. ﴿شهيداً﴾ تمييز، أو: حال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ المنذِرين، والمنذَرين ﴿خَبِيرًۢا﴾ عالماً بأحوالهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالهم، فهو مجازيهم. وهذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ، ووعيدٌ للكفرة.

٩٧ ـ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ وبالياء: يعقوب، وسهل. وافقهما أبو عمرو، ومدنيّ في الوصل، أي: من وفقه الله لقبول ما كان من الهدى،

(١) كذا في الأصل، وفي الكشاف (٢/ ٦٩٤): وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأنّ قضيّة حكمته ألا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء.

وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ

فهو المهتدي عند الله ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يخذله، ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: أنصاراً ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: يسحبون عليها، كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[١] ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامّون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك ، لا يبصرون ما يقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ طَفِىء لهبها ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ توقّداً.

٩٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: ﴿ذلك﴾ العذاب بسبب أنهم كذّبوا بالإعادة بعد الإفناء، فجعل الله جزاءهم أن سلّط النار على أجزائهم تأكلها، ثمّ يعيدها، لا يزالون على ذلك ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث.

٩٩ ـ ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموت، أو: القيامة ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً مع وضوح الدليل.

١٠٠ ـ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ تقديره: لو تملكون أنتم؛ لأنّ لو تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بدّ من فعل بعدها، فأضمر «تملك» على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل، وهو الواو، ضمير منفصل، وهو ﴿أنتم﴾

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٥٤ و ٣٦٣) والترمذي (٣١٤٢).

خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

لسقوط ما يتصل به من اللفظ. فأنتم فاعل الفعل المضمر، و﴿تملكون﴾ تفسيره. وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب. وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أنّ ﴿أنتم تملكون﴾ فيه دلالة على الاختصاص، وأنّ الناس هم المختصّون بالشحّ المتبالغ ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ رزقه، وسائر نعمه على خلقه ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي: لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ بخيلاً.

١٠١ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل. وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات ـ مكان الحجر ـ والبحر، والطور. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿فـ﴾ـقلنا له ﴿اسأل بني إسرائيل﴾ أي: سلهم من فرعون، وقل له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥] ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ متعلّق بالقول المحذوف، أي: فقلنا له: سلهم حين ﴿جاءهم﴾ ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سحرت، فخولط عقلك.

١٠٢ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: موسى. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ﴿بَصَآئِرَ﴾ ـ حال، أي: بيّنات مكشوفات ـ إلاّ أنك معاند. ونحوه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿علمتُ﴾ بالضمّ: عليّ، أي: إنّي لست مسحوراً كما وصفتني، بل أنا عالم بصحّة الأمر، وأنّ هذه الآيات منزلها ﴿ربّ السموات والأرض﴾. ثم قارع ظنه بظنه بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، كأنّه قال: إن ظننتني ﴿مسحوراً﴾ فأنا أظنّك ﴿مثبوراً﴾ هالكاً. وظنّي أصح من ظنّك؛ لأنّ له أمارة ظاهرة، وهي إنكارك ما عرفت صحّته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

وأمّا ظنك فكذب بحت؛ لأنّ قولك مع علمك بصحّة أمري: إنّي لأظنك مسحوراً قول كذب. وقال الفراء ﴿مثبوراً﴾: مصروفاً عن الخير، من قولهم: ما ثبرك عن هذا، أي: ما منعك وصرفك.

١٠٣ ـ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ يخرجهم، أي: موسى وقومه ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر، أو: ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فحاق به مكره بأن استفزّه الله بإغراقه مع قبطه.

١٠٤ ـ ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد فرعون ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزّكم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جمعاً، مختلطين إيّاكم وإيّاهم، ثمّ نحكم بينكم، ونميّز بين سعدائكم وأشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

١٠٥ ـ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ وما أنزلنا القرآن إلاّ بالحكمة، وما نزل إلاّ ملتبساً بالحقّ والحكمة، لاشتماله على الهداية إلى كل خير. أو: ما أنزلناه من السماء إلاّ بالحقّ، محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلاّ محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. قال الراوي: اشتكى محمد بن السّماك، فأخذنا ماءه، وذهبنا به إلى طبيب نصرانيّ، فاستقبلنا رجل حسن الوجه، طيّب الرائحة، نقيّ الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له: إلى فلان الطبيب نريه ماء ابن السّماك، فقال: سبحان الله! تستعينون على وليّ الله بعدوّ الله، اضربوه على الأرض، وارجعوا إلى ابن السماك، وقولوا له: ضع يديك على موضع الوجع، وقل: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحقّ نزل﴾، ثمّ غاب عنّا، فلم نره. فرجعنا إلى ابن السماك، فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، وقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت. وقال: كان ذلك الخضر ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

١٠٦ ـ ﴿وَقُرْءَانًا﴾ منصوب بفعل يفسره: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: فصلناه، أو: فرقنا فيه الحق من الباطل ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تؤدة، وتثبت ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

١٠٧ ـ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: اختاروا لأنفسكم النعيم المقيم، أو: العذاب الأليم. ثم علل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: التوراة من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ حال.

١٠٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ لقوله: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أي: أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به، ولم يصدّقوا بالقرآن، فإنّ خيراً منهم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب قد آمنوا به، وصدّقوه، فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً، وسبّحوا الله تعظيماً لأمره، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزّلة، وبشّر به من بعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد المذكور ﴿إنْ﴾ بمعنى: إنه، وهي تؤكّد الفعل، كما أنّ إنّ تؤكّد الاسم، وكما أكّدت ﴿إنّ﴾ باللام في ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] أكدت (إنْ) باللام في ﴿لمفعولاً﴾.

١٠٩ ـ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ معنى الخرور للذّقن: السقوط على الوجه. وإنّما خصّ الذقن لأنّ أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن. يقال: خرّ على وجهه، وعلى ذقنه، وخرّ لوجهه، ولذقنه. أمّا معنى «على» فظاهر، وأمّا معنى اللام فكأنّه جعل ذقنه ووجهه للخرور، واختصّه به؛ إذ اللام للاختصاص. وكرّر ﴿يخرّون للأذقان﴾ لاختلاف الحالين، وهما: خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا ۩﴾ لين قلب، ورطوبة عين.

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ

١١٠ ـ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ لمّا سمعه أبو جهل يقول: يا الله! يا رحمن! قال: إنّه نهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر! فنزلت. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقلّ ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت. والدعاء بمعنى التسمية، لا بمعنى النداء. و﴿أو﴾ للتخيير، أي: سموا بهذا الاسم، أو: بهذا، أو: اذكروا إمّا هذا، وإمّا هذا. والتنوين في: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ عوض من المضاف إليه. و﴿ما﴾ زيدت للتوكيد. و﴿أيّاً﴾ نصب بتدعوا، وهو مجزوم بأيّ، أي: أيّ هذين الاسمين ذكرتم، وسمّيتم ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الضمير في ﴿فله﴾ يرجع إلى ذات الله تعالى. والفاء لأنّه جواب الشرط، أي: أيّاماً تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ لأنّه إذا حسنت أسماؤه كلّها؛ حسن هذان الاسمان لأنّهما منها. ومعنى كونها أحسن الأسماء أنّها مستقلّة بمعاني التمجيد، والتقديس، والتعظيم ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك، على حذف المضاف؛ لأنه لا يلبس، إذ الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير. والصلاة أفعال وأذكار. وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا، وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته. والمعنى: ﴿ولا تجهر﴾ حتّى تسمع المشركين ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً. أو: معناه ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ كلّها ﴿ولا تخافت بها﴾ كلّها ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار. أو: ﴿بصلاتك﴾: بدعائك.

١١١ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود، والنصارى، وبنو مليح ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لم يذلّ، فيحتاج إلى ناصر، أو لم يوال أحداً من أجل مذلّة به؛ ليدفعها بموالاته

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ وعظّمه، وصفه بأنّه أكبر من أن يكون له ولد، أو شريك. وسمّى النبي ﷺ الآية آية العزّ. وكان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علّمه هذه الآية[1].

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق. (حاشية الكشاف ٢/ ٧٠١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، لقّن الله عباده، وفقههم كيف يثنون عليه، ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم، وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي: شيئاً من العِوج. والعِوج في المعاني كالعَوج في الأعيان. يقال: في رأيه عِوَج، وفي عصاه عَوَج. والمراد: نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة.

٢ ـ ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً. وانتصابه بمضمر، وتقديره: جعله ﴿قيّماً﴾ لأنّه إذا نفى عنه العوج، فقد أثبت له الاستقامة. وفائدة الجمع بين نفي العوج، وإثبات الاستقامة ـ وفي أحدهما غِنى عن الآخر ـ التأكيد. فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة، ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفّح. أو ﴿قيماً﴾ على سائر الكتب، مصدّقاً لها، شاهداً بصحّتها ﴿لِّيُنذِرَ﴾ «أنذر» متعدّ إلى مفعولين، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]. فاقتصر على أحدهما وأصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بَأْسًا﴾ عذاباً ﴿شَدِيدًا﴾. وإنما اقتصر على أحد مفعولي أنذر؛ لأن المنذر به هو المسوق إليه، فاقتصر عليه ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ صادراً من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأنّ لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: الجنّة ﴿ويَبْشُر﴾: حمزة، وعليّ.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾

---

٣ ـ ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ حال من هُمْ في ﴿لهم﴾ ﴿فِيهِ﴾ في الأجر، وهو: الجنّة ﴿أَبَدًا﴾.

٤ ـ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ذكر المنذرين دون المنذر به، بعكس الأوّل، استغناء بتقديم ذكره.

٥ ـ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد، أو: باتخاذه. يعني: أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم، ولكن عن جهل مفرط. فإن قلت: اتخاذ الله ولداً في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم؟ قلت: معناه: ما لهم به من علم؛ لأنه ليس ممّا يعلم لاستحالته. وانتفاء العلم بالشيء إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، أو: لأنّه في نفسه محال ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ المقلّدين ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز. وفيه معنى التعجّب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة! والضمير في ﴿كبرت﴾ يرجع إلى قولهم: ﴿اتخذ الله ولداً﴾. وسمّيت كلمة كما يسمّون القصيدة بها ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة لكلمة تفيد استعظاماً؛ لاجترائهم على النطق بها، وإخراجها من أفواههم، فإنّ كثيراً ممّا يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات، لا يتمالكون أن يتفوهوا به، بل يكظمون عليه، فكيف بمثل هذا المنكر؟! ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ما يقولون ذلك ﴿إلاّ كذباً﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أي: قولاً كذباً.

٦ ـ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتل نفسك ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: آثار الكفّار. شبهه وإيّاهم حين تولّوا عنه، ولم يؤمنوا به، وما تداخله من الأسف على تولّيهم برجل فارقه أحبّته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهّفاً على فراقهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بالقرآن ﴿أَسَفًا﴾ مفعول له، أي: لفرط الحزن. والأسف: المبالغة في الحزن، والغضب.

٧ ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي: ما يصلح أن يكون زينة لها

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

ولأهلها، من زخارف الدنيا، وما يُستحسن منها. ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وحسن العمل: الزهد فيها، وترك الاغترار بها.

٨ ـ ثمّ زهّد في الميل إليها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة ﴿صَعِيدًا﴾ أرضاً ملساء ﴿جُرُزًا﴾ يابساً، لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة. والمعنى: نعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، وغير ذلك.

٩ ـ ولمّا ذكر من الآيات الكلّية تزيين الأرض، بما خلق فوقها من الأجناس؛ التي لا حصر لها، وإزالة ذلك كلّه، كأن لم يكن، قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ يعني: أنّ ذلك أعظم من قصّة أصحاب الكهف، وإبقاء حياتهم مدّة طويلة. والكهف: الغار الواسع في الجبل. والرقيم: اسم كلبهم، أو: قريتهم. أو: اسم كتاب كتب في شأنهم. أو: اسم الجبل الذي فيه الكهف ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجباً﴾ من آياتنا، وصفاً بالمصدر، أو: على ذات عجب.

١٠ ـ ﴿إِذْ﴾ أي: اذكر ﴿إذ﴾ ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك، وهي: المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: الذي نحن عليه من مفارقة الكفّار ﴿رَشَدًا﴾ حتّى نكون بسببه راشدين، مهتدين. أو: اجعل أمرنا ﴿رشداً﴾ كلّه، كقولك: رأيت منك أسداً. أو: يسر لنا طريق رضاك.

١١ ـ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني: أنمناهم إنامة ثقيلة، لا تنبههم فيها الأصوات، فحذف المفعول الذي هو الحجاب ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ذوات عدد، فهو صفة لسنين. قال الزجاج: أي: تعدّ عدداً لكثرتها؛ لأنّ القليل يعلم مقداره من غير عدد، فإذا كثر عدّ. فأمّا

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] فهي على القلّة؛ لأنّهم كانوا يعدّون القليل، ويزنون الكثير.

١٢ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم من النوم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم في مدّة لبثهم؛ لأنهم لمّا انتبهوا اختلفوا في ذلك، وذلك قوله: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم﴾. وكان الذين قالوا: ﴿ربّكم أعلم بما لبثتم﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو: ﴿أيّ الحزبين﴾ المختلفين من غيرهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ غاية. و﴿أحصى﴾ فعل ماض. و﴿أمداً﴾ ظرف لـ﴿أحصى﴾، أو: مفعول له. والفعل الماضي خبر المبتدأ، وهو: ﴿أيّ﴾. والمبتدأ مع خبره سدّ مسدّ مفعولي ﴿نعلم﴾. والمعنى: أيّهم ضبط ﴿أمداً﴾ لأوقات لبثهم، وأحاط علماً بأمد لبثهم. ومن قال: أحصى: أفعل، من الإحصاء، وهو: العدّ، فقد زلّ؛ لأن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس. وإنّما قال: ﴿لنعلم﴾ مع أنّه تعالى لم يزل عالماً بذلك؛ لأنّ المراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً، وليكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بيّنة لكفّاره. أو: المراد: ﴿لنعلم﴾ اختلافهما موجوداً، كما علمناه قبل وجوده.

١٣ ـ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ جمع: فتى. والفتوة: بذل الندى، وكفّ الأذى، وترك الشكوى، واجتناب المحارم، واستعمال المكارم. وقيل: الفتى: من لا يدّعي قبل الفعل، ولا يزكّي نفسه بعد الفعل ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ يقيناً. وكانوا من خواصّ دقيانوس، قد قذف اللهُ في قلوبهم الإيمانَ، وخاف بعضهم بعضاً، وقالوا: ليخل اثنان اثنان منّا، فيظهر كلاهما ما يضمر لصاحبه، ففعلوا، فحصل اتفاقهم على الإيمان.

١٤ ـ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقوّيناها بالصبر على هجران الأوطان، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحقّ، والتظاهر بالإسلام ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي الجبّار، وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين

فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ

عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مفتخرين ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾. ولئن سمّيناهم آلهة ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ قولاً ذا شطط، وهو: الإفراط في الظلم، والإبعاد فيه، من: شطّ يَشُطُّ ويشِطّ: إذا بعد.

١٥ ـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ خبر. وهو إخبار في معنى الإنكار ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ هلاّ ﴿يأتون﴾ على عبادتهم. فحذف المضاف ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ بحجّة ظاهرة، وهو تبكيت؛ لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

١٦ ـ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب من بعضهم لبعض، حين صمّمت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ نصب عطف على الضمير، أي: ﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ واعتزلتم معبوديهم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ استثناء متّصل؛ لأنهم كانوا يقرّون بالخالق، ويشركون معه غيره، كأهل مكّة. أو: منقطع، أي: وإذ عزلتم الكفّار والأصنام التي يعبدونها من دون الله. أو: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية، أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ صيروا إليه. أو: اجعلوا الكهف مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ من رزقه. ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ﴿مَرْفقاً﴾: مدنيّ، وشاميّ. وهو: ما يرتفق به، أي: ينتفع. وإنّما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، وقوّة في رجائهم؛ لتوكّلهم عليه، ونصوع يقينهم. أو: أخبرهم به نبيّ في عصرهم.

١٧ ـ ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ بتخفيف الزاي: كوفيّ ﴿تَزْوَرُّ﴾ شاميّ، ﴿تزّاور﴾: غيرهم. وأصله: تتزاور، فخفّف بإدغام التاء في الزاي، أو: حذفها. والكلّ من الزَوَر، وهو: الميل. ومنه: زاره: إذا مال إليه.

عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ

والزُّور: الميل عن الصدق ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ أي: تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ جهة اليمين. وحقيقتها: الجهة المسمّاة باليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم، أي: تتركهم، وتعدل عنهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ في متّسع من الكهف. والمعنى: أنهم في ظلّ نهارهم كلّه لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع، منفتح، معرّض لإصابة الشمس، لولا أنّ الله يحجبها عنهم. وقيل: منفسح من غارهم، ينالهم فيه رَوح الهواء، وبرد النسيم، ولا يحسّون كرب الغار ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس، وقرضها طالعة وغاربة آية ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. يعني: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس، ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شماليّ، مستقبل لبنات نعش، فهم في مَقْنَاة[1] أبداً. ومعنى ﴿ذلك من آيات الله﴾: أنّ شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ مثل ما مرّ في ﴿سبحان﴾[2] وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله، وأسلموا له وجوههم، فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنيّة ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي: من أضلّه فلا هادي له.

١٨ ـ ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾[3] بفتح السين: شاميّ، وحمزة، وعاصم، غير الأعشى. وهو خطاب لكلّ أحد ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع: يقظ ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. قيل: عيونهم مفتّحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك ﴿أيقاظاً﴾. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قيل: لهم تقلّبتان في السنة. وقيل: تقلّبة واحدة في يوم عاشوراء

(١) «المقناة»: الذي لا تطلع عليه الشمس، وهو نقيض: المضحاة..

(٢) أي: في سورة: الإسراء آية (٩٧).

(٣) في الأصل المخطوط ﴿تَحْسِبُهُمْ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٥٣).

وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية؛ لأنّ اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضيّ ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ بالفناء، أو: بالعتبة ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ لأعرضت عنهم، وهربت منهم ﴿فِرَارًا﴾ منصوب على المصدر؛ لأنّ معنى ﴿ولّيت منهم﴾: فررت منهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وبتشديد اللّام: حجازيّ، للمبالغة ﴿رُعْبًا﴾ تمييز. وبضم العين: شاميّ، وعليّ. وهو الخوف الذي يرعب الصدر، أي: يملؤه. وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، أو: لطول أظفارهم وشعورهم، وعظم أجرامهم. وعن معاوية: أنّه غزا الروم، فمرّ بالكهف، فقال: أريد أن أدخل، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لقد قيل لمن هو خير منك ﴿لولّيت منهم فراراً﴾، فدخلت جماعة بأمره، فأحرقتهم ريح.

١٩ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ وكما أنمناهم تلك النومة، كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرة على الإنامة والبعث جميعاً ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً، ويتعرّفوا حالهم، وما صنع الله بهم فيعتبروا، ويستدلّوا على عظم قدرة الله، ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ رئيسهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم مدّة لبثكم ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ جواب مبنيّ على غالب الظن، وفيه دليلٌ على جواز الاجتهاد والقول بالظنّ الغالب ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ بمدّة لبثكم. إنكار عليهم من بعضهم، كأنّهم قد علموا بالأدلّة، أو بإلهام أن المدّة متطاولة، وأنّ مقدارها لا يعلمه إلاّ الله. ورُوي: أنّهم دخلوا الكهف غدوة، وكان انتباهُهم بعد الزوال، فظنّوا أنّهم في يومهم، فلمّا نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. وقد استدلّ ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ على أنّ الصحيح: أن عددهم سبعة، لأنّه قد قال في الآية: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾ وهذا واحد. وقالوا في جوابه: لبثنا يوماً، أو بعض يوم، وهو جمع، وأقلّه ثلاثة، ثمّ قال: ﴿ربّكم أعلم بما لبثتم﴾ وهذا

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾

قول جمع آخرين، فصاروا سبعة ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ كأنهم قالوا: ربّكم أعلم بذلك، لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهمّكم ﴿فابعثوا أحدكم﴾ أي: يمليخا. ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ هي الفضّة مضروبة كانت، أو غير مضروبة. وبسكون الراء: أبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي طرسوس. وحملهم الورق عند فرارهم دليلٌ على أنّ حمل النفقة، وما يصلح للمسافر، هو رأي المتوكّلين على الله دون المتكلين على الاتّفاقات، وعلى ما في أوعية القوم من النفقات. وعن بعض العلماء: أنّه كان شديد الحنين إلى بيت الله، ويقول: ما لهذا السفر إلا شيئان: شدّ الهمْيان، والتوكل على الرحمن ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ أيّ أهلها، فحذف، كما في: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. و﴿أيّ﴾ مبتدأ، خبره ﴿أزكى﴾ ﴿أَزْكَىٰ﴾ أحلّ، وأطيب، أو: أكثر، وأرخص. ﴿طَعَامًا﴾ تمييز ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلّف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتّى لا يغبن، أو: في أمر التخفّي حتّى لا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلنّ ما يؤدّي إلى الشعور بنا من غير قصد منه، فسمّى ذلك إشعاراً منه بهم؛ لأنّه سبب فيه.

٢٠ ـ والضمير في: ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجع إلى الأهل المقدّر في ﴿أيها﴾ ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يطّلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم أخبث القتلة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ بالإكراه. والعود بمعنى الصيرورة كثير في كلامهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ «إذاً» يدلّ على الشرط، أي: ﴿ولن تفلحوا﴾ إن دخلتم في دينهم ﴿أبداً﴾.

٢١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم ـ لما في ذلك من الحكمة ـ أطلعنا عليهم ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ وهو البعث ﴿حَقٌّ﴾ كائن؛ لأنّ حالهم في نومهم وانتباههم بعدها

وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

كحال من يموت ثمّ يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فإنّهم يستدلّون بأمرهم على صحة البعث ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ متعلق بأعثرنا، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمر دينهم، ويختلفون في حقيقة البعث ـ فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح ـ ليرتفع الخلاف، وليتبيّن: أنّ الأجساد تبعث حيّة حسّاسة فيها أرواحها، كما كانت قبل الموت ﴿فَقَالُوا۟﴾ حين توفّى الله أصحاب الكهف ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي: على باب كهفهم لئلا يتطرّق إليهم الناس، ضنّاً بتربتهم، ومحافظة عليها، كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام المتنازعين، كأنّهم تذاكروا أمرهم، وتناقلوا الكلام في أنسابهم، وأحوالهم، ومدّة لبثهم. فلمّا لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ﴿ربهّم أعلم بهم﴾. أو: من كلام الله عزّ وجلّ ردّاً لقول الخائضين في حديثهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمين وملكهم، وكانوا أولى بهم، وبالبناء عليهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ على باب الكهف ﴿مَّسْجِدًا﴾ يصلّي فيه المسلمون، ويتبرّكون بمكانهم.

رُوي: أنّ أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم حتّى عبدوا الأصنام، وأكرهوا على عبادتها. وممن شدّد في ذلك دقيانوس، فأراد فتيةً من أشراف قومه على الشرك، وتوعّدهم بالقتل، فأبوا إلاّ الثبات على الإيمان، والتصلّب فيه، ثمّ هربوا إلى الكهف، ومرّوا بكلب، فتبعهم، فطردوه، فأنطقه الله تعالى فقال: ما تريدون منّي؟ إنّي أحبّ أحبّاء الله، فناموا، وأنا أحرسكم. وقيل: مروا براعٍ معه كلب، فتبعهم على دينهم، ودخلوا الكهف، فضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله مَلَك مدينتَهم رجلٌ صالح، مؤمن. وقد اختلف أهلُ مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته، وأغلق بابه، ولبس مِسْحاً، وجلس على رماد، وسأل ربّه أن يبيّن لهم الحقّ، فألقى اللهُ في نفس رجلٍ من رعيانهم، فهدم ما سدّ به فم الكهف؛ ليتّخذه حظيرة لغنمه. ولمّا دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام، وأخرج الوَرِقَ، وكان من ضرب

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾

دقيانوس، اتّهموه بأنّه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصّ عليه القصّة، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينة معه، وأبصروهم، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث. ثمّ قالت الفتية للملك: نستودعك الله، ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس، ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم، وتوفّى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكلّ واحد تابوتاً من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج[1]، وبنى على باب الكهف ﴿مسجداً﴾.

٢٢ ـ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ الضمير في ﴿سيقولون﴾ لمن خاض في قصّتهم في زمن رسول الله ﷺ من المؤمنين وأهل الكتاب. سألوا رسول الله ﷺ عنهم، فأخّر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فنزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأنّ المصيب منهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم. ويُروى أنّ السيّد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبيّ ﷺ، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيّد ـ وكان يعقوبيّاً ـ: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب ـ وكان نسطوريّاً ـ: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. فحقّق اللهُ قولَ المسلمين. وإنّما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ وبما ذكرنا من قبل. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: هم سبعة نفر، أسماؤهم: يمليخا، ومكشلينا، ومشلينيا، هؤلاء أصحاب يمين الملك. وكان على يساره: مرنوش، ودبرنوش، وشاذنوش. وكان يستشير هؤلاء الستّة في أمره. والسابع: الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس. واسم مدينتهم أفسوس، واسم كلبهم قطمير. وسين الاستقبال وإن دخل في الأوّل دون الآخرين، فهما داخلان في حكم السين، كقولك: قد أكرم وأنعم، تريد: معنى التوقّع في الفعلين جميعاً. أو: أريد بيفعل

---

(١) «الساج»: شجر عظيم صلب الخشب أسوده، يعظم جداً، ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق كبير.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝٢٢ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾

معنى الاستقبال الذي هو صالح له ﴿ثلاثة﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ثلاثة. وكذلك خمسة وسبعة. و﴿رابعهم كلبهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر، واقعة صفة لثلاثة. وكذلك ﴿سادسهم كلبهم﴾ و﴿ثامنهم كلبهم﴾ ﴿رجماً بالغيب﴾ رمياً بالخبر الخفيّ، وإتياناً به، كقوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [سبأ: ٥٣] أي: يأتون به. أو: وضع الرجم موضع الظنّ، فكأنّه قيل: ظنّاً بالغيب؛ لأنّهم أكثروا أن يقولوا: رجم بالظنّ، مكان قولهم: ظنّ، حتّى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين. والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف. وفائدتها: توكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتّصافه بها أمر ثابت مستقر. وهذه الواو التي آذنت بأنّ الذين قالوا: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ قالوه عن ثبات علم، ولم يرجموا بالظنّ كما رجم غيرهم. دليلُه: أنّ الله تعالى أتبع القولين الأوّلين قوله: ﴿رجماً بالغيب﴾، وأتبع القول الثالث قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي: ﴿قل ربّي أعلم بعدّتهم﴾ وقد أخبركم بها بقوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنا من ذلك القليل.

وقيل: ﴿إلا قليل﴾ من أهل الكتاب خاصّة. أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلاّ في قليل منهم، وأكثرهم على ظنّ، وتخمين ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ﴿إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ إلا جدالاً ظاهراً، غير متعمّق فيه، وهو: أن تقصّ عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيد من غير تجهيل لهم. أو: بمشهد من الناس ليظهر صدقك ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصّتهم سؤال متعنّت له، حتّى يقول شيئاً، فتردّه عليه، وتزيّف ما عنده، ولا سؤال مسترشد؛ لأنّ الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصّتهم.

٢٣ ـ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ لأجل شيء تعزم عليه: ﴿إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾ الشيء

غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾

﴿غَدًا﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان، ولم يرد الغد خاصّة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تقوله بأن يأذن لك فيه، أو: ولا تقولنّه إلاّ بأن يشاء الله، أي: إلاّ بمشيئته، وهو في موضع الحال، أي: إلاّ ملتبساً بمشيئة الله، قائلاً: إن شاء الله. وقال الزجّاج: معناه: ﴿ولا تقولن﴾: إني أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى؛ لأن قول القائل: أنا أفعل ذلك إن شاء الله، معناه: لا أفعله إلا بمشيئة الله. وهذا نهي تأديب من الله لنبيّه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين. فسألوه، فقال[1]: «ائتوني غداً أخبركم» ولم يستثن. فأبطأ عليه الوحي حتّى شقّ عليه.

٢٤ ـ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ مشيئة ربّك، وقل: إن شاء الله؛ إذا فرط منك نسيان لذلك. والمعنى: ﴿إذا نسيت﴾ كلمة الاستثناء، ثمّ تنبّهت عليها، فتداركها بالذكر. عن الحسن: ما دام في مجلس الذكر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ولو بعد سنة. وهذا محمولٌ على تدارك التبرّك بالاستثناء، فأمّا الاستثناء المغيّر حكماً فلا يصح إلاّ متّصلاً. وحكى: أنّه بلغ المنصور أنّ أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ خالف ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه، فقال له أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالأيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا، فيخرجوا عليك؟. فاستحسن كلامه، وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده. أو معناه: ﴿واذكر ربّك﴾ بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء تشديداً في البعث على الاهتمام بها. أو: صلّ صلاة نسيتها إذا ذكرتها. أو: إذا نسيت فاذكره ليذكرك المنسيّ. ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ يعني: إذا نسيت شيئاً فاذكر ربّك. وذكر ربّك عند نسيانه أن تقول: ﴿عسى ربّي أن يهديني﴾ لشيء آخر بدل هذا المنسيّ، أقرب منه رشداً، وأدنى خيراً ومنفعة ﴿أن يهدين﴾ ﴿إن ترن﴾ ﴿أن يؤتين﴾ ﴿أن تُعلّمن﴾: مكيّ في الحالين. ووافقه أبو عمرو، ومدنيّ في الوصل.

---

(١) رواه ابن المنذر عن مجاهد (الدر المنثور ٥/ ٣٧٧).

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢٥ ـ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ يريد لبثهم فيه أحياء، مضروباً على آذانهم هذه المدّة. وهو بيانٌ لما أجمل في قوله: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ و﴿سنين﴾ عطف بيان لثلاثمئة ﴿ثلاثمئة سنين﴾ بالإضافة: حمزة، وعليّ، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز، كقوله: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣] ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي: تسع سنين لدلالة ما قبله عليه. و﴿تسعاً﴾ مفعول به؛ لأنّ زاد تقتضي مفعولين، فازداد يقتضي مفعولاً واحداً.

٢٦ ـ ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي: هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدّة لبثهم، والحقّ ما أخبرك به. أو: هو حكاية لكلام أهل الكتاب، و﴿قل الله أعلم﴾ ردّ عليهم. والجمهور على أنّ هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدّة ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السموات والأرض، وخفي فيها من أحوال أهلها ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: وأسمع به. والمعنى: ما أبصره بكلّ موجود، وما أسمعه لكلّ مسموع ﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السموات والأرض ﴿مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ من متولّ لأمورهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه ﴿أَحَدًا﴾ منهم ﴿ولا تشرك﴾ على النهي: شاميّ.

٢٧ ـ كانوا يقولون له: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فقيل له: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي: من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فإنّه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا يقدر أحدٌ على تبديلها، أو تغييرها، إنّما يقدر على ذلك هو وحده ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً تعدل إليه إن هممت بذلك.

٢٨ ـ ولمّا قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نحّ هؤلاء الموالي ـ وهم صهيب، وعمّار، وخبّاب، وسلمان، وغيرهم من فقراء المسلمين ـ

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ

نجالسك نزل: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ واحبسها معهم، وثبّتها ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ دائبين على الدعاء في كلّ وقت. أو: ﴿بالغداة﴾ لطلب التوفيق، والتيسير، ﴿والعشيّ﴾ لطلب عفو التقصير. أو: هما: صلاة الفجر والعصر ﴿بالغُدوة﴾: شاميّ. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ رضا الله ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تجاوز. عداه إذا جاوزه. وعدّي بعن لتضمّن عدا معنى نبا، في قولك: نبت عنه عينه. وفائدة التضمين: إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في موضع الحال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر، وهو دليلٌ لنا على أنّه تعالى خالق أفعال العباد ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ مجاوزاً عن الحقّ.

٢٩ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الإسلام، أو: القرآن. و﴿الحقّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: جاء الحق، وزاحت العلل، فلم يبق إلاّ اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة، أو في طريق الهلاك. وجيء بلفظ الأمر والتخيير، لأنّه لمّا مكّن من اختيار أيّهما شاء، فكأنّه مخيَّر، مأمور بأن يتخيَّر ما شاء من النّجدين. ثمّ ذكر جزاء من اختار الكفر، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين. فقيّد بالسياق ـ كما تركت حقيقة الأمر والتخيير بالسياق ـ وهو قوله: ﴿إنّا أعتدنا للظالمين﴾ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ شبّه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهي: الحجرة التي تكون حول الفسطاط. أو: هو دخان يحيط بالكفّار قبل دخولهم النار، أو: هو حائط من نار يطيفُ بهم ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ هو دُرْدِيّ الزيت، أو: ما أذيب من جواهر الأرض. وفيه تهكّم بهم ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قدّم ليشرب انشوى الوجه من حرارته ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾

وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ

ذلك ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأ، من: الرفق. وهذه لمشاكلة قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

٣٠، ٣١ ـ وبيّن جزاء من اختار الإيمان فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ☆ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ كلام مستأنف بيان للأجر المبهم. ولك أن تجعل: ﴿إنّا لا نضيع﴾ و﴿أولئك﴾ خبرين معاً. والمراد: من أحسن منهم عملاً، كقولك: السمن مَنَوان[1] بدرهم. أو: لأنّ ﴿من أحسن عملاً﴾ و﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ينتظمهما معنى واحد، فأقام ﴿من أحسن﴾ مقام الضمير ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ «من» للابتداء. وتنكير «أساور» ـ وهي جمع أسورة التي هي جمع سوار ـ لإبهام أمرها في الحسن ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ «من» للتبيين ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه، أي: يجمعون بين النوعين ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ خصّ الاتّكاء؛ لأنه هيئة المتنعِّمين، والملوك على أسرّتهم. ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنّة ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنّة، والأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأ.

٣٢ ـ ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ ومثّل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين ـ وكانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما كافر اسمه: قطروس، والآخر مسلم اسمه: يهوذا ـ وقيل: هما المذكوران في ﴿والصافّات﴾ في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فجعلاها شطرين، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار، فقال المؤمن: اللّهم إنّ أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنّة بألف، فتصدّق به. ثمّ بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللّهم إنّي أشتري منك داراً في الجنّة بألف، فتصدّق

---

(١) «مَنَوان»: مثنى مَنًا، هو: كَيْل يُكال به السمن وغيره. أو: ميزان يُوزَن به.

جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

به. ثمّ تزوّج أخوه امرأة بألف، فقال: اللّهم إنّي جعلت ألفاً صداقاً للحور. ثمّ اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار، فقال: اللّهم إنّي اشتريتُ منك الولدان المخلّدين بألف، فتصدّق به. ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه، فمرّ به في حشمه، فتعرّض له، فطرده، ووبّخه على التصدّق بماله ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ بستانين من كروم ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنّتين. وهذا ممّا يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزّرة بالأشجار المثمرة. يقال: حفّوه؛ إذا أطافوا به، وحففته بهم، أي: جعلتهم حافّين حوله. وهو متعدّ إلى مفعول واحد، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه. ووصف العمارة بأنّها متواصلة متشابكة، لم يتوسّطها ما يقطعها مع الشكل الحسن، والترتيب الأنيق.

٣٣ ـ ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾ أعطت. حمل على اللفظ، لأنّ لفظ كلتا مفرد. ولو قيل: «آتتا» على المعنى لجاز ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ﴾ ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ نعتهما بوفاء الثمار، وتمام الأكل من غير نقص، ثمّ بما هو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب، فجعله أفضل ما يسقى به، وهو النهر الجاري فيها.

٣٤ ـ ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ لصاحب الجنّتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال. من: ثمّر ماله: إذا كثّره، أي: كانت له إلى الجنّتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب، والفضة، وغيرهما ﴿له ثَمَرٌ﴾ ﴿وأحيط بثَمَره﴾ بفتح الميم والثاء: عاصم، وبضم الثاء، وسكون الميم: أبو عمرو، وبضمّهما: غيرهما ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه الكلام، من حار يحور: إذا رجع، يعني: قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به في الجنّتين ويريه ما فيهما، ويفاخره بما ملك من المال دونه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أنصاراً وحشماً، أو: أولاداً ذكوراً؛ لأنّهم ينفرون معه دون الإناث.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ

٣٥ ـ ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ إحدى جنّتيه، أو: سمّاهما جنّة لاتّحاد الحائط، وجنّتين: للنهر الجاري بينهما ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ضارّ لها بالكفر ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي: أن تهلك هذه الجنة. شكّ في بيدودة جنّته لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك.

٣٦ ـ ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ إقسام منه على أنّه إن ردّ إلى ربّه على سبيل الفرض، كما يزعم صاحبه، ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنّته في الدنيا، ادّعاء لكرامته عليه، ومكانته عنده ﴿منقلباً﴾ تمييز، أي: مرجعاً، وعاقبة.

٣٧ ـ ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي: خلق أصلك؛ لأنّ خلق أصله سبب في خلقه، وكان خلقه خلقاً له ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي: خلقك من نطفة ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ عدلك، وكمّلك إنساناً، ذكراً، بالغاً مبلغ الرجال. جعله كافراً بالله لشكّه في البعث.

٣٨ ـ ﴿ لَّٰكِنَّا۠ ﴾ بالألف في الوصل: شاميّ. الباقون: بغير ألف. وبالألف في الوقف اتّفاق. وأصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة، وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النونان، فأدغمت الأولى في الثانية بعد أن سكنت ﴿ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ «هو» ضمير الشأن. والشأن الله ربي. والجملة خبر أنا، والراجع منها إليه ياء الضمير، وهو استدراك لقوله: ﴿أكفرت﴾. قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكنّي مؤمن موحّد، كما تقول: زيد غائب لكنّ عمراً حاضر. وفيه حذف، أي: أقول: هو الله بدليل عطف ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

٣٩ ـ ﴿ وَلَوْلَآ ﴾ وهلاّ ﴿ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ما﴾ موصولة مرفوعة المحلّ على أنها خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر ﴿ما شاء الله﴾. أو: شرطيّة

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

منصوبة الموضع، والجزاء محذوف، يعني: أي شيء شاء الله كان. والمعنى: هلاّ قلت عند دخولها، والنظر إلى ما رزقك الله منها: الأمر ﴿ما شاء الله﴾ اعترافاً بأنّها وكلّ ما فيها إنما حصل بمشيئة الله، وأنّ أمرها بيده، إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خرّبها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إقراراً بأنّ ما قويت به على عمارتها، وتدبير أمرها هو بمعونته، وتأييده من قرأ: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا﴾ بنصب ﴿أقلّ﴾ فقد جعل ﴿أنا﴾ فصلاً. ومَن رفَع ـ وهو الكسائي ـ جعله مبتدأ و﴿أقلّ﴾ خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لـ«ترني» ﴿وَوَلَدًا﴾ فيه نصرة لمن فسّر النفر بالأولاد في قوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

٤٠ ـ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا، أو: في العقبى. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ عذاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً بيضاء، يزلق عليها لملاستها.

٤١ ـ ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ غائراً، أي: ذاهباً في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ فلا يتأتّى منك طلبه، فضلاً عن الوجود. والمعنى: إن ترن أفقر منك، فأنا أتوقّع من صنع الله أن يقلب ما بي، وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنّة خيراً من جنّتك، ويسلبك لكفرك نعمته، ويخرّب بساتينك.

٤٢ ـ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ هو عبارة عن إهلاكه. وأصله: من: أحاط به العدوّ؛ لأنّه إذا أحاط به فقد ملكه، واستولى عليه. ثمّ استعمل في كلّ إهلاك ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يضرب إحداهما على الأخرى ندماً، وتحسّراً. وإنّما تقليب الكفّين كناية عن الندم والتحسّر؛ لأنّ النادم يقلّب كفيّه ظهراً لبطن، كما كُنِيَ عن ذلك بعضّ الكفّ، والسقوط في اليد. ولأنّه في معنى الندم عدّي تعديته بعلى، كأنّه قيل: فأصبح يندمُ ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عمارتها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعني: أنّ كرومها المعرشة سقطت عروشها على

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

الأرض، وسقطت فوقها الكروم ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ تذكّر موعظة أخيه، فعلم أنه أُتي من جهة كفره وطغيانه، فتمنّى لو لم يكن مشركاً حتّى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمنّي. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً على ما كان منه، ودخولاً في الإيمان.

٤٣ ـ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدرون على نصرته ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو وحده القادر على نصرته، لا يقدر أحد غيره أن ينصره، إلاّ أنّه لم ينصره لحكمة ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوّته عن انتقام الله.

٤٤ ـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿يكن﴾ بالياء، و﴿الوِلاية﴾ بكسر الواو: حمزة، وعليّ. فهي بالفتح: النصرة، والتولّي، وبالكسر: السلطان، والملك. والمعنى ﴿هنالك﴾ أي في ذلك المقام، وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه. تقريراً لقوله: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾. أو: ﴿هنالك﴾ السلطان والملك ﴿لله﴾ لا يغلب. أو: في مثل تلك الحال الشديدة يتولّى الله، ويؤمن به كلُّ مضطر. يعني: أنّ قوله: ﴿يا ليتني لم أشرك بربّي أحداً﴾ كلمة ألجىء إليها، فقالها جزعاً ممّا دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. أو: ﴿هنالك الولاية لله﴾ ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة، وينتقم لهم. يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله: ﴿فعسى ربّي أن يؤتيني خيراً من جنّتك، ويرسل عليها حسباناً من السماء﴾ ويؤيّده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه. أو: ﴿هنالك﴾ إشارة إلى الآخرة، أي: في تلك الدار ﴿الولاية لله﴾ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ﴿الحقّ﴾ بالرفع: أبو عمرو، وعليّ، صفة للولاية. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي الحقّ، أو: هو الحقّ. غيرهما بالجرّ، صفة لله ﴿عقباً﴾ بسكون القاف: عاصم، وحمزة. وبضمّها: غيرهما، وفي الشواذ ﴿عقبى﴾ على وزن فعلى. وكلّها بمعنى العاقبة.

٤٥ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: هي كماء أنزلناه

فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ

من السماء ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتفّ بسببه، وتكاثف، حتّى خالط بعضه بعضاً. أو: أثّر في النبات الماء، فاختلط به، حتّى روي ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً، مُتكسّراً. الواحدة: هشيمة ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تنسفه، وتطيّره ﴿الريح﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنشاء، والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادراً. شبّه حال الدنيا في نضرتها، وبهجتها، وما يتعقّبها من الهلاك والإفناء، بحال النبات يكون أخضر، ثمّ يهيج، فتطيّره الريح كأن لم يكن.

٤٦ ـ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لا زاد القبر، وعدّة العقبى ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان، أو: الصلوات الخمس، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ جزاء ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأنّه وعد صادق، وأكثر الآمال كاذبة، يعني: أنّ صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة.

٤٧ ـ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ ﴿تُسَيَّر الجبالُ﴾: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، أي: تسير في الجوّ، أو: يذهب بها بأن تجعل هباء منثوراً، منبثاً ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ليس عليها ما يسترها ممّا كان عليها من الجبال، والأشجار ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: الموتى ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فلم نترك. غادره، أي: تركه، ومنه الغدر: ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل.

٤٨ ـ ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ مصطفّين، ظاهرين، ترى جماعتهم كما ترى كلّ واحد، لا يحجب أحد أحداً. شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: قلنا لهم: ﴿لقد جئتمونا﴾. وهذا المضمر يجوزُ أن يكون عامل النصب في ﴿يوم نسيّر﴾ ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: لقد بعثناكم كما أنشأناكم أوّل مرّة، أو: جئتمونا عراة لا شيء معكم، كما خلقناكم أوّلاً. وإنّما قال: ﴿وحشرناهم﴾ ماضياً بعد ﴿نسيّر﴾ و﴿ترى﴾ للدلالة على حشرهم

بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

قبل التسيير، وقبل البروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال، كأنّه قيل: ﴿وحشرناهم﴾ قبل ذلك ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور، أو: مكان وعد للمحاسبة.

٤٩ ـ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: صحف الأعمال ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: لا يترك شيئاً من المعاصي ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ حصَرها، وضبطها ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ في الصحف عتيداً. أو: جزاء ﴿ما عملوا﴾ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب عليه ما لم يعمل، أو: يزيد في عقابه، أو: يعذّبه بغير جرم.

٥٠ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود تحيّة، أو: سجود انقياد ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهو مستأنف، كأنّ قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: ﴿كان من الجنّ﴾ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ خرج عمّا أمره ربّه به من السجود. وهو دليلٌ على أنّه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ الهمزة للإنكار والتعجّب، كأنّه قيل: أعقيب ما وجد منه تتّخذونه وذرّيته ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وتستبدلونهم بي؟ ومن ذرّيته: لا قيس: موسوس الصلاة، والأعور: صاحب الزنى، وبتر: صاحب المصائب، ومطوس: صاحب الأراجيف، وداسم: يدخل ويأكل مع من لم يسمّ الله تعالى ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أعداء ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله، فأطاعه بدل طاعة الله.

٥١ ـ ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أي: إبليس، وذرّيته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني:

وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

أنّكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة، وإنّما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلٰهية. فنفى مشاركتهم في الإلٰهيّة بقوله: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ لأعتضد بهم في خلقها، أو: أشاورهم فيه، أي: تفرّدت بخلق الأشياء، فأفردوني في العبادة ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ أي: وما كنت متّخذهم ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعواناً، فوضع المضلّين موضع الضمير ذمّاً لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟!

٥٢ ـ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله للكفّار. وبالنون: حمزة ﴿نَادُوا۟﴾ ادعوا بصوت عال ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنّهم فيكم شركائي يمنعوكم من عذابي. وأراد الجنّ، وأضاف الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً، من: وبِقَ يبِق وبوقاً: إذا هلك، أو: مصدر كالموعد، أي: ﴿وجعلنا بينهم﴾ وادياً من أودية جهنّم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد، مشتركاً يهلكون فيه جميعاً، أو: الملائكة، وعزيراً، وعيسى. والموبق: البرزخ البعيد، أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً؛ لأنهم في قعر جهنم، وهم في أعلى الجنان.

٥٣ ـ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ فأيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مخالطوها، واقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا﴾ عن النار ﴿مَصْرِفًا﴾ معدلاً.

٥٤ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجون إليه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ تمييز، أي: أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل ـ إن فصّلتها واحداً بعد واحد ـ خصومة، ومماراة بالباطل، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كلّ شيء.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ

---

٥٥ ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: سببه، وهو الكتاب والرسول ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ﴿أن﴾ الأولى: نصب، والثانية: رفع. وقبلها مضاف محذوف، تقديره: ﴿وما منع الناسَ﴾ الإيمانَ، والاستغفارَ إلا انتظارُ ﴿أن تأتيهم سنة الأوّلين﴾ وهي الإهلاك، أو: انتظارُ ﴿أن يأتيهم العذاب﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ كوفيّ، أي: أنواعاً، جمع: قبيل. الباقون ﴿قِبَلاً﴾ أي: عياناً.

٥٦ ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يوقف عليه، ويستأنف بقوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ هو قولهم للرسل: ﴿ما أنتم إلاّ بشر مثلنا﴾ ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ ونحو ذلك ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليزيلوا، ويبطلوا بالجدال النبوّة ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ القرآن ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ «ما» موصولة. والراجع من الصلة محذوف، أي: وما أنذروه من العقاب، أو: مصدريّة، أي: وإنذارَهم ﴿هُزُوًا﴾ موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة: حمزة. وبإبدال الهمزة واواً: حفص. وبضمّ الزاي والهمزة غيرهما.

٥٧ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآن؛ ولذلك رجع الضمير إليها مذكراً في قوله: ﴿أن يفقهوه﴾ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتذكّر حين ذكّر، ولم يتدبّر ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ عاقبة ﴿ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي، غير متفكّر فيها، ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لابُدَّ لهما من جزاء، ثمّ علّل إعراضهم ونسيانهم بأنّهم مطبوع على قلوبهم، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية. جمع كنان، وهو: الغطاء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقلاً عن استماع الحقّ. وجمع بعد الإفراد حملاً على لفظ ﴿من﴾ ومعناه ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد

إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ

﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى الإيمان ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة ﴿إِذًا﴾ جزاء وجواب. فدلّ على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ـ بمعنى: أنّهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه ـ وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً﴾ ﴿أَبَدًا﴾ مدّة التكليف كلّها.

٥٨ ـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكّة عاجلاً، مع فرط عداوتهم لرسول الله ﷺ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يوم بدر ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ منجى، ولا ملجأ. يقال: وأل: إذا نجا، ووأل إليه: إذا لجأ إليه.

٥٩ ـ ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفة؛ لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس. والخبر ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾. أو: ﴿تلك القرى﴾ نصب بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير، والمعنى: ﴿وتلك﴾ أصحاب ﴿القرى أهلكناهم﴾. والمراد: قوم نوح، وعاد، وثمود ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه، كما ضربنا لأهل مكّة يوم بدر. والمهلك: الإهلاك ووقته. وبفتح الميم وكسر اللام: حفص. وبفتحهما: أبو بكر، أي: لوقت هلاكهم، أو لهلاكهم. والموعد: وقت أو مصدر.

٦٠ ـ ﴿وَإِذْ﴾ واذكر ﴿إذ﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ هو يوشع بن نون. وإنّما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه، ويتبعه، ويأخذ منه العلم ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال. وقد حذف الخبر لدلالة الحال، والكلام عليه. أمّا الأولى: فلأنّها كانت حال سفر. أمّا الثاني: فلأنّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ غاية مضروبة

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾

تستدعي ما هي غاية له. فلا بدّ أن يكون المعنى: ﴿لا أبرح﴾ أسير ﴿حتّى أبلغ مجمع البحرين﴾. وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر ـ عليهما السلام ـ. وهو ملتقى بحر فارس والروم. وسُمِّي خضراً لأنّه أينما يصلّ يخضرّ ما حوله ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو: أسير زماناً طويلاً، قيل: ثمانون سنة. رُوي أنه لمّا ظهر موسى ـ عليه السلام ـ على مصر مع بني إسرائيل، واستقرّوا بها بعد هلاك القبط سأل ربّه: أي عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يذكرني، ولا ينساني. قال: فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحقّ، ولا يتّبع الهوى. قال: فأيّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدى، أو: تردّه عن ردى. فقال: إن كان في عبادك مَن هو أعلم منّي، فدلّني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا ربّ! كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل، فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني. فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت، ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة فإذا رجل مُسَجًّى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنّى بأرضنا السلام؟! فعرّفه نفسه. فقال: يا موسى! أنا على علمٍ علّمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنتَ على علم علّمكه الله لا أعلمه أنا.

٦١ ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: نسي أحدهما، وهو يوشع لأنّه كان صاحب الزاد، دليله: ﴿فإنّي نسيت الحوت﴾ وهو كقولهم: نسوا زادهم، وإنّما ينساه متعهّد الزاد. قيل: كان الحوتُ سمكةً مملوحة، فنزلا ليلةً على شاطىء عين الحياة، ونام موسى. فلمّا أصاب السمكة رَوح الماء وبرده عاشت، ووقعت في الماء ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: اتخذ طريقاً له من البرّ إلى البحر ﴿سَرَبًا﴾ نصب على المصدر، أي: سرب فيه سرباً، يعني: دخل فيه، واستتر به.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾

٦٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين، ثمّ نزلا وقد سارا ما شاء الله ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ تعباً، ولم يتعب، ولا جاع قبل ذلك.

٦٣ ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ هي موضع الموعد ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ ثم اعتذر فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ وبضم الهاء: حفص ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بإلقاء الخواطر في القلب ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل من الهاء في: ﴿أنسانيه﴾ أي: وما أنساني ذكره ﴿إلاّ الشيطان﴾ ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وهو أنّ أثره بقي إلى حيث سار.

٦٤ ـ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نطلب. وبالياء: مكيّ. وافقه أبو عمرو، وعليّ، ومدنيّ في الوصل. وبغير ياء فيهما غيرهما اتباعاً لخطّ المصحف. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلاً، أي: ﴿ذلك﴾ الذي كنّا نطلب؛ لأنّ ذهاب الحوت كان علماً على لقاء الخضر ـ عليه السلام ـ ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه ﴿قَصَصًا﴾ يقصّان ﴿قصصاً﴾ أي: يتبّعان آثارهما اتّباعاً، قال الزجاج: القصص: اتّباع الأثر.

٦٥ ـ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ أي: الخضر راقداً تحت ثوب، أو: جالساً في البحر ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي: الوحي والنبوّة، أو: العلم، أو: طول الحياة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: الإخبار بالغيوب. وقيل: العلم اللدنّيّ ما حصل للعبد بطريق الإلهام.

٦٦ ـ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: علماً ذا رشد أرشُد به في ديني ﴿رَشَدًا﴾ أبو عمرو، وهما لغتان، كالبخَل والبخل. وفيه دليلٌ

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾

على أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يتركَ طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه.

٦٧ ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾[1] وبفتح الياء: حفص. وكذا ما بعده في هذه السورة ﴿صَبْرًا﴾ أي: عن الإنكار، والسؤال.

٦٨ ـ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ تمييز. نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وعلّل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير. والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزعَ إذا رأى ذلك، فكيف إذا كان نبيّاً؟!

٦٩ ـ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ من الصابرين عن الإنكار، والاعتراض ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ في محل النصب عطف على ﴿صابراً﴾ أي: ﴿ستجدني. . . . صابراً﴾ وغير عاصٍ. أو: هو عطف على ﴿ستجدني﴾ ولا محل له.

٧٠ ـ ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي﴾ بفتح اللام وتشديد النون: مدنيّ، وشاميّ. وبسكون اللام وتخفيف النون: غيرهما. والياء ثابتة فيهما إجماعاً ﴿عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً، وقد علمت أنّه صحيح، إلاّ أنّه خفي عليك وجه صحّته، فأنكرت في نفسك، ألا تفاتحني بالسؤال، ولا تراجعني فيه؛ حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من أدب المتعلّم مع العالم، والمتبوع مع التابع.

٧١ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلمّا ركباها قال أهلها: هما من اللصوص. وقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء، فحملوهما بغير نول، فلمّا لجّجوا[2] أخذ الخضر الفأس

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿مَعِيْ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٣/ ٣٨٢).

(٢) «لجّجوا»: بلغوا لُجّة البحر، أي: عُرْضه.

قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

فخرق السفينة، بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسدّ الخرق بثيابه. ثم ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾: ﴿ليغرق أهلها﴾ حمزة، وعليّ، من: غرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أتيت شيئاً عظيماً، من: أَمِر الأمر: إذا عظم.

٧٢ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

٧٣ ـ فلما رأى موسى أنّ الخرق لا يدخله الماء، ولم يفرّ من السفينة ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيته، أو: بشيء نسيته، أو: بنسياني، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذة على الناسي، أو أراد بالنسيان الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أوّل مرّة ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ رهقه: إذا غشيه. وأرهقه إيّاه، أي: ولا تُغْشني عسراً من أمري، وهو: اتّباعه إيّاه، أي: ولا تعسّر عليّ متابعتك، ويسّرها عليّ بالإغضاء، وترك المناقشة.

٧٤ ـ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ قيل: ضرب برأسه الحائط. وقيل: أضجعه، ثمّ ذبحه بالسكين. وإنما قال: ﴿فقتله﴾ بالفاء، وقال: ﴿خرقها﴾ بغير فاء؛ لأنّ خرقها جعل جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ وإنّما خولف بينهما؛ لأنّ خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقّب القتل لقاء الغلام ﴿زَكِيَّةً﴾ (زاكية): حجازيّ، وأبو عمرو. وهي الطاهرة من الذنوب، إمّا لأنّها طاهرة عنده؛ لأنه لم يرها قد أذنبت، أو: لأنّها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لم تقتل نفساً فيقتصّ منها. وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: أنّ نجدة الحروريّ كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل! ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ وبضم الكاف حيث كان: مدني، وأبو بكر. وهو المنكر. وقيل: النكر أقل من الإمر؛ لأنّ قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. أو: معناه

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿جئت شيئاً﴾ أنكر من الأوّل؛ لأنّ الخرق يمكن تداركه بالسدّ، ولا يمكن تدارك القتل.

٧٥ ـ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد ﴿لك﴾ هنا؛ لأنّ النكر فيه أكثر.

٧٦ ـ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه الكرة، أو: المسألة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق. و﴿لدني﴾ بتخفيف النون: مدنيّ، وأبو بكر.

٧٧ ـ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي: أنطاكية، أو: الأيلة، وهي أبعد أرض الله من السماء! ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ استضافا ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ضيّفه: أنزله، وجعله ضيفه قال ﷺ: «كانوا أهل قرية لئاماً»[1]. وقيل: شر القُرى التي تبخل بالقِرى ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ في القرية ﴿جِدَارًا﴾ طوله مئة ذراع ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يكاد يسقط. استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهمّ والعزم لذلك ﴿فَأَقَامَهُ﴾ بيده، أو: مسحه بيده، فقام، واستوى، أو: نقضه، وبناه. كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم، وقد لزّتهما[2] الحاجة إلى آخر كسب المرء، وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً. فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لطلبت على عملك جُعْلاً حتّى تستدفع به الضرورة ﴿لتَخِذت﴾ بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الذال: بصريّ. وبإظهارها: مكيّ. وبتشديد التاء وفتح الخاء وإظهار الذال: حفص. وبتشديد التاء وفتح الخاء وإدغام الذال في

(١) رواه النسائي في الكبرى (١١٣٠٧).
(٢) «لزّتهما»: اضطرتهما، وألجأتهما.

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

التاء: غيرهم. والتاء في تخذ أصل، كما في تبع. واتخذ: افتعل منه، كاتّبع من تبع، وليس من الأخذ في شيء.

٧٨ ـ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هذه إشارة إلى السؤال الثالث، أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل: ﴿هذا فراقٌ بيني وبينك﴾ وقد قرىء به. فأضيف المصدر إلى الظرف، كما يضاف إلى المفعول به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

٧٩ ـ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قيل: كانت لعشرة إخوة، خمسة منهم زمنى، وخمسة يعملون في البحر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ أمامهم، أو: خلفهم، وكان طريقهم في رجوعهم عليه، وما كان عندهم خبره، أعلم الله به الخضر، وهو جلندى ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: ﴿يأخذ كلّ سفينة﴾ صالحة، لا عيب فيها ﴿غصباً﴾، وإن كانت معيبة تركها. وهو مصدر، أو: مفعول له. فإن قلت: قوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ مسبّب عن خوف الغصب عليها، فكان حقّه أن يتأخّر عن السبب، قلت: المراد به التأخير، وإنّما قدّم للعناية.

٨٠ ـ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ وكان اسمه: الحسين ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فخفنا أن يُغْشِيَ الوالدين المؤمنين ﴿طغياناً﴾ عليهما ﴿وكفراً﴾ لنعمتهما بعقوقه، وسوء صنيعه، ويُلحق بهما شرّاً وبلاء، أو: يُعديهما بدائه، ويُضلّهما بضلاله، فيرتدّا بسببه. وهو من كلام الخضر. وإنّما خشي الخضر منه ذلك، لأنّه تعالى أعلمه بحاله، وأطلعه على سرّ أمره، وإن كان من قول الله تعالى فمعنى: ﴿فخشينا﴾ فعلمنا إن عاش أن يصير سبباً لكفر والديه.

٨١ ـ ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ ﴿يُبَدِّلهما﴾: مدنيّ، وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ طهارة، ونقاء من الذنوب ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفاً. و﴿زكاة﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

و﴿رحماً﴾ تمييز. رُوي أنّه وُلدت لهما جارية تزوّجها نبيّ، فولدت نبياً، أو: سبعين نبيّاً. أو: أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما. ﴿رُحُماً﴾: شاميّ. وهما لغتان.

٨٢ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ أصرم، وصريم ﴿يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي: القرية المذكورة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئنّ إليها. لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. أو: مال مدفون من ذهب وفضّة، أو: صحف فيها علم. والأوّل أظهر. وعن قتادة: أحلّ الكنز لمن قبلنا، وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة عليهم، وأحلّت لنا ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ قيل: جدّهما السابع ﴿صَٰلِحًا﴾ ممن يصحبني. وعن الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما. قال: فأبي وجدّي خير منه ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: الحلم ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً﴾ مفعول له، أو: مصدر منصوب بـ«أراد ربّك» لأنّه في معنى رحمهما ﴿مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ عن اجتهادي، وإنّما فعلته بأمر الله. والهاء تعود إلى الكلّ، أو: إلى الجدار ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأجوبة الثلاثة ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ حذف التاء تخفيفاً. وقد زلّ أقدام أقوام من الضلال في تفضيل الوليّ على النبيّ. وهو كفر جليّ حيث قالوا: أمر موسى بالتعلّم من الخضر، وهو وليّ! والجواب: أنّ الخضر نبيّ، وإن لم يكن ـ كما زعم البعض ـ فهذا ابتلاءٌ في حقّ موسى ـ عليه السلام ـ على أنّ أهل الكتاب يقولون: إنّ موسى هذا ليس موسى بن عمران، إنّما هو موسى بن مانان، ومن المحال أن يكون الوليّ وليّاً إلا بإيمانه بالنبيّ، ثمّ يكون النبيّ دون الوليّ! ولا غضاضة في طلب موسى العلم، لأنّ الزيادة في العلم مطلوبة. وإنّما ذكر

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

أوّلاً: ﴿فأردت﴾ لأنه إفساد في الظاهر، وهو فعله، وثالثاً: ﴿فأراد ربّك﴾ لأنّه إنعام محض، وغير مقدور البشر، وثانياً: ﴿فأردنا﴾ لأنّه إفساد من حيث الفعل، إنعام من حيث التبديل. وقال الزجاج: معنى: ﴿فأردنا﴾: فأراد الله عز وجل. ومثله في القرآن كثير.

٨٣ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: اليهود على جهة الامتحان، أو: أبو جهل وأشياعه ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو الإسكندر الذي ملك الدنيا. قيل: ملكها مؤمنان: ذو القرنين وسليمان، وكافران: نمرود وبختنصر. وكان بعد نمرود. وقيل: كان عبداً صالحاً ملّكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وسخّر له النور والظلمة. فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه. وقيل: نبيّاً، وقيل: ملَكاً من الملائكة. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: ليس بملك ولا نبيّ، ولكن كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثمّ بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فَسُمِّي ذا القرنين، وفيكم مثله، أراد نفسه. قيل: كان يدعوهم إلى التوحيد، فيقتلونه، فيحييه الله تعالى. وقال عليه الصلاة والسلام: «سمِّي ذا القرنين لأنّه طاف قرني الدنيا»[1] يعني: جانبيها؛ شرقها وغربها. وقيل: كان له قرنان، أي: ضفيرتان، أو انقرض في وقته قرنان من الناس، أو: لأنّه ملك الروم وفارس، أو: الترك والروم، أو: كان لتاجه قرنان، أو: على رأسه ما يشبه القرنين، أو: كان كريم الطرفين أباً وأماً. وكان من الروم ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ من ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾.

٨٤ ـ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا له فيها مكانة، واعتلاء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده من أغراضه، ومقاصده في ملكه ﴿سَبَبًا﴾ طريقاً موصّلاً إليه.

٨٥ ـ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ السبب: ما يتوصّل به إلى المقصود من علم، أو: قدرة

(١) قال الحافظ: لم أجده مرفوعاً. (حاشية الكشاف ٢/ ٧٤٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

فأراد بلوغ المغرب ﴿فأتبع سبباً﴾ يوصله إليه حتّى بلغ، وكذلك أراد المشرق فأتبع سبباً، وأراد بلوغ السدّين فأتبع سبباً. ﴿فأتبع﴾ ﴿ثمّ أتبع﴾: كوفيّ، وشاميّ. الباقون بوصل الألف وتشديد التاء. عن الأصمعي: ﴿أتبع﴾ لحق. و﴿اتّبع﴾ اقتفى، وإن لم يلحق.

٨٦ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى العمارة نحو المغرب، وكذا المطلع. قال ﷺ: «بدءُ أمره أنّه وجد في الكتب: أنّ أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيَخلُد، فجعل يسيرُ في طلبها، والخضر وزيره وابن خالته، فظفر فشرب، ولم يظفر ذو القرنين»[1] ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة، من: حمئت البئر: إذا صارت فيها الحمأة. (حامية): شاميّ، وكوفيّ، غير حفص، بمعنى حارّة. وعن أبي ذرّ: كنتُ رديفَ رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت، فقال: «أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّها تغرب في عين حامية»[2]. وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عند معاوية فقرأ معاوية: ﴿حامية﴾ فقال ابن عباس: ﴿حمئة﴾ فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرؤها؟ فقال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثمّ وجّه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة، فوافق قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ولا تنافي. فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ عراة من الثياب، لباسهم جلود الصيد، وطعامهم ما لفظ البحر. وكانوا كفاراً ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ إن كان نبيّاً فقد أوحى الله إليه بهذا، وإلاّ فقد أوحى إلى نبيّ فأمره النبيّ به، أو: كان إلهاماً. خيّر بين أن يعذّبهم بالقتل إن أصرّوا على أمرهم، وبين أن يتّخذ فيهم حسناً بإكرامهم، وتعليم

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٠٢).

(٢) انظر: الدر المنثور (٥/ ٤٤٤ ـ ٤٤٨).

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

الشرائع إن آمنوا أو: التعذيب: القتل، واتخاذ الحسن: الأسر؛ لأنّه بالنظر إلى القتل إحسان.

٨٧ ـ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في القيامة، يعني: أمّا من دعوته إلى الإسلام فأبى إلاّ البقاء على الظلم العظيم، وهو الشرك، فذاك هو المعذّب في الدارين.

٨٨ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عمل ما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فله جزاء الفعلة الحسنى؛ التي هي كلمة الشهادة ﴿جزاءً الحسنى﴾ كوفيّ، غير أبي بكر، أي: فله الفعلة الحسنى جزاء ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: ذا يسر، أي: لا نأمره بالصعب الشاقّ، ولكن بالسهل المتيسّر من الزكاة، والخراج، وغير ذلك.

٨٩ ، ٩٠ ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم الزنج ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ من دون الشمس ﴿سِتْرًا﴾ أي: أبنية. عن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية، وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوها، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم. أو: الستر: اللباس. عن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض.

٩١ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين ﴿كذلك﴾، أي: كما وصفناه، تعظيماً لأمره ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود، والآلات، وأسباب الملك ﴿خُبْرًا﴾ نصب على المصدر؛ لأنّ في ﴿أحطنا﴾ معنى: خبرنا. أو: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك، أي: كما بلغ مغربها. أو: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم، يعني: أنّهم كفرة مثلهم، وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر، وإحسانه إلى من آمن منهم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾

٩٢، ٩٣ ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين. وهما جبلان؛ سدّ ذو القرنين ما بينهما. ﴿السَّدين﴾ و﴿سَدّاً﴾: مكيّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿السُّدين﴾ و﴿سُدّاً﴾: حمزة، وعليّ. وبضمهما: غيرهم. قيل: ما كان مسدوداً خلقة فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح. وانتصب ﴿بين﴾ على أنّه مفعول به لـ﴿بلغ﴾، كما انجرّ بالإضافة في: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ وكما ارتفع في ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] لأنّه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً. وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ من ورائهما ﴿قَوْمًا﴾ هم الترك ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لا يكادون يفهمونه إلاّ بجهد ومشقّة، من إشارة، ونحوها. ﴿يُفْقِهون﴾: حمزة، وعليّ، أي: لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه؛ لأنّ لغتهم غريبة، مجهولة.

٩٤ ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ هما اسمان أعجميّان بدليل منع الصرف، وهمزهما عاصم فقط، وهما من ولد يافث. أو: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجيل، والديلم ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيّام الربيع، فلا يتركون شيئاً أخضر إلاّ أكلوه، ولا يابساً إلاّ احتملوه، ولا يموت أحدهم حتّى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلّهم قد حمل السلاح، وقيل: هم على صنفين، طوال مفرطو الطول، وقصار مفرطو القصر ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ (خراجاً): حمزة، وعليّ، أي: جعلاً نخرجه من أموالنا، ونظيرهما: النول، والنوال ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

٩٥ ـ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى﴾ بالإدغام. وبفكّه[١]. مكيّ ﴿فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ أي: ما جعلني ﴿فيه﴾ مكيناً من كثرة المال، واليسار ﴿خير﴾ مما تبذلون لي من

(١) أي: فك الإدغام (ما مكّنني).

فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي

الخراج، فلا حاجة لي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ بفعلة، وصناع يحسنون البناء، والعمل، وبالآلات ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ جداراً، أو: حاجزاً حصيناً موثّقاً. والردم أكبر من السدّ.

٩٦ ـ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد. والزبرة: القطعة الكبيرة. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر، والنحاس المذاب. والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم، حتّى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثمّ وضع المنافيخ حتّى إذا صارت كالنار صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمى، فاختلط، والتصق بعضه ببعضه، وصار جبلاً صَلْداً، وقيل: بُعْد ما بين السدّين مئة فرسخ ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بفتحتين: جانبي الجبلين؛ لأنهما يتصادفان، أي: يتقابلان. ﴿الصُّدُفين﴾: مكّيّ، وبصريّ، وشاميّ. ﴿الصُّدْفين﴾: أبو بكر ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: ﴿قال﴾ ذو القرنين للعَمَلة[1]: ﴿انفخوا﴾ في الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ أي: المنفوخ فيه، وهو الحديد ﴿نَارًا﴾ كالنار ﴿قَالَ ءَاتُونِي﴾ أعطوني ﴿أُفْرِغْ﴾ أصبّ ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاساً مذاباً، لأنّه يقطر. وهو منصوب بأفرغ، وتقديره: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. ﴿قال ائتوني﴾ بوصل الألف: حمزة. وإذا ابتدأ كسر الألف، أي: جيئوني.

٩٧ ـ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بحذف التاء للخفّة؛ لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوا السدّ ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه، ولا نقب لصلابته.

٩٨ ـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: هذا السدّ نعمة من الله، ورحمة على عباده، أو: هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فإذا دنا مجيء يوم

---

(١) «العَمَلة»: جمع العامِل.

﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ ۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾

القيامة، وشارف أن يأتي ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدّ ﴿دَكَّآءَ﴾[1] أي: مدكوكاً مبسوطاً، مسوّى بالأرض. وكلّ ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندكّ. ﴿دكّاء﴾: كوفيّ، أي: أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ آخر قول ذي القرنين.

٩٩ ـ ﴿۞وَتَرَكۡنَا﴾ وجعلنا ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾ بعض الخلق ﴿يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ﴾ يختلط ﴿فِي بَعۡضٖ﴾ أي: يضطربون، ويختلطون إنسهم وجنّهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السدّ مزدحمين في البلاد. ورُوي: أنّهم يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون دوابّه، ثمّ يأكلون الشجر، ومن ظفروا به من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكّة والمدينة وبيت المقدس، ثمّ يبعث الله نَغَفاً[2] في أقفائهم، فيدخل في آذانهم، فيموتون. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ أي: جمع الخلائق للثواب والعقاب. ﴿جَمۡعٗا﴾ تأكيد.

١٠٠ ـ ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ وأظهرناها لهم، فرأوها، وشاهدوها.

١٠١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ عن آياتي التي يُنظر إليها أو: عن القرآن فأذكره بالتعظيم، أو: عن القرآن، وتأمّل معانيه. ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي: كانوا صمّاً عنه، إلاّ أنه أبلغ إذ الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به. وهؤلاء كأنهم أُصْمِيَتْ أسماعهم، فلا استطاعة بهم للسمع.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿دكاً﴾. وهي قراءة: ابن عامر، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب، وهبيرة عن حفص عن عاصم. وقال غير هبيرة عن حفص عن عاصم: ﴿دكاء﴾ ممدوداً. معجم القراءات القرآنية (١٨/٤)، والسبعة في القراءات (ص ٤٠٢).

(٢) «النغف»: الدود الأبيض الذي يكون في النوى إذا أُنقع، أو يكون في أنوف الإبل والغنم.

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾

---

١٠٢ ـ ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: أفظنّ الكفّار اتخاذهم عبادي، يعني: الملائكة وعيسى ـ عليهم السلام ـ أولياءَ نافعهم؟! بئس ما ظنّوا. وقيل: ﴿أن﴾ بصلتها سدّ مسدّ مفعولي ﴿أفحسب﴾. و﴿عبادي أولياء﴾ مفعولا ﴿أن يتّخذوا﴾ وهذا أوجه، يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء. ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ هو ما يقام للنزيل، وهو الضيف. ونحوه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

١٠٣ ـ ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ «أعمالاً» تمييز. وإنّما جمع ـ والقياس أن يكون مفرداً ـ لتنوّع الأهواء. وهم: أهل الكتاب، أو: الرهبان.

١٠٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ ضاع وبطل. وهو في محلّ الرفع، أي: هم ﴿الذين﴾ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾.

١٠٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ فلا يكون لهم عندنا وزن، ومقدار.

١٠٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ هي عطف بيان لـ: ﴿جزاؤهم﴾ ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي: جزاؤهم جهنّم بكفرهم، واستهزائهم بآيات الله، ورسله.

١٠٧، ١٠٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ تحوّلاً إلى غيرها، رضاً بما أعطوا. يقال: حال من مكانه حِولاً. أي: لا مزيد عليها حتّى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم، وأمانيهم. وهذه غاية الوصف، لأن الإنسانَ في الدنيا في أيّ نعيم

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

كان فهو طامحٌ، مائل الطرف إلى أرفع منه. أو: المراد: نفي التحوّل، وتأكيد الخلود.

١٠٩ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: ماء البحر ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ قال أبو عبيدة: المداد: ما يكتب به، أي: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها ـ والمراد بالبحر: الجنس ـ ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ بمثل البحر ﴿مَدَدًا﴾ لنفد أيضاً، والكلمات غير نافدة. و﴿مدداً﴾ تمييز، نحو: لي مثله رجلاً. والمدد مثل المداد، وهو: ما يمدّ به. ﴿ينفد﴾: حمزة، وعليّ. وقيل: قال حيي بن أخطب: في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فنزلت، يعني: أنّ ذلك خير كثير، ولكنّه قطرة من بحر كلمات الله.

١١٠ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فمن كان يأمل حسن لقاء ربّه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، أو: فمن كان يخاف سوء لقاء ربّه. والمراد باللقاء: القدوم عليه. وقيل: رؤيته كما هو حقيقة اللفظ، والرجاء على هذا مجرى على حقيقته ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ خالصاً، لا يريد به إلاّ وجه ربّه، ولا يخلط به غيره. وعن يحيى بن معاذ: هو ما لا يُستحى منه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هو نهي عن الشرك، أو: عن الرياء. قال ﷺ: «اتّقوا الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[1].

قال ﷺ: «من قرأ سورة الكهف فهو معصومٌ ثمانية أيّام من كلّ فتنة تكون. فإن يخرج الدجّال في تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجّال. ومن قرأ ﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾ إلى آخرها عند مضجعه كان له نوراً يتلألأ

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه، والثعلبي (حاشية الكشاف ٢/ ٧٥١).

. . . .

من مضجعه إلى مكّة، حشو ذلك النور ملائكة، يصلّون عليه حتّى يقوم عن مضجعه. وإن كان مضجعه بمكّة فتلاها كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة، يصلّون عليه، ويستغفرون له حتى يستيقظ»[١][٢].

* * *

(١) قال الحافظ: أخرجه إسحاق والبزار (حاشية الكشاف ٢/ ٧٥١).

(٢) هنا ينتهي السقط الذي بدأ من الآية (٣٨) من سورة الرعد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا

١ ـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال السُّدّي: هو اسم الله الأعظم. وقيل: هو اسم للسورة. قرأ عليّ ويحيى بكسر الهاء والياء. ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب. وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء. وحمزة بعكسه. وغيرهم بفتحهما.

٢ ـ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ، أي: هذا ﴿ذكر﴾ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول الرحمة ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بالقصر: حمزة، وعليّ، وحفص. وهو بدل من ﴿عبده﴾.

٣ ـ ﴿إِذْ﴾ ظرف للرحمة ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ دعاه دعاء سرّاً كما هو المأمور به، وهو أبعدُ عن الرياء، وأقربُ إلى الصفاء. أو: أخفاه لئلا يُلام على طلب الولد في أوان الكبر؛ لأنّه كان ابن خمس وسبعين، أو: ثمانين سنة.

٤ ـ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ هذا تفسير الدعاء. وأصله: يا ربّي، فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾: ضعف. وخصّ العظم لأنّه عمود البدن، وبه قوامه. فإذا وهن تداعى، وتساقطت قوّته. ولأنّه أشدّ ما فيه، وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحّده؛ لأنّ الواحد هو الدالّ على معنى الجنسيّة. والمراد: أنّ هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشدّ ما تركّب منه الجسد قد أصابه الوهن ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز، أي: فشا في

﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾

رأسي الشيب، واشتعال النار: إذا تفرّقت في التهابها، وصارت شعلاً. شبّه الشيب بشواظ النار في بياضه، وانتشاره في الشعر، وأخذه منه كلّ مأخذ باشتعال النار. ولا ترى كلاما أفصح من هذا. ألاَ ترى أنّ أصل الكلام: يا ربّ قد شخت، إذ الشيخوخة تشتملُ على ضعف البدن، وشيب الرأس المتعرّض لهما. وأقوى منه: ضعف بدني، وشاب رأسي، ففيه مزيد التقرير للتفصيل. وأقوى منه: وهنت عظام بدني. ففيه عدولٌ عن التصريح إلى الكناية، فهي أبلغ منه. وأقوى منه: أنا وهنت عظام بدني. وأقوى منه: إني وهنت عظام بدني. وأقوى منه: إنّي وهنت العظام من بدني، ففيه سلوكُ طريقي الإجمال والتفصيل. وأقوى منه: إنّي وهنت العظام منّي، ففيه ترك توسيط البدن. وأقوى منه: إنّي وهن العظم منّي لشمول الوهن العظام فرداً فرداً، باعتبار ترك جمع العظم إلى الأفراد؛ لصحّة حصول وهن المجموع بالبعض دون كلّ فرد فرد. ولهذا تركت الحقيقة في: شاب رأسي إلى أبلغ، وهي الاستعارة، فحصل: اشتعل شيب رأسي. وأبلغ منه: اشتعل رأسي شيباً لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته، وهو الرأس لإفادة شمول اشتعال الرأس. إذ وزان: اشتعل شيب رأسي، واشتعل رأسي شيباً، وزان: اشتعل النار في بيتي، واشتعل بيتي ناراً. والفرق نيّر. ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز. وأبلغ منه: واشتعل الرأس منّي شيباً لما مرّ. وأبلغ منه: واشتعل الرأس شيباً، ففيه اكتفاءٌ بعلم المخاطب أنّه رأس زكريّا لقرينة العطف، على: وهن العظم مني ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، أي: بدعائي إيّاك ﴿رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أي: كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم، سعيداً به، غير شقيّ فيه. يقال: سعد فلان بحاجته؛ إذا ظفر بها، وشقي: إذا خاب، ولم ينلها. وعن بعضهم: أنّ محتاجاً سأله، وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا. فقال: مرحباً بمن توسّل بنا إلينا! وقضى حاجته.

٥ ـ ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ هم عصبته: إخوته، وبنو عمه. وكانوا شرار بني إسرائيل، فخافهم أن يغيّروا الدّين، وألاّ يحسنوا الخلافة على أمّته، فطلب عَقِباً صالحاً من صُلبه، يُقتدى به في إحياء الدين ﴿مِن وَرَآءِي﴾ بعد موتي. وبالقصر

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

وفتح الياء كهداي: مكّيّ. وهذا الظرف لا يتعلّق بخفت؛ لأنّ وجود خوفه بعد موته لا يتصوّر. ولكن بمحذوف. أو: بمعنى الولاية في ﴿الموالي﴾، أي: خفت فعل ﴿الموالي﴾ وهو تبديلهم، وسوء خلافتهم ﴿من ورائي﴾. أو: ﴿خفت﴾ الذين يلون الأمر ﴿من ورائي﴾ ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ عقيماً لا تلد ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ اختراعاً منك بلا سبب: لأني وامرأتي لا نصلح للولادة ﴿وَلِيًّا﴾ ابناً يلي أمرك بعدي.

٦ ـ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ﴾ برفعهما صفة لـ«وليّاً» أي: هب لي ولداً وارثاً منّي العلم، ومن آل يعقوب النبوة. ومعنى وراثة النبوّة: أنّه يصلح لأن يوحى إليه، ولم يرد أن نفس النبوّة تورث، وبجزمهما: أبو عمرو، وعليّ على أنّه جواب للدعاء. يقال: ورثته، وورثت منه ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مرضيّاً ترضاه، أو: راضياً عنك، وبحكمك. فأجاب الله تعالى دعاءه، وقال:

٧ ـ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ تولّى الله تسميته تشريفاً له. ﴿نَبشُرك﴾ بالتخفيف: حمزة ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يسمّ أحد بيحيى قبله. وهذا دليلٌ على أنه في موضع الحال جديرٌ بالأثرة. وقيل: مثلاً وشبيهاً، ولم يكن له مثل في أنّه لم يعص، ولم يهمّ بمعصية قطّ، وأنّه ولد بين شيخ وعجوز، وأنّه كان حصوراً.

٨ ـ فلمّا بشّرته الملائكة به ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾: كيف ﴿يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ وليس هذا باستبعاد، بل هو استكشاف أنّه بأيّ طريق يكون؟ أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال، أم يحوّلان شابّين؟ ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي: بلغت عتيّاً ـ وهو اليبس، والجساوة في المفاصل والعظام، كالعود اليابس ـ من أجل الكبر، والطعن في السنّ العالية. ﴿عتيّاً﴾ و﴿صِلِيًّا﴾

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾

[مريم: ٧٠] و﴿جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] و﴿بُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] بكسر الأوائل: حمزة، وعليّ، وحفص إلا في ﴿بُكياً﴾.

٩ ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ الكاف رفع، أي: الأمر ﴿كَذلك﴾. تصديق له. ثمّ ابتدأ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾. أو: نصب بقال. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى مبهم يفسّره ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: خلق يحيى من كبيرين سهل ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ أوجدتك من قبل يحيى. (خلقناك): حمزة، وعليّ ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ لأنّ المعدوم ليس بشيء.

١٠ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ علامة أعرف بها حبل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿تكلّم﴾ أي: حال كونك سويّ الأعضاء واللسان. يعني: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح ما بك خرس، ولا بكَم. ودلّ ذكر الليالي هنا، والأيّام في آل عمران، على أنّ المنع من الكلام استمرّ به ثلاثة أيّام ولياليهنّ، إذ ذكر الأيّام يتناول ما بإزائها من الليالي. وكذا ذكر الليالي يتناول ما بإزائها من الأيّام عرفاً.

١١ ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ من موضع صلاته. وكانوا ينتظرونه، ولم يقدر أن يتكلّم ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أشار بأصبعه ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ صلوا، و«أنْ» هي المفسّرة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ صلاة الفجر، والعصر.

١٢ ـ ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ أي: وهبنا له يحيى، وقلنا له بعد ولادته وأوانَ الخطاب: ﴿يا يحيى﴾ ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ حال، أي: بجدّ، واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة. وهو فهم التوراة، والفقه في الدين ﴿صَبِيًّا﴾ حال. قيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبيّ، فقال: ما للّعب خُلقنا.

وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

١٣ - ﴿وَحَنَانًا﴾ شفقة، ورحمة لأبويه وغيرهما. عطفاً على ﴿الحكم﴾ ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: طهارة وصلاحاً، فلم يعمل بذنب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مسلماً، مطيعاً.

١٤ - ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ بارّاً بهما، لا يعصيهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبّراً ﴿عَصِيًّا﴾ عاصياً لربّه.

١٥ - ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ أمان من الله له ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من فتاني القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من الفزع الأكبر. قال ابن عيينة: إنّها أوحش المواطن.

١٦ - ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾، أي: اقرأ عليهم في القرآن قصّة مريم ليقفوا عليها، ويعلموا ما جرى عليها ﴿إِذِ﴾ بدل من ﴿مريم﴾ بدل اشتمال؛ إذ الأحيانُ مشتملةٌ على ما فيها. وفيه: أنّ المقصودَ بذكر مريم ذكر وقتها هذا؛ لوقوع هذه القصّة العجيبة فيه ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: اعتزلت ﴿مَكَانًا﴾ ظرف ﴿شَرْقِيًّا﴾ أي: تخلّت للعبادة في مكان مما يلي شرقيّ بيت المقدس، أو: من دارها معتزلة عن الناس. وقيل: قعدت في مشرقه للاغتسال من الحيض.

١٧ - ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ جعلت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها لتغتسل وراءه ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل - عليه السلام - والإضافة للتشريف. وإنّما سُمّي روحاً لأنّ الدين يحيا به، وبوحيه ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا﴾ أي: فتمثّل لها جبريل في صورة آدميّ شابّ، أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، ﴿سَوِيًّا﴾ مستوي الخلق. وإنّما مثّل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه. ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ ، ولم تقدر على استماع كلامه.

قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

١٨ ـ ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كان يرجى منك أن تتّقي الله، فإنّي عائذةٌ به منك.

١٩ ـ ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أمّنها ممّا خافت، وأخبر أنّه ليس بآدميّ، بل هو رسول من استعاذت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله تعالى. أو: لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع. (ليهب لك) أي: الله: أبو عمرو، ونافع ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو: نامياً على الخير، والبركة.

٢٠ ـ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ ابن ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ زوج بالنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة تبغي الرجال، أي: تطلب الشهوة من أيّ رجل كان. ولا يكون الولد عادة إلاّ من أحد هذين. والبغي: فعول عند المبرّد: «بغوي» فقلبت[1]، وأدغمت، وكسرت الغين إتباعاً، ولذا لم تلحق تاء التأنيث، كما لم تلحق في: امرأة صبور، وشكور. وعند غيره هي فعيل، ولم تلحقها الهاء؛ لأنها بمعنى: مفعولة. وإن كانت بمعنى فاعلة، فهو قد يشبّه به مثل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦].

٢١ ـ ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿كَذَٰلِكِ﴾ الأمر كما قلت: لم يمسسك رجل نكاحاً، أو: سفاحاً ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إعطاء الولد بلا أب عليّ سهل ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ تعليل معلّله محذوف، أي: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ فعلنا ذلك. أو: هو معطوف على تعليل مضمر، أي: لنبيّن به قدرتنا ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي: عبرة، وبرهاناً على قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ لمن آمن به ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدّراً، مسطوراً في اللوح.

(١) أي: الواو ياء.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ

٢٢ ـ فلمّا اطمأنت إلى قوله، دنا منها، فنفخ في جيب درعها، فوصلت النفخة إلى بطنها ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾، أي: الموهوب، وكان سنّها: ثلاث عشرة سنة، أو: عشراً، أو: عشرين ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ اعتزلت وهو في بطنها. والجارّ والمجرور في موضع الحال. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت مدّة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته. وقيل: ستّة أشهر، وقيل: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلاّ عيسى. وقيل: حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وذلك لأنّها لمّا أحسّت بالحمل هربت من قومها، مخافة اللائمة.

٢٣ ـ ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ جاء بها، وقيل: ألجأها. وهو منقول من جاء، إلاّ أن استعماله قد تغيّر بعد النقل إلى معنى الإلجاء. ألَا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أصلها. وكانت يابسة. وكان الوقت شتاء. وتعريفها مشعر بأنّها كانت نخلة معروفة. وجاز أن يكون التعريف للجنس، أي: جذع هذه الشجرة، كأنّه تعالى أرشدها إلى النخلة ليطعمها منه الرطب؛ لأنّه خُرْسَةُ النفساء، أي: طعامها. ثمّ ﴿قَالَتْ﴾ جزعاً ممّا أصابها ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ اليوم. مدنيّ، وكوفيّ ـ غير أبي بكر ـ وغيرهم: بالضمّ. يقال: مات يموت، ومات يمات ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر. بفتح النون: حمزة، وحفص. وبالكسر: غيرهما. ومعناهما واحد، وهو الشيء الذي حقّه أن يطرح، وينسى لحقارته.

٢٤ ـ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾[1] أي: الذي تحتها. فـ«مَنْ» فاعل، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ لأنّه كان بمكان منخفض عنها. أو: عيسى ـ عليه السلام ـ لأنّه خاطبها من تحت ذيلها. ﴿مِن تحتها﴾ مدنيّ وكوفيّ، سوى أبي بكر، والفاعل

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿مَنْ﴾. وهي قراءة: عاصم، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وزر، ومجاهد، والجحدري، والحسن، وابن عباس، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/٣٩).

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾

مضمر، وهو عيسى عليه السلام، أو جبريل عليه السلام، والهاء في ﴿تحتها﴾ للنخلة. ولشدّة ما لَقِيَتْ. سُلِّيَتْ بقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ لا تهتمي بالوحدة، وعدم الطعام والشراب، ومقالة الناس. و﴿أن﴾ بمعنى: أي ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ بقربك، أو: تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى، وإن أمرته أن يقف وقف ﴿سَرِيّٗا﴾ نهراً صغيراً. عند الجمهور. وسُئل النبيّ ﷺ عن السريّ فقال: «هو الجدول»[1]. وعن الحسن: سيّداً كريماً، يعني: عيسى ـ عليه السلام ـ ورُوي أنّ خالد بن صفوان قال له: إنّ العرب تسمّي الجدول سريّاً، فقال الحسن: صدقت. ورجع إلى قوله.

٢٥ ـ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضرب عيسى، أو جبريل ـ عليهما السلام ـ بعقبه الأرض، فظهرت عين ماء عذب، فجرى النهر اليابس، فاخضرّت النخلة، وأثمرت، وأينعت ثمرتها، فقيل لها: ﴿وَهُزِّيٓ﴾ حرّكي ﴿إِلَيۡكِ﴾ إلى نفسك ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ قال أبو عليّ: الباء زائدة، أي: هزّي جذع النخلة ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ﴾ بإدغام التاء الأولى في الثانية: مكيّ، ومدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وعليّ ، وأبو بكر. والأصل: «تتساقط» بإظهار التاءين. و﴿تساقط﴾ بفتح التاء والقاف، وطرح التاء الثانية، وتخفيف السين حمزة. و﴿يسّاقط﴾ بفتح الياء والقاف وتشديد السين: يعقوب، وسهل، وحمّاد ونصير. و﴿تُساقط﴾: حفص، من المفاعلة. وتُسْقِطْ ويُسْقِطْ وتَسْقُطْ ويَسْقُطْ، التاء للنخلة، والياء للجذع فهي تسع قراءات ﴿رُطَبٗا﴾ تمييز، أو: مفعول به على حسب القراءة ﴿جَنِيّٗا﴾ طريّاً. وقالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض من العسل.

٢٦ ـ ﴿فَكُلِي﴾ من الجنيّ ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من السريّ ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ بالولد الرضيّ. و﴿عيناً﴾ تمييز، أي: طيبي نفساً بعيسى، وارفضي عنك ما أحزنك

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/ ٢٤٤).

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَإِمَّا﴾ أصله: إن ما، فضمّت إن الشرطية إلى ما، وأدغمت فيها ﴿تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك صمتاً، وإمساكاً عن الكلام. كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: صياماً حقيقة، وكان صومهم فيه الصمت، فكان التزامهُ التزامَه. وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت، فصار ذلك منسوخاً فينا، وإنّما أمرت أن تنذر السكوت؛ لأنّ عيسى ـ عليه السلام ـ يكفيها الكلام بما يبرّىء به ساحتها، ولئلا تجادل السفَهاء. وفيه أنّ السكوتَ عن السفيه واجبٌ. وما قُدِعَ[1] سفيه بمثل الإعراض، ولا أطلِق عنانه بمثل العِراض. وإنما أخبرتهم بأنّها نذرت الصوم بالإشارة. وقد تسمّى الإشارة كلاماً وقولاً. ألا ترى إلى قول الشاعر في وصف القبور:

وتكلّمـــت عـــن أوجـــه تبلى ... ...

وقيل: كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام. أو: سوّغ لها هذا القدر بالنطق ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ آدمياً.

٢٧ ـ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ بعيسى ﴿قَوْمَهَا﴾ بعد ما طهرت من نفاسها ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حال منها، أي: أقبلت نحوهم حاملة إيّاه، فلمّا رأوه معها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ بديعاً عجيباً. والفري: القطع، كأنّه يقطع العادة.

٢٨ ـ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وكان أخاها من أبيها، ومن أفضل بني إسرائيل. أو: هو أخو موسى ـ عليهما السلام ـ. وكانت من أعقابه، وبينهما ألف سنة. وهذا كما يقال: يا أخا همدان! أي: يا واحداً منهم! أو: رجل صالح، أو طالح في زمانها، شبّهوها به في الصلاح، أو: شتموها به ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ زانياً ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنّة ﴿بَغِيًّا﴾ زانية.

(١) «قدع»: كُفَّ ومُنِع.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

٢٩ ـ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى أن يجيبهم، وذلك أنّ عيسى ـ عليه السلام ـ قال لها: لا تحزني، وأحيلي بالجواب عليّ. وقيل: أمرها جبريل بذلك. ولمّا أشارت إليه غضبوا، وتعجّبوا، و﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ﴾ حدث، ووجد ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ المعهود ﴿صَبِيًّا﴾ حال.

٣٠ ـ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ولمّا أسكتت بأمر الله لسانها الناطق، أنطق الله لها اللسان الساكت حتّى اعترف بالعبوديّة، وهو ابن أربعين ليلة، أو: ابن يوم. رُوي أنّه أشار بسبابته، وقال بصوت رفيع: ﴿إنّي عبد الله﴾. وفيه ردّ لقول النصارى ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ رُوي عن الحسن: أنَّه كان في المهد نبيّاً، وكلامه معجزته. وقيل: معناه: أنّ ذلك سبق في قضائه، أو: جعل الآتي لا محالة كأنّه وجد.

٣١ ـ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ نفّاعاً حيث كنت، أو: مُعلّماً للخير ﴿وَأَوْصَانِي﴾ وأمرني ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ إن ملكت مالاً. وقيل: صدقة الفطر. أو: تطهير البدن. ويحتمل: وأوصاني بأن آمركم ﴿بالصلاة والزكاة﴾ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ نصب على الظرف، أي: مدّة حياتي.

٣٢ ـ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ عطفاً على ﴿مباركاً﴾ أي: بارّاً بها، أكرمها، وأعظّمها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبّراً ﴿شَقِيًّا﴾ عاقّاً.

٣٣ ـ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ «يوم» ظرف. والعامل فيه الخبر، وهو: ﴿عليّ﴾ ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: ذلك السلام الموجّه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجّه إليّ؛ إن كان حرف التعريف للعهد. وإن كان للجنس، فالمعنى: وجنس السلام ﴿عليّ﴾. وفيه تعريضٌ باللعنة على أعداء مريم وابنها؛ لأنّه إذا قال: وجنس السلام عليّ فقد عرّض بأن ضدّه عليكم، إذ المقام مقام مناكرة وعناد، فكان مَئِنّةً لمثل هذا التعريض.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٣٦ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾

٣٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿عِيسَى﴾ خبره ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ نعته، أو: خبر ثان، أي: ﴿ذلك﴾ الذي قال: إني عبد الله وكذا وكذا ﴿عيسى ابن مريم﴾ لا كما قالت النصارى: إنه إله، أو: ابن الله! ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ كلمةُ الله. فالقول: الكلمة، والحقّ: الله. وقيل له: ﴿كلمة الله﴾ لأنّه ولد بقوله: كن، بلا واسطة أب. وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر. أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: بدلٌ. ونصبه: شاميّ، وعاصم على المدح ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ يشكّون، من المرية: الشكّ. أو: يختلفون من المراء، فقالت اليهود: ساحر كذاب. وقالت النصارى: ابن الله، وثالث ثلاثة.

٣٥ ـ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ما ينبغي له ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖ﴾ جيء بمن لتأكيد النفي ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ نزه ذاته عن اتخاذ الولد ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونَ﴾[1] بالنصب: شاميّ، أي: كما قال لعيسى كن، فكان من غير أب. ومن كان متّصفاً بهذا كان منزّهاً أن يشبه الحيوان الوالد.

٣٦ ـ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ بالكسر: شاميّ، وكوفيّ على الابتداء. وهو من كلام عيسى، يعني: كما أنا عبده فأنتم عبيده، وعليّ وعليكم أن نعبده. ومن فتح عطف على ﴿بالصلاة﴾ أي: ﴿وأوصاني بالصلاة وبالزكاة﴾ وبأنّ ﴿الله ربّي وربّكم﴾ أو: علّقه بما بعده، أي: ولأنّ ﴿الله ربّي وربكم فاعبدوه﴾ ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكرت ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

٣٧ ـ ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الحزب: الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها. وهم ثلاث فرق: نسطوريّة، ويعقوبيّة، وملكانيّة ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ من بين أصحاب عيسى، أو: من بين قومه، أو: من بين الناس. وذلك: أنّ النصارى اختلفوا في عيسى حين رفع، ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى قول ثلاثة، كانوا عندهم

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿فيكونَ﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾

أعلم أهل زمانهم، وهم: يعقوب، ونسطور، وملكاء[١]. فقال يعقوب: هو الله هبط إلى الأرض، ثمّ صعد إلى السماء. فقال نسطور: كان ابن الله، أظهره ما شاء، ثمّ رفعه إليه. وقال الثالث: كذبوا، كان عبداً مخلوقاً نبيّاً، فتبع كلَّ واحد منهم قومٌ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأحزاب، إذ الواحد منهم على الحقّ ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة، أو: من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة، والأنبياء، وجوارحهم بالكفر. أو: من مكان الشهادة، أو: وقتها. أو: المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه. وجعله يوماً عظيماً لفظاعة ما شهدوا به في عيسى.

٣٨ ـ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ الجمهور على أنّ لفظه أمر، ومعناه التعجّب، والله تعالى لا يوصف بالتعجّب. ولكن المراد أنّ إسماعهم وإبصارهم جديرٌ بأن يتعجّب منهما بعد ما كانوا صمّاً عمياً في الدنيا. قال قتادة: إن عموا وصمّوا عن الحقّ في الدنيا، فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم! و﴿بِهِمْ﴾ مرفوع المحلّ على الفاعلية، كأكرم بزيد، فمعناه: كرم زيد جدّاً ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أقيم الظاهر مقام الضمير أي: لكنهم ﴿اليوم﴾ في الدنيا بظلمهم أنفسهم، حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم، ووضعوا العبادة في غير موضعها ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر، وهو اعتقادهم عيسى إلهاً معبوداً مع ظهور آثار الحدث فيه ـ إشعاراً بأن لا ظلم أشدّ من ظلمهم.

٣٩ ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ خوّفهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه يقع فيه الندم على ما فات. وفي الحديث: «إذا رأوا منازلهم في الجنّة أن لو آمنوا»[٢] ﴿إِذْ﴾ بدل من يوم الحسرة، أو: ظرف للحسرة، وهو مصدر ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب، وتصادر الفريقان إلى الجنّة والنار ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ هنا عن الاهتمام

(١) كذا في الأصل المخطوط والفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٦٢) وفي الكشاف والقرطبي «ملكان».

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٥٥).

وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾

لذلك المقام ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون به. و﴿هم﴾ و﴿هم﴾ حالان، أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين، غير مؤمنين.

٤٠ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نتفرّد بالملك والبقاء، عند تعميم الهلك، والفناء. وذكر ﴿من﴾ لتغليب العقلاء ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم. وفتح الياء: يعقوب، أي: يردّون فيجازون جزاء وفاقاً.

٤١ ـ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لقومك ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ قصّته مع أبيه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ بغير همز. وهمزه نافع. قيل: الصادق المستقيم في الأفعال، والصدّيق: المستقيم في الأحوال، فالصدّيق من أبنية المبالغة، ونظيره الضحّيك.

والمراد: فرط صدقه، وكثرة ما صدّق به من غيوب الله، وآياته، وكتبه، ورسله، أي: كان مصدّقاً لجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبياً في نفسه. وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين إبراهيم وبين ما هو بدل منه، وهو:

٤٢ ـ ﴿إِذْ قَالَ﴾ وجاز أن يتعلق ﴿إذ﴾ بكان، أو: بـ﴿صديقاً نبيّاً﴾ أي: كان جامعاً لخصائص الصدّيقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات. والمراد بذكر الرسول إيّاه، وقصّته في الكتاب: أن يتلو ذلك على الناس، ويبلّغه إياهم، كقوله ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩] وإلاّ فالله عزّ وعلا هو ذاكره، ومورده في تنزيله ﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء. وفتحها: ابن عامر. والتاء عوض من ياء الإضافة. ولا يقال: يا أبتي؛ لئلا يجمع بين العوض والمعوّض منه ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ المفعول فيهما منسيّ غير منويّ، ويجوز أن يقدر، أي: لا يسمع شيئاً، ولا يبصر شيئاً ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ يحتمل أن يكون ﴿شيئاً﴾ في موضع المصدر، أي: ﴿شيئاً﴾ من الغنى وأن يكون مفعولاً به من قولك: أغن عنّي وجهك، أي: بعّد.

يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

٤٣ ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الوحي، أو: معرفة الربّ ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ «ما» في ﴿ما لا يسمع﴾ و﴿ما لم يأتك﴾ يجوز أن تكون موصولة، أو: موصوفة ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ﴾ أرشدك ﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مستقيماً.

٤٤ ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تطعه فيما سوّل من عبادة الصنم. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ عاصياً.

٤٥ ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ قيل: أعلم ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ قريناً في النار تليه ويليك، فانظر في نصيحته أباه كيف راعى المجاملة، والرفق، والخلق الحسن كما أمر. ففي الحديث: «أوحى اللهُ إلى إبراهيم: إنّك خليلي. فحَسِّنْ خلقك ولو مع الكفّار، تدخل مداخل الأبرار»[1]. فطلب منه أوّلاً العلّة في خطابه طلب منبّه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأنّ من يعبد أشرف الخلق منزلة ـ وهم الأنبياء ـ كان محكوماً عليه[2] بالغيّ المبين، فكيف بمن يعبد شجراً، أو حجراً لا يسمع ذكر عابده، ولا يرى هيئات عبادته، ولا يدفع عنه بلاء، ولا يقضي له حاجة؟! ثم ثنّى بدعوته إلى الحقّ مترفّقاً به، متلطّفاً، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنّه قال: إنّ معي شيئاً من العلم ليس معك، وذا علم الدلالة على الطريق السويّ، فهب أنّي وإيّاك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتّبعني أنجك من أن تضل وتتيه. ثمّ ثلّث بنهيه عمّا كان عليه بأنّ الشيطان الذي عصى الرحمن الذي جميع النعم منه، أوقعك في عبادة الصنم، وزيّنها لك، فأنت عابده في الحقيقة. ثمّ ربّع بتخويفه سوء العاقبة، وما يجره ما هو فيه [من التبعة

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٠).
(٢) مستدرك من المطبوع.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

والوبال][١] مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به، وأنّ العذاب لاصق به. بل قال: ﴿أخاف أن يمسّك عذاب﴾ بالتنكير المشعر بالتقليل، كأنه قال: إنّي أخاف أن يصيبك نَفَيان ـ قليلٌ ـ من عذاب الرحمن. وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه، أكبر من العذاب، كما أنّ رضوان الله أكبر من الصواب في نفسه. وصدّر كلّ نصيحة بقوله: ﴿يا أبت﴾ توسلاً إليه، واستعطافاً، وإشعاراً بوجوب احترام الأب، وإن كان كافراً.

٤٦ ـ فثمّ ﴿قَالَ﴾ آزر توبيخاً: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أترغب عن عبادتها؟! فناداه باسمه، ولم يقابل ﴿يا أبت﴾ بـ«يابنيّ». وقدّم الخبر على المبتدأ؛ لأنّه كان أهمّ عنده ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن شتم الأصنام ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالرِّجام لأقتلنّك بالحجارة، أو: لأضربنّك بها حتى تتباعد، أو: لأشتمنّك ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ عطف على محذوف، يدلّ عليه: ﴿لأرجمنك﴾ تقديره: فاحذرني ﴿واهجرني﴾ ﴿مَلِيًّا﴾ ظرف، أي: زماناً طويلاً. من: الملاوة.

٤٧ ـ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع، ومتاركة، أو: تقريب، وملاطفة. ولذا وعده بالاستغفار بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أي: سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة، بأن يهديك للإسلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ ملطفاً بعموم النعم، أو: رحيماً، أو: مكرّماً. والحفاوة: الرأفة، والكرامة.

٤٨ ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أراد بالاعتزال: المهاجرة من أرض بابل إلى الشام. ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من أصنامكم ﴿وَأَدْعُوا۟﴾ وأعبد ﴿رَبِّى﴾. ثمّ قال تواضعاً، وهضماً للنفس، ومعرّضاً بشقاوتهم بدعاء آلهتم: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي: كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

---

٤٩ ـ ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فلما اعتزل الكفّار، ومعبودهم ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة ليستأنس بهما ﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكل واحد منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، أي: لمّا ترك الكفّار الفجّار لوجهه؛ عوّضه أولاداً مؤمنين، أنبياء.

٥٠ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي: المال، والولد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناء حسناً، وهو: الصلاة على إبراهيم، وآل إبراهيم في الصلوات. وعبّر باللسان عمّا يوجد باللسان، كما عبّر باليد عمّا يطلق باليد، وهي: العطيّة ﴿عَلِيًّا﴾ رفيعاً، مشهوراً.

٥١ ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ كوفيّ، غير المفضل، أي: أخلصه الله، واصطفاه و﴿مخلِصاً﴾ غيرهم، أي: أخلص هو العبادة لله تعالى، فهو مخلص بما له من السعادة بأصل الفطرة، مخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمّة ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فالرسول الذي معه كتاب من الأنبياء. والنبيّ: الذي ينبىء عن الله ـ عز وجل ـ وإن لم يكن معه كتاب كيوشع.

٥٢ ـ ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ دعوناه، وكلّمناه ليلة الجمعة ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ هو جبل بين مصر ومدين ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من اليمين، أي: من ناحيته اليمنى. والجمهور على أنّ المراد: أيمن موسى ـ عليه السلام ـ لأنّ الجبل لا يمين له. والمعنى: أنّه حين أقبل من مدين يريد مصر، نودي من الشجرة، وكانت في جانب الجبل على يمين موسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريب منزلة ومكانة، دون منزل ومكان ﴿نَجِيًّا﴾ حال، أي: مناجياً، كنديم بمعنى: منادم.

٥٣ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا، وترؤفنا عليه ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول ﴿هَارُونَ﴾ بدل منه ﴿نَبِيًّا﴾ حال، أي: وهبنا له نبوّة أخيه، وإلاّ فهارون كان أكبر سناً منه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

٥٤ ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم في الأصح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ وافيه، وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يعود إليه، فانتظره سنة في مكانه حتّى عاد. وناهيك أنّه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى. وقيل: لم يعد ربَّه موعداً إلاّ أنجزه. وإنّما خصّه بصدق الوعد ـ وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء ـ تشريفاً له، ولأنّه المشهور من خصاله ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى جرهم ﴿نَّبِيًّا﴾ مخبراً منذراً.

٥٥ ـ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ أمّته؛ لأنَّ النبيَّ أبو أمّته، وأهل بيته. وفيه دليلٌ على أنّه لم يداهنْ غيره ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ يحتمل أنّه إنّما خصّت هاتان العبادتان؛ لأنهما أمّا العبادات البدنية، والماليّة ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ قرىء: (مرضوّا) على الأصل.

٥٦ ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ هو أخنوخ، أوّل مرسل بعد آدم ـ عليه السلام ـ وأوّل من خطّ بالقلم، وخاط اللباس، ونظر في علم النجوم والحساب، واتخذ الموازين، والمكاييل، والأسلحة، فقاتل بني قابيل. وقولهم: سُمّي به لكثرة دراسته كتاب الله، لا يصح؛ لأنه لو كان «إفعيلاً» من الدرس، لم يكن فيه إلا سبب واحد، وهو العلميّة، وكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف دليلُ العجمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

٥٧ ـ ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرف النبوّة والزلفى عند الله. وقيل: معناه: رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة. وقد رآه النبيّ ﷺ ليلة المعراج فيها. وعن الحسن: إلى الجنّة، لا شيء أعلى من الجنّة. وذلك: أنّه حبّب لكثرة عبادته إلى الملائكة، فقال لملك الموت: أذقني الموت يهنْ عليّ، ففعل ذلك بإذن الله فحيي. وقال: أدخلني النار أزددْ رهبةً ففعل. ثمّ قال: أدخلني الجنّة أزددْ رغبةً، ففعل وقال له: أخرج، فقال: قد ذقتُ الموت، ووردت النار، فما أنا بخارج من الجنّة، فقال الله عز وجل: بإذني فعل، وبإذني دخل، فَدَعْهُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾

٥٨ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ «من» للبيان؛ لأن جميع الأنبياء مُنعم عليهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ «من» للتبعيض. وكان إدريس من ذريّة آدم لقربه منه؛ لأنّه جدّ أبي نوح ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ومن ذريّة إسرائيل، أي: يعقوب وهم: موسى، وهارون، وزكريّا، ويحيى، وعيسى؛ لأنّ مريم من ذريته ﴿وَمِمَّنْ﴾ يحتمل العطف على ﴿من﴾ الأولى، والثانية ﴿هَدَيْنَا﴾ لمحاسن الإسلام ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ من الأنام، أو: لشرح الشريعة، وكشف الحقيقة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: إذا تليت عليهم كتب الله المنزلة. وهو كلام مستأنف إن جعلت ﴿الذين﴾ خبراً لـ﴿أولئك﴾، وإن جعلته صفة له كان خبراً. ﴿يتلى﴾ بالياء: قتيبة؛ لوجود الفاصل، مع أنّ التأنيث غير حقيقي ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ سقطوا على وجوههم ساجدين، رغبة ﴿وَبُكِيًّا ۩﴾ باكين رهبة. جمع باك، كسجود، وقعود، في جمع: ساجد، وقاعد. في الحديث: «اتلوا القرآن، وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[1]. وعن صالح المريّ: قرأتُ القرآن على رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا صالح هذه القراءة، فأين البكاء؟ ويقول في سجدة التلاوة: سبحان ربي الأعلى، ثلاثاً.

٥٩ ـ ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فجاء من بعد هؤلاء المفضّلين ﴿خَلْفٌ﴾ أولاد سوء. وبفتح اللام: لعقب الخير. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم اليهود ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوا الصلاة المفروضة ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ملاذ النفوس. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس

(١) رواه أحمد (١/ ١٧٥) وأبو داود (١٤٧٠) وابن ماجه (١٣٣٧) والدارمي (١/ ٣٤٩).

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا

المشهور. وعن قتادة: هو في هذه الأمة ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ جزاء غيّ. وكلّ شرّ عند العرب: غيّ، وكلّ خير: رشاد. وعن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ: هو واد في جهنّم أعدّ للمصرّ على الزنى، وشرب الخمر، وأكل الربا، والعاقّ، وشاهد الزور.

٦٠ ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ رجع عن كفره ﴿وَءَامَنَ﴾ بشرطه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بعد إيمانه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[١] بضم الياء وفتح الخاء: مكّي، وبصريّ، وأبو بكر ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ولا يمنعونه، بل يضاعف لهم. أو: ولا يظلمون شيئاً من الظلم.

٦١ ـ ﴿جَنَّٰتِ﴾ بدل من ﴿الجنة﴾ لأنّ الجنّة تشتمل على ﴿جنّات عدن﴾ لأنها جنس، أو: نصب على المدح ﴿عَدْنٍ﴾ معرفة؛ لأنه علم لمعنى العدن، وهو: الإقامة. أو: علم لأرض الجنة لكونها مكان إقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ أي: ﴿عباده﴾ التائبين المؤمنين؛ الذين يعملون الصالحات؛ كما سبق ذكرهم، ولأنّه أضافهم إليه، وهو للاختصاص، وهؤلاء أهل الاختصاص ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وعدها وهي غائبة عنهم، غير حاضرة. أو: غائبون عنها، لا يشاهدونها ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، أو: ضمير الرحمن ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: موعوده، وهو: الجنّة ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: هم يأتونها.

٦٢ ـ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿لَغْوًا﴾ فحشاً، أو كذباً، أو مالا طائلَ تحته من الكلام، وهو: المطروح منه. وفيه تنبيهٌ على وجوب تجنب اللغو واتّقائه، حيث نزّه الله عنه داره التي لا تكليفَ فيها ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي: لكن يسمعون سلاماً من الملائكة، أو: من بعضهم على بعض. أو: لا يسمعون فيها إلاّ قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، فهو استثناء منقطع عند الجمهور. وقيل:

(١) في الأصل المخطوط: ﴿يُدْخَلون﴾.

وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

معنى السلام هو: الدعاء بالسلامة. ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة، كان ظاهره من باب اللغو: وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار ثَمّ؛ لأنّهم في النور أبداً، وإنّما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب، ومقدار الليل بإرخائها. والرزق بالبكرة والعشيّ أفضل العيش عند العرب، فوصف الله جنته بذلك. وقيل: أراد: دوام الرزق، كما تقول: أنا عند فلان بكرة وعشيّاً، تريد: الدوام.

٦٣ ـ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نجعلها ميراث أعمالهم، يعني: ثمرتها وعاقبتها. وقيل: يرثون المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا؛ لأنّ الكفر موت حكماً ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ عن الشرك.

٦٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(١) والتنزّل على معنيين: معنى: النزول على مهل، ومعنى: النزول على الإطلاق، والأوّل أليق هنا، يعني: أنّ نزولنا في الأحايين وقتاً غبّ وقت ليس إلاّ بأمر الله ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: له ما قدّامنا، وما خلفنا من الأماكن، وما نحن فيها، فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلاّ بأمر الملك ومشيئته، وهو الحافظ العالم بكلّ حركة وسكون، وما يحدث من الأحوال، لا تجوز عليه الغفلة والنسيان، فأنّى لنا أن نتقلّب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه؟!

٦٥ ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ﴿ربُّك﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿ربّ السموات والأرض﴾ ثمّ قال لرسوله: لما عرفت أنّه

(١) رواه البخاري (٧٤٥٥).

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾

متصف بهذه الصفات ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ فاثبت على عبادته، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصطبر على مكافأة الحسود لعبادة المعبود، واصطبر على المشاقّ لأجل عبادة الخلاّق، أي: لتتمكن من الإتيان بها ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ شبيهاً، ومثلاً، أو: هل يسمّى أحد باسم الله غيره؟ لأنّه مخصوص بالمعبود بالحقّ، أي: إذا صحّ أن لا معبود يوجّه إليه العباد العبادة إلاّ هو وحده؛ لم يكن بدّ من عبادته، والاصطبار على مشاقّها.

٦٦ ـ تهافت أبيّ بن خلف عظماً، وقال: أنبعث بعد ما صرنا كذا؟ فنزل: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾[1] والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه الكلام، وهو أبعث، أي: إذ ما متُّ أبعث. وانتصابه بـ﴿أُخرج﴾ ممتنع؛ لأنّ ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها، فلا تقول: اليوم لزيد قائم. ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، وتؤكّد مضمون الجملة، فلمّا جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد، واضمحلّ معنى الحال. و﴿ما﴾ في ﴿إذا ما﴾ للتوكيد أيضاً، فكأنّه قال: أحقاً أنّا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد. وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار مِنْ قِبَلِ: أنّ ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم.

٦٧ ـ ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ خفيف: شاميّ، نافع، وعاصم، من: الذكر. والسائر: بتشديد الذال والكاف، وأصله ﴿يتذكّر﴾ كقراءة أبيّ، فأدغمت التاء في الذال، أي: أولا يتدبر؟ والواو عطفت ﴿لا يذكر﴾ على ﴿يقول﴾ ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، يعني: أيقول ذلك ولا يتذكّر حال النشأة الأولى حتّى لا ينكر النشأة الأخرى؟ فإنّ تلك أدلّ على قدرة الخالق، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، وأما الثانية:

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٠٤).

﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾

فليس فيها إلاّ تأليف الأجزاء الموجودة، وردّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل الحالة التي هو فيها، وهي حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ هو دليل على ما بيّنا، وعلى أنّ المعدوم ليس بشيء، خلافاً للمعتزلة.

٦٨ ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي: الكفّار المنكرين للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الواو للعطف. وبمعنى مع أوقع، أي: يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، يقرن كلّ كافر مع شيطان في سلسلة. وفي إقسام الله باسمه مضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ حال، جمع جاث، أي: بارك على الركب. ووزنه فعول؛ لأنّ أصله جثوو، كسجود وساجد، أي: يعتلون من المحشر إلى شاطىء جهنّم عتلاً على حالهم؛ التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم.

٦٩ ـ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ طائفة شاعت ـ أي: تبعت ـ غاوياً من الغواة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ جراءةً، أو فجوراً، أي: لنخرجنّ من كلّ طائفة من طوائف الغيّ أعتاهم فأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب، نقدّم أولاهم بالعذاب فأولاهم. وقيل: المراد بأشدّهم عتياً: الرؤساء؛ لتضاعف جرمهم؛ بكونهم ضلّالاً ومضلّين. قال سيبويه: ﴿أيهم﴾ مبنيّ على الضمّ لسقوط صدر الجملة التي هي صلته، وهو «هو» من ﴿أشدّ﴾ حتّى لو جيء به لأعرب بالنصب. وقيل: أيّهم هو أشدّ، وهذا لأنّ الصلة توضح الموصول وتبيّنه، كما أنّ المضاف إليه يوضح المضاف، ويخصّصه. فكما أنّ حذف المضاف إليه في ﴿من قبل﴾ يوجب بناء المضاف، وجب أن يكون حذف الصلة، أو شيء منها موجباً للبناء. وموضعها نصب بـ«ننزع». وقال الخليل: هي معربة. وهي مبتدأ، و﴿أشدّ﴾ خبره. وهو رفعٌ على الحكاية، تقديره: ﴿لننزعنّ﴾ الذين يقال فيهم: ﴿أيهم أشدّ على الرحمن عتيّاً﴾. ويجوز أن يكون النزع واقعاً على ﴿من كلّ شيعة﴾ كقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٥٠] أي: لننزعنّ بعض كلّ شيعة، وكأنّ قائلاً قال: من هم؟ فقيل:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾

أيّهم أشدّ عتيّاً. و﴿على﴾ يتعلّق بأفعل، أي: عتوّهم أشدّ على الرحمن.

٧٠ ـ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا﴾ أحقّ بالنار ﴿صِلِيًّا﴾ تمييز، أي: دخولاً. والباء تتعلّق بـ«أولى».

٧١ ـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ داخلها. والمراد: النار. والورود: الدخول عند عليّ وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ. وعليه جمهور أهل السنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨] ولقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩] ولقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم: ٧٢] إذ النجاة إنّما تكون بعد الدخول، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «الورود: الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلاّ دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم»[١]. و«تقول النار للمؤمن: جز يا مؤمن؛ فإنّ نورك أطفأ لهبي»[٢]. وقيل: الورود بمعنى الدخول؛ لكنّه يختصّ بالكفّار؛ لقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (وإن منهم) وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات. وعن عبد الله: الورود: الحضور، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وأجيب عنه بأن المراد: عن عذابها. وعن الحسن وقتادة: الورود: المرور على الصراط؛ لأنّ الصراط ممدود عليها، فيسلم أهل الجنّة، ويتقاذف أهل النار. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار: وهو مسّ الحمّى جسده في الدنيا؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «الحمى حظّ كلّ مؤمن من النار»[٣]. وقال رجل من الصحابة لآخر: أيقنت بالورود؟ قال: نعم. قال: وأيقنت بالصدر؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ وفيم التثاقل؟ ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودهم واجباً

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٢٩).

(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠) والديلمي في الفردوس (٢٣٦٥).

(٣) رواه البزار كما في كشف الأستار (٧٦٥).

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

كائناً محكوماً به. والحتم: مصدر حتم الأمر؛ إذا أوجبه، فسمّي به الموجب، كقولهم: ضرب الأمير.

٧٢ ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى﴾ وعليّ: بالتخفيف ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ عن الشرك، وهم المؤمنون ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فيه دليلٌ على دخول الكلّ؛ لأنّه قال: ﴿ونذر﴾ ولم يقل: وندخل. والمذهب أنّ صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه، ثمّ ينجو لا محالة، وقالت المرجئة الخبيثة: لا يعاقب؛ لأنّ المعصية لا تضرّ مع الإسلام عندهم. وقالت المعتزلة: يخلّد.

٧٣ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهرات الإعجاز أو حججاً وبراهين ـ حال مؤكّدة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] إذ آيات الله لا تكون إلاّ واضحة وحججاً ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: مشركو قريش، وقد رجّلوا شعورهم، وتكلّفوا في زيّهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ للفقراء، ورؤوسهم شعثة، وثيابهم خشنة ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن أم أنتم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ بالفتح ـ وهو موضع القيام. والمراد: المكان، والمسكن. وبالضم: مكيّ، وهو: موضع الإقامة والمنزل ـ ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً يجتمع القوم فيه للمشاورة. ومعنى الآية: أنّ الله تعالى يقول: إذ أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبّر فيها إلى الافتخار بالثروة، والمال، وحسن المنزل والحال. فقال تعالى:

٧٤ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ فـ﴿كم﴾ مفعول أهلكنا، و﴿من﴾ تبيين لإبهامها، أي: كثيراً من القرون أهلكنا، وكلّ أهل عصر قرن لمن بعدهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في محل النصب صفة لكم، ألا ترى أنّك لو تركت: ﴿هم﴾ كان ﴿أحسن﴾ نصباً على الوصفيّة ﴿أَثَٰثًا﴾ هو متاع البيت، أو: ما جدّ من الفرش ﴿وَرِءْيًا﴾ منظراً وهيئة فعيلٌ بمعنى مفعول، من: رأيت. ﴿وريّاً﴾ بغير همز مشدّداً: نافع، وابن عامر، على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثمّ الإدغام. أو: من الريّ؛ الذي هو النعمة.

قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

٧٥ ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ جواب ﴿مَن﴾ لأنّها شرطيّة، وهذا الأمر بمعنى الخبر، أي: من كفر مدّ له الرحمن، يعني: أمهله، وأملى له في العمر ليزداد طغياناً وضلالاً؛ كقوله تعالى: ﴿إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ وإنّما أخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك، وأنّه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل لتُقطع معاذير الضّلال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ هي متّصلة بقوله ﴿خير مقاماً وأحسن نديّاً﴾. وما بينهما اعتراض، أي: لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا، وهو تعذيب المسلمين إيّاهم بالقتل، والأسر ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، وما ينالهم من الخزي، والنكال. فهما بدلان من ﴿ما يوعدون﴾ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلاً ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أعواناً، وأنصاراً، أي: فحينئذ يعلمون أنّ الأمر على عكس ما قدّروه، وأنّهم شرّ مكاناً، وأضعف جنداً، لا خير مقاماً، وأحسن نديّاً، وأنّ المؤمنين على خلاف صفتهم. وجاز أن تتّصل بما يليها. والمعنى: أنّ الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم، لا ينفكّون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين، أو يشاهدوا الساعة. و«حتّى» هي التي يحكي بعدها الجمل. ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها، وهي قوله: ﴿إذ رأوا ما يوعدون﴾ ﴿فسيعلمون﴾.

٧٦ ـ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ معطوف على موضع ﴿فليمدد﴾ لوقوعه موضع الخبر، تقديره: من كان في الضلالة مدّ، أو: يمدّ له الرحمن و﴿يزيد﴾، أي: يزيد في ضلال الضُلّال بخذلانه، ويزيد المهتدين، أي: المؤمنين ﴿هدى﴾ ثباتاً على الاهتداء، أو يقيناً، وبصيرة بتوفيقه ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أعمال الآخرة كلّها، أو: الصلوات الخمس، أو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ ممّا يفتخر به الكفّار ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ مرجعاً وعاقبة وفي التفضيل تهكّم بالكفّار؛ لأنّهم قالوا للمؤمنين:

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ

﴿أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾.

٧٧ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ثَمَّ. وبضم الواو وسكون اللام في أربعة مواضع: هاهنا، وفي الزخرف، ونوح: حمزة، وعليّ، جمع ولد، كأسْد في أَسَد، أو: بمعنى الوَلَد، كالعُرْب في العَرَب. ولمّا كانت رؤية الأشياء طريقاً إلى العلم بها، وصحّة الخبر عنها استعملوا أرأيت في معنى: أخبر. والفاء أفادت التعقيب، كأنّه قال: أخبر أيضاً بقصّة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك. وقوله: ﴿لأوتينّ﴾ جواب قسم مضمر.

٧٨ ـ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ من قولهم: اطّلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه. الهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل محذوفة، أي: انظر في اللوح المحفوظ فرأى مُنْيَتَه؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ موثقاً أن يؤتيه ذلك. أو: العهد: كلمة الشهادة.

وعن الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة. والمشهور أنّها في العاص بن وائل، فقد رُوي أنّ خباب بن الأرتّ صاغ للعاص بن وائل حليّاً، فاقتضاه الأجر، فقال: إنّكم تزعمون أنّكم تبعثون، وأنّ في الجنّة ذهباً وفضّة، فأنا أقضيك ثَمّ، فإنّي أوتي مالاً وولداً حينئذ.

٧٩ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على الخطأ، أي: هو مخطىء فيما يصوره لنفسه، فليرتدع ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: قوله. والمراد: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله، لأنّه كما قال: كتب من غير تأخير. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وهو كقوله[١]:

إذ ما انْتَسَبْنا لم تَلِدْني لئيمة[٢] ... ...

أي: علم وتبيّن بالانتساب أنّي لست بابن لئيمة ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ نزيده ﴿من العذاب﴾ كما يزيد في الافتراء والاجتراء. من: المدد، يقال: مدّه وأمده

(١) هو زائد بن صعصعة.
(٢) صدر بيت، وعجزه: ولم تجدي من أن تقري بها بدا.

مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴿٨٤﴾

بمعنى ﴿مَدًّا﴾ أكّد بالمصدر لغضبه تعالى.

٨٠ ـ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نَزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة. والمعنى: مسمى ما يقول وهو: المال، والولد ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا﴾ حال، أي: بلا مال ولا ولد، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾. [الإنعام: ٩٤]. فلا يجدي عليه تمنّيه، وتألّيه.

٨١ ـ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أي: اتخذ هؤلاء المشركون أصناماً يعبدونها ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا﴾ أي: ليتعززوا بآلهتهم، ويكونون لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب.

٨٢ ـ ﴿كَلَّاۚ﴾ ردع لهم عمّا ظنوا ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ الضمير للآلهة، أي: سيجحدون عبادتهم، وينكرونها، ويقولون: والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون. أو: للمشركين، أي: ينكرون أن يكونوا قد عبدوها، كقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ﴿وَيَكُونُونَ﴾ أي: المعبودون ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المشركين ﴿ضِدًّا﴾ خصماً؛ لأنّ الله تعالى ينطقهم، فيقولون: يارب عذّب هؤلاء الذين عبدونا من دونك. والضدّ يقع على الواحد والجمع. وهو في مقابلة: ﴿لهم عزّاً﴾. والمراد ضدّ العزّ، وهو: الذّل، والهوان، أي: ﴿يكونون عليهم ضداً﴾ لما قصدوه، أي: يكونون عليهم ذلاً، لا لهم عزّاً. وإن رجع الضمير في ﴿سيكفرون﴾ و﴿يكونون﴾ إلى المشركين، فالمعنى: ﴿ويكونون عليهم﴾ أي: أعداءهم ﴿ضدّاً﴾ أي: كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

٨٣ ـ ثم عجّب نبيّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. أي: خلّيناهم وإيّاهم، من: أرسلت البعير: أطلقته. أو: سلّطناهم عليهم بالإغواء ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا﴾ تغريهم على المعاصي إغواء. والأزّ والهزّ أخوان. ومعناهما: التهييج، وشدّة الإزعاج.

٨٤ ـ ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا﴾ أي: إنما نعد لهم

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

أعمالهم للجزاء، أو أنفاسهم للفناء. وقرأها ابن السماك عند المأمون، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد!.

٨٥، ٨٦ ـ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ركباناً على نوق، رحالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين سوق الأنعام؛ لأنّهم كانوا أضلّ من الأنعام ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عطاشاً؛ لأنّ من يرد الماء لا يرده إلاّ لعطش. وحقيقة الورد: المسير إلى الماء، فيسمّى به الواردون. فالوفد: جمع وافد، كركب، وراكب. والورد: جمع وارد. ونصب ﴿يوم﴾ بمضمر، أي: ﴿يوم نحشر﴾ ﴿ونسوق﴾ نفعل بالفريقين ما لايوصف. أو: اذكر يوم نحشرهم.

ذُكِر المتّقون بأنّهم يُجمعون إلى ربّهم؛ الذي غمرهم برحمته، كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم، والكافرون بأنّهم يساقون إلى النار، كأنّهم نعم عطاش يساقون إلى الماء استخفافاً بهم.

٨٧ ـ ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ حال. والواو إن جعل ضميراً فهو للعباد، ودلّ عليه ذكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة. ويجوز أن يكون علامة للجمع، كالتي في: أكلوني البراغيث، والفاعل ﴿من اتخذ﴾ لأنّه في معنى الجمع. ومحلّ ﴿من اتخذ﴾ رفع على البدل من واو ﴿يملكون﴾ أو: على الفاعلية. أو: نصب على تقدير حذف المضاف، أي: ﴿إلاّ﴾ شفاعة ﴿من اتخذ﴾. والمراد: ﴿لا يملكون﴾ أن يُشفع لهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بأن آمن.

في الحديث: «من قال لا إله إلا الله كان له عند الله عهد»[(١)]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنّ النبيّ ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهداً؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/٤٣٧).

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾

كلّ صباح ومساء: اللّهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمّداً عبدك ورسولك، وإنّك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلاّ برحمتك، فاجعل لي عهداً توفّينيه يوم القيامة، إنّك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش. فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كان لهم عند الرحمن عهد؟ فيدخلون الجنّة»[1]. أو: يكون من: عهد الأمير إلى فلان بكذا: إذا أمره به، أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها.

٨٨ ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ أي: النصارى واليهود، ومَن زعم أنّ الملائكة بنات الله.

٨٩ ـ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة. وهو ٢التفات، وأمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم ذلك. الإدّ: العَجَبُ، أو: العظيم المنكر. والإدّة: الشدّة. وأدّني الأمر: أثقلني، وعظم عليّ، أدّاً.

٩٠ ـ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ تقرب. وبالياء: نافع، وعليّ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ وبالنون: بصريّ، وشاميّ، وحمزة، وخلف، وأبو بكر. الانفطار: من: فطره: إذا شقّه. والتفطّر من: فطّره: إذا شقّقه ﴿مِنْهُ﴾ من عظم هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ تنخسف، وتنفصل أجزاؤها ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ وتسقط ﴿هَدًّا﴾ كسراً، أو قطعاً، أو هدماً. والهدّة: صوت الصاعقة من السماء. وهو مصدر، أي: تُهدّ هدّاً من سماع قولهم. أو: مفعول له، أو: حال، أي: مهدودة.

٩١ ـ ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ لأن سمّوا. ومحلّه جر بدل من الهاء في ﴿منه﴾. أو: نصب مفعول له، علّل الخرور بالهدّ، والهدّ بدعاء الولد للرحمن. أو: رفع فاعل هدّاً، أي: هدّها دعاؤهم ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٣/ ٤٤).

وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

٩٢ ـ ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ انْبغى: مطاوع بَغَى: إذ طلب، أي: ما يتأتّى له اتخاذ الولد، وما يَنطلب لو طُلب مثلاً؛ لأنّه محال غير داخل تحت الصحّة. وهذا لأن اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة، وهو منزّه عنهما. وفي اختصاص الرحمن وتكريره كرّاتٍ بيان أنّه الرحمن وحده لا يستحقّ هذا الاسم غيره؛ لأنّ أصول النعم وفروعها منه، فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن.

٩٣ ـ ﴿إِن كُلُّ مَن﴾ نكرة موصوفة صفتها ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وخبر ﴿كلّ﴾ ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ووحّد ﴿آتي﴾ و﴿آتيه﴾ حملاً على لفظ ﴿كلّ﴾ وهو اسم فاعل، من: أتى. وهو مستقبل، أي: يأتيه ﴿عَبْدًا﴾، حال، أي: خاضعاً، ذليلاً، منقاداً. والمعنى: ما ﴿كلّ من في السموات والأرض﴾ من الملائكة والناس إلاّ هو يأتي الله يوم القيامة مقرّاً له بالعبودية. والعبوديّة والبنوّة تتنافيان حتّى لو ملك الأب ابنه يعتق عليه. ونسبة الجميع إليه نسبة العبد إلى المولى، فكيف يكون البعض ولداً والبعض عبداً؟. وقرأ ابن مسعود (آتِ الرحمنَ) على أصله قبل الإضافة.

٩٤ ـ ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: حصرهم بعلمه، وأحاط بهم.

٩٥ ـ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: كلّ واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا مال ولا ولد، وبلا معين وناصر.

٩٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ مودّة في قلوب العباد. قال الربيع: يحبّهم الله ويحبّبهم إلى الناس. وفي الحديث: «يُعطى المؤمن مِقَةً[1] في صدور الأبرار، ومهابة في قلوب الفجّار». وعن قتادة وهَرِمٍ:

(١) أي: محبةً.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

ما أقبل العبد إلى الله إلاّ أقبل الله بقلوب العباد إليه. وعن كعب: ما يستقرّ لعبدٍ ثناء في الأرض حتّى يستقرّ له في السماء.

٩٧ ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ سهّلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك. حال ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ شداداً في الخصومة بالباطل، أي: الذين يأخذون في كلّ لديد، أي: شقّ، من: المراء والجدال. جمع: ألدّ. يريد أهل مكّة.

٩٨ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويف لهم، وإنذار ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل تجد، أو ترى، أو تعلم ـ والإحساس: الإدراك بالحاسّة ـ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ صوتاً خفياً. ومنه: الركاز، أي: لمّا أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرَى، ولا صوت يُسمَع، يعني: هلكوا كلّهم، فكذا هؤلاء، إن أعرضوا عن تدبّر ما أنزل عليك؛ فعاقبتهم الهلاك، فَلْيَهُنْ عليك أمرهم.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿طه﴾ فخّم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء: أبو عمرو. وأمالهما: حمزة، وعليّ، وخلف، وأبو بكر. وفخّمهما على الأصل غيرهم. وما روي عن مجاهد والحسن والضحّاك وعطاء وغيرهم أنّ معناه: يا رجل، فإن صحّ فظاهر، وإلاّ فالحقّ ما هو المذكور في سورة البقرة.

٢ ـ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ إن جعلت ﴿طه﴾ تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها، وهي في موضع المبتدأ ـ و﴿القرآن﴾ ظاهر، أُوقع موقع المضمر لأنّها قرآن ـ وأن يكون جواباً لها، وهي قسم ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ لتتعب بفرط تأسّفك عليهم، وعلى كفرهم، وتحسّرك على أن يؤمنوا، أو: بقيام الليل. فإنّه رُوي: أنّه عليه الصلاة والسلام صلّى بالليل حتّى تورّمت قدماه. فقال له جبريل عليه السلام: أبقِ على نفسك، فإنّ لها عليك حقّاً[1]. أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة، وما بعثتَ إلاّ بالحنيفية السمحة.

٣ ـ ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن أنزلناه تذكرة. أو: حال ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ لمن يخافُ الله، أو: لمن يؤول أمره إلى الخشية.

(١) انظر: الدر المنثور (٥/ ٥٤٩).

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨

٤ ـ ﴿تَنزِيلًا﴾ بدل من ﴿تذكرة﴾ إذا جعل حالاً، ويجوز أن ينتصب بنزّل مضمر، أو: على المدح، أو: بـ﴿يخشى﴾ مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يتعلّق بـ﴿تنزيلاً﴾، صلة له ﴿ٱلْعُلَى﴾ جمع العليا، تأنيث الأعلى. ووصف السموات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها.

٥ ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رفعٌ على المدح، أي: هو ﴿الرحمن﴾ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ خبر مبتدأ محذوفْ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى، عن الزجاج. ونبّه بذكر العرش ـ وهو أعظم المخلوقات ـ على غيره. وقيل: لمّا كان الاستواء على العرش، وهو سرير الملك ممّا يردُف المُلك، جعلوه كناية عن الملك، فقالوا: استوى على العرش. أي: ملك وإن لم يقعد على السرير البتة. وهذا كقولك: يد فلان مبسوطة، أي: جواد وإن لم يكن له يد رأساً. والمذهب قول عليّ ـ رضي الله عنه ـ: الاستواء غير مجهول، والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ لأنّه تعالى كان ولا مكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان، لم يتغيّر عما كان.

٦ ـ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خبر ومبتدأ ومعطوف ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ذلك كلّه ملكه ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ما تحت السبع الأرضين، أو: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

٧ ـ ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ ترفع صوتك ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ ما أسررته إلى غيرك ﴿وَأَخْفَى﴾ منه. وهو: ما أخطرته ببالك، أو: ما أسررته في نفسك، وما ستسرّه فيها.

٨ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: هو واحد بذاته وإن افترقت عبارات صفاته. ردّاً لقولهم إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى. و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ

٩ ـ ﴿وَهَلْ﴾ أي: وقد ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ خبره. قفّاه بقصّة موسى ـ عليه السلام ـ ليأتسي به في تحمّل أعباء النبوّة والصبر على المكاره؛ لينال الدرجة العليا كما نالها موسى عليه السلام.

١٠ ـ ﴿إِذْ رَءَا﴾ ظرف لمضمر، أي: حين رأى ﴿نَارًا﴾ كان كيت وكيت، أو: مفعول به لا ذكر. رُوي أنّ موسى ـ عليه السلام ـ استأذن شعيباً في الخروج إلى أمّه، وخرج بأهله، فولد له في الطريق ابنٌ في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضلّ الطريق، وتفرّقت ماشيته، ولا ماء عنده، وقدح فصلَد زنده[1]، فرأى عند ذلك ﴿ناراً﴾ في زعمه، وكان نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أقيموا في مكانكم ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أبصرت ﴿نَارًا﴾ والإيناس: رؤية شيء يُؤنس به ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ بنى الأمر على الرجاء؛ لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبَسٍ﴾ بنار مقتبسة في رأس عود، أو: فتيلة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ ذوي هدى، أي: قوماً يهدونني الطريق. ومعنى الاستعلاء في ﴿على النار﴾ أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها.

١١ ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقّد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها. وكانت شجرة العنّاب، أو العوسج، ولم يجد عندها أحداً. ورُوي أنّه كلّما طلبها بعدت عنه، فإذا تركها قربت منه. فثَمّ ﴿نُودِىَ﴾ موسى ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾.

١٢ ـ ﴿إِنِّىٓ﴾ بكسر الهمزة، أي: ﴿نودي﴾ فقيل: ﴿يا موسى إنّي﴾، ولأنّ النداء ضرب من القول، فعومل معاملته. وبالفتح: مكّيّ، وأبو عمرو، أي: نودي بأنّي ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ مبتدأ، أو: تأكيد، أو فصل. وكرّر الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة. رُوي: أنّه لمّا نودي ﴿يا موسى﴾ قال: من المتكلم؟

---

(١) «صلد زنده»: صوّت، ولم يخرج ناراً.

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾

فقال الله عز وجل: ﴿أنا ربّك﴾ فعرف أنّه كلام الله عزّ وجلّ بأنّه سمعه من جميع جهاته الستّ، وسمعه بجميع أعضائه ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدّس، أو: لأنّهما كانتا من جلد حمار ميّت غير مدبوغ، أو: لأنّ الحفوة تواضع لله. ومن ثمّ طاف السلف بالكعبة حافين. والقرآن يدلّ على أنّ ذلك احترام للبقعة. وتعظيم لها. فخلعهما، وألقاهما من وراء الوادي ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ المطهّر، أو: المبارك ﴿طُوًى﴾ حيث كان مُنوّن: شاميّ، وكوفيّ، لأنّه اسم علم للوادي، وهو بدل منه. وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة. وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين.

١٣ ـ ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوّة. (وإنّا اخترناك): حمزة ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك، للذي يوحى، أو: للوحي. واللام يتعلّق بـ«استمع»، أو: بـ﴿اخترتك﴾.

١٤ ـ ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وحّدني، وأطعني ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار، أو: لأني ذكرتها في الكتب، وأمرت بها. أو: لأنْ أذكرك بالمدح والثناء، أو: لذكري خاصّة، لا تشوبه بذكر غيري، أو: لتكون لي ذاكراً غير ناس. أو: لأوقات ذكري، وهي مواقيت الصلاة، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]. وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانه. وذا يصحّ بتقدير حذف المضاف، أي: لذكر صلاتي. وهذا دليلٌ على أنّه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها.

١٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لا محالة ﴿أَكَادُ﴾ أريد، عن الأخفش. وقيل: صلة. ﴿أُخۡفِيهَا﴾ قيل: هو من الأضداد، أي: أظهرها، أو: أسترها عن العباد، فلا أقول: هي آتية؛ لإرادتي إخفاءها. ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة ـ وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها

لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

في كلّ وقت ـ لما أخبرت به ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلّق بـ ﴿آتية﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ بسعيها من خير أو شرّ.

١٦ ـ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ فلا يصرفنّك عن العمل للساعة، أو: عن إقامة الصلاة، أو: عن الإيمان بالقيامة. فالخطاب لموسى، والمراد به: أمّته ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ لا يصدّق بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في مخالفة أمره ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك.

١٧ ـ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ «ما» مبتدأ، و﴿تلك﴾ خبره. وهي بمعنى: هذه. و﴿بيمينك﴾ حال عمل فيها معنى الإشارة، أي: قارّة، أو: مأخوذة بيمينك. أو: ﴿تلك﴾ موصول صلته ﴿بيمينك﴾. والسؤال للتنبيه ليقع المعجز بها بعد التثبّت فيها، أو: للتوطين لئلا يهوله انقلابها حيّة، أو: للإيناس، ورفع الهيبة في المكالمة.

١٨ ـ ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها إذا أعييت، أو: وقفت على رأس القطيع، وعند الطفرة[1] ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أخبط ورق الشجر ﴿على غنمي﴾ لتأكله ﴿وَلِىَ فِيهَا﴾ حفص ﴿مَـَٔارِبُ﴾ جمع مأربة بالحركات الثلاث، وهي: الحاجة ﴿أُخْرَىٰ﴾ والقياس: أُخَر. وإنّما قال ﴿أخرى﴾ ردّاً إلى الجماعة، أو: لنسق الآي. وكذا «الكبرى». ولمّا ذكر بعضها شكراً أجمل الباقي حياء من التطويل، أو: ليسأل عنها الملك العلّام، فيزيد في الإكرام. والمآرب الأخر: أنّها كانت تماشيه، وتحدّثه، وتحارب العدوّ والسباع، وتصير رشاء فتطول بطول البئر، وتصير شعبتاها دلواً، وتكونان شمعتين بالليل، وتحمل زاده، ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب. وكانت تقيه الهوامّ. والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكراً، أو: لأنّها جواب سؤال آخر؛ لأنّه لمّا قال: ﴿هي عصاي﴾ قيل له: ما تصنع بها؟ فأخذ يعدّد منافعها.

(١) «الطفرة»: الوثبة.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

١٩ ـ ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ اطرح عصاك لتفرُغَ مما تتكىء عليه، فلا تسكن إلا بنا، وترى كنه ما فيها من المآرب، فتعتمد علينا في المطالب.

٢٠ ـ ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ فطرحها ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تمشي سريعاً. قيل: انقلبت ثعباناً يبتلع الصخر والشجر، فلمّا رآه يبتلع كلّ شيء خاف، وإنّما وصفت بالحيّة هنا، وبالثعبان ـ وهو العظيم من الحيات، وبالجانّ وهو الدقيق ـ في غيرها، لأنّ الحيّة اسم جنس يقعُ على الذكر، والأنثى، والصغير، والكبير. وجاز أن تنقلب حيّة صفراء دقيقة، ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجانّ أوّل حالها، وبالثعبان مآلها. أو: لأنها كانت في عظم الثعبان، وسرعة الجانّ. وقيل: كان بين لَحييها أربعون ذراعاً.

٢١ ـ ولما ﴿قَالَ﴾ له ربه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده في فمها، وأخذ بلحييها ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ سنردها ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ تأنيث الأوّل. والسيرة: الحالة التي يكون عليها الإنسان، غريزيّة كانت، أو: مكتسبة. وهي في الأصل فِعْلة من السير، كالركبة من الركوب. ثمّ استعملت بمعنى الحالة، والطريقة. وانتصبت على الظرف، أي: سنعيدها في طريقتها الأولى، أي: في حال ما كانت عصا. والمعنى: نردّها عصا كما كانت. وأُري ذلك موسى عند المخاطبة لئلا يفزع منها إذا انقلبت حيّة عند فرعون.

٢٢ ـ ثم نبّه على آية أخرى فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضد. وجناحا الإنسان: جنباه. والأصل المستعار منه جناحا الطائر، سمّيا جناحين لأنّه يُجنحهما عند الطيران. والمعنى: أدخلها تحت عضدك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس يُغشي البصر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾لنبوّتك. ﴿بيضاء﴾ ﴿وآية﴾ حالان معاً. و﴿من غير سوء﴾ «من» صلة ﴿بيضاء﴾ كقولك: ابيضّت من غير سوء. وجاز أن ينتصب ﴿آية﴾ بفعل محذوف يتعلّق به لام:

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾

٢٣ ـ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أي: خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حيّة لنريك بهاتين الآيتين بعض ﴿آياتنا الكبرى﴾ العظمى، أو: لنريك بهما الكبرى من آياتنا. أو المعنى: فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى.

٢٤ ـ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جاوز حدّ العبوديّة إلى دعوى الربوبيّة.

٢٥ ـ ولمّا أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي، وعرف أنّه كلّف أمراً عظيماً يحتاج إلى صدر فسيح ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ وسّعه ليحتمل الوحي والمشاقّ، ورديء الأخلاق من فرعون وجنده.

٢٦ ـ ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ وسهّل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون. و﴿اشرح لي صدري﴾ آكد من: اشرح صدري؛ لأنّه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل؛ لأنّه بِقَوْله: ﴿اشرح لي﴾ و﴿يسّر لي﴾ علم أنّ ثمّ مشروحاً وميسّراً، ثمّ رفع الإبهام بذكر الصدر والأمر.

٢٧ ـ ﴿وَٱحْلُلْ﴾ افتح ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ وكان في لسانه رتّة[1] للجمرة التي وضعها على لسانه في صباه. وذلك لأنّ موسى أخذ لحية فرعون، ولطمه لطمة شديدة في صغره، فأراد قتله، فقالت آسية: أيّها الملك إنّه صغير لا يعقل، فجعلت في طشت ناراً، وفي طشت يواقيت، ووضعتهما لدى موسى، فقصد اليواقيت، فأمال المَلَكُ يده إلى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه، فاحترق لسانه، فصار لُكْنَةً منها. ورُوي أن يده احترقتْ، واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ. ولمّا دعاه قال: إلى أيّ ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي، وقد عجزتَ عنها. و﴿من لساني﴾ صفة لعقدة، كأنّه قيل: عقدة من عقد لساني، وهذا يشعر بأنّه لم تزل العقدة بكمالها. وأكثرهم على ذهاب جميعها.

٢٨ ـ ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ عند تبليغ الرسالة.

---

(١) «الرتة»: العجمة في الكلام.

وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾

٢٩ ـ ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ ظهيراً أعتمد عليه، من: الوِزْر: الثِّقْل؛ لأنّه يتحمّل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو: من الوَزَر: الملجأ؛ لأنّ الملك يعتصم برأيه، ويُلْجىء إليه أموره، أو: معيناً، من: الموازرة وهي: المعاونة. فوزيراً مفعول أوّل لـ: اجعل، والثاني: ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ أو: ﴿لي وزيراً﴾ مفعولاه. وقوله:

٣٠ ـ ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان للوزير. وقوله: ﴿أَخِي﴾ بدل، أو: عطف بيان آخر. أو: ﴿وزيراً﴾ و﴿هارون﴾ مفعولاه. وقدّم ثانيهما على أوّلهما عناية بأمر الوزارة.

٣١ ـ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ قوّ به ظهري. وقيل: الأزر: القوّة.

٣٢ ـ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ اجعله شريكي في النبوّة والرسالة. و﴿أَشْدُدْ﴾ ﴿وأُشْرِكْه﴾ على حكاية النفس: شاميّ على الجواب. والباقون: على الدعاء، والسؤال.

٣٣ ـ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ نصلي لك، وننزّهك تسبيحاً ﴿كَثِيرًا﴾.

٣٤ ـ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ في الصلوات، وخارجها.

٣٥ ـ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالماً بأحوالنا.

٣٦ ـ فأجابه الله تعالى حيث: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أعطيت مسؤولك. فالسُّؤْل: الطلبة، فُعْل بمعنى: مفعول، كخبز بمعنى مخبوز. ﴿سولك﴾ بلا همز: أبو عمرو.

٣٧ ـ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَيْكَ مَرَّةً﴾ كرّة ﴿أُخْرَىٰٓ﴾ قبل هذه. ثمّ فسّرها فقال:

٣٨ ـ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ إلهاماً، أو: مناماً حين ولدت. فكان فرعون يقتل أمثالك. و﴿إذ﴾ ظرف لـ ﴿مننّا﴾. ثمّ فسّر ﴿ما يوحى﴾ بقوله:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾

٣٩ ـ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ ألقيه ﴿فِي ٱلتَّابُوتِ﴾. و﴿أن﴾ مفسّرة؛ لأنّ الوحي بمعنى القول ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ الجانب، وسُمِّي ساحلاً لأنّ الماء يَسحَله، أي: يقشِرُه. والصيغة أمر ليناسب ما تقدّم، ومعناه: الإخبار، أي: يلقيه اليمّ بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني: فرعون. والضمائر كلّها راجعة إلى موسى عليه السلام. ورجوع بعضها إليه، وبعضها إلى التابوت يفضي إلى تنافر النظم. والمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل، إن كان هو التابوت، لكنّ موسى عليه السلام في جوف التابوت. رُوي: أنّها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه، وقيّرته[1]، ثم ألقته في اليمّ. وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير. وبينا هو جالسٌ على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به، فأخرج، ففتح، فإذا صبيٌّ أصبحُ الناس وجهاً، فأحبّه فرعون حبّاً شديداً، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. يتعلّق ﴿منّي﴾ بألقيت، يعني: إنّي أحببتك، ومن أحبّه الله أحبّته القلوب، فما رآه أحد إلاّ أحبّه. قال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحة ما رآها أحد إلاّ أحبّه ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: ﴿وألقيت عليك محبّة﴾ لتحبّ ولتصنع ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: لتربّى بمرأى منّي. وأصله من صنع الفرس، أي: أحسن القيام عليه، يعني: أنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ﴿ولْتُصْنَعْ﴾ بسكون اللام والجزم: يريد على أنّه أمر.

٤٠ ـ ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾ بدل من ﴿إذ أوحينا﴾ لأنّ مشيَ أخته كان منّة عليه ﴿أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ رُوي أنّ أخته مريم جاءت متعرّفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت:

---

(١) قيّرته: دهنته بالقار، وهو الزفت: أحد المنتجات الثقيلة التي تتخلف من تقطير البترول الخام.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢﴾

هل أدلّكم على من يضمّه إلى نفسه فيربيه؟ وأرادت بذلك المرضعة. وتذكير الفعل للفظ ﴿من﴾. فقالوا: نعم. فجاءت بالأمّ فقبل ثديها، فذلك قوله ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ فرددناك ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ كما وعدناها بقولنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ لقامك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قبطيّاً كافراً ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ من القود. قيل: الغمّ: القتل بلغة قريش. وقيل: اغتمّ بسبب القتل خوفاً من عقاب الله، ومن اقتصاص فرعون، فغفر الله له[1] باستغفاره ﴿قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي﴾. ونجّاه من فرعون بأن [ذهب به][2] من مصر إلى مدين ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ ابتليناك ابتلاء بإيقاعك في المحن، وتخليصك منها. والفتون: مصدر كالقعود. أو: جمع فتنة، أي: فتنّاك ضروباً من الفتن. والفتنة: المحنة، وكلّ ما يبتلي الله به عباده فتنة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب ـ عليه السلام ـ على ثماني مراحل من مصر. قال وهب: لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، عشر منها مهر لصفوراء، وأقام عنده ثماني عشرة سنة بعدها حتّى ولد له أولاد ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: موعد ومقدار للرسالة، وهو أربعون سنة.

٤١ ـ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ اخترتك، واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرّف على إرادتي ومحبتي. قال الزجاج: اخترتك لأمري، وجعلتك القائم بحجّتي، والمخاطب بيني وبين خلقي، كأنّي أقمت عليهم الحجة، وخاطبتهم.

٤٢ ـ ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ بمعجزاتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ تفترا. من الوني، وهو: الفتور، والتقصير ﴿فِى ذِكْرِى﴾ أي: اتخذا ذكري جناحاً تطيران به. أو:

(١) مستدرك من المطبوع.
(٢) في الأصل: ذهبتَ.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾

أريد بالذكر تبليغ الرسالة. فالذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أعظمها.

٤٣ ـ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ كرّر، لأنّ الأوّل مطلق، والثاني مقيّد ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جاوز الحدّ بادّعاء الربوبيّة.

٤٤ ـ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ الطُفا له في القول؛ لما له من حقّ تربية موسى، أو: كنّياه، وهو من ذوي الكنى الثلاث: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرّة[1]. أو: عِدَاه شباباً لا يهرم بعده، وملكاً لا ينزع عنه إلاّ بالموت. أو: هو قوله: ﴿هل لك إلى أن تزكّى وأهديك إلى ربّك فتخشى﴾ فظاهره: الاستفهام، والمشورة ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتعظ، ويتأمّل، فيذعن للحقّ ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجرّه إنكاره إلى الهلكة. وإنّما قال: ﴿لعلّه يتذكّر﴾ مع علمه أنّه لا يتذكّر؛ لأنّ الترجّي لهما، أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر علمه. وجدوى إرسالهما إليه، مع العلم بأنّه لن يؤمن إلزام الحجة، وقطع المعذرة. وقيل معناه: ﴿لعلّه يتذكّر﴾ متذكّر ﴿أو يخشى﴾ خاشٍ. وقد كان ذلك من كثير من الناس. وقيل: ﴿لعلّ﴾ من الله واجب، وقد تذكّر، ولكن حين لم ينفعه التذكّر. وقيل: تذكّر فرعون، وخشي، وأراد اتّباع موسى، فمنعه هامان، وكان لا يقطع أمراً دونه. وتُليتْ عند يحيى بن معاذ فبكى، وقال: هذا رفقك بمن يقول أنا إلهٌ، فكيف بمن قال: أنت الإله؟ وهذا رفقك بمن قال: ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ فكيف بمن قال: سبحان ربيّ الأعلى؟

٤٥ ـ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ يعجَل علينا بالعقوبة. ومنه: الفارط، يقال: فرط عليه، أي: عَجِل ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يجاوز الحدّ في الإساءة إلينا.

---

(١) هذا الكلام لا صحة له لا من نقل ولا من عقل، وإنما هو مجرد روايات إسرائيلية مضحكة!!.

قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ

---

٤٦ ـ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أي: حافظكما وناصركما ﴿أَسْمَعُ﴾ أقوالكم ﴿وَأَرَىٰ﴾ أفعالكم. قال ابن عباس: ﴿أسمع﴾ دعاءكما فأجيبه ﴿وأرى﴾ ما يراد بكما فأمنع، لست بغافل عنكما، فلا تهتمّا.

٤٧ ـ ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أي: فرعون ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم عن الاستعباد، والاسترقاق ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتكليف المشاقّ ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ بحجّة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على صدق ما ادّعينا. وهذه الجملةُ جاريةٌ من الجملة الأولى، وهي: ﴿إنّا رسولا ربّك﴾ مجرى البيان، والتفسير؛ لأنّ دعوى الرسالة لا تثبت إلّا ببيّنتها، وهي المجيء بالآية فقال فرعون: وما هي؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: سلم من العذاب من أسلم، وليس بتحيّة. وقيل: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنّة على المهتدين.

٤٨ ـ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا والعقبى ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بالرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان. وهي أرجى آي القرآن، لأنّه جعل جنس السلام للمؤمن، وجنس العذاب على المكذّب، وليس وراء الجنس شيء. فأتياه، وأدّيا الرسالة، وقالا له ما أُمِرا به.

٤٩ ـ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ خاطبهما، ثمّ نادى أحدهما؛ لأنّ موسى هو الأصل في النبوّة، وهارون تابعه.

٥٠ ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ «خلقه»: أوّل مفعولي أعطى، أي: أعطى خليقته كلّ شيء يحتاجون إليه، ويرتفقون به. أو: ثانيهما، أي: أعطى كلّ شيء صورته وشكله؛ الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذا الأنف

﴿ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾

والرِّجل واليد كلّ واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها. وقرأ نصير: ﴿خَلَقه﴾ صفة للمضاف، أو للمضاف إليه، أي: ﴿أعطى كل شيء﴾ مخلوق عطاء ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ عرّف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة في الدنيا، والسعادة في العقبى.

٥١ ـ ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فما حال الأمم الخالية، والرمم البالية؟ سأله عن حال مَن تقدّم من القرون، وعن شقاء مَن شقي منهم، وسعادة مَن سعد.

٥٢ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ـ مبتدأ وخبر ـ ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: اللوح. خبر ثان. أي: هذا سؤال عن الغيب، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلاّ هو، وما أنا إلاّ عبد، لا أعلم منه إلاّ ما أخبرني به علاّم الغيوب. وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يخطىء شيئاً. يقال: ضلَلت الشيء: إذا أخطأته في مكانه، فلم تهتدِ له، أي: لا يخطىء في سعادة الناس وشقاوتهم ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ثوابهم وعقابهم. وقيل: ﴿لا ينسى﴾ ما علم، فيذكره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة أنّ معمول الخلق يوافق معلومه.

٥٣ ـ ﴿ٱلَّذِي﴾ مرفوع صفة لـ«ربّي»، أو: خبر مبتدأ محذوف. أو: منصوب على المدح ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ كوفيّ. وغيرهم: (مهاداً). وهما لغتان لما يبسط، ويفرش ﴿وَسَلَكَ﴾ أي: جعل ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ بالماء. نقل الكلام من الغيبة إلى لفظ المتكلم المطَاوَع للافتنان. وقيل: تمّ كلام موسى، ثمّ أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: ﴿فأخرجنا به﴾ وقيل: هذا كلام موسى، أي: فأخرجنا نحن بالحراثة، والغرس ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ هو مصدر، سُمِّي به النابت، فاستوى فيه الواحد والجمع ﴿شَتَّىٰ﴾ صفة للأزواج، أو: للنبات، جمع: شتيت، كمريض ومرضى، أي: أنّها مختلفة النفع، والطعم، واللون، والرائحة، والشكل، بعضها للناس، وبعضها للبهائم. ومن نعمته تعالى أنّ أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا﴾

الله تعالى علفها مما يفضل عن حاجتنا، ما لا تقدر على أكله قائلين:

٥٤ ـ ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ حال من الضمير في ﴿فأخرجنا﴾، والمعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها، وتعلفوا بعضها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في الذي ذكرت ﴿لَآيَاتٍ﴾ لدلالات ﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ لذوي العقول، واحدها: نُهية؛ لأنها تنهى عن المحظور، أو: يُنتَهى إليها في الأمور.

٥٥ ـ ﴿مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: أباكم آدم ـ عليه السلام ـ وقيل: يعجن كلّ نطفة بشيء من تراب مدفنه، فيخلق من التراب والنطفة معاً، أو: لأنّ النطفة من الأغذية، وهي من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إذا متّم فدفنتم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾. والمراد بإخراجهم: أنّه يؤلّف أجزاءهم المتفرّقة المختلطة بالتراب، ويردّهم كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر.

عدّد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم، حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلّبون عليها، وسوّى لهم فيها مسالك يتردّدون فيها كيف شاؤوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم، وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرّعوا، وأمّهم التي منها ولدوا، وهي كفاتهم إذا ماتوا.

٥٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أي: فرعون ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ وهي تسع آيات: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل ﴿فَكَذَّبَ﴾ الآيات ﴿وَأَبَىٰ﴾ قبول الحقّ.

٥٧ ـ ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أنّه خاف منه خوفاً شديداً. وقوله: ﴿بسحرك﴾ تعلّل. وإلاّ فأيّ ساحر يقدر أن يخرجَ ملكاً من أرضه؟

٥٨ ـ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ فلنعارضنّك بسحر مثل سحرك ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

﴿وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدر بمعنى الوعد. ويقدّر مضاف، أي: مكان موعد. والضمير في: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ للموعد. قرأ يزيد بالجزم على جواب الأمر. وغيره بالرفع على الوصف للموعد ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا﴾ هو بدل من المكان المحذوف. ويجوز ألّا يقدّر مضاف، ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه. وانتصب مكاناً بالمصدر، أو: بفعل يدلّ عليه المصدر ﴿سُوًى﴾[1] بالكسر: حجازيّ، وأبو عمرو، وعليّ. وغيرهم بالضمّ. وهو نعت لـ ﴿مكاناً﴾، أو: مَنْصَفاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية.

٥٩ ـ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ مبتدأ وخبر. وهو يوم عيدٍ كان لهم. أو: يوم نيروز. أو: يوم عاشوراء. وإنّما استقام الجواب بالزمان ـ وإن كان السؤال عن المكان على التأويل الأوّل ـ لأنّ اجتماعهم يوم الزينة يكون في مكان لا محالة، فبذكر الزمان علم المكان، وعلى الثاني تقديره: وعدكم وعد يوم الزينة ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يُجمع. في موضع رفع، أو: جرّ عطفاً على ﴿يوم﴾ أو: ﴿الزنية﴾ ﴿ضُحًى﴾ أي: وقت الضحوة؛ ليكون أبعد عن الريبة، وأبين لكشف الحقّ، وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

٦٠ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أدبر عن موسى معرضاً ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ مكره، وسحرته. وكانوا اثنين وسبعين، أو أربعمئة، أو سبعين ألفاً ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ للموعد.

٦١ ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي: للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ كوفيّ، غير أبي بكر. يهلككم. وغيرهم بفتح الياء والحاء. والسحت والإسحات بمعنى الإعدام. وانتصب على جواب النهي ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ من كذب على الله.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿سِوَى﴾.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾

٦٢ ـ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ اختلفوا، أي: السحرة، فقال بعضهم: هو ساحر مثلنا، وقال بعضهم: ليس هذا بكلام السحرة، أي: ﴿لا تفتروا على الله كذباً﴾ الآية ﴿أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي: تشاوروا في السرّ، وقالوا: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر. والنجوى: يكون مصدراً واسماً. ثمّ لفّقوا هذا الكلام يعني:

٦٣ ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يعني: موسى وهارون. قرأ أبو عمرو: (إنّ هذين لساحران) وهو ظاهر، ولكنّه مخالف للإمام. وابن كثير، وحفص، والخليل ـ وهو أعرف بالنحو واللغة ـ: ﴿إنْ هذان لساحران﴾ بتخفيف ﴿إن﴾ مثل قولك: إنْ زيد لمنطلق. واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخفّفة من الثقيلة. وقيل: هي بمعنى «ما»، واللام بمعنى «إلاّ»، أي: ما هذان إلاّ ساحران. دليله قراءة أبيّ: (إن ذان إلاّ ساحران) وغيرهم: ﴿إنّ هذان لساحران﴾ قيل: هي لغة بلحارث بن كعب، وخثعم، ومراد، وكنانة، فالتثنية في لغتهم بالألف أبداً، فلم يقبلوها ياء في الجر والنصب، كعصا وسعدى، قال[1]:

إنَّ أبـاهـا وأبـا أبـاهـا قـد بَلَغـا في المجـدِ غـايتـاهـا

وقال الزجاج: ﴿إنّ﴾ بمعنى نعم، قال الشاعر[2]:

ويقُلْـنَ شيـبٌ قـد عـلا ك وقـد كبرتَ فقلـتُ إنَّـهْ

أي: نعم. والهاء للوقف. و﴿هذان﴾ مبتدأ، و﴿ساحران﴾ خبر مبتدأ محذوف. واللام داخلة على المبتدأ المحذوف، تقديره: هذان لهما ساحران، فيكون دخولها في موضعها الموضوع لها، وهو الابتداء، أو قد تدخل اللام في الخبر، كما تدخل في المبتدأ. قال:

خالي لأنت ومن جرير خاله ... ...

---

(١) الشاعر: رؤبة، أو أبو النجم، أو رجل من بني الحارث بن كعب.

(٢) هو: عبيد الله بن قيس الرقيات.

يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ

قال: وعرضته على المبرد فرضيه، وقد زيفه أبو عليّ.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ بدينكم، وشريعتكم ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ الفضلى، تأنيث الأمثل، وهو: الأفضل.

٦٤ ـ ﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾ فأحكموا، أي: اجعلوه مجمعاً عليه حتّى لا تختلفوا. ﴿فاجْمَعوا﴾: أبو عمرو، ويعضُده ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠] ﴿كَيْدَكُمْ﴾ هو ما يكاد به ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ مصطفّين، حال. أمروا بأن يأتوا صفاً؛ لأنّه أهيب في صدور الرائين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ وقد فاز من غلب. وهو اعتراض.

٦٥ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: السحرة ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك أوّلاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما معنا. وموضع أن مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر، أو: رفع بأنّه خبر مبتدأ محذوف. معناه: اختر أحد الأمرين، أو: الأمر إلقاؤك، أو إلقاؤنا. وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه. وكأنّه تعالى ألهمهم ذلك، وقد وصّل إليهم بركته، وعلّم موسى عليه السلام اختيار إلقائهم أوّلاً حتّى:

٦٦ ـ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أوّلاً ليبرزوا ما معهم من مكائد السحر، ويظهر الله سلطانه، ويقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه، ويسلّط المعجزة على السحر فتمحقه، فيصير آية نيّرة للناظرين، وعبرة بيّنة للمعتبرين. فألقوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ يقال في ﴿إذا﴾ هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق: أنّها إذا الكائنة لمعنى الوقت، الطالبة ناصباً لها، وجملة تضاف إليها، خصّت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً، وهو فعل المفاجآت، والجملة ابتدائيّة لا غير. والتقدير: ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيّهم. والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيّهم، مخيّلة إليه السّعي وبالتاء: ﴿يُخَيَّلُ﴾ ابن ذكوان

إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ رفع بدل اشتمال من الضمير في ﴿يخيّل﴾ أي: يخيّل الملقي. رُوي: أنهم لطخوها بالزئبق، فلمّا ضربت عليها الشمس اضطربت، واهتزّت، فخيّلت ذلك.

٦٧ ـ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أضمر في نفسه خوفاً، ظنّاً منه أنّها تقصده؛ للجبلّة البشريّة. أو: خاف أن يخالج الناس شكّ فلا يتّبعوه.

٦٨ ـ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الغالب، القاهر. وفي ذكر إنّ وأنت وحرف التعريف ولفظ العلوّ ـ وهو: الغلبة الظاهرة ـ مبالغة بيّنة.

٦٩ ـ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ﴾ بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف: حفص. و﴿تَلَقّفُ﴾ ابن ذكوان. الباقون: تلقّفْ ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ زوّروا، وافتعلوا، أي: اطرح عصاك تبتلع عصيّهم وحبالهم. ولم يقل عصاك تعظيماً لها، أي: لا تحتفل بما صنعوا، فإنّ ما في يمينك أعظم منها. أو: تحقيراً، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيّهم، وألق العُوَيْد الفرد الذي في يمينك، فإنّه بقدرة ربك يتلقّفها على وحدته، وكثرتها ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ سِحْر: كوفي ـ غير عاصم ـ بمعنى ذي سحر، أو: هم لتوغّلهم في سحرهم، كأنّهم السحر. و﴿كيد﴾ بالرفع على القراءتين. و﴿ما﴾ موصولة، أو: مصدريّة. وإنّما وُحّد ﴿ساحر﴾ ولم يُجْمع؛ لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسيّة، لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخيّل أنّ المقصود هو العدد، ألَا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أينما كان.

٧٠ ـ فألقى موسى عصاه فتلقّفت ما صنعوا، فلعظيم ما رأوا من الآية دُفِعوا إلى السجود، فذلك قوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنّهم ألقوا، فما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود، ثمّ ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! رُوي: أنهم رأوا الجنّة ومنازلهم فيها في السجود، فرفعوا رؤوسهم

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ

ثمّ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ إنّما قدم هارون هنا، وأخّر في الشعراء، محافظة للفاصل ولأنّ الواو لا توجب ترتيباً.

٧١ ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ بغير مدّ: حفص. وبهمزة ممدودة: بصريّ، وشاميّ، وحجازيّ. وبهمزتين: غيرهم ـ ﴿لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: لموسى. يقال: آمن له، وآمن به ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ لعظيمكم، أو: لمعلّمكم. يقول أهل مكّة للمعلّم: أمرني كبيري ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ القطع من خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنّ كلّ واحد من العضوين يخالف الآخر بأنّ هذا يد وذاك رجل، وهذا يمين وذاك شمال. و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية؛ لأنّ القطع مبتدأ، وناشيء من مخالفة العضو العضوَ. ومحلّ الجار والمجرور النصب على الحال، أي: لأقطعنّها مختلفات؛ لأنّها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتّصفت بالاختلاف. شبّه تمكّن المصلوب في الجذع بتمكّن المظروف في الظرف؛ فلذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وخصّ ﴿النخل﴾ لطول جذوعها ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أنا على إيمانكم به، أو: ربّ موسى على ترك الإيمان. وقيل: يريد نفسه ـ لعنه الله ـ وموسى عليه السلام ـ بدليل قوله: ﴿آمنتم له﴾. واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله، كقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم.

٧٢ ـ ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ القاطعة الدالّة على صدق موسى ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطف على ﴿ما جاءنا﴾، أي: لن نختارك على الذي جاءنا، ولا على الذي خلقنا. أو قسم. وجوابه: ﴿لن نؤثرك﴾ مقدم على القسم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ فاصنع ما أنت صانع من القطع والصلب. قال[1]:

(١) الشاعر: أبو ذؤيب.

إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

وعَلَيْهما مَسْرُودتانِ قَضَاهُما[1] ... ...

أي: صَنَعَهُما. أو: احكم ما أنت حاكم ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: في هذه الحياة الدنيا، فانتصبت على الظرف، أي: إنّما تحكم فينا مدّة حياتنا.

٧٣ ـ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ «ما»: موصولة منصوبة بالعطف على ﴿خطايانا﴾ ﴿مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ حال من ﴿ما﴾. رُوي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، الساحر إذا نام بطل سحره، فكرهوا معارضته خوف الفضيحة، فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر، انظر كيف نفعهم علمهم بالسحر، وضرّ فرعونَ جهلُه به؟ فكيف بعلم الشرع؟! ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ ثواباً لمن أطاعه ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ عقاباً لمن عصاه. وهو ردّ لقول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

٧٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ هو ضمير الشأن. ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ كافراً ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ للمجرم ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح بالموت ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

٧٥ ـ ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ مات على إيمانه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعد الإيمان ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ جمع العليا.

٧٦ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهّر من الشرك بقول: لا إله إلاّ الله. قيل: هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم. وقيل: خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية، وهو أظهر.

---

(١) صدر بيت، وعجزه: داودُ، أو صَنَعُ السوابغِ تُبعُ.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ

٧٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ لمّا أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه؛ أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلاً، ويأخذ بهم طريق البحر ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: اجعل لهم، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً ﴿يَبَسًا﴾ أي: يابساً. وهو مصدرٌ وصف به، يقال: يبس يَبَساً، ويُبْساً ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ حال من الضمير في ﴿فاضرب﴾، أي: اضرب لهم طريقاً غير خائف. ﴿لا تخفْ﴾: حمزة على الجواب ﴿دَرَكًا﴾ هو اسمٌ من الإدراك، أي: لا يدركك فرعون وجنوده، ولا يلحقونك ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ الغرق. وعلى قراءة حمزة: ﴿ولا تخشى﴾ استئناف، أي: وأنت لا تخشى. أو: يكون الألف للإطلاق، كما في ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]. فخرج بهم موسى من أوّل الليل، وكانوا سبعين ألفاً، وقد استعاروا حليّهم، فركب فرعون في ستمئة ألف من القبط، فقصّ أثرهم، فذلك قوله.

٧٨ ـ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وهو حال، أي: خرج خلفهم ومعه جنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أصابهم من البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾. هو من جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل.

٧٩ ـ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ عن سبيل الرشاد ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وما أرشدهم إلى الحقّ والسداد. وهذا ردّ لقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

٨٠ ـ ثم ذكرمنّته على بني إسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر، وأهلك فرعون وقومه، بقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ﴿أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ وقلنا: ﴿يا بني إسرائيل﴾ ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ أي: فرعون ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ بإيتاء الكتاب ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾. وذلك: أن الله تعالى وعد موسى أن يأتي هذا المكان، ويختار سبعين رجلاً يحضرون معه لنزول التوراة. وإنّما نسب إليهم المواعدة؛ لأنّها كانت لنبيّهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم، ودينهم. و﴿الأيمن﴾ نصب، لأنّه صفة جانب. وقُرِىء

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾

بالجرّ على الجوار ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ في التيه، وقلنا لكم:

٨١ ـ ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلالات ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾. ﴿أنجيتكم﴾. ﴿وواعدتكم﴾. ﴿ورزقتكم﴾ كوفيّ ـ غير عاصم ـ ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ولا تتعدّوا حدود الله فيه؛ بأن تكفروا النعم، وتنفقوها في المعاصي، أو: لا يظلم بعضكم بعضاً فيه ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ عقوبتي ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هلك، أو: سقط سقوطاً لا نهوض بعده. وأصله: أن يسقط من جبل فيهلك. وتحقيقه: سقط من شرف الإيمان، إلى حفرة من النيران. قرأ عليّ: ﴿فيحُل﴾، ﴿ويحلُل﴾. والباقون بكسرهما. فالمكسور في معنى الوجوب، مِن: حلّ الدين يحلّ: إذا وجب أداؤه. والمضمون في معنى النزول.

٨٢ ـ ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ وحّد الله تعالى، وصدّقه فيما أنزل ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدّى الفرائض ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ثمّ استقام، وثبت على الهدى المذكور. وهو: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

٨٣ ـ ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ وأيّ شيء عَجّل بك ﴿عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: عن السبعين الذين اختارهم. وذلك: أنّه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب، ثمّ تقدّمهم شوقاً إلى كلام ربّه، وأمرهم أن يتّبعوه. فقال الله تعالى: ﴿وما أعجلك﴾ أيّ شيء أوجب عجلتك؟! استفهام إنكار. و﴿ما﴾ مبتدأ و﴿أعجلك﴾ الخبر.

٨٤ ـ ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: هم خلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلاّ مسافة يسيرة. ثمّ ذكر موجب العجلة، فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ﴾ أي: إلى الموعد الذي وعدت ﴿لِتَرْضَىٰ﴾ لتزداد عنّي رضاً. وهذا دليلٌ على جواز الاجتهاد.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ

٨٥ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ ألقيناهم في فتنة ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ من بعد خروجك من بينهم. والمراد بالقوم: الذين خلفهم مع هارون ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ بدعائه إيّاهم إلى عبادة العجل، وإجابتهم له. وهو منسوبٌ إلى قبيلة من بني إسْرائيل يقال لها: السامرة. وقيل: كان علجاً من كرمان، فاتخذ عجلاً. واسمه: موسى بن ظفر، وكان منافقاً.

٨٦ ـ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ مِن مناجاة ربّه ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب، أو: حزيناً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور، وكانت ألف سورة، كلّ سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً. ولا وعد أحسن من ذلك ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: مدّة مفارقتي إيّاكم. والعهد: الزمان. يقال: طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربّكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ وعدوه أن يقيموا على أمره، وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده باتخاذ العجل.

٨٧ ـ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بفتح الميم: مدنيّ، وعاصم. وبضمّها: حمزة، وعليّ. وبكسرها: غيرهم. أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، أي: لو ملكنا أمرنا، وخلّينا، ورأينا لما أخلفناه، ولكنّا غلبنا من جهة السامريّ، وكيده ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ بالضمّ والتشديد: حجازيّ، وشاميّ، وحفص. وبفتح الحاء والميم مع التخفيف: غيرهم ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أثقالاً من حليّ القبط، أو: أرادوا بالأوزار: أنّها آثام وتبعات؛ لأنّهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلّة أنّ غداً لنا عيدٌ، فقال السامريّ: إنّما حبس موسى لشؤم حرمتها ـ لأنّهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس

فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾

للمستأمن أن يأخذ مال الحربيّ. على أنّ الغنائم لم تكن تحل حينئذ ـ فأَحْرقوها. فخبأ في حفرة النار قالب عجل، فانصاغت عجلاً مجوّفاً فخار بدخول الريح في مجارٍ منه أشباه العروق. وقيل: نفخ فيه تراباً من موضع قوائم فرس جبريل ـ عليه السلام ـ يوم الغرق، وهو فرس الحياة فحيي، فخار، ومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ في نار السامريّ التي أوقدها في الحفرة، وأمرنا أن نطرح فيها الحليّ ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحليّ في النار، أو: ما معه من التراب؛ الذي أُخذ من أثر حافر فرس جبريل ـ عليه السلام ـ.

٨٨ ـ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ السامريّ من الحفرة ﴿عِجْلًا﴾ خلقه الله تعالى من الحليّ التي سبكتها النار ابتلاء ﴿جَسَدًا﴾ مجسّداً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت. وكان يخورُ كما تخورُ العجاجيل ﴿فَقَالُوا۟﴾ أي: السامريّ وأتباعه: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ فأجاب عامّتهم إلاّ اثني عشر ألفاً ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: ﴿فنسي﴾ موسى ربّه هنا، وذهب يطلبه عند الطور. أو: هو ابتداء كلام من الله عز وجل أي: نسي السامري ربّه، وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر. أو: نسي السامريّ الاستدلال على أنّ العجل لا يجوز أن يكون إلهاً بدليل قوله:

٨٩ ـ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾ أي: أنّه ﴿لا يرجع﴾ فأن مخففة من الثقيلة ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يجيبهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: هو عاجز عن الخطاب، والضرّ، والنفع، فكيف يتخذونه إلهاً؟ فقيل: إنّه ما خار إلاّ مرّة.

٩٠ ـ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ﴾ لمن عبدوا العجل ﴿هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى إليهم ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ ابتليتم بالعجل، فلا تعبدوه. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ كونوا على ديني الذي هو الحقّ ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ في ترك عبادة العجل.

قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾

٩١ ـ ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي: لن نزال مقيمين على العجل، وعبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فننظر هل يعبده كما عبدنا، وهل صدق السامريّ أم لا؟

٩٢ ـ فلما رجع موسى ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العجل.

٩٣ ـ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بالياء في الوصل والوقف: مكّيّ. وافقه أبو عمرو، ونافع في الوصل. وغيرهم: بلا ياء. أي: ما دعاك إلى ألا تتّبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشيء وبين الداعي إلى تركه. وقيل: ﴿لا﴾ مزيدة. والمعنى: أيّ شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك، وتلحق بي وتخبرني؟ أو: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله؟ وهلاّ قاتلت من كفر بمن آمن. ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي: الذي أمرتك به من القيام بمصالحهم.

٩٤ ـ ثم أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله غضباً وإنكاراً عليه؛ لأنّ الغيرة في الله ملكته ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ وبخفض الميم: شاميّ، وكوفيّ غير حفص. وكان أخاه لأبيه وأمّه عند الجمهور، ولكنه ذكر الأمّ استعطافاً، وترفيقاً ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ ثم ذكر عذره فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ﴾ إذا قاتلت بعضهم ببعض: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أوخفت أن تقول: إن فارقتهم واتبعتك ولحق بي فريق، وتبع السامري فريق: فرقت بين بني إسرائيل ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ ولم تحفظ ﴿قَوْلِي﴾: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وفيه دليل جواز الاجتهاد.

٩٥ ـ ثم أقبل موسى على السامريّ منكراً عليه حيث: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ ما أمرك الذي تخاطب عليه ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؟.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

٩٦ ـ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ وبالتاء: حمزة، وعليّ. قال الزجاج: بصُر: علم، وأبصر: نظر، أي: علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل. قال موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس الحياة، فألقي في نفسي أن أقبض من أثره، فما ألقيته على شيء إلاّ صار له رُوح، ولحم، ودم ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ القبضة: المرّة من القبض. وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير. وقرىء: ﴿فقبصت قبصة﴾ فالضاد: بجميع الكفّ، والصاد: بأطراف الأصابع ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرس الرسول. وقرىء بها ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ فطرحتها في جوف العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زيّنت ﴿لِى نَفْسِى﴾ أن أفعله ففعلته اتباعاً لهواي. وهو اعترافٌ بالخطأ، واعتذار منه.

٩٧ ـ ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَٱذْهَبْ﴾ من بيننا طريداً ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ما عشت ﴿أَن تَقُولَ﴾ لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك: ﴿لَا مِسَاسَ﴾. أي: لا يمسّني أحد، ولا أمسّه. فمنع من مخالطة الناس منعاً كلّيّاً، وحرم عليهم مخالطته، ومكالمته، ومبايعته. وإذا اتفق أن يماسّ أحداً حمّ الماسّ والممسوس. وكان يهيمُ في البريّة يصيح: لا مساس. ويقال: إنّ ذلك موجود في أولاده إلى الآن. وقيل: أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يقتله، فمنعه الله منه لسخائه ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ لن يُخْلِفَك الله موعده؛ الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا. ﴿لن تُخلِفه﴾: مكيّ، وأبو عمرو، وهذا من: أخلفت الموعد: إذا وجدته خلفاً ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ وأصله: ظللت، فحذف اللام الأولى تخفيفاً ﴿عَاكِفًا﴾ مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لنُذرينّه ﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾. فحرقه، وذراه في البحر، فشرب بعضهم من مائه حبّاً له، فظهرت على شفاههم صفرة الذهب.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾

٩٨ ـ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز، أي: وسع علمه كلّ شيء.

٩٩ ـ ومحلّ الكاف من: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب، أي: مثل ما اقتصصنا عليك قصّة موسى وفرعون ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمم الماضية، تكثيراً لبيّناتك، وزيادة في معجزاتك ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي: أعطيناك ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ قرآناً، فهو ذكر عظيم، وقرآن كريم، فيه النجاةُ لمن أقبل عليه، وهو مشتمل على الأقاصيص والأخبار، الحقيقة بالتفكّر والاعتبار.

١٠٠ ـ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن هذا الذكر، وهو القرآن، ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة. سمّاها وزراً تشبيهاً في ثِقَلها على المعاقَب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الثقيل؛ الذي ينُقض ظهره، ويلقي عليه بُهْره. أو: لأنها جزاء الوزر، وهو: الإثم.

١٠١ ـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿يحمل﴾. وإنّما جمع على المعنى، ووحّد في ﴿فإنه﴾ حملاً على لفظ ﴿مَن﴾ ﴿فِيهِ﴾ في الوزر، أي: في جزاء الوزر، وهو: العذاب ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿ساء﴾ في حكم «بئس» وفيه ضمير مبهم يفسّره ﴿حملاً﴾. وهو تمييز. واللام في ﴿لهم﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: ساء الحمل حملاً وزرهم.

١٠٢ ـ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿ننفخ﴾: أبو عمرو ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ في القرن. أو: هو جمع صورة، أي: ننفخ الأرواح فيها. دليلهُ قراءة قتادة ﴿في الصُّوَر﴾ بفتح الواو، جمع صورة ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ حال، أي: عمياً، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وهذا لأنّ حدقة مَن يذهب نورُ بصره تزرق.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾

١٠٣ ـ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتسارّون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض سرّاً لهول ذلك اليوم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: عشر ليال. يستقصرون مدّة لبثهم في القبور، أو: في الدنيا؛ لما يعاينون من الشدائد التي تذكّرهم أيّام النعمة والسرور، فيتأسّفون عليها، ويصفونها بالقصر؛ لأنّ أيّام السرور قصار. أو: لأنّها ذهبت عنهم، والذاهب ـ وإن طالت مدّته ـ قصير بالانتهاء. أو: لاستطالتهم الآخرة. لأنّها أبد يستقصرُ إليها عمر الدنيا، ويُتقالّ لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد رجّح الله قول من يكون أشدّ تقلُّلاً منهم بقوله:

١٠٤ ـ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم قولاً: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾. وهو كقوله: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

١٠٥ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ سألوا النبي ﷺ ما يصنع بالجبال يوم القيامة؟ وقيل: لم يسأل. وتقديره: إن سألوك ﴿فَقُلْ﴾؛ ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟﴾ [الكهف: ٨٣] لأنها سؤالات تقدّمت، فورد جوابها. ولم يكن فيها معنى الشرط، فلم يذكر الفاء ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل، ثمّ يرسل عليها الرياح فتفرّقها، كما يذرى الطعام. وقال الخليل: يقلعها.

١٠٦ ـ ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارّها، أو: يجعل الضمير للأرض للعلم بها؛ كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ مستوية، ملساء.

لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ

١٠٧ ـ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ انخفاضاً ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ ارتفاعاً. والعِوج بالكسر وإن كان في المعاني، كالمفتوح في الأعيان. والأرض عين، ولكن لمّا استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه مّا، وإن دقّت الحيلة، ولطفت، جرت مجرى المعاني.

١٠٨ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال، أي: يوم إذ نسفت. وجاز أن يكون بدلاً بعد بدل من ﴿يوم القيامة﴾ ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ إلى المحشر، أي: صوت الداعي، وهو إسرافيل، حين ينادي على صخرة بيت المقدس: أيّتها العظام البالية، والجلود المتمزّقة، واللحوم المتفرّقة، هلمّي إلى عرض الرحمن فيُقْبِلون من كلّ أوب إلى صوبه، لا يعدلون عنه ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعوجّ له مدعوّ، بل يستوون إليه من غير انحراف، متّبعين لصوته ﴿وَخَشَعَتِ﴾ وسكنت ﴿ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ هيبة وإجلالاً ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً لتحريك الشفاه. وقيل: هو من همس الإبل، وهو: صوت أخفافها إذا مشت، أي: لا تسمع إلاّ خفق الأقدام، ونقلها إلى المحشر.

١٠٩ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ محل ﴿من﴾ رفع على البدل من الشفاعة، بتقدير حذف المضاف، أي: ﴿لا تنفع الشفاعة إلاّ﴾ شفاعة ﴿من أذن له الرحمن﴾ أي: أذن للشافع في الشفاعة ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: رضي قوله لأجله بأن يكون المشفوع له مسلماً. أو: نصب على أنّه مفعول ﴿تنفع﴾.

١١٠ ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما تقدّمهم من الأحوال، وما يستقبلونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي: بما أحاط به علم الله، فيرجع الضمير إلى ﴿ما﴾، أو: يرجع الضمير إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى ليس بمحاطٍ به.

١١١ ـ ﴿۞ وَعَنَتِ﴾ خضعت، وذلّت. ومنه قيل للأسير: عان ﴿ٱلْوُجُوهُ﴾

﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

أي: أصحابها ﴿لِلْحَيِّ﴾ الذي لا يموت، وكل حياة يتعقّبها الموت فهي كأن لم تكن ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾ الدائم، القائم على كلّ نفس بما كسبت، أو: القائم بتدبير الخلق ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ يئس من رحمة الله ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ من حمل إلى موقف القيامة شركاً؛ لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولا ظلم أشدّ مِن جعل المخلوق شريك مَن خلقه.

١١٢ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدّق بما جاء به محمد ﷺ. وفيه دليلٌ أنّه يستحقّ اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة، فإن الإيمان شرط قبولها ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿فلا يخفْ﴾ على النهي: مكّي ﴿ظُلْمًا﴾ أن يزداد في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا ينقص من حسناته. وأصل الهضم: النقص، والكسر.

١١٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على ﴿كذلك نقصّ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ وكرّرنا ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ﴾ الوعيد، أو: القرآن ﴿ذِكْرًا﴾ عظة، أو: شرفاً بإيمانهم به. وقيل: ﴿أو﴾ بمعنى الواو.

١١٤ ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ارتفع عن فنون الظنون، وأوهام الأفهام، وتنزّه عن مضاهاة الأنام، ومشابهة الأجسام ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي احتاج إليه الملوك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المحقّ في الألوهيّة. ولمّا ذكر القرآن وإنزاله، قال استطراداً: وإذا لقّنك جبريل ما يُوحى إليك من القرآن، فتأنّ عليك ريثما يسمعك، ويفهمك ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ بقراءته ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ بالقرآن ومعانيه. وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلاّ في العلم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

١١٥ ـ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ أي: أوحينا إليه ألاّ يأكل من الشجرة. يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدّم الملك إلى فلان، وأوعز إليه، وعزم عليه، وعهد إليه. فعطفت قصّة آدم عليه السلام على: ﴿وصرّفنا فيه من الوعيد﴾. والمعنى: وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم، ووصّيناه ألاّ يقرب الشجرة ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل وجودهم؛ فخالف إلى ما نهي عنه، كما أنّهم يخالفون، يعني: أنّ أساس أمر بني آدم على ذلك، وعِرْقُهم راسخ فيه ﴿فَنَسِيَ﴾ العهد، أي: النهي. والأنبياء ـ عليهم السلام ـ يؤاخذون بالنسيان الذي لو تكلّفوا لحفظوه ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قصداً إلى الخلاف لأمره. أو: لم يكن آدم من أولي العزم. والوجود بمعنى العلم، ومفعولاه ﴿له عزماً﴾، أو: بمعنى نقيض العدم، أي: وعدمنا له عزماً، و﴿له﴾ متعلّق بـ﴿نجد﴾.

١١٦ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ منصوب باذكر ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ قيل: هو السجود اللغويّ الذي هو الخضوع، والتذلّل. أو: كان آدم كالقبلة لضرب تعظيم فيه له ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن إبليس كان ملكاً من جنس المستثنى منهم. وقال الحسن: الملائكة لباب الخليقة من الأرواح، ولا يتناسلون، وإبليس من نار السموم. وإنّما صحَّ استثناؤه منهم؛ لأنّه كان يصحبهم ويعبد الله معهم ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنفة، كأنّه جواب لمن قال: لِمَ لم يسجد؟ والوجه ألاّ يقدر له مفعول، وهو السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فسجدوا﴾ وأن يكون معناه: أظهر الإباء، وتوقّف.

١١٧ ـ ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حيث لم يسجد لك، ولم ير فضلك ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فلا يكوننّ سبباً لإخراجكما ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ فتتعب في طلب القوت، ولم يقل: فتشقيا اكتفاءً لرؤوس الآي، أو: دخلت تبعاً، ولأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة. ورُوي: أنّه أهبط إلى آدم ثور أحمر، وكان يحرث عليه، ويمسح العرقَ من جبينه.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾

١١٨ ـ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ عن الملابس؛ لأنها معدّة أبداً فيها.

١١٩ ـ ﴿وَأَنَّكَ﴾[1] بالكسر: نافع، وأبو بكر، عطفاً على ﴿إنّ﴾ الأولى. وغيرهما بالفتح عطفاً على ﴿ألاّ تجوع﴾ ومحلّه نصب بأنّ، وجاز للفصل، كما تقول: إنّ في علمي أنك جالس ﴿لَا تَظْمَؤُا فِيهَا﴾ لا تعطش لوجود الأشربة فيها ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ لا يصيبك حرّ الشمس، إذ ليس فيها شمس، فأهلها في ظلّ ممدود.

١٢٠ ـ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أنهى إليه الوسوسة، كـ: أسرّ إليه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد ـ وهو الخلود ـ لأنّ من أكل منها خلد بزعمه، ولا يموت ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يفنى.

١٢١ ـ ﴿فَأَكَلَا﴾ أي: آدم وحوّاء ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ عوراتهما ﴿وَطَفِقَا﴾ طفق يفعل كذا، مثل: جعل يفعل. وهو كـ«كاد» في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، إلاّ أنّه للشروع في أوّل الأمر، وكاد للدنو منه ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: يُلْزقان الورق بسوءاتهما للتستر، وهو: ورق التين ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ضل عن الرأي. وعن ابن عيسى: خاب. والحاصل: أنّ العصيان وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهي. وقد يكون عمداً فيكون ذنباً، وقد لا يكون عمداً فيكون زلّة. ولمّا وصف فعله بالعصيان، خرج فعله من أن يكون رشداً، فكان غيّاً؛ لأنّ الغيّ خلاف الرشد. وفي التصريح بقوله: ﴿وعصى آدم ربّه فغوى﴾ والعدول عن قوله: وزلّ آدم، مزجرة بليغة، وموعظة كافة للمكلّفين، كأنّه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نُعِيَتْ على النبيّ

(١) في الأصل المخطوط: ﴿وإنك﴾.

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾﴾

المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر.

١٢٢ ـ ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ قرّبه إليه، أو: اصطفاه. وقرىء به. وأصل الكلمة الجمع، يقال: جُبِيَ إليّ كذا، فاجتبيته ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ قبل توبته ﴿وَهَدَىٰ﴾ وهداه إلى الاعتذار، والاستغفار.

١٢٣ ـ ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ يعني: آدم وحوّاء ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾ ياذرّية آدم ﴿لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ بالتحاسد في الدنيا، أو الاختلاف في الدين ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ كتاب، وشريعة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في العقبى. ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضمن الله لمن اتّبع القرآن ألاّ يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. يعني: أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتّبع كتاب الله، وامتثل أوامره، وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال، ومن عقابه.

١٢٤ ـ ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ عن القرآن ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ ضيقاً. وهو مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنّث. عن ابن جبير: نسلبه القناعة حتى لا يشبع. فمع الدين التسليم، والقناعة، والتوكّل، فتكون حياته طيّبة، ومع الإعراض: الحرص، والشحّ، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوّفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلاّ أظلم عليه وقته، ويشوّش عليه رزقه ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن الحجة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿أعمى﴾ البصر. وهو كقوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وهو الوجه.

١٢٥ ـ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ في الدنيا.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

١٢٦ ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت. ثم فسّر فقال: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر، وتركتها، وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك، ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

١٢٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لمّا توعّد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمى في العقبى، ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى﴾ أي: للحشر على العمى؛ الذي لا يزول أبداً أشدّ من العيش المنقضي.

١٢٨ ـ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: الله. بدليل قراءة زيد عن يعقوب ـ بالنون ـ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿لهم﴾ ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ﴾ يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد، وثمود، وقوم لوط، ويعاينون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول، إذا تفكّروا علموا أن استئصالهم لكفرهم، فلا يفعلون مثل ما فعلوا.

١٢٩ ـ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الحكم بتأخير العذاب عن أمّة محمد ﷺ ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لازماً. فاللزام مصدر لازم، فوصف به ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ القيامة. وهو معطوف على ﴿كلمة﴾. والمعنى: ﴿ولولا﴾ حكم سبق بتأخير العذاب عنهم ﴿وأجل مسمّى﴾ وهو القيامة ﴿لكان﴾ العذاب لازماً لهم في الدنيا، كما لزم القرون الماضية الكافرة.

١٣٠ ـ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك. ﴿وَسَبِّحْ﴾ وصلّ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي: وأنت حامد لربّك على أن وفّقك للتسبيح، وأعانك عليه

قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: وتعمَّدْ آناء الليل، أي: ساعاته ﴿وأطراف النهار﴾ مختصّاً لها بصلاتك. وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العَتَمة، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص، كما اختصّت في قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] عند البعض، وإنّما جمع ﴿وأطراف النهار﴾ وهما طرفان لأمن الإلباس. وهو عطف على ﴿قبل﴾ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ لعلّ للمخاطب، أي: اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك، ويسر قلبك. و﴿تُرضى﴾: عليّ، وأبو بكر، أي: يرضيك ربّك.

١٣١ ـ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: نظر عينيك. ومدّ النظر: تطويله، وأن لا يكاد يردّه استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به. وفيه: أنّ النظر غير الممدود معفوّ عنه، وذلك أن يباده الشيء بالنظر، ثمّ يغض الطرف. ولقد شدّد المتّقون في وجوب غضّ البصر عن أبنية الظلمة، وعِدَدِ الفسقة في ملابسهم، ومراكبهم، حتّى قال الحسن: لا تنظروا إلى دقدقة هماليج[1] الفسقة، ولكن انظروا كيف يلوح ذلّ المعصية من تلك الرقاب!. وهذا لأنّهم إنّما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظّارة، فالناظر إليها محصّل لغرضهم، ومغر لهم على اتخاذها ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة. ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير، والفعل الواقع على ﴿منهم﴾ كأنّه قال: إلى الذي متّعنا به ـ وهو أصناف ـ بعضَهم، وناساً منهم ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ زينتها، وبهجتها. وانتصب على الذمّ، أو: على إبداله من محلّ ﴿به﴾. أو: على إبداله من ﴿أزواجاً﴾ على تقدير: ذوي زهرة ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم حتّى يستوجبوا العذاب لوجود

(١) «هماليج»: جمع هِمْلاج، وهو البرذون. وحُسْن سَيْر الدابة في سُرْعة.

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾

الكفران منهم، أو: لنعذّبهم في الآخرة بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ ثوابه، وهو الجنّة، أو: الحلال الكافي. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ممّا رزقوا.

١٣٢ ـ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أمّتك، أو: أهل بيتك ﴿بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ﴾ أنت. دوام عليها ﴿عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نسألك أن ترزق نفسك، ولا أهلك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيّاهم، فلا تهتمّ لأمر الرزق، وفرّغ بالك لأمر الآخرة؛ لأنّ مَن كان في عمل الله كان الله في عمله. وعن عروة بن الزبير: أنّه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: ﴿ولا تمدّنّ عينيك﴾ الآية، ثم ينادي: الصلاة! الصلاة! رحمكم الله. وكان بكر بن عبد الله المزنيّ إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله. وعن مالك بن دينار: مثله. وفي بعض المسانيد: أنّه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرّ أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وحسن العاقبة لأهل التقوى، بحذف المضافين.

١٣٣ ـ ﴿وَقَالُوا﴾ أي: الكافرون ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ هلاّ ﴿يأتينا﴾ محمد ﴿بآية من ربّه﴾ تدلّ على صحّة نبوّته ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ مدنيّ، وبصريّ، وحفص ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أي: الكتب المتقدّمة، يعني: أنّهم اقترحوا على عادتهم في التعنّت آية على النبوّة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات، وأعظمها في باب الإعجاز؟ ـ يعني: القرآن ـ من قِبَل: أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة، ودليل صحّته؛ لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحّة ما فيها.

١٣٤ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل الرسول، أو: القرآن ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هلاّ ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ بالنصب لأنه جواب

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

الاستفهام بالفاء ﴿ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بنزول العذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ في العقبى.

١٣٥ - ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ كلّ واحد منّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر للعاقبة، ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا جاءت القيامة ﴿مَنْ أَصْحَـٰبُ﴾ مبتدأ وخبر، ومحلّهما نصب ﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى النعيم المقيم.

قال عليه الصلاة والسلام: «لا يقرأ أهل الجنّة إلاّ طه ويس»[1].

* * *

(١) قال الحافظ: رواه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب. (حاشية الكشاف ٣/ ١٠٠).
وروواه ابن مردويه من حديث أبي أمامة. (الدر المنثور ٥/ ٥٤٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾

١ ـ ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ دنا. ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام صلة لـ﴿اقترب﴾. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ المراد بالناس: المشركون؛ لأنّ ما يتلوه بعد من صفات المشركين ﴿حِسَابُهُمْ﴾ وقت محاسبة الله إيّاهم، ومجازاته على أعمالهم، يعني: يوم القيامة. وإنّما وصفه بالاقتراب لقلّة ما بقي بالإضافة إلى ما مضى، ولأنّ كلّ آت قريب ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ عن حسابهم، وعمّا يفعل بهم ثَمّ ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التأهّب لذلك اليوم. فالاقتراب عامّ، والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلّفين، فربّ غافل عن حسابه؛ لاستغراقه في دنياه، وإعراضه عن مولاه، وربّ غافل عن حسابه؛ لاستهلاكه في مولاه، وإعراضه عن دنياه، فهو لا يفيق إلاّ برؤية المولى. والأوّل إنما يفيق في عسكر الموتى، فالواجب عليك أن تحاسِب نفسك قبل أن تحاسَب، وتنتبه للعرض قبل أن تنبّه، وتعرض عن الغافلين، وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين؛ لتفوز بلقاء ربّ العالمين.

٢ ـ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ شيء من القرآن ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ في التنزيل إثباته، مبتدأ تلاوته، قريب عهده باستماعهم، والمراد به: الحروف المنظومة، ولا خلاف في حدوثه ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ من النبيّ عليه الصلاة والسلام، أو غيره ممن يتلوه ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾

٣ ـ ﴿لَاهِيَةً﴾ حال من ضمير ﴿يلعبون﴾. أو: ﴿وهم يلعبون﴾ و﴿لاهية﴾ حالان من الضمير في ﴿استمعوه﴾. ومن قرأ ﴿لاهية﴾ بالرفع يكون خبراً بعد خبر؛ لقوله: ﴿وهم﴾. وارتفعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بـ: لاهيةً، وهي من: لها عنه: إذا ذهل، وغفل. والمعنى: قلوبهم غافلة عمّا يراد بها ومنها. وقال أبو بكر الورّاق: القلب اللاهي: المشغول بزينة الدنيا وزهرتها، والغافل عن الآخرة وأهوالها ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وبالغوا في إخفاء ﴿النَّجْوَى﴾، وهي: اسم من التناجي. ثم أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من واو: ﴿وأسرّوا﴾ إيذاناً بأنّهم الموسومون بالظلم فيما أسرّوا به، وجاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو: هو مجرور المحل لكونه صفة، أو بدلاً عن الناس، أو هو: منصوب المحلّ على الذم، أو: هو مبتدأ خبره ﴿أسرّوا النجوى﴾، فقدّم عليه، أي: والذين ظلموا أسرّوا النجوى ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الكلام كلّه في محلّ النصب بدل من ﴿النجوى﴾، أي: وأسرّوا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلّق بقالوا مضمراً، والمعنى: أنّهم اعتقدوا أنّ الرسول لا يكون إلاّ ملكاً، وأنّ كلّ من ادّعى الرسالة من البشر، وجاء بالمعجزة، فهو ساحر، ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون، وتعاينون أنّه سحر؟!

٤ ـ ﴿قَالَ رَبِّي﴾: حمزة، وعليّ، وحفص، أي: ﴿قال﴾ محمّد. وغيرهم: ﴿قل ربي﴾ أي: ﴿قل﴾ يا محمد للذين أسرّوا النجوى ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم قول كلّ قائل هو في السماء والأرض سرّاً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائرهم.

٥ ـ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أضربوا عن قولهم: هو سحر، إلى: أنّه تخاليط أحلام رآها في نومه، فتوهّمها وحياً من الله إليه، ثمّ إلى

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾

أنّه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنّه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج[١]، والمبطل رجّاع غير ثابت على قول واحد، ثمّ قالوا: إن كان صادقاً في دعواه، وليس الأمر كما يظنّ، ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ بمعجزة ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ كما أرسل من قبله باليد البيضاء، والعصا، وإبراء الأكمه، وإحياء الموتى. وصحّة التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ من حيث إنّه في معنى: كما أتى الأوّلون بالآيات؛ لأنّ إرسال الرسل متضمّن للإتيان بالآيات. ألاَ ترى أنه لافرقَ بين قولك: أرسل محمّد، وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة.

٦ ـ فردّ الله عليهم قولهم بقوله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ صفة لقرية عند مجيء الآيات المقترحة؛ لأنّهم طلبوها تعنّتاً ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أولئك لم يؤمنوا بالآيات لمّا أتتهم، أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا، مع أنّهم أعتى منهم؟ والمعنى: أنّ أهل القرى المهلكة اقترحوا على أنبيائهم الآيات، وعهدوا أنّهم يؤمنون عندها، فلمّا جاءتهم نكثوا، وخالفوا، فأهلكهم الله، فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون؛ لنكثوا أيضاً.

٧ ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[٢]: نُوحي حفص ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ العلماء بالكتابين، فإنّهم يعرفون: أنّ الرسل الموحى إليهم كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة، وكان أهلُ مكة يعتمدون على قولهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ثمّ بيّن أنّه كمن تقدّمه من الأنبياء بقوله:

---

(١) لجلج: متردِّد، وغير بيِّن.

(٢) أثبتت في الأصل ﴿يُوحىٰ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ١٣٠).

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

٨ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ وحّد الجسد لإرادة الجنس ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة لـ ﴿جسداً﴾، يعني: وما جعلنا الأنبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ كأنّهم قالوا: هلاّ كان ملكاً لا يُطعَم ويخلّد، معتقدين: أنّ الملائكة لا يموتون، أو: مسمّين بقاءهم الممتدّ وحياتهم المتطاولة: خلوداً.

٩ ـ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ بإنجائهم. والأصل: في الوعد، مثل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ ممّا حلّ بقومهم ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ هم المؤمنون ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدّ بالكفر. ودلّ الإخبار بإهلاك المسرفين على أنّ ﴿من نشاء﴾ غيرهم.

١٠ ـ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم إن عملتم به، أو: لأنّه بلسانكم، أو: فيه ذكر دينكم، ودنياكم. والجملة، أي: ﴿فيه ذكركم﴾ صفة لـ ﴿كتاباً﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنون.

١١ ـ ﴿وَكَمْ﴾ نصب بقوله: ﴿قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: أهلها، بدليل قوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة. وهي واردة عن غضب شديد، وسخط عظيم؛ لأنّ القصم أفظع الكسر، وهو الكسر الذي يبيّن تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم فإنّه كسر بلا إبانة ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ فسكنوا مساكنهم.

١٢ ـ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟﴾ أي: المهلكون ﴿بَأْسَنَآ﴾ عذابنا، أي: علموا علم حسّ، ومشاهدة ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ من القرية، و﴿إذا﴾ للمفاجأة، و﴿هم﴾ مبتدأ، والخبر ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين. والركض: ضرب الدابّة بالرجل، فيجوز أن يركبوا دوابّهم، يركضونها هاربين من قريتهم لمّا أدركتهم مقدّمة العذاب، أو: شبهوا في سرعة عَدْوِهم على أرجلهم بالراكبين، الراكضين لدوابّهم، فقيل لهم:

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۝١٥ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝١٦﴾

١٣، ١٤ ـ ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ والقائل بعض الملائكة ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ نعمتم فيه من الدنيا، ولين العيش. قال الخليل: المترف: الموسع عليه عيشه، القليل فيه همّه ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ـ استهزاء بهم ـ: ﴿ارجعوا﴾ إلى نعيمكم ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ غداً عمّا جرى عليكم، ونزل بأموالكم، فتجيبوا السائل عن علم، ومشاهدة. أو: ارجعوا، واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتّى يسألكم عبيدكم، ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقولوا لكم: بم تأمرون؟ وكيف نأتي ونذر؟ كعادة المنعمين المُخَدَّمين، أو: يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، أو: يسألكم الوافدون عليكم والطّماع، ويستمطرون سحاب أكفكم. أو: قال بعضهم لبعض: ﴿لا تركضوا وارجعوا﴾ إلى منازلكم وأموالكم ﴿لعلكم تسألون﴾ مالاً وخراجاً، فلا تُقتَلون. فنودي من السماء: يا لثارات الأنبياء! وأخذتهم السيوف. فثَمّ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا حين لا ينفع الاعتراف.

١٥ ـ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ هي إشارة إلى ﴿يا ويلنا﴾ ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ دعاءهم. و﴿تلك﴾ مرفوع على أنّه اسم زالت، و﴿دعواهم﴾ الخبر. ويجوز العكس ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ مثل الحصيد، أي: الزرع المحصود. ولم يجمع كما لم يجمع المقدّر ﴿خَامِدِينَ﴾ ميّتين خمود النار، و﴿حصيداً خامدين﴾ مفعول ثانٍ لجعل، أي: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود، كقولك: جعلته حلواً حامضاً، أي: جعلته جامعاً للطعمين.

١٦ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ اللعب فعل يروق أوّله، ولا ثبات له. و﴿لاعبين﴾ حال من فاعل ﴿خلقنا﴾. والمعنى: وما سوّينا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع، ﴿وما بينهما﴾ من أصناف الخلق، للهو واللعب، وإنما سوّيناها لِيُسْتَدَلَّ بها على قدرة مدبّرها، ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقضيه حكمتنا.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

١٧ ـ ثم نزّه ذاته عن سمات الحدث بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ـ أي: ولداً، أو امرأة. كأنّه ردّ على من قال: عيسى ابنه، ومريم صاحبته ـ ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من الولدان، أو: الحور ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: ﴿إن كنّا﴾ ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله لاستحالته في حقّنا، وقيل: هو نفي، كقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] أي: ما كنّا فاعلين.

١٨ ـ ﴿بَلْ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو، وتنزيه منه لذاته، كأنّه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو، بل من سنتنا أن ﴿نَقْذِفُ﴾ أي: نرمي، ونسلّط ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ الشيطان. أو: بالإسلام على الشرك، أو: بالجدّ على اللعب ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيكسره، ويدحض الحقّ الباطل. وهذه استعارة لطيفة؛ لأنّ أصل استعمال القذف، والدمغ في الأجسام، ثمّ استعير القذف لإيراد الحقّ على الباطل، والدمغ لإذهاب الباطل. فالمستعار منه حسي، والمستعار له عقليّ، فكأنّه قيل: بل نورد الحقّ الشبيه بالجسم القوي على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف، فيبطله إبطال الجسم القويّ الضّعيفَ ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ أي: الباطل ﴿زَاهِقٌ﴾ هالك ذاهب ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله من الولد، ونحوه.

١٩ ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فأنّى يكون شيء منه ولداً له، وبينهما تناف؟ ويوقف على ﴿الأرض﴾؛ لأنّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ ـ منزلة ومكانة، لا منزلاً ومكاناً، يعني: الملائكة: مبتدأ، خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتعظّمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يَعْيَوْن.

٢٠ ـ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يسبحون﴾ أي: تسبيحهم متّصل دائم في جميع أوقاتهم، لا تتخلّله فترة بفراغ، أو: بشغل آخر، فتسبيحهم جارٍ مجرى التنفّس منّا.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

٢١ـ ثم أضرب عن المشركين منكراً عليهم وموبّخاً، فجاء بـ«أم» التي بمعنى بل والهمزة، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ يحيون الموتى. و: ﴿من الأرض﴾ صفة لآلهة؛ لأنّ آلهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب، والفضّة، والحجر. و: تعبد في الأرض، فنسبت إليها، كقولك: فلان من المدينة، أي: مدنيّ. أو: متعلّق بـ﴿اتخذوا﴾، ويكون فيه بيان ابتداء غاية الاتخاذ. وفي قوله: ﴿هم ينشرون﴾ زيادة توبيخ ـ وإن لم يدّعوا أنّ أصنامهم تحيي الموتى، وكيف يدّعون، ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات ـ لأنّه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشار؛ لأنّ العاجز عنه لا يصحّ أن يكون إلهاً، إذ لا يستحقّ هذا الاسم إلاّ القادر على كلّ مقدور، والإنشار من جملة المقدورات. وقرأ الحسن: ﴿يَنْشُرون﴾ بفتح الياء، وهما لغتان. أنشر الله الموتى، ونشرها، أي: أحياها.

٢٢ـ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا﴾ أي: غير ﴿ٱللَّهُ﴾ وصفت ﴿آلهة﴾ بإلاّ، كما وصفت بغير لو قيل: آلهة غير الله. ولا يجوز رفعه على البدل؛ لأنّ «لو» بمنزلة «إنّ» في أنّ الكلام معه موجب. والبدل لا يسوغ إلاّ في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١] ولا يجوز نصبه استثناء؛ لأنّ الجمع إذا كان منكراً لا يجوز أن يستثنى منه عند المحقّقين؛ لأنّه لا عموم له، بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء. والمعنى: لو كان يدبر أمر السموات والأرض آلهة شتّى غير الواحد الذي هو فاطرهما ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لخربتا لوجود التمانع. وقد قرّرناه في أصول الكلام. ثم نزّه ذاته فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد، والشريك.

٢٣ـ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنّه المالك على الحقيقة. ولو اعترض على السلطان بعض عبيده ـ مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه، وعدم الملك الحقيقي ـ لاستقبح ذلك، وعدّ سفهاً. فمن هو مالك الملوك، ورب الأرباب، وفعله صواب كلّه، أولى بألاّ يعترض عليه ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ لأنّهم مملوكون خطّاؤون،

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

فما أخلقهم بأن يقال لهم: «لم فعلتم؟» في كلّ شيء فعلوه. وقيل: ﴿وهم يسألون﴾ يرجع إلى المسيح والملائكة، أي: هم مسؤولون، فكيف يكونون آلهة، والألوهيّة تنافي [الجنسية و][1] المسؤوليّة؟

٢٤ ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ الإعادة لزيادة الإفادة، فالأوّل للإنكار من حيث العقل، والثاني من حيث النقل. أي: وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك، فقيل لمحمد: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجّتكم على ذلك. وذا عقليّ، وهو يأباه كما مرّ، أو نقليّ، وهو الوحي، وهو أيضاً يأباه، فإنّكم لا تجدون كتاباً من الكتب السماوية إلا وفيه توحيده، وتنزيهه عن الأنداد ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يعني: أمّته ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ يعني: أمم الأنبياء من قبلي. وهو واردٌ في توحيد الله، ونفي الشركاء عنه ﴿معيَ﴾: حفص. فلمّا لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: القرآن. وهو نصب بـ﴿يعلمون﴾ وقرىء: ﴿الحقُّ﴾ أي: هو الحق ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن النظر فيما يجب عليهم.

٢٥ ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ وحمّاد ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وحّدوني. فهذه الآية مقرّرة لما سبقها من آي التوحيد.

٢٦ ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فنزّه ذاته عن ذلك، ثمّ أخبر عنهم بأنّهم عباد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: بل هم عباد مكرمون، مشرّفون، مقرّبون، ليسوا بأولاد؛ إذ العبوديّة تنافي الولادة.

(١) من المطبوع.

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا

---

٢٧ ـ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: بقولهم، فأنيبت اللام مناب الإضافة، والمعنى: أنهم يتّبعون قوله، فلا يسبق قولهم قوله، ولا يتقدّمون قوله بقولهم ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كما أنّ قولهم، تابع لقوله، فعملهم أيضاً مبنيّ على أمره، لا يعملون عملاً لم يؤمروا به.

٢٨ ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما قدّموا وأخّروا من أعمالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي: لمن رضي الله عنه، أو قال: لا إله إلاّ الله ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

٢٩ ـ ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة: ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ـ ﴿إنّيَ﴾: مدنيّ، وأبو عمرو ـ ﴿فَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ـ أي: ﴿فذلك﴾ القائل ـ خبره ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. وهما جواب الشرط ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين الذين وضعوا الإلهية في غير موضعها. وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقّق عصمتهم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة والضحاك: قد تحقّق الوعيد في إبليس، فإنّه ادّعى الإلهيّة لنفسه، ودعا إلى طاعة نفسه، وعبادته.

٣٠ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (ألم ير) مكيّ ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا﴾ أي: جماعة السموات وجماعة الأرض؛ فلذا لم يقل: كنّ ﴿رَتْقًا﴾ بمعنى المفعول، أي: ﴿كانتا﴾ مرتوقتين. وهو مصدر؛ فلذا صلح أن يقعَ موقعَ مرتوقتين ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ فشققناهما. والفتق: الفصل بين الشيئين. والرتق: ضد الفتق. فإن قيل: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا: إنّه وارد في القرآن؛ الذي هو معجزة، فقام مقام المرئيّ المشاهد؛ ولأنّ الرؤية بمعنى العلم، وتلاصق الأرض والسماء، وتباينهما جائزان في العقل. فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بدّ له من مخصّص، وهو القديم جلّ جلاله. ثمّ قيل: إنّ السماء كانت لاصقة بالأرض، لا فضاء بينهما ﴿ففتقناهما﴾ أي: فصلنا بينهما

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ

بالهواء: وقيل: كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة، ففتقها الله، وجعلها سبع سموات. وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها، وجعلها سبع أرضين. وقيل: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: خلقنا من الماء كلّ حيوان، كقوله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] أو: كأنّما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه، وحبّه له، وقلّة صبره عنه، كقوله ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون بما يشاهدون.

٣١ ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت. من: رسا: إذا ثبت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ لئلا تضطّرب بهم، فحذف لا، واللام، وإنّما جاز حذف «لا» لعدم الإلباس، كما يُزاد كذلك في: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ طرقاً واسعة، جمع: فجّ، وهو الطريق الواسع. ونصب على الحال من ﴿سُبُلًا﴾ مُقَدَّمةً. فإن قلت: أيّ فرق بين قوله تعالى ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] وبين هذه؟ قلت: الأوّل للإعلام بأنّه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني: لبيان أنّه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثَمَّ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليهتدوا بها إلى البلاد المقصودة.

٣٢ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ في موضعه عن السقوط، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] أو: ﴿محفوظاً﴾ بالشهب عن الشياطين، كما قال ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ عن الأدلّة التي فيها كالشمس، والقمر، والنجوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكّرين فيها فيؤمنون.

٣٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ لتتصرّفوا فيه ﴿وَٱلشَّمْسَ﴾ لتكون سراج النهار ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ ليكون سراج الليل ﴿كُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، أي: كلّهم، والضمير للشمس والقمر. والمراد

﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

بهما: جنس الطوالع. وجُمع جَمْع العقلاء للوصف بفعلهم، وهو: السباحة ﴿فِي فَلَكٍ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الفلك: السماء. والجمهور على أنّ الفلك موج مكفوف تحت السماء، تجري فيه الشمس، والقمر، والنجوم. و﴿كل﴾ مبتدأ، خبره ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون أو يدورون. والجملة في محلّ النصب على الحال من الشمس، والقمر.

٣٤ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ البقاء الدائم ﴿أَفَإِين مِّتَّ﴾ بكسر الميم: مدنيّ، وكوفيّ غير أبي بكر ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ والفاء الأوّل لعطف جملة على جملة، والثاني: لجزاء الشرط. كانوا يقدّرون أنّه سيموت، فنفى الله عنه الشماتة بهذا، أي: قضى الله ألا يخلّد في الدنيا بشر ﴿أفإن متّ﴾ أنت أيبقى هؤلاء؟

٣٥ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم﴾ نختبركم. سمّي ابتلاء، وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنّه في صورة الاختبار ﴿بِالشَّرِّ﴾ بالفقر، والضرّ ﴿وَالْخَيْرِ﴾ الغِنى، والنفع ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكّد لنبلوكم من غير لفظه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر، والشكر. وعن ابن ذكوان: ﴿تَرْجِعون﴾.

٣٦ ـ ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتّخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ مفعول ثان لـ: ﴿يتّخذونك﴾. نزلت في أبي جهل مرّ به النبيّ عليه الصلاة والسلام فضحك، وقال: هذا نبيّ بني عبد مناف ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ﴾ يعيب ﴿آلِهَتَكُمْ﴾. والذكر يكون بخير وبخلافه. فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدوّاً فذمّ ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بذكر الله، وما يجب أن يذكر به من الوحدانيّة ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ لا يصدّقون به أصلاً، فهم أحقّ بأن يُتّخذوا هزواً منك، فإنّك محقّ، وهم مبطلون. وقيل: ﴿بذكر الرحمن﴾ أي:

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

بما أنزل عليك من القرآن ﴿هم كافرون﴾ جاحدون. والجملة في موضع الحال، أي: يتّخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية، وهي: الكفر بالله. وكرّر ﴿هم﴾ للتأكيد، أو: لأنّ الصلة حالت بينه وبين الخبر، فأعيد المبتدأ.

٣٧ ـ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فُسّر بالجنس. وقيل: نزلت حين كان نضر بن الحارث يستعجل بالعذاب. والعجَل والعجَلة مصدران، وهو: تقديم الشيء على وقته. والظاهر أنّ المراد الجنس، وأنّه ركب فيه العجلة، فكأنّه خلق من العجل، ولأنّه يكثر منه. والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم: خلق من الكرم. فقدّم أوّلاً ذمّ الإنسان على إفراط العجلة، وأنّه مطبوع عليها، ثمّ منع، وزجر كأنّه قال: ليس ببدع منه أن يستعجل، فإنّه مجبول على ذلك، وهو طبعه، وسجيته، وقد رُكِّبَ فيه. وقيل: العجل: الطين بلغة حمير، قال شاعرهم:

والنبع في الصخرة الصَّمّاء مَنْبِتُه والنَّخْلُ تُنْبِتُ بين الماءِ والعَجَلِ[1]

وإنّما منع عن الاستعجال، وهو مطبوع عليه، كما أمره بقمع الشهوة، وقد ركبها فيه؛ لأنّه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة، وترك العجلة. و﴿مِنْ عجلٍ﴾ حال، أي: عجلاً ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ نقماتي ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها. وهو بالياء عند يعقوب. وافقه سهل، وعياش في الوصل.

٣٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ إتيان العذاب، أو: القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قيل: هو أحد وجهي استعجالهم.

٣٩ ـ ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جواب «لو» محذوف. و﴿حين﴾ مفعول به ليعلم، أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ وهو وقت تحيط

(١) «النبع»: شجر تتخذ منه القسي. «الصماء»: الصلبة.

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

بهم فيه النار من وراء وقدّام، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر، والاستهزاء، والاستعجال. ولكنّ جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

٤٠ ـ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتحيّرهم، أي: لا يكفّونها، بل تفجؤهم فتغلبهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فلا يقدرون على دفعها ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون.

٤١ ـ ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ فحلّ ونزل ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. سلّى رسول الله ﷺ عن استهزائهم بأنّ له في الأنبياء أسوة، وأنّ ما يفعلونه به يحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا.

٤٢ ـ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من عذابه إن أتاكم ليلاً أو نهاراً ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: بل هم معرضون عن ذكره، ولا يخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، حتّى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالىء، فصلحوا للسؤال عنه. والمعنى: أنّه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالىء، ثمّ بيّن أنّهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم. ثمّ أضرب عن ذلك بقوله:

٤٣ ـ ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ لما في ﴿أم﴾ من معنى «بل» فقال: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا، وحفظنا؟ ثم استأنف بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فبيّن: أنّ ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها، ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره، وينصره؟ ثمّ قال:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

٤٤ ـ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنّما هو منّا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلاّ تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً، كما متّعنا غيرهم من الكفّار، وأمهلناهم، حتّى طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، فظنّوا أنهم دائمون على ذلك. وهو أمل كاذب ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي: ننقص أرض الكفر، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها، وإظهارهم على أهلها، وردّها داراً للإسلام. وذكر ﴿نأتي﴾ يشير بأن الله يجريه على أيدي المسلمين، وأنّ عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين، وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أَوَ كفار مكّة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟! أي: ليس كذلك، بل يغلبهم رسول الله ﷺ وأصحابه بنصرنا.

٤٥ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ أخوّفكم من العذاب بالقرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ بفتح الياء والميم، ورفع ﴿الصمّ﴾ ﴿ولا تُسمع الصمّ﴾: شاميّ، على خطاب النّبيّ ﷺ ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ يخوفون. واللام في ﴿الصمّ﴾ للعهد. وهو إشارةٌ إلى هؤلاء المنذرين. والأصل: ولا يسمعون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامّهم، وسدّهم أسماعهم إذا ما أنذروا.

٤٦ ـ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ دفعة يسيرة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ صفة لـ: ﴿نفحة﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: ولئن مسّهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لذلّوا، ودعوا بالويل على أنفسهم، وأقرّوا بأنّهم ظلموا أنفسهم حين تصامّوا، وأعرضوا. وقد بولغ حيث ذكر المسّ والنفحة؛ لأنّ النفح يدلّ على القلّة، يقال: نفحه بعطيّة: رضخه بها، مع أنّ بناءها للمرّة.

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

---

٤٧ ـ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ جمع ميزان، وهو: ما يوزن به الشيء فيعرف كميته. وعن الحسن: هو ميزان، له كفّتان ولسان. وإنّما جمع الموازين لتعظيم شأنها، كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] والوزن لصحائف الأعمال في قول ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ وصفت الموازين بالقسط، وهو العدل، مبالغة، كأنها في أنفسها قسط. أو: على حذف المضاف، أي: ذوات القسط ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأهل يوم القيامة، أي: لأجلهم ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ من الظلم. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ أي: وإن كان الشيء مثقال حبّة. ﴿مِثْقَالُ﴾ بالرفع: مدنيّ. وكذا في لقمان على ﴿كان﴾ التامّة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ صفة لـ: ﴿حبّة﴾ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها. وأنّث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبّة، كقولهم: ذهبتْ بعض أصابعهم ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ عالمين حافظين، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه.

٤٨ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾ قيل: هذه الثلاثة هي التوراة، فهي فرقان بين الحقّ والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصّل به إلى سبيل النجاة، وذِكْرٌ. أي: شرف، أو: وعظ، وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح داريهم. ودخلت الواو على الصفات، كما في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٩] وتقول: مررت بزيد الكريم، والعالم، والصالح. ولمّا انتفع بذلك المتّقون خصّهم بقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٤٩ ـ ومحل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جرّ على الوصفيّة. أو: نصب على المدح، أو: رفع عليه ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخافونه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال، أي: يخافونه في الخلاء ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة، وأهوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

٥٠ ـ ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ كثير الخير، غزير النفع ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمّد ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام توبيخ، أي: جاحدون أنّه منزل من عند الله.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

٥١ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ هداه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل موسى وهارون، أو: من قبل محمد ﷺ ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ ﴾ بإبراهيم، أو: برشده ﴿ عَٰلِمِينَ ﴾ أي: علمنا أنّه أهل لما آتيناه.

٥٢ ـ ﴿ إِذْ ﴾ إمّا أن تتعلّق بـ: ﴿آتينا﴾، أو: بـ: ﴿رشده﴾ ﴿ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ﴾ أي: الأصنام المصوّرة على صورة السباع، والطيور، والإنسان. وفيه تجاهلٌ لهم ليحقر آلهتهم، مع علمه بتعظيمهم لها ﴿ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ لأجل عبادتها مقيمون.

٥٣ ـ فلمّا عجزوا عن الإتيان بالدليل على ذلك ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ فقلّدناهم.

٥٤ ـ ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أراد أنّ المقلِّدين والمقلَّدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر، لا يخفى على عاقل. وأكّد بـ: ﴿أنتم﴾ ليصحّ العطف؛ لأنّ العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع.

٥٥ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ بالجدّ ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ أي: أجادّ أنت فيما تقول أم لاعب؟ استعظاماً منه إنكارهُ عليهم، واستبعاداً أن يكون ما هم عليه ضلالاً. فَثَمَّ أضرب عنهم مخبراً بأنّه جادّ فيما قال، غير لاعب، متثبتاً لربوبيّة الملك العلّام، وحدوث الأصنام بقوله:

٥٦ ـ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ أي: التماثيل، فأنّى يعبد المخلوق، ويجحد الخالق؟! ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ المذكور من التوحيد شاهد ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

٥٧ ـ ﴿وَتَاللَّهِ﴾ ـ أصله: والله. وفي التاء معنى التعجّب، كأنه تعجب من تسهُّل الكيد على يده مع صعوبته، وتعذّره لقوّة سلطنة نمرود ـ ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأكسرنّها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال ذلك سرّاً من قومه، فسمعه رجل واحد، فعرّض بقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي: سأسقم؛ ليتخلّف فرجع إلى بيت الأصنام.

٥٨ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ قِطَعاً ـ من: الجذّ، وهو: القطع، جمع جذاذة، كزجاجة وزجاج. ﴿جِذاذاً﴾ بالكسر عليّ؛ جمع جذيذ، أي: مجذوذ، كخفيف وخفاف ـ ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ للأصنام، أو، للكفّار. أي: فكسّرها كلّها بفأس في يده إلاّ كبيرها، فعلّق الفأس في عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه عن كاسرها، فيتبيّن لهم عجزه، أو: إلى إبراهيم ليحتجّ عليهم، أو: إلى الله لما رأوا عجز آلهتهم.

٥٩ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الكفّار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إنّ من فعل هذا الكسر لشديد الظلم؛ لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير، والتعظيم.

٦٠ ـ ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الجملتان صفتان لـ: ﴿فَتًى﴾، إلا أنّ الأوّل ـ وهو ﴿يذكرهم﴾ أي: يعيبهم ـ لا بدّ منه لـ: «سمع»؛ لأنك لا تقول: سمعت زيداً، وتسكت، حتى تذكر شيئاً مما يسمع، بخلاف الثاني. وارتفاع ﴿إبراهيم﴾ بأنّه فاعل ﴿يقال﴾. فالمراد الاسم لا المسمّى، أي: الذي يقال له هذا الاسم.

٦١ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: نمرود، وأشراف قومه ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ﴾ احضروا إبراهيم ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ في محلّ الحال بمعنى معايَناً مشاهَداً، أي: بمرأى منهم، ومنظر ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما سُمع منه، أو: بما فعله. كأنّهم كرهوا

قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

عقابه بلا بيّنة. أو: يحضرون عقوبتنا له.

٦٢ ـ فلمّا أحضروه ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟

٦٣ ـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ عن الكسائي: أنّه يَقِفُ عليه، أي: فعله مَنْ فعَله. وفيه حذف الفاعل، وأنّه لا يجوز. وجاز أن يكون الفعل مسنداً إلى الفتى المذكور في قوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾، أو إلى إبراهيم في قوله: ﴿يا إبراهيم﴾. ثمّ قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وهو مبتدأ وخبر. والأكثر على أنه لا وقف، والفاعل ﴿كبيرهم﴾. و﴿هذا﴾ وصف، أو: بدل. ونسب الفعل إلى كبيرهم، وقَصَدَ تقريره لنفسه، وإثباته لها، على أسلوب تعريضيّ، تبكيتاً لهم، وإلزاماً للحجّة عليهم؛ لأنّهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم، وأنّه لا يصلح إلهاً. وهذا كما قال لك صاحبك، وقد كتبت كتاباً بخطّ رشيق: أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أميّ، فقلت له: بل كتبته أنت. كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأميّ؛ لأنّ إثباته للعاجز منكما، والأمر دايرٌ بينكما، استهزاءٌ به، وإثبات للقادر. ويمكن أن يقال: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفّة، وكان غيظ كبيرها أشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنّ الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه. ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبَهم، كأنّه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإنّ من حقّ من يُعبد، ويُدعى إلهاً أن يقدر على هذا. ويحكى أنّه قال: غضب أن تُعبد هذه الصغار معه، وهو أكبر منها فكسّرهنّ. أو: هو معلقٌ بشرطٍ لا يكون، وهو نطق الأصنام، فيكون نفياً للمخبَرِ به، أي: بل فعله كبيرهم ﴿إن كانوا ينطقون﴾ وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ اعتراض. وقيل: عرّض بالكبير نفسه، وإنّما أضاف نفسه إليهم لاشتراكهم في الحضور ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ عن حالهم ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وأنتم تعلمون عجزهم عنه.

٦٤ ـ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فرجعوا إلى عقولهم، وتفكّروا بقلوبهم لمّا

فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾

أخذ بمخانقهم، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]. فإنّ من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابده البأس؟.

٦٥ ـ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ قال أهلُ التفسير: أجرى الله الحقّ على لسانهم في القول الأوّل، ثمّ أدركتهم الشقاوة، أي: ردّوا إلى الكفر بعد أن أقرّوا على أنفسهم بالظلم. يقال: نكسته: قلبته؛ فجعلت أسفله أعلاه. أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم، وجاؤوا بالفكرة الصالحة، ثمّ انقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها؟. والجملة سدّت مسدّ مفعولي علمت. والمعنى: لقد علمت عجزهم عن النطق، فكيف نسألهم؟

٦٦ ـ ﴿قَالَ﴾ محتجّاً عليهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ هو في موضع المصدر، أي: نفعاً ما. ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن لم تعبدوه.

٦٧ ـ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «أف»: صوت إذا صُوِّت به علم أنّ صاحبه متضجّر. أضجره ما رأى مِن ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق، فتأفّف بهم. واللام لبيان المتأفّف به، أي: ﴿لكم﴾ ولآلهتكم هذا التأفّف. ﴿أُفٍّ﴾: مدنيّ، وحفص. ﴿أُفَّ﴾: مكيّ، وشاميّ. ﴿أُفِّ﴾: غيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ مَن هذا وصفه لا يجوز أن يكون إلهاً. فلمّا لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب:

٦٨ ـ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار؛ لأنّها أهول ما يعاقب به، وأفظع ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً، فاختاروا له أهول المعاقبات، وهو الإحراق، وإلاّ فرّطتم في نصرتها.

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

والذي أشار بإحراقه نمرود، أو: رجل من أكراد فارس. وقيل: إنّهم حين همّوا بإحراقه حبسوه، ثمّ بنوا بيتاً بكُوثى[1]، وجمعوا شهراً أصناف الخشب، ثمّ أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجوّ من وهجها، ثمّ وضعوه في المنجنيق مقيّداً، مغلولاً، فرموا به فيها، وهو يقول: حسبي الله ونعم الوكيل. وقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا! قال: فسلْ ربّك. قال: حسبي من سؤالي، علمه بحالي. وما أحرقت النار إلا وثاقه. وعن ابن عباس: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل.

٦٩ ـ ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ أي: ذات برد وسلام، فبولغ في ذلك، كأنّ ذاتها برد، وسلام ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أراد: ابردي، فيسلم منك إبراهيم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها. والمعنى: أنّ الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ، والإحراق، وأبقاها على الإضاءة، والإشراق كما كانت، وهو على كلّ شيء قدير.

٧٠ ـ ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ إحراقاً ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ فأرسل على نمرود وقومه البعوض، فأكلت لحومهم، وشربت دماءهم، ودخلت بعوضة في دماغ نمرود فأهلكته.

٧١ ـ ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ﴾ أي: إبراهيم ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخيه هاران من العراق ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: أرض الشام. وبركتها: أن أكثر الأنبياء منها، فانتشرت في العالمين آثارهم الدينيّة، وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغَنيّ والفقير. وقيل: ما من ماء عذب في الأرض إلاّ وينبع أصله من صخرة بيت المقدس. رُوي: أنّه نزل بفلسطين، ولوط بالمؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّها ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار الناس إلى مُهاجر إبراهيم»[2].

---

(١) «كُوثَى»: اسم موضع بسواد العراق، في أرض بابل. انظر معجم البلدان (٤/ ٤٨٧).
(٢) رواه أبو داود (٢٤٨٢).

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۭ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةًۭ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًۭا وَعِلْمًۭا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍۢ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

٧٢ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قيل: هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق، أي: ﴿وهبنا له﴾ هبة. وقيل: هي ولد الولد، وقد سأل ولداً فأعطيه، وأعطي يعقوب ﴿نافلة﴾ أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال، وهي حال من يعقوب ﴿وَكُلًّا﴾ أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهو المفعول الأوّل لقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ والثاني ﴿صَٰلِحِينَ﴾ في الدِّين، والنبوّة.

٧٣ ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدى بهم في الدِّين ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ بوحينا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهي جميع الأعمال الصالحة. وأصله: أن تُفعَل الخيراتُ، ثم فِعلاً الخيراتِ، وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ والأصل: وإقامةِ الصلاةِ، إلَّا أنّ المضاف إليه جعل بدلاً من الهاء ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ لا للأصنام. فأنتم يا معشر العرب! أولاد إبراهيم، فاتَّبِعوه في ذلك.

٧٤ ـ ﴿وَلُوطًا﴾ انتصب بفعل يفسّره ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حكمة. وهي: ما يجب فعله من العمل، أو: فصلاً بين الخصوم، أو: نبوّة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهاً ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ من أهلها، وهي: سدوم ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ اللواطة، والضُّراط، وحذف المارّة بالحصى، وغيرها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله.

٧٥ ـ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ في أهل رحمتنا، أو: في الجنة ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: جزاء له على صلاحه، كما أهلكنا قومه عقاباً على فسادهم.

٧٦ ـ ﴿وَنُوحًا﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿نوحاً﴾ ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: دعا على قومه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءه

فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ

﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: المؤمنين من ولده، وقومه ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الطوفان، وتكذيب أهل الطغيان.

٧٧ ـ ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ منعناه منهم، أي: من أذاهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

٧٨ ـ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: واذكرهما ﴿إِذْ﴾ بدل منهما ﴿يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ في الزرع. أو: الكرم ﴿إِذْ﴾ ظرف ليحكمان ﴿نَفَشَتْ﴾ دخلت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ليلاً فأكلته، وأفسدته. والنفش: انتشار الغنم ليلاً بلا راع ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أرادهما والمتحاكمين إليهما ﴿شَـٰهِدِينَ﴾ أي: كان ذلكَ بعلمنا، ومرأىً منّا.

٧٩ ـ ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ أي: الحكومة، أو: الفتوى ﴿سُلَيْمَـٰنَ﴾ وفيه دليلٌ على أنّ الصواب كان مع سليمان ـ صلوات الله عليه ـ. وقصّته: أنّ الغنم رعت الحرث، وأفسدته بلا راع ليلاً، فتحاكما إلى داود، فحكم بالغنم لأهل الحرث، وقد استوت قيمتاهما، أي: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث. فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ: غير هذا أرفق بالفريقين. فعزم عليه ليحكمنّ، فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها، وأولادها، وأصوافها، والحرث إلى ربِّ الغنم حتى يصلح الحرث، ويعود كهيئته يوم أفسد، ثمّ يترادّان. فقال: القضاء ما قضيتَ. وأمضى الحكم بذلك. وكان ذلك باجتهاد منهما. وهذا كان في شريعتهم. فأمّا في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه ـ رحمهم الله ـ بالليل أو بالنهار، إلاّ أن يكون مع البهيمة سائق، أو قائد. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ يجب الضمان بالليل. وقال الجصّاص: إنّما ضَمِنُوا لأنّهم أرسلوها. ونسخ الضمان بقوله عليه الصلاة

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

والسلام: «العجماء جُبَار»[1]. وقال مجاهد: كان هذا صلحاً. وما فعله داود كان حكماً، والصلح خير ﴿وَكُلًّا﴾ من داود، وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا﴾ نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ معرفة بموجب الحكم ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ وذلّلنا ﴿مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ وهو حال بمعنى مسبّحات، أو استئناف، كأنّ قائلاً قال: كيف سخّرهنّ؟ فقال: ﴿يسبّحن﴾ ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على ﴿الجبال﴾ أو مفعول معه. وقدّمت الجبال على الطير؛ لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب، وأغرب، وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد. رُوي: أنّه كان يمرّ بالجبال مسبّحاً، وهي تجاوبه. وقيل: كانت تسير معه حيث سار ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ بالأنبياء مثل ذلك، وإن كان عجباً عندكم.

٨٠ ـ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: عمل اللبوس والدروع. واللبوس: اللباس، والمراد: الدرع ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ شاميّ، وحفص. أي: الصنعة، وبالنون: أبو بكر، وحمّاد، أي: الله عزّ وجلّ. وبالياء: غيرهم، أي: اللبوس، أو: الله عزّ وجلّ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ من حرب عدوّكم ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر، أي: فاشكروا الله على ذلك.

٨١ ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ حال، أي: شديدة الهبوب. ووصفت في موضع آخر بالرّخاء؛ لأنّها تجري باختياره، فكانت في وقت رخاء، وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم إرادته ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بأمر سليمان ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الأنهار، والأشجار، والثمار. والمراد: الشام، وكان منزله بها، وتحمله الريح من نواحي الأرض إليها ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ وقد أحاط علمنا بكلّ شيء، فتجري الأشياء كلّها على ما يقتضيه علمنا.

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٣٩) والبخاري (١٤٩٩) ومسلم (١٧١٠) (٤٥).

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ

---

٨٢ ـ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وسخّرنا منهم ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار بأمره لاستخراج الدرّ، وما يكون فيها ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الغوص، وهو بناء المحاريب، والتماثيل، والقصور، والقدور، والجفان ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو: يبدّلوا، أو: يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه.

٨٣ ـ ﴿۞وَأَيُّوبَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿أيّوب﴾ ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ أي: دعا بأنّي ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ الضَّرّ ـ بالفتح ـ الضرر في كلّ شيء، وبالضم: الضرر في النفس من مرض، أو: هزال ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربّه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، فكأنّه قال: أنت أهل أن ترحم، وأيّوب أهل أن يُرحَم، فارحمه، واكشف عنه الضرّ الذي مسّه. عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة، ولم يشتك. وكيف يشكو مَن قيل له: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٤٤]؟ وقيل: إنّما شكا إليه تلذّذاً بالنجوى؛ لا منه تضرّراً بالشكوى. والشكاية إليه غاية القرب، كما أنّ الشكاية منه غاية البعد.

٨٤ ـ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أجبنا نداءه ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ فكشفنا ضرّه إنعاماً عليه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ رُوي: أنّ أيّوب ـ عليه السلام ـ كان روميّاً من ولد إسحاق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وله سبعة بنين، وسبع بنات، وثلاثة آلاف بعير، وسبعة آلاف شاة، وخمسمئة فدان، يتبعها خمسمئة عبد، لكلّ عبد امرأة وولد ونخيل[1]. فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده، وماله، وبمرض في بدنه ثماني عشرة سنة، أو: ثلاث عشرة سنة، أو: ثلاث سنين.

---

(١) مستدرك من المطبوع.

رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ

وقالت له امرأته يوماً: لو دعوتَ الله عزّ وجلّ! فقال: كم كانت مدّة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة. فقال: أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدّة بلائي مدّة رخائي. فلمّا كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم، ورزقه مثلهم معهم ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هو مفعول له ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يعني: ﴿رحمة﴾ لأيّوب، وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره، فيثابوا كثوابه.

٨٥ ـ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ بن شيث بن آدم ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي: أذكرهم. وهو إلياس، أو: زكريا، أو: يوشع بن نون. وسُمِّي به، لأنّه ذو الحظّ من الله، والكفل: الحظّ ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: هؤلاء المذكورون كلّهم موصوفون بالصبر.

٨٦ ـ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ نبوّتنا، أو: النعمة في الآخرة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ممّن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد.

٨٧ ـ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: اذكر صاحب الحوت، والنون: الحوت، فأضيف إليه ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ حال، أي: مراغماً لقومه، ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها. رُوي: أنّه برِم بقومه لطول ما ذكّرهم، فلم يتّعظوا، وأقاموا على كفرهم، فراغمهم، وظنّ أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلاّ غضباً لله، وبغضاً للكفر وأهله. وكان عليه أن يصابر، وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم، فابتلي ببطن الحوت ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ نضيّق ﴿عَلَيْهِ﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه دخل يوماً على معاوية، فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلاّ بك. قال: وما هي يا معاوية؟ فقرأ الآية، فقال: أو يظنّ نبيّ الله ألاّ يقدر عليه؟ قال: هذا من القدَرِ لا من القُدْرة ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، كقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٧] أو: ظلمة الليل، والبحر، وبطن الحوت

أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ

﴿أَن﴾ أي: بأنّه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أو بمعنى: أي ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي في خروجي من قومي قبل أن تأذن لي. في الحديث: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلاّ استجيب له»[1]، وعن الحسن: ما نجّاه ـ والله ـ إلاّ إقراره على نفسه بالظلم.

٨٨ ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ غمّ الزلّة، والوحشة، والوحدة ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا دعونا، واستغاثوا بنا. ﴿نُجّي﴾: شاميّ، وأبو بكر بإدغام النون في الجيم عند البعض؛ لأنّ النون لا تدغم في الجيم، وقيل: تقديره: نُجّيَ النجاءُ المؤمنين، فسكن الياء تخفيفاً، وأسند الفعل إلى المصدر، ونصب المؤمنين بالنجاء. لكنّ فيه إقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول، وهذا لا يجوز. وفيه تسكين الياء، وبابه: الضرورات. وقيل: أصله ننجّي، من التنجية، فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين، كما حذفت إحدى التاءين في ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر: ٤].

٨٩ ـ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ سأل ربّه أن يرزقه ولداً يرثه، ولا يدعه وحيداً بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلماً فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي، فإنّك خير وارث، أي: باق.

٩٠ ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ولداً ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد عُقْرها، أو: حسنة، وكانت سيّئة الخلق ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الأنبياء المذكورين ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: إنهم إنّما استحقّوا الإجابة إلى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٠) والنسائي (٦٥٥) في عمل اليوم والليلة، والحاكم(١ / ٥٠٥).

وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: طمعاً وخوفاً، كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. وهما مصدران في موضع الحال، أو: المفعول له، أي: للرغبة فينا، والرهبة منّا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ متواضعين، خائفين.

٩١ ـ ﴿وَالَّتِي﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿التي﴾ ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظته، من الحلال والحرام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أجرينا فيها روح المسيح، أو: أمرنا جبريل، فنفخ في جيب درعها، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها. وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً﴾ مفعول ثان ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ وإنما لم يقل آيتين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] لأنّ حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي: ولادتها إيّاه من غير فحل. أو: التقدير: وجعلناها آية وابنها كذلك، فـ﴿آية﴾ مفعول المعطوف عليه، ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿آيتين﴾.

٩٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ الأمّة: الملّة. و﴿هذه﴾ إشارة إلى ملّة الإسلام، وهي: ملّة جميع الأنبياء، و﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حال، أي: متوحّدة غير متفرقة. والعامل ما دلّ عليه اسم الإشارة، أي: أنّ ملّة الإسلام هي ملّتكم التي يجب أن تكونوا عليها، لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملّة واحدة غير مختلفة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي: ربّيتكم اختياراً، فاعبدوني شكراً وافتخاراً. والخطاب للناس كافّة.

٩٣ ـ ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أصل الكلام: وتقطّعتم، إلاّ أنّ الكلام صرف إلى الغيبة، على طريقة الالتفات. والمعنى: وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، وصاروا فرقاً وأحزاباً، ثمّ توعّدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم على أعمالهم.

فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ

٩٤ ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شيئاً ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: فإنّ سعيه مشكور مقبول. والكفران مَثَل في حرمان الثواب، كما أنّ الشكر مَثَل في إعطائه. وقد نُفِيَ نَفْيَ الجنس ليكون أبلغ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ للسَّعي أي: الحفظة بأمرنا ﴿كَٰتِبُونَ﴾ في صحيفة عمله، فنثيبه به.

٩٥ ـ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾: ﴿وحِرْمٌ﴾ كوفيّ ـ غير حفص ـ وخلف. وهما لغتان، كحِلّ وحلال وزناً، وضدّه معنى. والمراد بالحرام: الممتنع وجوده ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ والمعنى: وممتنع على مُهْلَكٍ غيرُ ممكن ألاّ يرجع إلى الله بالبعث أو: ﴿وحرام على قرية أهلنكاها﴾ ـ أي: قدّرنا إهلاكهم، أو: حكمنا بإهلاكهم ذاك، وهو المذكور في الآية المتقدّمة من العمل الصالح، والسعي المشكور غير المكفور، ﴿أنهم لا يرجعون﴾ من الكفر إلى الإسلام.

٩٦ ـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكيّ: الجملة من الشرط والجزاء، أعني: ﴿إذا﴾ وما في حيّزها ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي: فتح سدّهما، فحذف المضاف، كما حذف المضاف إلى ﴿قرية﴾. ﴿فُتِّحت﴾: شاميّ. وهما قبيلتان من جنس الإنس، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها: يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ. ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ نَشَزٍ من الأرض، أي: ارتفاع ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون.

٩٧ ـ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القيامة. وجواب ﴿إذا﴾: ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ وهي إذا المفاجأة، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء، كقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]. فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد. ولو قيل: فهي شاخصة، أو: إذا ﴿هي شاخصة﴾ كان سديداً.

شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ

﴿وهي﴾ ضمير مبهم يوضحه الأبصار، ويفسّره ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مرتفعة الأجفان، لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون: ﴿يا ويلنا﴾، ويقولون: حال من ﴿الذين كفروا﴾ ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة في غير موضعها.

٩٨ ـ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، وإبليس، وأعوانه؛ لأنّهم بطاعتهم لهم، واتّباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم ﴿حَصَبُ﴾ حطب. وقرىء ﴿حطب﴾ ﴿جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ فيها داخلون.

٩٩ ـ ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ كما زعمتم. ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ ما دخلوا النار ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: العابد والمعبود ﴿فِيهَا﴾ في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

١٠٠ ـ ﴿لَهُمْ﴾ للكفّار. ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين، وبكاء، وعويل ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً ما؛ لأنهم صاروا صماً، وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

١٠١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الخصلة المفضّلة في الحسن. تأنيث الأحسن. وهي، السعادة، أو البشرى بالثواب، أو التوفيق للطاعة. نزلت جواباً لقول ابن الزِّبَعْرى عند تلاوته عليه الصلاة والسلام على صناديد قريش: ﴿إنّكم وما تعبدون من دون الله﴾ إلى قوله ﴿خالدون﴾: أليس اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة؟[1] على أنّ قوله ﴿وما تعبدون﴾ لا يتناولهم؛ لأنّ ﴿ما﴾ لمن لا يعقل، إلاّ أنّهم أهل عناد، فزيد

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ٢٧٠) من غير إسناد، وانظر حاشية الكشاف (٣ / ١٣٦).

أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ

في البيان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: عزيراً، والمسيح، والملائكة ﴿عَنۡهَا﴾ عن جهنّم ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ لأنهم لم يرضوا بعبادتهم. وقيل: المراد بقوله: ﴿إنّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى﴾ جميع المؤمنين؛ لما رُوي أنّ علياً ـ رضي الله عنه ـ قرأ هذه الآية، ثمّ قال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف. وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: سبقت لهم منّا العناية في البداية، فظهرت لهم الولاية في النهاية.

١٠٢ ـ ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوتها الذي يحسّ، وحركة تلهّبها. وهذه مبالغة في الإبعاد عنها، أي: لا يقربونها حتّى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ من النعيم ﴿خَٰلِدُونَ﴾ مقيمون. والشهوة: طلب النفس اللذة.

١٠٣ ـ ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ النفخة الأخيرة ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ أي: تستقبلهم ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مهنّئين على أبواب الجنّة يقولون: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربّكم في الدنيا.

١٠٤ ـ العامل في: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ ﴿لا يحزنهم﴾ أو: ﴿تتلقّاهم﴾. ﴿تُطوى السماءُ﴾ يزيد. وطيّها: تكوير نجومها، ومحو رسومها، أو: هو ضدّ النشر: نجمعها، ونطويها ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ أي: الصحيفة ﴿لِلۡكُتُبِ﴾ حمزة، وعليّ، وحفص، أي: للمكتوبات، أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وغيرهم: (للكتاب) أي: كما يُطوى الطومار للكتابة، أو: لما يكتب فيه؛ لأنّ الكتاب أصله المصدر، كالبناء، ثمّ يوقع على المكتوب. وقيل: ﴿السجلّ﴾ ملَك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه. وقيل: كاتب كان لرسول الله ﷺ. ﴿والكتاب﴾ على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها. والطيّ مضاف إلى الفاعل، وعلى الأوّل إلى المفعول ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ انتصب الكاف بفعل

وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

مضمر يفسّره ﴿نعيده﴾، و﴿ما﴾ موصولة، أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده، و﴿أوّل خلق﴾ ظرف لبدأنا، أي: أوّل ما خلق. أو: حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ، الثابت في المعنى. وأوّلُ الخلق: إيجاده، أي: فكما أوجده أوّلاً يعيده ثانياً، تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء. والتنكير في ﴿خلق﴾ مثله في قولك: هو أوّل رجل جاءني، تريد: أوّل الرجال، ولكنّك وحّدته ونكّرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلك معنى ﴿أوّل خلق﴾ أوّل الخلق بمعنى: أوّل الخلائق؛ لأنّ الخلق مصدر لا يجمع ﴿وَعۡدًا﴾ مصدر مؤكّد؛ لأنّ قوله: ﴿نعيده﴾ عدة للإعادة ﴿عَلَيۡنَآ﴾ أي: ﴿وعداً﴾ كائناً لا محالة ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، أي: محقّقين هذا الوعد، فاستعدّوا له، وقدّموا صالح الأعمال؛ للخلاص من هذه الأهوال.

١٠٥ ـ ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ كتاب داود ـ عليه السلام ـ ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ التوراة ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: الشام ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ﴾ ساكنة الياء: حمزة، غيره: بفتح الياء ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: أمّة محمد ﷺ. أو: ﴿الزبور﴾ بمعنى المزبور، أي: المكتوب، يعني: ما أنزل على الأنبياء من الكتب. و﴿الذكر﴾ أمّ الكتاب، يعني: اللوح؛ لأنّ الكلّ أخذوا منه. دليلهُ: قراءة حمزة وخلف بضم الزاي، على جمع الزُّبر بمعنى المزبور. و﴿الأرض﴾: أرض الجنّة.

١٠٦ ـ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: القرآن، أو: في المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد، والوعيد، والمواعظ ﴿لَبَلَٰغٗا﴾ لكفاية. وأصله: ما تبلغ به البغية ﴿لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ موحّدين، وهم أمّة محمد ﷺ.

١٠٧ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ قال ﷺ: «إنّما أنا رحمة مهداة»[١] ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأنّه جاء بما يسعدهم إن اتّبعوه. ومن لم يتبع فإنّما أتي من عند

(١) رواه ابن سعد والحكيم الترمذي عن أبي صالح مرسلاً. (كنز العمال ٣١٩٩٥).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾

نفسه، حيث ضيّع نصيبه منها. وقيل: هو رحمة للمؤمنين في الدارين، وللكافرين في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال، والمسخ، والخسف. و﴿رحمة﴾ مفعول له، أو: حال، أي: ذا رحمة.

١٠٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ لقصر الحكم على شيء، أو: لقصر الشيء على حكم، نحو: إنّما زيد قائم، وإنّما يقوم زيد. وفاعل ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. والتقدير: ﴿يُوحَى إليّ﴾ وحدانيّة إلهي. ويجوز أن يكون المعنى: إنّ الذي يوحى إليّ. فتكون ﴿ما﴾ موصولة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر، أي: أسلموا.

١٠٩ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ حال، أي: مستوين في الإعلام به، ولم أخصص بعضكم. وفيه دليلُ بطلان مذهب الباطنيّة ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: لا أدري متى يكون يوم القيامة؛ لأن الله تعالى لم يطلعني عليه، ولكني أعلم بأنّه كائن لا محالة، أو: لا أدري متى يحلّ بكم العذاب إن لم تؤمنوا.

١١٠ ـ ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إنّه عالم بكلّ شيء، يعلم ما تجاهرونني به من الطعن في الإسلام، وما تكتمونه في صدوركم من الأحقاد، وهو مجازيكم عليه.

١١١ ـ ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وما أدري لعلّ تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتيع لكم إلى الموت؛ ليكون ذلك حجّة عليكم.

١١٢ ـ ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ اقض بيننا وبين أهل مكّة بالعدل، أو: بما يحقّ عليهم من العذاب، ولاتحابهم، وشدّد عليهم، كما قال: «واشدد وطأتك على

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

مضر»[١]. ﴿قال ربّ﴾ حفص، على حكاية قول رسول الله ﷺ. ﴿ربُّ احكم﴾: يزيد، ﴿ربِّيَ أَحْكَمُ﴾: زيد، عن يعقوب ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ العاطف على خلقه ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وعن ابن ذكوان: بالياء. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة، فكذّب الله ظنونهم، وخيّب آمالهم، ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين، وخذلهم، [أي: الكفار، وهو: المستعان على ما يصفون][٢].

* * *

(١) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٥٧).

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أمر بني آدم بالتقوى، ثمّ علّل وجوبها عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوّروها بعقولهم حتّى يبقوا على أنفسهم، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم؛ بامتثال ما أمرهم به ربّهم من التردّي بلباس التقوى؛ الذي يؤمّنهم من تلك الأفزاع. والزلزلة: شدّة التحريك والإزعاج. وإضافة الزلزلة إلى الساعة إضافة المصدر إلى فاعله، كأنّها هي التي تزلزل الأرض، على المجاز الحكميّ، أو: إلى الظرف؛ لأنها تكون فيها، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] ووقتها يكون يوم القيامة، أو: عند طلوع الشمس من مغربها، ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً؛ فإنّ هذا اسم لها حال وجودها.

٢ ـ وانتصب ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: الزلزلة، أو: الساعة. بقوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ تغفل. والذهول: الغفلة ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعها، أو: عن الذي أرضعته، وهو الطفل. وقيل: ﴿مرضعة﴾ ليدلّ على أنّ ذلك الهول إذا حدث، وقد ألقمت الرضيع ثديها، نزعته عن فيه؛ لما يلحقها من الدهشة،

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

إذ المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبيّ. والمرضع: التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ أي: حبلى ﴿حَمْلَهَا﴾ ولدها قبل تمامه. عن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ أيّها الناظر ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ على التشبيه لَمّا شاهدوا بساط العزة، وسلطنة الجبروت، وسرادق الكبرياء، حتّى قال كل نبيّ: نفسي نفسي ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ على التحقيق ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فخوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وردّهم في نحو حالِ مَن يذهب السكر بعقله، وعن الحسن: ﴿وترى الناس سكارى﴾ من الخوف ﴿وما هم بسكارى﴾ من الشراب. ﴿سكرى﴾ فيهما بالإمالة: حمزة، وعليّ، وهو كعطشى في عطشان. رُوي أنّه نزلت الآيتان ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما النبيّ ﷺ، فلم نَرَ أكثر باكياً من تلك الليلة[١].

٣ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ في دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال. نزلت في النضر بن الحارث، وكان جَدِلاً، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بَلِيَ. أو: هي عامّة في كلّ من يخاصم في الدين بالهوى. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في ذلك. ﴿كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ عات مستمرّ في الشرّ، ولا وقف على ﴿مريد﴾ لأنّ ما بعده صفته.

٤ ـ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضي على الشيطان ﴿أَنَّهُۥ﴾ أنّ الأمر والشأن ـ وهو فاعل ﴿كُتب﴾ ـ ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ تبعه، أي: تبع الشيطان، ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ فأنّ الشيطان ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ عن سواء السبيل ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار، قال الزجاج: الفاء

---

(١) قال الحافظ: ذكره الثعلبي والبغوي. (حاشية الكشاف ٣/١٤١). وفي المطبوع والكشاف: «يُر».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾

في ﴿فأنّه﴾ للعطف، و﴿أنّ﴾ مكررة للتأكيد. وردّ عليه أبو عليّ، وقال: إنّ ﴿مَنْ﴾ إن كان للشرط، فالفاء دخل لجزاء الشرط، وإن كان بمعنى الذي، فالفاء دخل على خبر المبتدأ. والتقدير: فالأمر أنّه يضلّه. قال: والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الأول. والمعنى: ﴿كتب﴾ على الشيطان إضلال من ﴿تولاه﴾ وهدايته إلى النار.

٥ - ثم ألزم الحجة على منكري البعث، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ يعني: إن ارتبتم في البعث، فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، وقد كنتم في الابتداء تراباً وماء، وليس سبب إنكاركم البعث إلاّ هذا، وهو صيرورة الخلق تراباً وماء ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٖ ثُمَّ﴾ خلقتم ﴿مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ أي: قطعة دم جامدة. ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ أي: لحمة صغيرة قدر ما يمضغ. ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ المخلّقة: المسوّاة، الملساء من النقصان والعيب، كأن الله عز وجل يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم، وطولهم، وقصرهم، وتمامهم، ونقصانهم. وإنما نقلناكم من حال إلى حال، ومن خلقة إلى خلقة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا، وأنّ مَن قدر على خلق البشر من تراب أوّلاً، ثمّ من نطفة ثانياً، ولا مناسبة بين التراب الماء، وقدر أن يجعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قادر على إعادة ما بدأه ﴿وَنُقِرُّ﴾ بالرفع عند غير المفضل، مستأنف بعد وقف، أي: نحن نثبّتُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ ثبوته، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: وقت الولادة. وما لم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ﴾ من الرحم ﴿طِفۡلٗا﴾ حال. وأريد به الجنس، فلذا لم يجمع، أو: أريد به: ثمّ نخرج كلّ واحد منكم ﴿طفلاً﴾ ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ ثمّ نربّيكم لتبلغوا ﴿أَشُدَّكُمۡ﴾ كمال عقلكم وقوتكم. وهو من ألفاظ الجموع التي لا يستعمل

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ

لها واحد ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشدّ، أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أخسّه، يعني: الهرم، والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: ﴿لكيلا يعلم﴾ شيئاً ﴿من بعد﴾ ما كان يعلمه. أو: لكيلا يستفيد علماً، وينسى ما كان عالماً به. ثُمَّ ذكر دليلاً آخر على البعث، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة، يابسة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت ﴿وربأت﴾ حيث كان: يزيد: ارتفعت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن، سارّ للناظرين إليه.

٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم، وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا، وهو ﴿أن الله هو الحق﴾ أي: الثابت الوجود ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيا الأرض ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

٧ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: أنّه حكيم لا يخلف الميعاد. وقد وعدَ الساعة والبعث، فلا بدّ أن يفي بما وعد.

٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ في صفاته، فيصفه بغير ما هو له. نزلت في أبي جهل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ضروريّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: استدلاليّ؛ لأنه يهدي إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: وحي. والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة.

٩ ـ ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال، أي: لاوياً عنقه عن طاعة الله كبراً وخيلاء[١]

(١) في المطبوع بعد هذا: وعن الحسن: ﴿ثاني عطفه﴾ ـ بفتح العين ـ أي: مانع تعطفه إلى غيره.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾

﴿لِيُضِلَّ﴾ تعليل للمجادلة. ﴿ليَضلّ﴾: مكّي، وأبو عمرو ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ أي: القتل يوم بدر ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: جمع له عذاب الدّارَيْن.

١٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي: السبب في عذاب الدارين هو ما قدّمت نفسه من الكفر، والتكذيب، وكنَّى عنها باليد؛ لأنّ اليدَ آلةُ الكسب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلا يأخذ أحداً بغير ذنب، ولا بذنب غيره. وهو عطف على ﴿بما﴾ أي: وبأن الله. وذكر الظلّام بلفظ المبالغة؛ لاقترانه بلفظ الجمع، وهو العبيد، ولأنّ قليل الظلم منه ـ مع علمه بقبحه واستغنائه ـ كالكثير منّا.

١١ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ على طرف من الدين، لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة. وهو حال، أي: مضطرباً ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ صحّة في جسمه، وسعة في معيشته، ﴿ٱطۡمَأَنَّ﴾ سكن، واستقرّ ﴿بِهِۦ﴾ بالخير الذي أصابه، أو: بالدين، فعبَد الله ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ شر، وبلاء في جسده، وضيق في معيشته ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ جهته، أي: ارتدّ، ورجع إلى الكفر. كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسّ بظفر وغنيمة، قرّ واطمأنّ، وإلاّ فرّ وطار على وجهه. قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة مهاجرين، وكان أحدهم إذا صحّ بدنه، ونُتِجَتْ فرسه مهراً سويّاً، وولدت امرأته غلاماً سويّاً، وكثر ماله وماشيته، قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلاّ خيراً، واطمأنّ. وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلاّ شرّاً، وانقلب عن دينه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ حال. و«قد» مقدرة. دليلُه قراءة: روح، وزيد: (خاسر الدنيا والآخرة). والخسران في الدنيا بالقتل فيها، وفي الآخرة بالخلود في النار

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خسران الدّارَيْن ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

١٢ ـ ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الصنم، فإنه بعد الردّة يفعل كذلك ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الصواب.

١٣ ـ ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ والإشكال أنّه تعالى نفى الضرّ والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية، وأثبتهما لها هنا! والجواب: أنّ المعنى إذا فُهم ذهب هذا الوهم، وذلك أنّ الله تعالى سفّه الكافر بأنّه يعبد جماداً لا يملك ضرّاً ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه أنّه يَشْفعه. ثمّ قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر ـ بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ولا يرى أثر الشفاعة ـ: ﴿لمن ضره أقرب من نفعه﴾ ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب. وكرّر يدعو، كأنّه قال: يدعو[1] يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه. ثمّ قال: ﴿لمن ضرّه﴾ بكونه معبوداً ﴿أقرب من نفعه﴾ بكونه شفيعاً.

١٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا وعد لمن عبد الله بكلّ حال، لا لمن عبد الله على حرف.

١٥ ـ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ المعنى: أنّ الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن ظنّ من أعاديه غير ذلك ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ثمّ ليختنق به. وسمّي الاختناق قطعاً؛ لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه. وبكسر اللام: بصريّ وشاميّ ﴿فَلْيَنظُرْ

---

(١) من الكشاف ومن المطبوع.

هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ

﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي الذي يغيظه، أو: ﴿ما﴾ مصدرية، أي: غيظه. والمعنى: فليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه، وسمّي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء؛ لأنّه لم يكد به محسوده، إنّما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلاّ ما ليس بمذهب لما يغيظ.

١٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كلّه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أي: ولأنّ الله يهدي به الذين يعلم أنّهم يؤمنون ـ أو: يثبّت الذين آمنوا، ويزيدهم هدى ـ أنزله كذلك مبيّناً.

١٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ قيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان، وواحد للرحمن. والصابئون نوع من النصارى، فلا تكون ستة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في الأحوال والأماكن، فلا يجازيهم جزاء واحداً، ولا يجمعهم في موطن واحد. وخبر ﴿إنّ الذين آمنوا﴾: ﴿إنّ الله يفصل بينهم﴾ كما تقول: إنّ زيداً إنّ أباه قائم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به، حافظ له، فلينظر كلّ امرىء معتقده، وقوله، وفعله. وهو أبلغ وعيد.

١٨ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ قيل: إنّ الكل يسجد له، ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقيل: سُمِّيَت مطاوعة غير المكلّف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجوداً له؛ تشبيهاً لمطاوعته بسجود المكلّف؛ الذي كلّ خضوع دونه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ

ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾

﴿ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة. أو: هو مرفوع على الابتداء ﴿ومن الناس﴾: صفة له، والخبر محذوف، وهو: مثاب. ويدل عليه قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: وكثير منهم حقّ عليه العذاب بكفره، وإبائه السجود ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ بالسعادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ من الإكرام، والإهانة، وغير ذلك. وظاهر هذه الآية، والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: شاء أشياء ولم يفعل. وهو يقول: ﴿يفعل ما يشاء﴾.

١٩ ـ ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ أي: فريقان مختصمان. فالخصم صفة وصف بها الفريق. وقوله: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ للمعنى، و﴿هذان﴾ للفظ. والمراد: المؤمنون والكافرون. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: رجع إلى أهل الأديان المذكورة، فالمؤمنون خصم، وسائر الخمسة خصم ﴿فِي رَبِّهِمۡ﴾ في دينه، وصفاته. ثمّ بين جزاء كلّ خصم بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهو فصلِ الخصومة المعنيّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧] ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ كأنّ الله يقدر لهم نيراناً على مقادير جثتهم، تشتمل عليهم، كما تقطّع الثياب الملبوسة. واختير لفظ الماضي؛ لأنّه كائن لا محالة، فهو كالثابت المتحقق ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ﴾ بكسر الهاء والميم: بصريّ، وبضمها: حمزة، وعليّ، وخلف، وبكسر الهاء وضم الميم؛ غيرهم ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ الماء الحارّ. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

٢٠ ـ ﴿يُصۡهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِۦ﴾ بالحميم ﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ أي: يذيب أمعاءهم وأحشاءهم، كما يذيب جلودهم، فيؤثر في الظاهر والباطن.

٢١ ـ ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ﴾ سياط مختصّة بهم ﴿مِنۡ حَدِيدٖ﴾ يضربون بها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

٢٢ ـ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ من النار ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ بدل الاشتمال من ﴿منها﴾ بإعادة الجارّ. أو: الأولى لابتداء الغاية، والثانية بمعنى: من أجل، يعني: ﴿كلّما أرادوا﴾ الخروج من النار ﴿من﴾ أجل ﴿غمّ﴾ يلحقهم فخرجوا ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالمقامع. ومعنى الخروج عند الحسن: أنّ النار تضربهم بلهبها فتلقيهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً. والمراد: إعادتهم إلى معظم النار، لا أنهم ينفصلون عنها بالكليّة، ثمّ يعودون إليها ﴿وَذُوقُواْ﴾ أي: ﴿و﴾ قيل لهم: ﴿ذوقوا﴾ ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ الغليظ من النار المنتشر، العظيم الإهلاك. ثمّ ذكر جزاء الخصم الآخر فقال:

٢٣ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾. جمع: أسورة، جمع: سوار ﴿مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ بالنصب: مدني، وعاصم، على: ويؤتون ﴿لؤلؤاً﴾. وبالجر: غيرهم، عطفاً على ﴿من ذهب﴾ وبترك الهمزة الأولى في كل القرآن: أبو بكر، وحمّاد. ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ إبريسم.

٢٤ ـ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: أُرشد هؤلاء في الدنيا إلى كلمة التوحيد، وإلى ﴿صراط الحميد﴾ أي: الإسلام. أو: هداهم الله في الآخرة، وألهمهم أن يقولوا: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ وهداهم إلى طريق الجنة. و﴿الحميد﴾: الله المحمود بكلّ لسان.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعون عن الدخول في الإسلام. ﴿ويصدّون﴾ حال من فاعل ﴿كفروا﴾ أي: ﴿و﴾ هم ﴿يصدّون﴾ أي: الصدود منهم مستمرّ دائم، كما يقال: فلان يحسن إلى الفقراء، فإنّه يراد

وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

به: استمرار وجود الإحسان منه في الحال والاستقبال ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ويصدّون عن ﴿المسجد الحرام﴾ والدخول فيه ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ مطلقاً من غير فرق بين حاضر وباد، فإن أريد بالمسجد الحرام: مكّة، ففيه دليلٌ على أنّه لا تباع دور مكّة، وإن أريد به البيت، فالمعنى: أنه قبلة لجميع الناس ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب حفص. مفعول ثان لجعلناه، أي: ﴿جعلناه﴾ مستوياً ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وغير المقيم. بالياء: مكيّ، وافقه أبو عمرو في الوصل. وغيره بالرفع، على أنّه خبر، والمبتدأ مؤخر، أي: العاكف فيه والباد سواء. والجملة مفعول ثان. و﴿للناس﴾ حال ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ في المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان. ومفعول ﴿يرد﴾ متروك؛ ليتناول كلّ متناول، كأنّه قال: ﴿ومن يرد فيه﴾ مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً. فالإلحاد: العدول عن القصد ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة. وخبر ﴿إنّ﴾ محذوف؛ لدلالة جواب الشرط عليه. تقديره: ﴿إن الذين كفروا ويصدّون﴾ عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم. وكلّ من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

٢٦ ـ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ واذكر يا محمد حين جعلنا ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ مباءة، أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارة، والعبادة. وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها، فكنست مكان البيت، فبناه على أسّه القديم ﴿أَن﴾ هي المفسّرة للقول المقدّر، أي: قائلين له: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾[1] من الأصنام، والأقذار. وبفتح الياء: مدنيّ، وحفص ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ لمن يطوف به ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ والمقيمين بمكّة ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلّين. جمع راكع، وساجد.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿بَيْتِي﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/ ١٧٦).

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾

٢٧ ـ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ نادِ فيهم. والحج: هو القصد البليغ إلى مقصد منيع. روي أنّه صعد أبا قبيس، فقال: يا أيّها الناس حجّوا بيت ربّكم فأجاب مَن قدّر له أن يحجّ من الأصلاب والأرحام بـ: لبيّك اللهم لبيك. وعن الحسن: أنّه خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يفعل ذلك في حجّة الوداع، والأوّل أظهر. وجواب الأمر ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة، جمع راجل، كقائم وقيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ حال معطوفة على ﴿رجالاً﴾ كأنّه قال رجالاً، وركباناً. والضامر: البعير المهزول. وقدّم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشاة، كما ورد في الحديث ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لكلّ ضامر؛ لأنّه في معنى الجمع. وقرأ عبد الله (يأتون) صفة للرجال، والركبان. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. قال محمد بن ياسين: قال لي شيخٌ في الطّواف: من أين أنت؟ قلت: من خراسان. قال: كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين، أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. فقلت: أنت من أين جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب فاكتهلت. قلت: والله هذه الطاعة الجميلة، والمحبة الصادقة، فضحك وقال:

زُرْ من هويتَ وإن شطّتْ بك الدار ... وحال من دونه حُجْب وأستار
لا يمنعنّك بُعْدٌ عن زيارته ... إنَّ المحبّ لمن يهواه زَوّار

٢٨ ـ واللام في: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ ليحضروا. متعلّق بـ ﴿أذِّنْ﴾، أو: بـ ﴿يأتوك﴾ ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ نكّرها؛ لأنّه أراد منافع مختصّة بهذه العبادة دينيّة ودنيوية، لا توجد في غيرها من العبادة، وهذا لأنّ العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة، والصوم، أو: بالمال كالزكاة. وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال، وركوب الأهوال، وخلع الأسباب، وقطيعة الأصحاب، وهجر البلاد والأوطان، وفرقة الأولاد والخلّان، والتنبيه على ما يستمرّ عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء. فالحاجّ إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلاّ على عتاده، ولا يأكل إلاّ من زاده. فكذا المرء إذا خرج من شاطىء الحياة، وركب

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾

بحر الوفاة، لا ينفع وحدته إلاّ ما سعى في معاشه لمعاده، ولا يؤنس وحشته إلاّ ما كان يأنس به من أوراده. وغسل من يحرم وتأهبّه، ولبسه غير المخيط وتطيبه، مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره، لغسله وتجهيزه، مطيباً بالحنوط، ملفّفاً في كفن غير مخيط. ثم المحرّم يكون أشعث حيران، فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان. ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغباً ورهباً، سائلين خوفاً وطمعاً، وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العَرَصَات: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء، هو السوق لفصل القضاء. ومِنى هو موقف المُنى للمذنبين، إلى شفاعة الشافعين. وحلق الرأس والتنظيف، كالخروج من السيّئات بالرحمة والتخفيف. والبيت الحرام الذي ﴿مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] من الإيذاء والقتال، أنموذج لدار السلام التي هي مَن نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال. غير أنّ الجنّة حفت بمكاره النفس العادية، كما أنّ الكعبة حفّت بمتالف البادية. فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي، شوقاً إلى لقاء يوم التنادي ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند الذبح ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وآخرها يوم النحر. وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر المفسرين ـ رحمهم الله ـ وعند صاحبيه: هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبحه. وهو يؤيّد قولهما. والبهيمة: مبهمة في كلّ ذات أربع في البرّ والبحر، فبيّنت بالأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من لحومها. والأمر للإباحة. ويجوز الأكل من هدي التطوّع، والمتعة، والقران؛ لأنّه دم نسك، فأشبه الأضحية، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ الذي أصابه بؤس، أي: شدّة ﴿الْفَقِيرَ﴾ الذي أضعفه الإعسار.

٢٩ ـ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثمّ ليزيلوا عنهم أدرانهم. كذا قاله نفطويه. قيل: قضاء التفث: قصّ الشارب، والأظفار، ونتف الإبط، والاستحداد.

وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ

والتفث: الوسخ. والمراد: قضاء إزالة التفث. وقال ابن عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: قضاء التفث: مناسك الحج كلّها ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ مواجب حجّهم. والعرب تقول لكلّ من خرج عمّا وجب عليه: وفّى بنذره، وإن لم ينذر. أو: ما ينذرونه من أعمال البرّ في حجّهم. ﴿ولْيوفّوا﴾ بسكون اللام والتشديد: أبو بكر ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾ طواف الزيارة؛ الذي هو ركن الحجّ، ويقع به تمام التحلّل. اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عامر، وأبي عمرو[1]. ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ القديم؛ لأنه ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] بناه آدم، ثمّ جدّده إبراهيم. أو: الكريم. ومنه عتاق الخيل لكرائمها، وعتاق الرقيق: الخروج من ذلّ العبوديّة إلى كرم الحريّة. أو: لأنّه أعتق من الغرق؛ لأنه رفع زمن الطوفان. أو: من أيدي الجبابرة. كم من جبّار سار إليه ليهدمه فمنعه الله! أو: ومن أيدي الملاّك، فلم يملك قطّ. وهو مطافُ أهل الغبراء، كما أنّ العرشَ مطافُ أهل السماء، فإن الطالب إذا هاجته معية الطرب، وجذبته جواذب الطلب، جعل يقطع مناكبَ الأرض مراحل، ويتخذ مسالكَ المهالك منازل. فإذا عاين البيتَ لم يزدْه التسلي به إلاّ اشتياقاً، ولم يفده التشفّي باستلام الحجر إلاّ احتراقاً. فيذبذبه الأسفُ لهفان، ويُرَدِّده اللهف حوله في الدوران. وطواف الزيارة آخر فرائض الحجّ الثلاث. وأوّلها الإحرام. وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الإسلام، حتّى لا يرتفض بارتكاب ما هو محذورٌ فيه، ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه. كما أنّ عقدَ الإسلام لا ينحلّ بازدحام الآثام. وترتفع ألفُ حوبة بتوبة. وثانيها: الوقوف بعرفات بسمة الابتهال، في صفة الاهتبال، وصدق الاعتزال عن دفع الاتّكال على مراتب الأعمال، وشواهد الأحوال.

٣٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ﴿ذلك﴾. أو: تقديره:

---

(١) أي أن قراءة: ﴿لِيقضوا ـ لِيوفوا ـ لِيطوفوا﴾ بكسر اللامات الثلاث هي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وقنبل، وابن محيصن، ورويس، واليزيدي، وابن حجاز، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ١٧٧).

وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ

ليفعلوا ﴿ذلك﴾ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الحرمة: ما لا يحلّ هتكه. وجميع ما كلّفه الله عزّ وجلّ بهذه الصفة من مناسك الحجّ وغيرها، فيحتمل أن يكون عامّاً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصّاً بما يتعلّق بالحجّ. وقيل: ﴿حرمات الله﴾: البيت الحرام، والمشعر الحرام، والشهر الحرام، والبلد الحرام، والمسجد الحرام ﴿فَهُوَ﴾ أي: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ومعنى التعظيم: العلم بأنّها واجبة المراعاة، والحفظ، والقيام بمراعاتها ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: أكلها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ آية تحريمه. وذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣]. والمعنى: أنّ الله تعالى أحلّ لكم الأنعام كلها إلاّ ما بيّن في كتابه، فحافظوا على حدوده، ولا تحرّموا شيئاً مما أحلّ؛ كتحريم البعض البحيرة، ونحوها. ولا تحلّوا ممّا حرّم كإحلالهم أكل الموقوذة، والميتة، وغيرهما. ولمّا حثّ على تعظيم حرماته، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان، وقول الزور بقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ لأنّ ذلك من أعظم الحرمات، وأسبقها. و﴿من الأوثان﴾ بيان للرجس؛ لأنّ الرجس مبهم يتناول غير شيء، كأنه قيل: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ الذي هو الأوثان. وسمّى الأوثان رجساً على طريقة التشبيه، يعني: أنكم تنفرون بطباعكم عن الرجس، فعليكم أن تنفروا عنها. وجمع بين الشرك وقول الزور ـ أي: الكذب، والبهتان، أو شهادة الزور، وهو من الزّوَر، وهو: الانحراف ـ لأنّ الشرك من باب الزور، إذ المشرك زاعم: أنّ الوثن تحقّ له العبادة.

٣١ ـ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مسلمين ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ حال كحنفاء ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تسلبه بسرعة. ﴿فتخطّفه﴾ أي: تتخطّفه: مدنيّ ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تسقطه

فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ

ـ والهُويّ: السقوط ـ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد. يجوز أن يكون هذا تشبيهاً مركباً، ويجوز أن يكون مفرّقاً. فإن كان تشبيهاً مركّباً فكأنّه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده، بأن صوّر حاله بصورة حال من ﴿خرّ من السماء﴾ فاختطفته الطير، فتفرّق قطعاً في حواصلها، أو: عصفت به الريح حتّى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإن كان مفرّقاً فقد شبّه الإيمان في علوّه بالسماء، والذي أشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء المردية بالطير المتخطّفة، والشيطان الذي هو يوقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

٣٢ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذلك﴾ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ تعظيم الشعائر ـ وهي: الهدايا؛ لأنّها من معالم الحجّ ـ: أن يختارها عظام الأجرام، حساناً، سماناً، غالية الأثمان ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: فإنّ تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات. وإنّما ذكرت القلوب؛ لأنّها مراكز التقوى.

٣٣ـ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الركوب عند الحاجة، وشرب ألبانها عند الضرورة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن تنحر ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: وقت وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾. والمراد: نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت، إذ الحرم حريم البيت. ومثله في الاتساع قولك: بلغت البلد، وإنّما اتّصل مسيرك بحدوده. وقيل: الشعائر: المناسك كلها. وتعظيمها: إتمامها. و﴿محلّها إلى البيت العتيق﴾ يأباه.

٣٤ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ جماعة مؤمنة قبلكم ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ ـ حيث كان بكسر السين؛ بمعنى الموضع: عليّ، وحمزة، أي: موضع قربان. وغيرهما بالفتح على المصدر، أي: إراقة الدماء، وذبح القرابين ـ و﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ دون غيره ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أي: عند نحرها، وذبحها

فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ

﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي: اذكروا على الذبح اسم الله وحده، فإنّ إلهكم إله واحد. وفيه دليلٌ على أنّ ذكر اسم الله شرط الذبح. يعني: أنّ الله تعالى شرع لكلّ أمة أن ينسكوا له، أي: يذبحوا له على وجه التقرّب، وجعل العلّة في ذلك أن يذكر اسمه ـ تقدّست أسماؤه ـ على النسائك ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصّة، واجعلوه له سالماً، أي: خالصاً، لا تشوبوه بإشراك ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ المطمئنّين بذكر الله، أو: المتواضعين الخاشعين. من: الخَبْت، وهو المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا. وقيل: تفسيره ما بعده، أي:

٣٥ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ خافت منه هيبة ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ من المحن، والمصائب ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ في أوقاتها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ يتصدّقون.

٣٦ ـ ﴿ وَٱلْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة، سمّيت لعظم بدنها، وفي الشريعة: يتناول الإبل والبقر. وقُرِىء برفعها. وهو كقوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ [يس: ٣٩] ﴿ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: من أعلام الشريعة التي شرعها الله. وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها. و﴿من شعائر الله﴾ ثاني مفعولي ﴿جعلنا﴾ ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ النفع في الدنيا، والأجر في العقبى ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ عند نحرها ﴿ صَوَآفَّ ﴾ حال من الهاء، أي: قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ وجوب الجنوب: وقوعها على الأرض، من وجب الحائط وجبة: إذا سقط، أي: إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها، وسكنت حركتها ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ إن شئتم ﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ ﴾ السائل، من: قنعت إليه: إذا خضعت له، وسألته،

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ٣٨﴾

قنوعاً ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يريك نفسه، ويتعرّض، ولا يسأل. وقيل: القانع: الراضي بما عنده، وبما يُعْطَى من غير سؤال، من: قَنِعت قَنَعاً وقناعة. والمعترّ: المتعرّض للسؤال ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ أي: كما أمرناكم بنحرها ﴿سخرناها لكم﴾. أو: هو كقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ﴾ [الحج: ٣٠] ثمّ استأنف فقال: ﴿سخرناها لكم﴾، أي: ذلّلناها لكم مع قوّتها وعظم أجرامها، لتتمكّنوا من نحرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

٣٧ ـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: لن يتقبّل الله اللحوم والدماء، ولكن يتقبّل التقوى، أو: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدّق بها، ولا الدماء المراقة بالنحر. والمراد: أصحاب اللحوم والدماء. والمعنى: لن يُرضي المضحّون، والمقرّبون ربّهم إلاّ بمراعاة النيّة، والإخلاص، ورعاية شروط التقوى. وقيل: كان أهلُ الجاهلية إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت، ولطّخوه بالدم. فلمّا حجّ المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلت ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: البدن ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ لتسمّوا الله عند الذبح، أو: لتعظّموا الله ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ على ما أرشدكم إليه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الممتثلين أوامره بالثواب.

٣٨ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ ـ ﴿يَدْفَعُ﴾[1] ـ: مكّيّ، وبصري. وغيرهما ﴿يدافع﴾ أي: يبالغ في الدفع عنهم ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين. ونحوه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٥١]. ثمّ علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمة الله، أي:

---

(١) هذه القراءة هي المثبتة في الأصل المخطوط، وأما ﴿يُدافِع﴾ فهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي. (السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٤٣٧).

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ

لأنّه لا يحبّ أضدادهم، وهم الخونة الكفرة؛ الذين يخونون الله والرسول، ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله، ويغمِطونها.

٣٩ ـ ﴿أُذِنَ﴾: مدنيّ، وبصريّ، وعاصم ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ بفتح التاء: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. والمعنى: ﴿أذن﴾ لهم في القتال ـ فحذف المأذون فيه لدلالة ﴿يقاتلون﴾ عليه ـ ﴿بأنّهم ظلموا﴾ بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، كان مشركو مكّة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلّمون إليه، فيقول لهم: «اصبروا، فإنّي لم أومر بالقتال» حتّى هاجر. فأنزلت هذه الآية. وهي أوّل آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهي عنه في نيّف وسبعين آية[1] ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ على نصر المؤمنين ﴿لَقَدِيرٌ﴾ قادر. وهو بشارةٌ للمؤمنين بالنصرة. وهو مثلُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

٤٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل جرّ بدل من ﴿للذين﴾، أو: نصب بأعني، أو: رفع بإضمار «هُم» ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ بمكّة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: بغير موجب سوى التوحيد؛ الذي ينبغي أن يكون موجب التمكين، لا موجب الإخراج. ومثله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] ومحل ﴿أن يقولوا﴾ جرّ بدلاً من ﴿حقّ﴾ والمعنى: ما أخرجوا من ديارهم إلاّ بسبب قولهم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ ﴿دفاع﴾: مدنيّ، ويعقوب ﴿ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾ وبالتخفيف: حجازيّ ﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ﴾ أي: لولا إظهاره، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة، لا ستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبّداتهم، فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعاً،

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا، وعزاه الواحدي في «الوسيط» للمفسرين. (حاشية الكشاف ٣/ ١٦٠).

يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ

ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات ـ أي: كنائس. وسمّيت الكنيسة صلاة؛ لأنّها يُصلّى فيها ـ ولا للمسلمين مساجد. أو: لغلب المشركون في أمّة محمد ﷺ على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الذين في ذمّتهم، وهدّموا متعبّدات الفريقين. وقدّم غير المساجد عليها لتقدّمها وجوداً، أو: لقربها من التهديم ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ في المساجد، أو: في جميع ما تقدّم. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه، وأولياءه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على نصر أوليائه ﴿عَزِيزٌ﴾ على انتقام أعدائه.

٤١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلّه نصب بدل من ﴿مَن ينصره﴾. أو: جرّ تابع للذين أخرجوا ﴿إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هو إخبارٌ من الله عمّا ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكّنهم في الأرض، وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين. وفيه دليل صحّة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن الحسن: هم أمّة محمد ﷺ ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مرجعها إلى حكمه، وتقديره. وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه، وإعلاء كلمتهم.

٤٢ ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ هذا تسلية لمحمّد ﷺ من تكذيب أهل مكّة إيّاه، أي: لست بأوحديٍّ في التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَثَمُودُ﴾ صالحاً.

٤٣ ـ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً.

٤٤ ـ ﴿وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ﴾ شعيباً ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذّبه فرعون والقبط، ولم

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا

يقل: وقوم موسى؛ لأنّ موسى ما كذّبه قومه بنو إسرائيل، وإنّما كذّبه غير قومه. أو: كأنّه قيل بعد ما ذكر تكذيب كلّ قوم رسولهم: ﴿وكذّب موسى﴾ أيضاً مع وضوح آياته، وظهور معجزاته، فما ظنّك بغيره؟ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أمهلتهم، وأخّرت عقوبتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم على كفرهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري وتغييري، حيث أبدلتهم بالنعم نقماً، وبالحياة هلاكاً، وبالعمارة خراباً. ﴿نكيري﴾ بالياء في الوصل والوقف: يعقوب.

٤٥ ـ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ ﴿أهلكتها﴾: بصريّ ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ حال، أي: وأهلها مشركون ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. من: خوى النجم: إذا سقط ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يتعلّق بخاوية. والمعنى: أنّها ساقطة على سقوفها، أي: خرّت سقوفها على الأرض، ثمّ تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. ولا محلّ لـ ﴿فهي خاوية﴾ من الإعراب؛ لأنّها معطوفة على ﴿أهلكناها﴾ وهذا الفعل ليس له محلّ. وهذا إذا جعلنا ﴿كأيّن﴾ منصوب المحلّ على تقدير: كثيراً من القرى أهلكناها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: متروكة لفقد دلوها ورشائها. وَرَفْض تفقدها. أو: هي عاملة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء إلاّ أنّها عُطِّلت، أي: تركت لا يستقي منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مجصّص، من الشّيد: الجِصّ. أو: مرفوع البنيان، من: شاد البناء: رفعه. والمعنى: كم قرية أهلكناها! وكم بئر عطّلناها عن سقاتها! وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه! أي: أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً، فخلت القصور عن أربابها، والآبار عن ورّادها. والأظهر: أن البئر والقصر على العموم.

٤٦ ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا حثّ على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم، فيعتبروا ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه، ويسمعون

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾

ما يجب سماعه من الوحي ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ الضمير في ﴿فإنها﴾ ضمير القصّة، أو: ضمير مبهم يفسّره ﴿الأبصار﴾. أي: فما عميت أبصارهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار. ولكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه، وعينان في قلبه، فإذا أبصر ما في القلب، وَعَمِيَ ما في الرأس لم يضرّه، وإن أبصر ما في الرأس، وعمي ما في القلب لم ينفعه. وذكر الصدور لبيان أنّ محلّ العلم القلب، ولئلا يقال: إنّ القلب يعني به غير هذا العضو، كما يقال: القلب لبّ لكلِّ شيء.

٤٧ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الآجل استهزاء ﴿ولن يخلف الله وعده﴾. كأنّه قال: ولِمَ يستعجلونك به؟ كأنّهم يجوّزون الفَوْت، وإنّما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ وما وَعَدَهُ ليصيبنّهم ولو بعد حين ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يَعُدُّون: مكّيّ، وكوفيّ غير عاصم، أي: كيف يستعجلون بعذاب مَن يومٌ واحد من أيّام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم؛ لأنّ أيّام الشدائد طوال.

٤٨ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع إليّ، فلا يفوتني شيء، وإنّما كانت الأولى، أي: ﴿فَكَأَيِّن﴾ [الحج: ٤٥] معطوفة بالفاء، وهذه أي: ﴿وكأيّن﴾ بالواو؛ لأنّ الأولى وقعت بدلاً عن ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]. وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، وهما: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ [الحج: ٤٧].

٤٩ ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنّما لم يقل بشير ونذير، لذكر

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾

الفريقين بعده؛ لأنّ الحديث مسوق إلى المشركين، و﴿يا أيها الناس﴾ نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم: ﴿أفلم يسيروا﴾ ووصفوا بالاستعجال. وإنّما أُقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا. أو: تقديره: ﴿نذير مبين﴾ وبشير. فبشّر أوّلاً فقال:

٥٠ ـ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي: حسن. ثمّ أنذر فقال:

٥١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾ سعى في أمر فلان: إذا أفسده بسعيه ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ حال ﴿معجزين﴾ حيث كان: مكّيّ، وأبو عمرو. وعاجزه: سابقه، كأنّ كلّ واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل: أعجزه، وعجزه. والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها، حيث سمّوها سحراً، وشعراً، وأساطير، مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أنّ كيدهم للإسلام يتمّ لهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: النار الموقدة.

٥٢ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية ﴿مِن رَّسُولٖ﴾ زائدة لتأكيد النفي ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ هذا دليلٌ على ثبوت التغاير بين الرسول والنبيّ، بخلاف ما يقوله البعض: إنّهما واحد. وسُئِل النبيُّ ﷺ عن الأنبياء فقال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» فقيل: فكم الرسل منهم؟ فقال: «ثلاثمئة وثلاثة عشر»[1]. والفرق بينهما: أنّ الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبيّ: من لم ينزل عليه كتاب، وإنّما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله. وقيل: الرسول واضع شرع، والنّبيّ حافظ شرع غيره ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قرأ. قال[2]:

تَمَنَّـــى كتـــابَ اللهِ أوّلَ ليلـــةٍ تمنّـي داودَ الـزَّبـورَ على رِسْـلِ

﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ تلاوته، قالوا: إنّه عليه الصلاة والسلام كان في

---

(١) رواه ابن حبان (٣٦١) وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦ ـ ١٦٨).

(٢) الشاعر هو: حسان بن ثابت.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾

نادي قومه يقرأ ﴿والنجم﴾، فلمّا، بلغ قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ جرى على لسانه: تلك الغرانيق العلى، وإنّ شفاعتهنّ لترتجى. ولم يفطن له، حتّى أدركته العصمة فتنبّه عليه. وقيل: نبّهه جبريل ـ عليه السلام ـ فأخبرهم أنّ ذلك كان من الشيطان. وهذا القول غير مرضيّ؛ لأنّه لا يخلو إمّا أن يتكلّم النبيّ عليه الصلاة والسلام بها عمداً. وإنّه لا يجوز؛ لأنه كفر، ولأنّه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها. أو: أجرى الشيطان ذلك على لسان النبيّ عليه الصلاة والسلام جبراً، بحيث لا يقدر على الامتناع منه. وهو ممتنع؛ لأنّ الشيطان لا يقدرُ على ذلك في حقّ غيره، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] ففي حقه أولى. أو: جرى ذلك على لسانه سهواً وغفلة. وهو مردودٌ أيضاً؛ لأنّه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه في حال تبليغ الوحي، ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله. ولأنّه تعالى قال في صفة المنزل عليه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فلمّا بطلت هذه الوجوه لم يبق إلاّ وجه واحد، وهو أنّه عليه الصلاة والسلام سكت عند قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ فتكلّم الشيطان بهذه الكلمات متّصلاً بقراءة النبيّ ﷺ، فوقع عند بعضهم أنّه عليه الصلاة والسلام هو الذي تكلم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبيّ ﷺ[1]، وكان الشيطان يتكلّم في زمن النبيّ عليه الصلاة والسلام، ويسمع كلامه، فقد رُوي أنّه نادى يوم أحد: ألا إنّ محمداً قد قُتِل. وقال يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يذهب به، ويبطله، ويخبر أنّه من الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يثبتها، ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما أوحى إلى نبيه، وبقصد الشيطان ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يدعه حتّى يكشفه، ويزيله.

ثمّ ذكر: أنّ ذلك ليفتن الله تعالى به قوماً بقوله:

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢٢٦٣) وانظر: مجمع الزوائد (٧ / ١١٥).

لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾

---

٥٣ ـ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ محنة وابتلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكّ، ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون المكذّبون، فيزداوا به شكّاً وظلمة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المنافقين والمشركين. وأصله: وإنّهم، فوضع الظاهر موضع الضمير، قضاء عليهم بالظلم ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ.

٥٤ ـ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله، وبدينه، وبالآيات ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿فَتُخْبِتَ﴾ فتطمئنّ ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيتأوّلون ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبون لما أشكل منه المحمل؛ الذي تقتضيه الأصول المحكمة، حتّى لا تلحقهم حيرة، ولا تعتريهم شبهة.

٥٥ ـ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو: من الصراط المستقيم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يعني: يوم بدر. فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرج، أو: راحة، كالريح العقيم لا تأتي بخير، أو: شديد لا رحمة فيه، أو: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه. وعن الضحّاك: أنّه يوم القيامة، وأنّ المراد بالساعة: مقدّماته.

٥٦ ـ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ـ والتنوين عوض عن الجملة، أي: يوم يؤمنون، أو: يوم تزول مريتهم ـ ﴿لِّلَّهِ﴾ فلا منازع له فيه. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي. ثمّ بيّن حكمه فيهم بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

٥٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ثمّ خصّ قوماً من الفريق الأوّل بفضيلة، فقال:

٥٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ في الجهاد ـ ﴿قتّلوا﴾: شاميّ ـ ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ حتف أنفهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: الرزق الحسن: الذي لا ينقطع أبداً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه المخترع للخلق بلا مثال، المتكفّل للرزق بلا ملال.

٥٩ ـ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا﴾ وبفتح الميم: مدنيّ. والمراد: الجنّة. ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لأنّ فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوال من قضى نحبه مجاهداً، وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً، ﴿حَلِيمٌ﴾ بإمهال من قاتلهم معانداً. رُوي: أنّ طوئف من أصحاب النبيّ ﷺ قالوا: يا نبيّ الله! هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

٦٠ ـ ﴿۞ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذلك﴾. وما بعده مستأنف ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ سمّي الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حيث إنّه سبب، وذلك مسبَّب عنه. ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي: من جازى بمثل ما فعل به من الظلم، ثمّ ظُلم بعد ذلك، فحقّ على الله أن ينصره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ يمحو آثار الذنوب ﴿غَفُورٌ﴾ يستر أنواع العيوب. وتقريب الوصفين بسياق الآية: أنّ المعاقب مبعوث من عند الله على العفو، وترك العقوبة بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر، فهو تارك للأفضل، وهو ضامن لنصره في

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً

الكرّة الثانية إذا ترك العفو، وانتقم من الباغي. وعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين. أو: دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلاّ القادر على ضدّه، كما قيل: العفو عند القدرة.

٦١ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن آيات قدرته أنّه ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ ـ أي: يزيد من هذا في ذلك، ومن ذلك في هذا، أو: بسبب أنّه خالق الليل والنهار ومصرّفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشرّ، والبغي والإنصاف ـ وأنّه ﴿سميع﴾ لما يقولون، ولا يشغله سمع عن سمع، وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ﴿بصير﴾ بما يفعلون، ولا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي، وإن توالت الظلمات.

٦٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ عراقيّ غير ـ أبي بكر ـ ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار، وإحاطته بما يجري فيهما، وإدراكه قولهم وفعلهم بسبب أنّ الله الحقّ الثابت إلهيّته، وأنّ كل ما يُدْعىٰ إلهاً دونه باطل الدعوة، وأنّه لا شيء أعلى منه شأناً، وأكبر سلطاناً.

٦٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات بعد ما كانت مسودّة يابسة. وإنّما صرف إلى لفظ المضارع، ولم يقل: فأصبحت؛ ليفيد بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ فلان فأروح وأغدو شاكراً له. ولو قلت: فرحت، وغدوت، لم يقع ذلك الموقع.

إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

وإنّما رفع ﴿فتصبح﴾ ولم ينصب جواباً للاستفهام؛ لأنّه لو نصب لبطل الغرض. وهذا لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، كما تقول لصاحبك: ألم تر أنّي أنعمت عليك فتشكر. إن نصبته نفيت شكره، وشكوت من تفريطه فيه، وإن رفعته أثبتّ شكره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ واصل عمله، أو: فضله إلى كلّ شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم. أو: اللطيف: المختصّ بدقيق التدبير، والخبير: المحيط بكلّ قليل وكثير.

٦٤ ـ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً وملكاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ المستغني بكمال قدرته بعد فناء ما في السموات وما في الأرض ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود بنعمته قبل ثناء من في السموات ومن في الأرض.

٦٥ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من البهائم مذلّلة للركوب في البرّ ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: ومن المراكب جارية في البحر. ونصب الفلك عطفاً على ﴿ما﴾، و﴿تجري﴾ حال لها، أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يحفظها من ﴿أن تقع﴾ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ بأمره، أو: بمشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ بتسخير ما في الأرض ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإمساك السماء، لئلا تقع على الأرض. عدّد آلاءه مقرونة بأسمائه، ليشكروه على آلائه، ويذكرونه بأسمائه. وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أنّ اسم الله الأعظم في الآيات الثمانية يُستجاب لقارئها البتة.

٦٦ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ﴾ في أرحام أمّهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ لإيصال جزائكم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، ودفع عنه من صنوف النقم. أو:

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

لا يعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود، ولا الإفناء المقرّب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصّل إلى المقصود.

٦٧ - ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ مرّ بيانه. وهو ردٌّ لقول مَن يقول: إنّ الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كلّ أمّة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ فلا يجادلنّك. والمعنى: فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكّنهم من أن ينازعوك ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أمر الذبائح، أو الدين. نزلت حين قال المشركون للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعني: الميتة ﴿وَادْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادة ربّك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق قويم. ولم يذكر الواو في ﴿لكل أمة﴾ بخلاف ما تقدم؛ لأن تلك وقعت مع ما يناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك، فعطفت على أخواتها. وهذه وقعت مع أباعد عن معناها، فلم تجد معطفاً.

٦٨ - ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ مراء وتعنتاً، كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك ألاّ يكون بينك وبينهم تنازع، وجدال ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول. والمعني: أنّ الله أعلم بأعمالكم، وما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين، وتأديب يجاب به كلّ متعنّت.

٦٩ - ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هذا خطابٌ من الله للمؤمنين والكافرين، أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب؛ ومسلاة لرسول الله ﷺ مما كان يلقى منهم.

٧٠ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كيف يخفى عليه ما تعلمون، ومعلوم عند العلماء بالله أنّه يعلم كلّ ما يحدث في السموات والأرض ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الموجود فيهما ﴿فِي كِتَابٍ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: علمه بجميع ذلك عليه يسير.

٧١ ـ ثمَّ أشار إلى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ يُنْزِلْ: مكيّ، وبصريّ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حجة، وبرهاناً. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لم يتمسّكوا في عبادتهم لها ببرهان سماويّ من جهة الوحي، ولا حملهم عليها دليل عقليّ ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وما للّذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم، ويصوّب مذهبهم.

٧٢ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ الإنكار بالعبوس، والكراهة. والمنكر: مصدر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون. والسطو: الوثب، والبطش ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ هم النبي ﷺ، وأصحابه ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ من غيظكم على التالين، وسطوكم عليهم، أو: ممّا أصابكم من الكراهة، والضجر بسبب ما تلي عليكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأن قائلاً قال: ما هو؟ فقيل: ﴿النار﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ استئناف كلام ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

٧٣ ـ ولمّا كانت دعواهم بأن لله تعالى شريكاً جارية في الغرابة والشهرة مجرى الأمثال المسيرة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ﴾ بيّن ﴿مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ لضرب هذا المثل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ ﴿يَدْعُون﴾: سهل، ويعقوب ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آلهة ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ ﴿لن﴾ لتأكيد نفي المستقبل، وتأكيده ـ هنا ـ للدلالة على أنّ خلق الذباب منهم مستحيل، كأنّه قال: محال أن يخلقوا. وتخصيص الذباب لمهانته، وضعفه، واستقذاره. وسُمّي ذباباً لأنه كلما ذُبّ

وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾

لاستقذاره، آب لاستكباره ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ لخلق الذباب. ومحلّه: النصب على الحال، كأنّه قيل: مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب، مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه، وتعاونهم عليه. وهذا مِن أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلهية ـ التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلّها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ـ صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقلّ ما خلقه الله تعالى، وأذلّه ﴿ولو اجتمعوا﴾ لذلك ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ ثاني مفعوليْ ﴿يسلبهم﴾ ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾ أي: هذا الخلق الأقلّ الأذلّ لو اختطف منهم شيئاً، فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل، فإذا سلبه الذباب عجزت الأصنام عن أخذه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: الصنم يُطلَب ما سُلب منه ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ الذباب يَطلب ما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حقّقت وجدت الطالب أضعف وأضعف، فإن الذباب حيوان، وهو جماد، وهو غالب، وذاك مغلوب.

٧٤ ـ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ ما عرفوه حقّ معرفته، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكاً له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: إنّ الله قادر وغالب، فكيف يتّخذ العاجز المغلوب شبيهاً به؟! أو ﴿لقويّ﴾ بنصر أوليائه، ﴿عزيز﴾ ينتقم من أعدائه.

٧٥ ـ ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي﴾ يختار ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ رسلاً كإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد وغيرهم عليهم الصلاة والسلام. هذا ردّ لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبيان أنّ رسل الله على ضربين: مَلَك، وبشر. وقيل: نزلت حين قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لقولهم ﴿بَصِيرٞ﴾ بمن يختاره لرسالته. أو: ﴿سميع﴾ لأقوال الرسل فيما تقبله العقول

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾

﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوال الأمم في الردّ والقبول.

٧٦ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما مضى ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما لم يأت. أو: ما عملوه، وما سيعملونه. أو: أمر الدنيا وأمر الآخرة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إليه مرجع الأمور كلّها. والذي هو بهذه الصفات ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه، وتدابيره، واختيار رسله ﴿تَرْجِعُ﴾: شاميّ، وحمزة، وعليّ.

٧٧ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ في صلاتكم. وكان أوّل ما أسلموا يصلّون بلا ركوع وسجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود. وفيه دليلٌ على أنّ الأعمال ليست من الإيمان، وأنّ هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجهَ الله لا الصنم ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ قيل: لمّا كان للذكر مزيّة على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أوّلاً إلى الصلاة؛ التي هي ذكر خالص؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] ثمّ إلى العبادة بغير الصلاة، كالصوم، والحجّ، وغيرهما، ثمّ عمّ بالحثّ على سائر الخيرات. وقيل: أريد به صلة الأرحام، ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ أو: كي تفوزا. أو: افعلوا هذا كلّه وأنتم راجون للفلاح، غير مستيقنين، ولا تتكلوا على أعمالكم.

٧٨ـ ﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾ أمرٌ بالغزو، أو: مجاهدة النفس والهوى، وهو: الجهاد الأكبر، أو: هو كلمة حق عند أمير جائر ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في ذات الله، ومن أجله ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وهو ألا يخاف في الله لومة لائم. يقال: هو حقّ عالم، وجدّ عالم، أي: عالم حقّاً وجدّاً، ومنه: ﴿حقّ جهاده﴾ وكان القياس حقّ الجهاد فيه، أو: حقّ جهادكم فيه، لكن الإضافة تكون بأدنى ملابسة، واختصاص. فلمّا كان الجهاد مختصّاً بالله من حيث إنّه مفعول لوجهه، ومن أجله، صحّت إضافته إليه. ويجوز أن يتّسع في الظرف، كقوله:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

ويومَ شَهِدْناهُ سُلَيْماً وعامِراً[١] ... ...

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ اختاركم لدينه، ونصرته ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق، بل رخّص لكم في جميع ما كلّفكم من الطهارة، والصلاة، والصوم، والحجّ، بالتيمم، والإيماء، والقصر، والإفطار بعذر السفر والمرض، وعدم الراحلة ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتبعوا ﴿ملّة أبيكم﴾. أو: نصب على الاختصاص، أي: أعني بالدين ملّة أبيكم. وسمّاه أباً ـ وإن لم يكن أباً للأمّة كلّها ـ؛ لأنّه أبو رسول الله ﷺ، وكان أباً لأمّته؛ لأنّ أمّة الرسول في حكم أولاده. قال ﷺ: «إنّما أنا لكم مثل الوالد»[٢] ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الله؛ بدليل قراءة أبيّ: ﴿الله سمّاكم﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدّمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في القرآن، أي: فضلكم على سائر الأمم، وسمّاكم بهذا الاسم الأكرم ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أنّه قد بلّغكم رسالة ربّكم ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم. وإذ خصّكم بهذه الكرامة، والأثرة ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بواجباتها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بشرائطها ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا بالله، وتوكلوا عليه، لا بالصلاة، والزكاة ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: مالِكُكم، وناصركم، ومتولّي أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: الناصر هو، حيث أعانكم على طاعتكم، وقد أفلح من هو مولاه، وناصره.

* * *

(١) صدر بيت، وعجزه: قليل سوى الطعن النهال نوافله.

(٢) رواه أحمد (٢ / ٢٥٠) والنسائي (١ / ٣٨) وابن ماجه (٣١٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾

١ ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ «قد»: نقيضة لمّا، هي تثبيت المتوقّع، و«لمّا» تنفيه. وكان المؤمنون يتوقّعون مثل هذه البشارة، وهي: الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخوطبوا بما دلّ على ثبات ما توقّعوه. والفلاح: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، أي: فازوا بما طلبوا، ونجوا ممّا هربوا. والإيمان في اللغة: التصديق، والمؤمن: المصدّق، لغة، وفي الشرع: كلّ مَن نطق بالشهادتين مواطئاً قلبُه لسانه، فهو مؤمن. قال ﷺ: «خلق الله الجنّة فقال لها: تكلّمي، فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ـ ثلاثاً ـ أنا حرام على كلّ بخيلٍ مُراء»[1] لأنّه بالرياء أبطل العبادات البدنيّة، وليس له عبادة ماليّة.

٢ ـ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون بالقلب، ساكنون بالجوارح. وقيل: الخشوع في الصلاة: جمع الهمّة لها، والإعراض عمّا سواها، وألاّ يجاوز بصره مصلاّه، وأن لا يلتفت، ولا يعبث، ولايسدل، ولا يفرقع أصابعه، ولا يقلّب الحصى، ونحو ذلك. وعن أبي الدرداء: هو إخلاص المقال، وإعظام المقام، واليقين التامّ، وجمع الاهتمام. وأضيفت الصلاة إلى المصلّين، لا إلى

(١) رواه أبو نعيم في صفة الجنة (١٧) وابن أبي الدنيا كما في النهاية (٢ / ٣٨٤).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

المصلّى له، لانتفاع المصلّي بها وحده، وهي: عدّته، وذخيرته. وأما المصلّى له فغني عنها.

٣ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو: كلّ كلام ساقط حقّه أن يلغى، كالكذب، والشتم، والهزل. يعني: أنّ لهم من الجدّ ما شغلهم عن الهزل. ولمّا وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقّين على الأنفس؛ اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ مؤدّون. ولفظ ﴿فاعلون﴾ يدل على المداومة، بخلاف مؤدّون. وقيل: الزكاة: اسم مشترك، يطلق على العين، وهو القدر الذي يخرجه المزكّي من النصاب إلى الفقير، وعلى المعنى: وهو فعل المزكي؛ الذي هو التزكية، وهو: المراد هنا، فجعل المزكّين فاعلين له؛ لأنّ لفظ الفعل يعمّ جميع الأفعال كالضرب، والقتل، ونحوهما. تقول للضارب، والقاتل، والمزكّي: فعل الضرب، والقتل، والتزكية. ويجوز أن يُرادَ بالزكاة العين، ويقدر مضاف محذوف، وهو: الأداء. ودخل اللام لتقدّم المفعول، وضعف اسم الفاعل في العمل، فإنك تقول: هذا ضارب لزيد، ولا تقول: ضَرَب لزيد.

٥ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الفرج: يشمل سوءة الرجل والمرأة.

٦ ـ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ في موضع الحال، أي: إلاّ والين على أزواجهم، أو: قوّامين عليهنّ، من قولك: كان زياد على البصرة، أي: والياً عليها. والمعنى: أنّهم ﴿لفروجهم حافظون﴾ في جميع الأحوال، إلاّ في حال تزوجهم، أو: تسرّيهم. أو: تعلق ﴿على﴾ بمحذوف يدلّ عليه ﴿غير ملومين﴾ كأنّه قيل: يلامون ﴿إلاّ على أزواجهم﴾ أي: يلامون على كلّ مباشرة، إلاّ على ما أطلق لهم ﴿فإنّهم غير ملومين﴾ عليه. وقال الفرّاء: ﴿إلاّ﴾ من ﴿أزواجهم﴾ أي: زوجاتهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: إمائهم، ولم يقل: مَنْ؛ لأنّ المملوك جرى

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾

مجرى غير العقلاء؛ ولهذا يُباع كما تباع البهائم! ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: لا لوم عليهم إن لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم، وإمائهم.

٧ ـ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ طلب قضاء شهوة من غير هذين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان. وفيه دليلُ تحريم المتعة، والاستمناء بالكفّ لإرادة الشهوة.

٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ ﴿لأمانتهم﴾: مكّيّ، وسهل. سمّي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه: أمانة، وعهداً. ومنه قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وإنّما تؤدّى العيون لا المعاني. والمراد به: العموم في كلّ ما ائتمنوا عليه، وعوهدوا من جهة الله عز وجل، ومن جهة الخلق ﴿رَٰعُونَ﴾ حافظون. والراعي: القائم على الشيء بحفظٍ وإصلاحٍ، كراعي الغنم.

٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ (صلاتهم): كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ ﴿يُحَافِظُونَ﴾: يداومون في أوقاتها. وإعادة ذكر الصلاة؛ لأنها أهمّ، ولأنّ الخشوع فيها غير المحافظة عليها، ولأنّها وُحّدَتْ أوّلاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، أيّة صلاة كانت. وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض، والواجبات، والسُّنن، والنّوافل.

١٠ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الأحقّاء بأن يسموا ورّاثاً دون مَن عداهم. ثمّ ترجم الوارثين بقوله:

١١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ من الكفار. في الحديث: «ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان: منزل في الجنّة ومنزل في النار، فإن مات ودخل الجنّة ورث أهل النار

﴿ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾

منزله، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله»[١] ﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ هو البستان الواسع، الجامع لأصناف الثمر. وقال قطرب: هو أعلى الجنان ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أنث الفردوس بتأويل الجنّة.

١٢ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: آدم ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ «مِنْ» للابتداء. والسلالة: الخلاصة؛ لأنها تسلّ من بين الكدر. وقيل: إنّما سمّي التراب الذي خلق آدم منه سلالة؛ لأنّه سلّ من كلّ تربة ﴿مِّن طِينٍ﴾ «مِنْ» للبيان، كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

١٣ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: نسله. فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ لأنّ آدم ـ عليه السلام ـ لم يُصَيَّر نطفة. وهو كقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٨]. وقيل: ﴿الإنسان﴾ بنو آدم، والسلالة: النطفة. والعرب تسمّي النطفة: سلالة، أي: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة﴾ يعني: من نطفة مسلولة ﴿من طين﴾، أي: مِنْ مخلوق من طين، وهو: آدم ـ عليه السلام ـ ﴿نُطْفَةً﴾ ماء قليلاً ﴿فِى قَرَارٍ﴾ مستقرّ، يعني: الرحم ﴿مَّكِينٍ﴾ حصين.

١٤ ـ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ أي: صيّرناها ـ بدلالة تعدّيه إلى مفعولين، والخلق يتعدّى إلى مفعول واحد ﴿عَلَقَةً﴾ قطعة دم. والمعنى: أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ لحماً قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ فصيّرناها عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فأنبتنا عليها اللحم، فصار لها كاللباس. ﴿عظماً﴾ ﴿العظم﴾: شاميّ، وأبو بكر. ﴿عظماً﴾ ﴿العظام﴾: زيد عن يعقوب. ﴿عظاماً﴾ ﴿العظم﴾ عن أبي زيد. وضع الواحد موضع الجمع

(١) رواه ابن ماجه (٤٣٤١).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لعدم اللبس؛ إذ الإنسان ذو عظام كثيرة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ﴾ الضمير يعودُ إلى الإنسان، أو: إلى المذكور ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: ﴿خلقاً﴾ مبايناً للخلق الأوّل، حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وسميعاً وبصيراً، وكان بضدّ هذه الصفات. ولهذا قلنا: إذا غصب بيضة، فأفرخت عنده، يضمن البيضة، ولا يردّ الفرخ؛ لأنّه خلق آخر سوى البيضة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى أمره في قدرته، وعلمه ﴿أَحْسَنُ﴾ بدل، أو: خبر مبتدأ محذوف، وليس بصفة، لأنه نكرة وإن أضيف؛ لأنّ المضاف إليه عوض من «مِن» ﴿ٱلْخَالِقِينَ﴾ المقدّرين، أي: أحسن المقدّرين تقديراً. فترك ذكر المميّز لدلالة ﴿الخالقين﴾ عليه. وقيل: إنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب النبيّ ﷺ نطق بذلك قبل إملائه، فقال له رسول الله ﷺ: «هكذا نزلت». فقال: عبد الله: إن كان محمد نبيّاً يُوحى إليه فأنا نبيّ يُوحى إليّ. فارتدّ، ولحق بمكّة، ثمّ أسلم يوم الفتح[1]. وقيل: هذه الحكاية غير صحيحة؛ لأنّ ارتداده كان بالمدينة، وهذه السورة مكيّة. وقيل: القائل عمر، أو: معاذ ـ رضي الله عنهما ـ.

١٥ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما ذكرنا من أمركم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عن انقضاء آجالكم.

١٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ تحيون للجزاء.

١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ جمع طريقة، وهي: السموات؛ لأنها طرق الملائكة، ومتقلّباتهم ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أراد بالخلق: السموات، كأنّه قال: خلقناها فوقهم، وما كنّا عنها غافلين وعن حفظها. أو: أراد به الناس، وأنّه إنّما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وما كان غافلاً عنهم، وعمّا يصلحهم.

---

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وعزاه الواحدي إلى الكلبي عن ابن عباس (حاشية الكشاف ٣/ ١٧٩).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

١٨ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ مطراً ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرّة، ويصلون إلى المنفعة، أو: بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]. وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض، فماء الأرض كلّه من السماء، ثمّ استأدّى شكرهم بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه، فقيدوا هذه النعمة بالشكر.

١٩ ـ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ بالماء ﴿جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى النخيل، والأعناب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من الجنّات، أي: من ثمارها. ويجوز أنّ هذا من قولهم: فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن صنعة يغتلّها، أي: أنّها طُعْمَته وجهته التي منها يحصّل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنّات وجوه أرزاقكم ومعايشكم، منها ترزقون، وتتعيّشون.

٢٠ ـ ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على ﴿جنّات﴾ وهي: شجرة الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ طور سيناء وطور سينين لا يخلو إمّا أن يضاف الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإمّا أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كامرىء القيس، وهو جبل فلسطين. و﴿سيناء﴾ غير منصرف بكلّ حال، مكسور السين، كقراءة الحجازيّ وأبي عمرو؛ للتعريف والعجمة، أو مفتوحها كغيرهم[1]؛ لأنّ الألف للتأنيث كصحراء ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ قال الزجاج: الباء للحال، أي: ﴿تنبت﴾ ومعها الدّهن. ﴿تُـنبِتُ﴾: مكيّ، وأبو عمرو، إمّا لأنّ أنبت بمعنى نبت، كقوله: حتى إذا أنبت البقل. أو: لأنّ مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها، وفيه الدهن ﴿وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ أي: إدام لهم. قال مقاتل: جعل الله تعالى في هذه إداماً ودهناً. فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت.

---

(١) أي كقراءة غيرهم.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾

وقيل: هي أوّل شجرة نبتت بعد الطوفان. وخصّ هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنّها أكرم الشجر، وأفضلها، وأجمعها للمنافع.

٢١ ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ جمع نعم، وهي: الإبل، والبقر، والغنم ﴿لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ﴾ وبفتح النون: شاميّ، ونافع، وأبو بكر. وسقى وأسقى لغتان ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي: نخرج لكم من بطونها لبناً سائغاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى الألبان، وهي منافع الأصواف، والأوبار، والأشعار ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لحومها.

٢٢ ـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام في البرّ ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في أسفاركم. وهذا يشير إلى أنّ المراد بالأنعام: الإبل؛ لأنّها هي المحمول عليها في العادة؛ فلذا قرنها بالفلك التي هي السفائن؛ لأنّها سفائن البرّ. قال ذو الرمة:

... ... سَفِينةُ بَرٍّ تحتَ خَدّي زِمامُها[1]

يريد: ناقته.

٢٣ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحِّدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ معبود ﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع على المحلّ، وبالجرّ على اللفظ. والجملة استئناف، تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقوبة الله؛ الذي هو ربّكم، وخالقكم إذا عبدتم غيره، مما ليس من استحقاق العبادة في شيء.

٢٤ ـ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: أشرافهم لعوامّهم: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يأكل ويشرب، ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطلب الفضل عليكم،

(١) عجز بيت، وصدره: طروقاً وجلب الرحل مشدودة به.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾

ويترأّس ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إرسال رسول ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ لأرسل ملائكة ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بإرسال بشر رسولاً، أو بما يأمرنا به من التوحيد، وسبّ آلهتنا. والعجب منهم: أنّهم رضوا بالألوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوّة للبشر ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٥ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فانتظروا، واصبروا عليه إلى زمان، حتّى ينجلي أمره، فإن أفاق من جنونه، وإلاّ قتلتموه.

٢٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فلمّا أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم، والمعنى: أَهْلِكْهم بسبب تكذيبهم إيّاي، إذ في نصرته إهلاكهم. أو: ﴿انصرني﴾ بدل ﴿ما كذّبون﴾ كقولك: هذا بذاك، أي: بدل ذاك. والمعنى: أبدلني من غمّ تكذيبهم سلوة النّصرة عليهم.

٢٧ ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أجبنا دعاءه ﴿فأوحينا إليه﴾ ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك، ورؤيته إيّاك، أو: بحفظنا وكلاءتنا، كأنّ معك من الله حفّاظاً يكلؤونك بعيونهم؛ لئلا يتعرّض لك، ولا يُفسد عليك مفسد عملك. ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أمرنا، وتعليمنا إيّاك صنعتها. روي: أنّه أوحي إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ[1] الطائر ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا بأمرنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: فار الماء من تنوّر الخبز، أي: أخرج سبب الغرق، من موضع الحرق؛ ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار. رُوي: أنّه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء يفورُ من التنوّر فاركبْ أنت ومَن معك في السفينة. فلمّا نبع الماءُ من التنوّر أخبرته امرأته، وكان تنوّر آدم فصار إلى نوح. وكان من حجارة. واختلف في مكانه، فقيل: في مسجد الكوفة، وقيل: بالشام، وقيل: بالهند ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ فأدخل

(١) «جؤجؤ»: صدر.

مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾[1] من كل أمّتي زوجين، وهما أمّة الذكر، وأمّة الأنثى، كالجمال، والنوق، والحصان، والرماك ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ واحدين مزدوجين كالجمل والناقة، والحصان والرَّمَكة[2]. رُوي: أنّه لم يحمل إلاّ ما يلد ويبيض. ﴿من كلٍّ﴾: حفص، أي: من كلّ أمّة ﴿زوجين اثنين﴾. و﴿اثنين﴾ تأكيد، وزيادة بيان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ونساءك، وأولادك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ من الله بإهلاكه، وهو ابنه، وإحدى زوجتيه، فجيء بـ«على» مع سبق الضارّ، كما جيء باللام مع سبق النافع في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١] ونحوها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا تسألني نجاة الذين كفروا، فإنّي أغرقهم.

٢٨ ـ ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ فإذا تمكّنتم عليها راكبين ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم. ولم يقل: فقولوا، وإن كان ﴿فإذا استويت أنت ومن معك﴾ في معنى: إذا استويتم؛ لأنه نبيّهم وإمامهم، فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوّة.

٢٩ ـ ﴿وَقُل﴾ حين ركبت على السفينة، أو: حين خرجت منها ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا﴾ أي: إنزالاً، أو: موضع إنزال. ﴿مَنزِلاً﴾ أبو بكر، أي: مكاناً ﴿مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ فالبركة في السفينة: النجاة فيها، وبعد الخروج منها: كثرة النسل، وتتابع الخيرات.

---

(١) في الأصل المخطوط: ﴿كلِّ﴾. وهي قراءة: ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم. معجم القراءات القرآنية (٢٠٨/٤).
(٢) «الرَّمكَة»: الفَرَس والبِرْذَوْنة تُتَّخذ للنسل.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ

٣٠ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ لعبراً، ومواعظ. ﴿وَإِن﴾ هي المخففة من الثقيلة. واللام هي الفارقة بين النافية وبينها. والمعنى: وإنّ الشأن، والقصّة ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، وعقاب شديد، أو: مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذّكر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

٣١ ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد قوم هود. ويشهد له قول هود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ومجيء قصّة هود على أثر قصّة نوح في الأعراف، وهود، والشعراء.

٣٢ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ الإرسال يعدّى بـ«إلى»، ولم يعدّ بـ«في» هنا، وفي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ [الأعراف: ٩٤] ولكنّ الأمّة والقرية جعلت موضعاً للإرسال، كقول رُؤبة:

أَرْسَلْتُ فِيها مُصْعَباً ذا إِقْحام[1] ... ...

﴿رَسُولًا﴾ هوداً ﴿مِّنْهُمْ﴾ من قومهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مفسّرة لأرسلنا، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٣٣ ـ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ ذكر مقال قوم هود في جوابه في الأعراف وهود بغير واو؛ لأنّه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقيل له: قالوا: كيت وكيت. وهاهنا مع الواو؛ لأنّه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول، ومعناه: أنّه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل. وليس بجواب للنبيّ ﷺ متّصل بكلامه، ولم يكن بالفاء، وجيء بالفاء في قصّة نوح؛ لأنّه جواب لقوله واقع عقيبه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ صفة لـ«الملأ»، أو: لقومه ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾

---

(١) صدر بيت، وعجزه: طباً فقيهاً بذوات الإبلام.

وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

أي: بلقاء ما فيها من الحساب، والثواب، والعقاب، وغير ذلك ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال، والأولاد ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: النبيّ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: منه. فحذف لدلالة ما قبله عليه، أي: من أين يدّعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم؟

٣٤ ـ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به، وينهاكم عنه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ واقع في جزاء الشرط، وجواب للذين قاولوهم من قومهم ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ بالانقياد لمثلكم. ومِن حمقهم: أنهم أبوا اتّباع مثلهم، وعبدوا أعجز منهم.

٣٥ ـ ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بالكسر: نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص. وغيرهم: بالضمّ ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبعوثون للسؤال، والحساب، والثواب، والعقاب، وثنّى ﴿أنكم﴾ للتأكيد. وحسن ذلك للفصل بين الأوّل والثاني بالظرف. و﴿مخرجون﴾ خبر عن الأوّل. والتقدير: ﴿أيعدكم﴾ أنّكم مخرجون ﴿إذ متّم وكنتم تراباً وعظاماً﴾.

٣٦ ـ ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ وبكسر التاء: يزيد. ورُوي عنه بالكسر والتنوين فيهما. والكسائي يقف بالهاء؛ وغيره بالتاء. وهو اسم للفعل، واقع موقع بَعُد، وفاعلها مضمر، أي: بعد التصديق، أو: الوقوع ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب. أو: فاعلها: «ما توعدون» واللام زائدة، أي: بَعُد ما توعدون من البعث.

٣٧ ـ ﴿إِنْ هِيَ﴾ هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلاّ بما يتلوه من بيانه. وأصله: إن الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾. ثمّ وضع ﴿هي﴾ موضع الحياة؛ لأنّ الخبر يدلّ عليها، ويبيّنها. والمعنى: لا حياة إلاّ هذه الحياة التي نحن فيها ودنت منّا. وهذا؛ لأنّ ﴿إن﴾ النافية دخلت على ﴿هي﴾ التي في معنى الحياة الدالّة على الجنس، فنفتها، فوازنت لا؛ التي لنفي الجنس ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا

بعض، ويولد بعض، ينقرض قرن فيأتي قرن آخر. أو: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت. وهو قراءة أبيّ، وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

٣٨ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ما هو إلاّ مفترٍ على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدّقين.

٣٩ ـ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فأجاب الله دعاء الرّسول بقوله:

٤٠ ـ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ ﴿ما﴾ زائدة، أو: بمعنى شيء، أو: زمن. و﴿قليل﴾ بدل منها. وجواب القسم المحذوف ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ إذا عاينوا ما يحلّ بهم.

٤١ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ صاح عليهم فدمّرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل من الله. يقال: فلان يقضي بالحقّ، أي: بالعدل ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبّههم في دمارهم بالغثاء، وهو: حميل السيل مما بلي، واسودّ من الورق، والعيدان ﴿فَبُعْدًا﴾ فهلاكاً. يقال: بَعِدَ بَعَداً وبُعْداً، أي: هلك. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بيان لمن دعي عليه بالبعد، نحو: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

٤٢ ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ قوم صالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم.

٤٣ ـ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ «مِنْ»: صلة، أي: ما تسبق أمّة ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوب لها، والوقت الذي حُدَّ لهلاكها، وكُتِبَ ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لا يتأخّرون عنه.

٤٤ ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ فَعْلى. والألف للتأنيث؛ كسكرى؛ لأن الرسل جماعة؛ ولذا لا ينوّن؛ لأنّه غير منصرف. (تترىً) بالتنوين: مكيّ، وأبو عمرو، ويزيد؛ على أنّ الألف للإلحاق كأرطيً. وهو نصب على الحال في القراءتين،

كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ

أي: متتابعين واحداً بعد واحد. وتاؤها فيهما بدل من الواو. والأصل: وترى من الوتر، وهو الفرد، فقلبت الواو تاء، كتراث ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ الرسول يلابس المرسِل والمرسل إليه، والإضافة تكون بالملابسة، فتصحّ إضافته إليهما ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ الأمم والقرون ﴿بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أخباراً يُسْمَرُ بها، ويتعجّب منها. والأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث النبيّ ﷺ. وتكون جمعاً للأحدوثة، وهو: ما يتحدّث به الناس تلهّياً، وتعجباً، وهو: المراد هنا ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٤٥ ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بدل من ﴿أخاه﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجّة ظاهرة.

٤٦ ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ امتنعوا عن قبول الإيمان ترفعاً، وتكبّراً ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبّرين، مترفعين.

٤٧ ـ ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ البشر يكون واحداً وجمعاً. ومثل، وغير يوصف بهما الاثنان، والجمع، والمذكّر، والمؤنث ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ خاضعون مطيعون، وكلّ من دان لملك فهو عابد له عند العرب.

٤٨ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق.

٤٩ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ أي: قوم موسى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعملون بشرائعها، ومواعظها.

٥٠ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ تدلّ على قدرتنا على ما نشاء؛ لأنّه خلق من غير نطفة. وُحِّد لأنّ الأعجوبة فيهما واحدة. أو: المراد ﴿وجعلنا ابن مريم﴾ آية ﴿وأمّه﴾ آية، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ جعلنا

﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾

مأواهما، أي: منزلهما ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ ـ شاميّ، وعاصم ﴿رُبْوَةٍ﴾ غيرهما ـ أي: أرض مرتفعة، وهي بيت المقدس، أو: دمشق، أو: الرملة، أو: مصر ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقرّ من أرض مستوية منبسطة، أو: ذات ثمار وماء، يعني: أنّه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماء ظاهر جارٍ على وجه الأرض، وهو مفعول، أي: مدرك بالعين بظهوره، من: عانه؛ إذا أدركه بعينه. أو: فعيل؛ لأنّه نقّاع بظهوره وجريه، من: الماعون، وهو: المنفعة.

٥١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة، وإنّما المعنى: الإعلام بأن كلّ رسول في زمانه نودي بذلك، ووصّي به؛ ليعتقد السامعُ أنّ أمراً نودي له جميع الرسل، ووصّوا به حقيق أن يُؤخذ به، ويُعمل عليه. أو: هو خطاب لمحمّد ﷺ لفضله وقيامه مقام الكلّ في زمانه، وكان يأكل من الغنائم. أو: لعيسى ـ عليه السلام ـ لاتّصال الآية بذكره، وكان يأكل من غزل أمّه، وهو أطيب الطيّبات. والمراد بالطيبات: ما حلّ. والأمر للتكليف. أو: ما يستطاب، ويستلذّ، والأمر للترفيه والإباحة ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ موافقاً للشريعة ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم على أعمالكم.

٥٢ ـ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ كوفيّ على الاستئناف. ﴿وأنّ﴾ حجازيّ، وبصريّ بمعنى: ولأنّ، أي: ﴿فاتّقون﴾ لأنّ هذه. أو: معطوف على ما قبله، أي: ﴿بما تعملون عليم﴾ وبأنّ هذه. أو: تقديره: ﴿و﴾ اعلموا ﴿أنّ هذه﴾ ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملّتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ملّة واحدة، وهي: شريعة الإسلام. وانتصاب ﴿أمّة﴾ على الحال. والمعنى: وإنّ الدين دين واحد وهو الإسلام. ومثله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ وحدي، فخافوا عقابي في مخالفتكم أمري.

٥٣ ـ ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تقطّع بمعنى: قطع، أي: قطعوا أمر دينهم

زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿زُبُرًا﴾ جمع زبور، أي: كتباً مختلفة، يعني: جعلوا دينهم أدياناً. وقيل: تفرّقوا في دينهم فرقاً، كلّ فرقة تنتحل كتاباً. وعن الحسن: قطعوا كتاب الله قطعاً، وحرّفوه. وقُرىء ﴿زُبَرًا﴾ جمع زُبْرة، أي: قطعاً ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطّعين دينهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الكتاب، والدّين، أو: من الهوى، والرأي ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون، معتقدون أنّهم على الحقّ.

٥٤ ـ ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ جهالتهم، وغفلتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن يُقتلوا، أو يموتوا.

٥٥، ٥٦ ـ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ «ما» بمعنى الذي. وخبر أنّ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾. والعائد من خبر أنّ إلى اسمها محذوف، أي: نسارع لهم به. والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلاّ استدراجاً لهم إلى المعاصي، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، ومعاجلة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم. وهذه الآية حجّة على المعتزلة في مسألة الأصلح؛ لأنهم يقولون: إنّ الله لا يفعل بأحد من الخلق إلاّ ما هو أصلح له في الدِّين. وقد أخبر: أنّ ذلك ليس بخير لهم في الدِّين، ولا أصلح ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ «بل» استدراك لقوله: ﴿أيحسبون﴾ أي: بل هم أشباه البهائم، لا شعور لهم حتّى يتأمّلوا في ذلك أنّه استدراج، أو: مسارعة في الخير.

٥٧ ـ ثمّ بيّن ذكر أوليائه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون.

٥٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بكتب الله كلّها، لا يفرّقون بين كتبه كالذين تقطّعوا أمرهم بينهم، وهم أهل الكتاب.

٥٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ كمشركي العرب.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾

٦٠ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات. وقُرِىء: ﴿يأتون ما أتوا﴾ بالقصر، أي: يفعلون ما فعلوا ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة ألاّ تقبل منهم لتقصيرهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ الجمهور على أنّ التقدير: لأنهم. وخبر ﴿إن الذين﴾:

٦١ ـ ﴿أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يرغبون في الطاعات فيبادرونها ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: لأجل الخيرات سابقون إلى الجنّات، أو: لأجلها سبقوا الناس.

٦٢ ـ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، يعني: أنّ الذي وصف به الصالحون غير خارج عن حدّ الوسع، والطاقة. وكذلك كلّ ما كلّفه عباده. وهو ردّ على من جوّز تكليف ما لا يُطاق ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ أي: اللوح، أو: صحيفة الأعمال ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يقرؤون منه يوم القيامة إلاّ ما هو صدق وعدل، لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب، أو نقصان ثواب، أو بتكليف ما لا وسع له به.

٦٣ ـ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها ممّا عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطّية لذلك، أي: لما وصف به المؤمنون ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ وعليها مقيمون، لا يفطمون عنها حتّى يأخذهم الله بالعذاب.

٦٤ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعّميهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ عذاب الدنيا، وهو: القحط سبع سنين، حين دعا عليهم النبيّ عليه الصلاة والسلام، أو: قتلهم يوم بدر. و﴿حتّى﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام. والكلام: الجملة الشرطيّة ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ يصرخون استغاثة. والجؤار: الصراخ باستغاثة، فيقال لهم:

لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ

٦٥ ـ ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾. فإن الجؤار غير نافع لكم ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: من جهتنا لا يلحقكم نصر، أو: معونة.

٦٦ ـ ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى. والنكوص: أن يرجع القهقرى، وهو أقبح مشية؛ لأنّه لا يرى ما وراءه.

٦٧ ـ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ متكبّرين على المسلمين. حال من ﴿تنكصون﴾ ﴿بِهِۦ﴾ بالبيت، أو: بالحرم؛ لأنّهم يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنّا أهل الحرم، والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت. أو: بـ«آياتي»؛ لأنّها في معنى كتابي. ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً. ضمّن ﴿مستكبرين﴾ معنى مكذّبين، فعدّي تعديته. أو: يتعلّق الباء بقوله: ﴿سَٰمِرًا﴾ تسمرون بذكر القرآن، وبالطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن، وتسميته شعراً وسحراً. والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع. وقرىء: (سمّاراً). أو: بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ وهو من الهُجر: الهذيان. ﴿تُهجِرون﴾: نافع، من أهجر في منطقه: إذا أفحش.

٦٨ ـ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ أفلم يتدبّروا القرآن ليعلموا: أنّه الحقّ المبين، فيصدّقوا به، وبمن جاء به ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين، فلذلك أنكروه، واستبدعوه.

٦٩ ـ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ محمداً بالصدق، والأمانة، ووفور العقل، وصحّة النسب، وحسن الأخلاق؟! أي: عرفوه بهذه الصفات ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بغياً، وحسداً.

٧٠ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جنون؟ وليس كذلك؛ لأنّهم يعلمون أنّه أرجحهم

بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾

عقلاً، وأثقبهم ذهناً ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الأبلج، والصراط المستقيم، وبما خالف شهواتهم وأهواءهم، وهو التوحيد والإسلام، ولم يجدوا له مرداً ولا مدفعاً، فلذلك نسبوه إلى الجنون ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنّ أقلّهم ما كان كارهاً للحق، بل كان تاركاً للإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ، وترك دين آبائه، كأبي طالب.

٧١ ـ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الله ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ فيما يعتقدون من الآلهة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ كما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ خصّ العقلاء بالذّكر؛ لأنّ غيرهم تبع ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذكرهم، أي: وعظهم، أو: شرفهم؛ لأنّ الرسول منهم والقرآن بلغتهم. أو: بالذكر الذي كانوا يتمنّونه، ويقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الآية [الصافات: ١٦٨] ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بسوء اختيارهم.

٧٢ ـ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾: حجازيّ، وبصريّ، وعاصم. ﴿خَرْجاً... فَخَرْجُ﴾: شاميّ. ﴿خراجاً... فخراج﴾: عليّ، وحمزة. وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كلّ عامل من أجرته، وجُعله. والخرج أخصّ من الخراج، تقول: خراج القرية، وخرج الكُردة[1]، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى. ولذا حسنت القراءة الأولى، يعني: ﴿أم تسألهم﴾ على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من الخالق خير ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أفضل المعطين.

---

(١) «الكردة»: المَشارَة من المزارع.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

٧٣ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام، فحقيقٌ أن يستجيبوا لك.

٧٤ ـ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو: الصراط المستقيم.

٧٥ ـ ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ لمّا أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العِلْهِز[1]، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم، ألست تزعم أنّك بُعثتَ رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى» فقال: قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع! فنزلت: الآية[2]. والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ، وهو: القحط الذي أصابهم برحمته لهم، ووجدوا الخصب ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ أي: لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتردّدون. يعني: لعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار، وعداوة رسول الله ﷺ، والمؤمنين، ولذهب عنهم هذا التملّق بين يديه.

٧٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ استشهد على ذلك بأنّا اخذناهم أوّلاً بالسيوف، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم، وأسرهم، فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة، أي: خضوع ولا تضرّع ـ وقوله: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ عبارة عن دوام حالهم، أي: وهم على ذلك بعد، ولذا لم يقلْ: وما تضرّعوا. ووزن استكان: استفعل، من الكون، أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال.

٧٧ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا﴾ «فتّحْنا»: يزيد ﴿عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: باب

---

(١) «العلهز»: طعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة.
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢١١).

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾

الجوع؛ الذي هو أشدّ من الأسر والقتل ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيّرون، آيسون من كلّ خير، وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد ليستعطفك. أو: محنّاهم بكلّ محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة. وهم كذلك حتّى إذا عذّبوا بنار جهنّم فحينئذ يبلسون، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

٧٨ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خصّها بالذكر؛ لأنّها يتعلّق بها من المنافع الدينيّة والدنيويّة ما لا يتعلّق بغيرها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون شكراً قليلاً. و﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد بمعنى حقّاً. والمعنى: إنّكم لم تعرفوا عظم هذه النعم، ووضعتموها غير مواضعها، فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله، ولم تستدلّوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولا تشركوا به شيئاً.

٧٩ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم، وبثّكم بالتناسل ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم.

٨٠ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي النسم بالإنشاء، ويميتها بالإفناء ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: مجيء أحدهما عقيب الآخر، واختلافهما في الظلمة والنور، أو: في الزيادة والقصور. وهو مختصّ به، ولا يقدر على تصريفهما غيره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفوا قدرتنا على البعث، أو: فتستدلّوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا.

٨١ ـ ﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي: أهل مكّة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: الكفار قبلهم. ثمّ بيّن ما قالوا بقوله:

﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨﴾

٨٢ ـ ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾[1] ﴿مِتنا﴾: نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص.

٨٣ ـ ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل مجيء محمّد ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جمع: أسطار، جمع: سطر، وهي: ما كتبه الأوّلون ممّا لا حقيقة له. وجمع: أسطورة أوفق. ثمّ أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بإقامة الحجة على المشركين بقوله:

٨٤، ٨٥ ـ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؟ فإنّهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنّهم مقرّون بأنّه الخالق. فإذا قالوا: ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعملوا أنّ من فطر الأرض ومن فيها كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بألا يُشرَك به بعضُ خلقه في الربوبيّة. ﴿أفلا تَذَكَّرون﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص. وبالتشديد: غيرهم.

٨٦، ٨٧ ـ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به؟ أو: ﴿أفلا تتّقون﴾ في جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الأشياء.

٨٨ ـ ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الملكوت: الملك. والواو والتاء للمبالغة، فتنبيء عن عظم الملك ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه، ومنعته، يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحداً.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿مُتنا﴾. وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبي جعفر، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٧/ ٦٨).

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

٨٩ ـ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ تخدعون عن الحقّ، أو: عن توحيده، وطاعته. والخادع: هو الشيطان، والهوى. الأول: ﴿لله﴾ بالإجماع، إذ السؤال ﴿لمن﴾ وكذا الثاني والثالث عند غير أهل البصرة على المعنى، لأنّك إذ قلت: من ربّ هذا، فمعناه: لمن هذا؟ فيجاب: لفلان، كقول الشاعر:

إذا قيل مَن ربّ المزالف والقرى ... وربّ الجيادِ الجرد؟ قيل: لخالد

أي: لمن المزالف. ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر؛ لأنك إذا قلت: من ربّ هذا؟ فجوابه: فلان.

٩٠ ـ ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ بأنّ نسبة الولد إليه محال، والشرك باطل ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: اتخذ الله ولداً ودعائهم الشريك. ثمّ أكّد كذبهم بقوله:

٩١ ـ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لأنه منزّه عن النوع، والجنس. وولد الرجل من جنسه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وليس معه شريك في الألوهيّة ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لا نفرد كلّ واحد من الآلهة بالذي خلقه، فاستبدّ به، ولتميّز ملك كلّ واحد منهم عن الآخر، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولغلب بعضهم بعضاً، كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة، وهم متغالبون. وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنّه إله واحد، بيده ملكوت كلّ شيء. ولا يقال: «إذاً» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، وهاهنا وقع ﴿لذهب﴾ جزاء وجواباً، ولم يتقدّمه شرط، ولا سؤال سائل؛ لأنّ الشرط محذوف، وتقديره: ولو كان معه آلهة؛ لدلالة: ﴿وما كان معه من إله﴾ عليه. وهو جواب لمن حاجّه من المشركين ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأنداد، والأولاد.

٩٢ ـ ﴿عَالِمِ﴾ بالجرّ، صفة لله. وبالرفع: مدنيّ، وكوفيّ ـ غير حفص ـ خبر

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾

مبتدأ محذوف ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ السّر، والعلانية ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام؛ وغيرها.

٩٣، ٩٤ ـ ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ «ما» والنون مؤكّدان، أي: إن كان لا بدّ من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا، أو: في الآخرة ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فلا تجعلني قريناً لهم، ولا تعذّبني بعذابهم. عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أخبره الله أنّ له في أمّته نِقْمَةً، ولم يخبره متى وقتها، فأمر أن يدعو بهذا الدعاء. ويجوز أن يسأل النبيّ المعصوم ﷺ ربّه ما علم أنّه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنّه لا يفعله إظهاراً للعبوديّة، وتواضعاً لربّه. واستغفاره عليه الصلاة والسلام إذ قام من مجلسه سبعين مرة لذلك، والفاء في: ﴿فلا﴾ لجواب الشرط. و﴿ربّ﴾ اعتراض بينهما للتأكيد.

٩٥ ـ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ كانوا ينكرون الموعد بالعذاب، ويضحكون منه، فقيل لهم: إنّ الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأمّلتم، فما وجه هذا الإنكار؟

٩٦ ـ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي﴾ الخلّة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾. وهوأبلغُ من أن يقال: بالحسنة السيّئة؛ لما فيه من التفضيل، كأنّه قال: ادفع بالحسنى السيّئة، والمعنى: الصَّفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي شهادة أن لا إله إلاّ الله، والسيّئة: الشرك، أو: الفحش بالسلام، أو: المنكر بالموعظة. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: محكمة؛ إذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ من الشرك ـ أو: بوصفهم لك، وسوء ذكرهم ـ فنجازيهم عليه.

٩٧ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ من وساوسهم ونخساتهم. والهمز: النخس. والهمزات: جمع المرة منه، ومنه مهماز الرائض. والمعنى أنّ

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الشياطين يحثّون الناس على المعاصي، كما تهمز الراضة الدوابّ حثاً لها على المشي.

٩٨ ـ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربّه المكرر لندائه، وبالتعوّذ من أن يحضروه أصلاً، أو: عند تلاوة القرآن، أو: عند النزع.

٩٩ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يتعلّق بـ﴿يصفون﴾، أي: لا يزالون يشركون إلى وقت مجيء الموت. أو: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، وما بينهما مذكور على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم، مُستعيناً بالله على الشيطان أن يستنزله على الحلم، ويغريه على الانتصار منهم ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي: ردّوني إلى الدنيا. خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم، كخطاب الملوك.

١٠٠ ـ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1] في الموضع الذي تركت، وهو: الدنيا؛ لأنّه ترك الدنيا، وصار إلى العقبى. قال قتادة: ما تمنّى أن يرجع إلى أهل، ولا إلى عشيرة، ولكن ليتدارك ما فرط. ﴿لَعلّيْ﴾ ساكنة الياء: كوفيّ، وسهل، ويعقوب ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن طلب الرجعة، وإنكار، واستبعاد ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ المراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض. وهو قوله: ﴿ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالة لا يخلّيها، ولا يسكت عنها؛ لاستيلاء الحسرة، والندم عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم. والضمير للجماعة ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرُّجوع إلى الدنيا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لم يرد أنّهم يرجعون يوم البعث، وإنّما هو إقناطٌ كلّي لما علم أن لا رجوعَ بعد البعث إلا إلى الآخرة.

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿لَعَلِّيَ﴾ بفتح الياء. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٢٢٣).

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا

١٠١ ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ قيل: إنها النفخة الثانية ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وبالإدغام: أبو بكر لاجتماع المثلين وإن كانا من كلمتين. يعني: يقع التقاطع بينهم حيث يتفرّقون مثابين ومعاقبين، ولا يكون التواصل بينهم بالأنساب، إذ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] وإنّما يكون بالأعمال ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ سؤال تواصل، كما كانوا يتساءلون في الدنيا؛ لأنّ كلاًّ مشغول عن سؤال صاحبه بحاله. ولا تناقض بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] فللقيامة مواطن ففي موطن يشتدّ عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون.

١٠٢ ـ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون، وهي: الموزونات من الأعمال الصالحة؛ التي لها وزن وقدر عند الله تعالى، من قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٠٣ ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالسيّئات. والمراد: الكفار ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من ﴿خسروا أنفسهم﴾ ولا محلّ للبدل والمبدل منه؛ لأنّ الصلة لا محلّ لها. أو: خبر بعد خبر لـ: ﴿أولئك﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف.

١٠٤ ـ ﴿تَلْفَحُ﴾ أي: تحرق ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ عابسون. فيقال لهم:

١٠٥ ـ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي﴾ أي: القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتزعمون أنها ليست من الله تعالى.

١٠٦ ـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ ملكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾. (شقاوتنا): حمزة، وعليّ. وكلاهما مصدر، أي: شقينا بأعمالنا السيّئة التي عملناها. وقول أهل التأويل:

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح؛ لأنه إنما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم أنه يختاره، ولا يكتب غير الذي علم أنّه يختاره، فلا يكون مغلوباً ومضطرّاً في الفعل. وهذا لأنّهم إنّما يقولون ذلك القول اعتذاراً لما كان منهم من التفريط في أمره، فلا يحتمل أن يطلبوا لأنفسهم عذراً فيما كان منهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحقّ، والصواب.

١٠٧ ـ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر، والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

١٠٨ ـ ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت ذلّة، وهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب عنكم، فإنّه لا يرفع، ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلّمون به ثَمّ، ولا كلام بعد ذلك إلاّ الشهيق، والزفير.

﴿أن يحضروني﴾ ﴿ارجعوني﴾ ﴿ولا تكلموني﴾ بالياء في الوصل والوقف: يعقوب، وغيره: بلا ياء.

١٠٩، ١١٠ ـ ﴿إِنَّهُ﴾ إنَّ الأمر، والشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ☆ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ مفعول ثان. وبالضم: مدنيّ، وحمزة، وعليّ. وكلاهما مصدر سخر، كالسُّخر، إلاّ أنّ في ياء النسبة مبالغة. قيل: هم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ. وقيل: أهل الصُّفة خاصّة، ومعناه: اتخذتموهم هزؤاً، وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ﴾ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿ذِكْرِي﴾ فتركتموه، أي: كان التشاغل بهم سبباً لنسيانكم ذكري ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم.

١١١ ـ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، أي: جزيتهم اليوم فوزهم؛ لأنّ جزى يتعدّى إلى اثنين ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً﴾ [الإنسان: ١٢]. ﴿إنهم﴾: حمزة،

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

عليّ، على الاستئناف، أي: ﴿إنّهم هم الفائزون﴾ لا أنتم.

١١٢ ـ ﴿قَٰلَ﴾ أي: الله، أو: المأمور بسؤالهم من الملائكة ﴿قل﴾: مكيّ، وحمزة، وعليّ، أمر لمالك أن يسألهم ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الدنيا ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي: كم عدد سنين لبثتم؟ فـ«كم» نصب بـ«لبثتم». و﴿عدد﴾ تمييز.

١١٣ ـ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾ استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا، بالإضافة إلى خلودهم، ولما هم فيه من عذابها؛ لأنّ الممتَحن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مرّ عليه من أيّام الدعة ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ الحسّاب، أو: الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد، وأعمالهم. ﴿فسل﴾ بلا همز: مكيّ، وعليّ.

١١٤ ـ ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ أي: ما ﴿لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا﴾ زمناً ﴿قَلِيلٗا﴾ أو: لبثاً قليلاً ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ صدّقهم الله تعالى في تقالّهم لسني لبثهم في الدنيا، ووبّخهم على غفلتهم التي كانوا عليها. ﴿قُلْ إنْ﴾: حمزة، وعليّ.

١١٥ ـ ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ حال، أي: عابثين. أو: مفعول له، أي: للعبث ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ وبفتح التاء وكسر الجيم: حمزة، وعليّ، ويعقوب. وهو معطوفٌ على: ﴿أنّما خلقناكم﴾. أو: على ﴿عبثاً﴾ أي: للعبث، ولنترككم غير مرجوعين؟ بل خلقناكم للتكليف، ثمّ للرجوع من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن، ونعاقب المسيء.

١١٦ ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ عن أن يخلق عبثاً ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الذي يحقّ له الملك؛ لأنّ كلّ شيء منه وإليه. أو: الثابت الذي لا يزول، ولا يزول ملكه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ وصف العرش بالكرم؛ لأنّ الرحمة تنزل منه، أو: لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرىء شاذّاً برفع الكريم صفة للربّ تعالى.

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

١١٧ ـ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ﴾ أي: لا حجّة ﴿لَهُۥ بِهِۦ﴾ اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد ـ لا أحق بالإحسان منه ـ فإنّ الله مثيبه. أو: صفة لازمة، جيء بها للتوكيد، كقولك: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ أي: جزاؤه وهذا جزاء الشرط ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فهو يجازيه لا محالة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جعل فاتحة السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وخاتمتها ﴿إنّه لا يفلح الكافرون﴾ فشتّان ما بين الفاتحة والخاتمة. ثمّ علّمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله:

١١٨ ـ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ ثمّ قال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنّ رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾

١ ـ ﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه ﴿سورة﴾ ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ صفة لها. وقرأ طلحة ﴿سورةً﴾ على: زيداً ضربته. أو: على اتل ﴿سورةً﴾. والسورة: الجامعة لجمل آيات بفاتحة لها وخاتمة، واشتقاقها من: سور المدينة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: فرضنا أحكامها التي فيها. وأصل الفرض: القطع، أي: جعناها مقطوعاً بها. وبالتشديد: مكّيّ، وأبو عمرو للمبالغة في الإيجاب وتوكيده. أو: لأنّ فيها فرائض شتّى، أو: لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلائل واضحات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تتعظوا. وبتخفيف الذال: حمزة، وعليّ، وخلف، وحفص. ثمّ فصّل أحكامها فقال:

٢ ـ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ رفعهما على الابتداء. والخبر: محذوف، أي: فيما فرض عليكم ﴿الزانية والزاني﴾، أي: جلدهما. أو: الخبر: ﴿فَاجْلِدُوا﴾. ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي، وتضمينه معنى الشرط، وتقديره: التي زنت، والذي زنى فاجلدوهما، كما تقول: من زنى فاجلدوه، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤]. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب، على إضمار فعل يفسّره الظاهر. وهو أحسن من ﴿سورة أنزلناها﴾ لأجل الأمر ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الجلد: ضرب الجِلْد. وفيه إشارةٌ إلى

وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ

أنه لا يبالغ ليصلَ الألم إلى اللحم. والخطاب للأئمة؛ لأنّ إقامة الحدّ من الدِّين، وهي على الكلّ، إلاّ أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم. وهذا حكم حرّ ليس بمحصن؛ إذ حكم المحصن الرجم. وشرائط إحصان الرجم: الحريّة، والعقل، والبلوغ، والإسلام، والتزوّج بنكاح صحيح، والدخول. وهذا دليلٌ على أن التغريبَ غير مشروع؛ لأنّ الفاء إنّما يدخل على الجزاء، وهو اسم للكافي. والتغريب المرويّ منسوخ بالآية، كما نسخ الحبس والأذى في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥] وقوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦] بهذه الآية ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: رحمة، والفتح لغة، وهي قراءة مكيّ. وقيل: الرأفة في دفع المكروه، والرحمة في إيصال المحبوب. والمعنى: أنّ الواجب على المؤمنين أن يتصلّبوا في دين الله، ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده، فيعطّلوا الحدود، أو: يخفّفوا الضرب ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله، أو: حكمه ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب التهييج، وإلهاب الغضب لله ولدينه. وجواب الشرط مضمر، أي: فاجلدوا، ولا تعطّلوا الحدّ ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ وليحضر موضع حدّهما. وتسميته عذاباً دليل على أنّه عقوبة ﴿طَائِفَةٌ﴾ فرقة يمكن أن تكون حلقة ليعتبروا، وينزجر هو. وأقلّها: ثلاثة، أو أربعة. وهي صفة غالبة، كأنّها الجماعة الحافّة حول شيء. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أربعة إلى أربعين رجلاً ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدّقين بالله.

٣ ـ ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: الخبيث الذي من شأنه الزنى لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنّما يرغب في خبيثة من شكله، أو: في مشركة. والخبيثة: المسافحة كذلك، لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال، وإنّما يرغب فيها مَن هو مِن شكلها من الفسقة، أو المشركين. فالآيةُ تزهيدٌ في نكاح البغايا، إذ الزنى عديلُ الشرك في القبح. والإيمانُ قرينُ العفاف والتحصّن. وهو نظير قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾

لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦] وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أوّل الإسلام، ثمّ نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وقيل: المراد بالنكاح: الوطء؛ لأنّ غير الزاني يستقذرُ الزانية ولا يشتهيها. وهو صحيحٌ لكنه يؤدّي إلى قولك: الزاني لا يزني إلاّ بزانية، والزانية لا يزني بها إلاّ زان. وسُئل ﷺ عمن زنى بامرأة، ثم تزوجها، فقال: «أوّله سفاح، وآخره نكاح»[1]. ومعنى الجملة الأولى: صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف، ولكن في الفواجر. ومعنى الثانية: صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفّاء، ولكن للزناة، وهما معنيان مختلفان. وقدّمت الزانية على الزاني أوّلاً؛ لأنّ تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادّة التي منها نشأت تلك الجناية؛ لأنّها لو لم تُطْمِع الرجل، ولم تُومِض له، ولم تمكّنه لم يطمعْ، ولم يتمكّن، فلمّا كانت أصلاً وأولاً في ذلك بُدِيء بذكرها. وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصلٌ فيه؛ لأنّه الخاطب، ومنه بدء الطلب. وقرىء ﴿لا يَنكِحْ﴾ بالجزم على النهي، وفي المرفوع أيضاً معنى النهي ولكن أبلغ وآكد. ويجوز أن يكون خبراً محضاً، على معنى: أن عادتهما جارية على ذلك، وعلى المؤمن ألاّ يدخل نفسه تحت هذه العادة، ويتصوّن عنها ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الزنى، أو: نكاح البغايا لقصد التكسب بالزنى، أو: لما فيه من التشبّه بالفساق، وحضور مواقع التهمة، والتسبب لسوء القالة فيه، والغيبة. ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرّض لاقتراف الآثام؟! فكيف بمزاوجة الزّواني والقحاب؟!

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ وبكسر الصاد: عليّ. أي: يقذفون بالزنى الحرائر والعفائف المسلمات المكلّفات. والقذف يكون بالزنى وبغيره. والمراد هنا: قذفهنّ بالزنى بأن يقول: يا زانية؛ لذكر المحصنات عقيب الزواني، ولا شتراط أربعة شهداء بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: ثمّ لم يأتوا بأربعة شهود يشهدون على الزنى؛ لأنّ القذف بغير الزنى بأن يقول: يا فاسق، يا آكل الربا، يكفي فيه شاهدان، وعليه التعزير. وشروط إحصان القذف: الحريّة،

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٤٥٦٥٧).

﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾

والعقل، والبلوغ، والإسلام، والعفّة عن الزنى. والمحصن كالمحصنة في وجوب حدّ القذف ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ إن كان القاذف حرّاً. ونصب ﴿ثمانين﴾ نصب المصادر، كما نصب ﴿مئة جلدة﴾. و﴿جلدة﴾ نصب على التمييز ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ نكّر ﴿شهادة﴾ في موضع النفي، فتعمّ كلّ شهادة. وردّ الشهادة من الحدّ عندنا، ويتعلّق باستيفاء الحدّ، أو: بعضه على ما عرف. وعند الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ يتعلّق ردّ شهادته بنفس القذف. فعندنا جزاء الشرط ـ الذي هو: الرمي ـ: الجلد، وردّ الشهادة على التأبيد، هو مدّة حياتهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كلام مستأنف، غير داخل في حيّز جزاء الشرط، كأنّه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطيّة. وقوله:

٥ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: القذف ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أحوالهم، استثناء من ﴿الفاسقون﴾. ويدلّ عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر ذنوبهم، ويرحمهم. وحقّ الاستثناء أن يكون منصوباً عندنا؛ لأنّه عن موجب، وعند من جعل الاستثناء متعلّقاً بالجملة الثانية أن يكون مجروراً بدلاً من هم في ﴿لهم﴾:

٦ ـ ما ذكر حكم قذف الأجنبيّات وهذا بيان حكم قذف الزوجات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ يرتفع على البدل من ﴿شهداء﴾ ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ﴾[1] وبالرفع: كوفيّ ـ غير أبي بكر ـ على أنّه خبر. والمبتدأ ﴿فشهادة أحدهم﴾. وغيرهم بالنصب؛ لأنّه في حكم المصدر بالإضافة إلى المصدر، والعامل فيه المصدر؛ الذي هو: ﴿فشهادة أحدهم﴾. وعلى هذا خبره محذوف، تقديره: فواجب شهادة أحدهم أربع ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

---

(١) في الأصل المخطوط ﴿أَرْبَعَ﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾

٧ ـ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ لاخلاف في رفع الخامسة هنا في المشهور، والتقدير: والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فهي مبتدأ وخبر ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

٨ ـ ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ ويدفع عنها الحبس. وفاعل يدرأ ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ﴾ إنّ الزوج ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى.

٩ ـ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ أي: الزوج ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى، نصب حفص ﴿الخامسة﴾ عطفاً على ﴿أربع﴾. وغيره رفعها بالابتداء. و﴿أنّ غضب الله﴾: خبره. وخفف نافع ﴿أنْ لعنة الله﴾ و﴿أنْ غَضِبَ الله﴾ بكسر الضاد، وهما في حكم المثقلة. و﴿أن غَضَبُ الله﴾: سهل، ويعقوب، وخُصَّ الغضب في جانبها؛ لأنّ النساء يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث، فربمّا يجترئن على الإقدام لكثرة جري اللعن على ألسنتهنّ، وسقوط وقْعِه على قلوبهن، فذكر الغضب في جانبهنّ؛ ليكون رادعاً لهنّ. والأصل: أنّ اللعان عندنا شهادات مؤكّدات بالأيمان، مقرونة باللعن، قائمة مقام حدّ القذف في حقّه، ومقام حدّ الزنى في حقّها؛ لأنّ الله تعالى سمّاه شهادة، فإذا قذف الزوج زوجته بالزنى ـ وهما من أهل الشهادة ـ صحّ اللعان بينهما. وإذا التعنا ـ كما بيّن في «النهر» ـ لا تقع الفرقة حتّى يفرّق القاضي بينهما. وعند زفر ـ رحمه الله تعالى ـ تقع بتلاعنهما. والفرقة تطليقة بائنة. وعند أبي يوسف وزفر والشافعي ـ رحمهم الله ـ: تحريم مؤبّد. ونزلت آية اللعان في هلال، أو عويمر، حيث قال: وجدتُ على بطن امرأتي خولة شريك بن سحماء، فكذبته، فلاعن النبيُّ ﷺ بينهما[١].

---

(١) انظر القصة في سنن أبي داود برقم (٢٢٤٥) وما بعده.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾

١٠ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ تفضّله ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ نعمته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لولا محذوف، أي: لفضحكم، أو: لعاجلكم بالعقوبة.

١١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وأصله: الأَفْكُ، وهو القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه، والمراد: ما أفك به على عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت عائشة: فقدتُ عقداً في غزوة بني المصطلق، فتخلّفت، ولم يُعْرَفْ خلوّ الهودج لخفتي. فلمّا ارتحلوا أناخ لي صفوان بن المعطّل بعيره، وساقه، حتّى أتاهم بعد ما نزلوا، فهلك فيّ مَن هلك، فاعتللتُ شهراً. وكان عليه الصلاة والسلام يسأل: «كيف أنتِ»؟ ولا أرى منه لطفاً كنتُ أراه حتّى عثرتْ خالةُ أبي ـ أمّ مسطح ـ فقالت: تعس مسطح. فأنكرتُ عليها، فأخبرتني بالإفك. فلمّا سمعت ازددتُ مرضاً، وبتّ عند أبويّ، لا يرقأ لي دمع، وما أكتحل بنوم، وهما يظنّان أنّ الدمعَ فالق كبدي، حتّى قال عليه الصلاة والسلام: «أبشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك» فقلت: بحمد الله لا بحمدك[1] ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة من العشرة إلى الأربعين. واعصوصبوا: اجتمعوا. وهم: عبد الله بن أبيّ رأس النفاق، وزيد بن رفاعة، وحسّان بن ثابت، ومسطح ابن أثاثة، وحمنة بنت جحش، ومَن ساعدهم ﴿مِّنكُمْ﴾ من جماعة المسلمين. وهم ظنّوا أنّ الإفك وقع من الكفّار دون مَن كان من المؤمنين ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أي: الإفك ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ عند الله ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنّ الله أثابكم عليه، وأنزل في البراءة منه ثماني عشرة آية. والخطاب لرسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعائشة، وصفوان، ومَن ساءه ذلك من المؤمنين ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: على كلّ امرىء من العصبة جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه. وكان بعضُهم ضحك، وبعضهم تكلّم فيه، وبعضهم سكت ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي: عظمه،

(١) رواه أحمد (٦/ ١٩٤) والبخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠). بلفظ: أبشري يا عائشة!..»

مِنْهُم لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

عبد الله بن أبيّ ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصبة ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: جهنم. ـ يُحكى: أنّ صفوان مرّ بهودجها عليه، وهو في ملأ من قومه فقال: مَن هذه؟ فقالوا: عائشة، فقال: والله ما نجتْ منه، ولا نجا منها!

١٢ ـ ثم وبّخ الخائضين فقال: ﴿لَّوْلَآ﴾ هلاّ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: الإفك ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالذين منهم؛ فالمؤمنون كنفس واحدة، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ﴿خَيْرًا﴾ عفافاً، وصلاحاً. وذلك نحو ما يروى: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: أنا قاطعٌ بكذب المنافقين؛ لأنّ الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك؛ لأنّه يقع على النجاسات فيتلطّخ بها، فلمّا عصمك الله من ذلك القدر من القذر، فكيف لا يعصمك عن صحبة مَن تكون متلطّخة مثل هذه الفاحشة؟! وقال عثمان: إنّ الله ما أوقع ظلّك على الأرض لئلا يضع إنسانٌ قدمه على ذلك الظل، فلمّا لم يمكّن أحداً من وضع القدم على ظلّك، كيف يمكّن أحداً من تلويث عرض زوجتك؟! وكذا قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إنّ جبريل أخبرك أنّ على نعليك قذراً، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك، بسبب ما التصق به من القذر، فكيف لا يأمرك بإخراجها بتقدير أن تكون متلطّخة بشيء من الفواحش؟!

ورُوي: أنّ أبا أيّوب الأنصاريّ قال لامرأته: ألا ترين ما يقال؟! فقالت: لو كنتَ بدل صفوان أكنت تظنّ بحرم رسول الله سوءاً؟ فقال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنتُ رسول الله، فعائشة خير منّي، وصفوان خير منك. وإنّما عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً، وقلتم؛ ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدلّ التصريح بلفظ الإيمان على أنّ الاشتراك فيه يقتضي ألاّ يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول غائب، ولا طاعن. وهذا من الأدب الحسن، الذي قلّ القائم به، والحافظ له: وليتك تجد من يسمع ويسكت ولا يشيّعه بأخوات ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب ظاهر لا يليق بهما.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

١٣ ـ ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ هلاّ ﴿جاؤوا﴾ على القذف لو كانوا صادقين ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه، وشريعته ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: القاذفون؛ لأنّ الله تعالى جعل التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوتَ شهادة الشهود الأربعة، وانتفاءها. والذين رموا عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم يكن لهم بيّنة على قولهم، فكانوا كاذبين.

١٤ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ «لولا» هذه لامتناع الشيء، لوجود غيره بخلاف ما تقدّم، أي: ﴿ولولا﴾ أنّي قضيتُ أن أتفضّل عليكم في الدنيا بضروب النعم؛ التي مِن جملتها الإمهال للتوبة، وأن أترحّم عليكم في الآخرة في العفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. يقال: أفاض في الحديث، وخاض، واندفع.

١٥ ـ ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ: «مسّكم» أو: لـ: «أفضتم» ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ يأخذه بعضكم من بعض. يقال: تلقّى القول، وتلقّنه، وتلقّفه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: أنّ بعضكم كان يقول لبعض: هل بلغك حديث عائشة؟ حتّى شاع فيما بينهم، وانتشر، فلم يبق بيت، ولا نادٍ إلا طار فيه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إنما قيّد بالأفواه، مع أنّ القول لا يكون إلاّ بالفمّ؛ لأنّ الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، ثمّ يترجم عنه اللسان. وهذا الإفكُ ليس إلاّ قولاً يدورُ في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ أي: خوضكم في عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿هَيِّنًا﴾ صغيرة ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ كبيرة. جزع بعضهم عند الموت، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف ذنباً لم يكن منّي على بال وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

١٦ ـ ﴿وَلَوْلَآ﴾ وهلاّ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ فصل بين ﴿لولا﴾ و﴿قلتم﴾ بالظرف؛ لأنّ للظروف شأناً، وهو: تنزّلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها، وأنّها لا تنفكّ عنها؛ فلذا يتّسع فيها ما لا يتّسع في غيرها. وفائدة تقديم الظرف: أنّه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلّم به، فلمّا كان ذكر الوقت أهمّ قدم، والمعنى: هلاّ قلتم إذ سمعتم الإفك: ما يصحّ لنا أن نتكلّم بهذا؟! ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ للتعجّب من عظم الأمر. ومعنى التعجّب في كلمة التسبيح: أنَّ الأصلَ أن يسبّح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثمّ كثر حتّى استعمل في كلّ متعجّب منه. أو: لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة. وإنّما جاز أن تكون امرأة النبيّ كافرة كامرأة نوح ولوط، ولم يجز أن تكون فاجرة؛ لأنّ النبيّ مبعوثٌ إلى الكفّار ليدعوهم، فيجب ألاّ يكون معه ما ينفرهم عنه. والكفر غير منفر عندهم. وأما الكشخنة[1] فمن أعظم المنفرات ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ زور يبهت من يسمع ﴿عَظِيمٌ﴾ وذكر فيما تقدّم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. ويجوز أن يكونوا أمروا بهما مبالغة في التبرّي.

١٧ ـ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟﴾ في أن تعودوا ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ لمثل هذا الحديث من القذف، أو: استماع حديثه ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء مكلّفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه تهييج لهم ليتّعظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو: الإيمان الصادّ عن كلّ قبيح.

١٨ ـ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدلالات الواضحات، وأحكام الشرائع، والآداب الجميلة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكم، وبأعمالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ يجزي على وفق أعمالكم. أو: علم صدق نزاهتها، وحكم ببراءتها.

---

(١) «الكشخنة»: الدياثة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

١٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ما قبح جداً. والمعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد الإشاعة، ومحبّة لها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحدّ ـ ولقد ضرب النبيّ ﷺ ابن أُبيّ وحسّاناً ومسطحاً الحدَّ ـ ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالنار. وعدها إن لم يتوبوا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بواطن الأمور، وسرائر الصدور ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنّه قد علم محبّة من أحبّ الإشاعة، وهو معاقب عليها.

٢٠ ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لعجّل لكم العذاب. وكرّر المنّة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنّة عليهم، والتوبيخ لهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ﴾ حيث أظهر براءة المقذوف، وأثاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بغفرانه جناية القاذف إذا تاب.

٢١ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: آثاره، ووساوسه بالإصغاء إلى الإفك، والقول فيه ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ فإنّ الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما أفرط قبحه ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره النفوس، فتنفر عنه، ولا ترتضيه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ولولا أنّ الله تفضّل عليكم بالتوبة الممحّصة، لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ يطهّر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم، وإخلاصهم.

٢٢ ـ ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف. من: ائتلى: إذا حلف، افتعال من الأليّة. أو: لا يقصّر، من: الألو ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في الدنيا ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يحلفوا على ألاّ يحسنوا

وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

إلى المستحقين للإحسان، أو: لا يقصّروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ العفو: الستر، والصفح: الإعراض، أي: وليتجاوزوا عن الجفاء، وليعرضوا عن العقوبة ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فلتفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل بهم ربّهم مع كثرة خطاياهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتأدّبوا بأدب الله، واغفروا، وارحموا. نزلت في شأن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين حلف ألاّ ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه في عائشة ـ رضي الله عنها ـ وكان مسكيناً، بدريّاً، مهاجراً. ولما قرأها النبيُّ ﷺ على أبي بكر قال: بلى، أُحبُّ أن يغفر الله لي. وَرَدَّ إلى مسطح نفقته.

٢٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائف ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ السليمات الصدور، النقيّات القلوب، اللاتي ليس فيهنّ دهاء ولا مكر؛ لأنهنّ لم يجربن الأمور، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بما يجب الإيمان به. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هنّ أزواجه عليه الصلاة والسلام. وقيل: هنّ جميع المؤمنات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: أريدت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وحدها. وإنّما جمع لأنّ من قذف واحدة من نساء النبيّ عليه الصلاة والسلام، فكأنّه قذفهنّ ﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جعل القَذَفَةَ ملعونين في الدارين، وتوعّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة إن لم يتوبوا.

٢٤ ـ والعامل في: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ يعذّبون. وبالياء: حمزة، وعليّ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما أفكوا، أو: بهتوا.

٢٥ ـ والعامل في: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب، صفة للدين، وهو: الجزاء. ومعنى الحقّ: الثابت الذي هم أهله. وقرأ مجاهد بالرفع صفة لله، كقراءة أبيّ (يوفّيهم الله الحقّ دينهم) وعلى قراءة النصب يجوز أن يكون الحقّ وصفاً لله بأن ينتصب على المدح ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

لارتفاع الشكوك، وحصول العلم الضروريّ. ولم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأوجز في ذلك، وأشبع، وفصّل، وأجمل، وأكّد، وكرّر، وما ذاك إلاّ لأمر. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من أذنب ذنباً ثمّ تاب منه قبلت توبته، إلاّ مَن خاض في أمر عائشة. وهذا منه تعظيمٌ ومبالغة في أمر الإفك. ولقد برّأ اللهُ تعالى أربعة بأربعة، برّأ يوسف ـ عليه السلام ـ بشاهدٍ من أهلها، وموسى ـ عليه السلام ـ من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم ـ رضي الله عنها ـ بإنطاق ولدها، وعائشة ـ رضي الله عنها ـ بهذه الآي العظام في كتابه المعجز، المتلوّ على وجه الدهر بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك؟! وما ذلك إلا لإظهار علوّ منزلة رسوله، والتنبيه على إنافة محلّه ﷺ وعلى آله.

٢٦ ـ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من القول تقال ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال والنساء ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ منهم يتعرّضون ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ من القول، وكذلك: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: فيهم. و﴿أولئك﴾ إشارة إلى الطيّبين، وأنّهم مبرّؤون ممّا يقول الخبيثون من خبيثات الكلم. وهو كلام جارٍ مجرى المثل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة، والطيب. ويجوز أن يكون إشارة إلى أهل البيت، وأنّهم مبرّؤون ممّا يقول أهل الإفك، وأن يُرادَ بالخبيثات والطيبّات النساء الخبائث يتزوّجن الخباث، والخباث تتزوّج الخبائث. وكذا أهل الطيب ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مستأنف، أو: خبر بعد خبر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنّة. ودخل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ في مرضها، وهي خائفة من القدوم على الله تعالى، فقال: لا تخافي لأنّك لا تقدمين إلاّ على مغفرة ورزق كريم، وتلا الآية. فغشي عليها فرحاً بما تلا. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهنّ امرأة: نزل جبريل بصورتي في راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام أن يتزوّجني، وتزوّجني بكراً وما تزوّج بكراً غيري، وتوفّي

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ﴾

عليه الصلاة والسلام ورأسه في حجري، وقبر في بيتي، ونزل عليه الوحي وأنا في لحافه، وأنا ابنة خليفته وصدّيقه، ونزل عذري من السماء، وخلقت طيّبة عند طيّب، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً. وقال حسان معتذراً في حقّها:

حصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبة وتصبحُ غَرْثَى من لحومِ الغوافلِ[1]
حليلةُ خيرِ الناس ديناً ومنصباً نبّي الهدى والمكرمات الفواضلِ
عقيلةُ حيِّ من لؤيّ بن غالب كرام المباغي، مجدها غير زائلِ
مهذّبةٌ قد طيَّب الله خيمها[2] وطهّرها من كلّ شيْنٍ وباطلِ

٢٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتاً لستم تملكونها، ولا تسكنونها ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا؛ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وقد قرأ به. والاستئناس في الأصل: الاستعلام، والاستكشاف، استفعال، من: آنَس الشيء: إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً، أي: حتّى تستعملوا أمطلقٌ لكم الدخول أم لا؟ وذلك بتسبيحة، أو: تكبيرة، أو: تحميدة، أو: تنحنح ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ والتسليم أن يقول: السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاث مرات، فإن أذن له وإلاّ رجع. وقيل: إن تلاقيا يقدّم التسليم، وإلاّ فالاستئذان ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان، والتسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تحيّة الجاهلية والدمور ـ وهو: الدخول بغير إذن ـ وكان الرجلُ من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول: حيّيتم صباحاً، وحيّيتم مساء، ثمّ يدخل، فربّما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قيل لكم هذا لكي تَذَكّروا، وتتّعظوا، وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان.

٢٨ ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾ في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ من الآذنين ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ

---

(١) «حصان»: عفيفة. «رزان»: ذات وقار وثبات. «غرثى»: جائعة، يريد أنها لا ترتع في أعراض الناس.
(٢) «خيمها»: الخيم: السجية والطبيعة.

﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتّى تجدوا من يأذن لكم. أو: ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾ من أهلها ولكم فيها حاجة ﴿فلا تدخلوها﴾ إلّا بإذن أهلها؛ لأنّ التصرّف في ملك الغير لا بدّ من أن يكون برضاه ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ أي: إذا كان فيها قوم فقالوا: ارجعوا ﴿فَارْجِعُوا﴾ ولا تلحّوا في إطلاق الإذن، ولا تلجّوا في تسهيل الحجاب، ولا تقفوا على الأبواب؛ لأنّ هذا ممّا يجلُب الكراهة. فإذا نهي عن ذلك لأدائه إلى الكراهة، وجب الانتهاء عن كلّ ما يؤدّي إليها من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك. وعن أبي عبيد: ما قرعت باباً على عالم قطّ! ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: الرجوع أطيب وأطهر؛ لما فيه من سلامة الصدور، والبعد عن الرّيبة، أو: أنفع، وأنمى خيراً ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمخاطبين بأنّه عالم بما يأتون وما يذرون ممّا خوطبوا به، فموف جزاءه عليه.

٢٩ ـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا﴾ في أن تدخلوا ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾. استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها ما ليس بمسكون منها، كالخانات، والرّبُط، وحوانيت التجّار ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي: منفعة كالاستكنان من الحرّ والبرد، وإيواء الرحال والسلع، والشراء، والبيع. وقيل: الخَرِبات يتبرّز فيها. والمتاع: التبرّز ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد للذين يدخلون الخربات، والدور الخالية من أهل الريبة.

٣٠ ـ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ «من» للتبعيض. والمراد: غضّ البصر عمّا يحرم، والاقتصار به على ما يحلّ ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنى، ولم تدخل «من» هنا لأن الزنى لا رخصة فيه بوجه. ويجوز النظر إلى وجه الأجنبية، وكفّها، وقدميها ـ في رواية ـ وإلى رأس المحارم، والصدر، والساقين، والعضدين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: غضّ البصر، وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر عن دنس الإثم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيه ترغيب وترهيب. يعني: أنّه ﴿خبير﴾

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ

بأحوالهم، وأفعالهم، وكيف يخينون أبصارهم، و﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]. فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى، وحذر في كلّ حركة، وسكون.

٣١ - ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ أمرن بغض الأبصار، فلا يحلّ للمرأة أن تنظر من الأجنبيّ إلى ما تحت سرّته إلى ركبتيه، وإن اشتهت غضّت بصرها رأساً، ولا تنظر إلى المرأة إلاّ إلى مثل ذلك. وغضّ بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها، وإنّما قدّم غضّ الأبصار على حفظ الفروج، لأنّ النظر بريد الزنى، ورائد الفجور، فبذر الهوى طموح العين ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ الزينة: ما تزينت به المرأة من حلي، أو كحل أو: خضاب. والمعنى: ولا يظهرن مواضع الزينة، إذ إظهار عين الزينة ـ وهي الحلي، ونحوها ـ مباح. فالمراد بها مواضعها، أو: إظهارها، وهي في مواضعها لإظهار مواضعها؛ لا لإظهار أعيانها، ومواضعها: الرأس، والأذن، والعنق، والصدر، والعضدان، والذراع، والساق، فهي للإكليل، والقرط، والقلادة، والوشاح، والدملج، والسوار، والخلخال ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إلاّ ما جرت العادة والجبلّة على ظهوره، وهو: الوجه، والكفّان، والقدمان، ففي سترها حرج بيّن، فإنّ المرأة لا تجد بدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة، والمحاكمة، والنكاح. وتضطرّ إلى المشي في الطرقات، وظهور قدميها، وخاصّة الفقيرات منهنّ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وليضعن، من قولك: ضربت بيدي على الحائط: إذا وضعتها عليه ﴿ بِخُمُرِهِنَّ ﴾ جمع خمار ﴿ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ بضم الجيم: مدنيّ، وبصريّ، وعاصم. كانت جيوبهنّ واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها، وكنّ يسدلن الخمر من ورائهنّ فتبقى مكشوفة، فأمرن بأن يسدلنها من قدّامهنّ حتّى تغطّينها ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي: مواضع الزينة الباطنة؛ كالصدر، والساق، والرأس، ونحوها ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ لأزواجهن، جمع: بعل ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ ويدخل فيهم الأجداد ﴿ أَوْ ءَابَآءِ

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارم. ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم النوافل ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارم أيضاً ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم النوافل، وسائر المحارم كالأعمام، والأخوال، وغيرهم دلالة ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: الحرائر؛ لأنّ مطلق هذا اللفظ يتناولُ الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: إمائهنّ. ولا يحلّ لعبدها أن ينظر إلى هذه المواضع منها، خصياً كان، أو: عنّيناً، أو: فحلاً. وقال سعيد بن المسيّب: لا تغرنّكم سورة النور فإنّها في الإماء دون الذكور، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّها أباحت النظر إليها لعبدها ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ﴾ بالنصب: شاميّ، ويزيد، وأبو بكر على الاستثناء، أو: الحال. وغيرهم بالجرّ على البدل، أو: على الوصفيّة ﴿أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء. قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم، ولا حاجة لهم إلى النساء؛ لأنّهم بله، لا يعرفون شيئاً من أمرهنّ، أو: شيوخ صلحاء، أو: العنّين، أو: الخصيّ، أو: المخنّث. وفي الأثر: أنه المجبوب. والأوّل الوجه ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ حال ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ﴾ هو جنس، فصلح أن يُرادَ به الجمع ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لم يطّلعوا لعدم الشهوة. من: ظهر على الشيء: إذا اطّلع عليه، أو: لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء، من: ظهر على فلان: إذا قوي عليه ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة تضرب الأرض برجليها إذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها، فيعلم أنّها ذات خلخال، فنهين عن ذلك؛ إذ سماع صوت الزينة كإظهارها، ومنه سمي صوت الحليّ: وسواساً ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿أَيُّهُ﴾ شاميّ إتباعاً للضمّة قبلها بعد حذف الألف لالتقاء الساكنين، وغيره على فتح الهاء؛ لأنّ بعدها ألفاً في التقدير ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾

العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه، وإن اجتهد؛ فلذا وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة، وبتأميل الفلاح إذا تابوا. وقيل: أحوج الناس إلى التوبة من توّهم أنه ليس له حاجة إلى التوبة، وظاهر الآية يدلّ على أن العصيان لا ينافي الإيمان.

٣٢ ـ ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ ـ جمع: أيّم، وهو مَن لا زوجَ له رجلاً كان أو امرأة، بكراً كان أو ثيباً. وأصله: أيائم فقلبت ـ ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الخيّرين، أو: المؤمنين. والمعنى: زوّجوا من تأيّم منكم من الأحرار، والحرائر، ومَن كان فيه صلاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي: من غلمانكم، وجواريكم. والأمر للندب؛ إذ النكاح مندوب إليه ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ من المال ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالكفاية، والقناعة، أو: باجتماع الرزقين. وفي الحديث: «التمسوا الرزق بالنكاح»[(١)]. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ مثله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غنيّ، ذو سعة، لا يرزَؤه إغناء الخلائق ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقيل: في الآية دليلٌ على أنّ تزويجَ النِّساء والأيامى إلى الأولياء، كما أنّ تزويج العبيد والإماء إلى الموالي. قلنا: الرجل لا يلي على الرجل الأيمّ إلا بإذنه، فكذا لا يلي على المرأة إلا بإذنها؛ لأنّ الأيّم ينتظمها.

٣٣ ـ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ﴾ وليجتهدوا في العفّة، كأنّ المستعفّ طالب من نفسه العفاف. ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استطاعة تزوّج من المهر، والنفقة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ حتى يقدرهم على المهر والنفقة. قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم فإنّه له وجاء»[(٢)]. فانظر كيف رتّب هذه الأوامر،

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٢٨٢).

(٢) رواه أحمد (١/٣٧٨) والبخاري (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠) (١، ٢).

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾

فأمر أوّلاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد عن مواقعة المعصية، وهو غضّ البصر، ثمّ بالنكاح المُحَصِّن للدين المغني عن الحرام، ثمّ بعزّة النفس الأمّارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: المماليك الذين يطلبون الكتابة، فـ«الذين»: مرفوع بالابتداء، أو: منصوب بفعل يفسّره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. وهو للندب. ودخلت الفاء لتضمّنه معنى الشرط. والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة، وهو أن يقول لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم، فإن أدّاها عتَق، ومعناه: كتبت لك على نفسي أن تعتق منّي إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو: كتبت عليك الوفاء بالمال، وكتبت عليّ العتق. ويجوز حالًّا، ومؤجّلاً، ومنجّماً، وغير منجّم لإطلاق الأمر ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قدرة على الكسب، أو: أمانة وديانة. والندبيّة معلّقة بهذا الشرط ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين، وإعطائهم سهمهم من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وعند الشافعي: ـ رحمه الله ـ معناه: حطّوا من بدل الكتابة ربعاً. وهذا عندنا على وجه الندب. والأوّل الوجه؛ لأنّ الإيتاء هو التمليك، فلا يقع على الحطّ. سأل صبيح مولاه حويطباً أن يكاتبه فأبى، فنزلت.

واعلم أنّ العبيد أربعة: قنّ مقتنى للخدمة، ومأذون في التجارة، ومكاتب، وآبق. فمثال الأوّل: وليّ العزلة الذي حصل العِزُّ لَهُ بإيثار الخلوة، وترك العشرة. والثاني: وليّ العِشْرة، فهو نجيّ الحضرة، يخالط الناس للخبرة، وينظر إليهم بالعبرة، ويأمرهم بالغيرة، فهو خليفة رسول الله ﷺ يحكم بحكم الله، ويأخذ لله، ويعطي في الله، ويفهم عن الله، ويتكلّم مع الله، فالدنيا سوق تجارته، والعقل رأس بضاعته، والعدل في الغضب والرضا ميزانه، والقصد في الفقر والغنى عنوانه، والعلم مَفْزَعُه ومنجاه، والقرآن كتاب الإذن من مولاه، فهو كائن في الناس بظواهره، بائن منهم بسرائره، فقد هجرهم فيما له عليهم في الله باطناً، ثمّ وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهراً.

وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

وما هو مِنْهُمُ بالعيشِ فيهم ولكن معدن الذَّهب الرَّغام (١)

يأكل ما يأكلون، ويشرب ما يشربون، وما يدريهم أنّه ضيف الله، يرى السموات والأرض قائمات بأمره، وكأنه قيل فيه:

فإن تفقِ الأنامَ وأنتَ منهم فإنّ المسكَ بعضُ دمِ الغزال

فحال وليّ العزلة أصفى وأحلى، وحال وليّ العشرة أوفى وأعلى. وَنُزِّلَ الأوّل من الثاني في حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان. أما النبيّ ﷺ فهو كريم الطرفين، ومعدن الشَّذَرَيْنِ(٢)، ومجمع الحالين، ومنبع الزلالين، فباطن أحواله مهتدي وليّ العزلة، وظاهر أعماله مقتدي وليّ العشرة. والثالث: المجاهد، المحاسب، العامل، المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب في اليوم والليلة خمس، وفي المئتين خمسة، وفي السنة شهر، وفي العمر زورة؛ فكأنّه اشترى نفسه من ربّه بهذه النجوم المرتّبة، فيسعى في فكاك رقبته خوفاً من البقاء في ربقة العبوديّة، وطمعاً في فسحة الحريّة، ليسرح في رياض الجنّة، فيتمتّع بمناه، ويفعل ما يشاؤه ويهواه. والرابع: الأبّاق، فما أكثرهم! فمنهم القاضي الجائر، والعالم غير العامل، والقَرّاءُ المرائي، والواعظ الذي لا يفعل ما يقول، ويكون أكثر أقواله فضول، وعلى كلّ من لا يُنفعه نَصُول، فضلاً عن السارق، والزاني، والغاصب. فعنهم أخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله لينصر هذا الدين بقوم لا خلاقَ لهم في الآخرة»(٣) ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ كان لابن أبيّ ستّ جَوَارٍ: معاذة، ومُسَيْلَة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة، يكرههنّ على البغاء، وضرب عليهن الضرائب، فشكت ثنتان منهنّ إلى رسول الله ﷺ، فنزلت. ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة. والبغاء: الزنى للنساء خاصّة. وهو مصدر البغي ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعفّفاً عن الزنى. وإنّما قيده بهذا الشرط؛ لأنّ الإكراه لا يكون إلاّ مع إرادة التحصّن. فآمر الطَّيِّعة للبغاء

(١) الرَّغام ـ بالفتح ـ : التراب.
(٢) «الشذر»: صغار اللؤلؤ، وقطع الذهب.
(٣) رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات. (مجمع الزوائد ٥/ ٣٠٢).

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾

لا يسمّى مُكْرِهاً، ولا أمره إكراهاً. ولأنّها نزلت على سبب، فوقع النهي على تلك الصفة. وفيه توبيخٌ بالموالي، أي: إذا رغبن في التحصّن فأنتم أحقّ بذلك ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ﴿لتبتغوا﴾ بإكراههنّ على الزنى أجورهنّ، وأولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لهنّ. وفي مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول: لهنّ والله، ولعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة، وهو الذي يُخاف منه التلف، فكانت آثمة. أو: لهم إذا تابوا.

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيَّنَٰتٍ﴾ بفتح الياء: حجازيّ، وبصريّ، وأبو بكر، وحماد. والمراد: الآيات التي بُيّنت في هذه السورة، وأوضحت في معاني الأحكام والحدود. وجاز أن يكون الأصل مبيَّناً فيها، فاتّسع في الظرف. وبكسرها: غيرهم، أي: بيّنت هي الأحكام والحدود. جعل الفعل لها مجازاً، أو: من: بيّن بمعنى تبيّن، ومنه المثل: قد بيّن الصبح لذي عينين ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أمثال من قبلكم، أي: قصّة عجيبة من قصصهم كقصّة يوسف ومريم ـ عليهما السلام ـ يعني: قصّة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ما وعظ به من الآيات والمثل، من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٢] ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور ١٦] ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هم المنتفعون بها، وإن كانت موعظة للكلّ.

٣٥ ـ نظير قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع قوله ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ و﴿يهدي الله لنوره﴾ قولك: زيد كرم وجود، ثمّ تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده. والمعنى: ذو نور السموات. ونور السموات والأرض: الحق. شبّهه بالنور في ظهوره وبيانه، كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: من الباطل إلى الحقّ، وأضاف النور إليهما للدلالة

كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ

على سعة إشراقه، وفشوّ إضاءته، حتّى تضيء له السموات والأرض. وجاز أنّ يُراد: أهل السموات والأرض، وأنّهم يستضيئون به ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ﴿مثل نوره﴾ أي: نور الله الذي هدى به المؤمن. وقرأ ابن مسعود ـ رحمه الله ـ ﴿مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة﴾. وقرأ أبيّ: ﴿مثل نوره المؤمن﴾ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي: الكوّة في الجدار غير النافذة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: سراج ضخم، ثاقب ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من زجاج. شاميّ: أزهر ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ مضيء، بضم الدال وتشديد الياء، منسوب إلى الدرّ؛ لفرط ضيائه، وصفائه. وبالكسر والهمزة: أبو بكر، وعليّ، كأنّه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمزة: أبو بكر، وحمزة. شبّهوا في زهرته بأحد الكواكب الدراري، كالمشتري، والزهرة، ونحوهما ﴿يُوقَدُ﴾[1] ﴿توقد﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وأبو بكر، أي: الزجاجة و﴿يُوقَدُ﴾ بالتخفيف: شاميّ، ونافع، وحفص، و﴿تَوَقَّد﴾: مكيّ، وبصريّ، أي: هذا المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: ابتداء توقُّده من شجرة الزيتون، يعني: رُوِّيت زبالته[2] بزيتها ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ كثيرة المنافع، أو: لأنّها نبتت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها سبعون نبيّاً منهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة نعتها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: منبتها الشام، يعني: ليست من المشرق ولا من المغرب، بل في الوسط منهما، وهو الشام. وأجود الزيتون: زيتون الشام. وقيل: ليست ممّا تطلع عليه الشمس في وقت شروقها، أو: غروبها فقط، بل تصيبها بالغداة والعشيّ جميعاً، فهي شرقيّة وغربيّة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ دهنها ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ وصف الزيت بالصفاء

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تَوقد﴾.

(٢) «زبالته»: هي الفتيلة.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾

والوبيص، فإنّه لتلألئه يكاد يضيء من غير نار ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: هذا النور الذي شبّه به الحقّ نور متضاعف، قد تناصر فيه: المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، حتّى لم تبق بقيّة مما يقوّي النور، وهذا لأنّ المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة، كان أجمع لنوره، بخلاف المكان الواسع، فإنّ الضوء ينتشر فيه. والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه. وضرب المثل يكون بدنيء محسوس معهود، لا بعليّ غير معاين ولا مشهود. فأبو تمام لمّا قال في المأمون:

إقدامُ عمروٍ في سماحةِ حَاتمٍ ... في حِلْم أحنَفَ في ذكاء إياسِ

وقيل له: إنّ الخليفة فوق من مثّلته بهم، فقال مرتجلاً:

لا تنكروا ضَرْبي له مَن دونه ... مثلاً شَرُوداً في النَّدى والباسِ

فالله قد ضربَ الأقلَّ لنورهِ ... مَثَلاً من المشكاة والنّبراسِ

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ أي: لهذا النور الثاقب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، أي: يوفّق لإصابة الحقّ من يشاء من عباده بإلهام من الله، أو: بنظره في الدليل ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيُبيِّن كلّ شيء ممّا يمكن أن يعلم به، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿مثل نوره﴾ أي: نور الله الذي هدى به المؤمن. وقراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة) وقرأ أبيٌّ (مثل نور المؤمن).

٣٦ ـ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يتعلّق بـ«مشكاة»، أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد. كأنّه قيل: ﴿مثل نوره﴾ كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، أو: بـ«توقد»، أي: توقد في بيوت، أو: بـ«يسبّح»، أي: يسبّح له رجال في بيوت. و﴿فيها﴾ تكرير فيه توكيد، نحو: زيد في الدار جالس فيها. أو: بمحذوف، أي: سبّحوا في بيوت ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ أي: أمر ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ تبنى، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أو: تعظم، من:

وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ

الرفعة. وعن الحسن: ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يتلى فيها كتابه، أو: هو عامّ في كل ذكر ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: يصلّي له فيها بالغداة صلاة الفجر، وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ـ وإنما وحّد الغدوّ لأن صِلاته صلاة واحدة وفي الآصال صلوات. والآصال جمع أُصُل، جمع أصيل، وهو: العشيّ ـ.

٣٧ ـ ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يسبح﴾. ﴿يُسبَّح﴾ شاميّ، وأبو بكر، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة، أعني: ﴿له فيها بالغدوّ﴾. و﴿رجال﴾ مرفوع بما دلّ عليه ﴿يسبح﴾ أي: يسبّح له ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ في السفر ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ في الحضر، وقيل التجارة: الشراء إطلاقاً لاسم الجنس على النوع. أو: خصّ البيع بعد ما عمّ؛ لأنّه أوغل في الإلهاء من الشراء؛ لأنّ الربح في البيعة الرابحة يقين، وفي الشراء مظنون ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ باللسان والقلب ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: وعن إقامة الصلاة. والتاء في إقامة عوض من الألف الساقطة للإعلال، الأصل: إقوام، فلمّا قلبت الواو ألفاً اجتمع ألفان، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي: «إقاماً»، فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف، فلمّا أضيفت أقيمت الإضافة مقام التاء، فأسقطت ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: وعن إيتاء الزكاة. والمعنى: لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة، أو: يبيعون، ويشترون، ويذكرون الله مع ذلك، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متثاقلين، كأولياء العشرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة، و﴿يخافون﴾ حال من الضمير في ﴿تلهيهم﴾. أو: صفة أخرى لرجال ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ ببلوغها إلى الحناجر ﴿وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بالشخوص، والزرقة. أو: تقلّب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران، والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان. كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

٣٨ ـ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يسبّحون ويخافون

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾

﴿ليجزيهم الله أحسن﴾ جزاء أعمالهم، أي: ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ﴿ويزيدهم﴾ على الثواب الموعود على العمل تفضلاً ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب الخلق. هذه صفات المهتدين بنور الله، فأما الذين ضلّوا عنه فالمذكورون في قوله:

٣٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ هو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسربُ على وجه الأرض، كأنّه ماء يجري ﴿بِقِيعَةٖ﴾ بقاع، أو: جمع قاع، وهو: المنبسط المستوي من الأرض، كجيرة في جار ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ يظنّه العطشان ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: جاء إلى ما توهّم أنه ماء ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ كما ظنّه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ أي: جزاء الله، كقوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١] أي: يجد مغفرته، ورحمته ﴿عِندَهُۥ﴾ عند الكافر ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: أعطاه جزاء عمله وافياً كاملاً. وحد بعد تقدّم الجمع، حملاً على كلّ واحد من الكفّار ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لأنّه لا يحتاج إلى عدّ وعقد، ولا يشغله حساب عن حساب، أو: قريب حسابه؛ لأنّ ما هو آت قريب. شبّه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان، ولا يتّبع الحقّ من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله، وتنجيه من عذابه ثم يخيب في العاقبة أمله، ويلقى خلاف ما قدّر، بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة، فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية ﴿الله عنده﴾ يأخذونه فيعتلونه إلى جهنّم، فيسقونه الحميم والغسّاق. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ [الغاشية: ٣] ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أميّة، كان يترهّب ملتمساً للدين في الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام كفر.

٤٠ ـ ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ﴾ هنا كأو في: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ [البقرة: ١٩] ﴿لُّجِّيّٖ﴾ عميق، كثير الماء، منسوب إلى اللُّج، وهو: معظم ماء البحر

يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يغشى البحر، أو: من فيه، أي: يعلوه، ويغطيه ﴿مَوْجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي: من فوق الموج موج آخر ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ من فوق الموج الأعلى سحاب ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ أي: هذه ظلمات: ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على الموج، وظلمة السحاب على الموج ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ أي: الواقع فيه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مبالغة في لم يرها، أي: لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها. شبّه أعمالهم أوّلاً في فوات نفعها، وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً. ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب، حتّى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار. وشبّهها ثانياً في ظلمتها، وسوادها؛ لكونها باطلة، وفي خلوّها عن نور الحقّ بظلمات متراكمة من لجّ البحر، والأمواج، والسحاب ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ من لم يهده الله لم يهتد. عن الزجاج. في الحديث: «خلق الله الخلق في ظلمة، ثمّ رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ».

٤١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمّد علماً يقوم مقام العيان في الإيقان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ﴾ عطف علي ﴿من﴾. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من ﴿الطير﴾ أي: يصففن أجنحتهن في الهواء ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ الضمير في ﴿علم﴾ لـ«كلٌّ»، أو: لله. وكذا في ﴿صلاته وتسبيحه﴾. والصلاة: الدعاء. ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة؛ التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لا يعزب عن علمه شيء.

٤٢ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنّه خالقهما. ومَن ملك شيئاً فبتمليكه إيّاه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجع الكلّ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾

٤٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي﴾ يسوق إلى حيث يريد ﴿سَحَابًا﴾. جمع سحابة. دليله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ ـ وتذكيره للفظ ـ أي: يضمّ بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكما بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فتوقه ومخارجه، جمع خلل، كجبال في جبل ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: ﴿وينْزل﴾ مكيّ. وبصريّ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية؛ لأنّ ابتداء الإنزال من السماء ﴿مِن جِبَالٍ﴾ للتبعيض؛ لأنّ ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ للبيان. أو: الأوليان للابتداء، والآخرة للتبعيض. ومعناه: أنّه ينزل البرد من السماء من جبال فيها. وعلى الأوّل مفعول ينزل: ﴿من جبال﴾ أي: بعض ﴿جبال﴾. ومعنى ﴿من جبال فيها من برد﴾: أن يخلق الله في السماء جبال برد، كما خلق في الأرض جبال حجر. أو: يريد الكثرة بذكر الجبال، كما يقال: فلان يملك جبالاً من ذهب ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالبرد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: يصيب الإنسان وزرعه ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فلا يصيبه، أو: يعذّب به من يشاء، ويصرفه عمّن يشاء، فلا يُعَذِّب به ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ ضوئه ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يخطفها. ﴿يذهب﴾ يزيد على زيادة الباء.

٤٤ ـ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يصرفهما في الاختلاف طولاً وقصراً، والتعاقب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إزجاء السحاب، وإنزال الودق والبرد، وتقلّب الليل والنهار ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي العقول. وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيّته، حيث ذكر تسبيح مَن في السموات والأرض، وما يطير بينهما، ودعاءهم له، وتسخير السحاب؛ إلى آخر ما ذكر. فهي براهين لائحة على وجوده، ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبّر. ثم بيّن دليلاً آخر، فقال تعالى:

٤٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾ ﴿خالق كُلِّ﴾: حمزة، وعليّ ـ ﴿دَآبَّةٍ﴾ كلّ حيوان

مِن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا

يدبّ على وجه الأرض ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أي: من نوع من الماء مختصّ بتلك الدابّة، أو: من ماء مخصوص وهو النطفة. ثمّ خالف بين المخلوقات من النطفة، منها الهوامُّ، ومنها بهائم، ومنها أناسيّ. وهو كقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]. وهذا دليلٌ على أنّ لها خالقاً ومدبّراً، وإلاّ لم تختلف لاتّفاق الأصل. وإنّما عرّف الماء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] لأنّ المقصود ثمّ: أنّ أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء، وأنّه هو الأصل، وإن تخلّلت بينه وبينها وسائط. قالوا: إنّ أوّل ما خلق الله الماء، فخلق منه النار، والريح، والطين، فخلق من النار: الجنّ، ومن الريح: الملائكة، ومن الطين: آدم، ودوابّ الأرض. ولمّا كانت الدابّة تشمل المميّز وغير المميز، غُلِّب المميز، فأُعطِي ما وراءه حكمه، كأنّ الدوابّ كلّهم مميّزون. فمن ثمّ قيل: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيّة، والحوت ـ وسَمّى الزحف على البطن مشياً استعارة، كما يقال في الأمر المستمرّ: قد مشى هذا الأمر. أو: على طرائق المشاكلة، لذكر الزاحف مع الماشين ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان، والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم. وقدّم ما هو أعرق في القدرة، وهو الماشي بغير آلة مَشْيٍ؛ من أرجل أو: غيرها، ثم الماشي على رجلين، ثمّ الماشي على أربع ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ كيف يشاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يتعذّر عليه شيء.

٤٦ ـ ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بلطفه، ومشيئته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى دين الإسلام؛ الذي يوصل إلى جنّته. فالآيات لإلزام حجّته.

٤٧ ـ لمّا ذكر إنزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق: فرقة صدّقت ظاهراً وكذّبت باطناً، وهم المنافقون، وفرقة صدّقت ظاهراً وباطناً، وهم المخلصون، وفرقة كذّبت ظاهراً وباطناً، وهم الكافرون على هذا الترتيب. وبدأ بالمنافقين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ بألسنتهم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله،

ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

والرسول ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض عن الانقياد لحكم الله، ورسوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد قولهم: ﴿آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ ﴿وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مخلصين. وهو إشارة إلى القائلين: آمنا، وأطعنا، لا إلى الفريق المتولّي وحده. وفيه إعلامٌ من الله بأنّ جميعهم منتف عنهم الإيمان؛ لا عتقادهم ما يعتقد هؤلاء. والإعراض ـ وإن كان من بعضهم ـ فالرضا بالإعراض من كلّهم.

٤٨ ـ ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ـ أي: إلى رسول الله؛ كقولك: أعجبني زيد وكرمه، تريد: كرم زيد ـ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: فاجأ مِنْ فريق منهم الإعراض. أنزلت في بشر المنافق، وخصمه اليهوديّ حين اختصما في أرضٍ، فجعل اليهوديّ يجرّه إلى رسول الله ﷺ، والمنافق إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إنّ محمّداً يحيف علينا.

٤٩ ـ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: إذا كان الحقّ لهم على غيرهم ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ﴾ حال، أي: مسرعين في الطاعة طلباً لحقهم، لا رضا بحكم رسولهم. قال الزجاج: الإذعان: الإسراع مع الطاعة. والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنّه ليس معك إلاّ الحقّ المرّ، والعدل البحت الخالص، يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحقّ؛ لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حقّ على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلاّ بحكومتك؛ لتأخذهم ما وجب لهم في ذمّة الخصم.

٥٠ ـ ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ قسّم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو: مرتابين في أمر نبوّته، أو: خائفين الحيف في قضائه. ثمّ أبطل خوفهم حيفه بقوله: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ

بحاله، وإنّما هم ظالمون، يريدون أن يظلموا من له الحقّ عليهم. وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثمّ يأبون المحاكمة إليه.

٥١ ـ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعن الحسن ﴿قولُ﴾ بالرفع. والنصب أقوى؛ لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف. و﴿أن يقولوا﴾ أوغل، بخلاف ﴿قول المؤمنين﴾ ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ﴾ النبيّ ﷺ ﴿ليُحكم﴾: يزيد، أي: ليفعل الحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بحكم الله الذي أنزل عليه ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا﴾ قوله ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمره ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

٥٢ ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سننه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. وعن بعض الملوك: أنه سأل عن آية كافية، فتليت له هذه الآية، وهي جامعةٌ لأسباب الفوز. ﴿ويتقه﴾ بسكون الهاء: أبو عمرو، وأبو بكر بنية الوقف. وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة: حفص، وبكسر القاف والهاء غيرهم.

٥٣ ـ ﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلف المنافقون بالله، وهو جهد اليمين؛ لأنهم بذلوا فيها مجهودهم. وجهد يمينه مستعار من: جهد نفسه؛ إذ بلغ أقصى وسعها. وذلك إذا بالغ في اليمين، وبلغ غاية شدّتها، ووكادتها. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من قال بالله فقد جهد يمينه. وأصل: أقسم جهد اليمين: أقسم يجهَد اليمين جهداً، فحذف الفعل، وقدّم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنّه قال: جاهدين أيمانهم ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: لئن أمرنا محمّد عليه الصلاة والسلام بالخروج إلى الغزو لغزونا، أو: بالخروج من ديارنا لخرجنا ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ لا تحلفوا كاذبين؛ لأنّه معصية ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أمثل، وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة. مبتدأ محذوف

إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ

الخبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: الذي يطلب منكم ﴿طاعة معروفة﴾ معلومة لا يُشكّ فيها، ولا يُرتاب، كطاعة الخلّص من المؤمنين، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يعلم ما في ضمائركم، ولا يخفى عليه شيء من سرائركم، وإنه فاضحكم لا محالة، ومجازيكم على نفاقكم.

٥٤ ـ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات. وهو أبلغ في تبكيتهم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾ يريد: فإن تتولّوا فما ضررتموه، وإنّما ضررتم أنفسكم؛ فإنّ الرسول ليس عليه إلاّ ما حمّله الله تعالى، وكلّفه من أداء الرسالة، فإذا أدّى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأمّا أنتم فعليكم ما كلّفتم من التلقّي بالقبول والإذعان؛ فإن لم تفعلوا، وتولّيتم، فقد عرّضتم نفوسكم سخط الله، وعذابه ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ أي: وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم، فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى. فالضرر والنفع عائدان إليكم. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وما على الرسول إلا أن يبلغ، ماله نفع في قبولكم، ولا عليه ضرر في توليتكم. و﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ بمعنى التبليغ، كالأداء بمعنى التأدية. و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ الظاهر؛ لكونه مقروناً بالآيات، والمعجزات. ثمّ ذكر المخلصين فقال:

٥٥ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ ولمن معه. و﴿منكم﴾ للبيان. وقيل: المراد به: المهاجرون. ومن للتبعيض ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض الكفّار. وقيل: أرض المدينة. والصحيح: أنه عامّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليدخلنّ هذا الدين على ما دخل عليه الليل» ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ ﴿استُخْلِفَ﴾: أبو بكر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ

دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ ﴿وليُبْدِلنّهم﴾ بالتخفيف؛ مكّي، وأبو بكر ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾ وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر، ويورّثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء، كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة، وأن يمكّن الدين المرتضى، وهو دين الإسلام ـ وتمكينه: تثبيته، وتوطيده ـ وأن يؤمّن سِرْبَهُم، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه. وذلك أنّ رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكّة عشر سنين خائفين، ولمّا هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، حتّى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح. فنزلت. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تَغْبرُون إلاّ يسيراً حتّى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليس معه حديدة»[١]. فأنجز الله وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب، ومزّقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا. والقسم المتلقى باللام والنون في ﴿ليستخلفنّهم﴾ محذوف، تقديره: وعدهم الله، وأقسم ﴿ليستخلفنّهم﴾. أو: نُزِّل وعد الله في التحقّق منزلة القسم، يُتلقى بما يتلقي به القسم، كأنّه أقسم الله ﴿ليستخلفنّهم﴾ ﴿يَعۡبُدُونَنِى﴾ إن جعلته استئنافاً فلا محلّ له، كأنّه قيل: ما لهم يُستخلفون ويؤمّنون؟ فقال: ﴿يعبدونني﴾. وإن جعلته حالاً عن ﴿وعد الله﴾ ـ أي: وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم ـ فمحلّه النصب. ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔا﴾ حال من فاعل يعبدون، أي: ﴿يعبدونني﴾ موحِّدين. ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى. ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد الموعد. والمراد: كفران النعمة؛ كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ﴾ هم الكاملون في فسقهم، حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة، وجسروا على غمطها[٢]. قال: أوّل من كفر هذه النعمة قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ فاقتتلوا

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٨/ ١٦٠). «لا تغبرون»: لاتبقون.
(٢) «غمطها»: احتقارها.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ

بعد ما كانوا إخواناً، وزال عنهم الخوف. والآية أوضح دليل على صحّة خلافة الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ لأنّ المستخلَفين الذين آمنوا، وعملوا الصالحات هم هم.

٥٦ ـ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف على ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ولا يضرّ الفصل وإن طال. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما يدعوكم إليه. وكرّرت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا، فإنّها من مستجلبات الرحمة. ثمّ ذكر الكافرين، فقال:

٥٧ ـ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فائتين الله بألاّ يقدر عليهم فيها. فالتاء خطاب للنبيّ عليه الصلاة والسلام، وهو الفاعل، والمفعولان: ﴿الذين كفروا﴾، و﴿معجزين﴾. وبالياء شامي وحمزة. والفاعل: النبي ﷺ لتقدم ذكره، والمفعولان ﴿الذين كفروا﴾ و﴿معجزين﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ معطوف على: ﴿لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين﴾، كأنّه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله ﴿ومأواهم النار﴾. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع، النار.

٥٨ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أمر بأن يستأذن العبيد، أو العبيد والإماء. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار. وقرىء بسكون اللام تخفيفاً. ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليوم والليلة، وهي: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنّه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهي نصف النهار في القيظ؛ لأنّها وقت وضع الثياب للقيلولة، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأنّه وقت التجرّد من ثياب اليقظة، والالتحاف بثياب النوم ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي: هي أوقات ثلاث عورات، فحذف المبتدأ والمضاف. وبالنصب كوفيّ غير حفص

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

بدلاً عن ﴿ثلاث مرّات﴾ أي: أوقات ثلاث عورات. وسمّي كلّ واحد من هذه الأحوال عورة؛ لأنّ الإنسان يختلّ تستره فيها. والعورة: الخلل، ومنها: الأعور: المختلّ العين. دخل غلام من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر ـ رضي الله عنه ـ وقت الظهيرة وهو نائم، وقد انكشف عنه ثوبه. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: وددتُ أنّ الله نهى عن الدخول في هذه السّاعة إلاّ بالإذن. فانطلق إلى النبيّ ﷺ وقد نزلت عليه الآية[1]. ثمّ عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرّات بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهنّ. ثمّ بيّن العلّة في ترك الاستئذان وراء هذه الأوقات بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي: هم طوّافون بحوائج البيت ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأ، خبره ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. تقديره: ﴿بعضكم﴾ طائف ﴿على بعض﴾ فحذف طائف لدلالة ﴿طوّافون عليكم﴾. فيجوز أن تكون الجملة بدلاً مِن التي قبلها وأن تكون مبيّنة مؤكّدة، يعني: أنّ بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام. فلو جزم الأمر بالاستئذان في كلّ وقت لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوعٌ في الشرع بالنصّ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: كما بيّن حكم الاستئذان يبيّن لكم غيره من الآيات؛ التي احتجتم إلى بيانها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مراده.

٥٩ ـ ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ أي: الأحرار دون المماليك ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ أي: الاحتلام؛ أي: إذا بلغوا، وأرادوا الدخول عليكم ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا﴾ في جميع الأوقات ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال، أو: الذين ذكروا من قبلهم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا

---

(١) قال الحافظ: هكذا نقله الثعلبي والواحدي والبغوي بغير سند. (حاشية الكشاف ٣/٢٥٣).

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ

بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟﴾ الآية [النور: ٢٧]. والمعنى: أنّ الأطفالَ مأذونٌ لهم في الدخول بغير إذن إلاّ في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفالُ ذلك، ثمّ بلغوا بالاحتلام، أو: بالسنّ وجب أن يُفطَمُوا عن تلك العادة، ويُحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كالرجال الكبار؛ الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلاّ بإذن. والناس عن هذا غافلون. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ثلاث آيات جحدهنّ الناس: الإذن كلّه، وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ [النساء: ٨]. وعن سعيد بن جبير: يقولون هي منسوخة، والله! ما هي بمنسوخة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح الأنام ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما بيّن من الأحكام.

٦٠ ـ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ جمع قاعد؛ لأنّها من الصفات المختصّة بالنساء، كالطالق، والحائض، أي: اللاتي قعدن عن الحيض والولد لكبرهنّ ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حال ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فيه، وهي في محلّ الرفع صفة للمبتدأ، وهي ﴿القواعد﴾، والخبر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ إثم ـ ودخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط بسبب الألف واللام ﴿أَن يَضَعْنَ﴾ في أن يضعن ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الظاهرة كالملحفة، والجلباب الذي فوق الخمار ﴿غَيْرَ﴾ حال ﴿مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات زينة. يريد: الزينة الخفيّة كالشعر، والنحر، والساق، ونحو ذلك، أي: لا يقصدن بوضعها التبرّج، ولكن التخفيف. وحقيقة التبرّج: تكلّف إظهار ما يجب إخفاؤه ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي: يطلبن العفة عن وضع الثياب فيستترن. وهو مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يعلنّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يقصدن.

٦١ ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال

وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ

سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبيّ ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى، والمريض، والأعرج، وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، وكانوا يتحرّجون من ذلك، ويقولون: نخشى ألاّ تكون أنفسهم بذلك طيّبة، فنزلت الآية رخصة لهم ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أولادكم؛ لأنّ ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه؛ ولذا لم يذكر الأولاد في الآية. وقد قال ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»(١). أو: بيوت أزواجكم، لأنّ الزوجين صارا كنفس واحدة، فصار بيت المرأة كبيت الزوج ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ لأنّ الإذن من هؤلاء ثابت دلالة ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مِفتح، وهو: ما يفتح به الغلق. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته، له أن يأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته. وأريد بملك المفاتح: كونها في يده، وحفظه. وقيل: أريد به بيت عبده؛ لأنّ العبد وما في يده لمولاه ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعني: أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحداً وجمعاً، وهو: مَن يصدقك في مودّته، وتصدقه في مودّتك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه، وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه، فيأخذ ما شاء، فإذا حضر مولاها أعتقها سروراً بذلك، فأمّا الآن فقد غلب الشحّ على الناس، فلا يُؤكَل إلاّ بإذن ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرّقين جمع

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٧٩) وأبو داود (٢٢٩١) وابن ماجه (٢٢٩٢).

فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ

شتّ. نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل وحده، فربّما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإن لم يجدْ من يؤاكله أكل ضرورة. أو: في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلاّ مع ضيفهم، أو: تحرّجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: فابدؤوا بالسلام على أهلها؛ الذين هم منكم ديناً، وقرابة. أو: ﴿بيوتاً﴾ فارغة، أو: مسجداً، فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين ﴿تَحِيَّةً﴾ نصب بسلّموا؛ لأنّها في معنى: تسليماً نحو: قعدت جلوساً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره، ومشروعة من لدنه، أو لأن التسليم والتحيّة طلب سلامة، وحياة للمسلَّم عليه، والمحيَّا من عند الله ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وصفها بالبركة والطيب، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تعقلوا، وتفهموا.

٦٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: الذي يُجمع له الناس نحو: الجهاد، والتدبير في الحرب، وكلّ اجتماع في الله حتّى الجمعة والعيدين ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي: ويأذن لهم. ولما أراد الله عزّ وجلّ أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، إذا كانوا معه على أمر جامع، جعل ترك ذهابهم حتّى يستأذنوه: ثالث الإيمان بالله، والإيمان برسوله، وجعلهما كالتشبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بـ«إنّما»، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول، أحاطته صلته بذلك الإيمانين، ثمّ عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. وضمّنه شيئاً آخر، وهو أنّه جعل الاستئذان كالمصداق لصحّة

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾

الإيمانين، وعرّض بحال المنافقين، وتسلّلهم لواذاً ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ في الانصراف ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أمرهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وذِكْر الاستغفار للمستأذنين دليلٌ على أنّ الأفضلَ ألاّ يستأذنوه. قالوا: وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدَّميهم في الدين والعلم، يظاهرونهم، ولا يتفرّقون عنهم إلاّ بالإذن. قيل: نزلت يوم الخندق. كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان.

٦٣ ـ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر، فدعاكم، فلا تفرّقوا عنه إلاّ بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إيّاكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي. أو: لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمّي بعضكم بعضاً، ويناديه باسمه الذي سمّاه به أبواه، ولا تقولوا: يا محمد، ولكن: يا نبيّ الله، ويا رسول الله، مع التوقير، والتعظيم، والصَّوت المخفوض ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ يخرجون قليلاً قليلاً ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ حال، أي: ملاوذين. اللواذ، والملاوذة: هو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا، أي: يتسلَّلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة، واستتار بعضهم ببعض ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: الذين يصدّون ﴿عن أمره﴾ دون المؤمنين. وهم المنافقون. يقال: خالفه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه، ومنه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وخالفه عن الأمر: إذا صدّ عنه دونه. والضمير في ﴿أمره﴾ لله سبحانه، أو: للرسول عليه الصلاة والسلام. والمعنى: عن طاعته ودينه. ومفعول ﴿يحذر﴾: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا، أو قتل، أو زلازل، وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو قسوة القلب عن معرفة الرّب،

أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

أو إسباغ النعم استدراجاً ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب.

٦٤ ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿ألا﴾: تنبيه على ألاَّ يخالفوا أمر مَن له ﴿ما في السموات والأرض﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أدخل ﴿قد﴾ ليؤكّد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد. والمعنى: أنّ جميع ما في السموات والأرض مختص به خلقاً، وملكاً، وعلماً، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن كانوا يجهدون في سترها؟! ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وبفتح الياء وكسر الجيم: يعقوب، أي: ويعلم يوم يردّون إلى جزائه، وهو: يوم القيامة. والخطاب والغيبة في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ﴿ما أنتم عليه﴾ عامّاً، و﴿يرجعون﴾ للمنافقين ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بما أبطنوا من سوء أعمالهم، ويجازيهم حقّ جزائهم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه خافية. ورُوي: أنّ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسّرها على وجه لو سمعت الرومُ به لأسلمت.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ

١ ـ ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من: البركة، وهي: كثرة الخير وزيادته. ومعنى تبارك الله: تزايد خيره، وتكاثر، أو: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته، وأفعاله. وهي كلمة تعظيم، لم تستعمل إلاّ لله وحده، والمستعمل منه الماضي فحسب ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو مصدر فرق بين الشيئين: إذا فصل بينهما، وسُمِّي به القرآن لفصله بين الحقّ والباطل، والحلال والحرام، أو: لأنّه لم ينزل جملة، ولكن مفروقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال، ألاَ ترى إلى قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد، أو: الفرقان ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ للجنّ والإنس. وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً، أي: مخوّفاً، أو: إنذاراً، كالنكير بمعنى الإنكار. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦].

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى﴾ رَفْعٌ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو: على الإبدال من ﴿الذي نزل﴾. وجُوِّزَ الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ﴿ليكون﴾ لأن المبدل منه صلته ﴿نزل﴾ و﴿ليكون﴾ تعليل له، فكأنّ المبدل منه لم يتمّ إلاّ به، أو: نصب على المدح ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على الخلوص ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم اليهود والنصارى في عزير والمسيح ـ عليهما السلام ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾

كما زعمت الثنويّة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحدث ﴿كلّ شيء﴾ وحده، لا كما يقوله المجوس والثنويّة: من النور والظلمة، (ويَزْدان، واهَرْمَنْ) ولا شبهة فيه لمن يقول: إنّ الله شيء، ولا لمن يقول بخلق القرآن؛ لأنّ الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعوله. على أنّ لفظ: ﴿شيء﴾ اختصّ بما يصحّ أن يخلق بقرينة ﴿وخلق﴾. وهذا أوضحُ دليل لنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فهيّأه لما يصلح له بلا خلل فيه، كما أنّه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي نزّله، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في الدين والدنيا، أو: تقديره للبقاء إلى أمدٍ قصير معلوم.

٣ ـ ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ الضمير للكافرين؛ لاندراجهم تحت العالمين، أو: لدلالة ﴿نذيراً﴾ عليهم؛ لأنّهم المنذرون ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: الأصنام ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهيّة، والملك، والخلق، والتقدير عبادة عجزة، لا يقدرون على خلق شيء وهم مخلوقون ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها، ولا جلب نفع إليها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي: إماتة ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ إحياء ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ إحياء بعد الموت. وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها.

٤ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه، واخترعه محمد ﷺ من عند نفسه، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: اليهود، أو: عداس، ويسار، وأبو فكيهة الرومي، قاله النضر بن الحارث ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا إخبار من الله، ردّ للكفرة، فيرجع الضمير إلى الكفّار. و«جاء» يستعمل في معنى «فعل»، فيعدّى تعديته. أو: حذف الجارّ، وأوصل الفعل، أي: بظلم وجور. وظلمهم أن جعلوا العربيّ يتلقّن من

وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ

العجميّ الروميّ كلاماً عربيّاً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب. والزور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

٥ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو أحاديث المتقدّمين، وما سطّروه؛ كرستم وغيره، جمع أسطار، أو: أسطورة كأحدوثة ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تلقى عليه من كتابه ﴿بُكْرَةً﴾ أوّل النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخره. فيحفظ ما يُملى عليه، ثمّ يتلوه علينا.

٦ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعلم كلَّ سرٍّ خفيّ في السموات والأرض، يعني: أنّ القرآن لمّا اشتمل على علم الغيوب التي يستحيلُ عادةً أن يعلمها محمد ﷺ من غير تعليم، دلّ ذلك على أنّه من عند علّام الغيوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولذا استوجبوها بمكابرتهم.

٧، ٨ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء، وخطّ المصحف سُنَّةٌ لا تُغيّر، وتسميتهم إيّاه بالرسول سخرية منهم؛ كأنّهم قالوا: أيّ شيء لهذا الزاعم أنه رسول الله عليه الصلاة والسلام؟! ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ حال، والعامل فيها ﴿هذا﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: إن صح أنّه رسول الله ﷺ فما باله يأكل الطعام كما نأكل، ويتردّد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردّد؟! يعنون: أنّه كان يجب أن يكونَ مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيّش. ثمّ نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يُلقى إليه من السماء، يستظهر به، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثمّ نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستان يأكل هو منه كالمياسير، أو: ﴿نأكل﴾ نحن،

وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ

كقراءة عليّ، وحمزة. وحسن عطف المضارع وهو: ﴿يُلْقى﴾ و﴿تكون﴾ على ﴿أنزل﴾ وهو ماض دخولُ المضارع، وهو ﴿فيكون﴾ بينهما. وانتصب ﴿فيكون﴾ على القراءة المشهورة؛ لأنّه جواب ﴿لولا﴾ بمعنى هلاّ، وحكمه حكم الاستفهام. وأراد بـ«الظالمين» بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إيّاهم بأعيانهم، غير أنّه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا. وهم كفّار قريش ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سحر فجنّ، أو: ذا سَحْر، وهو: الرئة، عنوا: أنّه بشر، لا ملك.

٩ ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟﴾ بيّنوا ﴿لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: قالوا فيك تلك الأقوال، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال من المفتري، والمُمْلَى عليه، والمسحور ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الحقّ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فلا يجدون طريقاً إليه.

١٠ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ أي: تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً ممّا قالوا، وهو: أن يعجّل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنّات، والقصور. و﴿جنّات﴾ بدل من ﴿خيراً﴾. ﴿ويجعل﴾ بالرفع: مكيّ، وشاميّ، وأبو بكر؛ لأنّ الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم، والرفع.

١١ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ عطف على ما حكي عنهم، يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو: تكذيبهم بالساعة، أو: متّصل بما يليه، كأنّه قال: ﴿بل كذّبوا بالساعة﴾ فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب؟! وكيف يصدّقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها؟! ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وهيّأنا للمكذّبين بها ناراً شديدة الاستعار.

١٢ ـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي: النار، أي: قابلتهم ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: إذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: سمعوا صوت

سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

غليانها. وشبّه ذلك بصوت المتغيّظ، والزافر. أو: إذا رأتهم زبانيتها تغيّظوا، وزفروا غضباً على الكفّار.

١٣ ـ ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا﴾ من النار ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ﴿ضَيْقاً﴾: ـ مكيّ ـ الكرب مع الضيق، كما أنّ الرَّوْحَ مع السعة؛ ولذا وصفت الجنّة بأنّ عرضها السموات والأرض. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه يضيق عليهم، كما يضيق الزجّ في الرّمح ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرّنون في السلاسل، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، أو: يقرن مع كلّ كافر شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ﴾ حينئذ. ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، أي: قالوا: واثبورا! أي: تعال يا ثبور فهذا حينك. فقال لهم:

١٤ ـ ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: إنّكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، إنّما هو ثبور كثير.

١٥ ـ ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: المذكور من صفة النار ﴿خير﴾ ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: وعدها، فالراجع إلى الموصول محذوف، وإنّما قال: ﴿أذلك خير﴾ ولا خير في النار، توبيخاً للكفّار ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ ثواباً ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعاً. وإنّما قيل: ﴿كانت﴾ لأنّ ما وعد الله، كأنّه كان لتحقّقه، أو: كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خلقهم.

١٦ ـ ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: ما يشاؤونه ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يشاؤون﴾. والضمير في: ﴿كَانَ﴾ لـ: ﴿ما يشاؤون﴾ ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ موعوداً ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ مطلوباً، أو: حقيقاً أن يسأل، أو: قد سأله المسلمون والملائكة في دعواتهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ﴿رَبَّنَا

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ

﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨].

١٧ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾(١) للبعث، عند الجمهور. وبالياء: مكيّ، ويزيد، ويعقوب، وحفص ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد المعبودين من الملائكة، والمسيح، وعزير. وعن الكلبي: يعني: الأصنام ينطقها الله، وقيل: عامّ. و«ما» يتناول العقلاء وغيرهم؛ لأنه أريد به الوصف، كأنّه قيل: ومعبوديهم ﴿فَيَقُولُ﴾ وبالنون: شاميّ ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من ﴿عبادي﴾ أي: المشركين ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ والقياس: ضلَّ عن السبيل، إلاّ أنهم تركوا الجارّ كما تركوه في: هداه الطريق، والأصل: إلى الطريق، أو: للطريق. وضلّ مطاوع أضلّه، والمعنى: أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحقّ بإدخال الشبه، أم هم ضلّوا عنه بأنفسهم؟. وإنّما لم يقل: أأضللتم عبادي هؤلاء، أم ضلّوا السبيل، وزيد ﴿أنتم﴾ ﴿وهم﴾ لأنّ السؤال ليس عن الفعل ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجّه هذا العتاب، وإنّما هو عن متولّيه، فلا بدّ من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنّه المسؤول عنه. وفائدة سؤالهم ـ مع علمه تعالى بالمسؤول عنه ـ أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يُبَكِّتَ عبدتهم بتكذيبهم إيّاهم، فتزيد حسرتهم.

١٨ ـ ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجّب منهم مما قيل لهم، أو: قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، وأن يكون له نبيّ، أو ملك، أو غيرهما نداً. ثم قالوا ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ما كان يصحّ ﴿لَنَآ﴾ ولا يستقيم أن نتولّى أحداً دونك، فكيف يصحّ لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولّونا دونك؟! ﴿نُتَّخذ﴾: يزيد. و«اتخذ» يتعدّى إلى مفعول واحد نحو: اتخذ وليّاً، وإلى مفعولين، نحو: اتخذ فلاناً وليّاً، قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾

---

(١) في الأصل المخطوط ثُبِّتت قراءة ﴿نَحْشُرُهم﴾. وهي قراءة: ابن عامر، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع، وعاصم، والشنبوذي، وطلحة، والحسن، وشعبة، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٤/٢٧٧).

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾

[الأنبياء: ٢١]. وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. فالقراءة الأولى من المتعدّي إلى واحد وهو: ﴿من أولياء﴾ والأصل: أن نتّخذ أولياء، زيدت ﴿من﴾ لتأكيد معنى النفي. والقراءة الثانية من المتعدّي إلى المفعولين. فالمفعول الأول ما بني له الفعل، والمفعول الثاني: ﴿من أولياء﴾. و﴿من﴾ للتبعيض، أي: لا نتخذ بعض أولياء؛ لأن «منْ» لا تزاد في المفعول الثاني، بل في الأول. تقول: ما اتخذت من أحد وليّاً، ولَا تقول: ما اتّخذت أحداً من وليّ ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالأموال، والأولاد، وطول العمر، والسلامة من العذاب ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: ذكر الله، والإيمان به، والقرآن، والشرائع ﴿وَكَانُواْ﴾ عند الله ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هلكى، جمع بائر، كعائذ وعود.

١٩ ـ ثمَّ يقال للكفّار بطريق الخطاب عدولاً عن الغيبة: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾. وهذه المفاجآت بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصّة إذا انضم إليها الالتفات، وحذف القول. ونظيرها: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] وقول القائل:

قالُوا خُرَاسانُ أَقْصَى ما يُرَادُ بِنا ... ثُمَّ القُفُولُ فقد جِئْنا خُرَاسانا

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بقولكم فيهم: إنّهم آلهة، والباء على هذا كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٥]. والجارّ والمجرور بدل من الضمير، كأنه قيل: فقد كذّبوا بما تقولون، وعن قنبل: بالياء، ومعناه: فقد كذّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨]. والباء على هذا كقولك: كتبت بالقلم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾[1] أي: فما

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿يستطيعون﴾. وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٢٨٠).

وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو: ينصروكم، وبالتاء: حفص، أي: فما تستطيعون أنتم يا كفّار صرف العذاب عنكم، ولا نصر أنفسكم. ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يشرك؛ لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم، يؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ فسّر بالخلود في النار. وهو يليق بالمشرك دون الفاسق إلاّ على قول المعتزلة، والخوارج.

٢٠ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كسرت ﴿إنّ﴾ لأجل اللام في الخبر. والجملة بعد ﴿إلاّ﴾ صفة لموصوف محذوف، والمعنى: ﴿وما أرسلنا قبلك﴾ أحداً ﴿من المرسلين﴾ إلاّ آكلين وماشين. وإنّما حذف اكتفاء بالجارّ والمجرور، أي: ﴿من المرسلين﴾ ونحوه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: وما منّا أحد، قيل: هو احتجاج على من قال: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ وتسلية للنبيّ عليه الصلاة والسلام ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: محنة، وابتلاء. وهذا تصبيرٌ لرسول الله ﷺ عما عيَّروه به من الفقر، ومشيه في الأسواق. يعني: أنّه جعل الأغنياء فتنة للفقراء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمّكم؟ وحُكي أنّ بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه فخرج ضجراً، فرأى خصيّاً في مراكب ومواكب، فخطر بباله شيء، فإذا بمن يقرأ هذه الآية، فقال: بلى، نصبر ربّنا. أو: جعلناك فتنة لهم؛ لأنّك لو كنت غنيّاً صاحب كنوز وجنان، لكان طاعتهم لك للدنيا، أو: ممزوجة بالدنيا، فإنما بعثناك فقيراً؛ لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلى به، أو: بمن يصبر، ويجزع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ۝٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٢٢﴾

٢١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ﴾ لا يأملون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير؛ لأنّهم كفرة لا يؤمنون بالبعث، أو: لا يخافون عقابنا إمّا لأنّ الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف، أو: لأنّ الرجاء في لغة تهامة الخوف ﴿لَوۡلَآ﴾ هلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رسلاً دون البشر، أو: شهوداً على نبوّته، ودعوى رسالته ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جهرة، فيخبرنا برسالته، واتّباعه ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: أضمروا الاستكبار عن الحقّ، وهو: الكفر، والعناد في قلوبهم ﴿وَعَتَوۡ﴾ وتجاوزوا الحدّ في الظلم ﴿عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ وصف العتوّ بالكبر، فبالغ في إفراطه، أي: إنّهم لم يجسروا على هذا القول العظيم، إلاّ أنّهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتوّ. واللام جواب قسم محذوف.

٢٢ ـ ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: يوم الموت، أو: يوم البعث و﴿يوم﴾ منصوب بما دلّ عليه ﴿لَا بُشۡرَىٰ﴾، أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى. وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ مؤكّد لـ: ﴿يوم يرون﴾. أو: بإضمار اذكر، أي: اذكر ﴿يوم يرون الملائكة﴾ ثم أخبر فقال: ﴿لا بشرى﴾ بالجنة ﴿يومئذ﴾. ولا ينتصب بـ﴿يرون﴾؛ لأنّ المضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا بـ: ﴿بشرى﴾ لأنّها مصدر، والمصدر لا يعمل فيما قبله؛ ولأنّ المنفيّ بـ«لا» لا يعمل فيما قبل لا ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ظاهر في موضع ضمير، أو: عامّ تناولهم بعمومه. وهم الذين اجترموا[1] الذنوب. والمراد: الكافرون؛ لأنّ مطلق الأسماء يتناول أكمل المسمّيات ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ حراماً محرّماً عليكم البشرى، أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنّما البشرى للمؤمنين. والحِجْرُ: مصدر. والكسر والفتح لغتان. وقرىء بهما. وهو: من حجره: إذا منعه، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها.

---

(١) «اجترموا»: اكتسبوا وارتكبوا.

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ

و﴿محجوراً﴾ لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا: موت مائت.

٢٣ ـ ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الآية، هو صفة لـ: ﴿هباءً﴾، ولا قدوم هنا. ولكن مُثِّلَتْ حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه، وعصاه، فقدم إلى أشيائه، وقصد إلى ما تحت يديه فأفسدها، ومزّقها كلّ ممزّق. ولم يترك لها أثراً. والهباء: ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس، شبّه بالغبار. والمنثور: المفرّق. وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع، ولا يقع به الانتفاع. ثمّ بيّن فضل أهل الجنة على أهل النار، فقال:

٢٤ ـ ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ تمييز. والمستقرّ: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون، ويتحادثون ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم. ولا نوم في الجنّة، ولكنّه سمّي مكان استراحتهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه. ورُوي أنّه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار. وفي لفظ: «الأحسن» تهكّم به.

٢٥ ـ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ والأصل: تتشقق، فحذف التاء: كوفيّ، وأبو عمرو. وغيرهم: أدغمها في الشين ﴿ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ لمّا كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام، كأنّه الذي تنشقُّ به السماء، كما تقول: شقَّ السنام بالشفرة، وانشقَّ بها ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ (ونُنْزِلُ): مكيّ. و﴿تنزيلاً﴾ على هذا مصدر من غير لفظ الفعل، والمعنى: أنّ السماء تنفتح بغمام أبيض يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون، وفي أيديهم صحائف أعمال العباد.

٢٦ ـ ﴿ ٱلْمُلْكُ ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعته. ومعناه: الثابت؛

لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ

لأنّ كلّ مُلْكٍ يزول يومئذ، ولا يبقى إلاّ ملكه ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبره ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً. يقال: عَسُرَ عليه، فهو عَسير وعَسِر. ويفهم منه: يسره على المؤمنين. ففي الحديث: «يهون يوم القيامة على المؤمنين حتّى يكون عليهم أخفّ من صلاة مكتوبة صلّوها في الدنيا»[1].

٢٧ ـ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عضّ اليدين كناية عن الغيظ والحسرة؛ لأنّه من روادفهما، فتذكر الرادفة، ويدلّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجده عند لفظ المكنىّ عنه. واللام في ﴿الظالم﴾ للعهد. وأُريد به عُقبة لما تبيّن. أو: للجنس فيتناول عُقبة وغيره من الكفّار ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ الرَّسُولِ﴾ محمّد عليه الصلاة والسلام ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة، والجنّة، وهو: الإيمان.

٢٨ ـ ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ وقرىء ﴿يا ويلتي﴾ بالياء، وهو الأصل؛ لأنّ الرجل ينادي ويلته ـ وهي: هُلْكته ـ يقول لها: تعالي فهذا أوانك. وإنما قلبت الياء ألفاً كما في: صحارى، ومدارى ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ فلان كناية عن الأعلام، فإن أريد الظالم عُتبة؛ لما رُوي: أنه اتّخذ ضيافة، فدعا إليها رسول الله ﷺ، فأبى أن يأكل من طعامه حتّى ينطق بالشهادتين، ففعل، فقال له أبيّ بن خلف ـ وهو خليله ـ: وجهي من وجهك حرام إلاّ أن ترجع، فارتدّ؛ فالمعنى: ليتني لم أتخذ أُبيّاً خليلاً، فكنى عن اسمه. وإن أريد به الجنس، فكلّ من اتّخذ من المضلّين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعل كناية عنه. وقيل: هو كناية عن الشيطان.

٢٩ ـ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله، أو: القرآن، أو: الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ من الله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ ـ أي: خليله. سمّاه شيطاناً؛

(١) رواه أحمد (٣ / ٧٥) وأبو يعلى (١٣٩٠).

لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ

لأنّه أضلّه كما يضلّه الشيطان. أو: إبليس؛ لأنّه الذي حمله على مخالّة المضلّ، ومخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولًا﴾ هو مبالغة من الخذلان، أي: من عادته ترك من يواليه. وهذا حكاية كلام الله تعالى، أو: كلام الظالم.

٣٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: محمد ﷺ في الدنيا: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشاً ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ متروكاً، أي: تركوه، ولم يؤمنوا به، من: الهجران. وهو مفعول ثان لـ: ﴿اتخذوا﴾. وفي هذا تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه؛ لأنّ الأنبياء إذا شكوا إليه قومهم، حلّ بهم العذاب، ولم يُنظَروا.

٣١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: كذلك كان كلّ نبيّ قبلك مبتلى بعداوة قومه، وكفاك بي هادياً إلى طريق قهرهم، والانتصار منهم، وناصراً لك عليهم. والعدوّ يجوز أن يكون واحداً وجمعاً. والباء زائدة، أي: وكفى ربّك هادياً. وهو تمييز.

٣٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قريش، أو: اليهود ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ حال من القرآن، أي: مجتمعاً، يعني: هلاّ أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفاريق؟! وهذا فضول من القول، ومماراة بما لا طائل تحته؛ لأنّ أمر الإعجاز، والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة، أو: مفرّقاً، و﴿نزل﴾ ـ هنا ـ بمعنى: أنزل، وإلا كان متدافعاً بدليل: ﴿جُمْلَةً واحدة﴾ وهذا اعتراض فاسدٌ؛ لأنّهم تحدُّوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم حتّى لاذوا بالمناصبة، وفزعوا إلى المحاربة، وبذلوا المهج، وما مالوا إلى الحجج ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جواب لهم، أي: كذلك أنزل مفرّقاً في عشرين سنة، أو: في ثلاث وعشرين. وذلك في ﴿كذلك﴾ إشارة إلى مدلول قوله: ﴿لولا نزّل عليه القرآن جملة﴾ لأنّ معناه:

لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ

لم أنزل عليك القرآن مفرّقاً؟ فأعلم أنّ ذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لِنُقَوّي بتفريقه ﴿فؤادك﴾ حتّى تعيه، وتحفظه؛ لأنّ المتلقن إنّما يقوى قلبه على حِفْظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقيب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه. أو: لنثبّت فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول، وتتابع الرسول؛ لأنّ قلب المحبّ يسكن بتواصل كتب المحبوب ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ معطوف على الفعل الذي تعلّق به ﴿كذلك﴾ كأنّه قال: كذلك فرّقناه، ورتّلناه، أي: قدّرناه آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة، أو: أمرنا بترتيل قراءته. وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] أي: اقرأه بترسّل، وتثبّت، أو: بيّناه تبييناً، والترتيل: التبيين في ترسّل، وتثبّت.

٣٣ ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة، كأنّه مثل في البطلان، ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ إلاّ أتيناك بالجواب الحقّ الذي لا محيد عنه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن معنى، ومؤدّىً من مثلهم، أي: من سؤالهم. وإنما حذف من مثلهم؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه، كما لو قلت: رأيت زيداً وعمراً، وكان عمر أحسن وجهاً. فيه دليلٌ على أنّك تريد: من زيد. ولمّا كان التفسير هو التكشيف عما يدلّ عليه الكلام، وُضِعَ موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قيل: معناه: كذا وكذا. أولا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: ﴿هلاّ أنزل عليك القرآن جملة﴾ إلاّ أعطيناك من الأحوال ما يحقّ لك في حكمتنا أن تعطاه، وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه، ودلالة على صحّته، يعني: أنّ تنزيله مفرّقاً، وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلّما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز من أن ينزل كلّه جملة.

٣٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ﴾ ﴿الذين﴾: مبتدأ، و﴿أولئك﴾ مبتدأ ثان، و﴿شرّ﴾ خبر ﴿أولئك﴾. و﴿أولئك﴾ مع ﴿شرّ﴾ خبر ﴿الذين﴾. أو: التقدير: هم ﴿الذين﴾، أو: أعني ﴿الذين﴾. و﴿أولئك﴾

﴿مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾

مستأنف ﴿مَّكَانًا﴾ أي: مكانة، ومنزلة، أو: مسكناً، ومنزلاً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وأخطأ طريقاً، وهو من الإسناد المجازيّ. والمعنى: أنّ حاملكم على هذه السؤالات أنّكم تضلّون سبيله، وتحتقرون مكانه، ومنزلته. ولو نظرتم بعين الإنصاف، وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنّم، لعلمتم أنّ مكانكم شرّ من مكانه، وسبيلكم أضلّ من سبيله. وفي طريقته قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية. وعن النبيّ ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث أصناف: صنف على الدواب، وصنف على أرجلهم، وصنف على وجوههم». قيل: يا رسول الله! كيف يمشون على وجوههم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الذي مشّاهم على أقدامهم، يُمَشّيهم على وجوههم»(١).

٣٥ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، كما آتيناك القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بدل، أو: عطف بيان ﴿وَزِيرًا﴾ وهو في اللغة: من يرجع إليه، ويُتَحَصَّن برأيه، من: الوَزَر، وهو: الملجأ. والوزارة لا تنافي النبوّة، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويؤمرون بأن يؤازر بعضهم بعضاً.

٣٦ ـ ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: فرعون، وقومه. وتقديره: فذهبا إليهم، وأنذرا فكذّبوهما ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ التدمير: الإهلاك بأمر عجيب. أراد اختصار القصّة، فذكر أوّلها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصّة، أعني: إلزام الحجة ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم.

٣٧ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿وَ﴾ دمّرنا ﴿قوم نوح﴾ ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني: نوحاً، وإدريس، وشيثاً ـ عليهم السلام ـ أو: كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم، أو:

(١) رواه أحمد (٢ / ٣٦٣) والترمذي (٣١٤٢).

لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لقوم نوح ـ عليه السلام ـ وأصله: وأعتدنا لهم، إلاّ أنّه أراد تظليمهم فأظهر، أو: هو عامّ لكلّ من ظلم ظلم شرك ويتناولهم بعمومه ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: النار.

٣٨ ـ ﴿وَعَادًا﴾ أي: ﴿و﴾ دمّرنا ﴿عاداً﴾ ﴿وَثَمُودَا۟﴾ حمزة، وحفص، على تأويل القبيلة، وغيرهما ﴿وثموداً﴾ على تأويل الحيّ، أو: لأنّه اسم الأب الأكبر ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم شعيب. كانوا يعبدون الأصنام، وكذّبوا شعيباً، فبينا هم حول الرسّ ـ وهي: البئر غير المطويّة ـ انهارت بهم، فخسف بهم وبديارهم. وقيل: الرسّ: قرية قتلوا نبيّهم فهلكوا. أو: هم أصحاب الأخدود. والرس: الأخدود ﴿وَقُرُونًۢا﴾ وأهلكنا أمماً ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمها إلاّ الله، أرسل إليهم الرسل، فكذّبوهم، فأهلكوا.

٣٩ ـ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ بيّنا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا إهلاكاً. ﴿وكلاً﴾ الأوّل منصوب بما دلّ عليه: ﴿ضربنا له الأمثال﴾ وهو أنذرنا، أو: حذّرنا. والثاني بـ﴿تبّرنا﴾؛ لأنه فارغ له.

٤٠ ـ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ يعني: أهل مكة ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ سدوم ـ وهي: أعظم قرى قوم لوط، وكانت خمساً، أهلك الله أربعاً مع أهلها، وبقيت واحدة ـ ﴿ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: أمطر الله عليها الحجارة، يعني: أنّ قريشاً مرّوا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشأم على تلك القرية؛ التي أهلكت بالحجارة من السماء. و﴿مطر السوء﴾ مفعول ثان. والأصل: أمطرت القرية مطراً، أو: مصدر محذوف الزوائد، أي: إمطار السوء ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ أما شاهدوا ذلك بأبصارهم عند سفرهم إلى الشام فيتفكرون فيؤمنون؟ ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ بل كانوا قوماً كفرة بالبعث، لا يخافون بعثاً فلا يؤمنون، أو:

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون؛ لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم.

٤١ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ﴿إن﴾ نافية. ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ اتخذه هزؤاً في معنى: استهزأ به. والأصل: اتخذه موضع هزؤ، أو: مهزوءاً به ﴿أَهَٰذَا﴾ محكيّ بعد القول المضمر. و﴿هذا﴾ استصغار، واستهزاء. أي: قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾. والمحذوف حال. والعائد إلى ﴿الذي﴾ محذوف، أي: بعثه.

٤٢ ـ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ﴿إن﴾: مخفّفة من الثقيلة، واللام فارقة. وهو دليلٌ على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وعرض المعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم، واستمساكهم بعبادة آلهتهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ هو وعيدٌ ودلالة على أنهم لا يفوتونه، وإن طالت مدّة الإمهال ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هو كالجواب عن قولهم: ﴿إن كاد ليضلّنا﴾ لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال؛ إذ لا يضل غيره إلاّ من هو ضالّ في نفسه.

٤٣ ـ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أيّ: من أطاع هواه فيما يأتي، ويذر، فهو عابد هواه، وجاعله إلهه. فيقول الله تعالى لرسوله، هذا الذي لا يرى معبوداً إلاّ هواه: كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى؟ يُروى: أنّ الواحد من أهل الجاهليّة كان يعبد الحجر، فإذا مرّ بحجر أحسن منه ترك الأوّل، وعبد الثاني. وعن الحسن: هو في كلّ متبّع هواه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظاً تحفظه من متابعة هواه، وعبادة ما يهواه. أو: ﴿أفأنت تكون عليه﴾ موكّلاً فتصرفه عن الهوى إلى الهدى، عرّفه: أنّ إليه التبليغ فقط.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا

٤٤ ـ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿أم﴾: منقطعة، معناه: بل أتحسب كأنّ هذه المذمّة أشدّ من التي تقدّمتها حتّى حُقَّت بالإضراب عنها إليها، وهي: كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ لأنّهم لا يلقون إلى استماع الحقّ أذناً، ولا إلى تدبّره عقلاً، ومشبّهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة، والضلالة. فقد ركبهم الشيطان بالاستذلال؛ لتركهم الاستدلال. ثمّ هم أرجح ضلالة منها؛ لأنّ الأنعامَ تسبّح ربها، وتسجد له، وتطيع من يعلفها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرّها، وتهتدي لمراعيها، ومشاربها. وهؤلاء لا ينقادون لربّهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان؛ الذي هو عدوّهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتّقون العقاب الذي هو أشدّ المضارّ والمهالك، ولا يهتدون للحقّ الذي هو المَشْرَعُ الهنيّ، والعذب الرويّ. فقالوا: للملائكة روح وعقل، وللبهائم نفس وهوى. والآدمي مجمع الكلّ ابتلاء. فإن غلبته النفس والهوى فَضلته الأنعام، وإن غلبه الروح والعقل فضَل الملائكة الكرام. وإنّما ذكر الأكثر؛ لأنّ فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا حبّ الرياسة، وكفى به داء عضالاً، ولأنّ فيهم مَن آمن.

٤٥ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنع ربّك، وقدرته ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: بسطه فعمّ الأرض. وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس في قول الجمهور، لأنّه ظلّ ممدود لا شمس معه، ولا ظلمة. وهو كما قال في ظلّ الجنّة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لا شمس معه، ولا ظلمة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً لا يزول، ولا تذهبه الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ على الظلّ ﴿دَلِيلًا﴾ لأنّه بالشمس يعرف الظلّ، ولولا الشمس لما عرف الظلّ، فالأشياء تُعرف بأضدادها.

٤٦ ـ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي: أخذنا ذلك الظلّ الممدود ﴿إِلَيْنَا﴾ إلى حيث أردنا

قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً غير عسير. أو: قليلاً قليلاً، أي: جزءاً فجزءاً بالشمس التي تأتي عليه. وجاء بـ: «ثمّ» لتفاضل ما بين الأمور، فكأنّ الثاني أعظم من الأوّل، والثالث أعظم من الثاني. شبّه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت.

٤٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم. والسبت: القطع. والنائم مسبوت؛ لأنّه انقطع عمله، وحركته. وقيل: السبات: الموت، والمسبوت: الميّت؛ لأنّه مقطوع الحياة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ويعضده ذكر النشور في مقابلته ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ إذ النشور: انبعاث من النوم، كنشور الميت. أو: ينشر فيه الخلق للمعاش. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأنّ في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية، ودنيويّة، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر. وقال لقمان لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

٤٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الريح﴾: مكيّ. والمراد به الجنس ﴿بُشْرًۢا﴾ تخفيف بُشُر، جمع: بشور. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قدّام المطر، لأنّه ريح، ثمّ سحاب، ثمّ مطر. وهذه استعارة مليحة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿طَهُورًا﴾ بليغاً في طهارته. والطهور صفة، كقولك: ماءً طهوراً أي: طاهر. واسم كقولك لما يتطهر به: طهور، كالوضوء، والوقود، لما يتوضأ به، وتوقد به النار. ومصدر بمعنى: التطهّر، كقولك: تطهرت طهوراً حسناً. ومنه قوله ﷺ: «لا صلاة إلاّ بطهور»[1] أي: بطهارة. وما حُكي عن ثعلب: هو

---

(١) رواه الترمذي (١) بلفظ: «لا تقبل صلاة بغير طهور».

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾

ما كان طاهراً في نفسه، مطهّراً لغيره. وهو مذهب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ إن كان هذا زيادة بيان لطهارته فحسن. ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]. وإلاّ فليس فعول من التفعيل في شيء. وقياسه على ما هو مشتقّ من الأفعال المتعدّية، كقطوع ومنوع، غير سديد؛ لأنّ بناء المفعول للمبالغة، فإن كان الفعل متعدّياً فالمفعول متعدّ، وإن كان لازماً فلازم.

٤٩ ـ ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾ بالمطر. ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذكّر ﴿ميتاً﴾ على إرادة البلد، أو: المكان ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: ونسقي الماء البهائم والناس. و﴿مّما خلقنا﴾: حال من: ﴿أنعاماً وأناسيّ﴾ أي: أنعاماً وأناسيّ ممّا خلقنا. وسقى وأسقى لغتان. وقرأ المفضّل والبرجميّ: ﴿ونَسقيه﴾. والأناسيّ: جمع إنسيّ على القياس، ككرسيّ وكراسيّ، أو: إنسان، وأصله: أناسين، كسرحان وسراحين، فأبدلت النون ياء، وأدغمت. وقدّم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسيّ؛ لأنّ حياتها سبب لحياتهما، فَقُدِّم ما هو سبب حياتهما على سقيهما. وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب؛ لأنّ عامّة منافع الأناسيّ متعلّقة بها، فكأنّ الإنعام بسقي الأنعام كالإنعام بسقيهم. وتنكير الأنعام والأناسيّ ووصفها بالكثرة؛ لأنّ أكثر الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار، فيهم غنية عن سقي السماء. وأعقابهم ـ وهم كثير ـ يعيشون بماءٍ ينزله الله من رحمته. وتنكير البلدة لأنّه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظانّ الماء. ولمّا كان سقي الأناسيّ من جملة ما أنزل له الماء، وصفه بالطهور إكراماً لهم، وبياناً: أنّ من حقّهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم؛ لأنّ الطهوريّة شرط للإحياء.

٥٠ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾: ﴿لِيَذْكُروا﴾ حمزة، وعليّ. يريد: ولقد صرّفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل، وهو ذكر إنشاء السحاب، وإنزال القطر، ليتفكّروا، ويعتبروا، ويعرفوا حق النعمة

فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾

فيه ويشكروا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ فأبى أكثرهم إلاّ كفران النعمة، وجحودها، وقلّة الاكتراث لها. أو: صرّفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة، والأوقات المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل، وطلّ، وجَوْد، ورذاذ، وديمة، فأبوا إلاّ الكفران، وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما من عام أقل مطراً من عام، ولكن الله يُصَرِّفُه حيث يشاء. وقرأ الآية. ورُوي: أنّ الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كلّ عام؛ لأنّه لا يختلف، ولكن يختلف فيه البلاد. وينتزع من هنا جواب في تنكير البلدة، والأنعام، والأناسيّ. ومن نسب الأمطار إلى الأنواء، وجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله تعالى: كفَر، وإن رأى أنّ الله تعالى خالقها وقد نصب الأنواء أمارات، ودلالات عليها: لم يكفر.

٥١، ٥٢ ـ ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ☆ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لو شئنا لخفّفنا عنك أعباء نِذارة جميع القرى، ولبعثنا في كلّ قرية نبيّاً ينذرها، ولكن شئنا أن نجمع لك فضائلَ جميع المرسلين بالرسالة إلى كافّة العالمين، فقصرنا الأمر عليك، وعظّمناك به، فتكون وحدك ككلّهم ـ ولذا خوطب بالجمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] فقابل ذلك بالشكر، والتشدّد، والتصبُّر، ولا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم، ومداهنتهم. وكما آثرتك على جميع الأنبياء، فآثر رضائي على جميع الأهواء. وأريد بهذا تهييجه، وتهييج المؤمنين، وتحريكهم ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ بالله، يعني: بعونه وتوفيقه ـ أو: بالقرآن، أي: جادلهم به، وقرّعهم بالعجز عنه ـ ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ عظيماً موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاقّ. ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿به﴾ إلى مادلّ عليه ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥١] من كونه نذير كافّة القرى؛ لأنّه لو بعث في كلّ قرية نذيراً لوجب على كلّ نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات، فكبر جهاده من أجل ذلك، وعظم. فقال له: ﴿وجاهدهم﴾ بسبب كونك نذير كافّة القرى ﴿جهاداً كبيراً﴾ جامعاً لكلّ مجاهدة.

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ

---

٥٣ ـ ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ خلّاهما متجاورين، متلاصقين. تقول: مرجت الدابة: إذا خلّيتها ترعى، وسمّى الماءين الكثيرين الواسعين: بحرين ﴿هَٰذَا﴾ أي: أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ صفة لـ: ﴿عذب﴾، أي: شديد العذوبة حتى يقرب إلى الحلاوة ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ صفة لـ: ﴿ملح﴾، أي: شديد الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حائلاً من قدرته يفصل بينهما، ويمنعهما التمازج، فهما في الظاهر مختلطان، وفي الحقيقة منفصلان ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وستراً ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

٥٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: النطفة ﴿بَشَرًا﴾ إنساناً ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أراد تقسيم البشر قسمين: ذوي نسب، أي: ذكوراً ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر، أي: إناثاً يصاهر بهنّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩] ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين: ذكراً وأنثى. وقيل: ﴿فجعله نسباً﴾ أي: قرابة ﴿وصهراً﴾ مصاهرة، يعني: الوُصْلَة بالنكاح. منَّ بالأنساب؛ لأنّ التواصلَ يقعُ بها، وبالمصاهرة؛ لأن التوالد يكون بهما.

٥٥ ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ على معصية ربّه ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً ومظاهراً. وفعيل بمعنى مفاعل، غير عزيز. والظهير والمظاهر، كالعوين والمعاون. والمظاهرة: المعاونة. والمعنى: أنّ الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الرحمن.

٥٦ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ منذراً للكافرين.

٥٧ ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ مثاله ﴿إِلَّا مَن شَآءَ

أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ

أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ والمراد إلا فعل من شاء، واستثناؤه من الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت، إلاّ أن تحفظ هذا المال، ولا تضيعه. فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوّره بصورة الثواب كأنّه يقول: إنَّ حفظك مالك بمنزلة الثواب لي، ورضائي به كرضا المثاب بالثواب. ولعمري إنّه عليه الصلاة والسلام مع أمّته بهذا الصدد. ومعنى اتّخاذهم إلى الله سبيلاً: تقرّبهم إليه بالإيمان، والطاعة، أو: بالصدقة، والنفقة. وقيل: المراد لكن ﴿من شاء أن يتّخذ﴾ بالإنفاق ﴿إلى﴾ رضا ﴿ربّه سبيلاً﴾ فليفعل. وقيل: تقديره: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلاّ اتّخاذ المدعوّ سبيلاً إلى ربّه بطاعته، فذلك أجري؛ لأنّ الله يأجرني عليه.

٥٨ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ اتخذ من لا يموت وكيلاً، لا يكلك إلى من يموت ذليلاً، يعني: ثق به، وأسند أمرك إليه في استكفاء شرورهم، ولا تتكّل على حيّ يموت. وقرأها بعض الصالحين فقال: لا يصحّ لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق. والتوكّل: الاعتماد عليه في كلّ أمر ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزِّهه عن أن يكل إلى غيره مَن توكلّ عليه ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بتوفيقه الذي يوجب الحمد، أو: قل: سبحان الله وبحمده. أو: نزّهه عن كلّ العيوب بثناءٍ تثني عليه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: كفى الله خبيراً بذنوب عباده، يعني: أنّه خبير بأحوالهم، كاف في جزاء أعمالهم.

٥٩ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مدّة مقدارها هذه المدّة؛ لأنّه لم يكن حينئذ ليل ونهار. وعن مجاهد: أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة. وإنّما خلقها في ستّة أيّام، وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة، تعليماً لخلقه الرفق، والتثبيت ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: هو ﴿الرحمن﴾. فالرحمن: خبر مبتدأ محذوف، أو: بدل من الضمير في ﴿استوى﴾،

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾

أو: ﴿الذي خلق﴾: مبتدأ، و﴿الرحمن﴾: خبره ﴿فَسْـَٔلْ﴾ وبلا همزة: مكيّ، وعليّ ﴿بِهِۦ﴾ صلة ﴿سل﴾، كقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] كما تكون «عن» صلته في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] فسأل به، كقولك: اهتم به، واشتغل به، وسأل عنه، كقولك: بحث عنه، وفتّش عنه. أو: صلة ﴿خَبِيرًا﴾ ويكون ﴿خبيراً﴾ مفعول ﴿سل﴾، أي: ﴿فاسأل﴾ عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته، أو: ﴿فاسأل﴾ رجلاً ﴿خبيراً﴾ به، وبرحمته. أو: الرحمن: اسم من أسماء الله تعالى مذكور في الكتب المتقدمة، ولم يكونوا يعرفونه، فقيل: فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتّى تعرف من ينكره. ومن ثم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلاّ الذي باليمامة، يعنون: مسيلمة، وكان يقال له: رحمان اليمامة.

٦٠ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: إذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ صلّوا لله، واخضعوا له ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرف الرحمن فنسجد له. فهذا سؤال عن المسمّى به؛ لأنّهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بـ: «ما»، أو: عن معناه؛ لأنّه لم يكن مستعملاً في كلامهم، كما استعمل الرحيم، والراحم، والرحوم ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ للذي تأمرنا بالسجود له، أو: لأمرك بالسجود يا محمد من غير علم منّا به. ﴿يأمرنا﴾: عليّ وحمزة، كأنّ بعضهم قال لبعض: ﴿أنسجد لما يأمرنا﴾ محمد، أو: ﴿يأمرنا﴾ المسمّى بالرحمن، ولا نعرف ما هو؟ وقد عاندوا؛ لأنّ معناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة؛ لأنّ فعلان من أبنية المبالغة، تقول: رجل عطشان؛ إذا كان في نهاية العطش ﴿وَزَادَهُمْ﴾ قوله: ﴿اسجدوا للرحمن﴾ ﴿نُفُورًا ۩﴾ تباعداً عن الإيمان.

٦١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي منازل الكواكب السبعة السيارة، لكلّ كوكب بيتان يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت، وللقمر بيت. فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾

عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع، فيصيب كلّ واحد منها ثلاثة بروج: فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. سمّيت بالبروج التي هي القصور العالية؛ لأنّها لهذه الكواكب كالمنازل لسكّانها. واشتقاق البروج من التبرّج؛ لظهوره. وعنه قال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج: هي النجوم الكبار لظهورها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في السماء ﴿سِرَاجًا﴾ يعني: الشمس لتوقّدها. ﴿سُرُجاً﴾: حمزة، وعليّ، أي: نجوماً ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل.

٦٢ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ فعلة، من: خلف، كالرِّكبة من: ركب. وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر، والمعنى: جعلهما ذَوَيْ خلفة، يخلف أحدهما الآخر عند مضيه، أو: يخلفه في قضاء ما، فإنّه من الورد ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ يتدبّر في تسخيرهما، واختلافهما، فيعرف مدبّرهما. ﴿يذكُر﴾: حمزة، وخلف، أي: يذكر الله. أو: المنسيّ فيقضي ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: يشكر نعمة ربّه عليه فيهما.

٦٣ ـ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾. أو: ﴿أولئك يجزون﴾ و﴿الذين يمشون﴾ وما بعدهما: صفة. والإضافة إلى ﴿الرحمن﴾ للتخصيص والتفضيل. وصف أولياءه بعد ما وصف أعداءه ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ حال، أو: صفة للمشي، أي: هيّنين، أو: مشياً هيّناً. والهون: الرفق، واللين، أي: يمشون بسكينة، ووقار، وتواضع، دون مرح، واختيال، وتكبّر، فلا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشَراً وبَطراً؛ ولذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق، ولقوله: ﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ سداداً من القول

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟

يسلمون فيه من الإيذاء، والإثم، أو: تسلّماً منكم نتارككم، ولا نجاهلكم، فأقيم السلام مقام التسليم. وقيل: نسختها آية القتال، ولا حاجة إلى ذلك، فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة. هذا وصف نهارهم. ثمّ وصف ليلهم بقوله:

٦٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ جمع ساجد ﴿وَقِيَٰمًا﴾ جمع قائم. فالبيتوتة خلاف الظلول، وهي: أن يدركك الليل نمت أو لم تنم. وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة، وإن قلّ، فقد بات ساجداً وقائماً. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء. والظاهر: أنّه وصف لهم بإحياء الليل، أو: أكثره.

٦٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ هلاكاً لازماً. ومنه: الغريم؛ لملازمته. وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثمّ عقّبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنّهم مع اجتهادهم خائفون، مبتهلون، متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم.

٦٦ ـ ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: إنّ جهنّم. و﴿ساءت﴾ في حكم بئست، وفيها ضمير مبهم يفسّره ﴿مستقراً﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف، معناه: ﴿ساءت مستقراً ومقاماً﴾ هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم «إنّ» وجعلها خبراً لها. أو: بمعنى: أحزنت، وفيها ضمير اسم «إنّ» و ﴿مستقراً﴾ حال، أو: تمييز. ويصح أن يكون التعليلان متداخلين، ومترادفين، وأن يكونا من كلام الله تعالى، وحكاية لقولهم.

٦٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ لم يجاوزوا الحدّ في النفقة، أو: لم يأكلوا للتنعم، ولم يلبسوا للتصلّف. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم ينفقوا في المعاصي. فالإسراف مجاوزة حد الأمر، لا مجاوزة القدْر. وسمع رجلٌ رجلاً

وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ

يقول: لا خيرَ في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير. وقال ﷺ: «من منع حقاً فقد قتّر، ومن أعطى في غير حقّ فقد أسرف ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بضم التاء: كوفيّ. وبضم الياء وكسر التاء: مدنيّ، وشاميّ. وبفتح الياء وكسر التاء: مكيّ، وبصريّ. والقتَر، والإقتار، والتقتير: التضييق؛ الذي هو نقيض الإسراف ﴿وَكَانَ﴾ أي: إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإسراف، والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ عدلاً بينهما. فالقوام: العدل بين الشيئين، والمنصوبان أي: ﴿بين ذلك قواماً﴾ خبران. وصفهم بالقصد؛ الذي هو بين الغلوّ والتقصير. وبمثله أُمِر عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] الآية. وسأل عبدُ الملك بن مروان عمرَ بن عبد العزيز عن نفقته حين زوّجه ابنته. فقال: الحسنة بين السَّيِّئتين، فعرف عبد الملك أنّه أراد ما في هذه الآية. وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة، ولكن لسدّ الجَوْعة، وستر العورة، ودفع الحَرِّ والقُرِّ. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كفى سرفاً ألاّ يشتهي رجلٌ شيئاً إلا أكله.

٦٨ ـ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: لا يشركون ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حرّمها، يعني: حرّم قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بقودَ، أو: رجم، أو: ردّة، أو: شرك، أو: سعي في الأرض بالفساد. وهو متعلق بالقتل المحذوف، أو: بـ:لا يقتلون ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونفي هذه الكبائر عن عباده الصالحين، تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم، كأنّه قيل: والذين طهّرهم الله مما أنتم عليه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء الإثم.

٦٩ ـ ﴿يُضَاعَفْ﴾ بدل من ﴿يلق﴾ لأنّهما في معنى واحد؛ إذ مضاعفة العذاب هي لُقِيُّ الآثام، كقوله:

لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ

متى تَأتِنا تُلْمِمْ بنا في دِيارِنا تجِدْ حَطَباً جزْلاً وناراً تأجَّجا[1]

فجزم «تلمم» لأنّه بمعنى تأتنا؛ إذ الإتيان هو الإلمام ﴿يُضَعَّفْ﴾: مكيّ، ويزيد، ويعقوب ﴿يُضَعَّفُ﴾: شاميّ ﴿يُضَاعَفُ﴾: أبو بكر على الاستئناف، أو: على الحال. ومعنى: يضاعف ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يعذب على مرور الأيّام في الآخرة عذاباً على عذاب. وقيل: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك، عذّب على الشرك، وعلى المعاصي جميعاً، تضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه ﴿وَيَخْلُدْ﴾ جزمه جازم ﴿يضاعف﴾ ورفعه رافعه؛ لأنّه معطوف عليه ﴿فِيهِۦ﴾ في العذاب (فيهي) : مكيّ، وحفص بالإشباع. وإنّما خصّ حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة في الوعيد، والعرب تمدّ للمبالغة، مع أنّ الأصل في هاء الكناية: الإشباع ﴿مُهَانًا﴾ حال، أي: ذليلاً.

٧٠ ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك. وهو استثناء من الجنس في موضع النصب ﴿وَءَامَنَ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ بعد توبته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ أي: يوفّقهم للمحاسن بعد القبائح، أو: يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات: الإيمان والطاعة، ولم يرد به: أن السيّئة بعينها تصير حسنة، ولكن المراد ما ذكرنا. ﴿يُبْدِلُ﴾ مخفّفاً: البرجميّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يكفّر السيئات ﴿رَّحِيمًا﴾ يبدّلها بالحسنات.

٧١ ـ ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: ﴿ومن تاب﴾ وحقّق التوبة بالعمل الصالح فإنّه بذلك تائبٌ ﴿إلى الله متاباً﴾ مرضياً عنده، مكفّراً للخطايا، محصّلاً للثواب.

٧٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: الكذب، يعني: ينفرون عن محاضر الكذابين، ومجالس الخطّائين، فلا يقربونها تنزّهاً عن مخالطة الشر وأهله؛

(١) «الجزل»: الكثير العظيم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾

إذ مشاهدة الباطل شركة فيه. وكذلك النظّارة إلى ما لم تسوّغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم؛ لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا، وسبب وجود الزيادة فيه. وفي مواعظ عيسى ـ عليه السلام ـ: إيّاكم ومجالسة الخاطئين. أو: ﴿لا يشهدون﴾ شهادة ﴿الزور﴾ على حذف المضاف. وعن قتادة: المراد: مجالس الباطل. وعن ابن الحنفية: لا يشهدون اللهو، والغناء ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ بالفحش، وكلّ ما ينبغي أن يلغى، ويطرح. والمعنى: ﴿وإذا مرّوا بـ﴾ أهل ﴿اللغو﴾ والمشتغلين به ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين، مكرمين أنفسهم عن التلوّث به، كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥] وعن الباقر ـ رحمه الله ـ: إذا ذكروا الفروج كنّوا عنها.

٧٣ ـ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قرىء عليهم القرآن، أو: وُعِظوا بالقرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هذا ليس بنفي للخرور، بل هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، ونحوه: لا يلقاني زيد مُسَلِّماً، هو نفي للسلام لا للقاء، يعني: أنّهم إذا ذكّروا بها ﴿خرّوا سجّداً وبكياً﴾ سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون راعية لما أمروا به ونهوا عنه، لا كالمنافقين وأشباههم. دليلهُ قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

٧٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ ﴿مِنْ﴾: للبيان، كأنّه قيل: ﴿هب لنا﴾ قرّة أعين. ثم بينت القرّة، وفسّرت بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾. ومعناه: أن يجعلهم الله لهم ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. وهو من قولهم: رأيت منك أسداً، أي: أنت أسد. أو: للابتداء، على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة، وصلاح. ﴿وذرّيّتنا﴾ أبو عمرو، وكوفيّ غير حفص، لإرادة الجنس، وغيرهم: ﴿ذرّيّاتنا﴾ ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ إنّما نكّر لأجل تنكير القرّة؛ لأنّ المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنّه قال: هب لنا منهم

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾

سروراً، وفرحاً. وإنّما قيل: ﴿أعين﴾ على القلّة دون «عيون»، لأنّ المراد: أعين المتّقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ويجوز أن يقال في تنكير ﴿أعين﴾: إنّها أعين خاصّة، وهي: أعين المتّقين. والمعنى: أنّهم سألوا ربّهم أن يرزقهم أزواجاً، وأعقاباً عمّالاً لله تعالى، يسرّون بمكانهم، وتقرّ بهم عيونهم. وقيل: ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى. وعن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: أئمة يقتدون بنا في الدين، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، ولعدم اللبس. أو: واجعل كلّ واحد منّا إماماً. قيل: في الآية ما يدلّ على أنّ الرئاسة في الدين يجب أن تُطلب، ويرغب فيها.

٧٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي: الغرفات، وهي: العلالي في الجنّة، فوحّد اقتصاراً على الواحد الدالّ على الجنس، دليلهُ: قوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أذى الكفّار، ومجاهدتهم، وعلى الفقر، وغير ذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ ﴿ويَلْقَون﴾: كوفيّ، غير حفص ﴿تَحِيَّةً﴾ دعاء بالتعمير ﴿وَسَلَٰمًا﴾ ودعاء بالسلامة، يعني: أنّ الملائكة يحيّونهم، ويسلّمون عليهم، أو: يحيي بعضهم بعضاً، ويسلّم عليه.

٧٦ ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿حَسُنَتْ﴾ أي: الغرفة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ موضع قرار، وإقامة. وهي في مقابلة ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

٧٧ ـ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ مُتضمّنة لمعنى الاستفهام، وهي في محلّ النصب. ومعناه: ما يصنع بكم ربّي لولا دعاؤه إيّاكم إلى الإسلام، أو: لولا عبادتكم له، أي: أنّه خلقكم لعبادته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: الاعتبار عند ربّكم لعبادتكم، أو: ما يصنع

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ رسولي يا أهل مكّة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب ﴿لِزَامًا﴾ أي: ذا لزام، أو: ملازماً. وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل. وقال الضحّاك: ﴿ما يعبأ﴾: ما يبالي بمغفرتكم ﴿لولا دعاؤكم﴾ معه إلهاً آخر.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾

١ ـ ﴿طسٓمٓ﴾ و﴿طس﴾ و﴿يس﴾ و﴿حم﴾ مُمَالٌ: كوفيّ غير الأعشى، والبرجميّ، وحفص. ويُظهِر النون عند الميم: يزيد، وحمزة. وغيرهما: يدغمها.

٢ ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه، وصحّة أنه من عند الله، والمراد: به: السورة، أو: القرآن. والمعنى: آيات هذا المؤلّف من الحروف المبسوطة ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾.

٣ ـ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ قاتلٌ، و«لعلّ» للإشفاق ﴿نَّفْسَكَ﴾ من الحزن، يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو: لامتناع إيمانهم، أو: خيفة ألاّ يؤمنوا.

٤ ـ ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إيمانهم. ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دلالة واضحة ﴿فَظَلَّتْ﴾ أي: فتظلّ؛ لأنّ الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل، تقول: إن زرتني أكرمتك، أي: أكرمك، كذا قاله الزجاج ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾ رؤساؤهم، ومقدّموهم، أو: جماعاتهم. يقال: جاء عنق من الناس، لفوج منهم ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ منقادين. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت فينا وفي بني أميّة، فستكون لنا عليهم الدولة، فتذلّ لنا أعناقهم بعد صعوبة، ويلحقهم هوان بعد عزّتهم.

٥ ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: وما يجدّد لهم الله

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

بوحيه موعظة وتذكيراً، إلاّ جدّدوا إعراضاً عنه، وكفراً به.

٦ ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ محمّداً ﷺ فيما أتاهم به ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فسيعلمون ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ أخبار ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وهذا وعيدٌ لهم، وإنذار بأنّهم سيعلمون إذا مسّهم عذاب الله يوم بدر، ويوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله؛ التي كانت خافية عليهم.

٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا﴾ ﴿كم﴾: نصب بأنبتنا ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود، كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام، كالرجل الكريم الذي نفعه عامّ. وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة: أنّ كلمة «كلّ» تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و«كم» تدلّ على أنّ هذا المحيط متكاثر، مفرط الكثرة. وبه نبّه على كمال قدرته.

٨، ٩ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إنّ في إنبات تلك الأصناف لآية على أنّ منبتها قادر على أحياء الموتى، وقد علم الله أنّ أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مَرْجُوِ إيمانهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن آمن منهم. ووحّد آية مع الإخبار بكثرتها؛ لأنّ ذلك مُشار به إلى مصدر أنبتنا، أو: المراد إنّ في كلّ واحد من تلك الأزواج لآية أيّ آية.

١٠، ١١ ـ ﴿وَإِذْ﴾ مفعول به، أي: اذكر إذ ﴿نَادَىٰ﴾ دعا ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ﴾ «أن» بمعنى: أي ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، وبني إسرائيل بالاستعباد، وذبح الأولاد. سجّل عليهم بالظلم، ثم عطف ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عليهم عطف البيان، كأنّ معنى ﴿القوم الظالمين﴾ وترجمته: ﴿قوم فرعون﴾ وكأنّهما عبارتان تعتقبان على مؤدّىً واحد ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي: ائتهم زاجراً، فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حثّ وإغراء، ويحتمل أنّه حال من الضمير في ﴿الظالمين﴾ أي: يظلمون غير متقين الله، وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

١٢، ١٣ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الخوف: غمّ يلحق الإنسان لأمر سيقع ﴿أَن يُكَذِّبُونِ ☆ وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ بتكذيبهم إيّاي. مستأنف، أو: عطف على ﴿أخاف﴾ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأن تغلبني الحميّة على ما أرى من المحال، وأسمع من الجدال. وبنصبهما يعقوب عطفاً على ﴿يكذّبون﴾. فالخوف متعلّق بهذه الثلاثة على هذا التقدير، وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي: أرسل إليه جبريل، واجعله نبيّاً يعينني على الرسالة. وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبيّاً بالشام، ولم يكن هذا الالتماس من موسى ـ عليه السلام ـ توقّفاً في الامتثال بل التماس عون في تبليغ الرسالة. وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر وكفى بطلب العون دليلاً على التقبّل، لا على التعلّل.

١٤ ـ ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ أي: تبعة ذنب بقتل القبطيّ، فحذف المضاف، أو: سمّى تبعة الذنب ذنباً كما يُسَمَّى جزاء السيّئة سيّئة ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أن يقتلوني به قصاصاً. وليس هذا تعلّلاً أيضاً بل استدفاع للبليّة المتوقعة، وفَرَقٌ من أن يقتل قبل أداء الرسالة؛ ولذا وعده بالكلاءة، والدفع بكلمة الردع. وجمع له الاستجابتين معاً في قوله:

١٥ ـ ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا﴾ لأنّه استدفعه بلاءهم، فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف. والتمس منه رسالة أخيه، فأجابه بقوله: ﴿اذهبا﴾ أي: جعلته رسولاً معك ﴿فاذهبا﴾. وعُطِف ﴿فاذهبا﴾ على الفعل الذي يدلّ عليه ﴿كلّا﴾، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنّ، فاذهب أنت وهارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع آياتنا، وهي: اليد، والعصا، وغير ذلك ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ أي: معكما بالعون والنصرة، ومع من أرسلتما إليه بالعلم، والقدرة ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ خبر لـ: «إنَّ» و﴿معكم﴾ لغو. أو: هما خبران، أي: سامعون. فالاستماع في غير هذا: الإصغاء للسماع. يقال: استمع إلى حديثه، أي: أصغى إليه. ولا يجوز حمله ـ هاهنا ـ على ذلك، فحمل على السماع.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

١٦ ـ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يُثَنَّ الرسول كما ثُني في قوله: ﴿إنّا رسولا ربك﴾ لأنّ الرسولَ يكون بمعنى المُرْسَل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثمَّ بمعنى المُرْسَل، فلم يكن بدّ من تثنيته. وجعل هنا بمعنى: الرسالة، فيستوي في الوصف به الواحد، والتثنية، والجمع، أو لأنّهما لاتّحادهما، واتّفاقهما على شريعة واحدة، كأنّهما رسول واحد، أو: أريد إنّ كلّ واحد منّا.

١٧ ـ ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى: أي أرسل، لتضمن الرسول معنى الإرسال، وفيه: معنى القول ﴿مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريد: خلّهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما، فأتيا بابه، فلم يؤذن لهما سنة، حتّى قال البواب: إن هاهنا إنساناً يزعم أنّه رسول ربّ العالمين، فقال: ائذن له لعلّنا نضحك منه. فأدّيا إليه الرسالة، فعرف فرعون موسى، فعند ذلك:

١٨ ـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾. وإنما حذف: فأتيا فرعون فقالا له ذلك اختصاراً. والوليد: الصبيّ؛ لقرب عهده من الولادة، أي: ألم تكن صغيراً فربّيناك؟! ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: ثلاثين سنة.

١٩ ـ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطيّ. فعرّض إذ كان ملكاً ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بنعمتي، حيث قتلت خبّازي، أو: كنت على ديننا الذي تسمّيه كفراً. وهذا افتراء منه عليه؛ لأنّه معصوم من الكفر، وكان يعايشهم بالتقيّة.

٢٠ ـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: إذ ذاك ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجاهلين بأنّها تبلغ القتل. والضالّ عن الشيء: هو الذاهب عن معرفته، أو: الناسين، من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فدفع وصف الكفر عن نفسه، ووضع الضالّين موضع الكافرين. ﴿وإذاً﴾ جواب وجزاء معاً. وهذا الكلام وقع جواباً لفرعون، وجزاء له؛ لأنّ قول فرعون: ﴿وفعلت فعلتك﴾ معناه: أنّك جازيت نعمتي بما فعلت، فقال له موسى: نعم

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

﴿فعلتها﴾ مجازياً لك، تسليماً لقوله؛ لأنّ نعمته كانت جديرة بأن تجازى نحو ذلك الجزاء.

٢١ ـ ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلوني. وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ [القصص: ٢٠] الآية ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ نبوّة، وعلماً، وزال عنّي الجهل، والضلالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من جملة رسله.

٢٢ ـ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كرر خبر امتنانه عليه بالتربية، فأبطله من أصله، وأبى أن تسمّى نعمته إلا نقمة حيث بيّن أنّ حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل؛ لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده، وتربيته. ولو تركهم لربّاه أبواه، فكأنّ فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه، وإخراجه من حجر أبويه إذا حقّقت. وتعبيدهم: تذليلهم واتخاذهم عبيداً. ووحّد الضمير في ﴿تمنّها﴾ و﴿عبّدت﴾ وجمع في ﴿منكم﴾ و﴿خفتكم﴾ لأنّ الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]. وأمّا الامتنان فمنه وحده، وكذا التعبيد. ﴿وتلك﴾ إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة، لا يدري ما هي إلاّ بتفسيرها. ومحلّ ﴿أن عبّدت﴾: الرفع عطف بيان لـ: ﴿تلك﴾، أي: تعبيدك بني إسرائيل ﴿نعمة تمنّها عليّ﴾.

٢٣ ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إنّك تدّعي أنّك رسول ربّ العالمين، فما صفته؟ لأنّك إذا أردت السؤال عن صفة زيد، تقول: ما زيد؟ تعني: أطويل أم قصير؟ أفقيه أم طبيب؟. نصّ عليه صاحب «الكشاف» وغيره.

٢٤ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً له على وفق سؤاله ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجنسين ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تعرفون الأشياء

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

بالدليل، فكفى خلق هذه الأشياء دليلاً، أو: إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح، نفعكم هذا الجواب، وإلاّ لم ينفع. والإيقان: العلم الذي يستفاد بالاستدلال، ولذا لا يقال: الله موقن.

٢٥ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه ـ وهم خمسمئة رجل، عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصّة ـ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟! معجِّباً قومه من جوابه؛ لأنّهم يزعمون قدمهما، وينكرون أنّ لهما رباً. فاحتاج موسى إلى أن يستدلّ بما شاهدوا حدوثه وفناءه، فاستدلّ حيث:

٢٦ ـ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو خالقكم، وخالق آبائكم، فإن لم تستدلّوا بغيركم فبأنفسكم. وإنّما قال: ﴿وربّ آبائكم﴾ لأنّ فرعون كان يدّعي الربوبيّة على أهل عصره، دون مَن تقدّمهم.

٢٧ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث يزعم أنّ في الوجود إلهاً غيري، وكان فرعون ينكر إلهيّة غيره.

٢٨ ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتستدلّون بما أقول فتعرفون ربّكم، وهذا غاية الإرشاد؛ حيث عمّم أوّلاً بخلق ﴿السموات والأرض﴾ وما بينهما، ثمّ خصّص من العامّ للبيان أنفسهم وآباءهم، لأنّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته. ثمّ خصّص المشرق والمغرب؛ لأنّ طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر، على تقدير مستقيم في فصول السنة، وحساب مستو من أظهر ما استدلّ به، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان. وقيل: سأله الفرعون عن المائية جاهلاً عن حقيقة سؤاله، فلمّا أجاب موسى بحقيقة الجواب، وقع عنده أنّ موسى حاد عن الجواب، حيث سأله عن المائية، وهو يجيبُ عن ربوبيّته،

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

وآثار صنعه، فقال معجّباً لهم من جواب موسى: ﴿ألا تستمعون﴾؟ فعاد موسى إلى مثل قوله الأوّل، فجنّنه فرعون زاعماً أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثاً إلى مثل كلامه الأوّل، مبيّناً أنّ الفرد الحقيقي، إنّما يعرف بالصفات، وأنّ السؤال عن المائية محال. وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إن كنتم تعقلون﴾، أي: إن كان لكم عقل علمتم أنّه لا تمكن معرفته إلاّ بهذا الطريق. فلمّا تحيّر فرعون، ولم يتهيّأ له أن يدفع ظهور آثار صنعه:

٢٩ ـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ أي: غيري إلهاً ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي: ﴿لأجعلنّك﴾ واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني. وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه، فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق، فرداً، لا يبصر فيها ولا يسمع، وكان ذلك أشدّ من القتل. ولو قيل: لأسجننك، لم يؤدّ هذا المعنى، وإن كان أخصر.

٣٠ ـ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو للحال، دخلت عليها همزة الاستفهام، أي: ﴿أ﴾ تفعل بي ذلك ولو جئتك ﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جائياً بالمعجزة.

٣١ ـ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ بالذي يبيّن صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنّ لك بيّنة. وجواب الشرط مقدّر، أي: فأحضره.

٣٢ ـ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الثعبانيّة لا شيء يشبه الثعبان، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة، والسحر. ورُوي: أنها ارتفعت في السماء قدر ميل، ثمّ انحطت مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى! مرني بما شئت، ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلاّ أخذتها. فأخذها فعادت عصا.

٣٣ ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنّ بياضها كان شيئاً يجتمعُ النظارة على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة. وكان بياضُها نورياً. رُوي: أنّ

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾

فرعونَ لمّا أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال لفرعون: ما هذه؟ قال فرعون: يدك. فأدخلها في إبطه، ثمّ نزعها، ولها شعاعٌ يكاد يغشي الأبصار، ويسدّ الأفق.

٣٤ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ هو منصوب نصبين: نصب في اللفظ، والعامل فيه: ما يقدّر في الظرف، ونصب المحلّ، وهو: النصب على الحال من الملأ، أي: كائنين حوله. والعامل فيه ﴿قال﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر. ثمّ أغرى قومه على موسى بقوله:

٣٥ ـ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا﴾ منصوب؛ لأنه مفعول به، من قولك: أمرتك الخير ﴿تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون في أمره من حبس، أو: قتل. من: المؤامرة، وهي: المشاورة. أو: من الأمر الذي هو ضدّ النهي. لمّا تحير فرعون برؤية الآيتين، وزلّ عنه ذكر دعوى الإلهيّة، وحطّ عن منكبيه كبرياء الربوبيّة، وارتعدت فرائصه خوفاً، طفق يؤامر قومه الذين هم بزعمه عبيده، وهو إلههم، أو: جعلهم آمرين ونفسه مأموراً.

٣٦ ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخّر أمرهما، ولا تباعث قتلهما خوفاً من الفتنة ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ شُرَطاً يحشرون السحرة، وعارضوا قوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ بقولهم:

٣٧ ـ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاؤوا بكلمة الإحاطة، وصيغة المبالغة؛ ليسكّنوا بعض قلقه.

٣٨ ـ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: يوم الزينة. وميقاته: وقت الضحى؛ لأنّه الوقت الذي وقّته لهم موسى ـ عليه السلام ـ من يوم الزينة في قوله تعالى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] والميقات: ما وقّت به، أي: حدّد من زمان، أو: مكان، ومنه: مواقيت الإحرام.

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾

---

٣٩ ـ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتمعوا. وهو استبطاء لهم في الاجتماع. والمراد منه: استعجالهم.

٤٠ ـ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: غلبوا موسى في دينه. وليس غرضهم اتّباع السحرة، وإنّما الغرض الكلّيّ ألاّ يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنّهم إذا اتّبعوهم لم يكونوا متّبعين لموسى.

٤١ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

٤٢ ـ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وبكسر العين: عليّ. وهما لغتان ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: ﴿قال﴾ فرعون: ﴿نعم﴾ لكم أجر عندي، وتكونون مع ذلك من المقرّبين عندي في المرتبة والجاه، فتكونون أوّل من يدخل عليّ، وآخر من يخرج. ولمّا كان قوله: ﴿أئنّ لنا لأجراً﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وإنّكم إذاً لمن المقرّبين﴾ معطوفاً عليه، دخلت ﴿إذاً﴾ قارّة في مكانها؛ الذي يقتضيه من الجواب، والجزاء.

٤٣ ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من السحر، فسوف ترون عاقبته.

٤٤ ـ ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ﴾ سبعين ألف حبل ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾ سبعين ألف عصاً. وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً، وكذا العِصِيّ ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أقسموا بعزّته وقوّته، وهو من أيمان الجاهليّة.

٤٥ ـ ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، ويزوّرونه، فيُخيِّلون في حبالهم، وعصيّهم أنّها حيّات تسعى.

٤٦ ـ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ عُبّر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة؛ لأنّه

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ

ذكر مع الإلقاءات، ولأنّهم لسرعة ما سجدوا صاروا كأنّهم ألقوا.

٤٧ ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

٤٨ ـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عطف بيان لربّ العالمين؛ لأنّ فرعون كان يدعي الربوبيّة، فأرادوا أن يعزلوه. وقيل: إنّ فرعون لمّا سمع منهم ﴿آمنا بربّ العالمين﴾ قال: إيّاي عنيتم؟ قالوا: ﴿ربّ موسى وهارون﴾.

٤٩ ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بذلك ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وقد تواطأتم على أمر، ومكر ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم. ثم صرّح فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ من أجل خلاف ظهر منكم ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأنّه أراد به ترهيب العامّة؛ لئلّا يتبعوهم في الإيمان.

٥٠ ـ ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر ـ وخبر ﴿لا﴾: محذوف، أي: في ذلك، أو: علينا ـ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

٥١ ـ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ لأن كنا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل الشهداء، أو: من رعيّة فرعون. أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا ـ أو: ﴿لا ضير﴾ علينا فيما تتوعدّنا به ـ إنّه لابدّ لنا من الانقلاب ﴿إلى ربنا﴾ بسبب من أسباب الموت. والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو: لا ضير علينا في قتلك، إنّك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربّنا انقلاب من يطمع في مغفرته، ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان.

٥٢ ـ ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ﴾ وبوصل الهمزة: حجازيّ ﴿بِعِبَادِىٓ﴾ بني إسرائيل. سمّاهم عباده لإيمانهم بنبيّه، أي: سِرْ بهم ليلاً ـ وهذا بعد سنين من

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾

إيمان السحرة ـ. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه. علّل الأمر بالإسراء باتّباع فرعون وجنوده آثارهم، يعني: إنّي بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا، ويتّبعوكم، حتّى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر، فأهلكهم. ورُوي أنّه مات في تلك الليلة في كلّ بيت من بيوتهم ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتّى خرج موسى بقومه. ورُوي: أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل كلّ أربعة أبيات في بيت، ثمّ اذبح الجداء، واضربوا بدمائها على أبوابكم فإنّي سآمر الملائكة ألاّ يدخلوا بيتاً على بابه دم، وسآمرهم بقتل أبكار القبط، واخبزوا خبزاً فطيراً[1]، فإنّه أسرع لكم، ثمّ ﴿أسر بعبادي﴾ حتّى تنتهي إلى البحر، فيأتيك أمري.

٥٣ ـ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين للناس بعنف. فلمّا اجتمعوا قال:

٥٤ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة: الطائفة القليلة. ذكرهم بالاسم الدالّ على القلّة، ثمّ جعلهم قليلاً بالوصف، ثمّ جمع القليل، فجعل كلّ حزب منهم قليلاً، واختار جمع السلامة الذي هو للقلّة. أو: أراد بالقلّة: الذلّة، لا قلّة العدد، أي: أنهم لقلّتهم لا يُبالي بهم، ولا تتوقّع غلبتهم. وإنّما استقلّ قوم موسى ـ وكانوا ستمئة ألف وسبعين ألفاً ـ لكثرة مَن معه. فعن الضحاك: كانوا سبعة آلاف ألف.

٥٥ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: أنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا، وتضيّق صدورنا، وهو خروجهم من مصرنا، وحملهم حلينا، وقتلهم أبكارنا.

٥٦ ـ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ شاميّ، وكوفيّ. وغيرهم: ﴿حذرون﴾. فالحذر: المتيقّظ، والحاذر: الذي يجدّد حذره. وقيل: المؤدّي في السلاح. وإنّما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه، يعني: ونحن قوم من عادتنا التيقّظ، والحذر،

---

(١) «الفطير»: خلاف الخمير، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾

واستعمال الحزم في الأمور. فإذا خرج علينا خارجٌ سارعنا إلى حَسْم فساده. وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظنّ به العجز، والفتور.

٥٧ ـ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار جارية.

٥٨ ـ ﴿وَكُنُوزٍ﴾ وأموال ظاهرة من الذهب والفضّة، وسمّاها: كنوزاً؛ لأنّهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى ﴿وَمَقَامٍ﴾ ومنزل ﴿كَرِيمٍ﴾ بهيّ بهيج. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المنابر.

٥٩ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتمل النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا، والرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عن الحسن: لمّا عبروا النهر رجعوا، وأخذوا ديارهم، وأموالهم.

٦٠ ـ ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ فلحقوهم ـ ﴿فاتَّبِعُوهم﴾: يزيد ـ ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ حال، أي: داخلين في وقت شروق الشمس، وهو: طلوعها. أي: أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس.

٦١ ـ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا، بحيث يرى كلّ فريق صاحبه. والمراد: بنو إسرائيل، والقبط ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: قرب أن يلحقنا عدوّنا، وأمامنا البحر.

٦٢ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ثقة بوعد الله إياه ﴿كَلَّآ﴾ ارتدعوا عن سوء الظنّ بالله، فلن يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِىَ﴾ حفص ﴿رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيهديني طريق النجاة من إدراكهم، وإضرارهم. (سيهديني) بالياء: يعقوب.

٦٣ ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: القلزم هو الذي يسلك الناس فيه من اليمن إلى مصر، أو: النيل ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فضرب ﴿فانفلق﴾ فانشقّ، فصار اثني عشر فرقاً على عدد الأسباط ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: جزء يفرّق منه ﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ كالجبل المنطاد في السماء ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾.

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا

٦٤ ـ ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ حيث انفلق البحر ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ قوم فرعون، أي: قرّبناهم من بني إسرائيل، أو: من البحر.

٦٥ ـ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ من الغرق.

٦٦ ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه. وفيه إبطالُ القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث، فإنّهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم. رُوي أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، وكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأوّلكم، ويستقبل القبط ويقول: رويدكم يَلْحَقْ آخركم. فلمّا انتهى موسى إلى البحر، قال يوشع لموسى: أين أمرت؟ فهذا البحر أمامك، وغشيك آل فرعون. قال موسى: هاهنا فخاض يوشع الماء، وضرب موسى بعصاه البحر، فدخلوا. ورُوي: أنّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء، والمكوّن لكلّ شيء، والكائن بعد كلِّ شيء.

٦٧ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما فعلنا بموسى وفرعون ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة عجيبة لا توصف ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: المغرقين ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قالوا: لم يؤمن منهم إلا آسية، وحزقيل مؤمن آل فرعون، ومريم التي دلّت موسى على قبر يوسف.

٦٨ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بالانتقام من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإنعام على أوليائه.

٦٩ ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي قريش ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ خبره.

٧٠ ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ قوم إبراهيم، أو: قوم الأب ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أيّ شيء تعبدون. وإبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم أنّهم عبدة الأصنام. ولكنّه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس بمستحقّ للعبادة.

٧١ ـ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وجواب ﴿ما تعبدون﴾: ﴿أصناماً﴾ كـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾

فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

[سبأ: ٢٣] لأنّه سؤال عن المعبود لا عن العبادة. وإنما زادوا ﴿نعبد﴾ في الجواب افتخاراً، ومباهاة بعبادتها؛ ولذا عطفوا على نعبد، ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنّما قالوا ﴿فنظلّ﴾ لأنّهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، أو: معناه: الدوام.

٧٢ ـ ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ هل يسمعون دعاءكم، على حذف المضاف؛ فحذف لدلالة ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه.

٧٣ ـ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن تركتم عبادتها.

٧٤ ـ ﴿قَالُوا۟ بَلْ﴾ إضراب، أي: لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ، ولا نعبدها لشيء من ذلك، ولكن ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فقلّدناهم.

٧٥، ٧٦ ـ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأوّلون.

٧٧ ـ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ العدوّ والصديق يجيئان في معنى: الوحدة، والجماعة، يعني: لو عبدتهم لكانوا أعداء لي يوم القيامة، كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفرّاء: هو من المقلوب، أي: فإنّي عدوّ لهم. وفي قوله: ﴿عدوّ لي﴾ دون «لكم» زيادة نصح؛ ليكون أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنّهم عدوّ لكم، لم يكن بتلك المثابة ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع؛ لأنه لم يدخل تحت الأعداء، كأنّه قال: لكن ربّ العالمين:

٧٨ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ بالتكوين في القرار المكين ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لمناجح الدنيا، ولمصالح الدين. والاستقبال في ﴿يهديني﴾ مع سبق العناية؛ لأنه يحتمل ﴿يهديني﴾ للأهمّ الأفضل. والأتمّ الأكمل. أو: ﴿الذي خلقني﴾ لأسباب خدمته ﴿فهو يهديني﴾ إلى آداب خلّته.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾

٧٩ ـ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾ أضاف الإطعام إلى وليّ الإنعام؛ لأنّ الركون إلى الأسباب عادة الأنعام ﴿وَيَسْقِينِ﴾ قال ابن عطاء: هو الذي يحييني بطعامه، ويرويني بشرابه.

٨٠ ـ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وإنّما لم يقل: أمرضني؛ لأنّه قصد الذكر بلسان الشكر، فلم يُضِفْ إليه ما يقتضي الضير. ابن عطاء: ﴿وإذا مرضت﴾ برؤية الخلق، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ بمشاهدة الحقّ. الصادق[1]: ﴿وإذا مرضت﴾ برؤية الأفعال ﴿فهو يشفين﴾ بكشف منّة الإفضال.

٨١ ـ ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ولم يقل: إذا متّ لأنّه الخروج من حبس البلاء، ودار الفناء، إلى روض البقاء، لوعد اللقاء. وأدخل ﴿ثمّ﴾ في الإحياء؛ لتراخيه عن الإفناء. وأدخل الفاء في الهداية والشفاء؛ لأنّهما يعقبان الخلق والمرض، لا معاً معاً.

٨٢ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ طمع العبيد في الموالي بالإفضال، لا على الاستحقاق بالسؤال ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ قيل: هو قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧] للبازغ. «هي أختي» لسارّة. وما هي إلاّ معاريض جائزة، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار. واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربّهم، وهضم لأنفسهم، وتعليم للأمم في طلب المغفرة ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

٨٣ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ حكمة، أو: حكماً بين الناس بالحقّ، أو: نبوة، لأنّ النبيّ ـ عليه السلام ـ ذو حكمة، وذو حكم بين عباد الله ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الأنبياء. ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

---

(١) هو جعفر بن محمد الصادق، من أجلاء التابعين (ت: ١٤٨هـ) (الأعلام ٢/١٢٦).

وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

٨٤ ـ ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: ثناء حسناً، وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي. فأعطي ذلك. فكلّ أهل دين يتولّونه، ويثنون عليه. ووضع اللسان موضع القول؛ لأنّ القول يكون به.

٨٥ ـ ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن﴾ ﴿مِن﴾ يتعلّق بمحذوف، أي: وارثاً من ﴿وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: من الباقين فيها.

٨٦ ـ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ اجعله أهل المغفرة بإعطاء الإسلام. وكان وعده الإسلام يوم فارقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الكافرين.

٨٧ ـ ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ الإخزاء من الخزي، وهو: الهوان. أو: من الخزاية، وهي: الحياء. وهذا نحو الاستغفار كما بيّنا ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير فيه للعباد؛ لأنّه معلوم. أو: للضالّين، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه، أي: ﴿ولا تخزني يوم﴾ يبعث الضالّون، وأبي فيهم.

٨٨ ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ هو بدل من ﴿يوم﴾ الأوّل ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أحداً.

٨٩ ـ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عن الكفر، والنفاق. وقلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أي: أنّ المال إذا صرف في وجوه البرّ، وبنوه صالحون، فإنّه ينتفع به وبهم سليم القلب. أو: جعل المال والبنون في معنى الغنى، كأنّه قيل: ﴿يوم لا ينفع﴾ غنىً إلاّ غِنى ﴿من أتى الله بقلب سليم﴾؛ لأنّ غِنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، كما إنّ غناه في دنياه بماله، وبنيه. فقد جعل ﴿مَن﴾ مفعولاً لـ: ﴿ينفع﴾، أي: ﴿لا ينفع مال ولا بنون﴾ إلاّ رجلاً سلم قلبه مع ماله، حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين، وعلّمهم الشرائع. ويجوز على هذا: ﴿إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾ من فتنة المال، والبنين. وقد صوّب الجليل، استثناء الخليل، إكراماً له. ثمّ جعله صفة له في قوله: ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ـ٨٤]. وما أحسن ما رتّب ـ عليه السلام ـ كلامه

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾

مع المشركين، حيث سألهم أوّلاً عمّا يعبدون، سؤال مقرّر لا مستفهم. ثمّ أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنّها لا تضرّ، ولا تنفع، ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة. ثمّ صوّر المسألة في نفسه دونهم، حتى تخلّص منها إلى ذكر الله تعالى، فعظّم شأنه، وعدّد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته، مع ما يُرْجىٰ في الآخرة من رحمته. ثمّ أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين، ثمّ وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنّى الكرة إلى الدنيا، ليؤمنوا، ويطيعوا.

٩٠ ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قرّبت. عطف جملة، أي: تُزْلَفُ بين موقف السعداء فينظرون إليها.

٩١ ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: أظهرت حتّى يكاد يأخذهم لهبها ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين.

٩٢، ٩٣ ـ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ يوبّخون على إشراكهم فيقال لهم: ﴿أين﴾ آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم؟ أو: هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؟ لأنّهم وآلهتهم وقود النار.

٩٤ ـ ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ أنكسوا، أو: طُرِح بعضهم على بعض ﴿فِيهَا﴾ في الجحيم ﴿هُمْ﴾ أي: الآلهة ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ وعبدتهم الذين برّزت لهم الجحيم. والكبكبة: تكرير الكبّ. جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنّه إذ ألقى في جهنّم ينكبّ مرّة بعد مرّة حتّى يستقرّ في قعرها. نعوذ بالله منها.

٩٥ ـ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ شياطينه، أو: متبعوه من عصاة الإنس، والجنّ.

٩٦ ـ ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح

تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

التقاول، والتخاصم. ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة، والشياطين.

٩٧، ٩٨ ـ ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ نعدِلكم أيّها الأصنام ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في العبادة.

٩٩ ـ ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: رؤساؤهم الذين أضلّوهم، أو: إبليس وجنوده ومَن سنّ الشرك.

١٠٠ ـ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الأنبياء، والأولياء، والملائكة.

١٠١ ـ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء، إذا لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون. وأمّا أهل النار فبينهم التعادي: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] أو: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ من الذين كنّا نعدّهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنّهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاءٌ لهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. والحميم ـ من الاحتمام، وهو: الاهتمام، وهو الذي يهمّه ما يهمّك. أو: من الحامّة؛ بمعنى: الخاصّة، وهو الصديق الخاصّ. وجمع الشافع ووحّد الصديق، لكثرة الشفعاء في العادة. وأما الصديق ـ وهو: الصادق في ودادك، الذي يهمّه ما أهمّك ـ فقليل. وسُئِل حكيم عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. وجاز أن يراد بالصديق الجمع.

١٠٢ ـ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف، وهو: لفعلنا كيت وكيت. أو: ﴿لو﴾ في مثل هذا، للتمنّي ـ كأنّه قيل: فليت لنا كرّة ـ لما بين معنيي لو وليت من التلاقي.

١٠٣ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من الأنباء ﴿لَءَايَةً﴾ أي: لعبرة لمن اعتبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه: أنّ فريقاً منهم آمنوا.

١٠٤ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم ممن كذّب إبراهيم بنار الجحيم

ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المسلم كلّ ذي قلب سليم إلى جنّة النعيم.

١٠٥ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ القوم يذكر ويؤنث. قيل: وُلِدَ نوح في زمن آدم ـ عليه السلام ـ. ونظير قوله: ﴿المرسلين﴾ ـ والمراد: نوح عليه السلام ـ قولك: فلان يركب الدوابّ، ويلبس البرود، وماله إلاّ دابّة أو برد. أو: كانوا ينكرون بعث الرسل أصلاً؛ فلذا جمع. أو: لأنّ من كذب واحداً منهم، فقد كذّب الكلّ؛ لأنّ كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وكذا جميع ما في هذه السورة.

١٠٦ ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً، لا ديناً ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خالق الأنام، فتتركوا عبادة الأصنام.

١٠٧ ـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ كان مشهوراً بالأمانة فيهم كمحمّد ﷺ في قريش.

١٠٨ ـ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأدعوكم إليه من الحق.

١٠٩ ـ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على هذا الأمر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أجراً ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ بالفتح: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كذلك أريده.

١١٠ ـ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرّره ليقرّره في نفوسهم مع تعليق كلّ واحد منهما بعلّة، فعلّة الأوّل: كونه أميناً فيما بينهم، وعلّة الثاني: حسم طمعه منهم. كأنّه قال: إذا عرفتم رسالتي وأمانتي ﴿فاتّقوا الله﴾ ثمّ إذا عرفتم احترازي من الأجر ﴿فاتّقوا الله﴾.

١١١ ـ ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ﴾ الواو للحال، و«قد» مضمرة بعدها، دليلهُ: قراءة يعقوب: (وأتباعُك) جمع تابع، كشاهد وأشهاد. أو: تَبَع، كبطل وأبطال ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ السَّفِلَة. والرّذالة: الخسّة، والدناءة. وإنّما استرذلوهم

قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

لاتّضاع نسبهم، وقلّة نصيبهم من الدنيا. وقيل: كانوا من أهل الصِّناعات الدَّنيئة. والصناعة لا تزري بالديانة. فالغِنى غِنى الدِّين، والنَّسب نسب التَّقوى. ولا يجوز أن يُسمَّى المؤمن رَذِلاً، وإن كان أفقر الناس، وأوضعهم نسباً. وما زالت أتباع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كذلك.

١١٢ ـ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى﴾ وأيّ شيء علمي ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الصِّناعات، إنّما أطلب منهم الإيمان.

١١٣ ـ وقيل: إنهم طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم، فقالوا: إنّ الذين آمنوا بك ليس في قلوبهم ما يظهرونه، فقال: ما عليّ إلاّ اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أنّ الله تعالى يحاسبهم على ما في قلوبهم.

١١٤ ـ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس من شأني أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم.

١١٥ ـ ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما عليّ إلاّ أن أنذركم إنذاراً بيّناً بالبرهان الصحيح؛ الذي يتميّز به الحقّ من الباطل، ثمّ أنتم أعلم بشأنكم.

١١٦ ـ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمّا تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ من المقتولين بالحجارة.

١١٧ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ ليس هذا بإخبارٍ بالتكذيب؛ لعلمه أنّ عالم الغيب والشهادة أعلم؛ ولكنّه أراد أنّهم كذّبوني في وحيك، ورسالتك.

١١٨ ـ ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاحكم بيني وبينهم حكماً. والفتاحة: الحكومة. والفتّاح: الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق، كما سمّي: فيصلاً؛ لأنه يفصل بين الخصومات ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ﴾ حفص ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عذاب عملهم.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾

---

١١٩ ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، وجمعه: فَلَكٌ، فالواحد بوزن: قُفْل، والجمع بوزن: أسد ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء. ومنه: شحنة البلد، أي: الذي يملؤه كفاية.

١٢٠ ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد إنجاء نوح، ومن آمن معه ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه.

١٢١، ١٢٢ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم بإهانة من جحد، وأصرّ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المنعم بإعانة من وحّد، وأقرّ.

١٢٣ ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هي: قبيلة. وفي الأصل: اسم رجل، وهو أبو القبيلة.

١٢٤ ـ ١٢٦ ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسباً ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تكذيب الرسول الأمين، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

١٢٧، ١٢٨ ـ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾ برج حمام، أو: بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مرّ بهم ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تلعبون.

١٢٩ ـ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذ الماء، أو: قصوراً مشيدة، أو: حصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلود في الدنيا.

١٣٠ ـ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أخذتم أخذ العقوبة ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتلاً بالسيف، وضرباً بالسّوط. والجبّار: الذي يقتل، ويضرب على الغضب.

١٣١ ـ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في البطش ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه.

١٣٢ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من النعم. ثم عدّدها عليهم فقال:

أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾

١٣٣ ـ ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ قرن البنين بالأنعام؛ لأنّهم يعينونهم على حفظها، والقيام عليها.

١٣٤، ١٣٥ ـ ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن عصيتموني.

١٣٦ ـ ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أي: لا نقبل كلامك، ودعوتك، وعظت أم سَكَتَّ. ولم يقل: أم لم تعظ؛ لرؤوس الآي.

١٣٧، ١٣٨ ـ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت، واتّخاذ الأبنية إلاّ عادة الأوّلين، أو: ما نحن عليه دين الأوّلين. ﴿إلاّ خَلْق الأوّلين﴾: مكّي: وبصريّ، ويزيد، وعليّ. أي: ما جئت به اختلاق الأوّلين، وكذب المتنبّئين قبلك، كقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أو: خَلْقُنا كخلق الأوّلين، نموت ونحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الدنيا، ولا بعث ولا حساب.

١٣٩ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: هوداً ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بريح صرصر، عاتية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٤٠ ـ ١٤٦ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ﴾ إنكار لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ في الذي استقرّ في هذا المكان من النعيم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العذاب والزوال والموت. ثمّ فسّره بقوله:

فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾

---

١٤٧ ـ ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا أيضاً إجمال ثمّ تفصيل.

١٤٨ ـ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾ وعطف ﴿نخل﴾ على ﴿جنّات﴾ مع أنّ الجنة تتناول النخل أوّل شيء، تفضيلاً للنخل على سائر الشجر ﴿طَلْعُهَا﴾ هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿هَضِيمٌ﴾ لين نضيج، كأنّه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

١٤٩ ـ ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ تنقبون ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾: شاميّ، وكوفيّ. حاذقين، حال. وغيرهم: ﴿فَرِهين﴾ أشرين. والفَراهة: الكَيْسُ، والنشاط.

١٥٠، ١٥١ ـ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الكافرين، أو: التسعة الذين عقروا الناقة. جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكميّ ـ والمراد: الآمر ـ وهو كلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأوّل، كقوله: أنبت الربيع البقل.

١٥٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم، والكفر ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بالإيمان، والعدل. والمعنى: أنّ فسادهم مصمت ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصَّلاح.

١٥٣ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ المسحر: الذي سُحِرَ كثيراً حتى غلب على عقله. وقيل: هو من السَّحْر: الرئة، وأنّه بشر.

١٥٤ ـ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوى الرسالة.

١٥٥ ـ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ نصيب من الماء، فلا تزاحموها فيه ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لا تزاحمكم هي فيه. رُوي: أنهم قالوا: نريد ناقة عُشَراء تخرج

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾

من هذه الصخرة فتلد سَقْباً[١]، فقعد صالح يتفكّر، فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ: صلّ ركعتين، واسأل ربك الناقة. ففعل. فخرجت، ونُتجت سقباً مثلها في العظم، ومُصَدَّرها ستّون ذراعاً. وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كلّه، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء. وهذا دليلٌ على جواز المهاياة[٢] لأنّ قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ من المهايآت.

١٥٦ ـ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بضرب، أو: عقر، أو: غير ذلك ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظّم اليوم لحلول العذاب فيه. ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب؛ لأنّ الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشدّ.

١٥٧ ـ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرها قدار، ولكنّهم راضون به، فأضيف إليهم. رُوي: أنّ عاقرها قال: لا أعقرها حتّى ترضوا أجمعين، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم. وكذلك صبيانهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم، لا ندم توبة. أو: ندموا حين لا ينفع الندم، وذلك عند معاينة العذاب، أو: على ترك الولد.

١٥٨ ـ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المتقدّم ذكره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٥٩ ـ ١٦٥ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أراد بالعالمين: الناس.

---

(١) «السقب»: الذكر من ولد الناقة.

(٢) «المهايأة»: الأمر المتهايأ عليه. وتهايأ القومُ على الأمر: توافقوا، وتمالؤوا.

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾

أي: أتطؤون الذكران من الناس مع كثرة الإناث؟ أو: أتطؤون أنتم مِن بين من عداكم من العالمين الذكران؟ أي: أنتم مختصون بهذه الفاحشة. و﴿العالمين﴾ على هذا: كلّ ما ينكح من الحيوان.

١٦٦ ـ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ «من» تبيين لما خلق، أو: تبعيض. والمراد: بما خلق العضو المباح منهنّ. وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. وفيه دليلٌ على تحريم أدبار الزوجات، والمملوكات. ومن أجازه فقد أخطأ خطأً عظيماً ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ العادي: المتعدّي في ظلمه، المتجاوز فيه الحدّ، أي: بل أنتم قوم أحقَّاء بأن توصفوا بالعدوان، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

١٦٧ ـ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ﴾ عن إنكارك علينا، وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردناه من بلدنا. ولعلّهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال.

١٦٨ ـ ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ هو أبلغ من أن يقول «قالٍ»، فقولك: فلان من العلماء، أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنّك تشهد بأنّه مساهم لهم في العلم. والقِلى: البغض الشديد كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد. وفيه دليلٌ على عظم المعصية؛ لأنّ قِلاه من حيث الدين.

١٦٩ ـ ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عقوبة عملهم.

١٧٠ ـ ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بناته، ومن آمن معه.

١٧١ ـ ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي: امرأة لوط، وكانت راضية بذلك، والراضي بالمعصية في حكم العاصي. فاستثناء الكافرة من الأهل، وهم مؤمنون، للاشتراك في هذا الاسم، وإن لم تشاركهم في الإيمان ﴿فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ صفة لها، أي: في الباقين في العذاب، فلم تنج منه. والغابر في اللغة: الباقي، كأنّه قيل:

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾

إلاّ عجوزاً غابرة، أي: مقدّراً غبورها، إذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم.

١٧٢ ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ والمراد بتدميرهم: الائتفاك بهم.

١٧٣ ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ عن قتادة: أمطر الله على شُذّاذ القوم حجارة من السماء، فأهلكهم. وقيل: لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطراً من حجارة ﴿فَسَآءَ﴾ فاعله ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. والمخصوص بالذّم ـ وهو مطرهم ـ محذوف. ولم يردْ بالمنذرين قوماً بأعيانهم، بل المرادُ جنس الكافرين.

١٧٤ ـ ١٧٦ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ بالهمزة والجرّ هي: غيضة تُنبتُ ناعم الشجر، عن الخليل. ﴿لَيْكَةَ﴾: حجازيّ، وشاميّ، وكذا في ﴿ص﴾ علم لبلد. قيل: أصحاب الأيكة هم أهل مدين، التجؤوا إلى غيضة؛ إذ ألحّ عليهم الوَهَج. والأصحّ أنهم غيرهم. نزلوا غيضة بعينها بالبادية، وأكثر شجرهم المُقْل؛ بدليل أنّه لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنّه لم يكن من نسبهم، بل كان من نسب أهل مدين. ففي الحديث: أنّ شعيباً أخا مدين أرسل إليهم، وإلى أصحاب الأيكة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٧٧، ١٨١ ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتمّوه، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم. فالكيل واف، وهو مأمورٌ به، وطفيف، وهو منهي عنه، وزائد، وهو مسكوت عنه. فتركه دليلٌ على أنه إن فعله فقد أحسن، وإن لم يفعله فلا عليه.

وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا

١٨٢ ـ ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[1] وبكسر القاف: كوفيّ، غير أبي بكر. وهو: الميزان، أو: القبّان. وإن كان من القسط وهو العدل، وجعلت العين مكررة، فوزنه «فعلاس» وإلاّ فهو رباعيّ.

١٨٣ ـ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ﴾ يقال: بخسته حقه؛ إذا نقصته إياه ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافهما ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تبالغوا فيها في الإفساد، وذلك نحو: قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك، فنهوا عن ذلك، يقال: عثا في الأرض: إذا أفسدَ. وعثى في الأرض، لغة في عَثِيَ.

١٨٤ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ الجبلّة: عطف على «كم»، أي: اتقوا الذي خلقكم، وخلق الجبلّة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الماضين.

١٨٥، ١٨٦ ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال الواو هنا ليفيد معنيين، كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير، والبشريّة. وتركها في قصة ثمود ليفيد معنىً واحداً وهو كونه مسحراً. ثمّ قرّر بكونه بشراً مثلهم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ «إن» مخفّفة من الثقيلة. واللام دخلت للفرق بينها وبين النافية. وإنما تفرّقتا على فعل الظنّ وثاني مفعوليه؛ لأنّ أصلهما أن يتفرّقا على المبتدأ والخبر، كقولك: إنْ زيداً لمنطلق، فلمّا كان بابا ﴿كان﴾ و﴿ظننت﴾ من جنس باب المبتدأ والخبر، فعل ذلك في البابين، فقيل: إنْ كان زيد لمنطلقاً، وإنْ ظننته لمنطلقاً.

١٨٧ ـ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[2]: حفص. وهما[3] جمعا كِسْفَةٍ، وهي:

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿القُسطاس﴾. وهي قراءة: ابن عامر، ونافع، وحمزة، وابن كثير، وعاصم، وشعبة. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٢٥).

(٢) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿كِسْفاً﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وعاصم، وشعبة، وخلف، ويعقوب. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٢٦).

(٣) أي قراءة: ﴿كِسْفاً﴾ وقراءة ﴿كِسَفاً﴾.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾

القطعة. وكسفه: قطعه ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب، أو: الظُّلَّة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنت صادقاً أنّك نبيّ، فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء، أي: قطعاً من السماء عقوبة.

١٨٨ ـ ﴿قَالَ رَبِّىٓ﴾ بفتح الياء: حجازيّ، وأبو عمرو. وبسكونها: غيرهم ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أنّ الله أعلم بأعمالكم، وبما تستحقّون عليها من العقاب، وإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم، والمشيئة.

١٨٩ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ هي سحابة أظلّتهم بعد ما حبس عنهم الريح، وعذبوا بالحرّ سبعة أيّام، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها ممّا نالهم من الحرّ، فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

١٩٠، ١٩١ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقد كرّر في هذه السورة في أوّل كلّ قصة وآخرها ما كرّر، تقريراً لمعانيها في الصدور؛ ليكون أبلغ في الوعظ، والزجر، ولأنّ كلّ قصّة فيها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به.

١٩٢ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ منزّل منه.

١٩٣ ـ ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ مخفّف. والفاعل: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: جبريل؛ لأنّه أمين على الوحي الذي فيه الحياة. حجازيّ، وأبو عمرو، وزيد، وحفص. وغيرهم: بالتشديد، ونصب ﴿الروحَ﴾. والفاعل هو الله تعالى، أي: جعل الله الروح نازلاً به. والباء على القراءتين للتعدية.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ﴾

١٩٤ ـ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حفَّظَك، وفهَّمك إيّاه، وأثبتَه في قلبك إثبات ما لا ينسى، كقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

١٩٥ ـ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ بلغة قريش، وجرهم ﴿مُّبِينٍ﴾ فصيح مصحّح عمّا صحّفته العامّة. والباء إمّا أن يتعلّق بـ﴿المنذرين﴾، أي: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وهم: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل ـ عليهم السلام ـ أو: بـ: ﴿نزل﴾، أي: نزّله ﴿بلسان عربي﴾ لتنذر به، لأنّه لو نزّله بلسان أعجميّ لتجافوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه، فيتعذّر الإنذار به. وفي هذا الوجه: أنّ تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنّك تفهمه، وتُفهمه قومَك. ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك؛ لأنّك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها، ولا تعيها. وقد يكون الرجل عارفاً بعدّة لغات؛ فإذا كُلّم بلغته التي نشأ عليها لم يكن قلبه إلاّ إلى معاني الكلام، وإن كُلِّم بغيرها كان نظره أوّلاً في ألفاظها، ثمّ في معانيها، وإن كان ماهراً بمعرفتها. فهذا تقرير أنّه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربيّ.

١٩٦ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: ذكره مثبت في سائر الكتب السماويّة. وقيل: إنّ معانيه فيها. وفيه دليلٌ على أنّ القرآنَ قرآن إذا ترجم بغير العربيّة، فيكون دليلاً على جواز قراءة القرآن بالفارسيّة في الصلاة.

١٩٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةٌ﴾(١): شاميّ. جعلت ﴿آية﴾ اسم كان. وخبره ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ أي: القرآن لوجود ذكره في التوراة. وقيل: في ﴿تكن﴾ ضمير القصّة، و﴿آية﴾ خبر مقدّم، فالمبتدأ ﴿أن يعلمه﴾. والجملة خبر كان. وقيل: كان تامّة، والفاعل ﴿آية﴾، و﴿أن يعلمه﴾ بدل منها، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي:

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تكن... آيةٌ﴾.

﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠﴾

أو لم تحصل لهم آية. وغيره: ﴿يكن﴾ بالتذكير، و﴿آية﴾ بالنصب، على أنها خبره، و﴿أن يعلمه﴾ هو الاسم، وتقديره: ﴿أو لم يكن لهم﴾ علم علماء ﴿بني إسرائيل﴾ آية ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كعبد الله بن سلام، وغيره. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]. وخط في المصحف ﴿علمؤا﴾ بواو قبل الألف.

١٩٨ ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجم، وهو: الذي لا يفصح، وكذلك الأعجميّ، إلاّ أنّ فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. ولمّا كان من يتكلّم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم، وأعجميّ، شبهوه بمن لا يفصح، ولا يبين. والعجميّ: الذي من جنس العجم أفصح، أو: لم يفصح. وقرأ الحسن: ﴿الأعْجَمِيِّن﴾. وقيل: ﴿الأعجمين﴾ تخفيف ﴿الأعجَمِيِّن﴾ كما قالوا: الأشعرون، أي: الأشعريُّون، بحذف ياء النسبة. ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع السلامة؛ لأنّ مؤنثه عجماء.

١٩٩ ـ ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: إنّا أنزلنا القرآن على رجل عربيّ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ففهموه، وعرفوا فصاحته،وأنّه معجز، وانضمّ إلى ذلك اتّفاق علماء أهل الكتُب قبله على أنّ البشارة بإنزاله وصفته في كتبهم، وقد تضمّنت معانيه وقصصه، وصحّ بذلك أنها من عند الله، وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به، وسمّوه: شعراً تارة، وسحراً أخرى، وقالوا: هذه من افتراء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله، فقرأه عليهم هكذا معجزاً لكفروا به كما كفروا، ولتمحّلوا لجحودهم عذراً، ولسمّوه: سحراً. ثم قال:

٢٠٠ ـ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: أدخلنا التكذيب، أو: الكفر، وهو مدلول قوله: ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر، والإصرار عليه، يعني: مثل هذا السَّلْك ﴿سلكناه﴾ في قلوبهم،

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

وقرّرناه فيها فكيف ما فعل بهم، وعلى أيّ وجه دبّر أمرهم، فلا سبيل إلى أن يتغيّروا عمّا هم عليه من الكفر به، والتكذيب له، أي: كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] وهو حجّتنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد خيرها وشرّها.

٢٠١ ـ وموقع قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن. من قوله: ﴿سلكناه في قلوب المجرمين﴾ موقع الموضح والملخص؛ لأنّه مسوق لثباته مكذّباً مجحوداً في قلوبهم فاتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنّهم لا يزالون على التكذيب به، وجحوده، حتّى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سلكناه فيها غير مؤمن به ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المراد: معاينة العذاب عند الموت، ويكون ذلك إيمان يأس، فلا ينفعهم.

٢٠٢ ـ ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

٢٠٣ ـ ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ و﴿فيأتيهم﴾ معطوفان على ﴿يروا﴾ ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ يسألون النظرة والإمهال طرفة عين، فلا يجابون إليها.

٢٠٤ ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ لهم، وإنكار عليهم قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو ذلك. قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغترّ بحياته، والتذّ بمراداته، وسكن مألوفاته، والله تعالى يقول:

٢٠٥ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ قيل: هي سنو مدّة الدنيا.

٢٠٦ ـ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

٢٠٧ ـ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ به في تلك السنين. والمعنى: أنّ استعجالهم بالعذاب إنّما كان لاعتقادهم أنّه غير كائن، ولا لاحق بهم، وأنّهم ممتّعون بأعمار طوال في سلامة، وأمن. فقال الله تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أشراً، واستهزاء واتكالاً على الأمل الطويل. ثمّ قال: هَبْ أنّ الأمر كما

وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يعتقدون من تمتيعهم، وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معايشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنّى لقاءه، فقال: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم.

٢٠٨ ـ ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم. ولم تدخل الواو على الجملة بعد إلاّ كما في: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] لأنّ الأصل عدم الواو؛ إذ الجملة صفة لـ: ﴿قرية﴾، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف.

٢٠٩ ـ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ منصوبة بمعنى تذكرة؛ لأنّ أنذر وأذكر متقاربان، فكأنّه قيل: مُذكرون تذكرة. أو: حال من الضمير في ﴿منذرون﴾ أي: ينذرونهم ذوي تذكرة، أو: مفعول له، أي: ينذرون لأجل التذكرة، والموعظة، أو: مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى: هذه ﴿ذكرى﴾ والجملة اعتراضيّة. أو: صفة بمعنى ﴿منذرون﴾ ذوو ﴿ذكرى﴾. أو: تكون ﴿ذكرى﴾ متعلّقة بأهلكنا، مفعولاً له. والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلاّ بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم؛ فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين.

٢١٠ ـ ولمّا قال المشركون: إنّ الشياطين تلقي القرآن على محمد، نزل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

٢١١ ـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ وما يتسهّل لهم، ولا يقدرون عليه.

٢١٢ ـ ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ عن استراقه ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ لممنوعون بالشهب.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾

٢١٣ ـ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تهديد لغيره على التعريض وتحريك له على زيادة الإخلاص.

٢١٤ ـ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خصّهم لنفي التهمة؛ إذ الإنسان يساهل قرابته. أو: ليعلموا أنّه لا يغني عنهم من الله شيئاً، وأنّ النّجاة في اتّباعه دون قربه. ولمّا نزلت صَعِد الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب، وقال: «يا بني عبد المطّلب! يا بني هاشم! يا بني عبد مناف! يا عبّاس عمّ النبيّ! يا صفيّة عمّة رسول الله: إنّي لا أملك لكم من الله شيئاً»[1].

٢١٥ ـ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وألنْ جانبك، وتواضعْ. وأصله: أنّ الطائر إذا أراد أن ينحطّ في الوقوع كسر جناحه، وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه. فجُعِل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع، ولين الجانب ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عشيرتك، وغيرهم.

٢١٦ ـ ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أنذر قومك، فإن اتّبعوك، وأطاعوك، فأخفض لهم جناحك، وإن عصوك، ولم يتبعوك، فتبرّأ منهم، ومن أعمالهم من الشرك بالله، وغيره.

٢١٧ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على الذي يقهر أعداءك بعزّته، وينصرك عليهم برحمته، يكفك شرّ من يعصيك منهم، ومن غيرهم. والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى مَن يملك أمره، ويقدر على نفعه وضرّه. وقالوا: المتوكّل من إنْ دهمه أمرٌ لم يحاولْ دفعه عن نفسه بما هو معصية لله. وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: التوكّل أن تُقْبِل بالكليّة على ربّك، وتُعْرِض بالكليّة عما دونه؛ فإنّ حاجتك إليه في الدارين. (فتوكّل): مدنيّ، وشاميّ، عطف على ﴿فقل﴾ أو: ﴿فلا تدع﴾.

---

(١) رواه أحمد (٢ / ٣٣٣) ومسلم (٢٠٤) والترمذي (٣١٨٥) والنسائي (٦ / ٢٤٨).

ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ

٢١٨ ـ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ متهجّداً.

٢١٩ ـ ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أي: ﴿و﴾ يرى تقلّبك ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في المصلّين. أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة. وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجّد، وتقلّبه في تصفّح أحوال المتهجّدين من أصحابه ليطّلع عليهم من حيث لا يشعرون، وليعلم كيف[1] يعبدون الله، ويعملون لآخرتهم. وقيل: معناه ﴿يراك﴾ حين تقوم للصلاة بالناس جماعة. وتقلّبه ﴿في الساجدين﴾: تصرّفه فيما بينهم بقيامه، وركوعه، وسجوده، وقعوده إذا أمّهم. وعن مقاتل: أنّه سأل أبا حنيفة. هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني. فتلا له هذه الآية.

٢٢٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه، وتعمله. هوّن عليه معاناة مشاقّ العبادات، حيث أخبر برؤيته له، إذ لا مشقّة على مَن يعلم أنّه يعمل بمرأى مولاه، وهو كقولك: بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي.

٢٢١ ـ ونزل جواباً لقول المشركين: إنّ الشياطين تلقي السمع على محمد ﷺ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: هل أخبركم أيّها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾. ثمّ نبأ فقال:

٢٢٢ ـ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ مرتكب للآثام، وهم: الكهنة، والمتنبّئة، كسطيح، ومسيلمة. ومحمّد ﷺ يشتم الأفّاكين ويذمّهم، فكيف تنزل الشياطين عليه؟!

٢٢٣ ـ ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ هم الشياطين. كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملأ الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلّمون به، ممّا اطّلعوا عليه من الغيوب، ثمّ يوحون به إلى أوليائهم. و﴿يلقون﴾ حال، أي: تنزّل ملقين السمع. أو: صفة لـ: ﴿كل أفّاكٍ﴾ لأنّه في معنى الجمع، فيكون في محلّ الجرّ.

(١) في الأصل المخطوط: أنهم كيف.

وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

أو: استئناف فلا يكون له محلّ، كأنّه قيل: لم تنزّل على الأفّاكين؟ فقيل: يفعلون كيت وكيت ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنّهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وقيل: ﴿يلقون﴾ إلى أوليائهم ﴿السمع﴾ أي: المسموع من الملائكة. وقيل: الأفّاكون ﴿يلقون السمع﴾ إلى الشياطين، ويتلقّون وحيهم إليهم. أو: ﴿يلقون﴾ المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفّاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم. فالأفّاك: الذي يكثر الإفك. ولا يدلّ ذلك على أنّهم لا ينطقون إلاّ بالإفك، فأراد أنّ هؤلاء الأفّاكين قلّ من يصدّق منهم فيما يحكي عن الجنّيّ، وأكثرهم مفترٍ عليه. وعن الحسن: وكلهم. وإنّما فرّق بين ﴿وإنّه لتنزيل ربّ العالمين﴾ و﴿وما تنزّلت به الشياطين﴾ و﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين﴾ وهنّ أخوات؛ لأنّه إذا فرّق بينهن بآيات ليست منهنّ، ثمّ رجع إليهنّ مرّة بعد مرّة، دلّ ذلك على شدّة العناية بهنّ، كما إذا حدّثت حديثاً وفي صدرك اهتمام بشيء، فتعيد ذكره، ولا تنفكّ عن الرجوع إليه.

٢٢٤ ـ ونزل فيمن كان يقول الشعر، ويقول: نحن نقول كما يقول محمد ﷺ، واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. أي: لا يتّبعهم على باطلهم، وكذبهم، وتمزيق الأعراض، والقدح في الإنسان، ومدح من لا يستحقّ المدح والهجاء، ولا يستحسن ذلك منهم إلاّ ﴿الغاوون﴾ أي: السفهاء، أو: الراوون، أو: الشياطين، أو: المشركون. قال الزجاج: إذا مدح، أو: هجا شاعر بما لا يكون، وأحبّ ذلك قوم، وتابعوه فهم الغاوون. ﴿يَتْبَعُهُمُ﴾ نافع.

٢٢٥ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من الكلام ﴿يَهِيمُونَ﴾ خبر أنّ، أي: في كلّ فنّ من الكذب يتحدّثون، أو: في كلّ لغو وباطل يخوضون. والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له. وهو تمثيلٌ لذهابهم في كلّ شعب من القول، واعتسافهم حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأبخلهم على حاتم.

٢٢٦ ـ عن الفرزدق: أنّ سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الخِتَامِ

فقال: وجب عليك الحدّ، فقال: قد درأ اللهُ عنيّ الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ حيث وصفهم بالكذب، والخلف في الوعد.

٢٢٧ ـ ثمّ استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كعبد الله بن رواحة، وحسّان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان ذكر الله، وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله تعالى، والثناء عليه، والحكمة، والموعظة، والزهد، والأدب، ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمّة، ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب. وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة، لكنّه بالحضور ﴿وَانتَصَرُوا﴾ وهَجوا ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ هُجُوا، أي: ردوا هجاء من هجا رسول الله ﷺ والمسلمين. وأحقّ الخلق بالهجاء من كذّب رسول الله ﷺ وهجاه. وعن كعب بن مالك: أنّ رسول الله ﷺ قال له: «اهجهم، فوالذي نفسي بيده! لهو أشدّ عليهم من النبل»[1] وكان يقول لحسّان: «قل وروح القدس معك»[2]. ختم السورة بما يقطع أكباد المتدبّرين، وهو قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه، وقوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وإبهامه. وقد تلاها أبو بكر لعمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ حين عهد إليه. وكان السلف يتواعظون بها. قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنّا ما الذي فاته منّا. و﴿أيّ﴾ منصوب بـ﴿ينقلبون﴾ على المصدر لا بـ: ﴿سيعلم﴾؛ لأنّ أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها، أي: ينقلبون أيّ انقلاب. والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن سعد في الطبقات. (حاشية الكشاف ٣ / ٣٤٥).
(٢) رواه البخاري (٣٢١٣) ومسلم (٢٤٨٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

١ ـ ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ﴿و﴾ آيات ﴿كتاب مبين﴾. و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة. والكتاب المبين: اللوح. وإبانته: أنّه قد خُطَّ فيه كلّ ما هو كائن، فهو يبينه للناظرين فيه إبانة. أو: القرآن، وإبانته: أنّه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم. وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعل السخيّ، والجواد.. ونكّر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل: إنّما نكّر الكتاب هنا، وعرّفه في الحجر، وعرّف القرآن هنا، ونكّره ثَمّ؛ لأنّ القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمّد ﷺ، ووصفان له؛ لأنّه يُقرأ ويكتب. فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف.

٢ ـ ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ في محلّ النصب على الحال من ﴿آيات﴾، أي: هادية ومبشرة. والعامل فيها ما في ﴿تلك﴾ من معنى الإشارة. أو: الجرّ على أنّه بدل من ﴿كتاب﴾ أو: صفة له. أو: الرفع على هي ﴿هدى وبشرى﴾، وعلى البدل من ﴿آيات﴾، وعلى أن يكون خبراً بعد خبر لـ: ﴿تلك﴾، أي: ﴿تلك آيات﴾ وهادية من الضلالة، ومبشّرة بالجنّة. وقيل: ﴿هدى﴾ لجميع الخلق وبشرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خاصّة.

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يديمون على فرائضها، وسننها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يؤدّون زكاة أموالهم ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من جملة صلة الموصول. ويحتمل أن تتمّ الصلة عنده. وهو استئناف، كأنّه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات من: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، هم الموقنون بالآخرة. ويدلّ عليه: أنه عقد جملة اسميّة، وكُرِّرَ فيها المبتدأ الذي هو ﴿هم﴾ حتّى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلاّ هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمّل المشاقّ.

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بخلق الشهوة حتّى رأوا ذلك حسناً، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتردّدون في ضلالتهم، كما يكون حال الضالّ عن الطريق.

٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ القتل والأسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال. ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أشدّ الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم، فخسروا ذلك مع خسران النجاة، وثواب الله.

٦ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ لتؤتاه، وتلقّنه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند أيّ ﴿حكيم﴾ وأيّ ﴿عليم﴾. وهذا معنى تنكيرهما. وهذه الآية بساط، وتمهيد لما يريد أن يسوقَ بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

٧ ـ ﴿إِذْ﴾ منصوب باذكر، كأنّه قال: على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصّة موسى ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ لزوجته ومَن معه عند مسيره من مدْين إلى مصر: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾ أبصرت ﴿نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق؛ لأنّه كان قد ضلّه ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ﴾ بالتنوين: كوفيّ، أي: شعلة مضيئة ﴿قَبَسٍ﴾ نار مقبوسة. بدل، أو: صفة. وغيرهم ﴿بشهابِ قبسٍ﴾ على

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

الإضافة؛ لأنّه يكون قبساً، وغير قبس. ولا تدافع بين قوله: ﴿سآتيكم﴾ هنا، و﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ في القصص [الآية: ٢٩] مع أنّ أحدهما ترجٍّ، والآخر تيقن؛ لأنّ الراجي إذا قوي رجاؤه يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة، ومجيئه بسين التسويف عِدَةٌ لأهله أنّه يأتيهم به، وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. وبأو؛ لأنّه بنى الرجاء على أنّه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما، إمّا هداية الطريق، وإمّا اقتباس النار. ولم يدر أنّه ظافر على النار بحاجتيه الكلّيّتين، وهما عزّ الدنيا والآخرة. واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين والقصّة واحدة دليلٌ على جواز نقل الحديث بالمعنى، وجواز الصلاة بالفارسية، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم. والطاء بدل من تاء افتعل؛ لأجل الصاد.

٨ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: النار التي أبصرها ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أن مخفّفة من الثقيلة. وتقديره: ﴿نودي﴾ موسى بأنّه ﴿بورك﴾. والضمير ضمير الشأن. وجاز ذلك من غير عوض، وإن منعه الزمخشريّ؛ لأنّ قوله ﴿بورك﴾ دعاء. والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة. أو: مفسّرة لأنّ في النداء معنى القول، أي: قيل له: ﴿بورك﴾ أي: قُدِّس، أو: جعل البركة والخير في ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: (بورك من في) مكان ﴿النار﴾ وهم الملائكة، ومَنْ حول مكانها ـ أي: موسى ـ بحدوث أمر دينيّ فيها، وهو تكليم الله موسى ـ عليه السلام ـ واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو من جملة ما نودي، فقد نزّه ذاته عمّا لا يليق به من التشبّه، وغيره.

٩ ـ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الضمير في ﴿إنّه﴾ للشأن ﴿أنا الله﴾ مبتدأ وخبر. و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للخبر. أو: يرجع إلى مادلّ عليه ما قبله، أي: إنّ مكلّمك ﴿أنا﴾، و﴿الله﴾ بيان لأنا، و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للمبيّن، وهو تمهيدٌ لما أراد أن يظهر على يده من المعجزة.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ﴾

١٠ ـ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ لتعلم معجزتك، فتأنس بها. وهو عطف على ﴿بورك﴾ لأنّ المعنى: ﴿نودي أن بورك من في النار...و﴾ أن ﴿ألق عصاك﴾. كلاهما تفسير لنودي. فالمعنى: قيل له: ﴿بورك من في النار﴾ وقيل له: ﴿ألق عصاك﴾. ويدلّ عليه ما ذكر في سورة القصص ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١] بعد قوله: ﴿أن يا موسى إنّي أنا الله﴾ على تكرير حرف التفسير ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرّك، حال من الهاء في (رآها) ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ـ حيّة صغيرة ـ حال من الضمير في ﴿تهتز﴾ ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ أدبر عنها، وجعلها تلي ظهره خوفاً من وثوب الحية عليه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يلتفت، أو: لم يرجع. يقال: قد عقّب فلان: إذا رجع يقاتل بعد أن ولّى. فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا يخاف عندي المرسلون حال خطابي إيّاهم. أو: لا يخاف لديّ المرسلون من غيري.

١١ ـ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: لكن ﴿من ظلم﴾ من غيرهم؛ لأنّ الأنبياء لا يظلمون. أو: لكن ﴿من ظلم﴾ منهم، من زلّ من المرسلين فجاء منه غير ما أذنت له، ممّا يجوز على الأنبياء، كما فرط من آدم، ويونس، وداود، وسليمان ـ عليهم السلام ـ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾ أي: أتبع توبة ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ زلّة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أقبل توبته، وأغفر زلّته، وأرحمه، فأحقّق أمنيّته. وكأنّه تعريضٌ بما قال موسى ـ عليه السلام ـ حين قتل القبطيّ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦].

١٢ ـ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك، وأخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ نيّرة تغلب نور الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص. و﴿بيضاء﴾ و﴿من غير سوء﴾ حالان ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ كلام مستأنف. و﴿في﴾ يتعلّق بمحذوف، أي: اذهب في ﴿تسع آيات﴾. أو: ﴿وألق عصاك... وأدخل يدك... في﴾ جملة ﴿تسع آيات﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ «إلى» يتعلّق بمحذوف، أي: مرسلاً ﴿إلى فرعون﴾

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خارجين عن أمر الله، كافرين.

١٣ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ معجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ حال، أي: ظاهرة بيّنة. جعل الإبصار لها، وهو في الحقيقة لمتأمّليها؛ لملابستهم إيّاها بالنظر، والتفكّر فيها، أو: جعلت كأنّها تبصر فتهدي؛ لأنّ العمي لا تقدر على الاهتداء، فضلاً أن تهدي غيرها. ومنه قوله: كلمة عوراء؛ لأنّ الكلمة الحسنة ترشد، والسيّئة تغوي ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر لمن تأمّله. وقد قوبل بين المبصرة والمبين.

١٤ ـ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ قيل: الجحود لا يكون إلاّ من علم الجاحد، وهذا ليس بصحيح؛ لأنّ الجحودَ هو الإنكار. وقد يكون الإنكارُ للشيء للجهل به، وقد يكون بعد المعرفة تعنّتاً. كذا ذكر في «شرح التأويلات». وذكر في «الديوان»: يقال: جحد حقّه، وبحقّه بمعنىً. والواو في: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ للحال، وقد بعدها مضمرة. والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ أي: جحدوها بألسنتهم، واستيقنوها في قلوبهم، وضمائرهم ﴿ظُلْمًا﴾ حال من الضمير في ﴿جحدوا﴾: وأيّ ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنّها آيات من عند الله، ثمّ سمّاها سحراً بيّناً! ﴿وَعُلُوًّا﴾ تكبراً وترفّعاً عن الإيمان بما جاء به موسى ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق هنا، والإحراق ثمَّ.

١٥ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ طائفة من العلم، أو: علماً سنيّاً غزيراً. والمراد: علم الدين، والحكم ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة في ترك الأصلح. وهنا محذوف ليصحّ عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء، كقولك: أعطيته فشكر. وتقديره: آتيناهما علماً، فعملا به، وعلّماه، وعرفا حقّ النعمة فيه ﴿وقالا الحمد لله الذي فضّلنا﴾. والكثير المفضّل عليه من لم يؤت علماً، أو: من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنّهما فُضّلا على كثير، وفُضّل عليهما كثير. وفي الآية دليلٌ على شرف العلم، وتقدّم حملته، وأهله، وأنّ نعمة

وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ

العلم من أجلّ النعم، وأنّ من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده. وما سمّاهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلاّ لمداناتهم لهم في الشرف، والمنزلة؛ لأنّهم القوّام لما بُعِثُوا من أجله. وفيها: أنّه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه، وأن يعتقدَ العالم أنّه إن فُضّل على كثير فقد فُضّل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: كلّ الناس أفقه من عمر.

١٦ ـ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ ورث منه النبوّة والملك دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر، قالوا: أوتي النبوّة مثل أبيه، فكأنّه ورثه، وإلاّ فالنبوّة لا تُورث ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، واعترافاً بمكانها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذكر المعجزة؛ التي هي علم منطق الطير. والمنطق: كلّ ما يصوّت به من المفرد والمؤلّف المفيد وغير المفيد. وكان سليمان ـ عليه السلام ـ يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض. رُوي: أنّه صاحت فاختة[١]، فأخبر أنّها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خُطّاف فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاحت رَخَمة[٢] فقال: تقول: سبحان ربّي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قُمْريّ[٣] فأخبر أنّه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدء تقول: كلّ شيء هالك إلاّ الله، والقطاط[٤] تقول: من سكت سلم، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا بن آدم! عش ما شئتَ آخرك الموت، والعقاب يقول: في البعد من الناس أنسٌ، والضفدع يقول: سبحان ربّي القدّوس[٥] ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ المراد به: كثرة

---

(١) «الفاختة»: نوع من الحمام المُطَوّق إذا مشى توسع في مشيه، وباعد بين جناحيه وإبطيه، وتمايل.

(٢) «الرَّخَمة»: طائر غزير الريش، أبيض اللون مبقّع بسواد، له منقار طويل.

(٣) «القمري»: نوع من الحمام مطوّق حسن الصوت.

(٤) «القطاة»: نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

(٥) هذه رواية إسرائيلية، الله أعلم بصحتها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾

ما أوتي، كما تقول: فلان يعلم كلّ شيء، ومثله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ قول وارد على سبيل الشكر، كقوله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»[١] أي: أقول هذا القول شكراً، ولا أقوله فخراً. والنون في ﴿علّمنا﴾ و﴿أوتينا﴾ نون الواحد المطاوع، وكان ملكاً مطاعاً، فكلّم أهل طاعته على حاله التي كان عليها، وليس التكبّر من لوازم ذلك.

١٧ ـ ﴿وَحُشِرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾. رُوي: أنّ معسكره كان مئة فرسخ في مئة فرسخ: خمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمئة منكوحة وسبعمئة سُرّيّة. وقد نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ. وكان يُوضع منبره في وسطه، وهو من ذهب وفضّة، فيقعد وحوله ستمئة ألف كرسيّ من ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء على كراسيّ الذهب، والعلماء على كراسيّ الفضّة، وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظلّه الطير بأجنحتها حتّى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر[٢]. ويُروى أنّه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تُسيِّره. فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إنّي قد زدتُ في ملكك: لا يتكلّم أحد بشيء إلاّ ألقته الريح في سمعك. فيُحكَى: أنه مرّ بحرّاث فقال: لقد أوتي آلُ داود ملكاً عظيماً، فألقته الريح في أذنه، فنزل، ومشى إلى الحرّاث، وقال: إنّما مشيت إليك لئلا تتمنّى ما لا تقدر عليه، ثمّ قال: تسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير ممّا أوتي آلُ داود ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أوّلهم على آخرهم، أي: يوقف سُلاَفُ

(١) رواه الحاكم (١ / ٣٠).
(٢) تصدير الرواية بالتضعيف يوحي بعدم صحّتها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾

العسكر[1] حتّى يلحقهم الثواني؛ فيكونوا مجتمعين، وذلك للكثرة العظيمة. والوزع: المنع. ومنه قول عثمان ـ رضي الله عنه ـ: ما يزع السلطان أكثر مما يزعُ القرآن.

١٨ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ أي: ساروا حتّى إذا بلغوا وادي النمل ـ وهو وادٍ بالشام كثير النمل. وعدّي بـ«على»؛ لأنّ إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء ـ ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ عرجاء تسمّى طاخية، أو: منذرة ـ وعن قتادة أنّه دخل الكوفة فالتفّتْ عليه الناس، فقال: سلوا عمّا شئتم، فسأله أبو حنيفة ـ رحمه الله وهو شابّ ـ عن نملة سليمان: أكانت ذكراً أم أنثى؟ فأفحم، فقال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: كانت أنثى. فقيل له: بماذا عرفت؟ فقال: بقوله ﴿قالت نملة﴾ ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة. وذلك: أنّ النملة مثل الحمامة في وقوعها على الذكر والأنثى، فتميّز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، وهو، وهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ ولم يقل: ادخلن؛ لأنّه لمّا جعلها قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون في أولي العقل أجرى خطابهنّ مجرى خطابهم ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ لا يكسرنّكم. والحطم: الكسر. وهو نهي مستأنف. وهو في الظاهر نهي لسليمان عن الحطم، وفي الحقيقة نهي لهنّ عن البروز والوقوف؛ على طريقة: لا أرينّك هاهنا، أي: لا تحضر هذا الموضع. وقيل: هو جواب الأمر، وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد؛ لأنه من ضرورات الشعر ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ قيل: أراد ﴿لا يحطمنكم﴾ جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ ـ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لا يعلمون بمكانكم، أي: لو شعروا لم يفعلوا، . قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل، فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال.

١٩ ـ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ متعجّباً من حذرها، واهتدائها لمصالحها،

---

(١) «سلاف العسكر»: متقدّموهم.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ونصيحتها للنمل. أو: فرحاً لظهور عدله. و﴿ضاحكاً﴾ حال مؤكّدة؛ لأنّ ﴿تبسّم﴾ بمعنى ضحك. وأكثر ضحك الأنبياء التبسّم، كذا قاله الزّجاج ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني. وحقيقته: كُفَّني عن الأشياء إلاّ عن شكر نعمتك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النبوّة، والملك، والعلم ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ لأنّ الإنعامَ على الوالدين إنعامٌ على الولد ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ في بقيّة عمري ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: وأدخلني الجنّة ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ لا بصالح عملي، إذ لا يدخل الجنّة أحد إلاّ برحمته، كما جاء في الحديث ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرة أنبيائك المرسلين، أو: مع ﴿عبادك الصالحين﴾.

رُوي: أنّ النملة أحسّت بصوت الجنود، ولا تعلم أنّهم في الهواء، فأمر سليمان ـ عليه السلام ـ الريح فوقفت لئلا يضْعَرْنَ[1] حتّى دخلن مساكنهنّ، ثمّ دعا بالدعوة.

٢٠ ـ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ﴾ مكيّ، وعليّ، وعاصم. وغيرهم بسكون الياء. والتفقّد: طلب ما غاب عنك ﴿لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ﴿أم﴾ بمعنى بل، والمعنى: أنّه تعرّف الطير، فلم يجد فيها الهدهد، فقال: مالي لا أراه؟! على معنى: أنّه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره، أو: غير ذلك. ثمّ لاح له أنه غائب، فأضرب عن ذاك، وأخذ يقول: بل هو غائب. وذكر: أنّ سليمان ـ عليه السلام ـ لما حجّ خرج إلى اليمين، فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلّي، فلم يجدوا الماء. وكان الهدهدُ قُنَاقِنَه[2]، وكان يرى الماء من تحت الأرض، كما يُرى الماءُ في الزجاجة، فتستخرج الشياطين الماء. فتفقّده لذلك. وذكر أنّه وقعت لفحةٌ من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدهد خال، فدعا عريف الطير، وهو النسر، فسأله عنه، فلم يجد عنده

(١) وضع في الأصل المخطوط تحت هذه الكلمة معناها وهو: يخوفن.
(٢) «القناقن»: الدليل الهادي، والبصير بالماء في حفر القني.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾

علمه. ثمّ قال لسيّد الطير ـ وهو العقاب ـ: عليّ به. فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبلٌ، فقصدته، فناشدها الله فتركته. فلمّا قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّهما على الأرض، وقال: يا نبيّ الله! اذكر وقوفك بين يدي الله. فارتعد سليمان، وعفا عنه.

٢١ ـ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بنتف ريشه، وإلقائه في الشمس، أو: بالتفريق بينه وبين إلفه، أو: بإلزامه خدمة أقرانه، أو: بالحبس مع أضداده. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد. أو: بإيداعه القفص، أو: بطرحه بين يدي النمل ليأكلنّه. وحلّ له تعذيب الهدهد؛ لما رأى فيه من المصلحة، كما حلّ ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع. وإذا سخّر له الطير ولم يتمّ التسخير إلاّ بالتأديب حَلَّ له التأديب والسياسة ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى﴾ بالنون الثقيلة؛ ليشاكل قوله ﴿لأعذبنّه﴾ وحذف نون العماد للتخفيف (ليأتينّني) بنونين، مكّيّ، الأولى للتأكيد، والثانية للعماد ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة له فيها عذر ظاهر على غيبته.

والإشكال أنّه حلف على أحد ثلاثة أشياء، اثنان منها فعله ولا مقال فيه، والثالث فعل الهدهد، وهو مشكل؛ لأنه من أين درى أنّه يأتي بسلطان حتّى قال والله ﴿ليأتيني بسلطان﴾؟ وجوابه: أنّ معنى كلامه: ليكوننّ أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب، ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما. وليس في هذا ادّعاء دراية.

٢٢ ـ ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد بعد تفقّد سليمان إياه ـ وبضمّ الكاف غير عاصم، وسهل، ويعقوب، وهما لغتان ـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: مُكْثاً ﴿غير﴾ طويل، أو: ﴿غير﴾ زمان بعيد، كقوله: عن قريب. ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان. فلمّا رجع سأله عما لقي في غيبته ﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾ علمت شيئاً من جميع جهاته ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ألهم الله الهدهد

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

فكافح[1] سليمان بهذا الكلام مع ما أوتي من فضل النبوّة والعلوم الجمّة، ابتلاء له في علمه. وفيه دليلُ بطلان قول الرافضة: إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحدٌ أعلم منه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ غير منصرف، أبو عمرو. وجعله اسماً للقبيلة، أو: المدينة. وغيره بالتنوين. جعله اسماً للحيّ، أو: الأب الأكبر ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النبأ: الخبر الذي له شأن. وقوله: ﴿من سبأ بنبأ﴾ من محاسن الكلام. ويسمى البديع، وقد حسن وبدع لفظاً ومعنى هاهنا. ألاَ ترى أنّه لو وضع مكان ﴿بنبأ﴾ بخبر؛ لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصحّ؛ لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

٢٣ ـ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ هي بلقيس بنت شراحيل. وكان أبوها ملك أرض اليمن، وقد ولد له أربعون ملكاً ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت على الملك. وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس. والضمير في: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ راجع إلى سبأ على تأويل القوم، أو: أهل المدينة ﴿وَأُوتِيَتْ﴾ حال. و«قد» مقدّرة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا ما يليق بحالها ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير ﴿عَظِيمٌ﴾ كبير. قيل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً، وطوله في الهواء ثمانون ذراعاً. وكان من ذهب وفضّة. وكان مرصّعاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودرّ، وزمرد، وعليه سبعة أبيات، على كلّ بيت باب مغلق. واستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم عرشها، كذلك. وقد أخفى الله تعالى على سليمان لمصلحة رآها، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب ـ عليهماالسلام ـ.

٢٤ ـ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل التوحيد ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق. ولا يبعد من

(١) «كافح»: لقي مواجهة.

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

الهدهد التهدّي إلى معرفة الله تعالى، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاءُ الرجاحُ العقول يهتدون لها.

٢٥ ـ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد. أي: ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ لئلاّ ﴿يسجدوا﴾ فحذف الجارّ مع أنْ، وأدغمت النون في اللام. ويجوز أن تكون ﴿لا﴾ مزيدة. ويكون المعنى: ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى أن يسجدوا. وبالتخفيف: يزيد، وعليّ. وتقديره: ﴿ألا﴾ يا هؤلاء ﴿اسجدوا﴾. فـ﴿ألا﴾ للتنبيه، و﴿يا﴾ حرف النداء، ومناداه محذوف. فمن شدّد لم يقف إلاّ على ﴿العرش العظيم﴾. ومن خفّف وقف على ﴿فهم لا يهتدون﴾ ثمّ ابتدأ ﴿ألا يا اسجدوا﴾. وسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً بخلاف ما يقوله الزجّاج: إنّه لا يجب السجود مع التشديد؛ لأنّ مواضع السجدة إمّا أمر بها، أو مدح للآتي بها، أو: ذمّ لتاركها. وإحدى القراءتين أمر، والأخرى ذمّ للتارك ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ سمّي المخبوء بالمصدر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قتادة: خَبْءُ السماء: المطر، وخَبْءُ الأرض: النبات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(١) وبالتاء فيهما: عليّ، وحفص.

٢٦ ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾ وَصْفُ الهدهد عرش الله بالعظم تعظيمٌ له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض، وَوَصْفه عرش بلقيس تعظيمٌ له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. إلى هاهنا كلام الهدهد.

٢٧ ـ فلمّا فرغ من كلامه ﴿۞ قَالَ﴾ سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر؛ الذي هو التأمّل ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. وهذا

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿يخفون... يعلنون...﴾ وهي قراءة: حمزة، وابن عامر، وأبي عمرو، وابن كثير، ونافع. معجم القراءات القرآنية (٤/٣٤٨).

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾

أبلغُ من: أم كذبت؛ لأنّه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به، فلم يوثق به. ثمّ كتب سليمان كتاباً صورته: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد؛ فلا ﴿تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾. وطبعه بالمسك، وختمه بخاتمه. وقال للهدهد:

٢٨ ـ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ﴾ بسكون الهاء تخفيفاً، أبو عمرو، وعاصم، وحمزة. ويختلسها كسر لتدلّ الكسرة على الياء المحذوفة ؛ يزيد وقالون ويعقوب. ﴿فألقهي﴾ بإثبات الياء: غيرهم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها؛ لأنّه ذكرهم معها في قوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤] وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تنحَّ ﴿عنهم﴾ إلى مكانٍ قريب، بحيث تراهم ولا يرونك؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما الذي يردّونه من الجواب.

٢٩ ـ فأخذ الهدهدُ الكتابَ بمنقاره، ودخل عليها من كوّة، فطرح الكتاب على نحرها، وهي راقدةٌ، وتوارى في الكوّة، فانتبهت فزعة. أو: أتاها والجنود حواليها فرفرف ساعة، فألقى الكتاب في حجرها، وكانت قارئة. فلمّا رأت الخاتم ﴿قَالَتْ﴾ لقومها خاضعة خائفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ وبفتح الياء: مدنيّ ﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مضمونه وما فيه، أو مختوم. قال ﷺ: «كرامة الكتاب: ختمه»[1]. وقيل: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخفّ به. أو: مصدّر ببسم الله الرحمن الرحيم، أو: لأنه من عند ملك كريم.

٣٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هو تبيين لما ألقي إليها، كأنها لمّا قالت ﴿إني ألقي إليّ كتاب كريم﴾، قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: ﴿إنّه من سليمان وإنّه﴾ كيت وكيت.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٩٩).

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً

---

٣١ ـ و«أن» في: ﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾ لا ترفعوا ﴿عَلَيَّ﴾ ولا تتكبروا كما تفعل الملوك مفسّرة كقوله: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦] يعني: أي: امشوا ـ ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين، أو: منقادين. وكتب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مبنيّة على الإيجاز، والاختصار.

٣٢ ـ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليّ في الأمر الذي نزل بي. والفتوى: الجواب في الحادثة؛ اشتقّت على طريق الاستعارة من الفَتَاء في السنّ. والمراد ـ هنا ـ بالفتوى: الإشارة عليها بما عندهم من الرأي. وقصدُها بالرجوع إلى الاستشار بهم تطييبُ أنفسهم ليمالئوها، ويقوموا معها ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ فاصلة، أو: ممضية حكماً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ ـ بكسر النون. والفتح لحن؛ لأن النون إنّما تُفتح في موضع الرفع، وهذا في موضع النصب. وأصله: تشهدونني، فحذفت النون الأولى للنصب. والياء لدلالة الكسرة عليها. وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب، أي: تحضروني، أو: تشيروني، وتشهدوا أنّه صواب، أي: لا أبُتُّ أمراً إلاّ بمحضركم. قيل: كان أهلُ مشورتها ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، كلّ واحد على عشرة آلاف.

٣٣ ـ ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أرادوا بالقوّة: قوّة الأجساد، والآلات، وبالبأس: النجدة، والبلاء في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: موكولٌ هو إليك، ونحنُ مطيعون لك، فمرينا بأمرك نطعك، ولا نخالفك. كأنّهم أشاروا عليها بالقتال. أو: أرادوا: نحنُ من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي، والمشورة، وأنتِ ذات الرأي، والتدبير، فانظري ماذا ترين نتبع رأيك. فلما أحسّت منهم الميلَ إلى المحاربة مالتْ إلى المصالحة، ورتّبت الجواب، فزيّفت أوّلاً ما ذكروه، وأرتهم الخطأ فيه، حيث:

٣٤ ـ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة، وقهراً ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خرّبوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أذلّوا أعزّتها، وأهانوا أشرافها، وقتلوا، وأسروا.

وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فذكرتْ لهم سوءَ مغبة الحرب. ثمّ قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرّة التي لا تتغير؛ لأنّها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك، ورأت، ثمّ ذكرت بعد ذلك حديث الهدية، وما رأت من الرأي السّديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها. واحتج الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية. ومن استباح حراماً فقد كفر. فإذا احتجّ له بالقرآن على وجه التحريف، فقد جمع بين كفرين.

٣٥ ـ ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ أي: ﴿مرسلة﴾ رسلاً ﴿بهديّه﴾ ﴿فَنَاظِرَةُۢ﴾ فمنتظرة ﴿بِمَ﴾ ـ أي: بما؛ لأنّ الألف تحذف مع حرف الجرّ في: «ما» الاستفهامية ـ ﴿يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ بقبولها أم بردّها؛ لأنّها عرفت عادة الملوك، وحُسْن مواقع الهدايا عندهم. فإن كان ملكاً قبلها وانصرف، وإن كان نبيّاً ردّها، ولم يرضَ منّا إلاّ أن نتبّعه على دينه. فبعثت خمسمئة غلام عليهم ثياب الجواري وحليّهن، راكبي خيل مغشّاة بالديباج، ومحلاّة اللجم والسروج بالذهب المرصّع بالجواهر، وخمسمئة جارية على رِمَاك[1] في زيّ الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضّة، وتاجاً مكلّلاً بالدرّ والياقوت، وحُقّاً فيه درّة عذراء، وجَزْعة معوجّة الثقب. وبعثت رسلاً، وأمّرت عليهم المنذر بن عمرو، بدليل قوله تعالى ﴿بم يرجع المرسلون﴾. وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدايا، وقالت فيه: إن كنتَ نبيّاً فميّز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقّ، واثقب الدرّة ثقباً مستوياً، [واسلك في الخرزة خيطاً][2]. ثمّ قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك، فلا يهولَنك منظره، وإن رأيته بشّاً لطيفاً فهو نبيّ. فأقبل الهدهد، فأخبر سليمانَ الخبَرَ كلّه. فأمر سليمان ـ عليه السلام ـ الجنّ، فضربوا لبِنَات الذهب والفضّة، وفرشوها في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شُرَفه من الذهب والفضّة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات. وأمر بأولاد الجنّ ـ وهم خلقٌ كثير ـ فأُقيموا عن

(١) «رِماك»: أي: إناث الخيل.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط، ومستدرك من المطبوع.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾

اليمين واليسار، ثمّ قعد على سريره والكراسيّ من جانبيه. واصطفّت الشياطينُ صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوامّ كذلك. فلمّا دنا القوم، ورأوا الدوابّ تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا. ولمّا وقفوا بين يديه، نظر إليهم سليمان بوجهٍ طَلْقٍ، فأعطوه كتاب الملكة، فنظر فيه، وقال: أين الحُقُّ؟ فأمر الأَرَضَة فأخذت شعرة، ونفذت في الدرّة، فأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت فيها[1]، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثمّ تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه. ثمّ ردّ الهدية، وقال للمنذر: ﴿ارجع إليهم﴾.

٣٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ رسولُها المنذرُ بن عمرو ﴿سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾؟ بنونين، وإثبات الياء في الوصل والوقف: مكيّ وسهل. وافق: مدنيّ، وأبو عمرو في الوصل ﴿أتمدّونّي﴾: حمزة، ويعقوب في الحالين. وغيرهم بنونين بلا ياء فيهما. والخطاب للرسل ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوّة، والملك، والنعمة. وبفتح الياء: مدنيّ، وأبو عمرو، وحفص ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من زخارف الدنيا ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ الهديّة: اسم المهدَى، كما أنّ العطيّة اسم المعطَى، فتضاف إلى المهدِي والمهدَى له. تقول: هذه هديّة فلان، تريد: هي التي أهداها، أو: أهديت إليه. والمعنى: أنّ ما عندي خير ممّا عندكم، وذلك أنّ الله آتاني الدِّين الذي فيه الحظّ الأوفر، والغِنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يُستزاد عليه. فكيف يرضى مثلي بأنّ يمدّ بمال؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلاّ ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تزادون، ويُهْدَى إليكم؛ لأنّ ذلك مبلغ همّتكم. وحالي خلاف حالكم، وما أرضى منكم بشيء، ولا أفرح به إلاّ بالإيمان، وترك المجوسيّة. والفرق بين قولك: أتمدّني بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء، أنّي إذا قلته بالواو جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي في الغِنى، وهو مع ذلك يمدّني بمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن

(١) أي: في الخرزة المارّ ذكرها.

ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ

خفيت عليه حالي، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاجُ معه إلى إمداده، كأنّي أقول له: أنكر عليك ما فعلت؛ فإنّي غنيّ عنه. وعليه ورد: ﴿فما آتاني الله﴾.

وَوَجْهُ الإضراب: أنه لمّا أنكر عليهم الإمداد، وعلّل إنكاره؛ أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو أنّهم لا يعرفون سبب رِضاً ولا فرحٍ إلاّ أن يُهدى إليهم حظّ من الدنيا؛ التي لا يعلمون غيرها.

٣٧ ـ ﴿ٱرْجِعْ﴾ خطاب للرسول، أو: الهدهد محمّلاً كتاباً آخر ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقة ﴿لَهُم بِهَا﴾ وحقيقة القِبَل: المقاومة، والمقابلة، أي: لا يقدرون أن يقابلوهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ الذلّ: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ، والملك. والصغار: أن يقعوا في أسرٍ، واستعباد.

٣٨ ـ فلمّا رجع إليها رسولُها بالهدايا، وقصَّ عليها القصّة، قالت: هو نبيّ، ومالنا به طاقة. ثمّ جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات، وغلّقت الأبواب، ووكّلت به حرساً يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك لأنظر ما الذي تدعو إليه. وشَخَصَتْ إليه في اثني عشر ألف قَيْل[1]، تحت كل قَيْل ألوف. فلمّا بلغت على رأس فرسخ من سليمان ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أراد أن يريها بذلك بعض ما خصّه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان ـ عليه السلام ـ. أو: أراد أن يأخذه قبل أن تسلم، لعلمه أنّها إذا أسلمت لم يحلّ له أَخْذُ مالها. وهذا بعيدٌ عند أهل التحقيق. أو: أراد أن يُؤتى به فينكر، ويغيّر، ثمّ ينظر أتثبته، أم تنكره، اختباراً لعقلها.

٣٩ ـ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهو: الخبيث المارد، واسمه ذكوان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ مجلس حكمك، وقضائك ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ على حمله

---

(١) «القَيْل»: من ملوك اليمن في الجاهلية، دون الملك الأعظم.

لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ

﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ آتي به كما هو، لا أختزل منه شيئاً، ولا أبدّله. فقال سليمان ـ عليه السلام ـ: أريد أعْجَلَ من هذا.

٤٠ ـ ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ﴾ ـ أي: ملك بيده كتاب المقادير، أرسله الله تعالى عند قول العفريت، أو: جبريل ـ عليه السلام ـ. والكتاب على هذا: اللوح المحفوظ. أو: الخضر. أو: آصف بن برخيا كاتب سليمان ـ عليه السلام ـ. وهو الأصحّ. وعليه الجمهور. وكان عنده اسمُ الله الأعظم؛ الذي إذا دُعي به أجاب، وهو: يا حيّ، يا قيّوم، يا ذا الجلال والإكرام. أو: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً، لا إله إلاّ أنت. وقيل: كان له علم بمجاري الغيوب إلهاماً ـ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ بالعرش. و﴿آتيك﴾ في الموضعين يجوزُ أن يكون فعلاً، أو: اسم فاعل. ومعنى قوله ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: أنك ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن تردّه أبصرتَ العرشَ بين يديك. ويُروى أنّ آصف قال لسليمان ـ عليه السلام ـ: مُدّ عينيك حتّى ينتهي طرفك. فمدّ عينيه، فنظر نحو اليمين، ودعا آصف، فغار العرش في مكانه، ثمّ نبغ عند مجلس سليمان ـ عليه السلام ـ بقدرة الله تعالى، قبل أن يَرُدَّ طرفه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ثابتاً لديه، غير مضطرب ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي: حصول مرادي، وهو حضور العرش، في مدّة ارتداد الطرف ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ عليّ، وإحسانه إليّ بلا استحقاق مني، بل هو فضلٌ خالٍ عن العوضِ، صافٍ عن الغرض ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ﴾ ليمتحنني ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ إنعامه ﴿أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّه يحطّ به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران، ويستجلب به المزيد، وترتبط به النعمة، فالشكرُ قيدٌ للنعمة الموجودة، وصيدٌ للنعمة المفقودة. وفي كلام بعضهم: «إنّ كفران النعمة بوار. وقلما اتّسَعَتْ[1] نافرةٌ فرجعت في نصابها. فاستدعِ شاردها

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: أقشعت.

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ

بالشكر. واستدمْ راهنها بكرم الجوار. واعلم أنّ سبوغَ ستر الله تعالى متقلّص عمّا قريب إذا أنت لم ترج لله وقاراً» أي: لم تشكر الله نعمه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بترك الشكر على النعمة ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته. قال الواسطي: ما كان مِنَّا من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنّة والفضل علينا.

٤١ ـ ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيّروا، أي: اجعلوا مقدّمه مؤخّره، وأعلاه أسفله ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على الجواب ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفة عرشها، أو: للجواب الصواب إذا سُئِلت عنه ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٤٢ ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيس ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ ها: للتنبيه. والكاف: للتشبيه، وذا: اسم إشارة. ولم يقل: أهذا عرشك؟ ولكن: أمثل هذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فأجابت أحسن جواب. فلم تقل: هو هو، ولا ليس به. وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقطعْ في المحتمل للأمرين. أو: لمّا شبّهوا عليها بقولهم: ﴿أهكذا عرشك﴾ شبّهت عليهم بقولها: ﴿كأنّه هو﴾ مع أنّها علمتْ أنّه عرشها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من كلام بلقيس. أي: ﴿وأوتينا العلم﴾ بقدرة الله تعالى، وبصحّة نبوّتك بالآيات المتقدّمة من أمر الهدهد والرسل، من قبل هذه المعجزة، أي: أخبار[1] العرش، أو: من قبل هذه الحالة، ﴿وكنّا مسلمين﴾ منقادين لك، مطيعين لأمرك. أو: من كلام سليمان ومَلئِه. عطفوا على كلامها قولهم: ﴿وأوتينا العلم﴾ بالله، وبقدرته، وبصحّة ما جاء من عنده قبل علمها. أو: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة من قبل مجيئها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ موحّدين، خاضعين.

٤٣ ـ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ متّصل بكلام سليمان. أي: وصدّها

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: إحضار.

إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

عن العلم بما علمناه ـ أو: عن التقدّم إلى الإسلام ـ عبادة الشمس، ونَشْؤها بين ظهرانيِّ الكفرة. ثم بيّن نَشْأها بين الكفرة بقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. أو: كلام مبتدأ. أي: قال الله تعالى: ﴿وصدّها﴾ قبل ذلك عمّا دخلت فيه ضلالُها عن سواء السبيل. أو: ﴿صدّها﴾ الله، أو: سليمان عمّا ﴿كانت تعبد﴾ بتقدير حذف الجار، وإيصال الفعل.

٤٤ ـ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ القصر، أو: صحن الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء عظيماً ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ ﴿سأقيها﴾: بالهمزة: مكيّ. رُوي: أنّ سليمان أمر قبل قدومها، فبني له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الطير، والجنّ، والإنس. وإنّما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحقيقاً لنبوّته. وقيل: إنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها فتفضي إليه بأسرارهم؛ لأنّها كانت بنت جنّيّة! وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد يجمع فطنة الجنّ والإنس، فيخرجون من مُلْكِ سليمان إلى مُلْكٍ هو أشدّ، فقالوا له: إنّ في عقلها شيئاً، وهي شَعْراء الساقين، ورِجْلها كحافر الحمار. فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرحَ ليتعرف ساقها ورِجْلها. فكشفت عنهما فإذا هي أحسنُ الناس ساقاً وقدماً ـ إلاّ أنها شعراء ـ فصرف بصره، ثمَّ ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملّس مستو ـ ومنه: الأمرد ـ ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج. وأراد سليمان تزويجها، فكره شعرها، فعملت لها الشياطين النورة، فأزالته، فنكحها سليمان، وأحبّها، وأقرّها على ملكها. وكان يزورُها في الشهر مرّة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدتْ له ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ قال المحققون: لا يحتمل أن يحتالَ سليمانُ ـ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

عليه السلام ـ لينظر إلى ساقيها وهي أجنبيّة. فلا يصحّ القولُ بمثله.

٤٥ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَـٰلِحًا﴾ بدل ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بكسر النون في الوصل: عاصم، وحمزة، وبصريّ. وبضمّ النون: غيرهم إتباعاً للباء. والمعنى: بأن اعبدوا الله، أي: وَحِّدوه ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فَرِيقَانِ﴾ خبر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة. وهي العامل في ﴿إذا﴾. والمعنى: فإذا قوم صالح ﴿فريقان﴾ مؤمن به وكافر به ﴿يختصمون﴾ فيقول كلّ فريق: الحقّ معي. وهو مبيَّن في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦]. وقال الفريق الكافر: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

٤٦ ـ ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعذاب الذي توعدون به ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة؟ ﴿لَوْلَا﴾ هلاّ ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزول العذاب بكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالإجابة.

٤٧ ـ ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ تشاءمنا بك؛ لأنهم قُحِطوا عند مبعثه؛ لتكذيبهم؛ فنسبوه إلى مجيئه. والأصل: ﴿تطيّرنا﴾. وقرىء به. فأدغمت التاء في الطاء، وزيدت الألف لسكون الطاء ﴿وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: سببكم الذي يجيء منه خيركم وشرّكم عند الله، وهو قدره، وقسمته. أو: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم، وفتنة. ومنه: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. وأصله: أنّ المسافر إذا مرّ بطائر فيزجره، فإن مرّ سانحاً[١] تيامن. وإذا مرّ

(١) «سانحاً»: السانح: ما ولاك ميامنه، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك.

بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

بارحاً[١] تشاءم. فلمّا نسبوا الخير والشرّ إلى الطّائر استعير لما كان سببهما من قدر الله، وقسمته، أو: من عمل العبد؛ الذي هو السَّببُ في الرحمة، والنّقمة ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ تختبرون، أو: تعذّبون بذنبكم.

٤٨ ـ ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مدينة ثمود، وهي: الحجر ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ هو جمع لا واحد له، ولذا جاز تمييز التسعة به. فكأنّه قيل: تسعة أنفس. وهو من الثلاثة إلى العشرة. وعن أبي دُرَيْدٍ[٢]: رأسهم قدار بن سالف. وهم الذين سعوا في عقر الناقة. وكانوا أبناءَ أشرافهم ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ يعني: أنّ شأنهم الإفساد البحت، لا يخلط بشيء من الصلاح، كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح. وعن الحسن: يظلمون الناسَ، ولا يمنعون الظالمين من الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معايبَ الناس، ولا يسترون عوراتهم.

٤٩ ـ ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ تحالفوا ـ خبر في محلّ الحال بإضمار قد، أي: ﴿قالوا﴾ متقاسمين. أو: أمر، أي: أمر بعضهم بعضاً بالقسم ـ ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ لنقتلنّه بياتاً، أي: ليلاً ﴿وَأَهۡلَهُۥ﴾ ولده وتبعه ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ لوليّ دمه. ﴿لتبيّتنّه﴾ بالتاء وبضمّ التاء الثانية ﴿ثمّ لتقولنّ﴾ بالتاء وضم اللام: حمزة، وعليّ ﴿مَا شَهِدۡنَا﴾ ما حضرنا ﴿مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾: حفص. ﴿مَهلَك﴾: أبو بكر، وحمّاد، والمفضّل، مِن: هلك. فالأوّل: موضع الهلاك، والثاني: المصدر. ﴿مُهلَك﴾: غيرهم، مِن: أهلك، وهو الإهلاك، أو: مكان الإهلاك. أي: لم نتعرّض لأهله، فكيف تعرّضنا له؟ أو: ما حضرنا موضع هلاكه، فكيف تولّيناه؟ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما ذكرنا.

---

(١) «بارحاً»: البارح: ما ولاك مياسره، بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك.
(٢) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: دؤاد.

وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

٥٠ ـ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح ـ عليه السلام ـ وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبّه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. رُوي: أنّه كان لصالح مسجد في الحجر في شِعْبٍ يصلِّي فيه، فقالوا: زعم صالح أنّه يفرغ منّا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث. فخرجوا إلى الشعب، وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناه، ثمّ رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث الله صخرةً من الهَضْب حيالهم[1]، فبادروا، فطبّقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فُعِل بقومهم، وعذّب الله كلّاً منهم في مكانه، ونجّى صالحاً ـ عليه السلام ـ ومَن معه.

٥١ ـ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بفتح الألف: كوفيّ، وسهلٌ، وبكسرها: غيرهم، على الاستئناف. ومن فتحه رفعه على أنّه بدل من العاقبة، أو: خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهي تدميرهم. أو: نصبه على معنى لـ﴿أنّا﴾، أو: على أنّه خبر كان، أي: كان عاقبة مكرهم الدمار ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالصيحة.

٥٢ ـ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ ساقطة منهدمة، مِن: خوى النجم؛ إذا سقط. أو: خالية من الخَواء. وهي حال عمل فيها ما دلّ عليه ﴿تلك﴾. ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فعل بثمود ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا، فيتّعظون.

٥٣ ـ ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بصالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ترك أوامره،

(١) «صخرة من الهضب حيالهم»: أي: من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة. وقعد «حياله»: أي: إزاءه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ

وكانوا أربعة آلاف، نجوا مع صالح من العذاب.

٥٤ ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ﴾ أي: واذكر ﴿لوطاً﴾. و﴿إذ﴾ بدل من ﴿لوطاً﴾ أي: واذكر وقت قول لوط ﴿لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: إتيان الذكور ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنّها فاحشة لم تسبقوا إليها؛ من: بصر القلب. أو: يرى ذلك بعضُهم من بعض؛ لأنّهم كانوا يرتكبونها في ناديهم معالنين بها لا يتستّر بعضهم من بعض مجانةً، وانهماكاً في المعصية. أو: ﴿تبصرون﴾ آثار العصاة قبلكم، وما نزل بهم. ثمّ صرح فقال:

٥٥ ـ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ للشهوة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: أنّ الله تعالى إنّما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادّة لله في حكمته ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فعل الجاهلين بأنّها فاحشة مع علمكم بذلك. أو: أريد بالجهل: السفاهة، والمجانة التي كانوا عليها. وقد اجتمع الخطابُ والغيبةُ في قوله: ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ و﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] فغلب الخطاب على الغيبة لأنّه أقوى، إذ الأصلُ أن يكون الكلامُ بين الحاضرين.

٥٦ ـ ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: لوطاً ومتّبعيه. فخبر ﴿كان﴾: ﴿جواب﴾. واسمه: ﴿أن قالوا﴾ ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزّهون عن القذورات[1]، فينكرون هذا العمل القذر، ويغيظنا إنكارهم. وقيل: هو استهزاء: كقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

٥٧ ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ فخلّصناه من العذاب الواقع بالقوم ﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ

(١) كذا في الأصل المخطوط وفي المطبوع: القاذورات.

﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ بالتشديد، سوى حماد، وأبي بكر. أي: قدّرنا كونها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الباقين في العذاب.

٥٨ ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار.

٥٩ ـ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أمر رسوله محمّداً ﷺ بتحميده، ثمّ بالصلاة على المصطفين من عباده؛ توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيّته وقدرته على كلّ شيء. وهو تعليمٌ لكلّ متكلّم في كلّ أمر ذي بال بأن يتبرّك بهما، ويستظهر بمكانهما. أو: هو خطاب للوط ـ عليه السلام ـ وأن يحمد الله على هلاك كفّار قومه، ويسلّم على من اصطفاه الله، ونجّاه من هلكتهم، وعصمه من ذنوبهم ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالياء: بصريّ، وعاصم. ولا خير فيما أشركوه أصلاً حتّى يوازن بينه وبين من هو خالق كلّ شيء. وإنّما هو إلزام لهم، وتهكّم بحالهم. وذلك أنّهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، ولا يؤثر عاقلٌ شيئاً على شيء إلاّ لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير، ومنفعة. فقيل لهم ـ مع العلم بأنّه لا خير فيما آثروه، وأنّهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثاً ـ: لينبّهوا على الخطأ المفرط، والجهل المُورِط؛ وليعلموا: أنّ الإيثارَ يجبُ أن يكون للخير الزائد. وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله خير، وأبقى، وأجلّ، وأكرم»[1].

ثمّ عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، فقال:

٦٠ ـ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والفرق بين ﴿أم﴾ و﴿أم﴾ في ﴿أمّا يشركون﴾ و﴿أمّن خلق السموات﴾ أن تلك متّصلة، إذ المعنى: أيّهما خير،

---

(١) قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد، وأخرجه الثعلبي في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر... (حاشية الكشاف ٣ / ٣٧٥).

وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة. لمّا قال ﴿آلله خير﴾ أم الآلهة، قال: بل ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ خير، تقريراً لهم بأنّ من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى التكلّم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته، وإيذاناً بأنّ إنبات الحدائق ـ المختلفة الأصناف، والألوان، والطُعم، والأشكال مع حسنها ـ بماء واحد، لا يقدر عليه إلاّ هو وحده ﴿بِهِۦ﴾ بالماء ﴿حَدَآئِقَ﴾ بساتين. والحديقة: البستان عليه حائط. من الإحداق، وهو: الإحاطة ﴿ذَاتَ﴾ ولم يقل ذوات؛ لأنّ المعنى: جماعة حدائق، كما تقول: النساء ذهبت ﴿بَهۡجَةٖ﴾ حسن، لأنّ الناظر يبتهجُ به، ثم رشَّح معنى الاختصاص بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء. أراد: أنّ تأتّي ذلك محالٌ من غيره ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيره يقرن به، ويجعل شريكاً له ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ به غيره. أو: ﴿يعدلون﴾ عن الحقّ الذي هو التوحيد. و﴿بل هم﴾ بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم.

٦١ ـ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وما بعده بدل من ﴿أم من خلق﴾ فكان حكمها حكمه. ﴿قَرَارٗا﴾ دحاها، وسوّاها للاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ ظرف، أي: وسطها. وهو المفعول الثاني. والأوّل ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾. و﴿بين البحرين﴾ مثله ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ للأرض ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً تمنعها عن الحركة ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا﴾ مانعاً أن يختلطا ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ التوحيد، فلا يؤمنون.

٦٢ ـ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الاضطرار: افتعال من الضرورة، وهي: الحالة المحوجة إلى اللجأ. يقال: اضطره إلى كذا. والفاعل والمفعول مضطّر. والمضطّر: الذي أحوجه مرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر إلى الإلجاء

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ

والتضرّع إلى الله، أو: المذنب إذا استغفر، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد، وهو منه على خطر ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الضرّ، أو: الجور ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فيها. وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن. أو: أراد بالخلافة: الملك، والتسلّط ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] وبالياء: أبو عمرو. وبالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص. و﴿ما﴾ مزيدة. أي: ﴿تذّكّرون﴾ تذكّراً قليلاً.

٦٣ ـ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ يرشدكم بالنجوم ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ليلاً، وبعلامات في الأرض نهاراً ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الريح﴾: مكيّ، وحمزة، وعليّ ﴿بُشْرًۢا﴾ من البشارة. وقد مرّ[2] ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قدام المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٦٤ ـ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ينشىء الخلق ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وإنما قيل لهم: ﴿ثم يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة؛ لأنّه أزيحت علّتهم بالتمكين من المعرفة، والإقرار، فلم يبقَ لهم عذرٌ في الإنكار ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المطَر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ النباتَ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجّتكم على إشراككم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنَّ مع الله إلهاً آخر.

٦٥ ـ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿مَنْ﴾ فاعل ﴿يعلم﴾.

---

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿تذّكّرون﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبي عمرو، وابن عامر، وشعبة، وابن ذكوان، ويعقوب، وأبي جعفر، معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٦٣).

(٢) أي في سورة الأعراف آية (٥٧).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾

و﴿الغيب﴾ ـ وهو ما لم يقمْ عليه دليلٌ، ولا اطّلع عليه مخلوق ـ: مفعوله. ﴿والله﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾. والمعنى: لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله. نعم إنّ الله يتعالى عن أن يكونَ ممّن في السموات والأرض، ولكنّه جاء على لغة بني تميم، حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتّصل، يجيزون النصب والبدل في المنقطع كما في المتّصل، ويقولون: ما في الدار أحد إلاّ حمار. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: من زعم أنّه يعلمُ ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية. والله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاّ الله﴾. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يعلمون ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ينشرون.

٦٦ ـ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾: مكيّ، وبصريّ، ويزيد، والمفضّل. أي: انتهى وتكامل، من: أدركت الفاكهة: تكاملت نضجاً. ﴿بل ادّرك﴾ عن الأعشى. افتعل. ﴿بل ادّارك﴾: غيرهم. استحكم. وأصله: تدارك، فأدغمت التاء في الدال، وزيد ألف الوصل ليمكن التكلّم بها ﴿عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: في شأن الآخرة، ومعناها. والمعنى: أنّ أسباب استحكام العلم وتكامله بأنّ القيامة كائنة قد حصلت لهم، ومكّنوا من معرفته، وهم شاكّون جاهلون. وذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. والإضرابات الثلاثة تنزيل لأحوالهم، وتكرير لجهلهم. وصفهم أوّلاً بأنّهم لا يشعرون وقت البعث، ثمّ بأنّهم لا يعلمون أنّ القيامة كائنة، ثمّ بأنّهم يخبطون في شكّ ومرية، فلا يزيلونه، والإزالة مستطاعة، ثمّ بما هو أسوأ حالاً، وهو العمى. وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأه؛ فلذا عدّاه بـ «من» دون «عن» لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التدبّر، والتفكّر. ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية ـ وهو وصفُ المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكين من المعرفة ـ بما قبله، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب؛ أنّ العباد لا علم لهم بشيء منه: أنه لمّا ذكر أنّ العباد لا يعلمون الغيب؛ كان هذا بياناً لعجزهم،

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾

ووصفاً لقصور علمهم، وصل به أنّ عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنّهم يقولون للكائن الذي لا بدّ من كونه، وهو وقت جزاء أعمالهم: لا يكون ـ مع أنّ عندهم أسباب معرفة كونه، واستحكام العلم به. وجاز أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكّماً بهم، كما تقول لأجهل الناس: ما أعْلَمَكَ! على سبيل الهزء. وذلك حيث شكّوا، وعموا عن إثباته، الذي الطريق إلى عمله مسلوك، فضلاً أن يعرفوا وقت كونه، الذي لا طريق إلى معرفته. ويجوز أن يكون ﴿أدرك﴾ بمعنى: انتهى وفني، من قولك: أدْرَكَتِ الثمرة؛ لأنّ تلك غايتها التي عندها تُعْدَمُ. وقد فسّرها الحسن بـ: اضمحلَّ علمهم في الآخرة. و﴿تدارك﴾ من: تدارك بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك.

٦٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ من قبورنا أحياء؟! وتكرير حرف الاستفهام في: «إذا» و«إنَّ» في قراءة عاصم، وحمزة، وخلف، إنكار بعد إنكار، وجحود عقيب جحود، ودليل على كفر مؤكّد مبالغ فيه. والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه ﴿لمخرجون﴾ وهو نخرج؛ لأنّ اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام، أو أنّ، أو لام الابتداء، لا يعمل فيما قبله، فكيف إذا اجتمعن؟ والضمير في ﴿إنّا﴾ لهم ولآبائهم؛ لأنّ كونهم تراباً قد تناولهم وآباءهم، لكنّه غُلِّبَتِ الحكاية على الغائب. ﴿وآباؤنا﴾ عطف على الضمير في ﴿كنّا﴾ لأنّ المفعول جرى مجرى التوكيد.

٦٨ ـ ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ من قبل محمّد ﷺ. قدّم هنا ﴿هذا﴾ على ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وفي المؤمنون قُدِّم ﴿نحن وآباؤنا﴾ على ﴿هذا﴾ ليدلّ على أنّ المقصود بالذكر هو البعث هنا، وثمَّ المبعوث ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ما هذا إلاّ أحاديثهم، وأكاذيبهم.

٦٩ ـ ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: آخر أمر الكافرين. وفي ذكر الإجرام لطف للمسلمين في ترك الجرائم، كقوله تعالى:

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح: ٢٥].

٧٠ ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأجل أنّهم لم يتبعوك، ولم يُسْلِموا فَيَسْلَمُوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم وكيدهم لك، فإنّ الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق الشيء ضَيقاً بالفتح، وهو قراءة غير ابن كثير، وبالكسر، وهو قراءته.

٧١ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ العذابَ نازلٌ بالمكذّب.

٧٢ ـ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استعجلوا العذاب الموعود، فقيل لهم: عسى أن يكون ردفكم بعضه، وهو عذاب يوم بدر، فزيدت اللام للتأكيد كالباء في: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. أو: ضمّن معنى فعل يتعدّى باللام، نحو: دنا لكم، وأزف لكم. ومعناه: تبعكم، ولحقكم، وعسى ولعلّ وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدلّ على صدق الأمر، وجدّه، فعلى ذلك جرى وعد الله، ووعيده.

٧٣ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: إفضال ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بترك المعاجلة بالعذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أكثرهم لا يعرفون حقّ النعمة فيه، ولا يشكرونه، فيستعجلون العذاب بجهلهم.

٧٤ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون من القول. فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، ولكن له وقت مقدّر. أو: أنّه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ، ومكائدهم، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه. وقرىء ﴿تَكُنّ﴾ يقال: كننت الشيء، وأكننته: إذا

وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

سترته، وأخفيته.

٧٥ ـ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ سمّى الشيء الذي يغيب ويخفى: غائبة، وخافية. والتاء فيهما كالتاء في العافية والعاقبة، ونظائرهما: الرميّة، والذبيحة، والنطيحة في أنّها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين، وتاؤهما للمبالغة كالراوية. كأنّه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة إلاّ وقد علمه الله، وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ. والمبين: الظاهر، البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة.

٧٦ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يبيّن لهم ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإنّهم اختلفوا في المسيح، فتحزّبوا فيه أحزاباً، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة، حتّى لعن بعضهم بعضاً. وقد نزل القرآنُ ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا، وأخذوا به، وأسلموا. يريد: اليهود، والنصارى.

٧٧ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم، وآمن، أي: من بني إسرائيل. أو: منهم، ومن غيرهم.

٧٨ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: بعدله؛ لأنّه لا يقضي إلاّ بالعدل، فسمّي المحكوم به حكماً. أو: بحكمته. ويدلّ عليه قراءة من قرأ ﴿بِحِكَمِه﴾ جمع حكمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يردّ قضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه. أو: ﴿العزيز﴾ في انتقامه من المبطلين، ﴿العليم﴾ بالفصل بينهم وبين المحقّين.

٧٩ ـ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أمره بالتوكّل على الله، وقلّة المبالاة بأعداء الدين ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وعلّل التوكّل بأنّه على الحقّ الأبلج، وهو: الدين الواضح الذي لا يتعلّق به شكّ. وفيه بيان أنّ صاحب الحقّ حقيق بالوثوق على الله، وبنصرته.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

٨٠، ٨١ ـ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ لمّا كانوا لا يعون ما يسمعون، ولا به ينتفعون، شُبِّهوا بالموتى، وهم: أحياء، صحاح الحواس، وبالصمّ الذين يُنعَقُ بهم فلا يسمعون، وبالعمي حيث يضلّون الطريق، ولا يقدر أحدٌ أن ينزع ذلك عنهم، ويجعلهم هداةً بصراء إلاّ الله عزَّ وجلَّ. ثمّ أكّد الحال الأصمِّ بقوله ﴿إذا ولّوا مدبرين﴾ لأنّه إذا تباعد عن الداعي بأن يُولي عنه مدبراً، كان أبعد عن إدراك صوته. ﴿ولاَ يَسمع الصمُّ﴾: مكّيّ، وكذا في الروم. ﴿وما أنت تهدي العميَ﴾ وكذا في الروم: حمزة ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ما يجدي إسماعك إلاّ على الذين علم الله أنّهم يؤمنون بآياته، أي: يصدّقون بها ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون مِن قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] يعني: جعله سالماً، لله خالصاً له.

٨٢ ـ ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ سمّى معنى القول ومؤدّاه بالقول، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب. ووقوعه: حصوله. والمراد: مشارفة الساعة، وظهور أشراطها، وحين لا تنفع التوبة ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هي: الجسّاسة. في الحديث: «طولها ستّون ذراعاً، لا يدركها طالبٌ، ولا يفوتها هاربٌ، ولها أربع قوائم، وزغب، وريش، وجناحان»[(١)] وقيل: لها رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيّل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرّة، وذنب كبش، وخفّ بعير، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج من الصفا فتكلّمهم بالعربيّة، فتقول: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[(٢)] بخروجي، لأنّ خروجها من الآيات. وتقول: ألاَ لعنة

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة. (حاشية الكشاف ٣ / ٣٨٤).

(٢) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿إن﴾ بالكسر وهي قراءة: ابن عامر، =

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾

الله على الظالمين. أو: تكلّمهم ببطلان الأديان كلّها سوى دين الإسلام، أو: بأنّ هذا مؤمن، وهذا كافر. وفتح ﴿أنّ﴾: كوفيّ وسهل، على حذف الجار، أي: تكلّمهم بأن. وغيرهم كسروا؛ لأنَّ الكلامَ بمعنى القول، أو: بإضمار القول، أي: تقول الدابّة ذلك. ويكون المعنى: بآيات ربّنا، أو هي حكاية لقول الله تعالى عند ذلك. ثمّ ذكر قيام الساعة فقال:

٨٣ ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ «مِنْ»: للتبعيض، أي: واذكر يوم نجمع من كلّ أمة من الأمم زمرة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾ «مِنْ»: للتبيين ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة على أنبيائنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم حتّى يجتمعوا، ثمّ يساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارةٌ عن كثرة العدد، وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة.

٨٤ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ حضروا موقف الحساب، والسؤال ﴿قَالَ﴾ لهم تعالى تهديداً: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ المنزلة على رسلي ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال، كأنّه قال ﴿أكذبتم بآياتي﴾ بادىء الرأي من غير فكر، ولا نظر يؤدّي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنّها حقيقةٌ بالتصديق، أو: بالتكذيب؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حيث لم تتفكّروا فيها؟ فإنّكم لم تخلقوا عبثاً.

٨٥ ـ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

٨٦ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حال. جعل الإبصار للنهار، وهو لأهله. والتقابل مُراعى من حيث المعنى؛ لأنّ معنى ﴿مبصراً﴾:

= وابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وخلف، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٤/ ٣٧١).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ

لِيبصروا فيه طرق التقلّب في المكاسب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون فيعتبرون. وفيه دليلٌ على صحّة البعث؛ لأنَّ معناه: ألم يعلموا أنّا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا؛ ليعلموا أنّ ذلك لم يجعل عبثاً، بل محنة وابتلاء، ولا بدّ عند ذلك من ثوابٍ وعقاب. فإذا لم يكونا في هذه الدار، فلا بدّ من دارٍ أخرى للثواب والعقاب.

٨٧ ـ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن، أو: جمع صورة. والنافخ إسرافيل ـ عليه السلام ـ ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ واختير ﴿فزع﴾ على يفزع؛ للإشعار بتحقّق الفزع وثبوته، فإنه كائنٌ لا محالة. والمراد: فزعهم عند النفخة الأولى حين يُصْعَقُون ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا من ثبّت الله قلبه من الملائكة. قالوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ـ عليهم السلام ـ. وقيل: الشهداء، وقيل: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش. وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ: منهم موسى ـ عليه السلام ـ لأنّه صُعِق مرة. ومثله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾: حمزة، وحفص، وخلف. ﴿آتوه﴾: غيرهم، وأصله: آتيوه ﴿دَاخِرِينَ﴾ حال، أي: صاغرين. ومعنى الإتيان: حضورهم الموقف، أو رجوعهم إلى أمره، وانقيادهم له.

٨٨ ـ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ بفتح السين: شاميّ، وحمزة، ويزيد، وعاصم. وبكسرها: غيرهم. حال من المخاطب ـ ﴿جَامِدَةً﴾ واقفة، ممسكة عن الحركة ـ من: جمد في مكانه: إذا لم يبرح ـ ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿تحسبها﴾ ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: مرّاً مثل مرّ السحاب. والمعنى: أنّك إذا رأيتَ الجبال وقت النَّفخة ظننتها ثابتة في مكانٍ واحد لعظمها، وهي تسيرُ سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الريح. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحرّكت لا يكادُ يُبيّنُ حركتها، كما قال النابغةُ في صفة جيش:

صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

بأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ وُقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكابُ تَهَمْلَجُ[1]

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر عمل فيه ما دلّ عليه ﴿تمرّ﴾ لأنّ مُرورَها كمرّ السّحاب من صُنْعِ الله، فكأنه قيل: صنع الله ذلك صنعاً. وذكر اسم الله؛ لأنه لم يذكر قبل ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحكم خلقه ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ يفعلون مكّيّ، وبصريّ غير سهل، وأبو بكر غير يحيى، وغيرهم: بالتاء، أي: أنّه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك. ثمّ لخّص ذلك بقوله:

٨٩ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بقول: لا إله إلا الله عند الجمهور ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: فله خيرٌ حاصلٌ من جهتها، وهو الجنّة. وعلى هذا لا يكون ﴿خير﴾ بمعنى أفضل، ويكون ﴿منها﴾ في موضع رفع صفة لخير ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ كوفيّ، أي: ﴿من فزعٍ﴾ شديد، مفرط الشدّة، وهو: خوف النار. أو: من فزع مّا وإن قلّ. وبغير تنوين: غيرهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كوفيّ، ومدنيّ. وبكسر المِيم: غيرهم، والمراد: يوم القيامة ﴿ءَامِنُونَ﴾ أمِنَ يعدى بالجارّ وبنفسه، كقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩].

٩٠ ـ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالشرك ﴿فَكُبَّتْ﴾ ألقيت ﴿وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ يقال: كببت الرجل؛ ألقيته على وجهه، أي: ألقوا على رؤوسهم في النار. أو: عبّر عن الجملة بالوجه، كما يعبّر بالرأس والرقبة عنها، أي: ألقوا في النار. ويقال لهم تبكيتاً عند الكبّ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك، والمعاصي.

---

(١) «الأرعن»: الجبل العالي. «الطود»: الجبل العظيم. «الحاج»: لحج السيف وغيره ـ بالكسر ـ؛ يلحج لحجاً: إذا نشب في الغمد، فلا يخرج. «الركاب»: المطي، لا واحد له من لفظه. «الهملجة»: السير الرهو السهل. والهملاج: السريع.

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ

---

٩١ ـ ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ مكّة ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ جعلها حرماً آمناً، يأمن فيها اللاجىء إليها، ولا يختلى خلاها، ولا يعضد شوكها، ولا ينفّر صيدها ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ مع هذه البلدة، فهو مالكُ الدنيا والآخرة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين له.

٩٢ ـ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ من التلاوة، أو: من التُّلُوّ، كقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢]. أمر رسوله بأن يقول: ﴿أمرت﴾ أن أخصّ الله وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش ﴿وأن أكون﴾ من الحنفاء الثابتين على ملّة الإسلام ﴿وأن أتلو القرآن﴾ لأعرفَ الحلال والحرام، وما يقتضيه الإسلام. وخصّ مكّة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنّها أحبّ بلاده إليه، وأعظمها عنده. وأشار إليها بقوله: ﴿هذه﴾ إشارة تعظيم لها، وتقريب، دالاً على أنّها موطن نبيّه، ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم؛ الذي هو خاصّ وصفها، وجعل دخول كلّ شيء تحت ربوبيّته وملكوته، كالتابع لدخولها تحتها ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتّباعه إيّاي فيما أنا بصدده من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، والدخول في الملّة الحنيفيّة، واتّباع ما أنزل عليّ من الوحي ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: ومن ضلّ ولم يتّبعني، فلا عليّ، وما أنا إلاّ رسول منذر ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

٩٣ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ ثُمّ أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته في الآخرة فيستيقنون بها. وقيل: هو انشقاق القمر، والدخان، وما حلّ بهم

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

من نقمات الله في الدنيا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، مدنيّ، وشاميّ، وحفص، ويعقوب. خطاب لأهل مكّة. وبالياء: غيرهم. أي: كلّ عمل يعملونه فإنّ الله عالم به، غير غافل عنه. فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ

١، ٢ ـ ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يقال: بان الشيء، وأبان، بمعنى واحد. ويقال: أبنته. فأبان لازم ومتعدّ. أي: مبين خيره، وبركته، أو: مبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد.

٣ ـ ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك، أي: يقرؤه جبريل بأمرنا. ومفعول ﴿نتلو﴾: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: نتلو عليك بعضَ خبرهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال، أي: محقّين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن سبق في علمنا أنّه مؤمن؛ لأنّ التلاوة إنّما تنفعُ هؤلاء دون غيرهم.

٤ ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل، كأنّ قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما؟ فقال: إن فرعون ﴿عَلَا﴾ طغى، وجاوز الحدّ في الظلم، أو استكبر، وافتخر بنفسه، ونسي العبوديّة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مملكته، يعني: مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فرقاً يشيّعونه على ما يريد، ويطيعونه، لا يملك أحدٌ منهم أن يلويَ عنقه. أو: فرقاً مختلفة، يكرم طائفة، ويهين أخرى، فأكرم القبطيّ، وأهان الإسرائيليّ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: يترك البنات أحياءً للخدمة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

وسَبَبُ ذبح الأبناء: أنّ كاهناً قال له: يولد مولودٌ في بني إسرائيل يذهبُ ملكك على يده. وفيه دليلٌ على حُمْق فرعون، فإنّه إن صدّق الكاهن لم ينفعه القتل، وإن كذب فما معنى القتل؟ و﴿يستضعف﴾ حال من الضمير في ﴿وجعل﴾. أو: صفة لشيعاً. أو: كلامٌ مستأنف. و﴿يذبّح﴾ بدل من ﴿يستضعف﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيه: أنّ القتلَ ظلماً إنما هو فعلُ المفسدين؛ إذ لا طائل تحته، صدق الكاهن، أو كذب.

٥ ـ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ نتفضّل. وهو دليلٌ لنا في مسألة الأصلح. وهذه الجملة معطوفة على: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون، واقتصاصاً له. أو: حال من ﴿يستضعف﴾ أي: يستضعفهم فرعون، ونحن نريدُ أن نمنّ عليهم. وإرادةُ الله تعالى كائنةٌ، فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة يُقتدى بهم في الخير، أو دعاة إلى الخير، أو: ولاة، وملوكاً ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: يرثون فرعون وقومه ملكهم، وكلّ ما كان لهم.

٦ ـ ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ مكّن له: إذا جعل له مكاناً يقعد عليه، أو: يرقد. ومعنى التمكين ﴿لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ أي: أرض مصر، والشام ـ أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم، ويسلّطهم، وينفذ أمرهم ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ بضمّ النون، ونصب ﴿فرعون﴾ وما بعده. وبالياء، ورفع ﴿فرعون﴾ وما بعده: عليّ، وحمزة، أي: يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولودٍ منهم ﴿ويَرى﴾ نصب عطف على المنصوب قبله، كقراءة النون. أو: رفع على الاستئناف ﴿مِنْهُم﴾ من بني إسرائيل. ويتعلّق بـ﴿نري﴾ دون ﴿يحذرون﴾ لأنّ الصِّلةَ لا تتقدَّمُ على الموصول ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ الحذر: التوقي من الضّرر.

٧ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بالإلهام، أو: بالرؤيا، أو: بإخبار مَلَك، كما كان لمريم. وليس هذا وحي رسالة، فلا تكون هي رسولاً ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ﴿أن﴾:

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾

بمعنى أي، أو مصدريّة ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من القتل، بأن يسمع الجيرانُ صوتَه فينمّوا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ البحر ـ قيل: هو نيل مصر ـ ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ من الغرق، والضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ بفراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بوجهٍ لطيف لتربِّيه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وفي هذه الآية أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان. والفرق بين الخوف والحزن: أنّ الخوفَ غمّ يلحق الإنسان لمتوقّع، والحزن: غمّ يلحقه لواقع، وهو: فراقه، والإخطار به. فنهيت عنهما. وبشّرت بردّه إليها، وجعله من المرسلين. ورُوي: أنّه ذبح في طلب موسى تسعون ألف وليد. ورُوي: أنها حين ضربها الطلق كانت بعضُ القوابل الموكّلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لها فعالجتها. فلمّا وقع إلى الأرض هالها نورٌ بين عينيه، ودخل حبُّه قلبها، فقالت: ما جئتك إلاّ لأقتل مولودك، وأخبرَ فرعونَ، ولكن وجدتُ لابنك حبّاً ما وجدتُ مثله فاحفظيه. فلمّا خرجت القابلة جاءت عيونُ فرعون، فلفّته في خرقة، ووضعته في تنّور مسجور، لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يلقوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنّور، فانطلقت إليه، وقد جعل اللهُ النارَ برداً وسلاماً، فلما ألحّ فرعونُ في طلب الولدان أوحى إليها بإلقائه في اليمّ، فألقته في اليمّ بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

٨ ـ ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أخذه. قال الزجاج: كان فرعون من أهل فارس من إصطخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أي: ليصير الأمرُ إلى ذلك، لا أنّهم أخذوه لهذا، كقولهم: للموت ما تلد الوالدة، وهي لم تلدْ لأن يموت ولدُها، ولكن المصير إلى ذلك. كذا قاله الزجاج. وعن هذا قال المفسرون: إنّ هذه لام العاقبة والصّيرورة. وقال صاحب «الكشاف»: وهي لام كي؛ التي معناها التعليل، كقولك: جئتك لتكرمني. ولكن معنى التعليل فيها واردٌ على طريق المجاز؛ لأنّ ذلك لمّا كان نتيجة التقاطهم له، شبّه بالداعي الذي يفعل الفاعلُ فعله لأجله، وهو الإكرام؛ الذي هو نتيجةُ المجيء ﴿وَحَزَنًا﴾ ﴿وحُزْناً﴾:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

عليّ، وحمزة. هما لغتان، كالعُدم، العَدَم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ تخفيف: خاطئين؛ أبو جعفر. أي: كانوا مذنبين، فعاقبهم الله بأن ربّي عدوّهم ومَن هو سببُ هلاكهم على أيديهم. أو: ﴿كانوا خاطئين﴾ في كلّ شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوّهم بِبِدْعٍ منهم.

٩ ـ ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ رُوي: أنّهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه، فلم يقدروا عليه، فعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسية فرأتْ في جوف التابوت نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا بصبي نوره بين عينيه، فأحبّوه. وكانت لفرعون بنت برصاء، فنظرت إلى وجهه فبَرِئت. فقال الغواةُ من قومه: هو الذي نحذرُ منه، فأذن لنا في قتله. فهمّ بذلك، فقالت آسية: ﴿قرّة عين لي ولك﴾ فقال فرعون: لك، لا لي. وفي الحديث: «لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها»[1]. وهذا على سبيل الفرض، أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها، ولأسلم كما أسلمت. و﴿قرّة﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو قرّة، و﴿لي ولك﴾ صفتان لقرّة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبته خطاب الملوك، أو: خاطبت الغواة ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فإنّ فيه مخايل اليمن، ودلائل النفع. وذلك لما عاينتْ من النور، وبُرء البَرْصاء ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أو: نتبنّاه؛ فإنّه أهلٌ لأن يكون ولداً للملوك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال. وذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾ وقالت امرأة فرعون كذا ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنّهم على خطأ عظيم في التقاطه، ورجاء النفع منه، وتبنّيه. وقوله: ﴿إنّ فرعون﴾ الآية: جملة اعتراضيّة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه، مؤكّدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان!

(١) قال الحافظ: هذا طرف من حديث الفتون الطويل، أخرجه النسائي. (حاشية الكشاف ٣/٣٩٤).

وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ

١٠ ـ ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ فصار ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صِفراً[١] من العقل لما دهمها من فرط الجزع لمّا سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ لتُظْهِر به. والضمير لـ: «موسى» ـ عليه السلام ـ. والمراد: بأمره، وقصّته، وأنّه ولدها. قيل: لمّا رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيحُ وتقول: يابْناه! وقيل: لمّا سمعت أنّ فرعون أخذ التابوت لم تشكّ أنّه يقتله، فكادت تقول: وابناه! شفقةً عليه. و﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة، أي: إنها كادت ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ لولا ربطنا على قلبها، والربط على القلب: تقويته بإلهام الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من المصدّقين بوعدنا. وهو: ﴿إنّا رادّوه إليك﴾. وجواب لولا محذوف، أي: لأبْدَتْهُ. أو: فارغاً من الهمّ حين سمعت أنّ فرعون تبنّاه ﴿إن كادت لتبدي﴾ بأنّه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت، لولا أنّا طأمَنّا قلبها، وسكّنّا قلقها؛ الذي حدث به من شدّة الفرح؛ لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله، لا بتبنّي فرعون. قال يوسف بن الحسين: أُمِرت أمّ موسى بشيئين، ونُهيت عن شيئين، وبُشّرت ببشارتين، فلم ينفعها الكلُّ حتى تولّى الله حياطتها، فربط على قلبها.

١١ ـ ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ﴾ مريم. ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره لتعلمي خبره ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ﴾ أي: أبصرته ﴿عَن جُنُبٖ﴾ عن بعد. حال من الضمير في ﴿به﴾ أو: من المضمر في ﴿بصرت﴾ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنّها أخته.

١٢ ـ ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ تحريم منع، لا تحريم شرع، أي: منعناه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمّه، وكان لا يقبل ثدي مرضع حتّى أهمّهم ذلك. والمراضع: جمع مرضع، وهي المرأةُ التي ترضع. أو: جمع مَرْضَع، وهو موضع الرضاع، يعني: الثدي، أو: الرضاع ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل قصّها أثره، أو: من

(١) «صفراً»: صفر الإناء: خلا.

فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

قبل أن نردّه على أمّه ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته ـ وقد دخلتْ داره بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً ـ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أرشدكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ أي: موسى ﴿لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؟ النصح: إخلاص العمل من شائب الفساد. رُوي: أنّها لمّا قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾ قال هامان: إنّها لتعرفه، وتعرف أهله، فخذوها حتّى تخبر بقصّة هذا الغلام. فقالت: إنّما أردتُ وهم للملك ناصحون. فانطلقت إلى أمّها بأمرهم، فجاءت بها، والصبيّ على يد فرعون يعلّله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع. فحين وجد ريحها استأنس، والتقم ثديها. فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبى كلّ ثدي إلاّ ثديك؟ فقالتْ: إنّي امرأةٌ طيّبة الريح، طيبة اللبن، لا أُوتى بصبيّ إلاّ قبلني. فدفعه إليها، وأجرى عليها، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الردّ. فعندها ثبت، واستقرّ في علمها أنه سيكون نبياً. وذلك قوله:

١٣ ـ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بالمقام معه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبراً. وقوله: ﴿ولا تحزن﴾ معطوف على ﴿تقرّ﴾. وإنّما حلّ لها ما تأخذه من الدينار كلّ يوم كما قال السدّي ـ لأنّه مال حربيّ، لا أنّه أجرة على إرضاع ولدها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو داخل تحت علمها، أي: ﴿ولتعلم أنّ وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أنّه حقّ فيرتابون. ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت.

١٤ ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ بلغ موسى نهاية القوّة، وتمام العقل، وهو جمع شدّة، كنعمة وأنعُم، عند سيبويه ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ فاعتدل، وتمّ استحكامه وهو أربعون سنة. ويُروي: أنّه لم يبعث نبيّ إلاّ على رأس أربعين سنة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ نبوّة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهاً، أو: علماً بمصالح الدّارين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

فعلنا بموسى وأمّه نفعل بالمؤمنين. قال الزجّاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنّهما يؤدّيان إلى الجنّة؛ التي هي جزاءُ المحسنين. والعالم الحكيم: من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فجعلهم جهّالاً إذ لم يعملوا بالعلم.

١٥ ـ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي: مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ حال من الفاعل، أي مختفياً وهو بين العشاءين، أو: وقت القائلة، يعني: انتصاف النهار. وقيل: لمّا شبّ، وعقل أخذ يتكلّم بالحقّ، وينكر عليهم، فأخافوه، فلا يدخل المدينة إلاّ على تغفّل ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل. قيل: هو السامريّ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من مخالفيه من القبط، وهو فاتون. وقيل: فيهما ﴿هذا. وهذا﴾ ـ وإن كانا غائبين ـ على جهة الحكاية. أي: إذا نظر إليهما الناظر قال: ﴿هذا من شيعته وهذا من عدوّه﴾ ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ فاستنصره ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ ضربه بجُمْع كفّه، أو: بأطراف أصابعه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسمّاه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؛ لأنّه كان مُسْتَأمِناً فيهم، ولا يحلّ قتل الكافر الحربيّ، أو: لأنّه قتله قبل أن يؤذن له في القتل. وعن ابن جريج: ليس لنبيّ أن يقتل ما لم يؤمر ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

١٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا ربّ ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بفعل صار قتلاً ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ زلّتي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ زلّته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ بإقالة الزلل ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بإزالة الخجل.

١٧ ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين.

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

و﴿بما أنعمت عليّ﴾ قسم جوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبن ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾. أو: استعطاف، كأنّه قال: ربّ اعصمني بحق ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة. ﴿فلن أكون﴾ إن عصمتني ﴿ظهيراً للمجرمين﴾. وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون، وانتظامه في جملته، وتكثيره سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد.

١٨ ـ ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ على نفسه من قتل القبطيّ أن يؤخذ به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حال، أي: يتوقّع المكروه، وهو الاستقادة منه، أو: الأخبار، أو: ما يُقال فيه. وقال ابن عطاء: ﴿خائفاً﴾ على نفسه ﴿يترقّب﴾ نصرة ربه. وفيه دليلٌ على أنّه لابأسَ بالخوف من دون الله، بخلاف ما يقوله بعضُ الناس: إنّه لا يسوغ الخوف من دون الله ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾ ﴿إذا﴾: للمفاجأة، وما بعدها مبتدأ ـ ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ أي: موسى ﴿بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثه. والمعنى: أنّ الإسرائيليّ الذي خلّصه موسى استغاث به ثانياً من قبطيّ آخر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ أي: للإسرائيليّ ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ضالّ عن الرشد، ظاهر الغيّ، فقد قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك. والرشيد في التدبير لا يفعل فعلاً يفضي إلى البلاء على نفسه، وعلى مَن يريدُ نصرته.

١٩ ـ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى﴾ بالقبطيّ الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيليّ ـ لأنّه ليس على دينهما، ولأنّ القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ـ ﴿قَالَ﴾ الإسرائيليّ لموسى وقد توهّم أنّه أراد أخذه، لا أخذ القبطيّ؛ إذ قال له: ﴿إنّك لغويّ مبين﴾: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا﴾ يعني: القبطيّ ﴿بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتّالاً بالغضب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في كظم الغيظ. وكان قتل القبطيّ بالأمس قد شاع، ولكن خفي قاتلُه. فلمّا أفشى على موسى ـ عليه

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ

السلام ـ علم القبطيّ أنّ قاتله موسى، فأخبر فرعون، فهمّوا بقتله

٢٠ ـ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ هو مؤمنُ آل فرعون. وكان ابنُ عمّ فرعون ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة لرجل، أو: حال من رجل؛ لأنّه وصف بقوله: ﴿من أقصى المدينة﴾. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يأمر بعضُهم بعضاً بقتلك، أو: يتشاورون بسببك. والائتمار: التشاور. يقال: الرجلان يتآمران، ويأتمران؛ لأنّ كلّ واحد منهما يأمر صاحبه بشيء، أو: يشير عليه بأمر ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لك بيان، وليس بصلة ﴿الناصحين﴾ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول، كأنه قال: إنّي من النّاصحين. ثمّ أراد أن يبيّن فقال: ﴿لك﴾ كما يقال: سقياً لك، ومرحباً لك.

٢١ ـ ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ التعرّض له في الطريق، أو: أن يلحقه من يقتله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قوم فرعون.

٢٢ ـ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ نحوها. والتَّوجُّه: الإقبال على الشيء. و﴿مدين﴾ قرية شعيب ـ عليه السلام ـ سُمِّيت بمدين بن إبراهيم، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خرج ولم يكن له علم بالطريق إلاّ حسن ظنّه بربّه، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وسطه، ومعظم نهجه. فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين.

٢٣ ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ وصل. ﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ماءهم الذي يسقون منه. وكان بئراً ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ على جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾ جماعة كثيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من

﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ﴾

مكانهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ تطردان غنمهما عن الماء؛ لأنّ على الماء مَن هو أقوى منهما، فلا تتمكّنان من السقي، أو: لئلا تختلط أغنامُهما بأغنامهم. والذود: الطّرد، والدّفع ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ ما شأنكما؟ وحقيقته: ما مخطوبكما أي: مطلوبكما من الذياد، فسمّي المخطوب خطباً ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي﴾ غنمنا ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ مواشيهم. ﴿يَصْدُر﴾: شاميّ، ويزيد، وأبو عمرو، أي: يرجع. فالرعاء: جمع راع، كقائم وقيام ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ﴾ لا يمكنه سقي الأغنام ﴿كَبِيرٞ﴾ في حاله، أو: في السن لا يقدر على رعي الغنم. أبلتا عليه عذرهما في توليهما السّقي بأنفسهما.

٢٤ ـ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غنمهما لأجلهما رغبةً في المعروف، وإغاثة للملهوف. رُوي: أنّه نحّى القوم عن رأس البئر، وسألهم دلواً، فأعطوه دلوهم، وقالوا: استق بها ـ فكانت لا ينزعها إلاّ أربعون ـ فاستقى بها، وصبّها في الحوض، ودعا بالبركة. وترك المفعول في ﴿يسقون﴾ و﴿تذودان﴾ و﴿لا نسقي﴾ و﴿فسقى﴾ لأنّ الغرض هو الفعل لا المفعول، ألاَ ترى أنّه إنّما رحمهما لأنّهما كانتا على الذياد، وهم على السّقي، ولم يرحمهما؛ لأنّ مذودهما غنم، ومسقيّهم إبل مثلاً، وكذا في ﴿لا نسقي﴾ و﴿فسقى﴾ المقصود هو السقي لا المسقيّ. ووجهُ مطابقة جوابهما سؤاله: أنّه سألهما عن سَبَب الذود. فقالتا: السبب في ذلك أنّا امرأتان مستورتان، ضعيفتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، ونستحيي من الاختلاط بهم، فلا بُدَّ لنا من تأخير السّقي إلى أن يفرغوا. وإنّما رضي شعيب ـ عليه السلام ـ لابنتيه بسقي الماشية؛ لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور، فالدين لا يأباه. وأمّا المروءة فعاداتُ الناس في ذلك متباينة، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوال العجم. ومذهبُ أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالةُ حالة ضرورة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: ظلّ سَمُرة. وفيه دليلُ جواز الاستراحة في الدنيا، بخلاف ما يقوله بعضُ المتقشّفة. ولما طال البلاءُ عليه أنس بالشكوى، إذ لا نقص في الشكوى إلى المولى ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ﴾ لأيّ شيء

﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢٥﴾

﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير، غثّ أو سمين ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج. وعُدّي ﴿فقير﴾ باللام؛ لأنّه ضمن معنى سائل وطالب. قيل: كان لم يذق طعاماً سبعة أيام، وقد لصق ظهره بطنه. ويحتمل أن يريدَ: إنّي فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدارين، وهو النجاة؛ لأنه كان عند فرعون في مُلْكٍ، وثروة. قال ذلك رضاً بالعدل السنيّ، وفرحاً به، وشكراً له. وقال ابنُ عطاء: نظر من العبوديّة إلى الربوبيّة، وتكلّم بلسان الافتقار، لِما ورد على سرّه من الأنوار.

٢٥ ـ ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ﴿على استحياءٍ﴾: في موضع الحال، أي: مستحية. وهذا دليلُ كمال إيمانها، وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا. فأتته مستحية قد استترتْ بكمّ درعها. و﴿ما﴾ في ﴿ما سقيت﴾ مصدريّة، أي: جزاء سقيك. رُوي: أنهما لمّا رجعتا إلى أبيهما قَبْل الناس، وأغنامهما حُفَّل[1]، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا، فسقى لنا. فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي. فتبعها موسى ـ عليه السلام ـ فألزقت الريحُ ثوبهَا بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: قصّته وأحواله مع فرعون. والقصص مصدر، سُمّي به المقصوص ﴿قَالَ﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا. وفيه دليلُ جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى، والمشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورّع. وأمّا أَخْذ الأجر على البرّ والمعروف، فقيل: إنّه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى ـ عليه السلام ـ على أنه رُوي أنّها لمّا قالت: ﴿ليجزيك﴾ كره ذلك. وإنّما أجابها لئلا يخيب قصدها؛ لأنّ للقاصد حرمة. ولمّا وضع شعيبٌ الطعامَ بين

(١) «حفّل»: ضرع حافل: ممتلىء لبناً.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ

يديه امتنع، فقال شعيب: ألست جائعاً؟ قال: بلى! ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سقيتُ لهما، وإنّا أهل بيت لا نبيعُ ديننا بالدنيا، ولا نأخذ على المعروف ثمناً. فقال شعيب ـ عليه السلام ـ: هذه عادتُنا مع كلّ مَن ينزلُ بنا. فأكل.

٢٦ ـ ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتخذه أجيراً لرعي الغنم. رُوي: أنّ كبراهما كانت تسمّى: صفراء، والصغرى: صفيراء. وصفراء هي التي ذهبتْ به، وطلبتْ إلى أبيها أن يستأجره، وهي التي تزوّجها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فقال: وما علمكِ بقوته، وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو، وأمْرها بالمشي خلفه. وورود الفعلُ بلفظ الماضي للدلالة على أنّ أمانته وقوته أمران متحققان. وقولها: ﴿إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾ كلام جامع؛ لأنّه إذا اجتمعتْ هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك، وتمّ مرادك. وقيل: ﴿القويّ﴾ في دينه ﴿الأمين﴾ في جوارحه. وقد استغنتْ بهذا الكلام الجاري مجرى المثل عن أن تقول: استأجره لقوّته، وأمانته. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر في عمر.

٢٧ ـ ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أزوّجك ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ قوله: ﴿هاتين﴾ يدلُّ على أنّه كان له غيرهما. وهذه مواعدةٌ منه، ولم يكن ذلك عقداً للنكاح، إذ لو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ تكون أجيراً لي. مِن: أجرته؛ إذا كنت له أجيراً ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرفه. والحجّة: السنة. وجمعها حجج. والتزوّج على رعي الغنم جائز بالإجماع؛ لأنّه من باب القيام بأمر الزوجيّة، فلا مناقضة، بخلاف التزوّج على الخدمة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أي: عمل عشر حجج ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فذلك تفضّل منك، ليس بواجب عليك. أو: فإتمامه من عندك، ولا أَحْتُمُهُ عليك، ولكنّك إن فعلته فهو منك

وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

تفضّل، وتبرّع ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام أتمّ الأجلين، وحقيقة قولهم: شققت عليه، وشقّ عليه الأمر: أنّ الأمر إذا تعاظمك فكأنّه شقّ عليك ظنّك باثنين، تقول: تارة أطيقه، وطوراً لا أطيقه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة. والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح؛ الاتّكال على توفيقه فيه، ومعونته؛ لأنّه إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعلْ ذلك.

٢٨ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. وهو إشارةٌ إلى ما عاهده عليه شعيب. والخبر: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾. يعني: ﴿ذلك﴾ الذي قلته، وعاهدتني فيه، وشارطتني عليه، قائم بيننا جميعاً، لا يخرج كلانا عنه، لا أنا عمّا شرطت عليّ، ولا أنت عمّا شرطت على نفسك. ثُمَّ قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي: أيّ أجل ﴿قضيت﴾ من الأجلين يعني: العشر أو الثماني ـ و﴿أيّ﴾ نصب بـ﴿قضيت﴾ و﴿ما﴾ زائدة مؤكّدة لإبهام أيّ. وهي شرطيّة، وجوابها: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي: لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة عليه. قال المبرّد: قد علم أنّه لا عدوانَ عليه في أتمهما ولكن جمعهما ليجعلَ الأقلّ كالأتمّ في الوفاء، وكما أنّ طلبَ الزيادة على الأتمّ عدوان، فكذا طلب الزيادة على الأقلّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو: من وكل إليه الأمر، وعدّي بـ«على» لأنّه استعمل في موضع الشاهد والمقيت. رُوي: أنّ شعيباً كانت عنده عِصِيّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذْ عصاً من تلك العصيّ. فأخذ عصاً هبط بها آدم من الجنّة، ولم يزل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتوارثونها حتّى وقعت إلى شعيب، فمسّها، وكان مكفوفاً فطن بها، فقال: غيرها. فما وقع في يده إلاّ هي سبع مرّات. فعلم أنّ له شأناً. ولمّا أصبح قال له شعيب: إذا بلغتَ مفرقَ الطريق فلا تأخذْ على يمينك فإنّ الكلأ، وإن كان بها أكثر، إلاّ أنّ فيها تنّيناً[1] أخشاه عليك وعلى الغنم. فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدرْ

(١) «تنيناً»: ثعباناً.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

على كفّها، فمشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام فإذا التنين قد أقبل، فحاربته العصا حتّى قتلته، وعادت إلى جنب موسى دامية، فلمّا أبصرها دامية، والتنين مقتولاً ارتاح لذلك. ولمّا رجع إلى شعيب مسّ الغنم فوجدها مِلاءَ البطون، وغزيرة اللبن. فأخبره موسى ففرح، وعلم أنّ لموسى والعصا شأناً، فقال له: إنّي وهبتُ لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدْرَع ودَرْعاء. فأوحي إليه في المنام أن اضربْ بعصاك مستقى الغنم، ففعل، ثمّ سقى، فوضعت كلّهن أدْرَعَ ودَرْعاء. فوفى له بشرطه.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ قال ﷺ: «قضى أوفاهما وتزوّج صغراهما»[١]. وهذا بخلاف الرواية التي مرّت ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ امرأته نحو مصر. قال ابن عطاء: لمّا تمّ أجلُ المحنة، ودنا أيّام الزلفة، وظهر أنوار النبوّة، سار بأهله لتَشْتَرِكَ معه في لطائف صنع ربّه ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن الطّريق؛ لأنّه قد ضلّ الطّريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ بالنسبة إلى موسى ﴿ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ العُنّاب، أو: العوسج ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ ﴿أن﴾: مفسرة، أو: مخفّفة من الثقيلة ـ ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال جعفر: أبصر ناراً دلّته على الأنوار؛ لأنّه رأى النور على هيئة النار. فلمّا دنا منها شملته أنوارُ القدس، وأحاطت به جلابيبُ الأنس، فخوطب بألطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مكلّماً شريفاً، أُعْطِي ما سأل، وأمن ممّا خاف. الجذوة ـ باللغات الثلاث، وقرىء بهنّ. فعاصم بفتح الجيم. وحمزة وخلف: بضمّها.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٨٨).

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ

وغيرهم: بكسرها ـ: العود الغليظ كانت في رأسه نار، أو لم تكن. ﴿من﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة. و﴿من الشجرة﴾ بدل ﴿من شاطىء الواد﴾ بدل الاشتمال؛ لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطىء، أي: الجانب.

٣١ ـ ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ونودي أن ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾. فألقاها، فَقَلَّبها الله ثعباناً ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرّك ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ حيّة في سعيها، وهي ثعبان في جثّتها ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ لم يرجع. فقيل له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾ أي: أمنت من أن ينالك مكروهٌ من الحيّة.

٣٢ ـ ﴿ ٱسْلُكْ ﴾ أدخل ﴿ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ جيب قميصك ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ برص ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ بفتحتين: حجازيّ، وبصريّ. ﴿الرَّهْب﴾: حفص ﴿الرُّهْب﴾: غيرهم. ومعنى الكلّ: الخوف. والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك يذهب مابك من فرَق، أي: لأجل الحيّة. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلّ خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقيل: معنى ضمّ الجناح: أنّ الله تعالى لمّا قَلَّب العصا حيّة، فزع موسى ـ عليه السلام ـ واتقاها بيده، كما يفعل الخائفُ من الشيء. فقيل له: إن اتّقاك بيدك فيه غضاضةٌ عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلبُ حيّة، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتّقائك بها، ثمّ أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد؛ لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضمّ جناحه إليه. أو: أريد بضمّ جناحه إليه: تجلّده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حيّة، حتّى لا يضطرب، ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنّه إذا خاف نشر جناحيه، وأرخاهما، وإلاّ فجناحاه مضمومان إليه، مشمّران. ومعنى ﴿من الرهب﴾: من أجل الرهب، أي: إذا

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾

أصابك الرهب عند رؤية الحيّة، فاضمم إليك جناحك. جعل الرهب الذي كان يُصيبه سبباً وعلّة فيما أمر به من ضمّ جناحه إليه. ومعنى ﴿واضمم إليك جناحك﴾ و﴿اسلك يدك في جيبك﴾ على أحد التفسيرين واحد. ولكن خُولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين، إذ الغرضُ في أحدهما خروجُ اليد بيضاء، وفي الثاني: إخفاءُ الرهب. ومعنى ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ في طه: أدخل يمناك تحت يسراك ﴿فَذَٰنِكَ﴾ مخفّفاً مثنّى ذاك. ومشدّداً: مكّيّ، وأبو عمرو، مثنّى ذلك. فإحدى النونين عوض من اللام المحذوفة. والمراد: اليد، والعصا ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ حجّتان نيّرتان بيّنتان. وسُمِّيت الحجة برهاناً لإنارتها، من قولهم للمرأة البيضاء: بَرَهْرَهَة ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: أرسلناك ﴿إلى فرعون ومَلَئِه﴾ بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كافرين.

٣٣ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ به. وبالياء: يعقوب.

٣٤ ـ ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ حفص ﴿رِدْءًا﴾ حال، أي: عوناً، يقال: ردأته: أعنته. وبلا همز: مدنيّ ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ عاصم، وحمزة. صفة، أي: ﴿ردءاً﴾ مصدّقاً لي. وغيرهما: بالجزم، جواب لأرسله. ومعنى تصديقه موسى: إعانته إيّاه بزيادة البيان في مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت. ألاَ ترى إلى قوله: ﴿هو أفصح منّي لساناً فأرسله معي﴾. وفضل الفصاحة إنّما يحتاجُ إليه لتقرير البرهان، لا لقوله: صدقت. فسحبان وباقل فيه يستويان[1] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿يكذبوني﴾ في الحالين: يعقوب.

٣٥ ـ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقوّيك به ـ إذ اليد تشتدُّ بشدّة العضد؛

---

(١) «سحْبَان»: رجل من ربيعة يضرب به المثل في البلاغة والبيان. و«بَاقِل»: رجل يضرب به المثل في العيِّ. انظر لسان العرب مادة (بقل).

وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

لأنّه قوام اليد. والجملة تقوى بشدّة اليد على مزاولة الأمور ـ ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ غلبة، وتسلّطاً، وهيبة في قلوب الأعداء ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباء تتعلّق بـ: ﴿يصلون﴾، أي: لا يصلون إليكما بسبب آياتنا. وتمّ الكلام. أو: بـ: نجعل لكما سلطاناً، أي: نسلّطكما بآياتنا. أو: بمحذوف، أي: اذهبا بآياتنا. أو: هو بيان لـ: ﴿الغالبون﴾ لا صلة، أو: قسم جوابه ﴿لا يصلون﴾ مقدّماً عليه ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ أي: سحر تعمله أنت، ثمّ تفتريه على الله. أو: سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر، وليس بمعجزة من عند الله ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿في آبائنا﴾: حال منصوبة عن هذا، أي: كائناً في زمانهم، يعني: ما حدّثنا بكونه فيهم.

٣٧ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ﴿ربّي أعلم﴾ منكم بحال من أهّله الله للفلاح الأعظم، حيث جعله نبيّاً، وبعثه بالهدى، ووعده حُسْنَ العقبى، يعني: نفسه. ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً لما أهّله لذلك؛ لأنّه غنيّ حكيم لا يرسل الكاذبين، ولا ينبّىء الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون. و﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحمودة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٣]. والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها: أن يختم للعبد بالرحمة والرّضوان، وتلقّي الملائكة بالبشرى والغفران. ﴿قال موسى﴾ بغير واو: مكيّ. وهو حسن؛ لأنّ الموضعَ موضعُ سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام: سحراً مفترى. ووجه الأخرى: أنّهم قالوا ذلك، وقال موسى هذا ليوازن الناظرُ بين القول والقول، ويتبصّر فساد أحدهما، وصحّة الآخر

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

﴿رَبِّيَ أعلم﴾: حجازيّ، وأبو عمرو ﴿ومن يكون﴾: حمزة، وعليّ.

٣٨ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده، أي: مالكم من إله غيري. أو: هو على ظاهره، وأنّ إلهاً غيره غير معلوم عنده ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اطبخ لي الآجرّ، واتّخذه. وإنّما لم يقل هذا؛ لأنّه أوّل من عمل الآجرّ، فهو يُعلّمه الصنعة بهذه العبارة، ولأنّه أفصح، وأشبه بكلام الجبابرة، إذ أَمْرُ هامان ـ وهو وزيره ـ بالإيقاد على الطين مُنادىً باسمه بـ«يا» في وسط الكلام، دليل التعظّم والتجبّر ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قصراً عالياً ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾ أي: أصعد، فالطلوع والاطلاع: الصّعود ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ حَسِبَ: أنّه تعالى في مكانٍ كما كان هو في مكان ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواه: أنّ له إلهاً، وأنّه أرسله إلينا رسولاً. فقد تناقض المخذول. فإنّه قال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾، ثمّ أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، وأخبر أنّه غير متيقّن بكذبه. وكأنّه تحصّن من عصا موسى ـ عليه السلام ـ فلبّس، وقال: ﴿لعلّي أطّلع إلى إله موسى﴾. رُوي: أنّ هامان جمع خمسين ألف بنّاء، وبنى صرحاً لم يبلغه بناء أحدٍ من الخلق، فضرب الصرحَ جبريلُ ـ عليه السلام ـ بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل! وقطعة في البحر، وقطعة في المغرب. ولم يبق أحدٌ من عمّاله إلاّ هلك.

٣٩ ـ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ تعظّم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالباطل. فالاستكبار بالحقّ لله تعالى، وهو المتكبّر على الحقيقة، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. كما حكى رسولُنا عن ربّه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيتُه في النار»[1]. وكلّ مستكبر

(١) رواه أحمد (٢ / ٢٤٨) ومسلم (٢٦٢٠) وأبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤).

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

سواه فاستكباره بغير الحقّ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿يَرْجِعُون﴾ نافع، وحمزة، وعليّ، وخلف، ويعقوب.

٤٠ ـ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكلام المفخّم؛ الذي دلَّ به على عظمة شأنه. شبّههم ـ استقلالاً لعددهم وإن كانوا الجمّ الغفير ـ بحصيات أخذهنّ آخذٌ بكفه، فطرحهنّ في البحر ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحَذِّرْ قومك، فإنّك منصورٌ عليهم.

٤١ ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: عمل أهل النار. قال ابنُ عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوار التحقيق. فهم في ظلمات نفوسهم لا يدلّون على سبيل الرّشاد. وفيه دلالةُ خلق أفعال العباد ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من العذاب.

٤٢ ـ ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة. وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إيّاهم بعدهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المطرودين المبعدين، أو: المُهْلكين، أو المشوَّهين بسواد الوجوه، وزرقة العيون. و﴿يوم﴾ ظرف للمقبوحين.

٤٣ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ـ عليهم السلام ـ ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب. والبصيرة: نور القلب الذي يبصر به الرشد، والسّعادة، كما أنّ البصر نور العين الذي تبصر به. يريد: آتيناه التوراة أنواراً للقلوب ـ لأنّها كانت عُمْياً لا تستبصر، ولا تعرف حقاً من باطل ﴿وَهُدًى﴾ وإرشاداً؛ لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتّبعها؛ لأنّهم إذا عملوا بها، وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

٤٤ ـ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ وهو المكان الواقع في شق الغرب. وهو الذي وقع فيه ميقاتُ موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: كلّمناه ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم: ٥٢] ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحي إليه، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته.

٤٥ ـ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ بعد موسى ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: طالتْ أعمارهم، ففترت النبوّة، وكادت الأخبارُ تخفى، واندرست العلومُ، ووقع التحريفُ في كثيرٍ منها، فأرسلناك مجدّداً لتلك الأخبار، مبيّناً ما وقع فيه التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقصّة موسى ـعليه السلامـ كأنّه قال: وما كنتَ شاهداً لموسى، وما جرى عليه، ولكنّا أوحيناه إليك. فذكر سبب الوحي الذي هو إطالةُ الفترة، ودلّ به على المسبّب اختصاراً، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب، والمؤمنون به ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تقرؤها عليهم تعلّماً منهم، يريدُ الآيات التي فيها قصّة شعيب وقومه. و﴿تتلو﴾ في موضع نصب خبر ثان، أو: حال من الضمير في ﴿ثاوياً﴾ ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكنّا أرسلناك، وأخبرناك بها، وعلّمناكها.

٤٦ ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن: خذ الكتاب بقوّة ﴿وَلَٰكِن﴾ علمناك، [وأرسلناك][1] ﴿رَّحْمَةً﴾ للرحمة ﴿مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في زمان الفترة بينك وبين عيسى، وهو خمسمئة وخمسون سنة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

(١) مستدرك من المطبوع.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟

٤٧ ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والظّلم. ولمّا كان أكثرُ الأعمال تُزاول بالأيدي، نسبت الأعمال إلى الأيدي، وإن كانت من أعمال القلوب، تغليباً للأكثر على الأقلّ ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عند العذاب ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿لولا﴾ الأولى: امتناعية، وجوابها محذوف. والثانية: تحضيضيّة. والفاء الأولى للعطف، والثانية جواب ﴿لولا﴾ لكونها في حكم الأمر، إذ الأمرُ باعثٌ على الفعل، والباعث والمحضّض من وادٍ واحد. والفاء تدخل في جواب الأمر. والمعنى: ولولا أنّهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشرك والمعاصي: هلا ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ محتجّين علينا بذلك، لما أرسلنا إليهم، يعني: أنّ إرسالَ الرسول إليهم إنّما هو ليُلْزَموا الحجة، ولا يُلْزِمُوها؛ كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى، وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول؛ لدخول لولا الامتناعية عليها دونه؟ قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال، ولكن العقوبة لمّا كانت للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنّها سبب الإرسال، فأدخلت عليها ﴿لولا﴾.

وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية، ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا.

٤٨ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: القرآن، أو الرسول المصدّق بالكتاب المعجز ﴿قَالُوا۟﴾ كفار مكّة ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ هلاّ أعطي ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟﴾ يعني أبناء جنسهم، ومن مذهبهم مذهبهم، وعنادهم عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى ـ عليه السلام ـ ﴿بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن؟ ﴿قَالُوا۟﴾ في موسى وهارون

سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[1] تعاونا ـ ﴿سحْران﴾: كوفيّ، أي: ذوا سحر. أو: جعلوهما سحْرين مبالغة في وصفهما بالسحر ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ بكلّ واحدٍ منهما ﴿كَٰفِرُونَ﴾. وقيل: إنّ أهلَ مكّة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى والتوراة، و﴿قالوا﴾ في موسى ومحمد: ﴿ساحران تظاهرا﴾، أو: في التوراة والقرآن: ﴿سحران تظاهرا﴾ وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمّد ﷺ، فأخبروهم أنّه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ﴿ساحران تظاهرا﴾.

٤٩ ـ ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مما أنزل على موسى، ومما أنزل عَلَيَّ ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب ﴿فأتوا﴾ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهما سحران.

٥٠ ـ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، ﴿فاعلم﴾ أنهم قد ألزموا، ولم تبق لهم حجة إلاّ اتّباع الهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أضلّ ﴿ممن اتّبع﴾ في الدّين ﴿هواه﴾. و﴿بغير هدى﴾ حال، أي: مخذولاً، ولا مُخلىً بينه وبين هواه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥١ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ التوصيل: تكثير الوصل، وتكريره. يعني: أنّ القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً، وعْداً ووعيداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ؛ ليتذكّروا، فيفلحوا.

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿ساحران﴾ وهي قراءة: ابن عامر، وأبي عامر، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف، ويعقوب، والحسن. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٦).

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

٥٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن. وخبر ﴿الذين﴾، ﴿هُم بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. نزلت في مؤمني أهل الكتاب.

٥٣ ـ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل، نزول القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ كائنين على دين الإسلام، مؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام. وقوله ﴿إنه﴾ تعليل للإيمان به؛ لأنّ كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. وقوله ﴿إنّا﴾ بيان لقوله ﴿آمنّا﴾ لأنّه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده، فأخبروا بأنّ إيمانهم به متقادم.

٥٤ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة، والإيمان بالقرآن. أو: بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله، وبعد نزوله. أو: بصبرهم على أذى المشركين، وأهل الكتاب ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالطاعة المعصية، أو: بالحلم الأذى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يزكون.

٥٥ ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ الباطل، والشتم من المشركين ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟﴾ للاّغين: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمان منّا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نريد مخالطتهم، وصحبتهم.

٥٦ ـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر أن تُدْخِلَ في الإسلام كلَّ مَن أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بمن يختار الهداية، ويقبلها، ويتّعظ بالدلائل والآيات. قال الزجّاج: أجمع المفسّرون على أنها نزلت في أبي طالب. وذلك أنّه قال عند موته: يا معشر بني هاشم! صدّقوا محمداً تفلحوا. فقال ﷺ: «يا عمّ! تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟!» قال: فما

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾

تريد يابن أخي؟ قال: «أريد منك أن تقولَ: لا إله إلاّ الله أشهد لك بها عند الله». قال: يابن أخي! قد علمتُ أنّك صادق، ولكنّي أكرهُ أن يقال: خَرِعَ عند الموت[1]. وإن كانت الصيغة عامّة. والآية حجّة على المعتزلة؛ لأنّهم يقولون: الهدى هو البيان. وقد هَدَى الناس أجمع، ولكنّهم لم يهتدوا لسوء اختيارهم، فدلّ أنّ ما وراء البيان ما يسمَّى هداية، وهو خلق الاهتداء، وإعطاء التوفيق والقدرة.

٥٧ ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ قالت قريش: نحن نعلمُ أنك على الحقّ، ولكنّا نخاف إن اتّبعناك، وخالفنا العرب بذلك أن يتخطّفونا من أرضنا، فألقمهم الله الحجة بأنه مكّن لهم في الحرم؛ الذي آمَنهُ بحرمة البيت، وآمَنَ قُطّانه بحرمته، والثمرات تُجبى إليه من كلّ أوب، وهم كفرة، فأنّى يستقيمُ أن يعرّضهم للتخطّف، ويسلبهم الأمن إذا ضمّوا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟ وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة، وإلى الحرم مجاز ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ وبالتاء: مدنيّ، ويعقوب، وسهل. أي: يُجلب، ويُجمع ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ معنى الكلّيّة: الكثرة، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ هو مصدر؛ لأنّ معنى ﴿يجبى إليه﴾ يرزق، أو: مفعول له، أو: حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصّصها بالإضافة، كما تنتصب عن النكرة المتخصِّصة بالصفة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ متعلّق بـ﴿من لدنّا﴾. أي: قليل منهم يقرّون بأنّ ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنّه من عند الله لعلموا أنّ الخوف والأمن من عنده، ولما خافوا التخطّف إذا آمنوا به.

---

(١) قال الحافظ: لم أجده، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق، أو أخصر منه. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٢٢). وفي حاشية الأصل المخطوط: الخرع: الجُبْنُ والخور.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

٥٨ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ هذا تخويفٌ لأهل مكّة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم، فلم يشكروا النعمة، وقابلوها بالبطرِ فأهلكوا. و﴿كم﴾ نصب بـ﴿أهلكنا﴾ و﴿معيشتها﴾ بحذف الجارّ، وإيصال الفعل، أي: في معيشتها. والبطر: سوء احتمال الغنى، وهو: ألاّ يحفظ حق الله فيه ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار، كبلاد ثمود، وقوم شعيب، وغيرهم ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ حال، والعامل فيها: الإشارة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السّكنى، أي: لم يسكنها إلاّ المسافر، ومارّ الطريق يوماً، أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لتلك المساكن من ساكنيها، أي: لا يملك التصرف فيها غيرنا.

٥٩ ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ في كلّ وقت ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ ـ وبكسر الهمزة: حمزة، وعليّ، أي: في القرية التي هي أمّها، أي: أصلها، ومعظمها ـ ﴿رَسُولًا﴾ لإلزام الحجة، وقطع المعذرة. أو: ﴿وما كان﴾ في حكم الله، وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض ﴿حتّى يبعث﴾ في أمّ القرى ـ يعني: مكّة؛ لأنّ الأرضَ دُحيت من تحتها ـ ﴿رسولاً﴾ يعني: محمّداً ﷺ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: وما أهلكناهم للانتقام إلاّ وأهلها مستحقّون العذاب بظلمهم، وهو: إصرارُهم على كفرهم، وعنادهم، ومكابرتهم بعد الإعذار إليهم.

٦٠ ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ وأيّ شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلاّ تمتّع وزينة أيّاماً قلائل، وهي: مدّة الحياة الفانية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه دائم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ الباقي خيرٌ من الفاني. وخيّر أبو عمرو بين الياء والتاء، والباقون

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾

بالتاء لا غير. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنّ الله تعالى خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن، والمنافق، والكافر. فالمؤمن يتزود والمنافق يتزيّن، والكافر يتمتّع. ثمّ قرّر هذه الآية بقوله:

٦١ ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: الجنّة ـ فلا شيء أحسن منها؛ لأنّها دائمة؛ ولذا سمّيت الجنّة بالحسنى ـ ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: رائيه، ومدركه، ومصيبه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضِروا النار؟ ونحوه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل ـ عليه اللعنة ـ أو: في عليّ، وحمزة، وأبي جهل، أو: في المؤمن، والكافر. ومعنى الفاء الأولى: أنّه لمّا ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله، عقّبه بقوله: ﴿أفمن وعدناه﴾ أي: أبعد هذا التفاوت الجليّ يُسَوّى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟ والفاء الثانية للتسبيب؛ لأنّ لقاء الموعود مسبّب عن الوعد. و﴿ثمّ﴾ لتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع. ﴿ثمّ هُوَ﴾: عليٌّ. كما قيل: عضْد في عضُد، شبّه المنفصل بالمتّصل.

٦٢ ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي الله الكفّار نداء توبيخ، وهو عطف على ﴿يوم القيامة﴾ أو: منصوب باذكر ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بناءً على زعمهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ومفعولا ﴿تزعمون﴾: محذوفان، تقديره: ﴿كنتم﴾ تزعمونهم شركائي. ويجوز حذفُ المفعولين في باب: ظننت، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما.

٦٣ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: الشياطين، أو: أئمة الكفر. ومعنى ﴿حقّ عليهم القول﴾: وجب عليهم مقتضاه، وثبت. وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الشرك، وسوّلنا لهم الغيّ. صفته، والراجع إلى الموصول محذوف. والخبر: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ والكاف ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ صفة مصدر

تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ

محذوف، تقديره: أغويناهم فغووا غيّاً، مثل ما ﴿غوينا﴾. يعنون: أنّا لم نغو إلاّ باختيارنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأنّ إغواءنا لهم لم يكن إلاّ وسوسة وتسويلاً، فلا فرقَ إذاً بين غيّنا وغيّهم. وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلّة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب. وهو كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، وممّا اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى.

٦٤ ـ ﴿وَقِيلَ﴾ للمشركين ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: الأصنام لتخلّصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف، أي: لما رأوا العذاب.

٦٥ ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلوا إليكم. حكى أوّلاً ما يوبّخهم به من اتّخاذهم له شركاء، ثمّ ما يقوله الشياطين، أو: أئمة الكفر عند توبيخهم؛ لأنّهم إذا وبّخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأنّ الشياطين هم الذين استغووهم، ثمّ ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم، وعجزهم عن نصرتهم، ثمّ ما يبكّتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل، وإزاحة العلل.

٦٦ ـ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ خفيت عليهم الحجج، أو: الأخبار. وقيل: خفي عليهم الجواب، فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجّة، رجاء أن يكون عنده عذر وحجّة؛ لأنّهم يتساوون في العجز عن الجواب.

٦٧ ـ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ بربّه، وبما جاء من عنده

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أن يفلح عند الله. وعسى من الكرام تحقيق. وفيه بشارةٌ للمسلمين على الإسلام، وترغيبٌ للكافرين على الإيمان.

٦٨ ـ ونزلت جواباً لقول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني: نفسه، أو: أبا مسعود: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. وفيه دلالةُ خلق الأفعال. ويُوقف على: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. أي: ﴿وربّك يخلق ما يشاء و﴾ ربّك ﴿يختار﴾ ما يشاء ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما، وله ﴿الخيرة﴾ عليهم. ولم يدخل العاطف في ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ لأنّه بيان لقوله: ﴿ويختار﴾، إذ المعنى: أنّ الخيرة لله. وهو أعلمُ بوجوه الحكمة في أفعاله، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختارَ عليه. ومن وصل على معنى ﴿ويختار﴾: الذي ﴿لهم﴾ فيه﴿الخيرة﴾، فقد أبعد. بل ﴿ما﴾ لنفي اختيار الخلق، تقريراً لاختيار الحقّ. ومن قال: ومعناه ﴿ويختار﴾ للعباد ﴿ما﴾ هو خيرٌ لهم وأصلح، فهو مائلٌ إلى الاعتزال. و﴿الخِيرة﴾ من التخيّر يُستعمل بمعنى المصدر، وهو التخيّر، وبمعنى المتخيّر، كقولهم: محمّد خيرة الله من خلقه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: الله بريء من إشراكهم، وهو منزّه عن أن يكون لأحدٍ عليه اختيار.

٦٩ ـ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله ﷺ، وحسده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه. وقولهم: هلاّ اختير عليه غيره في النبوّة!

٧٠ ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستأثر بالإلهيّة المختصة به ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك، كقولك: الكعبة: القبلة، لا قبلة إلاّ هي ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ الدنيا ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] والتحميد ثمَّ على وجه اللذّة، لا الكلفة ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء بين عباده ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث، والنشور. وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب.

٧١ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ بحذف الهمزة: عليّ ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ هو مفعول ثان لجعل، أي: دائماً من: السَّرْد، وهو: المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد، وواحد فرد. والميم مزيدة، ووزنه فَعْمَل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ والمعنى: أخبروني مَن يقدرُ على هذا.

٧٢ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ ولم يقل بنهار تتصرّفون فيه، كما قال: ﴿بليل تسكنون فيه﴾ بل ذكر الضياء، وهو: ضوء الشمس؛ لأنّ المنافعَ التي تتعلّق به متكاثرةٌ، ليس التصرّف في المعاش وحده. والظلام ليس بتلك المنزلة. ومن ثمّ قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾؛ لأنّ السمعَ يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده. وقرن بالليل: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنّ غيرك يبصرُ من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون، ونحوه.

٧٣ ـ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ﴿لتسكنوا﴾ في الليل ﴿ولتبتغوا من﴾ فضل الله في النهار، فيكون من باب اللّف والنشر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه. وقال الزجاج: يجوزُ أن يكون معناه: ﴿لتسكنوا﴾ فيهما ﴿ولتبتغوا من﴾ فَضْل الله فيهما. ويكون المعنى ﴿جعل لكم﴾ الزمان ليلاً ونهاراً ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فيه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾

---

٧٤ ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرّر التوبيخ باتخاذ الشركاء؛ ليؤذن أن لا شيءَ أجلبُ لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيءَ أدخلُ في مرضاته من توحيده.

٧٥ ـ ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: نبيّهم؛ لأنَّ الأنبياءَ للأمم شهداء عليهم، يشهدون بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك، ومخالفة الرسول ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ التوحيد ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضّائع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾من ألوهيّة غير الله، والشفاعة لهم.

٧٦ ـ ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ﴾ لا ينصرف للعجمة والتعريف؛ ولو كان فاعولاً ، من: قرنت الشيء؛ لا نصرف ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان إسرائيليّاً، ابن عمّ لموسى. فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وكان يسمّى المنوّر؛ لحسن صورته. وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، ولكنّه نافق كما نافق السامريّ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي، وهو: الظلم. قيل: ملّكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم، أو: من البغي: الكبر. تكبّر عليهم بكثرة ماله، وولده، أو: زاد عليهم في الثياب شبراً ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ ﴿ما﴾ بمعنى الذي، في موضع نصب بآياتنا، وإنّ واسمها وخبرها صلة الذي، ولهذا كسرت إنّ. والمفاتح: جمع مِفتح بالكسر، وهو: ما يُفتح به، أو: مَفتح بالفتح، وهو: الخزانة. والأصوب: أنها المقاليد ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ لتُثقِلُ العصبة. فالباء للتعدية، يقال: ناء به الحمل: إذا أثقله حتّى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة. وكان يحملُ مفاتيحَ خزائنه ستّون بغلاً، لكلّ خزانة مفتاح، ولا يزيد المفتاح على إصبع، وكانت من جلود ﴿أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ الشدّة ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون. وقيل: القائل موسى ـ عليه السلام ـ

لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

ومحلّ ﴿إذ﴾ نصب بـ«تنوء» ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر بكثرة المال، كقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. ولا يفرح بالدنيا إلاّ من رضي بها، واطمأنّ بها. وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنّه يتركها عن قريب؛ فلا يفرح بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ البطرين بالمال.

٧٧ ـ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغنى، والثروة ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بأن تتصدّق على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرف إلى أبواب الخير ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أن تأخذَ ما يكفيك، ويصلحك. وقيل معناه: واطلب بدنياك آخرتك، فإنّ ذلك حظُّ المؤمنِ منها ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو: أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسنَ إليك بالإنعام ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم، والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٧٨ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على استحقاقٍ لما فيّ من العلم؛ الذي فضلت به الناس، وهو علم التوراة، أو: علم الكيمياء. وكان يأخذُ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً. أو: العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة. و﴿عندي﴾ صفة لـ: «علم». قال سهل: ما نظر أحدٌ إلى نفسه فأفلح. والسعيد مَن صُرِفَ بَصَرُه عن أفعاله وأقواله، وفتح له سبيل رؤية منّة الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال. والشقيّ من زيّن في عينه أفعاله، وأقواله، وأحواله، فافتخر بها، وادّعاها لنفسه. فشؤمه يهلكه يوماً، كما خسف بقارون لمّا ادّعاها لنفسه فضلاً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ هو إثباتٌ لعلمه بأنّ الله ﴿قد أهلك... من القرون﴾ قبله ﴿من هو﴾ أقوى منه، وأغنى، لأنّه قد قرأه في التوراة. كأنّه قيل: ﴿أو لم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا حتّى لا يغترّ بكثرة ماله،

وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

وقوّته. أو: نفي لعلمه بذلك؛ لأنّه لمّا قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادّعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكلّ نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتّى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، أو: أكثر جماعةً، وعدداً ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لعلمه تعالى بهم، بل يدخلون النار بغير حساب، أو يعترفون بها بغير سؤال، أو يعرفون بسيماهم فلا يسألون، أو لا يسألون ليُعْلَم من جهتهم بل يسألون سؤال توبيخ، أو لا يسأل عن ذنوب الماضين ﴿المجرمون﴾ من هذه الأمّة.

٧٩ ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ في الحمرة والصفرة. وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليه الأرجوان، وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيّه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر. وعن يمينه ثلاثمئة غلام، وعن يساره ثلاثمئة جارية بيض عليهنّ الحلي والديباج. و﴿في زينته﴾ حال من فاعل ﴿خرج﴾ أي: متزيّناً ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: كانوا مسلمين. وإنّما تمنّوه على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر. وقيل: كانوا كفّاراً ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ قالوه غبطة. والغابط: هو الذي يتمنّى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، كهذه الآية. والحاسد: هو الذي يتمنّى أن تكون نعمة صاحبه له دونه. وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]. وقيل لرسول الله ﷺ: هل يَضرُّ الغبط؟ قال: «لا، إلاّ كما يضرّ العِضَاةَ الخَبَطُ»[١] ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الحظّ: الجدّ، وهو: البخت، والدولة.

٨٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالثواب، والعقاب، وفناء الدنيا، وبقاء

---

(١) قال الحافظ: ذكره ثابت السرقسطي في الغريب هكذا بغير إسناد. (حاشية الكشاف ٣/ ٤٣٢).

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾

العقبى، لغابطي قارون ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصل ويلك: الدعاء بالهلاك. ثمّ استعمل في الزجر، والردع، والبعث على ترك ما لا يرضى. وفي «التبيان في إعراب القرآن»: هو مفعول فعل محذوف، أي: ألزمكم الله ﴿ويلكم﴾ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: لا يلقّن هذه الكلمة، وهي: ﴿ثواب الله خير﴾، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات، وزينة الدنيا، وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير.

٨١ ـ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كان قارون يؤذي موسى ـ عليه السلام ـ كلّ وقت، وهو يداريه للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كلّ ألف دينار على دينار، وعن كلّ ألف درهم على درهم، فحسبه، فاستكثره، فشحّت به نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا: أنت كبيرنا فمرْ بما شئت. قال: نبرطل فلانة البغيّ حتّى ترميه بنفسها، فيرفضه بنو إسرائيل. فجعل لها ألف دينار، أو: طستاً من ذهب، أو: حكمها. فلمّا كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل! من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه، وإن أحصن رجمناه. فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنّكَ فجرتَ بفلانة. فأحضرت، فناشدها بالذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدق! فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخرّ موسى ساجداً يبكي. وقال: يا ربّ! إن كنت رسولك فاغضبْ لي. فأوحى الله إليه أن مُر الأرض بما شئت فإنّها مطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل! إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل. فاعتزلوا جميعاً غير رجلين. ثمّ قال: يا أرض خذيهم! فأخذتهم إلى الركب. ثمّ قال: خذيهم! فأخذتهم إلى الأوساط. ثمّ قال: خذيهم! فأخذتهم إلى الأعناق. وقارون وأصحابه يتضرّعون إلى موسى، ويناشدونه بالله والرحم. وموسى لا يلتفت إليهم لشدّة غضبه. ثمّ قال:

فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ

خذيهم! فانطبقت عليهم. فقال الله تعالى لموسى: استغاث بك مراراً فلم ترحمه، فوعزتي لو استرحمني مرّة لرحمته. فقال بعضُ بني إسرائيل: إنّما أهلكه ليرث ماله، فدعا الله حتّى خسف بداره، وكنوزه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى، أو: من الممتنعين من عذاب الله. يقال: نصره من عدوّه فانتصر، أي: منعه منه فامتنع.

٨٢ ـ ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلته من الدنيا ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ ـ ظرف لـ: «تمنّوا». ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت القريب استعارة ـ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾! ﴿وَيْ﴾ منفصلة عن ﴿كأنّ﴾ عند البصريّين. قال سيبويه: وَيْ: كلمة تنبيهٍ على الخطأ وتندّم، يستعلمها النادم بإظهار ندامته. يعني: أنّ القوم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: ﴿ياليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ وتندّموا ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصرف ما كنّا نتمنّاه بالأمس ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1]. وبفتحتين: حفص، ويعقوب، وسهل. وفيه ضمير الله تعالى ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: تندّموا. ثمّ قالوا: كأنه لا يفلح الكافرون.

٨٣ ـ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ ﴿تلك﴾: تعظيم لها، وتفخيم لشأنها. يعني: تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها، وقوله: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ ـ خبر ﴿تلك﴾ و﴿الدار﴾ نعتها ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ بغياً؛ ابن جبير. أو: ظلماً؛

---

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿لَخُسِفَ﴾ وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبي جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٣٤).

وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ

الضحاك ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله. ولم يعلّق الموعد بترك العلوّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣]. فعلّق الوعيد بالركون. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها. وعن الفضيل أنه قرأها، ثمّ قال: ذهبت الأمانيّ هاهنا. وعن عمر بن عبد العزيز أنّه كان يردّدها حتّى قُبِض. وقال بعضهم: حقيقته: التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبّثاً بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٨٤ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ مرّ في «النمل»[1]. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ معناه: فلا يجزون. فوضع ﴿الذين عملوا السيّئات﴾ موضع الضمير؛ لأنّ في إسناد عمل السيّئة إليهم مكرّراً فضلَ تهجين بحالهم، وزيادة تبغيض للسيّئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿إلا﴾ مثل ﴿ما كانوا يعملون﴾. ومن فضله العظيم: ألاّ يجزي السيّئة إلاّ بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها، وبسبعمئة.

٨٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجب عليك تلاوته، وتبليغه، والعمل بما فيه ﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيّ معاد، و﴿إلى معاد﴾ ليس لغيرك من البشر. لذا نكّره. أو: المراد به مكّة. والمراد: ردّه إليها يوم الفتح لأنّها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن، ومرجعاً له اعتداد؛ لغلبة رسول الله وقهره لأهله، ولظهور عزّ الإسلام وأهله، وذلّ الشرك وحزبه. والسورة مكيّة، ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكّة ولا بالمدينة حين اشتاق إلى مولده،

(١) أي: الآية [٨٩] من سورة النمل.

قُلْ رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

ومولد آبائه. ولمّا وعد رسوله الردّ إلى معادٍ قال: ﴿قُل﴾ للمشركين: ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني: نفسه، وماله من الثواب في معادٍ ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يعني: المشركين، وما يستحقّونه من العقاب في معادهم ﴿مَن﴾ في محلّ نصب بفعل مضمر، أي: يعلم.

٨٦ ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ﴾ يوحى ﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ هو محمول على المعنى، أي: وما ألقي إليك الكتاب إلاّ رحمة من ربّك. أو: إلاّ بمعنى: لكن للاستدراك، أي: ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ معيناً لهم على دينهم.

٨٧ ـ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ـ هو على الجمع ـ أي: لا يمنعنّك هؤلاء عن العمل بآيات الله ـ أي: القرآن ـ ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الآيات، أي: بعد وقت إنزاله. و﴿إذ﴾ يضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ، ويومئذ ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ توحيده، وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٨٨ ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الخطاب في الظاهر للنبيّ ﷺ، والمراد به: أهل دينه، ولأنّ العصمة لا تمنعُ النهي. والوقف على ﴿آخر﴾ لازم؛ لأنّه لو وصل لصار: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة لـ: ﴿إلهاً آخر﴾. وفيه من الفساد ما فيه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلاّ إيّاه. والوجه يعبّر به عن الذّات. وقال مجاهد: يعني: عِلْمَ العلماء إذا أريد به وجه الله ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء في خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

١، ٢ ـ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الحسبان: قوّة أحد النقيضين على الآخر كالظنّ، بخلاف الشكّ فهو الوقوف بينهما، والعلم فهو القطع على أحدهما. ولا يصحّ تعليقهما بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل. فلو قلت: حسبت زيداً، وظننت الفرس لم يكن شيئاً حتّى تقول: حسبت زيداً عالماً، وظننت الفرس جواداً؛ لأنّ قولك: زيد عالم، والفرس جواد، كلام دالّ على مضمون، فإذا أردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظنّ لا اليقين، أدخلت على شطري الجملة فعل الحسبان حتّى يتمّ لك غرضك. والكلام الدالّ على المضمون؛ الذي يقتضيه الحسبان هنا: ﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون﴾ وذلك أنّ تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا. فالترك أوّل مفعولي ﴿حسب﴾، ولقولهم: آمنا هو الخبر. وأما غير مفتونين فتتمّة الترك؛ لأنّه من الترك الذي هو بمعنى التصيير، كقول عنترة:

فتركتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَه[1] ... ...

(١) هذا صدر البيت، وعجزه: يقضمن حُسْن بنانه والمعصم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾

ألا ترى أنّك قبل المجيء بالحسبان تَقْدِر أن تقول: تركَهم غيرَ مفتونين لقولهم آمنا، على تقدير: حاصل ومستقرّ قبل اللام. وهو استفهامُ توبيخ. والفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقّة، وهجر الشهوات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفّار على أذاهم وكيدهم. ورُوي أنّها نزلتْ في ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين، أو: في عمّار بن ياسر، وكان يُعذَّبُ في الله.

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: اختبرنا ـ وهو موصول بـ﴿أحسب﴾ أو: بـ: ﴿لا يفتنون﴾ ـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنواع الفتن. فمنهم من يُوضع المنشار على رأسه، فيفرق فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ بالامتحان ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الإيمان ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه: ومعنى علمه تعالى ـ وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجوداً عند وجوده كما علمه قبل وجوده ـ: أنّه يوجد. والمعنى: وليتميّزن الصادق منهم من الكاذب. قال ابنُ عطاء: يتبيّن صدقُ العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيّام الرخاء، وصبر في أيّام البلاء، فهو من الصّادقين. ومن بطر في أيّام الرخاء، وجزع في أيّام البلاء، فهو من الكاذبين.

٤ ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشرك، والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا. يعني: أنَّ الجزاءَ يلحقهم لا محالة. واشتمال صلة ﴿أن﴾ على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين، كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤] ويجوز أن يضمّن ﴿حسب﴾ معنى قدّر. و﴿أم﴾ منقطعة. ومعنى الإضراب فيها: أنّ هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأوّل؛ لأنّ ذلك يقدّر أنّه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يُظَنُّ أنّه لايُجازى بمساوئه. وقالوا: الأول في المؤمنين، وهذا في الكافرين ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ «ما» في موضع رفع، على

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ

معنى: ساء الحكم حكمهم. أو: نصب على معنى ساء حكماً يحكمون، والمخصوص بالذم محذوف، أي: بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا.

٥ ـ ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي يأمل ثوابه، أو: يخاف حسابه ـ فالرجاء يحتملهما ـ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ المضروب للثواب والعقاب ﴿لَأَتٍ﴾ لا محالة. فليبادر العمل الصالح الذي يصدّق رجاءه، ويحقق أمله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقوله عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يفعلونه، فلا يفوته شيء ما. وقال الزجاج: ﴿مَنْ﴾ للشرط، ويرتفع بالابتداء. وجواب الشرط ﴿فإنّ أجل الله لآت﴾ كقولك: إن كان زيد في الدار فقد صدق الوعد.

٦ ـ ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله، أو: الشيطان بدفع وساوسه، أو: الكفّار ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأنّ منفعة ذلك ترجع إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعن طاعتهم، ومجاهدتهم. وإنّما أَمَرَ ونَهَىٰ رحمةً لعباده.

٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام.

٨ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ «وصّى»: حكمه حكم: «أمر» في معناه وتصرّفه، يقال: وصّيت زيداً بأن يفعل خيراً؛ كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: وصّاهم بكلمة التوحيد، وأمرهم بها. وقولك: وصّيت زيداً بعمرو، معناه: وصّيته بتعهّد عمرو، ومراعاته، ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ ووصّيناه بإيتاء والديه حسناً، أو: بإيلاء والديه حسناً، أي: فعلاً ذا حسن، أو: ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. ويجوز أن يجعل ﴿حسناً﴾ من باب قولك: زيداً، بإضمار:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾

اضرب، إذا رأيته متهيّئاً للضرب. فتنصبه بإضمار أَوْلِهِمَا، أي: أعطهما، أو: افعل بهما حسناً؛ لأنّ التوصية بهما دالّة عليه، وما بعده مطابق له. كأنّه قال: قلنا أَوْلِهِمَا معروفاً، ولا تطعهما في الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على ﴿بوالديه﴾ وابتدىء ﴿حسناً﴾ حسن الوقف. وعلى التفسير الأوّل: لا بدّ من إضمار القول. معناه: وقلنا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أيّها الإنسان ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ـ أي: لا علم لك بإلْهِيّته. ـ والمراد: بنفي العلم نفي المعلوم، كأنّه قال: ﴿لتشرك بي﴾ شيئاً لا يصحّ أن يكون إلهاً ـ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك، فلا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجع مَن آمن منكم، ومَن أشرك ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم حق جزائكم وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك، وحث على الثبات، والاستقامة في الدِّين.

رُوي: أنَّ سعد بن أبي وقّاص لمّا أسلم نذرت أمّه ألاّ تأكل ولا تشرب حتى يرتدّ، فشكا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، والتي في لقمان(١)، والتي في الأحقاف(٢).

٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هو مبتدأ والخبر: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم. والصّلاح من أبلغ صفات المؤمنين، وهو متمنّى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قال سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقال يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] أو: في مدخل الصّالحين، وهو الجنّة.

١٠ ـ ونزلت في المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ المنافقين، أي: إذا مسّه أذى من الكفار ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي:

(١) [لقمان: ١٤].
(٢) [الأحقاف: ١٥].

وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ

جزع من ذلك، كما يجزع من عذاب الله ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: وإذا نصر الله المؤمنين وغنّمهم اعترضوا، فقالوا: ﴿إنّا كنّا معكم﴾ أي: متابعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، فأعطونا نصيبنا من المغْنم ﴿أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو أعلم ﴿بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من العالمين بما في صُدورهم. ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق، وما في صدور المؤمنين من الإخلاص. ثمّ وَعَد المؤمنين، وأوعد المنافقين بقوله:

١١ ـ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: حالهما ظاهرة عند من يملك الجزاء عليهما.

١٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أمروهم باتّباع سبيلهم، وهي: طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمر على الأمر. وأرادوا: ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا، وأن نحمل خطاياكم. والمعنى: تعليق الحمل بالاتّباع، أي: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قولُ صناديد قريش. كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإنا نتحمّل عنكم الإثم ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نيّة الخلف.

١٣ ـ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقال أنفسهم، يعني: أوزارهم بسبب كفرهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها، وهي: أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم. وهو كما قال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]

وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون من الأكاذيب، والأباطيل.

١٤ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كان عمره ألفاً وخمسين سنة، بُعِث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعمئة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستّين. وعن وهب: أنه عاش ألفاً وأربعمئة سنة، فقال له ملكُ الموت: يا أطولَ الأنبياء عمراً كيف وجدتَ الدنيا؟ قال: كدارٍ لها بابان دخلتُ وخرجت. ولم يقل تسعمئة وخمسين سنة، لأنّه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره. وهذا لِتوَهُّم زائل هنا، فكأنه قيل: تسعمئة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلاّ أنّ ذلك أخصر، وأعذب لفظاً، وأملأ بالفائدة. ولأن القصّة سيقت لذكر ما ابتُلي به نوح ـ عليه السلام ـ من أمّته، وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا ﷺ. فكان ذكر الألف أفخم، وأوصل إلى الغرض، وجيء بالمميّز أوّلاً بالسنة، ثمّ بالعام، لأنّ تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ هو: ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سبيل، أو: ظلام ليل، أو: نحوهما ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بالكفر.

١٥ ـ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ أي: نوحاً ﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وكانوا ثمانية وسبعين نفساً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، منهم أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ﴾ أي: السفينة، أو: الحادثة، أو: القصة ﴿ءَايَةً﴾ عبرة، وعظة ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ يتّعظون بها.

١٦ ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بإضمار اذكر، وأبدل عنه ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيان تشتملُ على ما فيها. أو: معطوف على: ﴿نُوحًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إبراهيم﴾. و﴿إذ﴾: ظرف لأرسلنا. يعني: أرسلناه حين بلغ من السنّ أو العلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه، ويأمرهم بالعبادة

لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

والتقوى. وقرأ إبراهيم النخعيّ وأبو حنيفة ـ رحمهما الله ـ: ﴿وإبراهيم﴾ بالرفع على معنى: ﴿و﴾ من المرسلين ﴿إبراهيم﴾ ﴿لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الكفر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كان فيكم بما هو خيرٌ لكم مما هو شرّ لكم.

١٧ ـ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصناماً ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ وتُكَذِّبون، أو: تصنعـون. وقرأ أبو حنيفة والسلمي ـ رحمهما الله ـ ﴿وتُخَلِّقون﴾ من خلّق بمعنى التكثير في خلق ﴿إِفْكًا﴾ وقرىء ﴿أَفِكاً﴾ وهو مصدر، نحو: كذب، ولعب، والإفك مخفّف منه كالكِذْب واللعِب من أصلهما. واختلافهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة، وشركاء لله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كلَّه، فإنه هو الرازق وحده، لا يرزق غيره ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فاستعدّوا للقائه بعبادته، والشكر على أنعمه. وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب.

١٨ ـ ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: وإن تكذبوني فلا تضرّونني بتكذيبكم؛ فإنّ الرسل قبلي كذبتهم أممهم وما ضرّوهم، وإنّما ضرّوا أنفسهم حيث حلّ بهم العذاب بسبب تكذيبهم. وأمّا الرسول فقد تمّ أمره، حيث بلّغ البلاغ المبين، الذي زال معه الشكّ، وهو: اقترانه بآيات الله ومعجزاته. أي: وإن كنت مكذّباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة، حيث كذّبوا، وعلى الرسول أن يبلّغ، وما عليه أن يصدَّق ولا يكذّب. وهذه الآيةُ والآيات التي بعدها إلى قوله: ﴿فما كان جواب قومه﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ

محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه، والمراد بالأمم قبله: قوم شيث، وإدريس، ونوح، وغيرهم؛ وأنْ تكون آياتٍ وقعت معترضةً في شأن رسول الله ﷺ، وشأن قريش، بين أوّل قصّة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: فالجمل الاعتراضية لابدّ لها من اتّصال بما وقعت معترضة فيه، فلا تقول: مكّة وزيد قائم خير بلاد الله؟ قلت: نعم، وبيانه: أنّ إيراد قصّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليس إلاّ إرادة التنفيس عن رسول الله ﷺ، وأن تكون مسلاةً له بأنّ أباه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مُبتلىً بنحو ما ابتلي به من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: ﴿وإن تكذّبوا﴾ على معنى: إنّكم يا معشر قريش إن تكذّبوا محمّداً ﴿فقد كذّب﴾ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قومه، وكلّ أمّة نبيّها؛ لأنّ قوله: ﴿فقد كذّب أمم من قبلكم﴾ لابدّ من تناوله لأمّة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متّصل، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها؛ لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه، ووضوح حجّته وبرهانه.

١٩ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء: كوفيّ غير حفص ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي: قد رأوا ذلك، وعلموه. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس بمعطوف على ﴿يبدىء﴾ وليست الرؤية واقعة عليه، وإنّما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] على البدء دون الإنشاء. بل هو معطوف على جملة قوله: ﴿أولم يروا كيف يبدىء الخلق﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

٢٠ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمّد. وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره: وأوحينا إليه أن قُلْ ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم، واختلاف أحوالهم، لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة. وبدأ وأبدأ: بمعنىً ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: البعث وبالمدّ[1] حيث كان: مكّي، وأبو عمرو. وهذا

(١) أي: مدّ الشين بعد تحريكها.

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ

دليلٌ على أنهما نشأتان، وأنّ كلّ واحدة منهما إنشاء، أي: ابتداء، واختراع، وإخراج من العدم إلى الوجود. غير أنّ الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله. والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق، ثمّ ينشىء النشأة الآخرة. وإنما قيل كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة؛ لأنَّ الكلام معهم وقع في الإعادة، فلمّا قرّرهم في الإبداء بأنّه من الله احتجَّ عليهم بأنّ الإعادة إنشاء مثل الإبداء. فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألاّ تُعجزه الإعادة. فكأنّه قال: ثمّ ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة. فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه، وأوقعه مبتدأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

٢١ ـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ بالهداية، وبالحرص والقناعة، أو: بسوء الخلق وحُسْنه، أو: بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه، أو: بمتابعة البدع وبملازمة السنّة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردّون، وترجعون.

٢٢ ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربّكم، أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفسيحة ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي هي أفسح منها، وأبسط لو كنتم فيها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولّى أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ولا ناصر يمنعكم من عذابي.

٢٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بدلائله على وحدانيّته، وكتبه، ومعجزاته ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ جنّتي ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٤ ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ قال بعضهم لبعض، أو: قاله واحد منهم، وكان الباقون راضين، فكانوا جميعاً في حكم القائلين، فاتّفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ

﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حين قذفوه فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فعلوا به وفعلنا ﴿لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ رُوي: أنّه لم يُنْتَفَعْ في ذلك اليوم بالنار، يعني: يوم أُلقي إبراهيم في النار، وذلك لذهاب حرّها.

٢٥ ـ ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حمزة، وحفص ﴿مودّةً بينكم﴾: مدنيّ، وشاميّ، وحماد، ويحيى، وخلف ﴿مودّةُ بينكم﴾: مكّيّ، وبصريّ، وعلّي ﴿مودّةٌ بينَكم﴾: الشَّموني، والبرجميّ. فالنصب على وجهين؛ على التعليل، أي: لتتوادّوا بينكم، وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، واتّفاقكم عليها، كما يتّفق الناس على مذهب، فيكون ذلك سبب تحابّهم، وأن يكون مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]. و﴿ما﴾ كافّة، أي: اتّخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم، على تقدير حذف المضاف، أو: اتّخذتموها ﴿مودّةً بينكم﴾ أي: مودودة بينكم، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وفي الرفع وجهان: أن يكون خبراً لإنّ، و﴿ما﴾ موصولة، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هي مودّة بينكم. والمعنى: أنّ الأوثان مودّةٌ بينكم، أي: مودودة، أو: سبب مودّة. ومَن أضاف المودّة جعل ﴿بينكم﴾ اسماً لا ظرفاً، كقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٦] ومن نوّن ﴿مودّة﴾ ونصب ﴿بينكم﴾ فعلى الظرف ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ تتبرأ الأصنام من عبّادها ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ أي: يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن، فيلعن الأتباع القادة ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ثمّة.

٢٦ ـ ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿لُوطٞ﴾ هو ابن أخت إبراهيم، وهو أوّل من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم:

إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من كَوْثى، وهي من سواد الكوفة إلى حرّان، ثمّ منها إلى فلسطين، وهي من بريّة الشام. ومن ثمّ قالوا: لكلّ نبيّ هجرة، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه في هجرته لوط، وسارّة، وقد تزوّجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ﴿إلى﴾ حيث أمرني ﴿ربي﴾ بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلاّ بما هو خير.

٢٧ ـ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ وَلَدَ وَلَدٍ. ولم يذكر إسماعيل لشهرته ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: في ذرّية إبراهيم، فإنّه شجرة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ والمراد به: الجنس، يعني: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ أي: إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿أَجۡرَهُۥ﴾ الثناء الحسن، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ومحبّة أهل الملل له، أو: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه دليلٌ على أنّه تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من أهل الجنة، عن الحسن.

٢٨ ـ ﴿وَلُوطًا﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً﴾ ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح، وهي اللواط ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جملة مستأنفة مقرّرة لفاحشة تلك الفعلة، كأنّ قائلاً قال: لِمَ كانت فاحشة؟ فقيل: لأنّ أحداً قبلهم لم يقدم عليها. قالوا: لم ينْزُ ذَكَر على ذَكَر قبل قوم لوط.

٢٩ ـ ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ بالقتل، وأخذ المال كما هو عمل قطّاع الطريق. وقيل: اعتراضهم السّابلة بالفاحشة ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ مجلسكم. ولا يقال للمجلس نادٍ إلاّ ما دام فيه أهلُه ﴿ٱلۡمُنكَرَ﴾ أي: المضارطة، والمجامعة، والسباب، والفحش في المزاح، والحذف بالحصى،

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾

ومضغ العلك، والفرقعة، والسّواك بين الناس ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب ﴿إنّكم﴾ ﴿أينّكم﴾ شاميّ، وحفص، وهو: الموجود في الإمام[1]. وكلّ واحد بهمزتين: كوفيّ غير حفص. ﴿آينّكم﴾، بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو، و﴿أينّكم﴾ بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكيّ، ونافع غير قالون، وسهل، ويعقوب غير زيد.

٣٠ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي، والفواحش.

٣١ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة لإبراهيم بالولد والنافلة، يعني: إسحاق، ويعقوب ـ عليهم السلام ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إضافة ﴿مهلكو﴾ لم تفد تعريفاً لأنها بمعنى الاستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجْوَرُ من قاضي سدوم. و﴿هذه القرية﴾ تشعر بأنّها قريبة من موضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ قالوا: إنّها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: الظلم قد استمرّ منهم في الأيام السالفة وهم عليه مصرّون. وظلمهم: كفرهم، وأنواع معاصيهم.

٣٢ ـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي: أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم، وهو: لوط ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾[2] ﴿لَنُنجينّه﴾: يعقوب، وكوفيّ غير عاصم

---

(١) أي: مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة: ﴿لَنُنجينّه﴾.

وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ

﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. ثمّ أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله:

٣٣ ـ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم. و﴿أن﴾ صلة أكّدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر، كأنّهما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنّه قيل: كما أحسّ بمجيئهم فاجأته المساءة من غير رَيْثٍ خيفة عليهم من قومه أن يتناولوهم بالفجور ﴿سيء بهم﴾[1]: مدنيّ، وشاميّ، عليّ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بشأنهم، وبتدبير أمرهم ذرعه، أي: طاقته. وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة. كما قالوا: رحب الذراع إذا كان مطيقاً له. والأصل فيه: أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع، وضُرب ذلك مثلاً في العجز، والقدرة. وهو نصب على التمييز ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وكوفيّ غير حفص ﴿وَأَهْلَكَ﴾ الكاف في محلّ الجرّ. فتنصب ﴿أهلك﴾ بفعل محذوف، أي: ﴿و﴾ ننجي ﴿أهلك﴾ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

٣٤ ـ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ ﴿منزّلون﴾ شاميّ ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بفسقهم، وخروجهم عن طاعة الله ورسوله.

٣٥ ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي آثار منازلهم الخربة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض ﴿لِّقَوْمٍ﴾ يتعلّق بـ﴿تركنا﴾ أو: بـ﴿بيّنة﴾ ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

٣٦ ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلى ﴿مدين﴾ ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ

(١) قوله: «سيء بهم»: أي: بإشمام كسرة السين الضمة.

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة، أو: خافوه ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ قاصدين الفساد.

٣٧ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، أو: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ لأنّ القلوب رجفت لها ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ في بلدهم، وأرضهم. أو: في ديارهم فاكتفى بالواحد لأنه لا يُلْبَسُ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميّتين.

٣٨ ـ ﴿وَعَادٗا﴾ منصوب بإضمار أهلكناها، لأن قوله ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ يدّل عليه، لأنّه في معنى الإهلاك ﴿وَثَمُودَاْ﴾: حمزة، وحفص، وسهل، ويعقوب ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ ـ يعني ما وصفه من إهلاكهم ـ ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ مِنْ جهة ﴿مساكنهم﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها. وكان أهل مكّة يمرّون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ من الكفر، والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي أمروا بسلوكه، وهو: الإيمان بالله، ورسله ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ عقلاء متمكّنين من النظر، وتمييز الحقّ من الباطل، ولكنّهم لم يفعلوا.

٣٩ ـ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي: وأهلكناهم ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ فائتين. أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

٤٠ ـ ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ فيه رد على من يجوّز العقوبة بغير ذنب ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ هي ريح عاصف فيها حصباء، وهي لقوم لوط ﴿وَمِنۡهُم

مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ

﴿مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هي لمدين وثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني: قوم نوح عليه السلام وفرعون عليه اللعنة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليعاقبهم بغير ذنب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر، والطغيان.

٤١ ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهة. يعني: مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: ﴿كمثل العنكبوت﴾ فيما تتخذه لنفسها من البيت، فإنّ ذلك البيت لا يدفع عنها الحرّ والبرد، ولا يقي بما تقي البيوت. فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة. جعل حاتم ﴿اتّخذت﴾ حالاً ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أوهن من بيتها. عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإنّ تركه يورث الفقر ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ هذا مثلهم، وأنّ أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. وقيل: معنى الآية: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتّخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجرٍ وجصٍّ، أو: ينحته من صخر. وكما أنّ أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان ﴿لو كانوا يعلمون﴾. وقال الزّجاج في جماعة: تقدير الآية: ﴿مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء﴾ ﴿لو كانوا يعلمون﴾ ﴿كمثل العنكبوت﴾.

٤٢ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء: بصريّ، وعاصم، غير الأعشى، والبرجميّ. و﴿ما﴾ بمعنى الذي، وهو مفعول ﴿يعلم﴾. ومفعول ﴿يدعون﴾ مضمر، أي: يدعونه، يعني: يعبدونه ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿من﴾ في ﴿من

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

شيء﴾ للتبيين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا شريك له ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة. وفيه تجهيل لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كلّ شيء ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل شيئاً إلاّ بحكمةٍ وتدبير.

٤٣ ـ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ ﴿الأمثال﴾: نعت، والخبر: ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبيّنها ﴿للناس﴾ كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ به، وبأسمائه، وصفاته. أي: لا يعقل صحّتها وحسنها، ولا يفهم فائدتها إلاّ هم، لأنّ الأمثال والتشبيهات إنّما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتّى تبرزها وتصوّرها للأفهام، كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحِّد. وعن النبي ﷺ أنّه تلا هذه الآية فقال: «العالِم مَن عقل عن الله، فعمل بطاعته واجتنب سخطه». ودلّت الآية على فضل العلم على العقل.

٤٤ ـ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: محقاً، يعني: لم يخلقهما باطلاً، بل لحكمة، وهي أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته. ألاَ ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخصّهم بالذكر لانتفاعهم بها.

٤٥ ـ ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تقرّباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه، ولتقف على ما أمر به ونهى عنه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: دُمْ على إقامة الصلاة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي: الفعلة القبيحة كالزنى مثلاً ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو ما ينكره والعقل والشرع. قيل: من كان مراعياً للصلاة جرّه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً مّا. فقد رُوي أنّه قيل يوماً لرسول الله ﷺ:

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

إن فلاناً يصلّي بالنهار، ويسرق بالليل، فقال: «إنّ صلاته لتردعه»[١] ورُوي أنّ فتى من الأنصار كان يصلّي معه الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلاّ ركبه، فوصف له، فقال: «إنّ صلاته ستنهاه». فلم يلبث أن تاب[٢]. وقال ابن عوف: ﴿إن الصلاة تنهى﴾ أي: إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. وعن الحسن: من لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة، وهي وبالٌ عليه ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات. وإنّما قال: ﴿ولذكر الله﴾ ليستقلّ بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر لأنّها ذكر الله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ولذكر الله﴾ إيّاكم برحمته ﴿أكبر﴾ من ذكركم إيّاه بطاعته. وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأنّ ذكره بلا علّة، وذكركم مشوب بالعلل والأماني، ولأنّ ذكره لا يفنى، وذكركم لا يبقى. وقال سلمان: ذكر الله أكبر من كلّ شيء وأفضل. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»[٣] وسُئِل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله»[٤]. أو: ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم، أو: ذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية، أو: ذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير، والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

٤٦ ـ ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة التي ﴿هي

(١) رواه أحمد وابن حبان والبزار وأبو يعلى. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٥٦).
(٢) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٥٦).
(٣) رواه مالك (١ / ٢١١) والترمذي (٣٣٧٤) وابن ماجه (٣٧٩٠).
(٤) رواه ابن شاهين وابن النجار (كنز العمال ٣٩٣٩).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أحسن﴾ وهي مقابلةُ الخشونة باللين، والغضب بالكظم ـ كما قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفعْ فيهم الرفق. فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل: ﴿إلاّ الذين﴾ آذوا رسول الله ﷺ. أو ﴿إلاّ الذين﴾ أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة. أو: معناه ﴿ولا تجادلوا﴾ الداخلين في الذمة المؤدين للجزية ﴿إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا﴾ فنبذوا الذمة، ومنعوا الجزية، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدلّ على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين، وعلى جواز تعلّم علم الكلام الذي به تتحقّق المجادلة ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ من جنس المجادلة بالأحسن. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم ﴿وقولوا آمنّا﴾ بالله، وكتبه، ورسله. فإن كان باطلاً لم تصدّقوهم وإن كان حقاً لم تكذّبوهم»[١].

٤٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أنزلناه مصدّقاً لسائر الكتب السّماويّة. أو: كما أنزلنا الكتب إلى من قبلك ﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هم: عبد الله بن سلام، ومن آمن معه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أهل مكّة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾. أو: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب، ﴿ومن هؤلاء﴾ الذين كانوا في زمان النبي ﷺ ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها، وزوال الشبهة عنها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلاّ المتوغلون في الكفر، المصمّمون عليه؛ ككعب بن الأشرف وأضرابه.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٦) وأبو داود (٣٦٤٤).

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ

٤٨ ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ خص اليمين، لأن الكتابة غالباً تكون باليمين، أي: ما كنت قرأت كتاباً من الكتب ولا كنت كاتباً ﴿إِذًا﴾ أي: لو كان شيء من ذلك، أي: من التلاوة، والخطّ ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب، وقالوا: الذي نجد نعته في كتبنا أميّ، لا يكتب، ولا يقرأ، وليس به، أو: لارتاب مشركو مكّة، وقالوا: لعلّه تعلّمه، أو كتبه بيده. وسمّاهم مبطلين لإنكارهم نبوّته. وعن مجاهد والشعبيّ: ـ رحمهما الله ـ ما مات النبيّ ﷺ حتى كتب وقرأ!

٤٩ ـ ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: في صدور العلماء به، وحفّاظه. وهما من خصائص القرآن: كون آياته بيّنات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور. بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلاّ من المصاحف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الواضحة ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتوغلون في الظلم.

٥٠ ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ﴿آية﴾ بغير ألف: مكّيّ، وكوفيّ غير حفص. أرادوا: هلاّ (أنزل عليه آية) مثل: الناقة، والعصا، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزل أيّتها شاء، فلست أملك منها شيئاً ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كلّفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات، وليس لي أن أقول: أَنزِلْ عليّ آية كذا دون آية كذا، مع علمي: أنّ المراد من الآيات ثبوت الدلالة، والآيات كلّها في حكم آية واحدة في ذلك.

٥١ ـ أي: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ألم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ـ إن كانوا طالبين للحقّ غير متعنّتين ـ هذا القرآن الذي تدومُ تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

لا تزول، كما تزول كلّ آية بعد كونها، أو: تكون في مكان دون مكان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدّهر ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون المتعنّتين.

٥٢ ـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً بصدق ما أدّعيه من الرسالة، وإنزال القرآن عليّ، وبتكذيبكم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو مُطّلع على أمري وأمركم، وعالم بحقّي وباطلكم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ باليهودية، أو بالشرك، أو بإبليس ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان. إلاّ أنّ الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. ورُوي: أنَّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمّد! من يشهد لك بأنّك رسول الله؟ فنزلت:

٥٣ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ وهو: يوم القيامة، أو: يوم بدر، أو: وقت فنائهم بآجالهم. والمعنى: ﴿ولولا أجل﴾ قد سمّاه الله، وبيّنه في اللوح لعذابهم، والحكمة تقتضي تأخيره إلى ذلك الأجل المسمّى، ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ العذاب في الأجل المسمّى ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

٥٤ ـ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ستحيط بهم.

٥٥ ـ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِّن

ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا

﴿فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. ولا وقف على ﴿بالكافرين﴾ لأنّ ﴿يوم﴾ ظرف إحاطة النار بهم ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء: كوفيّ، ونافع ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء أعمالكم.

٥٦ ـ ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ وبسكون الياء: بصريّ، وكوفيّ، غير عاصم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ وبفتح الياء: شاميّ، يعني: أنّ المؤمن إذا لم يتسهّل له العبادة في بلد هو فيه، ولم يتمشّ له أمر دينه، فليهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنّه فيه أسلم قلباً، وأصحّ ديناً، وأكثر عبادة. والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً. وقالوا: لم نجد أعون على قهر النفس، وأجمع للقلب، وأحثّ على القناعة، وأطرد للشيطان، وأبعد من الفتن، وأربط للأمر الدينيّ من مكّة ـ حرسها الله تعالى ـ. وعن سهل: إذا ظهرت المعاصي والبِدَع في أرض، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن رسول الله ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض، استوجب الجنّة»[١] ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ وبالياء: يعقوب. وتقديره: ﴿فإيّاي﴾ فاعبدوا ﴿فاعبدوني﴾. وجيء بالفاء في ﴿فاعبدون﴾ لأنّه جواب شرط محذوف؛ لأنّ المعنى: ﴿إنّ أرضي واسعة﴾ فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرضٍ، فأخلصوها في غيرها. ثمّ حذف الشرط، وعوّض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص. ثمّ شجّع المهاجر بقوله:

٥٧ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: واجدة مرارته وكربه، كما يجدُ الذائق طعم المذوق، لأنّها إذا تيقّنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب ﴿يرجعون﴾ يحيى ﴿ترجعون﴾ يعقوب.

٥٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ لننزلنّهم من الجنّة

(١) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن. (حاشية الكشاف ٣ / ٤٦١).

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

علالي. (لَنُثْوِيَنّهم) كوفيّ غير عاصم من الثَّواء، وهو: النزول للإقامة. وثَوِيَ غير متعدّ، فإذا تعدّى بزيادة الهمزة لم يتجاوز مفعولاً واحداً. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف إمّا إجراؤه مجرى لننزلنّهم، أو: لنؤوينّهم، أو: حذف الجارّ وإيصال الفعل، أو تشبيه الظرف المؤقّت بالمبهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾. ويوقف على: ﴿العاملين﴾ على أنّ:

٥٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان، وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي. والوصل أجود ليكون ﴿الذين﴾ نعتاً للعاملين ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولم يتوكّلوا في جميع ذلك إلاّ على الله.

٦٠ ـ ولمّا أمر رسول الله ﷺ من أسلم بمكّة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة، فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ أي: وكم من دابّة. ﴿وكائن﴾ بالمدّ والهمز مكّيّ. والدابّة: كلّ نفس دبّت على وجه الأرض عقلت، أو لم تعقل ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: لا يرزق تلك الدوّاب الضعاف إلاّ الله، ولا يرزقكم أيضاً ـ أيها الأقوياء ـ إلاّ هو، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يقدّركم، ولم يقدّر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدوابّ التي لا تحمل. وعن الحسن: ﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تدّخره، إنّما تصبح فيرزقها الله. وقيل: لا يدّخر شيء من الحيوان قوتاً إلاّ ابن آدم، والفأرة، والنملة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولكم: نخشى الفقر والضيعة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائركم.

٦١ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ﴿وَلَئِن﴾ سألت هؤلاء المشركين من خالق السموات والأرض على كبرهما، وسعتهما؟ ﴿و﴾ من الذي ﴿سخّر الشمس والقمر﴾؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾

فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كلّه؟

٦٢ ـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأنّ من يشاء مبهم غير معين، فكان الضمير مبهماً مثله. قدَر الرزق وقتَره بمعنىً: إذا ضيّقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم. في الحديث: «إنّ من عبادي مَن لا يُصْلِح إيمانه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لا يُصْلِحُ إيمانه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك»[١].

٦٣ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم مقرّون بذلك ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض، أو: على أنّه ممن أقرّ بنحو ما أقرّوا به، ثمّ نفعه ذلك في توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يتدبّرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات، ونقيم عليهم من الدلالات. أو: ﴿لا يعقلون﴾ ما تريد بقولك ﴿الحمد لله﴾.

٦٤ ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: ما هي، لسرعة زوالها عن أهلها، وموتهم عنها، إلاّ كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرّقون. وفيه ازدراء بالدنيا، وتصغير لأمرها. وكيف لا يصغّرها وهي لا تزنُ عنده جناح بعوضة؟ واللهو: ما يتلذّذ به الإنسان فيلهيه ساعة، ثم ينقضي ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة، أي: ليس فيها إلاّ حياة مستمرّة دائمة لا موت فيها، فكأنّها في ذاتها حياة. والحيوان مصدر حَيَّ، وقياسه: حييان، فقلبت الياء الثانية

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٨٠٩٨ و٨١٠٠) من حديث عمر وأنس رضي الله عنهما.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

واواً. ولم يقل: لهي الحياة لما في بناء فَعَلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة حركة، والموت سكون فمجيئه على بناء دالّ على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة. ويوقف على ﴿الحيوان﴾؛ لأنّ التقدير: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي. ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقاً بشرط علمهم ذلك، وليس كذلك.

٦٥ ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ هو متّصل بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به، وشرح من أمرهم، معناه: هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلاّ الله، ولا يدعون معه إلهاً آخر ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ وأمنوا ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عادوا إلى حال الشرك.

٦٦ ـ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعمة. قيل: هي لام كي. وكذا في ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ فيمن قرأها بالكسر. أي: لكي يكفروا، وكي يتمتعوا. والمعنى: يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها، والتلذذ لا غير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة، فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة، لا إلى التمتع والتلذذ. وعلى هذا لا وقف على ﴿يشركون﴾. ومن جعله لام الأمر ـ متثبّتاً بقراءة ابن كثير، وحمزة، وعليّ ﴿وَلْيَتَمَتَّعوا﴾ بسكون اللام، على وجه التهديد، كقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وتحقيقه في أصول الفقه، تقف عليه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء تدبيرهم، عند تدميرهم.

٦٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ ممنوعاً مصوناً ﴿آمِنًا﴾ يأمن داخلوه ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يستلبون قتلاً وسبياً

أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالشيطان والأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بمحمّد ﷺ والإسلام.

٦٨ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن جعل له شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بنبوّة محمّد عليه الصلاة والسلام، والكتاب ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لم يتلعثموا في تكذيبه حين سمعوه ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا تقرير لثَوائهم في جهنّم؛ لأنّ همزة الإنكار إذا أدخلت على النفي صار إيجاباً. يعني: ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله، وكذّبوا بالحق مثل هذا التكذيب.

أو: ألم يصحّ عندهم أنّ ﴿في جهنم مثوىً للكافرين﴾ حين اجترؤوا مثل هذا الجرأة. وذكر المثوى في مقابلة ﴿لنبوّئنّهم﴾ يؤيّد قراءة الثاء.

٦٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟﴾ أطلق المجاهدة ولم يقيّدها بمفعول ليتناول كلّ ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان، وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ في حقّنا، ومن أجلنا، ولوجْهنا خالصاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أبو عمرو. أي: لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير، وتوفيقاً. وعن الداراني: ﴿والذين جاهدوا﴾ فما علموا ﴿لنهديهم﴾ إلى مالم يعلموا. فقد قيل: من عمل بما علم وفّق لما لا يعلم. وقيل: إنّ الذي نرى من جهلنا[1] بما لا نعلم، إنّما هو لتقصيرنا فيما نعلم. وعن فضيل: ﴿والذين جاهدوا﴾ في طلب العلم ﴿لنهدينهم﴾ سبل العمل به. وعن سهل: ﴿والذين جاهدوا﴾ في إقامة السنّة ﴿لنهدينّهم﴾ سبل الجنّة. وعن ابن عطاء: ﴿جاهدوا﴾ في رضانا ﴿لنهدينّهم﴾ الوصول إلى محلّ الرِّضوان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿جاهدوا﴾ في طاعتنا ﴿لنهدينّهم﴾ سُبُل ثوابنا. وعن الجنيد ـ رحمة الله عليه ـ: ﴿جاهدوا﴾ في التوبة ﴿لنهدينّهم﴾ سبل الإخلاص، أو: ﴿جاهدوا﴾ في خدمتنا لنفتحنّ عليهم سبل المناجاة معنا،

(١) في الأصل المخطوط: جَهدنا. وهو خطأ.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾

والأنس بنا، أو: ﴿جاهدوا﴾ في طلبنا تحرياً لرضانا ﴿لنهدينّهم﴾ سُبُل الوصول إلينا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرة، والمعونة في الدنيا، وبالثواب والمغفرة في العقبى.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾

١، ٣ ـ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أي: غَلَبَتْ فارسُ الرومَ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أقرب أرض العرب، لأنّ الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام. أو: أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوّهم ﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: غلبة فارس إيّاهم، وقرىء بسكون اللام. فالغَلَب والغَلْب مصدران. وقد أضيف المصدر إلى المفعول ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس. ولا وقف عليه لتعلّق:

٤ ـ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ به. وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعاتٍ وبصرى، فغلب فارس الروم، والملك بفارس يومئذ كسرى أبرويز، فبلغ الخبر مكّة، فشقّ على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأنّ فارس

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾

مجوس لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون وشمتوا، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أمّيّون، وقد أظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم، فنزلت، فقال لهم أبو بكر: والله ليظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين. فقال له أبيّ بن خلف: كذبت! فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «زِدْ في الخطر، وأبعد في الأجل». فجعلاها مئة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبيّ من جرح رسول الله ﷺ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرّيّة أبيّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «تصدّق به»[1].

هذه آيةٌ بيّنة على صحّة نبوّته، وأنّ القرآن من عند الله؛ لأنّها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار. عن قتادة. ومن مذهب أبي حنيفة ومحمّد ـ رحمهما الله ـ: أنّ العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفّار. وقد احتجّا على صحّة ذلك بهذه القصة ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل كل شيء، ومن بعد كلّ شيء. أو: حين غلبوا وحين يغلبون. كأنّه قيل: من قبل كونهم غالبين ـ وهو وقت كونهم مغلوبين ـ ومن بعد كونهم مغلوبين ـ وهو وقت كونهم غالبين، يعني: أنّ كونهم مغلوبين أوّلاً وغالبين آخراً ليس إلاّ بأمر الله وقضائه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس، ويحلّ ما وعد الله من غلبتهم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥ ـ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وتغليبه مَن له كتاب على مَن لا كتاب له، وغيظ من شمت بهم من كفّار مكّة. وقيل: نصر الله: هو: إظهار صدق المؤمنين فما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. والباء يتّصل بـ ﴿يفرح﴾ فيوقف على ﴿الله﴾

---

(١) رواه الترمذي (٣١٩٤).

يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ

لا على ﴿المؤمنون بنصر الله﴾ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ العاطف على أوليائه.

٦ ـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد؛ لأنّ قوله: ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ وعد من الله للمؤمنين. فقوله: ﴿وعد الله﴾ بمنزلة وعد الله المؤمنين وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بنصر الروم على فارس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٧ ـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من ﴿لا يعلمون﴾. وفيه بيان: أنّه لا فرقَ بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوزُ تحصيل الدنيا ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يفيد أنّ للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهّال من التمتّع بزخارفها، وباطنها: أنّها مجازٌ إلى الآخرة يتزوّد منها إليها بالأعمال الصالحة. وتنكير الظاهر يفيد أنّهم لا يعلمون إلاّ ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿هم﴾ الثانية: مبتدأ. و﴿غافلون﴾ خبره. والجملة خبر ﴿هم﴾ الأولى. وفيه بيان أنّهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها.

٨ ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً، كأنّه قيل: ﴿أو لم﴾ يثبتوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر. والتفكّر لا يكون إلاّ في القلوب، ولكنّه زيادة تصوير لحال المتفكّرين، كقولك: اعتقده في قلبك. وأن يكون صلة للتفكّر نحو: تفكّر في الأمر، وأجال فيه فكره. ومعناه على هذا: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم﴾ التي هي أقربُ إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلمُ بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحِكَم الدالّة على التدبير دون الإهمال، وأنّه لابُدَّ لها من انتهاءٍ إلى وقت تُجازى فيه على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتّى يعلموا عند ذلك أنّ سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنّه لابُدَّ لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ متعلّق بالقول المحذوف. معناه: ﴿أو لم يتفكّروا﴾ فيقولوا هذا القول. وقيل معناه:

إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟

فيعلموا؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنّما خلقها مقرونة بالحقّ، ومصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمّى لابدّ لها من أن تنتهي إليه، وهو قيامُ الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب. ألاَ ترى إلى قوله: ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون﴾ كيف سمّى تركهم غير راجعين إليه عبثاً؟! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث، والجزاء ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ لجاحدون. وقال الزجّاج ـ رحمه الله ـ: أي: لكافرون بلقاء ربّهم.

٩ ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو تقرير لسيرهم في البلاد، ونظرهم إلى آثار المدمَّرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية. ثمّ وصف حالهم فقال: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وحرثوها ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: المدمَّرون ﴿أَكْثَرَ﴾ صفة مصدر محذوف. و«ما» مصدريّة في ﴿مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: من عمارة أهل مكّة ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وتقف عليها لحقّ الحذف، أي: فلم يؤمنوا فأهلكوا ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما كان تدميره إيّاهم ظلماً لهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنّهم ظلموا أنفسهم، حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

١٠ ـ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ﴾ بالنصب: شاميّ، وكوفيّ ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هي تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح، كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن. ومحلّها رفع على أنّها اسم ﴿كان﴾ عند من نصب ﴿عاقبة﴾ على الخبر، ونصبٌ عند من رفعها. والمعنى: أنّهم عوقبوا في الدنيا بالدّمار، ثمّ كانت عاقبتهم السوأى ـ إلاّ أنّه وضع المظهر وهو ﴿الذين أساؤوا﴾ موضع المضمر ـ أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النار التي أعدّت للكافرين ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ لـ﴿أن

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي

كذّبوا﴾ أو: بـ ﴿أن﴾. وهو يدلّ على أنّ معنى ﴿أساؤوا﴾ كفروا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يعني: ثمّ كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله، واستهزائهم بها.

١١ ـ ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ ينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وبالياء: أبو عمرو، وسهل.

١٢ ـ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ﴾ ييئس ويتحيّر. يقال: ناظرته فأبلس، إذا لم ينبس وييئس من أن يحتجّ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المشركون.

١٣ ـ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ من الذين عبدوهم من دون الله. وكتب ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ في المصحف بواو قبل الألف كما كتب ﴿علمؤا بني إسرائيل﴾ ـ وكذلك كتبت ﴿السوأى﴾ بالألف قبل الياء ـ إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي: يكفرون بالهيتهم، ويجحدونها، أو: ﴿وكانوا﴾ في الدنيا ﴿كافرين﴾ بسببهم.

١٤ ـ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ الضمير في ﴿يتفرّقون﴾ للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه؛ حيث قال:

١٥ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ أي: بستان، وهي: الجنّة. والتنكير لإبهام أمرها، وتفخيمه ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يسرّون. يقال: حبره، إذا سرّه سروراً تهلّل له وجهه، وظهر فيه أثره. ثمّ اختلف فيه لاحتمال وجوه المسارّ، فقيل: يكرمون، وقيل. يحلّون، وقيل: هو السماع في الجنّة.

١٦ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: البعث ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي

ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مقيمون، لا يغيبون عنه، ولا يخفّف عنهم، كقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

١٧ ـ لمّا ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد، فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ والمراد بالتسبيح ظاهره؛ الذي هو تنزيه الله من السوء، والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات؛ لما يتجدّد فيها من نعمة الله الظاهرة. أو: الصلاة، فقيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هل نجد الصلوات الخمس في القرآن؟ فقال: نعم، وتلا هذه الآية. وهو نصب على المصدر. والمعنى: نزّهوه عمّا لا يليق به، أو صلّوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر.

١٨ ـ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراض. ومعناه: أنّ على المميّزين كلّهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه. و﴿في السموات﴾ حال من ﴿الحمد﴾ ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر. وهو معطوف على ﴿حين تمسون﴾ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. أظهَر: أي: دخل في وقت الظهر. والقول الأكثر أنّ الصلوات الخمس فُرِضتْ بمكّة.

١٩ ـ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الطائر من البيضة، أو الإنسان من النطفة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ البيضة من الطائر، أو النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن. و﴿الميْت﴾ بالتخفيف فيهما: مكيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وأبو بكر، وحمّاد، وبالتشديد غيرهم ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1] حمزة، وعليّ، وخلف. أي: ومثل ذلك الإخراج ﴿تَخْرُجون﴾ من قبوركم. والكاف في محلّ النصب بـ﴿تَخْرُجون﴾. والمعنى: أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة مَن هو قادر على إخراج الميّت

---

(١) في الأصل المخطوط أثبتت قراءة ﴿تَخْرُجون﴾، وهي قراءة من أشار إليهم المؤلف.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

من الحيّ، وعكسه. روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «من قرأ ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ إلى الثلاث، وآخر سورة ﴿والصافّات﴾ دبر كلّ صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر الأمطار، وورق الأشجار، وتراب الأرض. فإذا مات أجري له بكل حرف عشر حسنات في قبره». وعنه ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ إلى قوله ﴿وكذلك تخرجون﴾ أدرك ما فاته في يومه. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته»(١).

٢٠ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ومن علامات ربوبيّته، وقدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي: آدم وذرّيّته ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ تتصرفون فيما فيه معاشكم، و﴿إذا﴾ للمفاجآت. وتقديره: ﴿ثم﴾ فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض.

٢١ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: حوّاء خلقت من ضلع آدم ـ عليه السلام ـ والنساء بعدها خُلِقْنَ من أصلاب الرجال، أو: من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألفِ والسكون، ومابين الجنسين المختلفين من التنافر. يقال: سكن إليه: إذا مال إليه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي بينكم التوادّ، والتراحم بسبب الزواج. وعن الحسن: المودّة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد. وقيل: المودّة للشابة، والرحمة للعجوز. وقيل: المودّة والرحمة من الله، والفرك من الشيطان، أي: بغض المرأة زوجها، وبغض الزوج المرأة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعملون أنّ قوام الدنيا بوجود التناسل.

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٦).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

٢٢ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: اللغات، أو: أجناس النطق وأشكاله ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ كالسواد والبياض وغيرهما. ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلاّ فلو تشاكلت واتّفقت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح. وفي ذلك آية بيّنة حيث ولدوا من أب واحد، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلاّ الله متفاوتون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[1] جمع عالَم. وبكسر اللام حفص، جمع عالِم. ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢٣ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ هذا من باب اللفّ. وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلاّ أنّه فُصِل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين. أو: المراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما. والجمهور على الأوّل لتكرره في القرآن. وأسدّ المعاني ما دلّ عليه القرآن ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون سماع تدبّر بآذان واعية.

٢٤ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ في ﴿يريكم﴾ وجهان إضمار «أنْ» كما في حرف ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وإنزال الفعل منزلة المصدر. وبهما فسّر المثل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»[2] أي: أن تسمع، أو: سماعك ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة، أو: من الإخلاف ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. أو: ﴿خوفاً﴾ للمسافر ﴿وطمعاً﴾ للحاضر. وهما منصوبان على المفعول له، على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: إرادة خوف، وإرادة طمع؛ أو: على الحال، أي: خائفين، وطامعين ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وبالتخفيف مكّيّ، وبصريّ

(١) أثبت المؤلف رحمه الله قراءة ﴿لِلْعَالَمِين﴾ بفتح اللام.
(٢) انظره في: مجمع الأمثال للميداني (١/١٢٩).

مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

﴿ مَآءً ﴾ مطراً ﴿ فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتفكّرون بعقولهم.

٢٥ ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ﴾ تثبت بلا عمد ﴿ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي: بإقامته، أو: بتدبيره، وحكمته ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ للبعث ﴿ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ من قبوركم. هذا كقوله ﴿يريكم﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنّه قال: ﴿ومن آياته﴾ قيام السموات والأرض، واستمساكها بغير عمد، ثمّ خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة: يا أهل القبور اخرجوا. والمراد: سرعة وجود ذلك من غير توقّف. وإنّما عُطِفَ هذا على قيام السموات والأرض بـ﴿ثمّ﴾ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلاّ قامت تنظر، كما قال: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]. و﴿إذا﴾ الأولى للشرط، والثانية للمفاجآت، وهي تنوبُ مناب الفاء في جواب الشرط. و﴿من الأرض﴾ متعلّق بالفعل لا بالمصدر. وقولك: دعوته من مكان كذا، يجوز أن يكون: مكانك، ويجوز أن يكون: مكان صاحبك.

٢٦ ـ ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم، لا يمتنعون عليه، أو: مقرّون بالعبوديّة.

٢٧ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي: ينشئهم ثم يعيدهم للبعث ﴿وَهُوَ﴾ أي: البعث ﴿أَهْوَنُ﴾ أيسر ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء. فلم أنكرتم الإعادة؟ وأخّرت الصلة في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ وقدّمت في قوله: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٩] لقصد الاختصاص هناك، وأمّا هنا فلا معنى للاختصاص. وقال أبو عبيدة والزجّاج وغيرهما: الأهون

وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ

بمعنى الهيّن، فيوصف به الله عزّ وجلّ، وكان ذلك على الله يسيراً، كما قالوا: الله أكبر، أي: كبير. والإعادة في نفسها عظيمة، ولكنّها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء. أو: ﴿هو أهون﴾ على الخلق من الإنشاء؛ لأنّ قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفاً، ثمّ علقاً، ثمّ مضغاً، إلى تكميل خلقهم ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره، وقد عرف به ووصف ﴿في السموات والأرض﴾ على ألسنة الخلائق، وألسنة الدلائل، وهو أنّه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكلّ مقدور ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يجري كلّ فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المثل الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ: هو قول لا إله إلاّ الله. ومعناه: ﴿وله﴾ الوصف الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية. ويعضده قوله:

٢٨ ـ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فهذا مثلٌ ضربه الله عزّ وجلّ لمن جعل له شريكاً من خلقه. و﴿من﴾ للابتداء. كأنّه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ﴿هَل لَّكُم﴾ معاشر الأحرار ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ عبيدكم ـ و﴿من﴾ للتبعيض ـ ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾؟ ﴿من﴾ مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ومعناه: هل ترضون لأنفسكم ـ وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر، وعبيد كعبيد ـ أن يشارككم بعضهم ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ﴾ معاشر الأحرار والعبيد ﴿فِيهِ﴾ في ذلك الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ من غير تفصلة بين حرّ وعبد، يحكم مماليككم في أموالكم كحكمكم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿سواء﴾ أي: تخافون معاشر السادة عبيدكم فيها، فلا تمضون فيها حكماً دون إذنهم، خوفاً من لائمة تلحقكم من جهتهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾ أي: خيفةً كخيفتكم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: كما يخاف بعضُ

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾

الأحرار بعضاً فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لربّ الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعضَ عبيده له شركاء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ موضع الكاف نصب، أي: مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: نبيّنها؛ لأنّ التمثيل ممّا يكشف المعاني، ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبّرون في ضرب الأمثال.

٢٩ ـ فلمّا لم ينزجروا أضرب عنهم فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أنفسهم بما أشركوا، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: اتّبعوا ﴿أهواءهم﴾ جاهلين ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: أضلّه الله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ من العذاب.

٣٠ ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فقوّم وجهك له، وعدّله، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً. وهو تمثيلٌ لإقباله على الدين، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه. فإنّ مَن اهتمّ بالشيء عقد عليه طرفه، وسدّد إليه نظره، وقوّم له وجهه ﴿حَنِيفًا﴾ حال عن المأمور، وعن الدّين ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: الزموا ﴿فطرة الله﴾. والفطرة: الخلقة. ألَا ترى إلى قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾؟! والمعنى: أنّه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نابين[١] عنه ولا منكرين له؛ لكونه مجاذِباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتّى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر. ومَن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجنّ. ومنه قوله ﷺ: «كلّ عبادي خلقتُ حنفاء، فاجتالتهم الشياطينُ عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[٢] وقوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، حتّى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه، وينصّرانه»[٣]. وقال الزجّاج: معناه: أنّ الله تعالى فطر الخلق

---

(١) «نبا»: تجافى وتباعد.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٩٣) والبخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨).

ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ

على الإيمان به، على ما جاء في الحديث: «إنّ الله عزّ وجلّ أخرج من صُلب آدم ذُرِّيَّتَهُ كالذرّ، وأشهدهم على أنفسهم بأنّه خالقهم»[1] وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فكلّ مولود هو من تلك الذرية؛ التي شهدت بأنّ الله تعالى خالقها. فمعنى ﴿فطرة الله﴾: دين الله ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: خلق ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي أن تبدّل تلك الفطرة، أو: تغيّر. وقال الزجّاج: معناه: لا تبديل لدين الله. ويدلّ عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك.

٣١ ـ ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه. وهو حال من الضمير في الزموا. وقوله: ﴿واتّقوه﴾ ﴿وأقيموا﴾ ﴿ولا تكونوا﴾ معطوف على هذا المضمر. أو: من قوله ﴿فأقم وجهك﴾ لأنّ الأمر له عليه الصلاة والسلام أمر لأمّته، فكأنّه قال: فأقيموا وجوهكم ﴿منيبين إليه﴾. أو التقدير: كونوا ﴿منيبين﴾. دليله: قوله: ﴿ولا تكونوا﴾ ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدّوها في أوقاتها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

٣٢ ـ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿المشركين﴾ بإعادة الجارّ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ جعلوا أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم. (فارقوا): حمزة، وعليّ. وهي قراءة عليّ ـ رضي الله عنه ـ أي: تركوا دين الإسلام ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فرقاً، كلّ واحدة تشايع إمامها الذي أضلّها ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فَرِحٌ بمذهبه مسرور، يحسب باطله حقّاً.

٣٣ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ شدّة من هزال، أو: مرض، أو: قحط، أو:

(١) رواه أحمد (١/ ٢٧٢).

دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

غير ذلك ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من الشدّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ في العبادة.

٣٤ ـ ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ ـ هذه لام كي. وقيل: لام الأمر للوعيد ـ ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعم ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ بكفركم قليلاً ـ أمر وعيد ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال تمتعكم.

٣٥ ـ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجّة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ وتكلّمه مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه: الشهادة، كأنّه قال: فهو يشهدُ بشركهم، وبصحّته ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ «ما» مصدريّة، أي: بكونهم بالله ﴿يُشْرِكُونَ﴾. أو: موصولة، ويرجع الضمير إليها، أي: فهو يتكلّم بالأمر الذي بسببه يشركون. أو: معنى الآية: ﴿أم أنزلنا عليهم﴾ ذا سلطان، أي: ملكاً معه برهان، فذلك الملك يتكلّم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

٣٦ ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من مطر، أو: سعة، أو: صحّة ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ بطروا بسببها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: بلاء من جدب، أو ضيق، أو: مرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب شؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من الرحمة. فـ﴿إذا﴾ المفاجأة جواب الشرط، نابت عن الفاء لتآخيهما في التعقيب.

٣٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنكر عليهم بأنّهم قد علموا بأنّه الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصي، التي عوقبوا بالشدّة من أجلها، حتّى يعيد إليهم رحمته؟!

٣٨ ـ ولمّا ذكر أنّ السيّئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن

يفعل، وما يجب أن يترك، فقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أعطِ قريبك ﴿حَقَّهُۥ﴾ من البرّ والصلة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ نصيبهما من الصدقة المسمّاة لهما. وفيه دليلُ وجوب النفقة للمحارم، كما هو مذهبنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيتاء حقوقهم ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذاته، أي: يقصدون بمعروفهم إيّاه خالصاً ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٣٩ ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ يريد: وما أعطيتم أكلة الربا ليربو في أموالهم، ليزيد ويزكو في أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يزكو عند الله، ولا يبارك فيه. وقيل: هو من الربا الحلال، أي: وما تعطونه من الهديّة لتأخذوا أكثر منها (فلا يربو عند الله) لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً، لا تطلبون به مكافأة، ولا رياء، وسمعة، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات. ونظير المضعف: المقوي، والموسر لذي القوّة واليسار. ﴿أتيْتُم من رباً﴾ بلا مدّ: مكّيّ، أي: وما غشيتموه من إعطاء ربا. ﴿لِتُرْبوا﴾ مدنيّ، أي: لتزيدوا في أموالهم. وقوله: ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ التفاتٌ حسن، لأنه يفيدُ التعميم، كأنه قيل: من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين. والمعنى: ﴿المضعفون﴾ به؛ لأنّه لا بدّ له من ضمير يرجع إلى ﴿ما﴾ الموصولة. وقال الزجّاج في قوله: ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي: فأهلها ﴿هم المضعفون﴾ أي: هم الذين يضاعف لهم الثواب، يعطون بالحسنة عشر أمثالها.

٤٠ ـ ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: هو المختصّ بالخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: أصنامكم التي زعمتم أنّهم شركاء الله ﴿مَّن

يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

﴿يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي: الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً من تلك الأفعال. فلم يجيبوا عجزاً، فقال استبعاداً: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. و﴿من﴾ الأولى والثانية والثالثة كلّ واحدة منهنّ مستقلّة بتأكيدٍ لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

٤١ ـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ نحو: القحط، وقلّة الأمطار، والريع في الزراعات، والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدوابّ، وكثرة الغرق، ومحق البركات من كل شيء ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وشركهم ـ كقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] أي: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ـ وبالنون: عن قنبل ـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه من المعاصي. ثمّ أكّد تسبيب المعاصي لغضب الله، ونكاله بقوله:

٤٢ ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ حيث أمرهم بأن يسيروا، فينظروا كيف أهلك الله الأمم، وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم.

٤٣ ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغ الاستقامة، الذي لا يتأتّى فيه عوج ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ هو مصدر بمعنى الردّ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يتعلّق بـ ﴿يأتي﴾. والمعنى: ﴿من قبل أن يأتي﴾ من الله يوم لا يردّه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: ٤٠] أو بـ ﴿مردّ﴾ على معنى: لا يردّه هو بعد أن يجيء به، ولا ردّ له من جهته ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدّعون، أي: يتفرّقون.

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

٤٤ ـ ثُمَّ أشار إلى غناه فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبال كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يسوّون لأنفسهم ما يسوّيه لنفسه الذي يمهد فراشه، ويوطّئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينغّص عليه مرقده من نتوء أو غير ذلك. والمعنى بأنّه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم، فأضيف إليهم. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضَرَرَ الكفر لا يعُود إلاّ على الكافر، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجعُ إلى المؤمن لا تجاوزه.

٤٥ ـ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلّق بـ ﴿يمهدون﴾ تعليل له. وتكرير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح؛ لتقرير: أنّه لا يفلحُ عنده إلاّ المؤمن ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: عطائه. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تقرير بعد تقرير، على الطرد والعكس.

٤٦ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ومن آيات قدرته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ هي الجنوب، والشمال، والصّبا. وهي: رياح الرحمة. وأمّا الدبور فريح العذاب. ومنه قوله ﷺ: «اللّهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً»[1]. وقد عدّد الفوائد في إرسالها فقال: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: أرسلها للبشارة بالغيث، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ولإذاقة الرحمة وهي: نزول المطر، وحصول الخصب الذي يتبعه، والرّوح الذي مع هبوب الريح، وزكاء الأرض، وغير ذلك ـ ﴿وليذيقكم﴾ معطوف على ﴿مبشّرات﴾ على المعنى. كأنّه قيل: ليبشركم، وليذيقكم، ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بتدبيره، أو بتكوينه، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ الآية [يس: ٨٢] ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يريد تجارة البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيها.

---

(١) رواه أبو يعلى (٢٤٥٦) والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ

---

٤٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم. ويدلّ على هذا الإضمار قوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ـ أي: كفروا ـ بالإهلاك في الدنيا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكان نصر المؤمنين حقّاً علينا بإنجائهم مع الرسل. وقد يوقف على ﴿حقّاً﴾. ومعناه: ﴿وكان﴾ الانتقام منه ﴿حقّاً﴾. ثمّ يُبتدأ ﴿علينا نصر المؤمنين﴾. والأوّل أصحّ.

٤٨ ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ ﴿الرِّيح﴾: مكّيّ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ﴾ أي: السحاب ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في سَمت السّماء، وشقّها ـ كقوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ـ و﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ناحية الشمال، أو: الجنوب، أو: الدبور، أو: الصبا ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قطعاً، جمع كِسْفَة، أي: يجعله منبسطاً يأخذ وجه السماء مرّة، ويجعله قطعاً متفرّقة غير منبسطة مرّة ـ ﴿كِسْفاً﴾ يزيد، وابن ذكوان ـ ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ في التارتين جميعاً ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وسطه ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بالودق ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يريد إصابة بلادهم، وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون.

٤٩ ـ ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ كرّر للتأكيد كقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧]. ومعنى التوكيد فيها: الدلالة على أنّ عهدهم بالمطر قد تطاول، فاستحكم يأسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين.

٥٠ ـ ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ﴾ شاميّ، وكوفيّ، غير أبي بكر. وغيرهم ﴿أثَر﴾ ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أي: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات، وأنواع الثمار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الله ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ يعني: أنّ ذلك القادر الذي يحيي

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ

الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم. فهذا استدلالٌ بإحياء الموات على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ﴿وهو على كلّ شيء﴾ من المقدورات قادر، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

٥١ ـ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي: الدبور ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي: أثر رحمة الله ـ لأنّ رحمة الله هي الغيث، وأثرها: النبات. ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه؛ لأنّ معنى آثار الرحمة: النبات، واسم النبات يقعُ على القليل والكثير؛ لأنّه مصدر سمّي به ما ينبت ـ ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد اخضراره. وقال ﴿مصفرّاً﴾ لأنّ تلك صفرة حادثة. وقيل: فرأوا السحاب مصفرّاً؛ لأنّ السحاب الأصفر لا يمطر. واللام في ﴿لئن﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط. والسَّادُّ مسدّ جوابي القسم والشرط: ﴿لَّظَلُّوا﴾ ومعناه: لَيَظَلُّنَّ ﴿مِن بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: من بعد اصفراره، أو: من بعد الاستبشار. ذمّهم الله تعالى بأنّه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته، ورزقهم المطر استبشروا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجّوا، وكفروا بنعمة الله، فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله، فقنطوا؛ وأن يشكروا نعمته، ويحمدوه عليها، ففرحوا؛ وأن يصبروا على بلائه، فكفروا.

٥٢ ـ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: موتى القلوب، أو: هؤلاء في حكم الموتى، فلا تطمع أن يقبلوا منك ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ﴿ولا يَسمَع الصمُّ﴾ ـ: مكّيّ ـ ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾. فإن قلت: الأصمّ لا يسمع مقبلاً أو مدبراً، فما فائدة هذا التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولّى لا يسمع، ولا يفهم بالإشارة.

٥٣ ـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن﴾ أي: عُمْي القلوب. ﴿وما أنت تهدي العمي﴾ حمزة ﴿ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ أي: لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى طريق قد ضلّ

إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ

عنه بإشارة منك له إليه ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ ما تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لأعلام الله تعالى.

٥٤ ـ ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ من النطف، كقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني: حال الشباب. وبلوغ الأشد ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ يعني: الشيخوخة، والهرم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ضعف، وقوّة، وشباب، وشيبة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على تغييرهم. وهذا الترديدُ في الأحوال أبينُ دليل على الصَّانع العليم القدير. وفتح الضاد في الكلّ: عاصم، وحمزة، وضمّ غيرهما، وهو اختيارُ حفص[1]. وهما لغتان، والضمّ أقوى في القراءة؛ لما رَوىٰ ابن عمر قال: قرأتها على رسول الله ﷺ ﴿من ضَعف﴾ فأقرأني ﴿من ضُعف﴾.

٥٥ ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة. سمّيت بذلك لأنّها في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو: لأنّها تقع بغتة، كما تقول: «في ساعة» لمن تستعجله. وجرت علماً لها؛ كالنجم للثريّا ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف الكافرون. ولا وقف عليه، لأنّ ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في القبور، أو: في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ جواب القسم. استقلّوا مدّة لبثهم في القبور، أو: في الدنيا لهول يوم القيامة، وطول مقامهم في شدائدها، أو: ينسون، أو: يكذبون ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا، ويقولون: ما هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

٥٦ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ هم الملائكة أو الأنبياء، والمؤمنون

(١) قرأ حفص بالفتح والضم؛ الفتح عن عاصم، والضم عن نفسه. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٧٧).

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علم الله المثبت في اللوح، أو في حكم الله وقضائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾. ردّوا ما قالوه، وحلفوا عليه، وأطلعوهم على الحقيقة، ثمّ وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنّه حقّ؛ لتفريطكم في طلب الحقّ، واتّباعه. الفاء لجواب شرط يدلّ عليه الكلام، تقديره: إن كنتم منكرين البعث ﴿فهذا يوم البعث﴾ الذي أنكرتموه.

٥٧ ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء: كوفيّ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يقال لهم: أرضوا ربّكم بتوبة. من قولك: استعتبني فلان فأعتبته، أي: استرضاني فأرضيته.

٥٨ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: ولقد وصفنا لهم كلّ صفة، كأنّها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كلّ قصّة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم، وما يقولون، وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم، ولا يسمع من استعتابهم. ولكنّهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل!

٥٩ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع ـ وهو: الختم ـ يطبع الله على قلوب الجهلة؛ الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتّى يسمّوا المحقّين مبطلين. وهم أعرقُ خلق الله في تلك الصفة.

٦٠ ـ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذاهم، أو: عداوتهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرتك على أعدائك، وإظهار دين الإسلام على كلّ دين ﴿حَقٌّ﴾ لابدّ من إنجازه،

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

والوفاء به ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يحملنّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفّة والعجلة في الدعاء عليهم بالعذاب، أو: لا يحملنّك على الخفّة والقلق جزعاً ممّا يقولون ويفعلون، فإنّهم ضُلّال، شاكّون، لا يستبدع منهم ذلك ﴿ولا يستخفنْك﴾ بسكون النون، عن يعقوب.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

١، ٢ ـ ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة. أو: وصف بصفة الله عزّوجلّ على الإسناد المجازيّ.

٣ ـ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالان من الآيات. والعامل معنى الإشارة في ﴿تلك﴾. حمزة: بالرفع، على أنّ ﴿تلك﴾ مبتدأ، و﴿آيات الكتاب﴾ خبره، و﴿هدى﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف. أي: هو، أو: هي هدى ورحمة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للذين يعملون الحسنات المذكورة في قوله:

٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ونظيره قول أوس:

الألمعيُّ الذي يَظُنُّ بكَ الظَّنَّ ... كَـأَنْ قَـدْ رأى وقـد سَمِعـا

أو: للذين يعملون جميع ما يحسن، ثمّ خصّ منهم القائمين بهذه الثلاث لفضلها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا﴾

---

٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى﴾ مبتدأ وخبر ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ صفة لهدى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ عطف عليه.

٦ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث. وكان يشتري أخبارَ الأكاسرة من فارس، ويقول: إنّ محمّداً يقصّ طرفاً من قصّة عاد وثمود، فأنا أحدّثكم بأحاديث الأكاسرة. فيميلون إلى حديثه، ويتركون استماع القرآن. واللهو: كلّ باطل ألهى عن الخير وعمّا يعني. ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير التي لا أصل لها والغناء. وكان ابن عباسٍ وابنُ مسعودـ رضي الله عنهما ـ يحلفان أنّه الغناء. وقيل: الغناء: مفسدة للقلب، منفدة للمال، مسخطة للربّ. وعن النبيّ ﷺ: «ما من رجل يرفعُ صوتَه بالغناء إلاّ بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتّى يكون هو الذي يسكت»[1]. والاشتراء من الشراء كما روي عن النضر، أو: من قوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٧٧] أي: استبدلوه منه، واختاروه عليه، أي: يختار حديث الباطل على حديث الحقّ. وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى «مِنْ»؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبيّن بالحديث. والمراد بالحديث: الحديث المنكر، كما جاء في الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمةُ الحشيش»[2]. أو: للتبعيض، كأنّه قيل: ومن الناس من يشتري بعضَ الحديث الذي هو اللهو منه ﴿لِيُضِلَّ﴾ أي: ليصدّ الناس عن الدخول في الإسلام، واستماع القرآن. ﴿ليَضلّ﴾: مكّيّ، وأبو عمرو، أي: ليثبت على ضلاله الذي كان عليه، ويزيد فيه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الإسلام، والقرآن ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: جهلاً منه بما عليه من الوزر به ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي: السبيل. بالنصب، كوفيّ غير أبي بكر،

---

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٨/ ١١٩).
(٢) انظره في كشف الخفاء (١/ ٤٥٣).

هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ

عطفاً على ﴿ليضلّ﴾. ومن رفع عطفه على ﴿يشتري﴾ ﴿هُزُوًا﴾[1] بسكون الزاي والهمزة: حمزة. وبضمّ الزاى بلا همز؛ حفص. وغيرهم بضمّ الزاي والهمزة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: يهينهم ـ و﴿مَنْ﴾ لإبهامه؛ يقعُ على الواحد والجمع ـ أي: للنضر وأمثاله.

٧ ـ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ أعرض عن تدبّرها متكبّراً، رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها. وهو حال من ﴿مستكبراً﴾. والأصل: كأنّه. والضمير ضمير الشأن ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ ثِقلاً. وهو حال من ﴿لم يسمعها﴾. و﴿أذْنيه﴾: نافع ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٨، ٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ ولا وقف عليه؛ لأنّ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿لهم﴾ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ مصدران مؤكدان، الأوّل مؤكّد لنفسه، والثاني مؤكّد لغيره. إذ ﴿لهم جنّات النعيم﴾ في معنى وعدهم الله جنّات النعيم، فأكد معنى الوعد بالوعد. و﴿حقاً﴾ يدلُّ على معنى الثبات، فأُكِّدَ به معنى الوعد. ومؤكّدهما: ﴿لهم جنّات النعيم﴾ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء، فيهين أعداءه بالعذاب الأليم، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ بما يفعل، فيثيب أولياءه بالنعيم المقيم.

١٠ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ جمع عماد ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ الضمير للسموات. وهو استشهادٌ برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: ﴿بغير عمد﴾. كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني. ولا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّها مستأنفة، أو: في محلّ الجرّ صفة لعمد، أي: بغير عمد مرئيّة، يعني: أنّه

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿هزؤاً﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾

عمدها بعمد لا ترى، وهي: إمساكها بقدرته ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تضطرب بكم ﴿وَبَثَّ﴾ ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن.

١١ ـ ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: آلهتهم. بكّتهم بأنّ هذه الأشياء العظيمة ممّا خلقه الله، فأروني ما خلقته آلهتكم حتّى استوجبوا عندكم العبادة ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلالٍ ليس بعده ضلال.

١٢ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ هو لقمان بن باعوراء، ابن أخت أيوب، أو: ابن خالته. وقيل: كان من أولاد آزر. وعاش ألف سنة، وأدرك داود ـ عليه السلام ـ وأخذ منه العلم. وكان يفتي قبل مبعث داود ـ عليه السلام ـ فلمّا بعث قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذا كُفيت؟ وقيل: كان خيّاطاً، وقيل: كان نجّاراً، وقيل راعياً، وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل. وقال عكرمة والشعبيّ ـ رحمهما الله ـ: كان نبيّاً. والجمهور على أنّه كان حكيماً، ولم يكن نبيّاً. وقيل: خُيّر بين النبوّة والحكمة، فاختار الحكمة، وهي: الإصابة في القول والعمل. وقيل تلمّذ بألف نبيّ وتلمّذ له ألف نبيّ. و«أنْ» في: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ مُفسِّرة، والمعنى: أي اشكر لله؛ لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول. وقد نبّه الله تعالى على أنّ الحكمة الأصليّة، والعلم الحقيقيّ هو العمل بهما، وعبادة الله، والشكر له، حيث فسّر إيتاء الحكمة بالحثّ على الشكر. وقيل: لا يكون الرجلُ حكيماً حتّى يكون حكيماً في قوله، وفعله، ومعاشرته، وصحبته. وقال السريّ (السقطي)[1] ـ رحمه الله ـ: الشكر: ألاّ

(١) مستدرك من المطبوع. والسَّري السَّقْطي: أبو الحسن، من كبار المتصوفة، وهو خال الجُنيد وأستاذه. توفي ببغداد سنة ٢٥٣ هـ.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

تعصي الله بنعمه. وقال الجنيد: ألاّ ترى معه شريكاً في نِعمه. وقيل: هو الإقرارُ بالعجز عن الشكر. والحاصل: أنّ شكر القلب المعرفة، وشكر اللسان الحمد، وشكر الأركان الطاعة. ورؤية العجز في الكلّ، دليل قبول الكلّ ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنّ منفعته تعود إليه، فهو يريدُ المزيد ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بأن يحمد، وإن لم يحمده أحد.

١٣ ـ ﴿وَإِذْ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ أنعم، أو: أشكم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾[1] مكّي ﴿يا بُنَيَّ﴾؛ حفص، وبفتحه في كلّ القرآن ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنّه تسوية بين من لا نعمة إلاّ هي منه وبين من لا نعمة له أصلاً.

١٤ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهناً على وهن﴾ أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايدُ ضعفها ويتضاعف؛ لأنّ الحملَ كلّما ازداد، وعظم ازدادت ثِقلاً، وضعفاً ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: فطامه عن الرضاع لتمام عامين ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ هو تفسيرٌ لـ: «وصّينا» أي: وصّيناه بشكرنا، وبشكر والديه. وقوله: ﴿حملته أمّه وهناً على وهن، وفصاله في عامين﴾ اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، لأنّه لمّا وصّى بالوالدين ذكر ما تكابده الأمّ، وتعانيه من المشاقّ في حَمْله وفصاله هذه المدّة الطويلة، تذكيراً بحقّها العظيم مفرداً. وعن ابن عيينة: من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصيرك إليّ، وحسابك عليّ.

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ كما في الأصل المخطوط قراءة: ﴿يا بُنيْ﴾. وهي قراءة من أشار إليه المؤلف.

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ

١٥ ـ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أراد بنفي العلم به: نفيه، أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء، يريد: الأصنام. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: صحاباً ﴿معروفاً﴾ حسناً بخُلُق جميل، وحلم، واحتمال، وبرّ، وصلة ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: ﴿واتّبع سبيل﴾ المؤمنين في دينك، ولا تتّبع سبيلهما فيه، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا. وقال ابنُ عطاء: صاحِبْ مَن ترى عليه أنوار خدمتي ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعك، ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما. وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصيّة لقمان من النهي عن الشرك، يعني: إنّا وصّيناه بوالديه، وأمرناه ألاّ يطيعهما في الشرك، وإن جهَدا كلّ الجَهد؛ لقبحه.

١٦ ـ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[(١)] بالرفع: مدنيّ. والضمير للقصّة. وأنّث المثقال لإضافته إلى الحبّة، كما قال[(٢)]:

... ... كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدَّم[(٣)]

وكان تامة. والباقون بالنصب. والضمير لِلْهَنَةِ من الإساءة والإحسان، أي: إن كانت مثلاً في الصغر كحبّة خردل ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فكانت مع صغرها في أخفى موضع، وأحرزه، كجوف الصخرة،

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿مثقالُ﴾.
(٢) الشاعر: الأعشى، ميمون بن قيس.
(٣) عجز بيت، وصدره: وتشرق بالقول الذي أذعته.

يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

أو: حيث كانت في العالم العلويّ، أو: السفليّ ـ والأكثر على أنها الصخرة التي عليها الأرض، وهي: السجّين تُكتب فيها أعمال الكفار، وليست من الأرض ـ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة، فيحاسب بها عاملها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بتوصّل علمه إلى كلّ خفيّ ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه. أو: ﴿لطيف﴾ باستخراجها ﴿خبير﴾ بمستقرها.

١٧ ـ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ في ذات الله إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر. أو: ﴿على ما أصابك﴾ من المحن؛ فإنها تورثُ المنح ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أوصيك به ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ممّا عزمه الله من الأمور، أي: قطعه قطع إيجاب وإلزام، أي: أمر به أمراً حتماً. وهو من تسمية المفعول بالمصدر. وأصله من معزومات الأمور، أي: من مقطوعاتها، ومفروضاتها. وهذا دليلٌ على أنّ هذه الطّاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم.

١٨ ـ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ولا تعرض عنهم تكبّراً. (تُصَاعر): أبو عمرو، ونافع، وحمزة، وعليّ. وهو بمعنى ﴿تصعّر﴾ والصَّعْر: داء يصيبُ البعير يلوي منه عنقه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تولّهم شقّ وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبّرون ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: تمرح ﴿مرحاً﴾، أو: أوقع المصدر موقع الحال، أي: مَرِحاً. أو: ﴿لا تمش﴾ لأجل المرح، والأشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متكبّر ﴿فَخُورٍ﴾ من يعدّد مناقبه تطاولاً.

١٩ ـ ﴿وَٱقْصِدْ﴾ القصد: التوسّط بين العُلوّ والتقصير ﴿فِي مَشْيِكَ﴾ أي: اعدل فيه حتّى يكون مشياً بين مشيين، لا تدبّ دبيب المتماوتين، ولا تثب وثيب الشطّار. قال عليه الصلاة والسلام: «سُرعة المشي تذهب بهاءَ

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

المؤمن»[1]. وأما قول عائشة في عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كان إذا مشى أسرع. فإنّما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك. وقيل: معناه: وانظر موضع قدميك متواضعاً ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وانقص منه، أي: اخفض صوتك ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أوحشها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لأن أوّله زفير وآخره شهيق، كصوت أهل النار. وعن الثوريّ: صياح كلّ شيء تسبيح إلاّ الحمار فإنّه يصيحُ لرؤية الشيطان؛ ولذلك سمّاه الله منكراً. وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيهٌ على أنّ رفع الصوت في غاية الكراهة. يؤيده ما رُوي أنّه عليه الصلاة والسلام كان يعجبه أن يكون الرجلُ خفيض الصوت، ويكره أن يكونَ مجهور الصوت. وإنّما وحّد صوت الحمير ولم يجمع؛ لأنّه لم يردْ أن يذكر صوت كلّ واحد من آحاد الجنس حتّى يجمع، بل المرادُ أنّ كلّ جنس من الحيوان له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

٢٠ ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، وغير ذلك ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: البحار، والأنهار، والمعادن، والدوابّ، وغير ذلك ﴿وَأَسْبَغَ﴾ وأتمّ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ مدنيّ، وأبو عمرو، وسهل، وحفص. ﴿نِعْمَةً﴾: غيرهم. والنعمة: كلّ نفع قصد به الإحسان ﴿ظَٰهِرَةً﴾ ما يُعلم بالمشاهدة ﴿وَبَاطِنَةً﴾ مالا يعلم إلاّ بدليل. ثمّ قيل: الظاهرة: البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى ـ عليه السلام ـ: إلهي! دلّني على أخفى نعمتك على عبادك. فقال: أخفى نعمتي عليهم النَّفَس. وقيل: تخفيف الشرائع، وتضعيف الذرائع، والخَلْقُ، والخُلُقُ، ونيل العطايا، وصرف البلايا، وقبول الخلق، ورضا الربّ. وقال ابن عباس

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٩٠).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١ ۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٢٢ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٢٤﴾

ـ رضي الله عنه ـ: الظاهرة: ما سوّى من خَلْقِكَ، والباطنة: ما ستر من عيوبك ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ نزلت في النضر ابن الحارث. وقد مرّ في الحجّ.

٢١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ معناه: ﴿أ﴾ يتّبعونهم ﴿ولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي: في حال دعاء الشيطان إيّاهم إلى العذاب.

٢٢ ـ ﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّيَ هنا بـ«إلى» وفي ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] باللام. فمعناه مع اللام: أنّه جعل وجهه ـ وهو ذاته ونفسه ـ سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه: مع إلى: أنّه سلم إليه نفسه، كما يسلّم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد: التوكلّ عليه، والتفويض إليه ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ فيما يعمل ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ تمسّك، وتعلّق ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾ هي ما يعلّق به الشيء ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ تأنيث الأوثق. مثّل حال المتوكّل بحال من أراد أن يتدلّ من شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، مأمونٍ انقطاعه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: هي صائرةٌ إليه، فيجازي عليها.

٢٣ ـ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يسلم وجهه لله ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾ من: حَزَنَ ﴿يُحزِنك﴾ نافع، من: أَحْزَنَ، أي: لا يهمّنك كفر مَن كفر ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ فنعاقبهم على أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّ يعلم ما في صدور عباده، فيفعل بهم على حسبه.

٢٤ ـ ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾ زماناً ﴿قَلِيلٗا﴾ بدنياهم ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ شديد. شُبِّه إلزامُهم التعذيب، وإلحاقهم إيّاه باضطرار المضطرّ

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ

إلى الشيء. والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة. والمراد: الشدّة، والثِّقَل على المعذَّب.

٢٥ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأنّ الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده، وأنّه يجبُ أن يكونَ له الحمد والشكر، وألاّ يعبد معه غيره. ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ذلك يلزمهم، وإذا نبّهوا عليه لم ينتهوا.

٢٦ ـ ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن حَمْد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحقّ للحمد وإن لم يحمدوه.

٢٧ ـ قال المشركون: إنّ هذا ـ أي: الوحي ـ كلام سينفد، فأعلم الله: أنّ كلامه لا ينفد بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ﴿والبَحْرَ﴾ أبو عمرو ويعقوب عطفاً على اسم أنّ، وهو: ﴿ما﴾. والرفع على محلّ ﴿أنّ﴾ ومعمولها، أي: ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر. أو: على الابتداء، والواو للحال، على معنى: ولو أنَّ الأشجارَ أقلامٌ في حال كون البحر ممدوداً. وقرىء ﴿يُمِدُّه﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أنّ الشجر أقلام، والبحر مداد. لكن أغنى عن ذكر المداد قوله: ﴿يمدّه﴾ لأنّه من قولك: مدّ الدواة، وأمدّها. جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً، فهي تصبّ فيه مدادها أبداً صبّاً لا ينقطع. والمعنى: ولو أنَّ أشجارَ الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكُتبتْ بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، لما نفدت كلماته، ونفدت الأقلام والمداد. كقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٩] فإن قلت: زعمت أنّ قوله: ﴿والبحر يمدّه﴾ حال في أحد وجهي الرفع، وليس فيه ضمير راجع إلى ذي

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

الحال. قلت: هو كقولك: جئت والجيش مصطفّ، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف. وإنّما ذُكِّرَ شجرة على التوحيد؛ لأنّه أريد تفصيل الشجر، وتقصّيها شجرة شجرة، حتّى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة؛ إلاّ قد بريت أقلاماً. وأوثر الكلمات، وهي جمع قلّة على الكلم، وهي جمع كثرة؛ لأنّ معناه: أنّ كلماته لا تفي بكِتبتها البحار، فكيف بِكَلِمِهِ؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرجُ من علمه وحكمته شيء، فلا تنفد كلماته، وحكمه.

٢٨ ـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلاّ كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة، فحذف للعلم به، أي: سواء في قدرته القليل والكثير، فلا يشغله شأنٌ عن شأن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول المشركين: إنّه لا بعث ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالهم، فيجازيهم.

٢٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار إذا أقبل الليل ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمنافع العباد ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلّ واحد من الشمس والقمر ﴿يَجْرِىٓ﴾ في فلكه، ويقطعه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة، أو: إلى وقت معلوم: الشمس إلى آخر السنة، والقمر إلى آخر الشهر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء: عيّاش.

دلّ أيضاً ـ بتعاقب الليل والنهار، وزيادتهما ونقصانهما، وجري النيّرين في فلكيهما على تقدير وحساب، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق ـ على عظم قدرته وكمال حكمته.

٣٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء: عراقيّ غير أبي بكر، ﴿مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الوصف الذي وصف به ـ من

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾

عجائب قدرته وحكمته؛ التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله ـ إنما هو بسبب أنّه هو الحقّ الثابت إلٰهيته، وأنّ من دونه باطل الإلهيّة، وأنَّ الله ﴿هو العليّ﴾ الشأن ﴿الكبير﴾ السلطان.

٣١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ وقرىء ﴿الفُلُك﴾. وكلّ فُعْل يجوز فيه: فُعُل، كما يجوز في كلّ فُعُلٍ فُعْلٌ ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه، ورحمته. أو: بالريح؛ لأنّ الريحَ من نِعَم الله ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه. وهما صفتا المؤمن. فالإيمان نصفان: نصفٌ شكر، ونصفٌ صبر. فكأنه قال: ﴿إنّ في ذلك لآيات لكلّ﴾ مؤمن.

٣٢ ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: الكفار ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ الموج يرتفع فيعود مثل الظلل. والظلّة: كلّ ما أظلّك من جبل، أو: سحاب، أو: غيرهما ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: باقٍ على الإيمان والإخلاص، الذي كان منه، ولم يعد إلى الكفر أو: متوسط في الكفر والظلم، انزجر بعض الانزجار، ولا يغلو في كفره. أو: ﴿مقتصد﴾ في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني: أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قطّ. والمقصد قليل نادر ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بحقيقتها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّار. والختر: أقبح الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ لربّه.

٣٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يقضي عنه شيئاً. والمعنى: ﴿لا يجزي﴾ فيه، فحذف ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؛ لأنّ الجملة الاسميّةَ آكد من الجملة الفعليّة. وقد انضمّ إلى ذلك قوله: ﴿هو﴾، وقوله:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

﴿مولود﴾. والسبب في ذلك: أنّ الخطاب للمؤمنين، وعِلْيَتُهم[1]: قبض آباؤهم على الكفر، فأريد حَسْم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة. ومعنى التأكيد في لفظ المولود: أنّ الواحدَ منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته، فضلاً أن يشفع لأجداده، إذ الولدُ يقعُ على الولد وولد الولد، بخلاف المولود فإنّه لمن ولد منك، كذا في «الكشّاف» ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث، والحساب، والجزاء ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها؛ فإن نعمتها دانية، ولذّاتها فانية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان، أو: الدنيا، أو: الأمل.

٣٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقت قيامها ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد: شامي، ومدنيّ، وعاصم. وهو عطفٌ على ما يقتضيه الظرفُ من الفعل، تقديره: إنّ الله يثبت عنده علم الساعة وينزّل ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ في إبانه، من غير تقديم ولا تأخير ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى، وتامّ أم ناقص؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ برّة، أو: فاجرة ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير، أو شرّ. وربّما كانت عازمة على خير فعملت شرّاً، وعازمة على شرّ فعملت خيراً ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: أين تموت. وربّما أقامت بأرض وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحها، فترمي بها مرامي القدر حتّى تموت في مكانٍ لم يخطر ببالها. رُوي أنّ ملك الموت مرّ على سليمان ـ عليهما السلام ـ فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال: ملك الموت. قال: كأنه يريدني! وسأل سليمان ـ عليه السلام ـ أن يحملَه على الريح، ويلقيه ببلاد الهند، ففعل. ثمّ قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه لأنّي أُمِرْتُ أن أقبضَ روحه بالهند وهو عندك! وجعل العلم لله، والدراية للعبيد، لما في الدراية من معنى الختل والحيلة. والمعنى: أنّها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختصّ بها.

(١) «عليتهم»: أي: أشرافهم وعظماؤهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝٣٤﴾

ولا شيء أخصّ بالإنسان من كسبه وعاقبته. فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان ما عداهما أبعد. وأمّا المنجّم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنّه يقول بالقياس والنظر في الطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً. على أنّه مجرّد الظنّ والظنّ غير العلم. وعن النبي ﷺ: «مفاتح الغيب خمس»[1] وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من ادّعى علم هذه الخمسة فقد كذب.

ورأى المنصور في منامه صورة ملك، وسأله عن مدّة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبّرها المعبّرون بخمس سنوات، وبخمسة أشهر، وبخمسة أيام. فقال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: هو إشارة إلى هذه الآية، فإنّ هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلاّ الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالغيوب ﴿خَبِيرٌ﴾ بما كان وبما ويكون. وعن الزهريّ ـ رحمه الله ـ: أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب.

* * *

(١) رواه أحمد (٢ / ٢٤ و٥٢ و٥٨) والبخاري (٤٦٩٧).

فهرس الآيات

(١٣) سورة الرعد

(١٧) سورة الإسراء

(١٨) سورة الكهف

(١٩) سورة مريم

(٢٤) سورة النور

(٢٥) سورة الفرقان

(٢٦) سورة الشعراء

(٢٧) سورة النمل

(٢٨) سورة القصص

(٢٩) سورة العنكبوت